الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

تأليف

أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني (٥٤٢)

القسم الرابع ـ المجلد الأول

تحقيق

الدكتور إحسان عباس

دار الثقافة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان

الطبعة الاولى
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

٤



مقدمة المحقق

جعل ابن بسام هذا القسم الرابع من الذخيرة – وهو آخر الأقسام – في جزئين واضحين دون أن يصرح بذلك ، يتناول الجزء الأول منهما الشعراء الطارئين على الأندلس من المشرق والقيروان وصقلية ، ويشمل الثاني ثلاثة عشر شاعراً من شعراء المشرق والقيروان ، تخيرهم تحكماً ، وقد أحسّ هو بذلك عندما ترجم لابن قاضي ميلة من شعراء « الأنموذج » دون رفاقه ممن ضمهم ذلك الكتاب فقال : « ولعلّ بعض من يتصفح كتابي هذا يقول إن شعراء الأنموذج مائة شاعر وشاعرة وأكثرهم كان في المائة الخامسة من الهجرة... أفلا ذكرهم عن آخرهم ؟ وماله اقتصر على بعضهم دون سائرهم ؟ » وعاد يعتذر عن ذلك بما قاله في المقدمة وهو أنه احتذى فعل أبي منصور الثعالبي ، في اليتيمة ، مع أن من يدقق في الأمر يجد أن أبا منصور لم يفعل كما فعل ابن بسام ، وإنما وجد بين يديه قطعة من شعر الأندلسيين فأدرجها في كتابه ، وهو لا يدرك تفاوت الزمن بين أصحابها .

ولقد راعيت في نشر هذا القسم تلك التجزئة الطبيعية ، ففي هذا الجزء تراجم الطارئين وفي الجزء التالي ترد تراجم المشارقة المقيمين ، رغم أن الجزءين قد يجمعان لصغر حجمهما في مجلد واحد ؛ ولما كانا متباعدين في المادة وجدت من المفيد صنع فهارس مستقلة لكل منهما على خلاف ما صنعته في الأقسام الثلاثة السابقة .

وقد اعترضني في تحقيق القسم الرابع هذا صعوبة لم أجد لها حلاً ، أوقفتني بين المضي في العمل أو التوقف عنه ، وذلك أني لم أجد منه سوى مخطوطة

واحدة هي نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم ١٣٥٠ ؛ ومادة هذا القسم فيها تقع بين الصفحة ٣٠ والصفحة ١٩٤ ؛ وفضلاً عن ما يمثله انفرادها من صعوبة في العمل فانها ليست حسنة الضبط أبداً ، كما أن الترقيم فيها رغم تسلسله وعدم انقطاعه غير صحيح لأنه قد سقط منها ورقة ضاع بسقوطها آخر ترجمة جلال الدولة وأول ترجمة ابن أبي الشخباء ، أقول « ورقة » ، وهذا من حسن الظن ، فربما كان ما سقط يزيد على هذا المقدار . وقد اخترت المضي في التحقيق ، رغبة في أن أجد الذخيرة قد اكتملت وأن أبلغ بما عزمت عليه آخر الشوط ، بعد اليأس من العثور على مخطوطات أخرى من هذا القسم.

وفي سنة ١٩٤٥ قامت لجنة مؤلفة من الأساتذة عبد العزيز محمد الأهواني وعبد القادر القط ومحمد عبده عزام تحت إشراف الدكتور عبد الوهاب عزام بنشر جانب من هذا القسم شمل حتى نهاية ترجمة عبد الكريم ابن فضال القيرواني المعروف بالحلواني (أي حتى ص ٣٠٠ من هذه الطبعة) اعتماداً على هذه النسخة الوحيدة التي لم أجد لدي أيضاً سواها ؛ وفي مقدمة تلك الطبعة إشارة إلى كثرة التحريف والتصحيف في هذه النسخة ، ولكن الجهد الذي بذله المحققون الفضلاء قد أعانني كثيراً في عملي هذا ، وإن كنت قد خالفتهم في بعض القراءات ، واهتديت إلى حل بعض المشكلات على ضوء مصادر لم تكن متيسرة لديهم حينئذ .

ولست أشك في أن هذا العمل لا يحظى لدي بالرضى الكامل ، وعسى أن تسعفنا الأيام بالعثور على نسخ أخرى تعين على مزيد من الضبط والتدقيق ، والله الموفق .

بيروت في أول يونيه (حزيران) ١٩٧٨ — **احسان عباس**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

ذِكرُ الكُتّاب الوزراء ، والأعيان الأدباء والشعراء ، الوافدين على جزيرة الأندلس ، والطارئين عليها ، من أول المائة الخامسة من الهجرة إلى وقتنا هذا الذي هو سنة اثنتين وخمسمائة ، واجتلابُ ما بلغني من نوادر أخبارهم ، وشواردِ أشعارهم ، مع ما يتعلّقُ بها ، ويُذكَر بسببها

قال عليّ بن بسّام : قد استوفيتُ في ثلاثةِ الأقسامِ ، جُملةً مما انتهى إليّ من محاسنِ النثر والنظام ، لمن نشأ بالجزيرةِ من الأعيانِ الأعلام ، من أوّلِ تاريخِ هذا المجموعِ إلى وقتنا . ولنُعقِبْ ذلك بحوْلِ الله وتأييده بذكرِ مَنْ هاجرَ إليها مِنْ تلك الآفاق ، وطرأ عليها مِنْ شُعراءِ الشامِ والعِراق ، ممّن تَبَحْبَحَ ذَراها ، وتَسَرْبَلَ نُعماها ، ونَجم في أفلاكِها ، وخيّم في ظِلالِ أملاكِها . ولمْ آتِ بهذه الفِرْقةِ مِنْ أربابِ هذا الفنّ الذي أنا في إقامةِ أَوَدِه ، مُتعزّزاً من ذِلّة ، ولا مُستكثِراً من قِلّة ، ولا لأنّي لم أجِدْ من أعيانِ وُزرائنا وكُتّابنا مَن هُوَ أبعدُ غاية ، ولا أبْهَرُ آية ، ولكنّهم أسندُوا إلى أعلامها ، وتردّدوا بَيْنَ جَميمِها وجِمامِها ، فصاروا مِنْ أهلِها بالوِفادةِ عليها ، وخَلْعِ أوطانِهم

إليها ؛ معَ أنَّ هذه الطّائفةَ لمْ يَسْمُ إلاّ بالأندلس ذكرهم ، ولا طارَ إلاّ بمدحِ مُلوكنا شعرُهم ؛ وكم في شعرائنا ممّن عاصَرني ولم أسمَعْ بذكرِه ، ولا وقَع إليَّ شيء من شِعْره ، ولعلّه كان أخلقَ بأن يُذكر ، وأحقَّ بأن تُتلى آياتُه وتُسطر ، لكنْ يبلُغُ المرءُ جهدَه ، والإحاطةُ لله وحدَه .

وقد أثبتّ أيضاً آخرَ هذا القسم طرَفاً من كلامِ أهلِ المشرِق ، وإن كانوا لم يَطْرأوا على هذا الأفُق ، حَذْوَ أبي منصورِ الثّعالبي ؛ فإنّه ذكرَ في يتيمتِه نفراً من أهْلِ الأندلُس فعارضتهُ أو ناقضتهُ ، والأدبُ مَيْدان يليقُ به المِتاح ، ويُستَحْسَنُ فيه الجِماح .

•

فصلٌ في ذكر الأديب اللغوي أبي العلاء صاعد بن الحسن البغدادي[1] ، وإثبات جملة من نظمه ونثره ، مع ما يتعلّق من الأخبار السلطانية بذكره

هو صاعدُ بنُ الحسنِ بن عيسى ، البغداديّ تُربةً ، والطبريّ أصلاً ، والرَّبعيّ نسباً ، ينتمي في ربيعةِ الفَرَس ، وكان[2] طلَعَ علَى آفاقِ الجزيرةِ في أيّامِ المنصورِ محمد بنِ أبي عامرٍ نجماً من المشرقِ غرَّب ، و لساناً عن

[1] ترجمة صاعد في جذوة المقتبس : ٢٣٣ (بغية الملتمس رقم : ٨٥٢٣) والصلة : ٢٣٢ وانباه الرواة ٢ : ٨٥ ومعجم الأدباء ١١ : ٢٨١ والمعجب : ٧٥ والوفيات ٢ : ٤٨٨ وشذرات الذهب ٣ : ٢٠٦ ونفح الطيب ٣ : ٧٧ (وصفحات أخرى متفرقة) وروضات الجنات : ٣٢٣ وبغية الوعاة : ٢٦٧ وللمستشرق بلاشير بحث عنه في مجلة Hesperis العدد العاشر ١٩٣٠ ص : ٢٨ .

[2] نقل المقري بعض هذا في النفح ٣ : ٩٥ .

العبَرَبِ أغْرَب . أبدَهُ مَنْ رأى وسَمِع . وأذكى مَنْ طارَ ووَقَع .
فأراد المنصورُ أن يُعفّي به آثارَ أبي عليّ البغدادي الوافدِ على بني أميّة قبلَه . وهزَّه لذلك فألفى سيفَه كَهَاما . وسحابه جَهاما ؛ مِنْ رجُلٍ يتكلّمُ بملءِ فيه ، ولا يُوثَق على ما يَذْرُه وما يأتيه .

وقد أجرى ابنُ حيّان ذِكْرَه فقال : ولمّا دخَل قُرطبةَ دَفَعوه بالجُملةِ عن العلمِ باللّغة . وأبْعدوه عن الثقةِ في عِلْمه وعقلِه ودينِه . ولذلك ما رَضِيَه أحدٌ مِنْ أهلها أيّام دُخولِه إليها ، ولا رأوْه أهلاً للأخذِ عنهُ ولا للاقتداءِ به . وغرّقوا كتابَه المترجَمَ بـ « **الفصوص** »[1] . فها هو إلى اليوم في نَهْرِهم يَغوص .

وقد أتيتُ أنا بلُمَعٍ مِنْ أعاجيبه ، وأوْردتُ غرائبَ من أكاذيبه . وتَخلّلَتْ أثناءَ ذلك جُملةٌ من نظمِه ونَثْرِه . ممّا يشهدُ على ثُبوت قدَمِه وشُهرةِ تقدّمه .

---

١ كتاب الفصوص فيما ذكره ابن حيان يحتوي على آداب وأشعار وأخبار (وبالقرويين نسخة جيدة منه) . وقد قرأه ابن حيان على مؤلفه في داره سنة ٣٩٩ (بدأ صاعد بتأليفه سنة ٣٨٥ في ربيع الأول واكمله في شهر رمضان من العام نفسه) وعن ابن حيان اتصلت روايته بابن خير (فهرسة ابن خير : ٣١٦) .

فصول من نثره في أوصاف شتى

اتّصل أوّلَ دُخوله الأندلسَ بالوزيرِ عبد الله بنِ مَسْلمة . فلمّا نُكِبَ استعطف له الوزيرَ أبا جعفر بن الدّبّ ليشفعَ له عند الخليفة سُليمانَ وخاطَبَهُ في ذلك بعدّة رَسائل . فكانت رُقًى لم تنفعَ ، ووسائلَ لم تَنجعَ [٣١] .

مِنها فصلٌ يقولُ فيه : لمّا جمعَ اللهُ طوائفَ الفضلِ عليك . وأذْلَقَ بكَ الألْسُن ، وأرهَفَ فيكَ الخواطِر . ورفرَفَ عليكَ طَيْرُ الآمال ، ونُفِضتْ إليكَ علائقُ الرّحال ، لم أجِدْ لابنِ مَسْلمة حينَ عضّهُ الثقاف ، وضاقَ به الخِناق ، وانقطع به الرّجاء . وكبا به الدّهر . ملجأً غيْرَك . فعطْفَكَ على والهِ نبّهه النحسُ مِنْ سِنة السّعد ، وأيقظَتْه الآفاتُ من رقْدةِ الغَفْلة ، ورَشَقَتْه سِهامُ الزّمانِ بصُنوفِ الامتهان ، حتى لَقّبَ المنيّة أمْنيّة . وسمّى الموتَ فَوتا . ومَنْ لم يكتُبْ له الدّهرُ سِجِلا ، ولا عقَدَ له أماناً ، ولا أشهدَ على نفسِه ثِقَةً ، فليكنْ مِنْه على حَذر . ومِنْ نَبْوته على يقينِ الخَبَر . وليعلَمْ أنَّ اصطناعَ المعروفِ يكافِيءُ المرءَ في سَمْعه وبَصَره . ويلقاه في طريقِه . ويَحولُ بينَه وبين مُحاربِه ، ويُجازيه في أهلِه وولدِه . ويصحَبُه في اغترابِه عن بلَده .

وفي فَصْلٍ مِنْها : فحنانَكَ عليهِ وعليَّ فيه ، واذكُرْ تعلّقَ الآمال به وتعلّق أمَلِه بِك . وحاجَةَ الرّؤساء إليْه وحاجَتَه إليك . وحشدتُ لك القَوْل ، واللهُ تعالى خلقَ الدّنيا بحَرْفين ، وإنَّ الكلمةَ لتَرقأُ الدمَ ، والرّقية لتُخرِجُ الحيّةَ مِنْ مَكمَنِها ، فإن خِبْتُ من طِلابِك نَثْراً قلتُ نظاماً :

يا أحمدَ بنَ سعيدِ العلَمَ الذي	أوْفَى فلِلحدَثان عَنْه زَليلُ
أخذَ العِقابُ من ابن مَسْلمة الذي	حكَمَ القضاءُ بِه وغالَتْ غُول
لم تَبقَ غيرُ حُشاشة إن أدْرِكتْ	خلَصتْ وإنْ أسْلمتَ فهْو قتيل
بيدَيْك بعدَ الله فَكُّ إساره	وعليكَ في استنقاذه التعويل
فارحَم أنين أبي بنات لم يُصبْ	لِدُموعهنَّ على الخُدُودِ مثيل
أسف الفراخ على كفيلٍ كاسبٍ	أوْدَى فليس لَهُنَّ بَعْدُ كفيل
فاجْعَلْهُ في يُمنى يدَيْكَ فإنّها	سُورٌ تَحُوطُ المُستَجيرَ وغيل
ما ذَنْبُهُ إلاّ الزّمانُ فإنّهُ	رِخْوُ اليدَيْن بمَنْ يُحِبّ مَلُول
كالمرأة الوَرْهاءِ تَنقُضُ غزْلها	والشاةِ تَمْلأُ قَعْبَهَا وتُميل

ولهُ من أخرى إلى مُجاهدٍ يَصِفُ ظهورَه على خَيْرانَ وأسْرَهُ لجماعةٍ من الصقلَب[1] :

كتابي وأنا مُستطارٌ فرَحاً ، ومستوفِزٌ مرَحاً ، بالغادي والرّائح عليَّ منَ البَشائر التي تُسْمِع الصّم . وتُنْطِقُ البُكْم . بعَدوٍّ نَجَا بعد ما ظنَّ أنْ ليس ناجياً ، وخُنْزواني[2] أقبل في صِفادِه عانياً . صُنعاً من اللهِ أسأله ضارعاً أنْ يجعله عِنْدك راسياً ، وعليك مُخيّما ، فإنَّ الّذي آوي إليه من تَطَوّلك يُبدي ولوعاً ويغري بالنّزاع إليك ، والنّزوعِ نحوك . [وم]ما

١ كان مجاهد صاحب دانية والجزائر وخيران صاحب المرية (بعيد الفتنة حتى سنة ٤١٩) وقد كانت تدور بين هذين الفتيين العامريين حروب أعرض عن ذكرها صاحب البيان المغرب (٣ : ١٦٦) وانظر أعمال الاعلام : ٢١٢ .

٢ الخنزواني : الصلف المتكبر .

أنشدَنيه باليَمنِ آبو الغزور[1] الأعرابيّ لنفسِه وقد حجّ ابنُه فقال يذكُر شوقَه إليه :

ألا ليت لي عينان[2] تطّلعانِ على النأي أحياناً وتَنْصرفانِ
فإنْ كان خيراً سرّني وعرفتُه وإن كان شرّاً ظلّتا تكفِانِ

ولما أتتْني إحدى خرائطِك الجزيلة ، وتبادَرت التباشير باحتلالِ المركب ، كاد الفَرَحُ يقضي عليّ ، وينزِعُ التّماسُكَ من يَديّ . ولولا أنّي ثَبْتُ النّحيرة[3] ، ومُحْصَدُ المَريرَة ، لكنتُ كأمّ أبي مُزبَد[4] إذ بَعَثَ إليه يحيى بن خالدٍ غُلاماً ، فقال لها : يا أمّه ! وهبَ لي يحيى «غ» قالت : وما «غُ» ؟ قالَ : لا قالت : وما «لا» ؟ قالَ : [«مْ»] وطبّقَ الميمَ على شفتيْه ، فضَرَطت ، فقال : الحمدُ لله ، لولا تقطيعُ الحروفِ لخريتِ . فحضَرني إذاً عندَ وُرودِ المال ما كتبتُ به :

أتتكَ الخريطةُ والمركب كما اقترن السّعْد والكوكبُ
فقالوا مَن الواهبُ المستقِلَ عقائلَ يَعيا بها الحُسّب
فقلتُ فتىً أصْفَريّ[5] النّجارِ يَروعُ به المشْرِقَ المغرب

---

[1] كذا هو بالغين المعجمة في الأصل ، والأرجح أنه « الحزور » أو « العزور » — بالعين المهملة — فهاتان الصورتان تردان في الأعلام .

[2] هذه هي لغة من يقول : « يا ليت عيناها لنا وفاها » .

[3] نحيرة الرجل (بالراء المهملة) : طبيعته .

[4] المشهور مزبد المدني أبو اسحاق صاحب النوادر الحارة (انظر الفوات ٤ : ١٣١ وله نوادر كثيرة في كتب الأدب كالبيان والحيوان والبصائر ومحاضرات الراغب) .

[5] أصفري : من بني الأصفر ، وهم الروم بوجه عام .

يُحكّكُ أسيافَه بالرَّدى كما حُكَّ بالهانىء[1] الأجرَب
فلَولا شجاعتُه ما نجا ولكنّه حُوَّلٌ قلَّب
بَصيرٌ بتوسيعِ سُبْلِ الفِرارِ إذا ضاقَ بالمُرهَقِ المَهرَب

ومنها :

هَناك أبا الجيش مَنْ جيشُه أسارَى كأنّهمُ الرَّبْرَبُ
يَرِق[2] عليها السّنانُ الحقودُ ويرحمُها الصَّارمُ المُغْضَب
وهُمْ يَخضِبون صُدُورَ القنَا وأنْمُلُهم بَضَّةٌ تُخضَب
ولمْ أرَ مِنْ قَبْلِهِمْ فارساً يَليقُ به الحَلْيُ والمُذْهَب
فإن شِئتَ أن يَركبوا يركبوا وإن شئت أنْ يُركبوا يُركبوا

ينظر هذا بناظرٍ مُريب ، إلى قولِ حبيب[3] :

قد جاءنا الرَّشأ الذي أهديتَه خِرْقاً ولو شِئنا لقُلْنا المَركَبُ

ومن أناشيد الثّعالبي في معناه[4] : [٣٢]

ونساءٌ لمطمئنّ مُقيمٍ ورِجالٌ إنْ كانتِ الأسفارُ

وقوله « يرقّ عليها السّنان » . . . البيت ، كقول بعضِ أهل العَصر :

لعلّك يوماً ذاكري في مُلمّةٍ يلين بها قلبُ الأسيرِ على القِدّ

١ الهانىء : الذي يطلي الجمال بالقطران .
٢ ص : يروق .
٣ ديوان أبي تمام ١ : ١٤٢ .
٤ التمثيل والمحاضرة : ٢٢٤ .

وأراهُ قلبَ قول أبي الطيّب[1] :

وغيظ على الأيّام كالنّارِ في الحشا ولكنّه غيظُ الأسير على القِدِّ

وأرى أبا الطيّب ألمَّ بعضَ الإلمام ، بقول أبي تمام[2] :

يَلحَظُهُ في جِدّهِ وهزلِهِ لحظَ الأسيرِ حلقاتِ كَبْلِهِ

جملة أخبار نوادر ، جرت له مع المنصور بن أبي عامر

اجتمعَ[3] عِنْدَ المنصورِ ابن أبي عامرٍ أعيانُ الأوان كالزّبيديّ والعاصمي وابنِ العَريفِ[4] ومَنْ سِواهم . فقال لهم المنصورُ : هذا الرَّجلُ الوافِد علينا صاعد يزعُمُ أنّه متقدّم في هذه الآداب التي أنتم سُرُجها الضّاحية ، وأهِلّتُها السّارية . وأحِبّ أن يُمتَحَن ما عِنْده . فوجّه إليه . ودخل والمجلسُ قد احتفَلَ فخجل، فرفعَ المنصورُ مجلِسَهُ وآنَسه . وسأله عن أبي سعيدٍ السّيرافي ، فزعمَ أنّه لقيَه وقرأ عليه كتابَ سيبويه . فبادَرَه العاصميّ بالسّؤالِ عَنْ مسألةٍ من الكتاب ، فلم يحضُرْه فيها من جواب ،

---

١ ديوان المتنبي : ٥٤٧ .

٢ ديوان أبي تمام ٤ : ٥٣٢ .

٣ النفح ٣ : ٧٧ وفيه بعض إيجاز .

٤ أبو بكر الزبيدي اللغوي المشهور صاحب طبقات النحويين ولحن العامة والاستدراك على العين وغيرها ؛ والعاصمي هو محمد بن عاصم النحوي القرطبي (الجذوة : ٧٤ والصلة : ٤٥٣) وابن العريف هو أبو القاسم الحسين بن الوليد (الجذوة : ١٨٢) .

واعتذرَ أنَّ النحوَ ليس جُلَّ بضاعته . ولا رأسَ صناعته . فقال له الزّبيدي : فما تُحسِنُ أيّها الشّيخ ؟ قال : حِفْظَ الغريب . قال : فما وَزن أوْلَق ؟ فضحِك صاعد وقال : أمِثلي يُسألُ عَنْ هذا ؟ إنّما يُسألُ عنه صِبيان المكتب . قال الزّبيدي : فقد سألناكَ ، ولا نَشُكَّ أنّك تجهَلُه . فتغيّر لونُه وقال : « أفْعَل » . قال الزّبيدي : صاحِبكم مُمخرِق ! قال له صاعد : إخالُ الشّيخ صِناعتُه الأبنية ؟ قال له : أجَل . قال صاعد : وبضاعتي أنا حِفْظُ الأشعار . وروايةُ الأخبار ، وفَكّ المُعمّى . وعلمُ الموْسيقى . قال فناظَرَهُ ابنُ العرَيف فظهَرَ عليه صاعد ، وجعل لا يَجري في المجلِسِ كلمةٌ إلاّ أنشَدَ عليها شعراً شاهداً ، أو أتى بحكايةٍ تُجانِسها ، فازداد المنصورُ عَجباً . ثم أراه كتابَ **النوادر** لأبي عليّ فقالَ : إذا أراد المنصورُ أمْليتُ على مُقيّدي خِدْمتِه وكُتّابِ دَوْلته كتاباً أرفعَ منه قَدْرا . وأجل خطرا ، [لا] أدخِلُ فيه خبراً ممّا أدخلَهُ أبو عليّ . فأذِن لهُ المنصور في ذلك ، وجلَسَ بجامع مدينة الزّاهرةِ يُملي كتابَه المترجَمَ بـ « **الفصوص** » . فلمّا أكمله وتتبّعه أدباء الوَقت ، لم تمرّ فيه كلمةٌ زَعموا صِحّتَها عندهم . ولا خبَرٌ ثبتَ لَدَيْهم . فقالوا للمنصور : رجلٌ [مقتدر] على تأليف الكذب ، [. . .] من عيون الأدب ، يُسندها إلى شُيوخٍ لم يرهُم ولا أخذ عنهم . حتّى إنّهم كلّفوا المنصور أن يأمُرَ بتسفير[1] كاغدٍ أبيضَ وتغيير بهجتِه ليدُلَّ على القِدَم . ففعل وترجمَ على ظهرِ ذلكَ السِّفر بكتابِ « **النكت**[2] » تأليف أبي الغَوثِ الصّنعاني . فترامى إليه صاعِدٌ حين رآه ، وجعل يُقلّبُه ، وقال : إني واللهِ قرأتُه بالبلدِ الفُلانيّ

[1] التسفير – عند الاندلسيين والمغاربة – تجليد الكتب .

[2] ص : النكث ؛ وأثبت ما في النفح .

على الشّيخ أبي فُلان ، وهذا خطّه . فأخذهُ المنصورُ مِنْ يدِه خوفاً أن يَفتحَه . وقال له : إنْ كنتَ رأيتَه كما تزعمُ فعلامَ يحتوي ؟ قال : ورأسِكَ[1] لقد بَعُدَ عَهْدي به ولا أنُصّ منه شيئاً ، ولكنّه يحتوي على لُغة منثورةٍ لا يشوبُها شعرٌ ولا خبَر . فقال له المنصور : أبْعَدَ اللهُ مِثلَكَ ! فما رأيتُ الذي هو أكذبُ منك . وأمَرَ بإخراجه وأن يُقذَف بكتابِ « الفصوص » في النّهر ، وفي ذلك يقولُ بعضُ شعراء العَصر[2] :

قد غاص في البحرِ كتابُ الفصوصْ وهكذا كلّ ثقيلٍ يَغوصْ

فجاوبه صاعِدٌ بقوله :

عادَ إلى معدِنه إنّما تُوجَد في[3] قَعرِ البحارِ الفُصوص

قال ابن بسّام : وما أحسَبُ أنّ أحداً يجترىءُ على إخراج تَصنيف ، وإبداء تأليف ، يضيقُ عنه التّعديل ، ويَدْفع في صدرِه النّقدُ والتّحصيل ، لا سيّما وصاعدٌ علمَ أنّ قُرطبةَ – حَسْبَ ما ذكَرْنا – ميدانُ جياد ، وبلدُ جِدالٍ وجِلاد ؛ ولكنّه اشترطَ غيرَ المشْهور ، فلمْ يظفَروا مِنه بكثير ، وأعانهُم هو على نفسِه بما كان ينفّقُ بهِ مِنْ تنحّلِه وكَذِبه . ولم يكنْ عندَ ابنِ أبي عامِر تحرير ولا بصَرٌ بالنّقدِ مَشْهور ؛ وإلاّ فليسَ يخلو كتابُ « الفصوص » المذكور من غريبةٍ مسموعة ، ولا مِنْ فائدةٍ رائقةٍ بديعة ، ولكنّه خبَرٌ وجَدناه فنَقلناه .

---

١ النفح : وأبيك .

٢ انظر أيضاً ابن خلكان ٢ : ٤٨٩ والمسلك السهل : ٢٥٣

٣ ابن خلكان : عنصره إنما يخرج من .

وأُدخِلَ [1] على المنصورِ يوماً وَرْدَةٌ في غيرِ أيّامِها ، لم تستَتِمَّ فتحَ كِمامِها . فقال فيها صاعدٌ على الارتجال :

أتَتْكَ أبا عامرٍ وردَةٌ يُذكِّرُكَ المِسكُ أنفاسَها
كعَذْراءَ أبصَرَها مُبصِرٌ فغطّتْ بأكمامِها راسَها

فسُرَّ بذلك المنصور ، وكان ابنُ العَريفِ حاضِراً ، فحسَدَهُ وجرى إلى مُناقَضَتِه . وقال لابن أبي عامر : إنَّ هذَينِ البَيتَينِ لغَيرِه ، [٣٣] وقد أنشَدَنيهما بعضُ البَغداديّينَ بمصرَ لنفسِه ، وهُما عندي على ظَهرِ كتابٍ بخطّه . فقال لهُ المنصور : أرِنيه . فخرَجَ ابنُ العَريفِ ورَكِبَ وجعل يَحُثّ حتى أتى مَجلِسَ ابنِ بدْر ، وكان أحْسَنَ أهلِ وَقتِه بديهَةً ، فوصفَ له ما جرَى فقال :

عشوْتُ إلى قصرِ عبّاسَةٍ وقد جدّلَ النوْمُ حُرّاسَها
فألفَيتُها وهيَ في خِدْرِها وقد صرعَ السُّكرُ أناسَها
فقالت : أسارٍ على هَجْعَةٍ ؟ فقلتُ : بلَى ، فرمَتْ كاسَها
ومدّت يديْها إلى وَرْدَةٍ يُحاكي لكَ الطّيبُ أنفاسَها
كعَذْراءَ أبصرها مُبْصِرٌ فغطّتْ بأكمامِها راسَها
وقالت : خفِ اللهَ لا تَفضَحَنْ في ابنَةِ عمّكَ عبّاسَها
فولّيْتُ عنها على عِفّةٍ وما خُنْتُ ناسي ولا ناسَها

فطارَ ابن العريفِ بها ، وعلّقَها على ظَهرِ كتابٍ بخطٍ مِصْريٍ [2] ،

---

١ الخبر في جذوة المقتبس : ١٨٢ – ١٨٣ ونفح الطيب ٣ : ٧٩ وبدائع البدائه : ٢٩٩ والريحان والريمان ١ : ١٥٤ /أ والشريشي ١ :١١٨ – ١٢٠ .

٢ بدائع : مشرقي .

وورَّى وتحيَّلَ بمداد أشقَر . ودَخَل بها على المنصور ، فلمَّا رآها اشتدَّ غيظاً على صاعدٍ وقال : غداً أمتَحِنُهُ . فإن فضحَه الامتحان . لم يبقَ في مَوْضِع لي فيه سلطان . فلمَّا أصبَحَ وَجَّه عنهُ بمجلسٍ حَفْل. وقد أعَدَّ طبَقاً فيه سقائِفُ من ضرُوبِ النَّواوير ، وصنع[1] على السَّقائفِ جواريَ ياسَمين ، وتحتَ السقائفِ بركةُ ماء حصاها اللؤلؤ . وكان في البركَة حَيَّةٌ تسبَح . فلما دخَلَ صاعِدٌ مُثّلَ الطبَقُ بين يديه ؛ فقال لهُ المنصور : إنَّ هذا يومٌ إمّا أن تَسْعدَ فيه مَعَنا ، وإمّا بالضد عندنا ؛ لأنّه قد زعمَ قومٌ أنَّ كلَّ ما تأتي به دعوى ، وقد وقعْتُ مِن ذلك على حقيقة . وهذا طَبَقٌ ما توهَّمتُ أنّهُ مُثّلَ بينَ يدَيْ مَلِكٍ قَبْلي في شكلِهِ ، فَصِفْهُ بجميع ما فيه . فقال صاعِدٌ بديهةً :

أبا عامرٍ هَلْ غيرُ جَدواكَ واكِفُ ... وهل غيرُ من عاداك في الأرض خائفُ

يَسوقُ إليكَ الدهرُ كلَّ عَجيبةٍ ... وأعجبُ ما يلقاهُ عندَكَ واصِفُ

وشائعُ نَوْرٍ صاغَها هامِرُ الحَيَا ... عليها فمِنها عَبْقَرٌ ورَفارِفُ

ولما تَناهَى الحُسنُ فيها تَقابَلَتْ ... عليها بأنواعِ الملاهي الوصائفُ

كمثلِ الظّباءِ المُستَكِنةِ كُنّساً ... تُظَلّلها بالياسمينِ السّقائفُ

وأعجَبُ منها أنّهنَّ نَواظِرٌ ... إلى بِركَةٍ ضُمّتْ إليها الطّرائفُ

حَصاها اللآلي ، سابحٌ في عُبابِها ... من الرُّقشِ مَسمومُ اللّعابينِ زاحِفُ[2]

ترَى ما تَشاء العَينُ في جَنَباتِها ... من الوَحشِ حتى بَينهنَّ السلاحِفُ

فاستُغربت له يومئذٍ تلك البديهة ، وكتبَها المنصور بخطّه . وكان إلى

---

١ كذا في ص ، ولعلها « ووضع » كما في النفح .

٢ ص : راجف .

ناحيةِ سقيفة فيها جاريةٌ تجذفُ[1] بمجاذفَ ذهبٍ لم يرَها صاعِد .
فقال له المنصور : أجدتَ إلاّ أنّك لم تصِفْ هذه الجارية . فقال :

وأعجبُ منها غادةٌ في سفينةٍ ... مُكَلّلَةٌ تَصبو إليها المهايفُ[2]
إذا راعَها مَوْجٌ منَ الماء تَتّقي ... بسُكّانِها ما أنذَرَتْهُ العواصِفُ
متى كانَتِ الحَسناء رُبّانَ مَركبٍ ... تُصرِّفُ في يُمنى يديها[3] المجاذفُ
فلم تَرَ عيني في البلادِ حَديقَةً ... تُنَقِّلُها في الرّاحتَينِ المَناصِفُ[4]
ولا غَرْوَ أن شاقَتْ معاليكَ رَوْضَةٌ ... زَهَتْها أزاهيرُ الرُّبَى والزَّخارِفُ
فأنت امرؤٌ لو رُمتَ نقلَ مُتالِعٍ ... ورَضْوَى ذَرَتْها من سُطاك العواصِفُ
إذا قلتَ قَوْلاً أو بَدَهتَ[5] بديهَةً ... فكِلْني لها إنّي لمجدك واصِف

. فأمر له المنصورُ بألفِ دينارٍ ومائةِ ثوبٍ . ما بين غلائلَ وطيقان وعمائم ، وأجرى عليه المراتبَ من ذلك اليومِ ثلاثينَ ديناراً ، وألحقَ في ديوان النّدَماء مع زيادةِ الله بنِ مُضرَ الطبْني وابنِ العَريفِ وابن التيّاني[6] وغيرهم . والحسَدُ مَوروث ، وقديمٌ لا حديث ، وليس في الحيوان ، أخبثُ في ذاته من الإنسان .

---

١ ص : تقذف .
٢ النفح : المهاتف .
٣ بدائع : تصرف في الكفين منها .
٤ النفح : الوصائف .
٥ بدائع : طلبت .
٦ قد مر الحديث عن بني الطبني في القسم الأول من الذخيرة: ٥٣٥ وأما ابن التياني فقد يكون هو تمام بن غالب أبو غالب المرسي اللغوي (الجذوة : ١٧٢ وأعاد الحميدي ذكر ابن التياني : ٣٨٠) .

وأذكر بفعلة ابن العريف في صاعدٍ بعضَ ما مُنيتُ أنا به في خبر هذا التصنيف مع غير واحدٍ من أهلِ وقتي ، إذ سردتُ في بعضِ قَصَصه كلامَ ابنِ حيانِهِم ، وكان على ما تقدَّم وصفه متكلِّمَ أوانهم ، فلما أعْوَزَني لفظه في بعضِ ما سُقْت ، ولم أجِدْه في كلّ حديثٍ نَسَقت ، رجَعتُ إلى نَحيزتي ، واستمطرتُ غَريزتي . وماؤها جامد ، ورَمادُها هامِد ، كما قال سابق :

أخلقَتْ جِدَّتي وبانَ شَبابي واستَراحَتْ عَواذلي من عِتابي

وأنا يومئذٍ بإشبيلية ، أتصرَّفُ مُضطَرّاً في بعض الأعمال السُّلطانيّة . والكلامُ إذا لم يَحُكّهُ قلبٌ فارغٌ ، ولم يَسْبِكْهُ لُبّ من ظَلْماء الشغل بازغ [1] ، لم يَرُقْ تَطْريزُهُ ، ولم يَنفقْ إبريزُه . وعلى ذلك لما اندرَجَتْ لي فيه كلماتٌ رائقات ، في أوصافٍ مُختَلِفات ، وبلغتُ فيه أمَدَ المُراد ، بألفاظٍ أعيانٍ ومعانٍ أفراد ، انثالَ عليَّ فيها الكلام ، انثيالَ الغمام ، قالوا : نعمَ ما صنّفَ ابنُ بَسّام وأتقن ، لو لم يَستَعِنْ ، وما أحسنَ ما قَصَّصَ ، لو لم يتلَصَّص. ولله درُّهم [٣٤] فالدَّأماء لا يزيدُ من القَريّ [2] . وذُكاءُ لا تُضيء من الدُّرّيّ . بل دَرَّ دَرُّ أبي الطّيّبِ من شاعرٍ نَطَق بالبَديّ ، وجَرَى على عِتْق جدّه الكِندي ، فسبَقَ ، واستولى على الأمَد بقوله إذ صدَق [3] :

أتيتُ بمنطِقِ العَربِ الأصيلِ وكان بقَدْرِ ما أحسستُ [4] قيلي

---

١ ص : فارغ .

٢ الدأماء : البحر ، والقري مجرى الماء في الحوض .

٣ ديوان المتنبي : ٣٣٤ .

٤ الديوان : عاينت .

فعارضَه كلامٌ كان منهُ بمنزلةِ النّساء من البُعُولِ
وليس يصِحُّ في الأوهامِ شيءٌ إذا احتاجَ النّهارُ إلى دَليلِ

رجع :

وخرجَ المنصورُ مع صاعدٍ يوماً إلى رياضِ الزاهرة ، فمدَّ يدَه إلى شيء من التّرُنْجانِ فعبثَ به ورماه إليه مُعرّضاً أن يصفه فقال [1] :

لم أدرِ قبلَ تُرُنْجانٍ عبثتَ بِــه أنَّ الزُّمرّدَ قُضبانٌ [2] وأوراقُ
من طيبِهِ سَرَقَ الأترجُّ نكهتَهُ يا قومُ حتّى من الأشجارِ سُرّاقُ
كأنّما الحاجبُ المنصورُ علّمَهُ فِعلَ الجميلِ فطابتْ منه أخلاقُ
مَن ليس يُقعِدُهُ من سؤددٍ قَدَمٌ ولا تَقومُ له في سَوْأةٍ ساقُ

ولهُ في الخيريّ [3] :

بعثتُ إليكَ من خيريّ داري مُحزّمَةً كأوراقِ العَقيقِ
تُوَكّلُ بالعزُوفِ عن التّصابي وتَصطادُ الخليعَ منَ الطّريقِ

وصاعدٌ القائل [4] :

ليَ من سِرّ بني العبّـ ـاسِ خِلٌّ وجليسُ
شَهِدَ المَجدُ عليهِ أنّهُ العِلْقُ النّفيسُ
فإذا جالَستَهُ لَمْ تَدْرِ مَنْ منّا الجليسُ

---

1 النفح ٣ : ٩٥ والبيان المغرب ٣ : ١٩ والشريشي ١ : ١٢١ .
2 النفح : أغصان .
3 النفح ٣ : ٩٧ والشريشي ١ : ١٢١ .
4 الشريشي ٣ : ٤٣ .

وهذا كقول ابن زُرارة[1] :

لي صديقٌ . غلطتُ، بل ليَ مَوْلى　　مَنْ لمثلي بأنْ يكونَ صَديقي !
يَتَلَقّى التقاءَ رُوحٍ بروحٍ　　بضُروبِ التّقبيلِ والتّعنيقِ
ليسَ في الأرضِ مَنْ يُمَيّزُ منا　　عاشِقاً في اللّقاء من مَعشُوقِ

وقال[2] :

قلتُ له والرقيبُ يُعْجِلُهُ　　مُوَدّعاً للفراقِ : أين أنا ؟
فمدّ كَفّاً إلى تَرائبِهِ　　وقال سِرْ وادِعاً فأنت هُنا

وأنشد المنصورُ يوماً قصيدةَ أبي نُوّاس « أجارة بيتينا أبوكِ غيورُ » فعرَض عليه أن يُعارضه . فأبى صاعدٌ من ذلك إجلالاً لأبي نُواس . فعزَمَ عليه المنصورُ فأنشدَه مُتمَثّلاً[3] :

إنّي لمستحيٍ عُـلا　　كَ من ارتجالِ القولِ فيهِ
مَن ليسَ يُدرِكُ بالرَّويْـ　　ـةِ كَيفَ يُدرِكُ بالبديهِ

فلم ينفعه ذلك عنده . ومكثَ فيه بقيّةَ يومه وليلته . وجاءه من الغد فأنشدَهُ قصيدته التي أوّلها :

خِدالَ البُرَى[4] إنّي بكنّ بَصيرُ　　طوتكنّ عني خُلْسَةٌ وقَتيرُ

[ومنها] :

---

[1] الشريشي ٣ : ٤٣ .
[2] النفح ٣ : ٩٧ والشريشي ٤ : ٣٧٨ .
[3] المصدر السابق .
[4] ص : جذال الشرى .

وباتَتْ كما باتَتْ مَهاةُ خَميلَةٍ   لها جُؤذَرٌ عند الصَّرَاةِ عَقِيرُ
وقد أُكِلَتْ أشلاؤهُ فكأنّها[1]   مُقَسَّمَةٌ عند القِداحِ جَزُور
كما بَغَمَتْ[2] من شَجوها أمٌّ واحد   أُتيحَ لها مثلُ الزجاجِ طريـــر
لَدن غدوةٍ حتى صغت[3] شمس يومها   وفي أبهَرَيْها رَنّةٌ وزَفير
تَسوفُ ثراهُ عن مَشَقّ إهابِه   كأنّ أسابيَّ الدماء عَتِيرُ[4]

قال ابن بسام : وصاعدٌ على تتايعه[5] في الكذِب ، ولجاجته بين الامتهانِ وسوء الأدب ، قد أخذ بطرف من التّرفيق ، وخلا بجانبٍ من لَقَمِ الطريق ؛ ألا تراه كيف صَرَّحَ بالياسِ ، عن شَقّ غُبار أبي نُواس ؟ ولكنّ ابن أبي عامر حمَلَه على الغَرَر ، وعرَّضه لسوء الخبَر ، ولعله ذهب إلى قول أبي الطيّب[6] :

بلغتُ بسيفِ الدولة النّورِ رتبـــةً   أنرْتُ بها ما بين غربٍ ومشرقِ
إذا شاء أن يَلهو بلحيةِ أحمَقٍ   أراهُ غُباري ثمّ قال له : الحقِ

وذكرتُ بهذا الخبر ما وُصِفَ عن أبي عبدِ الله بن شرف ، وذلك أنه قال يوماً للمأمون بن ذي النون أيام خدمتِهِ إيّاه ، واستشفافه صُبابةَ عُمره

---

١ ص : فكأنه .
٢ ص : نعمت .
٣ صغت : مالت ؛ ص : صفت .
٤ أسابي الدماء : طرائقها ؛ والعتيرة : أول ما ينتج ، كانت تقدم قرباناً لأصنامهم .
٥ التتايع : التمادي في اللجاجة .
٦ ديوان المتنبي : ٣٢٨ .

في ذَراه . وقد أجرَوْا ذكرَ أبي الطيّب . فذهبوا في تأبينه كلَّ مذهب : إن رأى المأمون — لا فارقَ العزّةَ والعَلاء — أن يُشيرَ إلى أيِّ قصيدةٍ شاء . من شعر أبي الطيّب حتى أعارضه بقصيدةٍ تُنسي اسمه . وتُعفّي رسمَه . فتثاقلَ ابنُ ذي النون عن جوابه . علماً بضيقِ جَنابه . وإشفاقاً من فضيحته وانتشابه . وألحَّ أبو عبدِ الله حتى أحرجَ ابنَ ذي النون وأغراه ؛ فقال له : دونكَ قوله : « لعينيكِ ما يلقى الفؤادُ وما لَقي » . فخلا بها ابنُ شرف أيّاماً فوجدَ مركبَها وَعرا . ومَريرتَها شَزْرا . ولكنه أبَى عُذرا . وأرهقَ نفسه من أمرها عُسرا . فما قام ولا قعد . ولا حلَّ ولا عقَد . وسُئل ابنُ ذي النون بَعْدُ : أيُّ شيء أقصدَه إلى تلك القصيدة [٣٥]؟ فقال : لأنَّ أبا الطيّب يقول فيها : « بلغتُ بسيفِ الدولةِ النّور » وأنشد البيتين . وهذه غَريبَةٌ ولو صدَرَتْ عن أبي العباس المأمون . فضلاً عن مُنتزع لقبه يحيى بن ذي النون . وقِدْماً كبا الجَمُوح . وذهبت بالباطل الريح ؛ ولم يَنْدم مَن بَنى على أسّه . ولا هلكَ مَن عرفَ قدرَ نَفسه .

وقد حُدّثتُ أيضاً أنّ أبا علي بن رشيقٍ ناجَى نفسَهُ بمعارَضَةِ أبي الطيبِ في بعض أشعارِه . وراطَنَ شيطانهُ بالدخولِ في مِضمارِه . فأطال الفِكرَةَ . وأعمَلَ النظرَةَ بعد النَّظرة . فاختارَ من شعره ما لم يَطِرْ ذِكرُه ولا لُحظَ[١] قَدرُه . فأدّاهُ جَهدهُ . وذهبَ به نَقدُه . إلى مُعارَضَة قولِه : « أمِنَ ازديارَكِ في الدُّجى الرُّقباءُ »[٢] . فبثَّ عيونَه . واستمد مَلائكتَه وشياطينَه . ولم يدعْ ثنيّة إلاّ طلعَها . ولا خبيئةً إلاّ أطلَعها ،

---

١ ص : انحط .

٢ ديوان المتنبي : ١١٤ ، وعجز البيت : « إذ حيث أنت من الظلام ضياء » .

ولا رويّةٌ إلاّ اتّسعَ لها فوسعها ؛ ثم صنعَ قصيدةً — فيما بلغني — رأى أنّها مادةُ طبعهِ . ومُنتهى طاقةِ وُسعِهِ ؛ ثم حكّمَ نقدَه . ورضي بما عندَه ، فرأى أنْ قد قصُرت يداه ، وقصّرَ مداه ، وعلِمَ أنّ الإحسانَ كنزٌ لا يوجد بالطلب . وميدانٌ لا يَستولي عليه التعصّب . وصانَ نفسَه عن أن يُحدّثَ عنه بأن تكونَ المرّةُ أحزمَ منه .

وقد ذُكر عن صاعد . أنه افتُضحَ في سرقة شعرٍ غير واحد من أهلِ تلك الآفاق ، من شُعراءِ الشام والعراق ؛ إذ كان وردَ بها وهي بغُبارِ السفَر ، فاشتهرَ بها في غير ما شعرٍ وخَبر . منها قولُهُ يصفُ إبريقاً قد مُلِءَ منه كأسٌ وبقيَتْ في فمهِ نقطَةٌ لم تسقط [1] :

وقهوةٍ في فمِ الإبريقِ صافيةٍ كدمعِ مفجوعةٍ بالإلفِ معْبارِ
كأنّ إبريقَنا والراحُ في فَمِهِ طيرٌ تناولَ ياقوتاً بمنقارِ

فكانوا يولَعونَ بهذا التشبيه ، كما قاله — زعمَ — على البديه ، وإنما نقل لَفظ أبي البركاتِ العَلوي ممّا أنشدَه الثعالبي [2] :

كأنّما إبريقنا طائرٌ يحملُ ياقوتاً بمنقارِ

أو قولَ أبي الفرج الببّغاءِ من أرجوزةٍ خاطبَ بها الصابي [3] :

كأنّما الحبّةُ في مِنقارِها حَبابةٌ تطفو على عُقارِها

---

١ نفح الطيب ٣ : ٩٦ وبدائع البدائه : ٣٠٢ .
٢ اليتيمة ٤ : ٤٢٠ .
٣ اليتيمة ١ : ٢٧٠ .

وكان صاعدٌ مع ما قدَّمته من صفته بديعَ الجوابِ حاضرَه ، طيِّبَ المعاشَره . فكِهَ المجالَسَة . مُمتعاً مُحسناً للسؤال . حاذقاً في استخراجِ الأموال . دخلَ[1] على المنصور يومَ أنسٍ وقد تقدَّمَ واتخذَ قميصاً من رِقاعِ الخرائطِ التي وَصلَتْ إليه فيها[2] صِلاتُه ولبِسَه تحت ثيابه . فلمّا خلا المجلسُ ورأى فُرصةً لما أراد . تجرَّد وبقيَ في القميصِ المَخيطِ من الخرائطِ . فقال له : ما هذا ؟ قال : هذه رِقاعُ صِلاتِ مَولانا اتخذْتُها شِعاراً . وبكى ، وأتبعَ ذلك من الشكر بما استوفاه . فأعْجِبَ به المنصور وقال له : عندي مَزِيد .

وحُكي عنه[3] أنهُ لم يَحضُر بعد موتِ المنصورِ مجلسَ أنسٍ لأحَدٍ ممن وَليَ بعدَه ، وادَّعى وجعاً لَحِقَ ساقَه .

وكان صاعد[4] كثيراً ما يمدحُ بلادَ المشرقِ بمجلِسِ المنصورِ ، ويُباهي بأخبارِها ، ووصفِ أشربتها وأدْيارِها ، فكتبَ الوزيرُ أبو مروانَ عبدُ الملكِ ابنُ شُهيدٍ[5] إلى المنصورِ في يوم قُرّ بهذهِ الأبيات :

أما ترى بردَ يومِنا هذا ... صيَّرنا للكُمون أفذاذا
قد فُطرتْصحةُ الكبودِ بهِ ... حتى لكادت تعودُ أفلاذا

---

١ القصة في انباه الرواة ٢ : ٨٦ بإيجاز .
٢ ص : فيه .
٣ انباه الرواة ٢ : ٨٧ .
٤ نفح الطيب ٣ : ٢٦٠ وبدائع البدائه : ٣٥٤ .
٥ هو الوزير عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك ابن شهيد والد الشاعر أبي عامر وأحد شيوخ الوزراء في الدولة العامرية (الجذوة : ٢٦١) .

فادعُ بنا للشمولِ مُصطلياً نُغـذّ سيراً إليك إغذاذا

وادعُ المسمّى بها[1] وصاحبَه تَدعُ نَبيلاً وتَدعُ أستاذا

لو مَعبداً أو غريضَه لحقا لكان عن ذا وذاك أخّاذا

ولا تُبالِ أبا العلاءِ زها بخمرِ قُطرُبُّلٍ وكَلواذا

ما دام من أرمِلاطِ مَشربُنا مَن[2] دَيْرَ عمّا وطيزناباذا[3] !؟

وكان المنصورُ قد عزمَ ذلكَ اليوم على الانفرادِ بالعيال. فأمرَ بإحضارِ الأصحاب . وأحضرَ الوزيرَ أبا مروان . وأخذوا في شأنِهم . فمرَّ لهم يومٌ مِن الطّيبِ لم يُشهدْ . وألونَةٌ منَ اللهوِ لم تُعهَد . وطما الأمرُ وسما حتى تصَايحَ القومُ وتزافنوا [4] . ودارَ الدورُ . ثم انتهى إلى الوزيرِ ابن شُهَيد . وكان لا يُطيق القيامَ لِنقْرِسٍ كان يلازمُه . فأقامه الوزير أبو عبدِ الله بنُ عياش ؛ فارتجلَ الشيخُ أبياتاً جعلَ يقودُ بها ويُنشد[5] :

---

١ ص : به ؛ والضمير عائد إلى « الشمول » يريد ادع من سمي بهذا الاسم ، وهو مغن اسمه « شمول » كما يتضح من البيت التالي .

٢ النفح : دع .

٣ أرملاط : (Guadimellato) ، يتردد ذكرها في عدة مواطن من البيان المغرب ؛ ولم يذكر دير عمى عند ياقوت والبكري والشابشتي والروض المعطار . وذكر ياقوت دير عمان (ومعناه دير الجماعة) بنواحي حلب ، والتسمية مشبهة أيضاً لدير عمى ، فإن كان في الاسم تحريف فلعله « دير قنى » ؛ وطيزناباذ : منزلة للهو بين الكوفة والقادسية يتردد ذكرها في شعر أبي نواس مع قطربل وكلواذى .

٤ التزافن : الرقص .

٥ النفح ٣ : ٢٦١ وبدائع البدائه : ٣٥٥ واسم الوزير الذي أنهض ابن شهيد : « أبو عبد الله بن عباس » وانظر القسم الأول : ٢١٠ .

هاكَ شيخٌ قادَهُ عُذرٌ لكا[1] قامَ في رقصتِه مُستهلِكا
لم يُطِقْ يرقُصُها مُستثبِتاً فانثنى يرقُصها مُستمسِكا
عاقهُ مِن هزها مُعتدلاً[2] نِقرِسٌ أنحى عليه فاتكا
طرِبَ اللهوُ وقد حُقَّ لَهُ طرَباً أرمضَه[3] حتى اشتكى[٣٦]
مِنْ وزيرٍ فيهِمُ رقّاصةٍ قامَ مِنْ طيبٍ[4] يُناغي ملِكا
أنا لو كنتُ كما تَعرِفُني قمتُ إجلالاً على رأسي لكا
قَهقَهَ الإبريقُ مني ضَحِكاً ورأى رِعشَةَ رِجلي فبكى

وكان أيضاً في أصحابِ ابنِ شُهيدٍ رجلٌ بَغْدادي يُعرفُ بالكلك[5] ، له نَوادِرُ تُضحِك . فحضرَ معه في بَعضِ مَجلسِ الأنسِ . وقد ألحَّ عليه وَجَعُ النقرسِ فجعلَ يُصلي الصلواتِ كلما حانَت واحدةٌ بعد أخرى جالساً ، وكان عِندَهُ ذلك اليومَ أحدُ أصحابِ المنصورِ ممن يعزُّ عليه ويَكرم لديه . فلما حَميَ الوَطيس . وأنسَ الجليس . وطاب المجلس . ودارت الأكؤس ، ونُسِيَتْ أوجاعُ النِقرس . وقامَ ذلك الصاحبُ الجليسُ يَرقصُ ، ودارَ الدَّورُ حتى انتهى إلى ابن شهيد . فقامَ يَرقصُ معتمِداً على عادَتِه . فقال له البَغدادي : لله دَرُّكَ يا وَزير ! تُصلي بالقاعدة وتَرقصُ بالقائمة ! فطابَ المجلسُ بهذا الكلام ، وتَمَّ حسنُه أكمل تَمام ،

---

١ ص : له .
٢ النفح والبدائع : منفرداً .
٣ ص : أمرضه .
٤ النفح والبدائع : قام للسكر .
٥ النفح : بالفكيك .

وخلعَ ابنُ شُهيدٍ على الكك ، وانتهى الخبرُ إلى المنصور ، فذهب بهِ كلَّ مذهبٍ الضّحكُ .

وكان ابنُ أبي عامرٍ كثيراً ما يَرتاحُ إليه ، ويوالي الإحسانَ عليه ؛ انصرَفَ مرّةً من غَزوةٍ تخلّفَ عنها ابن شُهيدٍ لعُذرِهِ ، فكتب إليه من جُملة أبياتٍ[1] :

أنا شيخٌ والشيخُ يَهوَى الصبايا فبنفسي أقيكَ كلَّ الرزايا
ورَسولُ الإله أسهَمَ في الفيء لمن لم يحثَّ فيه المطايا

فأجابه ابنُ أبي عامرٍ :

قد بعثنا بها كشَمسِ النهارِ في ثلاثٍ من المَها أبكارِ
وامتحنّا بعُذْرَةِ الغيدِ إنْ كُنْتَ تَوخّى[2] بوَادِرَ الاعذارِ
فاتئدْ واجتهِدْ[3] فإنّكَ شَيخٌ قد جلا الليل عن بياضِ النهارِ[4]
صانكَ اللهُ من كَلالِكَ فيها فمن العارِ كَلّةُ المِسْمارِ

فافتضّهن الشيخُ من ليلته ، وكتَبَ إليه بُكرَة :

---

١ الحلة ١ : ٢٧٦ والنفح ١ : ٤٠٠ ، ٥٨٥ والبيان المغرب ٢ : ٣٠٠ وتحفة العروس : ٨٤ (عن الذخيرة) .

٢ النفح : ترجي .

٣ النفح : فاجتهد وابتدر .

٤ الحلة : خفي الليل عن بياض النهار .

قد فَضَضْنا خِتامَ ذاكَ السوارِ[1] ... واصطبَغنا مِنَ النجيعِ الجاري
وصَبَونا في ظِلِّ أطيبِ عيشٍ[2] ... ولَعِبنا بالدُّرِّ أو بالدَّراري
وقضى الشيخُ ما قضى بحُسامٍ ... ذي مضاءٍ عضْبِ الظُّبا بتّارِ
فاصطنِعْهُ فليس يَجزيكَ كُفْراً ... واتَّخِذْهُ فحلاً على الكفّارِ

وأهدى له ابنُ أبي عامرٍ محفّةَ خَيزُرانٍ إذ نُقْرِسَ ، فقال :

للهِ نفسُكَ فَهيَ أزْكى الأنفُسِ ... عقدتْ علاها بالجواري الكُنَّسِ
عُنيتْ بحالي كلِّها حتى لقد ... عُنيَتْ مَكارمُها بعلّةِ نِقرِسِ
فتخيَّرتْ لي إذ شكتْ قدمي الوَنى ... عُليا مَطيّةِ رِحلةٍ لم تُحبسِ
لا في العِتاقِ ولا الشَّواحجِ تنتهي ... نَسَباً ولا هي بالأمونِ العِرْمِسِ
إن أُهمِلتْ لم تنبعثْ أو أُجهِدَتْ ... لم تعتذِرْ أو أُحرِجتْ لم تُشمِسِ
مَحبوكةٌ من خَيزُرانٍ مائسٍ ... لَدْنٍ مهزَّتُه كريمِ المَغرِسِ
ويَحفُّني فيها إذا استَمطَيتُها ... بيضُ الوُجوهِ هباتُ أروعَ أشوسِ

ودَخلَ صاعِدٌ يوماً على المنصورِ فلما وصلَ إليه ، وجد عوداً بين يَدَيه ، فقال له المنصورُ : قد تواتَر الخبرُ ، وتحدَّثَ عنك البَشر ، أنّكَ فَردٌ في علمِ الموسيقى . وقد أردتُ غيرَ مرّةٍ الانبساطَ معك سرّاً في ذلك . فشقَّ الأمرُ على صاعدٍ هُنالك . ولم يَجِدْ من مَحيدٍ عن أخذِ العود ،

---

1 هكذا في الأصل والمصادر . وقد تكون قراءته « الصوار » وهو وعاء المسك ، كما قدر ذلك محققو الطبعة المصرية .

2 النفح : وصبرنا على دفاع وحرب ؛ الحلة : ونعمنا في ظل أنعم ليل .

فتناولَه وجسَّ أوتاره وسوَّى تَسويةً أطرَبَت ابنَ أبي عامر . ثم اندفع يُنشده بيتَي مجنون بني عامر[1] :

أبى القلبُ إلاَّ حبَّها عامريّةً ... لها كُنيةٌ عمرو وليس لها عمرو
تكادُ يَدي تَنْدى إذا ما لمستُها ... ويَنْبتُ في أطرافها[2] الورقُ الخُضرُ

فغَضِبَ ابنُ أبي عامرٍ وتَسوَّر . لتوهّمِه أنه عرَّض بخَبرٍ . وقال له : يا أبا العلاء . أبالإخْوَة عرَّضتَ أم بالأبناء ؟ وهذه إشارة رئيس أنف من أنْ يجاوبَه . على مَغْزى ما خاطبَه . فأخرج الجوابَ على التذكير ، همّةَ إمامٍ غيور .

وذكرتُ بهذا الحديث ما ذكره بعضُ الرواةِ عن المُعتصِم أنّه قال يوماً للقاضي ابن أبي دواد : أتعلمُ أنَّ أبا دُلَف[3] من المغنّين الأفراد. وإن كان من الشجعان الأنجاد ؟ قال القاضي : فكيف بسماعه ؟ فأحضرَه المعتصم ، وخبأ ابنَ أبي دواد . وعزمَ عليه في الغِناء . فلما اندفعَ يُغني هُتكت السّتارةُ . فخَجِلَ أبو دُلف وقال : أجبروني أعزَّ الله القاضي . قال له ابن أبي دواد : يا ماجنُ . هَبْهم أجبروك على أن تُغني فمَن أجبرَك على الإحسان . فقال أبو دُلف : ويَريبُني منك أيّها القاضي مَعرفتك بمحاسنِ الألحانِ وتآلفِ الأوزان ! !

---

1 ديوان المجنون : ١٣٠ ويرد البيتان في قصيدة أبي الصخر الهذلي (الأمالي ١ : ١٤٨) وورد الثاني وحده لأبي الصخر في شعر الهذليين ٢ : ٩٥٧ .

2 ص : أوراقها .

3 هو القاسم بن عيسى بن ادريس العجلي ، وانظر عن شهرته في الشعر والغناء زهر الآداب: ١٠٦٧ والأغاني ٨ : ٢٤٦ والحكاية فيه ص : ٢٤٩ بالمعنى دون اللفظ .

وكان صاعدٌ [كثيراً] ما تُستغربُ له الألفاظُ ويُسألُ عنها فيُجيبُ عن ذلك أسرعَ جَواب . على نحوِ ما يُحكى عن أبي عمر[1] الزاهد . ولولا أنّه كان كثيرَ المزاحِ لما[٣٧] حُمِلَ إلاّ على الصّدق. دَخَلَ[2] يوماً على المنصور وبيدِه كِتابٌ وردَ عليه من عاملٍ له اسمُه مَيْدمان[3] بن يزيد من أهل يابُرة ، يذكرُ فيه القَلْبَ والتزبيل[4] وما عندهم من مُعاناةِ الأرضِ قبل زرعِها[5] ، فقال له : يا أبا العلاء . وقعَ إليّ من الكتب كتابُ القوالب والزّوالب لميدمان بن يَزيد . قال : نعم رأيتُه في نُسخةِ أبي بكرِ بن دُرَيد بخَطّ كأكرُعِ النّملِ ، في جوانبها علاماتُ الوُضّاع[6] . فقال له : أما تَستَحي مِن هذا الكذب ! ! هذا كتابُ عامِلِنا ببلدِ يابُرةَ ، يُعلمُ بالذي تقدَّم ذِكْرُه من صِفَةِ الأرض ، وإنما صنعتُ هذا تَجْربةً لك . فجعلَ يَحلِفُ أنّه ما كذَبَ وأنه أمرٌ وافق .

وقال[7] له المنصور يوماً : ما الخنبشار في اللغة ؟ قال : حَشيشةٌ يُعقدُ بها اللبنُ ببادِيةِ الأعراب . وفي ذلك يقول شاعرهم :

---

١ ص : أبو عامر ؛ أبو عمرٌ الزاهد هو محمد بن عبد الواحد اللغوي غلام ثعلب (– ٣٤٥) وكان جماعة يكذبونه في أكثر رواياته ، وكان الطلبة يسألونه أسئلة مصنوعة ملفقة كتلك التي امتحن بها صاعد (انظر انباه الرواة ٣ : ١٧١– ١٧٧ وفي الحاشية ذكر لمصادر أخرى) .

٢ القصة في الجذوة : ٢٢٤ والنفح ٣ : ٩٨ .

٣ الجذوة والنفح : مبرمان .

٤ ص : والتربيل .

٥ ص : زراعها .

٦ زاد في الجذوة : هكذا ، هكذا .

٧ نفح الطيب ٣ : ٨١ .

لقد عُقِدَتْ محبتها بقلبي كما عُقِدَ الحليبُ بخنبشارِ

وقال له[1] مرَّةً وقد قُدّمَ طبقٌ فيه تمر : ما التمَركلُ في كلامِ العرب؟ [فقال] : يُقال تمركلَ الرجلُ تمركُلاً إذا التف في كسائه .

وكان مع ذلك عالماً ؛ حدَّث العاصِميّ النحويّ قال[2] : لما سألناه مراراً عن مَسائلَ من النحوِ بحضرةِ المنصورِ فقصّر فيها ، قال ابن أبي عامرٍ : فإنّه من طبقتي في النّحو أنا أناظره . ثمّ سألنا صاعدٌ يوماً فقال : ما مَعْنى قولِ امرىء القَيس :

كأنَّ دِماء الهادياتِ بنَحرِه عُصارةُ حنّاءٍ بشَيبٍ مُرَجّلِ

فقلنا هذا واضح ، وإنّما وصف فَرساً أشهبَ عُقرت عليه الوحشُ فتطايرَ دَمُها إلى صَدرِه فجاء هكذا . فقال صاعدٌ : سبحان الله ! أتَنسَونَ قولَه قبلَ هذا في صِفَتِه :

كمَيْتٍ يَزِلُّ اللّبدُ عن حالِ مَتنه كما زَلّتِ الصَّفْواءُ بالمتَنَزّلِ

قال فبُهتنا وكأنا لم نَقرأ البَيْتَ قَط . وقد اضطررنا إلى سؤالِه ، فقال : إنّما عنى أحدَ وَجهين : إمّا أنّه نَضَحَ صدرُه بالعَرَق وعرقُ الخيل أبيضُ ، فجاء مع الدم كالشّيبِ ، وإما أشياء كانت العربُ تصنعها وذلك

---

١ الجذوة : ٢٢٥ والنفح ٣ : ٨٢ .

٢ الجذوة : ٢٢٥ .

٣ فاتت هذه الملاحظة شراح المعلقة ، فقد قال ابن الأنباري (السبع الطوال : ٩٢) أراد أنه يلحقها فيطعنها فتصيب دماؤها نحره ، وقوله : بشيب مرجل : معناه بشيب قد غسل عنه الحناء فرجل .

أنها كانت تَسِمُ باللبنِ الحارّ في صَدرِ الخَيْلِ فيَتَمَعّطُ ذلك الشعر ، ويَنبتُ كأنّه شعرٌ أبيض ، فأيّا ما عنى من أحدِ الوَجهين فالوصف مستقيم .

وكان [1] لابن أبي عامرٍ فتىً يُسَمّى فاتناً أوحدُ لا نظيرَ له في علمِ كلامِ العَرَب ، وكلّ ما يتعلقُ بالأدب ، فناظرَ صاعداً بين يَديه ، فظَهَرَ عليه ، وبكّتَه حتى أسكتَه ، فازداد المنصور به عُجبْا ؛ وكان فاتنٌ حَسَنَ الخطّ ، واسعَ المعرِفَةِ ، فَصيحَ اللسانِ ، حاضرَ الجواب ، إلى عفافِ طُعْمَةٍ ، ونزاهَةِ نَفْس ، وجمال صُورة . وكان ممن تُباهي الملوك بخدمَتِه ، وتستريح إلى حِلمِه . وتُوفّي هذا الفتى فاتنٌ سنة اثنتين وأربعمائة ، وبيعت في تَركته قِطعةُ دفاترَ أدبيّةٍ حَسنةِ الضبط دلّت على جَوْدَةِ عنايته . وكان منقاداً لما نزلَ به من المُثْلَةِ ، فلم يتّخذ النساء ولا كشَفْنَ له عَوْرة .

وكان في ذلك الزمانِ بقرطبةَ جُملةٌ من الفِتيان المجابيب ، ممن أخذَ من الأدبِ بأوفرِ نصيب . ورأيتُ تأليفاً لرجلٍ منهم يُدْعى بحبيب مُترجَماً بـ « **كتاب الاستظهار والمُغالبة على من أنكرَ فضائلَ الصقالبة** » وذكرَ فيه جُملةَ من أشعارهم ونَوادر أخبارِهم . منهم عمارةُ الصّقلبي الفتى الكبير ، والصّقلبي مَيْسور ، ، ونَجمٌ الوصيف ، وغيرهم ممن يشتمِلُ عليه ذلك التصنيف ، وشعرُهم خارجٌ من شَرطِنا ، وليس مِن جَمعِنا .

ومن [2] عجائبِ الدنيا الغريبةِ الوُقوع ، العَجيبة المَسموع ، أن صاعداً أهدى إلى المنصور يوماً إيّلا وكتب معه بأبياتٍ يقول فيها :

---

[1] نفح الطيب ٣ : ٨٢ .

[2] الجذوة : ٢٢٦ والنفح ٣ : ٨٢ والأبيات أيضاً في انباه الرواة ٢ : ٨٨ والمعجب : ٨٢ والريحان والريعان ١ : ١٥٤ ب .

يا حِرزَ كلّ مخوّفٍ وأمانَ كلّ مُشرَّدٍ ومُعِزَّ كلّ مُذَلّلِ
عَبْدٌ جذَبْتَ بِضَبْعِهِ ورَفَعْتَ مِن مِقدارِه[1] أهدى إليك بإيّلِ
سَمّيْتُهُ غَرسيّةً وبعثتُهُ في حَبْلِهِ ليُتاحَ فيه تفاؤلي

فقُضي في سابقِ علمِ الله تعالى وقَدَرِه أنّ غَرسيةَ بن شانجه مِن مُلوكِ الرُّوم، وهو أمنعُ من النّجوم. أسر في ذلك اليوم بعَينه الذي بعثَ فيه صاعدٌ بالإيّلِ وسمّاه غَرسيةَ على التفاؤل بأسرِه. وكان أسرُه في ربيعِ الأوّلِ[2] سنة خمسٍ وثمانين وثلاثمائة. وهكذا يكونُ الجدّ للصاحبِ والمصحوب.

ودَخَلَ[3] يوماً صاعِدٌ على المنصورِ في يومٍ مَطير، وعليهِ ثيابٌ جُدُدٌ وخُفّ طَريّ، فمشى على حاشيَةِ الصِهريجِ لازدحامٍ من حضرَ فَزَلِق وسقط في الماء، فضَحِكَ المنصورُ وأمر بإخراجِه. وكاد البردُ يأتي عليه. فلما نظر إليه [٣٨] أمر بِخلعِ ثِيابٍ له، وأدنى مجلسَه، ثم قال له: يا أبا العلاء هل قلتَ في سقْطتِك شيئاً؟ فأطرق ثم قال:

شيئانِ كانا في الزّمانِ غَريبةً ضَرطُ ابنِ وَهْبٍ ثم زَلْقة[4] صاعدِ

فاستبرَدَ ما أتى به؛ وكان الكاتبُ أبو مروانَ الجزيريّ حاضراً، فقال له: يا أبا العلاء هَلاّ قلتَ:

---

١ المعجب والجذوة: نشلت بضبعه وغرسته في نعمة.
٢ الجذوة: ربيع الآخر.
٣ نفح الطيب ٣: ٥٩ والمغرب ١: ٣٢٢.
٤ النفح: وقمة.

سُروري بغُرّتك المُشرقَه • وديمة راحتيك المُغدقَة
ثنانيَ نَشْوانَ حتى هَوَيتُ • في لُجة البِرْكة المُطبقَه
لئن ظلّ عبدُك فيها الغَريقَ • فجودُكَ من قَبلِ ذا أغْرَقَه

فقال له المنصور : لله دَرُّك يا أبا مروان ، قِسناك بأهلِ العِراق فَفَضَلتَهم فبمن تُقاس بعد ! فأنهضَ الجزيريُّ للشُرطة .

وقد فرّق [1] حذّاقُ النّظَرِ بينَ البَديهةِ والارتجالِ ، فجعلوا الارتجالَ ما كان على طريق الانهمارِ والتدفقِ لا يتوقّفُ فيه قائلُه ، كالذي وقع للفَرَزدق إذ أمرَه سُليمانُ بن عبدِ الملكِ بضَربِ عُنق أسيرٍ رُومى ، ودَسّ إليه بعضُ بني عَبْس سَيْفاً كهاماً فنَبا حينَ ضَرَبَ به ، وضَحِكَ سُليمانُ . فقالَ الفَرَزْدَق [2] :

فإنْ يكُ سَيفٌ خانَ أوْ قَدَرٌ أبى • لتأخِيرِ نَفْسٍ حَيْنُها [3] غيرُ شاهدِ
فسيفُ بني عَبْسٍ وقد ضربوا به • نَبا بيَدَي وَرقاء [4] عن رأسِ خالدِ
كذاكَ سيوفُ الهندِ تنبو ظُباتُها • ويَقطعنَ أحياناً مَناطَ القلائدِ
ولو شئتُ قطَّ السيفُ ما بين أنفِه • إلى عَلَقٍ دونَ الشراسيفِ جاسِدِ

ثم جلس وهو يقول [5] :

---

[1] متابع للعمدة ١ : ١٨٩ .
[2] انظر إلى جانب العمدة : طبقات ابن سلام : ٤٠٠ والنقائض : ٣٨٤ .
[3] ابن سلام : حتفها .
[4] هو ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي ، ضرب خالد بن جعفر بن كلاب فلم تؤثر فيه الضربة.
[5] النقائض : ٣٨٣ وابن سلام : ٤٠٢.

ولا نَقتلُ الأسرى ولكن نفُكّهم   إذا أثقلَ الأعناقَ حَمْلُ المغارمِ

ومن غريبِ[1] البَديهةِ خَبَرُ حَبيب ، مع الكِنْديّ يَعْقوبَ ، وقد أنشد أحمد ابنَ المعتصم[2] قولَه :

إقدامُ عمروٍ في سماحةِ خالدٍ   في حِلْمِ أحنفَ في ذكاءِ إياس

فقال له الكندي : ما صنَعتَ شَيئاً فإنَّ الأميرَ أفضلُ ممّن ذكرت ، وما هؤلاءِ وقدرُهم ؟ فأطرَقَ ثم قال :

لا تُنكروا ضَرْبي له مَن دُونَه   مَثَلاً شَرُوداً في النّدَى والباسِ
فالله قد ضربَ الأقل لنورِه   مَثَلاً من المِشكاةِ والنِّبْراسِ

فتعُجِّبَ مِن بَديهتِه يومئذٍ لأنّه كانَ رَجُلاً مُصنّعاً لا يجبُ أن يكونَ هذا في طبعِه . وقد قيل إنَّ الكندى لما خرج حبيب قال : أرى هذا الفتى يموتُ شاباً لأنَّ ذَكاءَهُ يَنْحِتُ عُمْرَه كما يأكلُ السيفُ الصقيلُ غِمْدَهُ . فكان ذلك كذلك ، ماتَ وقد نيّف على الثلاثين . وكان أبو الطيب كثيرَ البديهة إلاَّ أنَّ شِعْرَه نازلٌ فيه . وأهلُ الشعرِ في ذلك في سَعةٍ من العُذر ، إذ هو كما قال ابن الرومي[3] :

نارُ الرَّويّةِ نارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ   وللبديهةِ نارٌ ذاتُ تَلْويحِ
وقد يُفضّلها قومٌ لسُرعَتِها   لكنّها سُرعةٌ تَمضي معَ الرّيح

---

[1] العمدة ١ : ١٩٢ وانظر أخبار أبي تمام : ٢٣٠ – ٢٣٢ .
[2] ص : المأمون .
[3] العمدة ١ : ١٩٣ وديوان ابن الرومي : ٥٦٧ وبدائع البدائه : ٩ والشريشي ١ : ١٢٢ .

وقال ابنُ المعتز[1] :

والقَولُ بعدَ الفكر يُؤمَنُ زَيغُه   شتّانَ بينَ رَويّةٍ وبَديهِ

ومن الشعراءِ[2] مَن شعرُه فيهما وعندَ الأمْنِ والخوفِ سَواء . بمقدارِ قُدْرَةِ كلّ أحدٍ ، وسُكونِ جأشهِ . وقوةِ غَريزتِه . كهُدْبَةَ بن الخشْرَمِ ، وطَرَفَةَ بن العَبْد ، ومُرَّةَ بن مَحْكانَ السَعْدي ، إذْ يقولُ وقد أمرَ مُصْعَبُ بنُ الزُّبير بقَتله[3] :

بني أسدٍ إنْ تَقتلوني تُحارِبوا   تَميماً إذا الحَربُ العَوان اشمعلّتِ
ولستُ وإنْ كانَتْ إليّ حَبيبَةً   بِباكٍ على الدُّنيا إذا ما تولّتِ

وكعَبْدِ يغُوثَ إذ أعطى في نفسه لبني تَميمٍ ألفَ ناقةٍ فأبَوا إلاّ قتلَه، وكانوا قد شَدّوا لسانَهُ خَوفاً من الهِجاءِ ، فعاهدهم فأطلقوه لينوحَ على نفسِه ، فقال القصيدة التي أوّلها[4] :

أقول وقد شدُّوا لساني بنسعةٍ   أمَعشرَ تَيْمٍ أطلقوا عن لسانيا
فيا راكباً إمّا عَرَضْتَ فبلّغَنْ   نَدامايَ مِن نَجْرانَ ألاّ تلاقيا

وتميمِ بنِ جَميلٍ السّدُوسي[5] وكان قامَ بشاطىء الفُراتِ ، واجتمعَ

....

١ العمدة : ١٩٣ وبدائع البدائه : ٩
٢ لا يزال متابعاً للعمدة ١ : ١٩٣ .
٣ الكامل ١ : ١٩٩ .
٤ هي المفضلية رقم : ٣٠ وانظر النقائض ١ : ١٧٣ والبيت الذي أورده ليس مطلعاً لها .
٥ مع أن الإشارة إلى الخبر والأبيات قد وردت في العمدة ١ : ١٩٤ – ١٩٥ إلا أن المؤلف هنا يتابع زهر الآداب : ٨٧٤ .

إليه الأعرابُ وغَلُظَ أمرُه ، فظُفِرَ به وحُمِلَ إلى بابِ المُعتصم ، فلما مَثَلَ بين يَديه ، وكان وَسيماً جَميلاً ، فأحبَّ المعتصم أن يَعلَمَ أين المنظرُ مِن المخبَر ، قال له : تكلَّمْ ، فقال بعدَ أنْ حَمِدَ اللهَ ودعا للمعتصم : إنَّ الذُنوبَ تُخرِسُ الألسِنَةَ ، وتُعمِي الأفئدةَ ، ولقد عظُمَت الجريرَة وانقطعت الحُجَّة وساءَ الظنُّ ، ولم يبقَ إلاَّ العفو أو الانتقام ، وأرجو أن يكونَ أقربُهُمَا منّي وأسرعُهما إليَّ أشبَهَهُما بك ، وأولاهُما بكرَمِك . ثم قال وقد كان قُدِّمَ [٣٩] السيف والنِطْعُ لقَتله :

أرى الموتَ بين السيفِ والنِطع كامناً ... يُلاحِظُني مِنْ حَيثُما أتلفَّتُ
وأكبرُ ظني أنَّك اليومَ قاتِلي ... وأيُّ امرىءٍ ممّا قَضَى اللهُ يُفلِت
وأيُّ امرىء يُدْلي بعُذْرٍ وَحُجَّةٍ ... وسَيْفُ المنايا بين عَيْنَيه مُصْلَت
يَعزُ على الأوْسِ بن تغلِب مَوْقِفٌ ... يُهَزُّ عَلَيَّ السيفُ فيه واسكت
فما حزَنِي أني أموتُ[1] وإنَّني ... لأعلَمُ أنَّ الموتَ شيءٌ مُوَقَّت
ولكنَّ خَلفي صِبْيَةً قدْ تَركتُهُم ... وأكبادُهمْ من حَسرَةٍ تتفتَّتُ
كأني أراهُم حين أُنعى إليهمُ ... وقد خَمَشُوا تلكَ الوُجُوه وصوتوا
فإنْ عشتَ عاشوا خافِضِين[2] بنعمةٍ ... أذودُ الرَّدى عنهم وإنْ مِتُّ موتوا
فكم قائلٍ لا أبعدَ اللهُ دارَه ... وآخرَ جَذْلانَ يُسَرُّ ويَشْمَتُ!

فعفا عنه المعتصِمُ ، وأحسنَ إليه وقلَّدهُ عملاً . وعلي بن الجهْم الذي قال ارتجالاً وقد صُلِبَ عُرياناً[3] :

---

[1] زهر الآداب : وما جزعي من أن أموت .
[2] زهر الآداب : سالمين .
[3] العمدة ١ : ١٩٥ وديوان علي بن الجهم : ١٧١ (وفيه تخريج المصادر) .

لم يَنصبوا بالشّاذِياخِ عَشيّةً ال   إثنَين مَفلولاً ولا مَجهولا
نَصَبوا بحَمدِ الله مِلءَ عُيونِهم   حُسْناً ومِلءَ قلوبهم تَبْجيلا
ما ضرَّه أنْ بُزَّ عنه غِطاؤه   فالسيفُ أهوَلُ ما يُرى مَسْلولا

إلى غير ذلك من غَرائبِ أهل المشرق .

فأمّا ما جاءَ في هذا البابِ لأهلِ عَصرِنا بهذا الأفق ، فكالذي وَقعَ لأبي عامر بن شُهَيد القُرطبي[1] مَعَ لُمّةٍ من أصحابه ، فانّه حَكي أنّهم قالوا له : يا أبا عامرٍ إنّكَ آتٍ بالعجائب ، وجاذبٌ بذوائبِ الغَرائب ، ولكنّك شَديدُ الإعجابِ بما يأتي مِنك لعطفِ الزَّهْو عندَ النادِرَة تُتاحُ لك ، ولكن نُريدُ أنْ تَصِفَ لنا مَجْلسَنا هذا . وكان الذي طلبُوه منه يَومئذٍ زُبدَةَ التَعنيتِ ، ومُحَّةَ بيضةِ التَبكيت ، لأنّ المعنى الجلْفَ إذا لم يَطِبْ على النفسِ ، وتناولَه المُحْسِنُ أساءَ فيه ، وكانت هَيئةُ ذلك المجلسِ وصِفتُه مما يَقتُلُ لبَرْدِه . وهيئته لا يَتَمكّنُ فيها كلامٌ ولا يَتركّبُ عليها مَعنى : بابٌ غَريبٌ مُعتَرِضٌ في المجلسِ ، ولبْدٌ أحمرُ مبسوطٌ على أرضهِ ، وصُفورُ أخفافِهم على حاشيَتِه . وذكرأبوابَه وانضمامَها على أرجُلهِ فقال :

وفتيةٍ كالنّجوم حُسْناً   كلّهُمُ شاعرٌ نَبيلُ
مُتّقدُ الجانبيَنِ ماضٍ   كأنّهُ الصارِمُ الصّقيل
راموا انصرافي عَنِ المعالي   والغَرْبُ مِن دُونِها فليل[2]

---

١ نقله المقري في النفح ٣ : ٢٤٥ و ابن ظافر في بدائع البدائه : ٣٠٤ وانظر ديوان ابن شهيد : ١٢٧ .والشريشي ٤ : ١٧٠ .

٢ النفح والبدائع : والغرب من دونها كليل .

فاشتدَّ في إثرها مسحٌّ[1] كلٌّ كثير بها قليل
في مجلس شابه[2] التصابي وطاردَتْ وصفه العقول
كأنما بابُهُ أسيرٌ قد عرَضتْ وسطه نصول[3]
يُرادُ منه المقالُ قسراً وهو على ذاك لا يقول
ينظرُ من لبْدِه لدينا بحرُ دمٍ تحتَه يسيل
كأنَّ أخفافنا عليْه مراكبٌ مالها دليل
ضلَّتْ فلمْ تدرِ أينَ تجري فهيَ على شطِّه تقيل

واتفقَ[4] أن خرجَ من عندهم فاجتازَ بحانوت بعض معارفه من الطرائفيّين[5] وبينَ يديه رامشنةٌ جميلةٌ في زنْبيلٍ ملآنَ حرْشفاً، فجعل يدَه في لجام دابّةِ ابنِ شُهيْد وقال له: صف هذا أبا عامر. فإنَّ صاعداً رامَ وصفَ ذلك لابنِ أبي عامرٍ فلم يأتِ بشيء غير ذكرِ الحرْشفِ. فقال ابنُ شُهيدٍ وهو على ظهرِ دابّته:

هلْ أبصرتْ عيْناكَ يا خليلي قنافذاً تباعُ في زنبيلِ
مِن حرشفٍ مُعتمدٍ جليلِ ذي إبرٍ تنفُذُ جلدَ الفيلِ
كأنّها أنيابُ بنتِ الغولِ لو نخست في استِ امرىءٍ ثقيلِ
لقفّزتهُ نحوَ أرضِ النيلِ ليستْ ترَى طيَّ حشا منديلِ

---

١ في البدائع وأصول النفح: فالشد في أمرها فسيح.

٢ البدائع والنفح: زانه.

٣ البدائع والنفح: تعرض من دونه النصول.

٤ بدائع البدائه: ٣٠٤ ونفح الطيب ٣: ٢٤٦ وديوان ابن شهيد: ١٤٠.

٥ ص: الطرائفيين؛ البدائع: الطوافين.

نُقْلُ السخيفِ المائقِ الجهولِ   وأكلُ قومٍ نازحي[1] العقولِ
أقسِمُ لا أطعمتُها أكيلي   ولا طعِمتُها على شمولِ

وكان[2] يوماً مع جماعةٍ من أهلِ الأدبِ ، بمجلس ابنِ ذكوانَ ، فجيء بباكورِ باقلي ، فقالوا : لا ينفرِدُ بها إلاّ مَن وصفَها[3] ، فقال ابنُ شُهيد :

إنّ لآليكَ أحدثَت صلَفا   فاتّخذَتْ من زُمُرُّدٍ صدَفا
تسكنُ ضرّاتها[4] البحورَ وذي   تسكنُ للحسنِ روْضةً أنُفا
هامتْ بلُحفِ الجِنانِ فاتّخذَت   مِن سُندُسٍ في جِنانِها لُحُفا
نثقبها[5] بالثغور مِن لطُفٍ   حسبُكَ مِنا في برِّ مَن لطفا
جاز[6] ابنُ ذكوانَ في مكارِمه   حدُودَ كعبٍ وما بهِ وصفا
قدّمَ درَّ الرّياضِ منتخباً   مِنه لأفراسِ مدحِهِ علَفا
أكلُ ظريفٍ وطُعمُ ذي أدبٍ   والفولُ يهواهُ كلُّ مَن ظرُفا
رخّصَ فيه شيخٌ له قدَرٌ[7]   فكانَ حسبي مِن المُنى وكَفى [٤٠]

---

١ اللفظة غير معجمة في ص ؛ وقد وردت كما أثبته في البدائع والنفح .
٢ بدائع : ٣٠٣ والنفح ٣ : ٢٤٤ وديوان ابن شهيد : ١٢٧ .
٣ ص : وصفه .
٤ ص : دراتها ، وأثبت ما في البدائع والنفح .
٥ البدائع والنفح : شبهتها ؛ ص : بتقبها .
٦ ص والبدائع : حاز .
٧ البدائع : حسب .

وخرج سَعْدانُ المؤدِّب[1] من قُرطبةَ إلى الحجازِ وَشَيَّعه جماعةٌ ، وكان قد باعَ دَارَه وشدَّ جَهازَ طريقه تحته في خُرجه . فقال فيه يومئذ مُؤمِن بن سعيد[2] :

قد بِعتَ دَارَكَ فارحَلْ غيرَ مُحتَقِبِ	زادَ التُّقَى عَنْ بَني الدُّنيا إلى سَقَرَ
لما رأيْتَ أذى الأمطارِ مُتَّصِلاً	حَصَّنْتَ دَارَكَ في خُرجٍ عن المطر
فلستَ تَخْشَى عَلَى حيطانِها زَلَلا	مِن واكِفٍ يَهْدِمُ البُنيَانَ منهمرِ
زَوَّدْتُكَ اللَّعْنَ مخصوصاً به أبداً	لمَّا غَدَوتَ بلا زادٍ على سَفرِ
فاغْرُبْ إلى حَيثُ لا ماءٌ ولا شَجَرٌ	كما غَنِيتَ بلا ماءٍ وَلا شَجَرِ

وسايرَ[3] ابنُ عَمَّارٍ في بعضِ الأسفارِ غُلامين وَسيمَين من بني جَهورٍ ، أحدُهما أشقَرُ والآخرُ بعِذارٍ أخضَرَ ، فكان يميلُ بحديثه من ظَهرِ دابَّتِه إلى الذي وَصفه منهما حَيثُ قال ارتجالا :

تَعَلَّقتُه جَهْوَرِيَّ النِّجارِ	حُلْوَ اللَّمَى[4] جَوْهَرِيَّ الثَّنايا

1 المشهور بهذا الاسم سعدان بن معاوية القرطبي (-٣٢٧) وقد رحل حاجاً فوافق دخوله مكة إتيان القرامطة (سنة ٣١٨) فأصيب بضربة شقت خده وعينه (ابن الفرضي ١ : ٢١٤) ولا يمكن أن يكون هو المقصود هنا لأن مؤمن بن سعيد توفي سنة ٢٦٧ إلا أن يكون الشعر قد نسب لمؤمن خطأ .

2 مؤمن بن سعيد (- ٢٦٧) ترجمته في الجذوة : ٣٣٠ والمغرب ١ : ١٣٢ واليتيمة ١ : ٣٧١ وانظر مزيداً من المصادر في دراسة كتبتها عنه (تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة : ١٧٠ ط / ١٩٧٣) .

3 وردت القصة والأبيات في الذخيرة (القسم الثاني : ٣٨٩) وبدائع البدائه : ٣٦٩ - ٣٧٠ ونفح الطيب ٣ : ٣٢٥ - ٣٢٦ .

4 البدائع والنفح والذخيرة : اللمى .

مِن النَّفَرِ البيضِ جرَّوا[1] الزمانَ   رِقاقَ الحَواشي كِرامَ السَّجايا
ولا غَرْوَ أن تَغْرُبَ الشارقاتُ   وتَبقى محاسِنها بالعَشايا
ولا وَصلَ إلاَّ جُمان الحديثِ   نُسَاقِطُهُ من ظُهورِ المطايا
شنِئْتُ المثلَّثَ للزَّعْفَرانِ   ومِلْتُ إلى خُضرةٍ في التفايا[2]

قال ابن بَسّام[3] : وكان الأستاذُ أبو الوليدِ بن ضابطٍ[4] قد بدأ عليه بالقراءةِ الوزيرُ أبو مُحمد بنُ عَبدونَ وهو غُلامٌ ابن ثلاثَ عشرةَ سَنَةً . وكان ابنُ ضابطٍ المذكورُ مُتكسّباً بالشعر . فضجِرَ يوماً وقال : « الشّعْرُ خُطّةُ خَسفٍ » فقال له ابن عَبدون :

لكلِّ طالبِ عُرفِ
للشيخِ عَيْبَةُ عَيْبِ   وللفَتى ظرفُ ظَرْفِ

والبَديه والارتجالُ في هذه الأشعارِ الأندلسيّة وإن لم تَلحق بالأشعارِ المَشرقيّةِ ، ولا فيها كبيرُ طائلٍ ، ولا تَقربُ مما ألصقتهُ إليها من أشعارِ الأوائل ، فهي تحوي في هذا المجموعِ الذي انتَحَيْتُ ، وطَلَقي

---

١ البدائع : جرد ؛ النفح : أسد .
٢ التفايا من بسائط الأطعمة عند الأندلسيين ،وهي أنواع منها التفايا البيضاء وتحضر من لحم الضأن الفتي في قطع صغار ويضاف إليها ملح وفلفل وكزبرة يابسة وقليل من ماء بصلة مدقوقة ومغرفة من الزيت العذب . . . ويجعل فيها بندق ولوز مقشر مقسوم . فإذا أردتها خضراء أضفت إليها ماء الكزبرة الرطبة (انظر كتاب الطبيخ ٨٥ – ٨٨ ، ١١٨ – ١١٩) .
٣ انظر نفح الطيب ٣ : ٣٩٧ ، ٦٠٩ (وفي الموضع الثاني ذكر أن صانع القسيم الأول هو المتوكل بن الأفطس) وبدائع البدائه : ٨٠ والتكملة : ٤٠٧ .
٤ هو محمد بن علي بن يعيش بن داود سمع من أبوي مروان : الطبني وابن سراج سنة ٤٥٤ ، وسكن بطليوس وقعد فيها لتعليم الآداب واللغات (التكملة : ٤٠٧) .

الذي إليه جَريتُ ، ولذلك ما أثبتُّ مُذالَها ومَصونَها ، وكتبتُ غثَّها وسَمينَها ، والأدبُ طريقٌ يسلُكُها الصَّحيحُ والجَرِب ، وسُوقٌ يَنْفُقُ فيها الدرُّ والمخشلَب ، ولأخرُجَ من جدٍّ إلى هزل ، وأنتقِلَ من حَزْنٍ إلى سَهل .

رجعتُ إلى ما قَطَعْتُ من أخبار صاعِد ، وما يتعلّق بها ويذكَر بسببها من الفوائد .

إيجاز الخبر عن أسر غَرْسيةَ الذي ذكر[1]

قال ابنُ حَيّان : لما قَفَلَ ابنُ أبي عامرٍ سنةَ أربعٍ وثمانينَ عن بلد غَرسيةَ صاحبِ قَشتيلة ، حشَر عدوُّ الله جُموعَه لغَزو بلادِ الإسلام ، فاغتمَّ المنصورُ لذلك . فبينما هو يُحاولُ بعضَ الأمرِ هنالك إذ ورد عليه كتاب قَنْدٍ الوزير[2] صاحبِ مدينةِ سالمٍ يذكرُ أنّه أسرى في نُخبةِ أهلِ ثغرِه إلى بلدِ غَرسية فقتلَ وغنِمَ ، ثم انكمَش فتبِعَه غَرسية في قطعة حسنةٍ من نُخبةِ حُماته ، فثبّتَ اللهُ أقدامَ الإسلامِ ، وأجْلَت الحربُ على أسرِ غرسية جريحاً ، وسيقَ إلى مدينةِ سالم ، وأقام بيدِ قَنْدٍ يعالجه من جُرحه فهلكَ في يده ، وحزَّ رأسَه وجعلَه في تابوتٍ ، وأنفذَه إلى حضرةِ قُرطبةَ ، واختُزِنَ جسدُه إلى أن دُفعَ مع رأسِه إلى وَلدِه شانجه عند عقدِ السّلمِ بعدَ مُدةٍ .

---

١ قارن بما أورده ليفي بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ٢ : ٢٤٤ .

٢ ذكره الفقيه أبو محمد بن حزم في طوق الحمامة وقال : إنه كان صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور ابن أبي عامر وكانت ابنته عاتكة على غاية من الجمال ، وقد تزوجها أبو بكر أخو الفقيه.

مقتل أبي مروان الجزيري [1]

وكان أبو مَروان عبدُ الملكِ الجزيري أحدَ شعراءِ الأندلس المجيدين وقتَه وممن اجتمعَ له بهذا الإقليم نوعا البلاغةِ في المنثورِ والمنظومِ . وتقدُّمُ عصرِه منعني من ذِكره ؛ وفي خبرِ مقتَلِه طُول . لكنْ نُلمعُ منه بلُمعة ، بعدَ أن نقدّمَ من نَوعَيْ كلامِه قطعة .

فمن ذلك أنّ المنصورَ بن أبي عامرٍ صنَعَ صنيعاً في ذلك الأوان ، لتطهير ابنه عبدِ الرحمن ، وكان عامَ قحطٍ فارتفع السعرُ بقرطبةَ . وبلغَ رُبعُ الدّقيقِ إلى دينارين ، فجلا الناس . فلما كان يومُ ذلك الصنيعِ ، نشأتْ في السماءِ سحابةٌ عمّتْ الأفُقَ ، ثم أتى المطرُ الوابلُ فاستبشر الناسُ وسُرّ ابن أبي عامر ، فقال الجزيري بديهةً [2] :

أمّا الغمامُ فشاهدٌ لك أنّه ... لا شكّ صِنوكَ بل أخوكَ الأوثقُ
وافى الصنيعَ فحينَ تمّ تمامُه ... في النحوِ أنشأ وَدقه يتدفّقُ [٤١]
وأظنّه يَحكيكَ جوداً إذ رأى ... في اليوم بحرَكَ زاخراً يتفهّقُ

ومنها :

---

١ لعبد الملك بن إدريس الجزيري ترجمة في الجذوة : ٢٦١ (البغية رقم : ١٠٥٨) والمطمح ١٣ والصلة : ٣٥٠ ، واعتاب الكتاب : ١٩٣ والمغرب ١ : ٣٢١ والنفح ٢ : ١١٩ وله أشعار في اليتيمة ٢ : ١٠٢ وقطعة في تشبيهات ابن الكتاني رقم : ١٥٦ ومقطعات في البديع (انظر الفهرست) وانظر الذخيرة ١ : ١٠٣ .

٢ نفح الطيب ١ : ٥٣٠ .

وتوسّطتْها بلجةٌ في قَعْرِها ... بنتُ السلاحفِ ما تزالُ تُنقنِقُ
تنسابُ من فَكّي هزبرٍ إن يكنْ ... ثَبْتَ الجَنانِ فإنَّ فاهُ أخرَقُ
صاغُوه من نَدٍّ وخَلّقَ صَفحتي ... هادِيهِ مَحضُ الدرّ فهو مطوّقُ
للياسمينِ تطلّعٌ في عَرشِهِ ... مِثلُ المليكِ عَراه زَهوٌ مطرِقُ
ونَضائدٌ من نَرجسٍ وبنَفسجٍ ... وجَنيّ خيريّ ووَردٍ يَعبَقُ
تَرنو بسَجْوٍ عيُونها وتكادُ من ... طرَبٍ إليكَ بلا لسانٍ تنطِقُ
وعلى يَمينِكَ سَوسَناتٌ أطلعتْ ... زَهرَ الربيعِ فهنَّ حُسناً تُشرِقُ
فكأنّما هي في اختلافِ رُقومِها ... راياتُ نصرِكَ يومَ بأسِكَ تَخفُقُ
في مَجلسٍ جمعَ السرورَ لأهلِهِ ... مَلِكٌ إذا جُمِعتْ قناه يفرِّقُ
حازَتْ بدولتِهِ المغاربُ عِزةً ... فغدا ليحسُدَها عليه المشرِقُ

وعتبَ[1] عليه المنصورُ وسجنَه في مُطبقِ الزاهرةِ . واستعطفَه برسائلَ وأشعارٍ عدَّةٍ ، فلم يَسمعْ منه . ثم صفَحَ بعدُ عنه ، فكتب إليه الجزيري :

عَجبتُ مِن عَفوِ أبي عامرٍ ... لا بدَّ أن تتبعَه مِنّةْ
كذلكَ اللهُ إذا ما عَفا ... عَن عبدِه أدخلَه الجنّةْ

فسُرَّ المنصورُ بذلك ، وصرفَه إلى حاله ، وردَّ عليه ما كان اعتقل مِن ماله .

ومن[2] شعرِه أيضاً ، مما اندرجَ له في أثناءِ نثرِه الذي مَلُحَ فيه ، مخاطبته على ألسنة أسماءِ كرائمه بزهورِ رياضه . من ذلك عن بَهارَ العامريّة قصيدةٌ أوّلها :

---

[1] نفح الطيب ٤ : ٦٦ ووردا (في ١ : ٤١٩) غير منسوبين له . وانظر المغرب ١ : ٣٢١.
[2] نفح الطيب ١ : ٥٣١ والبديع : ٩٩ والشريشي : ١ ١٠٦ .

حَدَقُ الحسانِ تُقِرّ لي وتغارُ ... وتَضِلُّ في صفتي النُّهى وتَحارُ

طلعَتْ على قُضبي عيونُ كمائمي ... مثلَ العيونِ تحفُّها الأشفار

وأخصُّ شيءٍ بي إذا شبهتَني ... دُرٌّ تَنطّقَ سِلكَها دينار

أهدى له قُضُبُ الزُّمُردِ ساقَه ... وحَباه أنفسَ عطرِه العطّار

أنا نَرجِسٌ حقاً بهرتُ عقولَهم ... ببديعِ تركيبي فقيلَ بَهار

ومِن أخرى على لسانِ نرجسِ العامريّة[1] :

حيّتك يا قمرَ العُلا والمجلسِ ... أزكى تحيّتها عيونُ النرجسِ

زهراً تُريكَ بحُسنِها وبلونِها ... زُهْرَ النجومِ الجارياتِ الكُنَّسِ

يملِكنَ أفئدةَ الندامى كلّما ... دارتْ بمجلسِهم مَدارَ الأكؤسِ

مِلْكَ الهمامِ العامريِّ محمدٍ ... للمكرُماتِ وللنُّهى والأنفسِ

ومن أخرى عن بَنفسَجِ العامرية[2] :

إذا تدافَعت الخصومُ – أيّد اللهُ مولانا المنصورَ – في مذاهبها ، وتنافرَتْ في مفاخرها ، فإليه[3] مَفزَعُها ، وهو المَقنَعُ في فَصلِ القضيّةِ بينها ، لاستيلائه على المفاخرِ بأسرها ، وعلمِه بسرِّها وجَهرِها . وقد ذهبَ البهارُ والنرجسُ في وصفِ مَحاسنِهما ، والفخر بمَشابِهِهما كلَّ مَذهبٍ . وما منهما إلاّ ذو فضيلةٍ ، غيرَ أنّ فَضلي عليهما أوضحُ من الشمسِ التي

---

١ نفح الطيب ١ : ٥٣١ والبديع : ١١٥ – ١١٦ .

٢ نفح الطيب ١ : ٥٣١ والبديع : ٧٨ – ٧٩ .

٣ بني الأسلوب في البديع على الخطاب : فإليك . . . وأنت . . لا ستيلائك . . . الخ .

تعلونا ، وأعذبُ[1] من الغَمامِ الذي يسقينا . فإن كانا قد تشبّها في شعرِهما ببعضِ ما في العالَمِ من جواهرِ الأرضِ ومَصابيحِ السماء ، وهي من المَوات الصَّامت ، فإنّي أتشبّهُ بأحسنِ ما زيّن الله به الإنسانَ وهو الحيوانُ الناطِقُ[2] . مع أنّي أعطرُ منهما عِطرا ، وأحمدُ خُبْرا ، وأكرمُ إمتاعاً شاهداً وغائبا ، ويانعاً وذابلا . وكلاهما لا يُمتِّـعُ إلاّ ريثما يَمنع[3] . ثم إذا ذَبَلَ تَسْتَكْرِهُ الأنوفُ شمّه ، وتستدفعُ الأكفُّ ضمّه ، وأنا أمتّعُ رَطْباً ويابساً ، وتَدّخرُني الملوك في خزائنِها وسائر الأطباء ، وأصرّفُ في منافع الأعضاء[4] . فإن فخَرا باستقلالهما على ساقٍ هي أقوى من ساقي ، فلا غروَ إنّ الوَشيَ ضعيف ، والهواء لطيفٌ ، والمسكَ خفيفٌ

* وليس المجدُ يُدرَكُ بالصِّراع *

وقد أودعتُ — أيّد اللهُ مولانا — قَوافيَ الشعر من وَصفِ مَشابهي ما أودعاه ، وحضرتُ بنفسي لئلا أغيبَ عن حضرتهما ؛ فقديماً فُضّلَ الحاضرُ وإن كان مفضولاً ، ولهذا قالوا ألذُّ الطعامِ ما حضرَ لوقته ، وأشعرُ الناسِ مَن أنت في شعره ؛ فلمولانا أتمُّ الفضل في أن يفصلَ بحُكمه العدل . وأقول :

شَهِدتْ لنُوّارِ البَنَفسجِ ألسنٌ   من لَونِه الأحوى ومن إيناعِه

---

١ البديع : وأعرف .

٢ زاد في البديع : من أدوات خلقه وأنفس ما ركب فيه من مواد حياته .

٣ البديع : وكلاهما لا يمتع إلا ريثما يبدو للعيون ويسلم من الذبول .

٤ تصرف ابن بسام في العبارة هنا ، بحيث ابتعدت كثيراً عما في البديع .

لمَشابهِ الشَّعر الأثيثِ أعارَه الـ قمرُ المنيرُ الطَّلْقُ[1] نورَ شُعاعه

ولربَّما جمَدَ النَّجيعُ من الطَّلي في صارم المنصور يوم قراعه

فحكاهُ غيرَ مُخالف في لونه لا في روائحه وطيبِ طباعه

ملكٌ جهلْنا قبلَهُ سبُل الهدى حتى وضَحنَ بنَهجِه وشراعِه

في سَيفِه قِصَرٌ لطول نِجادِه وتَمامِ ساعدِه وفُسحةِ باعِه

ذو همَّةٍ كالبرقِ في إسْراعِه وصَريمةٍ كالحينِ في إيقاعِه

تلقَى الزمانَ له مُطيعاً سامعاً وترى المُلوكَ الشُّمَّ من أتباعِه [٤٢]

قال ابنُ حيَّان : وكان عبدُ الملك بعد أبيه قد فوَّض إلى عيسى بن سعيدِ القطَّاعِ وزيره أمرَه ، فصار عيسى قيِّمَ الدولة ؛ فحسده رجال العامريَّة ، وحملوا طَرَفة فتى عبد الملك على مُناوأته ؛ فسمَتْ نفسُ طرفةَ لذلك لفَضلِ همَّة كانت له ، وحظ أدبٍ ميَّزه عن طبقته . فاستخلص من أعداء عيسى لُمَّةً ، منهم عبدُ الملك الجزيريّ وأبو العبَّاس بنُ ذَكوان[2] ، فزيَّنَ له التقدمُ عليه . وعرَّفه الجَزيريُّ ما تَهيَّأ لكافورِ الأسودِ مَولى محمدِ بنِ طُغجٍ صاحبِ مصرَ من المُلكِ باسم مولاه تلك المدةَ الطويلة ، وأنَّ محلَّه فوقَ محلِّ ذلك بابيضاض النفس والجِلد ، واكتمالِ الفضل والمعرفة . فأصغى له طرفةُ وتدبَّرَ برأيه ، وحملَ مولاه على أن قدَّمَ عبدَ الملكِ الجزيريَّ إلى خطَّة الوزارة . فعارضَ عيسى في كلّ أمرٍ حتى كادَ يُسقطُه لولا استْخذاءُ[3] عيسى له . ثم اعتلَّ عبدُ الملك

---

١ البديع : الصلت .

٢ هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان ، انظر دراسة لي عنه وعن أسرة بني ذكوان في كتاب دراسات في الأدب الأندلسي ص : ٣٥ – ٨٣ .

٣ ص : استخدام .

المظفّرَ ، فانفردَ طرفةُ بخدمتهِ . وكثُرَ الإرجافُ به . فحمّلَ له[1] ابن الجزيري بغيه وسوء رأيه . وجسّره على أن يضبطَ الأمرَ لنفسه باسم الطفلِ مولاه . على رسم كافورٍ الذي ذكرناه .

ثم رأى المظفّرُ أن يُخرجَ عسكراً إلى شرقيّ الأندلسِ لإنفاذ[2] ما فيهِ من الأطعمةِ . فهشّ فتاهُ طرَفةُ لذلك ، وسأل مولاه أن يُخرجَ معه عيسى الوزيرَ وقد أسرَّ الإيقاعَ به ، فأجابه مولاه لذلك . فأخذ في التجهّز وأسرف فيما أتاه ، ولم يُبقِ من وجوهِ القوّادِ وصنوفِ العُددِ والحَلْي وكرائم النجائبِ عند مولاه إلاّ ما لا قدْرَ له حتى صارَ في أبّهةِ الملوك.وأخذ الوزيرَ عيسى في الخروجِ معه ، فتثاقلَ له ، وأحسَّ بالشرّ في صحبته ورامَ الانفرادَ بالمظفّرِ في ذلك ، فلمْ يُمكنه لضَبْطِ طرفةَ بابَ مولاه ؛ فألقى عيسى بنفسهِ إلى مفرّجٍ صاحبِ مدينةِ الزاهرة ثِقةِ المظفّر واستغاثه لمحنتِه . فوصّل له رقعةً إلى المظفّرِ شرحَ فيها مُرادَ طرفةَ . عند ذلك أتي [طرفةُ] من مأمنِه واستعفى الخروج جملة[3] ، فلم يساعِفْه مولاه. فنَفَذَ لطيّتِه ، والعُجْبُ يقودُه والحَيْنُ يسوقُه . وخلا وجهُ المظفّر لعيسى بعدَه ، وذكرَ له أشياء حَنِقَ بها على طرفةَ . وتعجّلَ المظفّر الخروجَ إلى غزوتِه إثرَ طرفةَ ؛ فخرج معه وزيرُه عيسى ، والجزيري يغالِطُه في القدحِ في طَرفةَ ، وفي قلبِه من عيسى النارُ المتضرّمةُ ، وعيسى أعلمُ الناسُ بنفاقِه ، وأحبّهم في سفكِ دمِه . فلما صار عبدُ الملِك إلى بعضِ الطريقِ دبّر عيسى على ابنِ الجزيريّ أن ينصرف إلى الحضْرةِ ليحصلَ

---

١ ص : فحمله .

٢ ص : لانفاق .

٣ ص : معه .

قَبضَ بقايا الخَراجِ والنفقاتِ ، ولم يحسّ بما دُبّرَ عليه وعلى صاحبِه . فلما وصلَ المظفّرُ سرقُسطةَ ، وطرَفَهُ مُرتقبٌ قدومَ مولاه على مقْرُبةٍ منها ، دخل في أبّهتهِ وتعبئتهِ وصارَ إلى قصْرِ مولاه مُدلاً بمنزلته ، فعُدلَ به عن مَجلسِه ولم تقعْ عينُ المظفّرِ عليه ، وقُيّدَ لوقتِه ، وأخرجَ إلى الجزائر الشرقيّة . فلم يكنْ بين دُخوله سَرَقُسْطَة أميراً وخروجِه عنها أسيراً إلاّ ساعة . واتّخذَ الناسُ حديثَه عجَبا . ثم أنفذ المظفّرُ إلى الحضرةِ بضمّ عبدِ الملكِ الجزيريّ إلى المطبَقِ بالزّاهرة . وكتب عيسى الوزيرُ إلى مُفرّجِ العامريّ وإلى عبدِ الملك بن مَسلمةَ ، وكانا من أعداءِ ابن الجزَيري ، وحرّضَهما على إبادتِه ؛ فأدخلَ عليه في مُطْبقِه قومٌ[1] من السّودانِ وخنَقوه ، وأشيعَ موتُه . وأخرجَ ميتاً بعد أيام ، وأسلمَ إلى أهلِه ولا أثر به ، ودُفنَ في شوالَ سنةَ أربعٍ وتسعين . فصُرعَ منه — رحمه اللهُ — يومئذٍ فارسُ نثرٍ ونظام ، ومُزّقَ بقتلِه وشي الكلام . وكانَ يُشبهُ في ذكائِه وأدبِه مع عَقْربيّةِ الطبعِ ، وكثرةِ الضرّ وقلةِ النفعِ ، محمدَ بنَ الزيّاتِ في ذلك الصّقع . أخبرني أبي خلفُ بنُ حُسين قال : سألتُ الذي تولّى قتلَ ابنِ الجزيريّ في محبِسه فجعلَ يصفُ لي سُهولةَ ما عاناه منه لقَضافتِه وضُعفِ أسرِه ويقول : ما كان الشقي إلاّ كالفرّوجِ في يدي ؛ دققت رقبته بركبتي فما زادَ أن نفخَ في وجهي . فعجبتُ من جهلِ هذا الأسود .

---

[1] ص : قوماً .

رجع ما انقطع

وكان صاعدٌ قد طُولِبَ في أخرياتِ تلك الدَّولةِ ، وانتهتْ به الحال ، إلى أن أغرِمَ في خبرٍ طويلٍ مائةَ مثقالٍ ، فاستغاثَ عليَّ بنَ وداعةَ[1] أحدَ الفُرسانِ الأبطالِ ونُبَهاءِ الدولةِ – كان – في ذلك الأوان ، وكتب إليه رقعةً قال فيها :

إني على وَهَني ، وما أخذَهُ الدهرُ مني ، ونَحتَه من قِدْحي ، لأربأ بالفضلِ أن ينحطَّ إلاَّ في مَصَابه ، ويُحلَّ رحلَه في غير مَعَانِه . فلم أحوّم على أحدٍ طيرَ رجائي ، ولا رَمقْتُ بأملي إلاَّ من نوَّهَ اللهُ باسمِه ، وناسَبَ بين أحواله ، وشابَه بين خِلاله ؛ فسُبحانَ من جَعلَ سِنانَكَ عِدْلَ لسانِكَ ، وبيانَكَ كفءَ طِعانِك ، فالألسنُ تتنادمُ على وَصفِك ، والقلوبُ تُعاقِرُ خمرةَ حبِّكَ ، خبيئةٌ أذاعَها اللهُ منكَ ، وذخيرةٌ أبرزها الدهر بك . وما زلتُ في الأيامِ التي تعرفُها منقِّباً عن محاسنِك ، بحّاثاً لآثاركَ بالعُدوة وذَواتِها ، ومُقارعَتِك الأهوال ، ومُماصَعَتك الأبطال ، عاركاً بجنبيك شوكةَ [٤٣] الأسنّة ، ومُناجياً أطرافَ الأعنّة ، فأذكُرُ بك صعاليكَ العرب وذؤبانَها ، وشُعراء الفُرسانِ وغِربانَها ، كَعنترة وزيدِ الخيل ، وأنتَ بهمةُ[2] السريّة وقرنُ الكتيبة ؛ وغارةَ قومكَ من سُليمٍ على فَزارة ونذيرُها يَهتِفُ : أُتيتمْ يا فزارة ! هذه سُليمٌ والموت ! وأنا ابن عمّك من ربيعةَ ، إذْ هي وسُليم أحلافُ ، فالعدنانيّةُ تلفّنا ،

---

[1] أبو الحسن السلمي ، علي بن وداعة ، وصف إلى جانب البطولة بالأدب البارع والشعر الرائع ، انظر الجذوة : ٢٩٧ وترجم له ابن الأبار في الحلة ١ : ٢٨٢ ونقل بعض ما جاء هنا في الذخيرة .

[2] ص : يمين .

والنسبُ يضمُّ شَعبنا . وفي البلدِ من وَترّني فاستقادَ منه لساني ، وظلمني فانتصر لي حُماة كلماتي [1] . فأرسلتُها فيه شُعثاً قباحاً ، موروثةً في الأعقابِ خالدةً على الأحقاب ، أشردَ من نعامة ، وألزمَ له من طَوقِ الحمامة ، فهو يبغيني الغوائل ، ويبثُّ لي الحبائل .

ومن شعره فيه :

أبا حسنٍ ربيعةُ مِن سُليمٍ ... سنانٌ زانَ عاليةَ الرماحِ
وإني عائذٌ بكَ مِنْ هنات ... نَحتَتْن دعائمي نَحْتَ القداح
فكرَّ على ابنِ عمّكَ وانتشلْهُ ... فليس حمىً ابنِ عمّك بالمباح
فإنَّ الجارَ عندكَ بين جنبيْ ... عُقابِ الدَّجْنِ كاسِرةِ الجناح .

ومنها في المدح :

تُصَدُّ الخيلُ باسمك في غديرٍ ... على ظَمإٍ عن الماء القَراحِ
تظنّكَ طالعاً ببني سُليمٍ ... عليها عندَ مُفتضَحِ الصباح
إذا ساورتَ قِرْنَك في مَكَرٍّ ... جعلتَ له ذِراعَك كالوشاحِ

فما انتفع بعلي بن وَداعة . ولا كانت له فيه شفاعة .

وكان خاطَبَ أيضاً هشامَ بنَ الحكَمِ الخليفةَ في تلافي حالِه ، فما أصغى له لزُهده فيه وفي أمثاله . وعوجل [2] عليُّ بنُ وداعة وقُتِلَ في خبرٍ

---

[1] ص : كماتي .
[2] ص : وعولج .

طويل . فانسدَّ بابُ الفَهمِ بقرطبة يومئذٍ وطَمَسَت العبيدَى العاقبون له رسمَه . وأيسَ ذوو الأحسابِ منهم . فتفرقوا شذَرَ مذرَ ، ولم يبق بها منهم مَن له خَطَر . وتناصَرَتْ خِلالُ المكروهِ فيما بعدُ على صاعدٍ بارتجاجِ الفتنةِ . غلاءَ سِعْر ورِخَصَ شعْر ، حتى اختلَّ وعجَزَ عن ستر ولده وأهله . وبخل هشامٌ على ذلك كلّه بتسريحِه والإذن له في الانطلاق عن الأندلس فَرَقاً من خُبثِ لسانِه . فخرج مُستخفياً وجاز بشَلطيشَ على يدِ أبي زيدٍ البكريّ رئيسِها سنةَ ثلاثٍ وأربعمائة ، فاتصلَ بصاحب صقلّية ، وفارقَ البؤس وراجعَ النّعمة . ثم رجع إلى الأندلس إثرَ غلبة سليمانَ والبرابر على قرطبةَ مُستخرجاً لمن تخلّفَ بها من أهلِه وولده . وتعرّض أيضاً لمديح سليمانَ فما أنجحَ معه ولا أفلحَ . وقد كان استطرفَ أوّل دولته،فرَئمه رئمان العَلُوقِ [1] ولم يَقْرِه قَرضاً لاستحالته عن فعل الجميلِ جُملة . ثم عجّل الانكفاءَ إلى صقلّية ، ومات بها رحمه الله سنة عشرٍ وأربعمائة .

قوله : « جعلت له ذراعك كالوشاح » أخذه من قول آسر يزيد بن الصّعق [2] :

---

[1] العلوق : هي التي ترأم بأنفها وتمنع درّها ؛ أو هي لا ترأم الولد جملة؛وفي المثل: عاملنا معاملة العلوق ترأم فتشم ، وقال أفنون التغلبي :

أم كيف ينفع ما تأتي العلوق به رئمان أنف إذا ما ضن باللبن

[2] البيتان لقيس بن زهير العبسي ، انظر حماسة الخالديين ١ : ٩١ ووردا دون نسبة في البيان ٣ : ٢٤٦ والحيوان ٦ : ٤٢٥ وشرح ديوان زهير : ٥٤ ونقد الشعر : ٩١ والثاني في العمدة ١ : ٣٠٢ . وانظر الذخيرة ٣ : ٣٨١

تركتُ الركابَ لأربابها[1]   وأكرهتُ نفسي على ابنِ الصَّعقْ
جعلتُ يَدَيَّ وشاحاً له   وبعضُ الفوارس لا يُعتنَقْ

ونُعقِبُ أخبارَ صاعدٍ بمصادرَ ومواردَ من أخبارِ ابن أبي عامرٍ ، مَنسوقةَ الأوائلِ والأواخر ، مقيدةَ العيونِ والنوادِر . ونُلمعُ بشيءٍ من الأسبابِ التي ذَلّلت له الصّعاب ، وأخضعتْ له الرقاب . وإنما نعتمد من الأخبارِ أشهرَها بُسوقا ، وأخصرَها طريقا ، وأمسَّها بالأدبِ رَحِما ، وأشبهها بغَرَضِ هذا الكتابِ أرضاً وسما . وبحسبنا من دولةِ ابنِ أبي عامرٍ أن ننقلَ نصَّ ابنِ حيّان : كيف طلعت نجومُها ، ومن أينَ نَشأتْ غيومُها ، ونُتلي ذلك كيف مالَ ظِلُّها واضطربَ حبلُها ، إذ أكثرُ ما يقال للحاضرِ من أين طَلَع ، وللغابرِ الدابرِ ما صَنع . ونهايةُ المُراد . علمُ الكونِ والفَساد .

تلخيص التعريف بدولة ابن أبي عامر من الأول إلى الآخر[2]

هو أبو عامرٍ[3] محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ عامرِ بن أبي عامرِ محمدِ بن الوليدِ ابن يزيدَ بن عبد الملك المعافِريّ . وعبدُ الملك جَدُّه هو الداخلُ بالأندلسِ مع طارقٍ مولى موسى بنِ نُصير في أولِ الداخلينَ من المَغربِ . وهو في قومِه وَسيط .

---

١ حماسة الخالديين : النهاب لأربابه .

٢ مصادر ترجمته متعددة : نشيرمنها إلى المعجب وأعمال الأعلام وابن عذاري ونفح الطيب والجذوة : ٧٣ والحلة ١ : ٢٦٨ - ٢٧٧ وكتب التاريخ العامة كابن الأثير وابن خلدون...الخ

٣ انظر البيان المغرب ٢ : ٢٥٦ وما بعدها .

ونقلتُ من خطّ ابنِ حيان قال[1] : انتهت خلافةُ بني مروانَ إلى الحكَمِ تاسعِ الأئمةِ فيها ، فتناهتْ في السَّرْوِ والجلالةِ والكمال والأبّهة ؛ ونظمَ رواةُ الأخبارِ وحملَةُ الآثار من مناقبه ما طارَ كلَّ مطار في جميعِ الأقطار ، إلاّ أنّه — تغمّدَ اللهُ خطاياه — مع ما وُصِفَ من رجاحتِه ، كان ممن استهواهُ حُبُّ الولَد وأفرطَ فيه ، وخالفَ الحزمَ في توريثِه المُلكَ بعدَه في سنّ الصِّبا ، دون مَشْيَخَةِ الإخوةِ وفتيانِ العشيرة[٤٤] ومَن يكمُلُ للإمامةِ بلا محاباةٍ ، فرْطَ هوًى ووهلةً انتقدها الناسُ على الحكَمِ وعدُّوها الجانيةَ على دَولتِه . وقد كان يعيبُها على ولد العباسِ قبلَه ، فأتاها هو مختاراً ولا مردَّ لأمرِ الله . وذلك أنه نَفَسَ بسلطانه على ثلاثةِ رجال من إخوتِه ولدِ الناصر : عبدِ العزيز شقيقِه والأصْبَغِ والمغيرة ، مع جماعةٍ من ولدِ الخلفاء كهولٍ وشبّانٍ ، ما فيهم إلاّ مضطلِعٌ للأمرِ قويّ عليه . فتخطّى جماعتهم إلى ابنِه هشامٍ وهو في الوقتِ طفلٌ ما بلغَ الحُلم .

قال ابن بسام[2] : وحُدّثتُ عن أحمدَ بنِ زيادٍ عن محمدِ بنِ وضّاح عن رجلٍ يتكلّمُ في الحِدْثان أنّه قال : لا يزال ملكُ بني أميةَ بالأندلسِ في إقبالٍ ودوامٍ ما توارثَه الأبناء عن الآباءِ ، فإذا انتقلَ إلى الإخوةِ وتوارثوه بينَهم فقد أدبرَ وانصرف . فلعلّ الحكَمَ بهذا الخبرِ توهّمَ ، فجاذَبَه عن إخوتِه ؛ وإن كان ذَوو اللبّ والنظر ، لا يلتفتونَ إلى مثلِ هذا الخبر .

---

١ نقل المقري جانباً منه في نفح الطيب ٣ : ٨٥ .
٢ انظر المصدر السابق ٣ : ٨٦ .

رجعُ الخبرِ إلى ابن حيّان[1] : وكانَ جوذَرٌ وفائقٌ فتَيا الحكَمِ قد أخفَيا موتَه . ودبّرا على صرفِ البيعةِ إلى أخيه المغيرةِ . وكان قال له فائقٌ : إنَّ هذا لا يتمُّ لنا إلاَّ بقتلِ جعفرِ المُصْحَفي . فقال له جوذر : ونَستفتِــحُ أمرَنا بسفكِ دم شيخِ دَولةِ مولانا ؟ ! قال له : هو والله ما أقولُ لك . ثم بعثا إلى المُصْحفيّ ونَعَيا إليه الحكمَ . وعرّفاه برأيهما في المُغيرة ، فقال لهما المصحفي : وهل أنا إلاَّ تَبَعٌ لكما وأنتما صاحبا القصرِ ومدبّرا الأمر . ولكما الرأيُ فيما قُلتماه ؛ فأخذا في تدبيرِ ما رأياه . وخرجَ المصحفيُّ وجمع حاشيتَه وجندَه . ونَعَى إليهم الحَكَمَ وعرَّفَهم مذهبَ جوذرٍ وفائقٍ في المغيرةِ ، وقال : إن بَقينا على ابنِ مولانا كانت الدولةُ لنا ، وإن بدَّلنا استَبْدَلَ بنا . فقالوا : الرأيُ رأيك . فبادرَ المصحفيُّ ببعثِه محمدَ بنَ [أبي] عامرٍ مع طائفةٍ من الجند وقتَه إلى دارِ المغيرةِ لقتله . قال ابنُ أبي عامر : فألفيتُ المغيرةَ مطمئناً لا خبرَ عندَه . فنعيتُ إليه أخاه الحَكَمَ فجزِعَ . وعرَّفتُه جلوسَ ابنه هشامٍ في الخلافة . فقال : أنا سامعٌ مُطيع . فكتبتُ إلى جعفرٍ بحاله وبالصورةِ التي ألفيتُه عليها من السلامة . فراجعني جعفرٌ المصحفيُّ وهو يقول : غررتنا ، اقضِ عليه وإلاَّ وجّهتُ غيركَ مَن يقتُله ! فقُتل رحمه الله خنَقاً . وكانت علةُ الحَكم الفالِج ، وكان تَقدَّمَه عبدُ العزيزِ أخوه بمُدَيدةٍ . وتعطّلَ أخوه الأصبَغُ ببطالةٍ أزالتْ عنه الرَّهبةَ . فذهبتْ عن جعفرِ بنِ عثمان فيهما الحزَّة[2] ، وتوفّرَ اهتمامُه بعدَهما بالمغيرةِ . وكان فتى القومِ كرَماً ورُجْلة ، وممن أشيرَ نحوَه بالأمرِ بأسبابٍ باطنة ، فأخذ له أهبتَه ؛ فلما قَضَى الحكمُ نحبَه ليلة

---

١ قارن بما أورده ابن عذاري ٢ : ٢٦٠ وما بعدها ، وما جاء في النفح .

٢ لعل الصواب : الحرة ، إشارة إلى الغيظ على سبيل المجاز .

الأحد الثالثةَ من صفرٍ سنةَ ستٍ وستين . بادر بالمغيرةِ على الصّفةِ المذكورة .

وافتتحَ المصحفيُّ أمرَه بعدُ بإيثارِ النّصَفةِ . واطّراحِ الكِبر . وكان أولَ ما أتاه من ذلك صدرَ تقلّدِه حجابة هشامٍ – وقد رُفعَ فِراشُه فوقَ فراشِ الوزراء أصحابه . وأبدلَ بالكتّانِ الدّيباج على سالفِ العادة – أن قال : إني أستحي من أصحابي أن أتمهّدَ أفضلَ مِن فُرُشِهم . مع عَجزي عن دَركِ شأوهم . غيرَ أنّا نسلّمُ لأميرِ المؤمنين اختيارَه : فإمّا يُساوي بيننا في فَرْشِ كرامتِه . وإمّا أقرّنا على الأمرِ الأول ولا كُفرانَ لنعمتِه . فأفرشَ للجميعِ . مذ زالَ فرشُ الديباج ، فرشَ الكتّانِ ، فجرى عليهم الرسمُ إلى آخر الزمان . واستُحسنَ فِعلُ جعفرٍ يومئذٍ وعُدَّ مِن [بُعْدِ] غَوره . وعوّل جعفرٌ في سائرِ أوقاتِ دولته على هذا النوعِ من السياسة . فلزمَ التواضعَ للناسِ . وأطلقَ لهم البِشْرَ وألانَ كنفَه ووطّأ خُلُقَه . ورأى أنّهم بذلك يصلُحونَ له . دون البذلِ لذاتِ اليدِ والمواساةِ في النّعمة ؛ فاستأثر بالأعمالِ . واحتجنَ الأموالَ ولم يُنِلهم ، وبنى المنازل وهدمهم . وشحّ بالنَشبِ وسخا بهم . وعارضه من محمد بن أبي عامرٍ فتىً ماجدٌ أخذَ معه بطرَفَي نقيضٍ : بالبخلِ جوداً ، وبالاستبدادِ أُثْرة . [و] باقتناء الضياعِ اصطناعَ الرجال . حتى غلبَه عمّا قليل . وتحركتْ حالُ ابن أبي عامر لأوّلِ الدولةِ . وشارك في التدبيرِ بحقّ الوزارةِ ، وتقوّى على أمره بنظرِه في الوَكالةِ وخدمتِه للسيدةِ صُبْح أمّ هشامٍ . وكانت حالُه عندَ جميعِ الحُرُمِ أرفعَ الأحوال ، بقديمِ الاتصال ، وحُسنِ الخدمةِ ، والتصدّي لمواقعِ الإرادةِ ، وطلاقةِ اليدِ في بابِ الإلطافِ والهَديّة . فأخرجنَ له أمرَ الخليفة هشامٍ إلى حاجبِه جعفرٍ في الاستعانةِ به

في التدبير والمشورة له في الأمور ، والاختصاص به على الجُمهور . وكانَ جعفرٌ لمحمدٍ على بعضِ ما أريد منه ثِقةً به وسُكوناً إلى جهته ، فامتثلَ ما أمِر به في ابنِ أبي عامر لغفلتِه ، وتَزيّدَ في برّه . وأشركه في سرّه وجَهره. وانهمكَ[1] [٤٥] ابنُ أبي عامرٍ في مُغالطةِ جَعفر ، وأراه أنه صاحبُه الحائط لحالِه ، وعوّلَ جعفر على رأي محمد ، ووصلَ يدَه بيدِه ، واستراح إلى كفايته ، وابنُ أبي عامر يمكُرُ به ويُضَرّب بين حَسَدته ، ويناقضُه في أكثرِ ما يعاملُ به الناس ، ويُجعلُ[2] إليهم بالبَذلِ وقضاء الحوائج ، ويتقدّمُ من المعالي إلى ما يُحجِمُ جعفرٌ عنه ؛ يستضمُّ الرجالَ وجعفرٌ يَدفعُهم ، ويَزيدُهم وجعفرٌ ينقُصهم ، يظنُّ أنه كَلٌّ يحمله عنه . فيا لكَ من جامعٍ لمحمدٍ ومُفرقٍ عن جعفر ! إلى أن هَوَى نجمُه وزال أمرُه .

وكان أوّلَ اتصالِ ابنِ أبي عامر بالحَكَم أنّه وُصِفَ له فاستَخلفَ على قضاءِ كورةِ ريّه . ثم تصرّفَ في وَكالةِ صُبْحٍ أمِّ هشام . فاضطلع بكلّ ما قُلّد . استهوى هذه المرأةَ بحُسْنِ الخِدمةِ – وهي الغالبةُ على الحكَم – فأزلفَتْهُ . ووليَ الشُرطةَ والسّكةَ والمواريثَ ؛ والسكةُ يومئذ أعلى الخُطط في الإفادةِ . وقُرِن له بهذا كلّه القضاء باشبيليةَ . فعلَتْ حالُه وعَرُضَ جاهُه . وعَمُرَ بابُه في حياةِ الحَكم . وهمّتُه ترتمي به وراء ما ينالُه من الدنيا أبعدَ مَرمىً ، وهو في كل ذلك يغدو إلى بابِ جعفر ويروح . ويختص به ويتحقّقُ نصيحتَه . إلى أن أحظاه الجَدُّ وساعده القضاء . فأسقط جعفراً . فلمّا انفردَ بشأنِه وتمكّنَ من سلطانِه ،

[1] ص : وانتهك .
[2] ص : ويستعمل .

توثّقَ لنفسه وحصّنَ حاله ، ورمى إلى الغَرَض الأقصى مِن ضَبط المَلك والحجْر عليه والاستبداد دُونه . وامتثلَ رَسْمَ المستغلبين على سُلطان وَلَد العبّاس بالمشرق من أمراء الدّيلم في عَصره ، فنالَ بُغيتَه ، وتهنّأ معيشتَه ، وأورثَه عَقِبَه بعدَه ، من غيرِ اقتدارٍ عليه بجند خاص ولا صيالٍ بعشيرةٍ ، ولا مُكاثرةٍ بمال ولا عدّة ، بل رمى الدولةَ من كِنانتِها ، وعدا عليها بأعضادِها ، وانتضلَها بمشاقِصِها ، وأنفقَ على ضَبطِها أموالها وعُدَدها ، حتى حوّلها إليه ، وسَبَكها في قالَبِه ، وسلخَ رجالَها برجاله ، وعفّى رُسومَها بما أوضحَ من رُسومه ، وأسقطَ رجالَ الحَكَم من سائرِ الطبقات : الكتّاب والعُمّال والقُضاة والحكّام وأصحاب السيوفِ والأقلامِ ، ومزّقهم ، وأقام بإزائهم مِن تخريجه واصطناعه رجالاً سدّوا مكانهم ، ومَحَوا ذكرَهم ، أعانوه على أمره .

وأوّلُ[1] عُروةٍ فَضّ ابنُ أبي عامرٍ من عُرَى المُلك جماعةُ الصَّقالبة ، استخرجَ منهم بأسبابِ المُصادرةِ أموالاً جمّةً استأثرَ بأكثرها ، وتتبّعَ لذلك كُتّابَهم وأسبابَهم وقتاً بعدَ آخر ، وتقسّمتهم أيدي القَدَرِ نفياً وقتلا ، صبراً وغَلَبة ، سِراً وعَلانية ، حتى هَلَكوا عن آخرهم في أسرعِ مُدّة . واختلفتْ مقاتلُهم بحسبِ استيفائهم مُدَدَ أعمارهم ، فلم يَصِحّ لي تاريخُ ذلك على حقيقته . فكانت تلك الطائفةُ أوّلَ مَن ظَهَر انتقامُ اللهِ تعالى بابن أبي عامر منها ؛ فكانوا جبّارين قاسطينَ في بلاده ، متمرّدينَ على عباده ، فأرسله بقدرته على هذا النَّمَطِ من خَلْقه فأبادهم ، ونجا أهلُ السلامةِ من سَورته ، وتلك عادتُه تعالى في مَن نَكَبَ عن سبيله .

---

[1] قارن بابن عذاري ٢ : ٢٥٩ ، ٢٦٢ – ٢٦٤ .

ذكر دفاع ابن ابي عامر العدو صدر الدولة وقيامه بالجهاد دون الجماعة وتوصله بذلك إلى تدبير الملك

قال ابن حيّان[1] : وجاشت النصرانيةُ بموتِ الحكَمِ ، وخرجوا على أهلِ الثّغور ، فجاء صُرّاخُهم إلى بابِ قُرطبةَ فلم يجدوا عند جعفرٍ غناءً ولا نصرة . وكان مما غرّبَ به بجبنِه وعظيم أفنِه أن أمرَ أهلَ قلعة رَباح بقطعِ سَدّ نهرِهم آنةَ لغُمقِه وسُوء دِجْلتِه . يلتمسُ بذلك دفاعَ العدوّ عن حَوزتِه ؛ لم تتسع حيلتُه لأكثر من ذلك مع وفورِ جيشِ السلطانِ يومئذٍ وجُمومِ أمواله . فكانت من سَقَطاتِ جعفر المأثورة ، فأنِفَ ابنُ أبي عامرٍ من تلك الدنيّة . وأشار على جعفر بتجريدِ الجيش للجهادِ . وخوّفه سُوء العاقبةِ في تركِه . وأجمعَ الوزراء على ذلك إلاّ جماعةً خاموا عنه ، فبادر ابنُ أبي عامر إليه ووعَدَ من نفسه الاستقلالَ به على أن يختار الرجالَ ، ويُجهّزَ لغزوتِه مائة ألفِ مثقال . فنفرَ بالجيش ودخلَ على الثّغر الجَوفي إلى جليّقية . فنازل حِصن الحامةِ من أعمال رُدْمير . فدخل رَبَضَه وأفشى النّكايةَ وغنم ، وقَفَلَ ووصلَ الحضرةَ بالسّبي إلى اثنين وخمسين يوماً ، فعظُمَ السرورُ وخلَصَ الجندُ له ، واستهلكوا في طاعته لما رأوه من كرَمه .

حدثني أبي خلفُ بن حسين قال[2] : تذاكرنا جُودَ ابنِ أبي عامر [٤٦] يوماً ،

---

١ انظر نفح الطيب ٣ : ٨٧ .

٢ يتابع المقري النقل في النفح ٣ : ٨٨ .

وبالحَضرةِ محمدُ بن أفلح غلامُ الحكم . فقال : عندي من جودِه غريبةٌ ، أنكحتُ بنتي على عهد مولانا الحكمِ والحالُ بنا ضيِّقةٌ . فاضطررتُ لما أصلِحُ به حالَ الجاريةِ إلى بيعِ لِجامٍ محلّى[1] ثقيل الوزنِ رديء العيار ، وكان عندي لزينتي أيامَ المراكب ، وتقاعدَ فيه التجّارُ فانقطع بي أملي ؛ فوقع في نفسي قَصدُ ابنِ أبي عامر صاحبِ السكّةِ للذائع من كرمِه ، وأعظمُ رغبتي أن يَضربَ لي في السكة دراهم ، فقصدتُه وعرّفتُه رغبتي ، فسارعَ بأطلقِ وجهٍ وقال : سِر إليّ بدارِ الضَّربِ ؛ فجئتُه وأوصلني إلى نفسِه والدراهمُ المطبوعةُ بين يديه . وأومأ إليّ فأخرجتُ اللجامَ وأنا خائفٌ من صَرفِه لسُقوطِ عياره . فوالله ما نظر إليه ولا عايرَه . وراطلني والله باللجامِ بحدائدِه وسيُورِه . فأخذتُ ما لم يَدُرْ في وَهمي أنّي أظفرُ بمثله . وعظُمَ ابنُ أبي عامرٍ في عيني . وقُمتُ عنه وحِجْري ملآن ولا أصدّقُ بما حصَلتُ عليه ؛ فجهزتُ بنتي وفضلَ لي شيءٌ يكفيني ؛ وقلَّ مولاي الحكمُ في عيني وأحببتُ ابن أبي عامرٍ ، حتى لو دعاني إلى معصيةِ الحكم – وهو مالِكُ رِقّي وإمامي – لما قعَدتُ عنه .

مظاهرة غالب مولى الناصر لمحمد بن أبي عامر ومظاهرته على المصحفي إلى أن أسقطه ومات في سجنه

قال ابن حيّان[2] : وكان بين المصحفيّ وغالبِ صاحبِ مدينة سالمٍ

---

١ ص : جلى ؛ وأثبت ما في النفح .
٢ قارن بما في النفح ٣ : ٨٨ .

شيخِ الموالي وفارسِ الأندلسِ غيرَ مُدافَعٍ أشدُّ ما كان بين اثنين من العداوةِ والتقاطُع . فأهمَّ المصحفيَّ شأنُه . وناظرَ الوزراء في ما بدا من تثاقُلِه في الذَّبِّ عن الثغر . فأشاروا باستصلاحه . وبادر بذلك ابنُ أبي عامرٍ لما أراده من مُظاهرتِه . فلم يزَلْ يقومُ بشأنِه ويخدمُه داخل الدارِ من قِبَلِ الحُرَم كعادتِه حتى تمَّ على إرادتِه . وخرجَ الإذنُ أنْ يُنهضَ غالبٌ إلى ثِنى[1] الوزارةِ ويُدبِّر جيش الثغرِ ، وابنُ أبي عامرٍ جيشَ الحَضرة . ثم خرج ابنُ أبي عامر إلى غَزاتِه الثانيةِ ، واجتمع به وتعاقدا على الإيقاع بجعفرٍ . وقفَلَ ابنُ أبي عامر غانماً ، وبعُدَ صيتُه . فخرجَ أمرُ الخليفةِ هشامٍ بصَرْفِ المصحفيِّ عن المدينةِ ، وكانت في يدِه يومئذ ، فخلَفَ عليها ابنُه . فخرج ابنُ أبي عامرٍ نحو كُرسيِّها في ذلك اليوم والخِلَعُ عليه . ولا خَبَرَ عند جعفر . وإنَّ ابنَه لجالسٌ مَجلسَها في أبَّهتِه ، حتى صَعِدَ ابنُ أبي عامر نحوَه ، فولّى ولدُ المصحفي الدُّبُرَ ناكصاً على عقبِه ، وأُتبِعَ بدابَّتِه ، وعاد إلى دارِه . وملَكَ محمدُ بن أبي عامر البابَ بولايتِه الشُّرطةَ ، وأخذَ على جعفر وجوه الحِيلة ، وخلاه وليس بيده من الأمر إلا أقلُّه. وكان ذلك — زعموا — بتدبيرِ غالبٍ معه عند اجتماعهما بالثغر ، وقال له : سيطيرُ لك ذِكرٌ بهذا الفتح ويَشغَلُ السرورُ أهله عن الخَوضِ فيما تحدثُه من قِصَّة ، فإيّاكَ أن تَخرجَ عن الدار حتى يُعزلَ جعفرٌ عن المدينةِ وتتقلّدَها ، ويزولَ أمرُهُ على البابِ والدارِ ويتمَّ عليه التدبيرُ حتى يُزالَ عن الحجابة . ففعلَ ذلك وضبَطَ المدينةَ ضَبطاً أنسى به أهلَ الحضرةِ مَن سلفَ قبلُ من الكُفاةِ أولي السياسةِ .

---

[1] كذا ولعل صوابه « مثنى » كما هو الشائع عند الأندلسيين .

وانهمكَ ابنُ أبي عامر في صحبةِ غالب ؛ ففطنَ جعفرٌ لتدبيرِ ابنِ أبي عامر عليه بعدُ من وهلتِه ، فكاتبَ غالباً يستصلحه وخطبَ أسماء بنته لابنه عُثمان ، فأجابه غالب لذلك . وكادت تتمّ مصاهرته له . وبلغ ابن أبي عامر فقامت قيامتُه ، وكاتبَ غالباً يخوّفُه الحيلةَ ويهيجُ منه الحقدَ . وألقى عليه أهلَ الدار وكاتبوه فصرفوا غالباً ، ورجعَ إلى محمد بن أبي عامر وأنكحَ ابنته أسماء منه ، وتمّ العقد له في محرمٍ سنة سبعٍ وستين ، وأدخل السلطانُ تلك الإبنةَ إلى قصره وجهـّزَها إلى محمد بن أبي عامر من قِبلَه ؛ فظـَهـَرَ كلّ الظـّهور ، واستوثقَ له التدبير ، وصار عنده جعفرٌ لا شيء ، إلاّ أنه غالطـَه زمنه إلى أن أحكمَ أسبابَ صَرْفه . واستقدَمَ السلطانُ غالباً وقلـّدَهُ خـُطـّة الحجابة مـُشترَكاً مع جعفر . ودخل ابنُ أبي عامر بأسماء بنته ليلة نيروز العام المؤرَّخ ، وكانت أعظمَ ليلةِ عـُرسٍ بالأندلس . ولجعفر في ذلك رسالةٌ إلى السلطان حـَسَنةٌ في بابها تملـّقَ فيها وتصنـّع ، وهو قد أيقنَ بالنكبة ؛ وكفَّ عن اعتراضِ ابن أبي عامر في شيء من التدبير . وابنُ أبي عامر يـُداهنه ولا يكاشفه ، وجعفر يشكُّ في أمره ، قد استولى عليه الإدبارُ والحـَيرةُ . فلم يصحَّ له رأيٌ ولا رويـّةٌ ؛ وانقبضَ الناسُ عنه ، وانثالوا على ابن أبي عامر ، إلى أن صار يغدو [٤٧] إلى قـَصر قـُرطبةَ ويروحُ وحدَه وليس في يده من الحـِجابةِ سوى اسمها ، وابنُ أبي عامر قائمٌ بشروطها ، ينصِبُ الحـَبائلَ لسقوطِ جعفر ، والأقدارُ السماويـّةُ تنجدُه . وكانت لله عندَ جعفر في إيثارِه هشاماً بخلافته ، واتـّباعه شهوةَ نفسه وحظَّ دنياه ، وتسرُّعه إلى قتل المغيرة لأوَّل وهلـَةٍ دون قـِصاص جـَريرةٌ استدركتـْهُ دون إملاء ، فسلـّط عليه من كانَ قـَدَّرَ أنـّه يتسلـّطُ على الناس باسمـِه .

ولما اتفقت على جعفر هذه الأسباب ، جدَّ المقدارُ به وسخِطَ السلطانُ عليه وعلى ولدِه وأنسابه وعلى أخيه هشامٍ وسائر طبقته ، وطولبوا بالأموال وأُخذوا برفع حساب تصرَّفوا فيه لأول الزمان . وأخذهم ابنُ أبي عامر بالخروج عنها ، وتوصل بذلك إلى استئصال أموالهم وانتهاكِ حرمتهم وأبشارهم ، واجتثاثِ أصولهم . وكان هشام ابن أخي جعفر قد بلغ من حَسادَته لابن أبي عامر أن سَرَقَ له في غزَاته الثالثةِ في طريقه رؤوساً للنصارى كانت تُساقُ للحضرة ، فنَفِسه فيها وأمر غلمانه فصبّوها في النهر ، فقامت قيامةُ ابنِ أبي عامر لذلك ، وكاشف آلَ عثمانَ من ذلك اليوم ؛ وتجرَّدَ لإبادتهم فاستبلغَ في مكروهِ هشام وعاجله بالقتلِ في المُطبق قبل عمّه جعفر ، فلما [قتل] استقصى ابن عامر مالَ جعفر حتى باع داره بالرُّصافة ، وكانت من أعظم قصور قرطبة . واستمرَّتِ النكبةُ عليه سنينَ ، مرةً يُحبَسُ ومرّةً يُخلّى ويُقرُّ بالحضرةِ وتارةً يسيَّر عنها ، ولا يُراح[1] في الحالتين من المُطالبة والأذى . إذا سَئِمَ ابنُ أبي عامر إعناته وكَلَه إلى غالبٍ صهره فيتولى كِبْرَه ، ويُضْعفُ عذابَه . والأخبار عنهما في ذلك كثيرة . فلما بانَ عجزُ جعفر وضَعفُه أقِرَّ في المُطبَقِ بالزهراء إلى أن وافاه[2] هنالك حِمامُه وأسلمَ مَيتاً إلى أهله ؛ وما ترك الناسُ بعدُ أن عدُّوه في قتلى ابن أبي عامر ، وزعموا أنّه دسَّ له شَرْبَةَ سمٍ قضت عليه . والله أعلم .

أخبرني محمد بن إسماعيل كاتبُ ابنِ أبي عامر قال[3] : سِرْتُ مع محمد ابن مَسْلمةَ ثقَةِ ابنِ أبي عامر إلى الزهراء لنُسليمَ جسد جعفر بن عثمان

---

١ النفح : ولا براح له .	٢ ص : وفاه .

٣ يستمر النص في نفح الطيب ٣ : ٩٠ . وقارن صياغة ابن خاقان لهذا الخبر في المطمح : ٦

إلى أهله وننظر [1] إلى عَيْنه . وسرنا إلى منزله وما غطّى جسدَه إلاّ كِساء خَلَقٌ لبعض البوابينَ ألقاه على سريره . ودعا له محمد بن مسلمة بغاسلٍ يغسله على فردِ بابٍ اختُلع من ناحيةِ الدار . وخرجنا بنعشه وواريناه ، وما جَسَرَ أحدٌ شهودَه معنا سوى إمام مسجده المُستدعى للصلاة عليه ومن حضره من ولده . فعجبتُ من عُدوانِ الزمان بعد تصريفه له ، وإنّ لي بالاعتبار بشأنه في الحالتين مع قُربِ المدّة لموعظة : وقفتُ له في طريقه من داره وقتَ علّةِ الحكم ، وقد تناهى أمرُه في الجلالة أرومُ أن أناولَه قِصةً . فوالله ما تمكّنتُ من الدُّنوّ إليه لكثافة موكبه ، وأخذ الناس الطرقَ عليه مسلّمين وسائلين ، فانثنيتُ حَسيراً مبهوتاً . فلم تطُلِ المدة حتى سلبه ابنُ أبي عامر حالَه وقبض عليه ، وجعل يحمله في الغزواتِ معه . وسرت في صحبةِ ابنِ أبي عامر فاتفقَ لي أن نزلتُ في بعض المنازل بجلّيقيةَ إلى جَنبِ خِبائِه . وفي ليلة نهَى ابن أبي عامر عن وقودِ النار ليَخفى على العدوّ مكانه . فرأيتُ واللهِ عثمانَ بنَ جعفر يَسقي أباه جعفراً دقيقاً قد خلطه بالماء يُقيمُ أودَه . والشيخُ يحسوه ويَحرصُ عليه ، ضَعفَ حالٍ وعُدمَ زاد ؛ فلا أنسى تلك الموعظة . وما يغترّ بالأيام إلاّ ضعيفُ العقل .

وكان مَهلِكُ جعفر فيما أخبرني به أبي خلفُ بنُ حسين سنةَ اثنتين وسبعين .

وممّا طُولبَ به جعفر مالُ الصقلبي جعفر ، كان الحكمُ وقفَه قِبَلَ خالد بن هشامٍ وتورّع عنه وأوصى أن يوزّع في الكُوَر التي كانت

---

[1] ص : والنظر .

إليه وقته ، تَحلّلاً من مظالم أهلها . فأرجأه عندَ خالدٍ مُدةً إلى أن احتاجَ إليه فقبضَه سرّاً ، واندفع إلى جعفر وأخذ خالد بن هشامٍ براءته منه ، فسُئل جعفرٌ عنه ، فقال : كنتُ خادم الرجل وصاحبَ سرّه فعمِلتُ برسمه ؛ وإن رُجع في الاستدلال إلى زِمامه الماضي الذي كنتُ أقيّدُ فيه الأموالَ الباطنةَ وُجدَ فيه ثبتُه . فجيء في ذلك اليوم بذلك الزّمامِ وقد قُطعَ منه الدَّرْجُ الذي فيه ذكرُ المالِ الباطن ووُصلَ ما انقطع بذلك من الكلام بما بعدَه . وأرشد جعفر إلى هذه الوهلة ؛ وحسِبَ أن مع وجودها لا تلزمُه الحجة . فعَدلوا به إلى بَيداء مُضلّة .

قال ابن حيّان : ولما أمر بضمّه إلى المُطبَقِ بالزهراء ودّع أهله وولَده وَداعَ الفُرقة ، وقال : لستم تروني بعدها حيّاً ، فقد أتى وقتُ إجابة الدّعوةِ وأنا أرتقبه منذ أربعين سنة . وذلك أنّي أسرفتُ على فلان – رجل [٤٨]سُجنَ بعهدِ الناصر– وما أطلقتُه إلاّ برؤيا .قيل لي:أطلِق فلاناً فقد أجيبَتْ فيك دعوتُه ، فأطلقتُه وأحضرتُه وسألتُه ، فقال : نعم ، دعوتُ على مَن شارَكَ في أمري أن يُميتَه اللهُ في أضيقِ السّجون . فعلمتُ أنّها قد أجيبتْ . وندمتُ بحيثُ لا تُغني الندامة . فأطلقتُ الرجل . قالوا :فما لبِثَ في محبسه إلاّ قليلاً وأخرج ميتاً ؛ فسُلّمَ إلى أهله في أقبحِ صورة . وما زلتُ أسمعُ أنّه قُتلَ خنَقاً،واللهُ أعلمُ بالحقيقة . المُغضي على مُحال[1] هذه الخليقة . انتهى ما لخصته من كلام ابن حيان في شأن جعفر بن عثمان .

وكان أحد من اجتمع له في ذلك الوقت نَوعا البلاغةِ في النظم والنثر ، وهو القائل في نكبته :

---

[1] ص : المقضي على مجال .

لا تأمننَّ من الزمانِ تقلّبــاً ... إنَّ الزمانَ بأهلهِ يتقلّبُ[1]
ولقد أراني والليوثُ تَخافُني ... وأخافني من بعدِ ذاكَ الثعلب
حسبُ الكريمِ[2] مَذَلّةً ونقيصَةً ... ألاّ يزالَ إلى لئيمٍ يطلُب
وإذا أتتْ أعجوبةٌ فاصبِرْ لها ... فالدَّهرُ يأتي بالذي هو أعجب

وحدَّث غير واحدٍ أنه استعطف المنصورَ بهذه الأبيات[3] :

هَبْني أسأتُ فأينَ الفضلُ والكرَمُ ... إذْ قادني نحوَكَ الإذعانُ والنّدَمُ
يا خيرَ مَنْ مُدَّتِ الأيدي إليه أما ... تَرثي لشيخٍ نَعاه عندَكَ القلَم
بالغتَ في السّخطِ فاصفحْ صَفحَ مقتدرٍ ... إنَّ الملوكَ إذا ما استُرحموا رَحموا

فأجابه بهذه الأبيات وهي لعبد الملك الجزيري[4] :

ألآنَ يا جاهلاً زَلّتْ بكَ القدَمُ ... تَبغي التكرُّمَ لما فاتَكَ الكرَمُ
نَدِمتَ إذْ لم تَفُزْ منّا بطائلةٍ ... وقلّما يَنفعُ الإذعانُ والنّدَمُ

ومنها :

نفسي إذا جمحتْ ليست براجعةٍ[5] ... ولو تشفّعَ فيكَ العُرْبُ والعجمُ

---

١ الأبيات في النفح ١ : ٤٢١ والمطمح : ٧ والحلة ١ : ٢٦٧ .
٢ ص : اللئيم ، وهو سهو .
٣ الأبيات في النفح ١ : ٤٠٧ ، ٦٠١ والبيان المغرب ٢ : ٢٨٦ والحلة ١ : ٢٦٥ وقال ابن الأبار : «هذه الأبيات متنازعة ينسبها إلى المصحفي جماعة ، وقد وجدتها منسوبة إلى ابن دراج القسطلي ، وذكر الرقيق أنها لكاتب ابراهيم بن أحمد بن الأغلب » (وانظر البيان المغرب ١ : ١٣١) .
٤ نفح الطيب ١ : ٤٠٨ ، ٦٠١ والحلة ١ : ٢٦٧ والبيان المغرب ٢ : ٢٨٦ .
٥ الحلة : إذا سخطت ليست براضية .

وأخبرتُ أنّ المصحفي لما بلغ إليه هذا الجوابُ قال[1] :

لي مُدّةٌ لا بدّ أبلُغُها فإذا انقضَتْ أيّامُها مُتُّ
لو قابلَتني الأسدُ ضاريةً والموتُ لم يَدْنُ[2] لما خِفتُ
فانظرْ إليّ وكنْ على حَذَرٍ فبمثلِ حالِك أمسِ قد كنتُ

قال ابن بسّام : ومما يُروى لجعفر المصحفي عند ظهورِ ابنِ أبي عامر عليه ، وانتزاعه ما كان من الحِجابة في يديه ، وإفضائه به إلى هذه الحالِ ، من الهضم والاعتقال ، قوله[3] :

تندمت والمغرور من قد تَندّما وهل ينفع الإنسانَ أنْ يتندّما
غرَستُ قَضيباً خلتُهُ عُودَ كَرَمةٍ وكنتُ عليه في الحوادثِ قَيّما
أكرّمُهُ دَهري فيَزدادُ خِسّةً[4] ولو كان من عودٍ كريمٍ تكرّما

جمل وجوامع من كبار الأحداث بالدولة العامرية[5]

قال ابن حيّان : أوّلُ ذلك الوحشةُ الحادثةُ بين ابن أبي عامر والخليفة هشام ووالدته صبح . والذي أثارها أسبابُ الحسد ودواعي المُنافسة بين

---

١ النفح ١ : ٦٠٣ والحلة ١ : ٢٦٧ .
٢ الحلة : لم يقدر ؛ النفح : لم يقرب .
٣ منها بيتان في النفح ١ : ٦٠٣ .
٤ النفح : فيزداد خبثه .
٥ نقله المقري بإيجاز وتلخيص ٣ : ٩١ .

أهلِ القصرِ الهشامي والعامريّ ، وأشاعوا عنه أنّه يريدُ أن يستبدّ بالأمر ، فقام ابنُ أبي عامر في ركائبه لحسمِ حدّته . وعَلِمَ أنّه أُتي[1] من حاشيةِ القَصر ، وكان به عِدّةٌ من الخدمِ ففرّقهم ومزّقهم . ولم يدعْ في خدمة القصرِ إلاّ من استشعرَ له رَهبةً وهيبةً . وأذكى العيون مع ذلك عليهم حتى ملكَ نفوسهم . ثم نظر في شدّ الأموالِ المختزَنَةِ فيه مذ عهد الخلفاء . ووَصفَ أن أيدي الحُرمِ تَنبسطُ عليها .

قال ابن حيان : أخبرني ولدُ الخال من بعضِ ما كانت تفعلُه السيدة صُبح مع أخيها رائقٍ أنها أخرجتْ عندَ تمكّنِ الوحشةِ بينهما وبين ابن أبي عامرٍ مائةَ كوزٍ على أعناقِ الخدَمِ الصقالبةِ مختومةً . قد صيّرتْ أشطَارها مالاً عيناً ذهباً وفضّةً . ومَوّهتْ على ذلك كلّه بالمري[2] والشّهْد وغيرِ ذلك من الأصباغِ الرفيعةِ المتّخَذَةِ بقصرِ الخِلافَة . وكتَبَتْ على رؤوسِ الكيزانِ أسماء ذلك . ومرّتْ بصاحب المدينة فحسبَها كما كتبتْ عليها . وكان في تلك الكيزانِ ثمانونَ ألف دينارٍ . فأحضر ابن أبي عامرٍ جماعةً وأعلمَهم أنّ الخليفةَ مشغولٌ عَن حِفظِها بانهماكِه بالعبادَة ، وأنّ في تضييعِها على المسلمينَ وعلى الدولةِ أعظَمَ الآفَة . فرأت الجماعةُ أنّ كوْنَ الأموالِ بيدِ المنصورِ أسلَمُ . وهو على حِفظِها أقدرُ وأقومُ . ثم نالته على ذلك بقيّةُ عِلّةِ طاولته فأرجفوا به . فانتقلَ ابنُه عبدُ

---

١ ص : أوتي .

٢ المري (muria) : أنواع من مستحضرات تتخذ في صنع الأطعمة منها المري النقيع والطيب ومري الخبز ومري الحوت وبعض أنواعه يصنع من عصير العنب بالأفاويه دون خبز محرق (انظر صفحات متفرقة من كتاب الطبيخ ومفردات ابن البيطار ٤ : ١٤٩ وقاموس دوزي مادة « مري » والحاشية ٤ ص ٩٢ من النفح جـ ٣) .

الملكِ إليه بالزاهرةِ ليُنفِّذَ الأمورَ عنه. فكشفَ أعداؤه وجوهَهُم عند استحكامِ الإرجافِ به . وراسلوا حاشيةَ الخليفةِ هشامٍ سرّاً. وجهّزوا للقيام عليه؛ فلم يكُن فيهم فضْلٌ لذهابِ أعيانِهم [٤٩]. واشتدَّ [ذلك] على ابن أبي عامرٍ ، فتقدّمَ إلى ابنِه عبدِ الملكِ أن يعترِضَ ألفي فارسٍ من المُصطنَعين للدولةِ والغلمان العامريين . وأن يَبيتُوا معَهُ بالزاهرةِ لإنفاذِ العزيمةِ فيما رآهُ من حَمْلِ الأموالِ إليه . وأحكَمَ الأمرَ مع الفُقهاءِ والوُزراء ؛ فركبَ ذلك الجيشُ من بينِ يَدَيه يومَ الثلاثاءِ الثالثَ من جُمادى الأولى سنةِ ستٍ وثمانين . فأتى قصْرَ الخلافةِ بقُرطبة . وأذن لمن وافى من الفُقهاء والوُزراء بالوصولِ إلى مَجلسِه . وشافَهَهم في ذلك . فاعترف الملأ بفضْلِ أبيهِ المنصورِ . فقال لهم عبدُ الملك : إنَّ قوماً ممّنْ يتّصِلُ بأسبابِ الخليفةِ هشامٍ يؤثرُ الفتنةَ ويكْرَهُ الدّعَةَ . فأنكرت الجماعةُ ذلك . وأحبَّ عبدُ الملك الوصولَ بهمْ إلى مَجلسِ هشامٍ ليشافهوه بهذه الكروب العظام . فكَرِه هشامٌ ذلك وامتنع منه وتبرّأ منه أعداء ابن أبي عامرٍ ؛ وانصدعَ جَمعُهُم على انتقالِ المالِ . فنُقِلَ في ثلاثةِ أيامٍ حتى استُنفِدَ جَميعُ ما ظُهِرَ عليه من بيتِ المالِ ، وتعذّرَ ما كان بجوفِ القصرِ من بيتِ مالِ الخاصّةِ ؛ ودافَعَ عنهُ أهلُ الدارِ لقيامِ السيّدةِ أمّ هشامٍ دونَه . أخبرني أبي بعظيمِ ما شاهَدَه من صرامَةِ تلك المرأةِ لابن أبي عامر ووَلدِه ورَميها[١] لهما بكلّ عظيمة . وعبدُ الملك يومئذٍ ساكتٌ يتجرَّعُ غُصَصه . لا يردُّ كلمةً. فبلغ عبدُ الملكِ رغبتَهُ ، وانكفأ إلى أبيه بالزاهرةِ بعد أن ثقّفَ القصرَ . فسكَنَ جأشُ ابنِ أبي عامرٍ بإحرازِ تلك الأموالِ .

---

١ ص : ورميه .

وكان جُملةُ ما حُملَ - زعموا - من الورِقِ خمسةَ آلافِ ألفِ دينارٍ دراهِمَ قاسمية . ومن الذهَبِ سبعمائةِ ألفِ جعفريّة .

ثم استبلَّ المنصورُ ، ووصلَ إلى مجلسِ الخليفةِ هشامٍ مع ابنِهِ عبدِ الملكِ وسائرِ عُظماءِ الدولةِ ، فخلا هشامٌ مع ابن أبي عامرٍ واعترفَ له بالفضلِ والاضطلاعِ بالدولةِ ، فخَرِستْ ألسِنةُ الحسَدَةِ . وعلِمَ المنصورُ ما في نفوسِ الناسِ لظهورِ هشامٍ ورؤيتَهم له ، إذ كان منهُم منْ لم يرَهُ قطُّ ، فأبرزَهُ للناسِ وركبَ ركبتَهُ المشهورةَ ، وقد برزوا له في خلقٍ عظيمٍ لا يحصيهم إلاَّ مَنْ أحصى آجالَهُم ، في بهجةٍ ولبوسٍ وهيئةٍ . معُمّماً على الطّويلةِ ، سادلاً للذُّؤابةِ ، والقضيبُ في يدِهِ ، زيَّ الخلافةِ ، وإلى جانبه المنصورُ راكباً يسايرُهُ ، وقدّامه الحاجبُ عبدُ الملكِ راجلاً يمشي ، ويسيرُ الجيشُ أمامَه ، ومِن المواكبِ وطوائفِ الجندِ والغِلمانِ والفتيانِ القَصْرِيّينَ والعامريين ما عُجِبَ من كثرتهم .

وفاة المنصور بن أبي عامر

قال ابنُ حيان [1] : وخرجَ المنصورُ إلى الغَزاةِ ، وقد وقعَ في مرضِهِ الذي ماتَ منه في صفر سنة اثنتين وتسعينَ وثلاثمائةِ . واقتحم أرض جلّيقيّةَ مِنْ تلقاءِ مدينةِ طُلَيطلةَ ، ومرضُهُ يخفُّ وقتاً ويثقل وقتاً . ونفذَ على عمَلِ بني غومَسَ إلى أرضِ قَشْتيلةَ ، بلدِ شانجُه

1 قارن بالنفح ٣ : ٩٣ .

بن غَرسيَة . وهو كان مطلوبَهُ الذي ألبَّ عليه الجماعةَ . فأحلّ الغارات بأقطاره فقَويتْ عليه العلّةُ هنالك ، فاتّخذَ له سريرُ خشب ودَّعَ عليه أعضاءه ، وسُوّيَ مهادُه مُتطاولَ الشكلِ يمكنه الاضطجاعُ عليه متى خارَتْ قواه . وكان يُحملُ سريرُهُ على أعناقِ الرجالِ ، وسجفُهُ منسدِلٌ عليه ، وعساكرُهُ تحفُّ به وتُطيعُ أمرَه . وكان يُحملُ بين يديه شراعٌ خفيفٌ منصوبٌ يُنقَلُ على الأيدي ، فإذا حركته الخلفَة [1] أنزلَ سريرُهُ إلى جَنبِ الشّراعِ ليقضيَ ما به من حاجةٍ ، وتناولُ وضوءه جاريتانِ من قُوّامه كان حملَهما في غزاته ، فكانتا تسيرانِ وسْطَ الفتيانِ . وما كان بين نزوله واستقلاله إلاّ الفترةُ لقوّةِ الخلْفَة ، بذلك قطعَ أربعةَ عشرَ يوماً حتى وصل إلى مدينةِ سالم . وكان هجرَ الأطباءَ في علته تلكَ لاختلافهم فيها ، واقتصرَ على أوصافِ كاتبه الجزيري عبدِ الملك . وأيقنَ هنالك بالموت ، وكان يقولُ : إنَّ زمامي يَشتمِلُ على عشرينَ ألفَ مُرتزقٍ ما فيهم أسوأ حالاً مني ، وَدِدْتُ أن أقالَ زلّتي وأنا كبعضِ هؤلاء السّودانِ الحاملينَ لسريري . وكان تحملُ سريرَهُ السّودانُ الرّقاصَةُ لِلينِ مشيهم ، وكان يتأذّى بصُنانِ ريحهم مع ما كان حوله من الطّيبِ . فاشتغَلَ ذهنُه يومئذٍ بقُرطبةَ وهو بمدينة سالمٍ وقد أيقن بالوفاةِ . فأمر ابنَهُ عبد الملك بالنّفوذِ لشدّها في طائفة من ثقاتِ غلمانه بعد أن أوصى كلّهُم أشتاتاً وجماعةً . ثم خلا بولده عبدِ الملك يوصيهِ ويودّعه ويقبضُ على يده ، وكلما ذهبَ عنه استردّه مستدركاً بوصيّته . وعبدُ الملكِ يبكي فيُنكرُ ذلك عليه ويقولُ : هذا

[1] ص : الحلبة ؛ والخلفة : الهيضة ، وهي فساد المعدة من الطعام يقال : أخذته خلفة إذا كثر تردده إلى المتوضأ لذرب معدته من الهيضة .

أوّلُ العجزِ والفَشَل ، إلى أن قضى وَطَرَهُ مما بينهُ وبين عبدِ الملك . وأمرَهُ أن يستخلفَ أخاه عبدَ الرحمنِ على العَسكَرِ إلىأن يُنْفِذَ حُكْمَهُ فيه . وخرج عبدُ الملكِ إلى قُرطُبَةَ ومعه القاضي ابنُ[٥٠]ذَكوانَ فدخلها في صدرِ شوال من العامِ . فسكّنَ الإرجافَ بموتِ والده . وعرّفَ الخليفة كيف تركَه .

قال ابنُ حيان [١] : قال لي أبي خلفُ بن حسين : ووجدَ المنصورُ بعضَ الراحةِ . وأمرَ أن تدخُلَ عليه جماعةٌ فدخلتُ في جُملتِهِم ودنوتُ منه وهو كالخيالِ لا يُبينُ كلاماً ، وأكثرُ عملِه بالإشارَةِ كالمسلّمِ المودّع . وخرجنا فكان آخرَ العهدِ به . وماتَ ليلةَ الإثنين لثلاثٍ بقين لرمضانَ من العامِ المورَّخ ، وعلينا في العسكَرِ عبدُ الرحمن ابنُه فعزّيناه ، وكان أوصى أن يُدفَنَ حيثُ يُقبَضُ ولا يُنقَلُ تابوتُه . فدُفِنَ في قصرِه بمدينةِ سالمٍ . ورأوا أنّه اختارَ اللهُ له ، إذ كانت من أطيبِ ما بناه رحمه الله .

وتلوّمَ ابنُهُ عبدُ الرحمَنِ بالعَسكَرِ مدّةَ الأسبوعِ وهو ينتظِر رأيَ أخيهِ عبدِ الملكِ في القُفولِ ، والغلمانُ يضْطَربونَ عليه وطَمِعوا في ردّ الدولة ، فقال لهم عبدُ الرحمنِ : اصبروا . فكَشفوا ما في أنفسِهم له ، وقالوا : وإنّما نحن في حِجرِ آلِ أبي عامرِ الدهرَ الداهِر؟ ! نلحَقُ ببابِ مولانا الخليفةِ هشامٍ ولا نتدبّرُ إلاّ بأمره . فتقدّمَهُ إلى قرطبةَ منهم نحو سبعمائة منهم عُبيدُ اللهِ بن بدرٍ . ثم جاءه بعدُ إذنُ أخيهِ . فقَدِمَ هو بسائرِ العسكرِ . وتجدّدَ يومَ وردَ قرطبةَ من الحُزنِ بابنِ أبي عامرٍ ،

---

[١] قارن بالنفح ٣ : ٩٤ .

وحرّكه خدَمَه ، وقيانُه قد ألبستْ المسوحَ والأكسيةَ بعدَ الوشي والحبر ، ما لا شيء فوقه .

أخبرني أبي قال : سمعتُ محمد بن أبي عامر يوصي ابنه عبد الملك في مرضته تلك ويقولُ في جملة كلامه : يا بنيَّ . لستَ تجدُ أنصحَ لكَ مني فلا تَعدّينَّ مشورتي : قد جرّدتُ لك رأيي ورويتي على حين اجتماع من ذهني ، فاجعلها مثالاً بين يديك . قد وطّأتُ لكَ مهادَ الدولة ، وعدّلتَ لكَ طبقات أوليائها . وغايرتُ لك بينَ دخلِ المملكة وخرجها ، واستكثرتُ لك من أطعمتها وعُددها . وخلّفتُ جبايةً تزيدُ على ما ينوبُكَ بجيشك ونفقتك ، فلا تُطلِقْ يدكَ في الإنفاق . ولا تقبِضْ لظلمة العمّال . فيختلّ أمرُكَ سريعاً . فكلُّ سرف راجعٌ إلى اختلال لا محالة . فاقصدْ في أمركَ جهدكَ . واستثبتْ فيما يرفعُ أهلُ السعاية إليك . والرعيةُ قد استقصيتُ لكَ تقويمها . وأعظمُ مُناها أن تأمنَ البادرة وتسكنَ إلى لين الجنبة . وصاحبُ القصر قد علمتَ مذهبه . وأنّه لا يأتيكَ من قبله شيءٌ تكرهه . والآفةُ ممّنْ يتولاّه ويلتمسُ الوثوبَ باسمه . فلا تنم عن هذه الطائفة جملة . ولا ترفعْ عنها سوءَ ظنٍّ وتهمة . وعاجلْ بها من خيفته على أقلّ بادرة . مع قيامكَ بأسبابِ صاحبِ القصرِ على أتمّ وجه ؛ فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الحنثَ في يمين البيعة إلاّ ما تُقيمه لوليّها من هذه النفقة . فأمّا الانفرادُ بالتدبير دونه معَ ما بلوته من جهله وعجزه عنه . فإني أرجو أني وإياكَ منه في سعة ماتمسكنا بالكتاب والسنّة . والمالُ المخزونُ عندَ والدتك هو ذخيرةُ مملكتك . وعدةٌ لحاجة تنزلُ بك . فأقمْهُ مقامَ الجارحة من جوارحكَ التي لا تبذُلها إلاّ عندَ الشدة تخافُ منها على سائر جسدكَ . ومادّةُ الخراج غيرُ منقطعة

عنك بالحالةِ المعتدلة . وأخوك عبدُ الرحمنِ قد صيّرتُ إليه في حياتي ما رجوتُ أني قد خرجتُ له فيه عن حقه من ميراثي ، وأخرجتُه عن ولايةِ الثّغرِ لئلا يجدَ العدوُّ مَساغاً بينكما في خلافٍ وصيّتي فيُسرع ذلك في نَقْضِ أمري ، ويَجلِبَ الفاقرَةَ على دولتي . وقد كفيتُك الحيرة فيه فاكفه الحيْفَ منك . وكذلك سائرُ أهلِك فيما صنعتُ فيهم بحسبِ ما قدَّرتُ به خلاصي من مالِ الله الذي في يدي . وخلافتُك بعدي أجدى عليهم ممّا صرفتُه ؛ فلا تُضيّعْ أمرَ جميعهم . والحظْهم بعيْني ، فإنك أبوهم بعدي . فخرّجْ ذكورَهم باستخدامِك ، وألحِفْ إناثَهم جناحَك ، جبرَ الله جماعتَهم ، وأحسنَ الخلافةَ عليكم . فإن انقادَتْ لك الأمورُ بالحضرةِ فهذا وَجهُ العمَل ، وسَبيلُ السّيرة . وإن اعتاصتْ عليك فلا تُلقينَّ بيدِك إلقاءَ الأمَةِ ، ولا تطبّيك[1] وأصحابَك السلامةُ فتنسَوْا ما لكم في نفوسِ بني أميّة وشيعتهم بقُرطبة . فإن قاومتَ من توثّبَ عليك منهم فلا تَذْهَل عن الحزمِ فيهم . وإن خفتَ الضعفَ فانتبذْ بخاصتك وغلمانك إلى بعض الأطراف التي حصّنتُها لك . واختبرْ غدَك إن أنكرتَ يومَك . وإياك أن تضعَ يدَك في يد مَرواني ما طاوَعتْك بنانُك، فإني أعرف ذنْبي إليهم .

قال : وسمعتُه يقول لغلمانه عند هذه الوصيّة : تنبّهوا لأمركم . واحفظوا نعمةَ الله عليكم ، في طاعةِ عبد الملك أخيكم ومولاكم ، ولا تغرنّكم بوارقُ بني أمية ، ومواعيدُ مَن يطلبُ منهم شَتاتَكم . وقدّروا ما في قلوبهم وقلوبِ شيعتِهم بقرطبةَ من الحقدِ عليكم ، فليس يرأسُكم

---

[1] ص : تنظر بك .

بعدي أشفقُ عليكم مِن ولَدي. ومِلاكُ أمرِكم [٥١] أن تنسَوْا الأحقادَ وأن تكونَ جماعتُكم كرجلٍ واحدٍ . فإنه لا يُفَلُّ فيكم . وما زال يُكرِّر هذا وشبيهَه لطائفةٍ بعد أخرى حتى ضَعُفَ وشُغِلَ بنفسِه .

قيام عبد الملك ابنه بالدولة

ولمّا وردَ النبأ بمَوته ركبَ عبدُ الملك إلى هشامٍ ونَعى إليه المنصور أباه . فأظهرَ الإشفاقَ . وعرَّفه بما اضطربَ من أمرِ الفتيانِ وعصيانهم ؛ فخرجَ هِشامٌ وأمرَه بتدبيرِ أمرِهم بحسبِ ما يستقيمُ به أمرُ الدَّولةِ . وحذَّره مُواقعةَ الدِّماء وتَلقيحَ الفِتنة . وخلعَ عليه . وأخرج معه كِتابَه بولايةِ الحِجابةِ مكانَ أبيه . وقُرىء على الكافَّةِ . وأنشىء به الكُتُبُ إلى الأقطار . وعاقبَ بعضَ الفِتيانِ العاصِينَ . وأخرجَ بعضَهم إلى سَبْتَة . فما قَفَلوا عنها إلاّ عند وثوبِ المَهْديِّ بنِ عبدِ الجبّار على الدَّولةِ العامرِيَّة . ثم وافى العسكرُ الكبيرُ مع أخيه عبدِ الرحمن . واجتمع الشملُ . وتمكَّنَت الطاعةُ ، وأيِسَ الأعداءُ من دَولةِ بني عامرٍ . وعلِموا أنَّها وِراثة .

وأسقطَ عبدُ الملكِ سُدُسَ الجبايةِ لأوَّلِ ولايتِه في جميعِ أقطارِ الأندلُسِ عَن الرعيَّةِ . فراقَتْ أيَّامُه ، وأحبَّه الناسُ سرّاً وعلانية ، وانصبَّ الإقبالُ والتأييدُ عليه انصباباً لم يُسمعْ بمثلِه . وسكنَ الناسُ منه إلى عَفافٍ ونَزاهةِ نفسٍ . فباحُوا بالنّعمةِ . وأخذوا في المكاسِبِ والزِّينةِ من المراكبِ والملابسِ والقِيان . حتى سَمَتْ أثمانُ هذه الأشياء في مُدَّته . وبلغَت الأندلسُ في أيّامه إلى نهايةِ الجَمال والكمالِ وسعة

الحال . في كَنَفِ مليكٍ مُقتبِلِ السَّعد . ميمونِ الطائر . غافلٍ عن الأيام . مسرورٍ بما تَنافسُ فيه رعيتُه من زُخرفِ دُنياها . فاجتمع الناس على حُبِّه . ونَجا من الفِتَن . وأخبارُه في ذلك مأثورةٌ . وكان على أهلِ الأندلسِ أسعَدَ مَولودٍ وُلِد . بلَغني عن أحمدَ بنِ فارسٍ البصريِّ المنجِّمِ زعيمِ الصناعةِ بها على عهدِ الحَكَم أنّه نظرَ في مَولدِ عبدِ الملك هذا وهو طِفلٌ فأشار من بُعْدِ سعادتِه إلى أمرٍ كبير لم يُدرِكْ هو آخرَه[1] . فعجِبَ مَن شاهدَه من جَودةِ إصابتِه . وذلك أنّه قال : لم يُولد قطُّ بالأندلسِ مَولودٌ أسعدُ منه على أبيهِ وعلى نفسِه وحاشيتِه . نَعَم . وعلى أهلِ الأندلسِ طُرّاً . وعلى أرضِها فضلاً عن ناسِها . وأنّها لا تزالُ بخيرٍ حياتَه . وإذا هلَكَ ما أراها إلاّ بالضّد . قال ابنُ حيّان : سمعتُ هذا الحديثَ عن ابنِ فارسٍ مِن غيرِ ما طريق . فكان كما قال . لقد حدثَ بالأندلُسِ إثرَ مَهلِكِه ما هو مشهور .

وكان عبدُ الملكِ من أحيا الناسِ . فإذا كانت الحربُ عُوينَ منه الأسدُ المُحرَّبُ في بَرائنه حَطْماً وشِدّة . من رَجلٍ عَديمِ الفَهْمِ والمعرفَةِ جُملة . صِفْرٍ من الأدبِ والتعاليم . حتى ما كان يُسايرُه ويناد مُه إلاّ العَجمُ مِن الخلالِقَةِ والبرابرةِ ممّن لا يَهشُّ لسماعٍ . ولا يطربُ لإيقاع . فارتفعتْ بذلك عن مَجالسِ لَهوِه طبقَةُ المعرفَة . وقُوِّضَ عنها كلُّ فاضلٍ وعالِم . واعتاضَ منهم بجُفاة البرابرِ والأعاجِم . إلاّ أنّه مع زُهدِه في الأدبِ تمسَّكَ بمن كان استخلصَه أبوه مِن طبقاتِ أهلِ المعرفةِ من خطيبٍ وشاعرٍ ، ونَديمٍ وشِطْرَنجيّ ، ومُعدِّلٍ وتاريخيّ وغيرِهم ،

---

[1] ص : لم يدرك هو وأخوه ، والتصويب عن الحلة ١ : ٢٧٠ .

حِفظاً لصنائعِ والدِه وقياماً برُسومِه[1] . فقرَّرهم على مَراتبِهم . ولم ينقصهم سِوى الفوزِ بخُصوصيّتِه . وكانت تُرفع إليه بَطائقُ أهلِ الشّعر ويَصِلُهم على تَساهلهم في مديحِه لأمانِهم مِن نَظَرِه فيها . وأحرزَ لهم مع الفائدةِ عفوُ القريحة . وذلك بيّنٌ لمَنْ تأمّلَه في أشعارِ مادحيه لفُتورِها .

ثم أغرقَ عبدُ الملكِ النَزْعَ في دَوْلتِه ، وانهمكَ في طَلَبِ الآلاتِ المُلوكيّةِ حتى جُلِبَ إليه مِن ذلك كلُّ عِلْقٍ خطير ، وتأنّق في مَراكبِه هو وأصحابُه بالحِلية التامّةِ بخالصِ اللّجَين. عهدي به يوم فُصُولِه لغزوته سنةَ ثمان وتسعينَ التي احتَفَلَ فيها لشانُجه بن غَرسِيَة . واستكثَرَ فيها من العُدّةِ والعَدَدِ . فبرز على جوادٍ من مُقرباته[2] المنسوبةِ ، بأفخمِ تلك المراكبِ المُسَلسلةِ . ولَبُوسِ درعٍ فضيّةٍ مطرّزةٍ بالذهب ، وعلى رأسه خوذةٌ[3] مُثمّنةُ الشّكلِ ، مُحدّدَةُ الرأسِ ، مُرصّعة الطّرُق بدُرٍّ فاخرٍ ، واسطتُه حَجَرُ ياقوتٍ أحمرُ مرتفعُ القيمة ؛ قد لزِمَ وَسطَ الجيش ، وطُرِحَ الشعاعُ على سُنّةِ وجهِه . فما رأى الناسُ بعدَه مَلِكاً يَعدِلُه في البهاءِ والبهجة .

وكانت مما راقت به دولتُه في الجمالِ ما تلاحقَ فيها [٥٢] [من] غلمانِ أبيه العامريّين الناشئينَ[4] في دولةِ المنصور ، وكان قد وفّرَ عنايتَه بهم . وجدَّ في تَدريبهم ، ووقف حُذّاقَ المُناقفين * على تخريجهم . فأثمر

---

١ ص : لرسومه .

٢ ص : مغرياته .

٣ ص : حزرة .

٤ ص : الناسبين .

* المناقفون : الذين لديهم مهارة في المناجزة بالسيوف .

غرسُهم ، وأمكن جناهُم . وراقت جُملتُهم في الفُروسيّة والرّماية ، وبلغوا ألفَيْ غُلام .

وانهمكَ أيضاً في اصطناع البرابرة العُدْويين ، ودعا القبائلَ منهم إلى الدخول إليه والخدمة له .وكان من أعظم من هاجرإليه منهم زاوي بن زيري ابن منّاد الصّنهاجي عمّ أبي المعز بن باديس بن منصور صاحبإفريقية وصاحب الفرقة الخارجة عليه من أهل بيته . وكان المنصور أيامه قد التوى في الإذن له بالدخول إلى الأندلس حذَراً من دهيه ومكره وبُعد صيته في المغرب.فأضرب عبد الملك عن الفكر في شأنه[1] وطلبَ السّمعة باستخدام مثله ، فأدخله بمن معهمن إخوته،وهم من سَعة النّعمة وبُعد الهمم واستصغار الرغائبفيما يكون عليه أشباههم من أبناء الملوك . فاستقلّوا ما وصلهم به عبد الملك على كثرته ، وما استقرُّ [وا]الدارَ إلاّ على قُلعَة ، ولا [. . .]معروفهم[2] ، ولا لبسوا أعاليَ المراتب السلطانية إلاّ على ابتذال ومَحْقَرَة . ولا قطعوا أمَدَ المُقام بالأندلس إلاّ بذكر الرّحلة والتماس التسريح بُكرةً وعشيّةً ، جهلاً وفرْط أنَفَة ، والأقدارُ موكّلَةٌ بثَنْي عزم عبد الملك عن إسعافهم بسراحهم لما كان قدّره — عزّ وجهُه — من الفتنة وتفريق شمل الأندلس بأشباههم . فلم يخرجوا عنها إلى أن قاموا على الجماعة ، وشغبوا عليها بعد عبد الملك . وكان شيخُهم زاوي أوّلَ دخوله الأندلس يُظهر [من] أنواعَ البرّ والبِشْر للناس ما لا شيء فوقه . وكان شأنه في الدّهْي

---

١ ص : في الفكر عن شأنه .

٢ الجملة ناقصة ولعلها أن تكون في الأصل : ولا قبلوا معروفهم إلا على نية الرجعة ، أو شيئاً شبيهاً بذلك .

والمكر والخَلابة عجبًا . وكان يرجعُ في[1] إقامةِ ما اعتاده من سَعَةِ إنفاقه إلى ما جاء به من بلده من عُقودٍ وذخائر . فيبيعُ من ذلك النفيسَ والخطير ، وربّما اشترى من ذلك عبدُ الملك فيزيد في حسرته . وكان عبدُ الملك [راغباً] في رفعةِ منزلته ، وولاّه[2] الوزارةَ أرفعَ خُططِ أصحابِ السلطان بالأندلس ، ووصل إليه الرسولُ بالصَّكِّ في ذلك وطلب أن يصله عليه ، فقال : لو جئتنا بمال لأسهمناك ، وإنّما [خُطّتنا الامارة][3] لا الوزارة ، وأقلامنا الرماحُ ، وصحائفُنا الأجسادُ[4] . ولم يَمتنعْ عبد الملك مع غَطرسة زاوي هذا من إقامةِ الحدّ على مَن وجبَ عليه من أهله : عدا ابنُ أخيه على مَولىً لهم فقتلَه فأقادَه عبد الملك لحينه ، وأسلمَه أهلُه السيفَ فضُربت عُنقُه على قتيله ذلك ، بمقبرة كلاعٍ بمشهدٍ عظيمٍ من الناس ، وأسلمتْ جثتُه إلى أهله . ونَبتِ الأندلس بعدُ بأخي زيري أبيه فقوَّض عنها أوَّلَ المقوِّضينَ من صِنهاجةَ بسراحٍ من عبد الملك .

قال ابنُ حيّان : وانبسطتْ حاشيةُ الخليفةِ هشامٍ على عبد الملك طول مدته في جميع أحوالها ، فحملهم على مرادهم . وانهمك هشامٌ طول أيامه فلم يظهر وقتاً فيها ، ولا شهدَ صلاةً ، واحتجبَ في نُزَهه الباطنةِ على رَسمه في أيامِ أبيه المنصور . وبلّغه منها عبد الملك بُغيتَه ، وجعلَ يُخرجه

---

[1] ص : إلى .

[2] ورد جانب من هذا النص في مخطوطة الرباط (رقم : ١٢٧٥) ص : ١٥٤ .

[3] ما بين معقوفين زيادة من مخطوطة الرباط .

[4] زاد في المخطوطة : احمل قرطاسك لا حاجة لي به ، فبلغ ذلك المظفر فحقدها له ، وقطع عنه الجراية ، فأخرج من ذخائره أعلاقاً نفيسة وذخائر عظيمة القدر فباعها وأنفقها على قومه صنهاجة ، وربما اشترى منها المظفر في خفية .

منها مع حُرمه مستخفياً بعد طرد الناس عن طريقه ، فيضربُ به إلى كلّ ناحيةٍ ، ثم يعود إلى قصره . ونال في مدّة هذا الانهماكِ والدّعة أهلُ الاحتيال من الناس عندهم الرغائب النفيسة ، بما ازدلفوا به من أثرٍ كريم ، أو زخرفوه من كذبٍ صريح . حتى لقد اجتمع عند نساء القصر ثمانيةُ حوافرَ عُزيَ جميعها إلى حِمارِ عُزَيْرٍ المُسْتَحيَى بالآيةِ الباهرة ، واجتمع عندهنّ من خشبِ سفينةِ نوح عليه السلام وألواحها قطعة ، وظَفِرن من نَسلِ غَنَمِ شُعَيبٍ عليه السلامُ بثلاث . وكَلِفنَ من هذا ومثله لعفّتهنّ وزُهدِ صاحبهنّ بأشياء توجّهتْ على أموالهن من قبلِها أعظم حيلة ، ولَهِجنَ مع ذلك بطلبِ ذوي الأسماء الغريبةِ من الناس ، الموافقةِ أسماؤهم لمن اجتباهُ اللهُ من خَلقِه ، مثل عبدِ النور وعبدِ السميع وعبد اللطيف وعبد المؤمن وحزب الله ونصر الله وفضل الله . ومثل ياسينَ واليسَعَ ومَن جانَسَه ، يَصيرُ الرجل من هؤلاء في الحاشية ، ويُستعملُ على وكالة جهةٍ ، ولا يَبعدُ أن يتموّلَ في أقربِ مدّةٍ ، وإن اتّفقَ مع ذلك أن يكون ذا لحيةٍ عثوليّة[1] ، وصاحبَ سِبالٍ وهامةٍ ، فقد تمّت له السعادة ، ولا سيما إن كانت لحيته حمراء قانية ، فإنّها أجدَى عليه من دارِ البطّيخ غلّة ، ثم لا يُسألُ عمّا وراء روائه من أصل ولا فضيلةٍ ، ولو كان مُردّداً في بني اللخناء[2] ، وعارياً من جميع الخصال ، والأخبار في مثل هذا عنهن كثيرةٌ [٥٣] مأثورة . فباهتْ حُرَمُ هشامٍ بمثلِ[3] هذه المعاني الشاذّة ، وبذلنَ [من] الأموال في التماسِها بما لم يُسمع مثلها . ولم تزل الدولة

---

١ ص : عثلوية ؛ ولحية عثولة : ضخمة ، والعثول : الكثير شعر الجسد والرأس .

٢ من قول الشاعر : « مردد في بني اللخناء ترديدا » .

٣ ص : من مثل .

تزدادُ انهماكاً إلى أن ماتَ عبدُ الملك ، وكَبَتْ كَبوةً لم تَستقِلْها آخرَ الدهر :

قال ابنُ حيّان : وكانت ولايةُ عبد الملك وفِرَقُ النصرانيّة بأسرها منتقِضةٌ . وعهدُها قريبٌ بالاجتماع على المسلمين . وأطماعها بموت حتْفِها المنصور ثابتة . وكانت الافرنجةُ في آخر وقت المنصور قد تمسّكت بالمُسالمة ، فلمّا سمِعتْ بموته طمِعتْ . واحتاج عبد الملك إلى التثاقل عنهم توطيداً للحضرة ، إلى أن اعتدلت فيها الدولة . وأخبار الثغور توافيه كلّ وقت بما لا يوافقه . وكان أهمَّ جُموعِ طَوائف الطواغيت عليه يومئذٍ أميراً[1] شيطانُهم الرجيم . ومُغويهم الزعيم . شانجُه بن غَرسيه بن فَرْذ لَنْد صاحبُ قَشتيلةَ . وكان يليه في النّكاية مِنندس [بن] غُندشِلب[2] قَوْمَس غليسية . وكافلُ ملِكهم أذْفونْش بْن برمُند[3] . وسائرُ القواميس عندهما سَقَطٌ وحاشيّة . فقدَّم عبد الملك الحذَرَ منهما ، فألقى مولاه واضحاً الفتى صاحبَ مدينةِ سالم على شانجه ، فصالحَه واضحٌ سنةَ ثلاثٍ وتسعين ولاطفَه إلى أن تمهّدت قواعد الدولة . وجرَّد عبد الملك يومئذٍ إلى ثَغرِ قَلُمْرية قاصيةِ الثغر الجَوْفيّ المواجه لأرض غَليسية جيشاً كثيفاً . وبقي في وجه مِنندس بن غُندشلْب . وصمد[4] عبدُ الملك بلدَ الإفرنجةِ إذ لم تَزَلْ عند وُلاة الأندلس مبدأ كلّ علّة . فاستعدَّ لقصدهم . واقتحم أرضهم في جموعه وأوغل في بسيط بَرْشِلونة . وحطّم غير ما مدينة ،

---

١ ص : أمير .

٢ Menendo Gonzalez .

٣ Leon Alphonse V .

٤ ص : وصد .

وعاد قافلاً سالماً غانماً . فهابَته الإفرنجةُ وأذعنَتْ إلى السلم ، وجاء رسولها إلى قُرطبة ، وقد أعدَّ عبدُ الملك لوُروده أكملَ العُدَّةِ من ترتيب الجنود ، فكان يوم دخلَ ذلك الرسولُ بقرطبة آخر أيّام الزينة ، إذ انتقض الملك على أثره سريعاً ووقعت الفتنة .

قال ابنُ حيّان : سمعتُ بعضَ المَشايخ يومئذٍ يقول : إنّه ما كان بالأندلس مثل ذلك في أمد الدولة ، بما اجتمع له من كثرة الجمع والزينة والعزة السلطانية . وأما التجار الغرباء فدخلوا يومئذٍ إلى موضع هيئةِ التجافيف والأعلام المصورة وسائر القِطَع العَجميّة والقنا الهنديّة ، وموقف خَيل الركابِ بالسروج الثقال ، والتّراسِ المذهبة والمفضَّضَة ، معها بِغالُ الركاب الرائقةُ في زيّها المشهور ، وما اتصل بذلك من عُدَّةٍ غريبة . وتوصل أولئك التجار إلى ذلك المكان قبل إباحته للنظارة بإذن التمسوه من عبد الملك ، فلم يختلفوا في استيساع ما عاينوه ، واتّفقوا – وكانوا جملة عراقيّين ومصريّين وغيرهم – على أنه ما شاهدوا لأحدٍ من ملوكهم مثله .

ولما أحكم عبدُ الملك الشدَّ لفتقِ الفرنجةَ دبّر قصدَ شانجُه ، فخرج نحوه صائفةً سنة أربعٍ وتسعين . وأوغلَ في أرضه وخامَ عنه شانجُه ولم يَظهر له ، وقفلَ عبدُ الملك إلى قرطبة . فاضطرَّ شانجه إلى السلم ووفد بنفسه إلى قرطبة . فأعظمَ عبدُ الملك مَوْرده ، وضمن أن يغزو معه قومه. فخرج مع عبد الملك سنة خمس وتسعين . فاقتحم جلّيقية وغادر أعمال بني غومس مُصطلمة[1] . وهدى المسلمين شانجُه إلى عورات قومه ، وانتهى بهم إلى مدينة ليونه وهي من أمنع المعاقل . ولم يكن المنصور بلغها لصعوبتها ،

---

[1] ص : مصملة ؛ وفيها معنى اليبس ؛ وصوبتها اجتهاداً .

وطمع عبد الملك فيها ونازَلَها فأعيت عليه . وقفَلَ إلى قرطبة . وبقي شانجُه في مسالمته ثلاثةَ أعوامٍ يستعدُّ لحربه . فأحسَّ عبدُ الملكِ بغدره . فسابَقه بالغزو سنة ستّ بعدَها ، وضحّى[1] عبدُ الملك يومئذٍ بمدينة سالم . ووافاه هنالك رسول الروم من القسطنطينيّة بكتابه إليه . يسأله المواصلة على سبيل سَلَفه مع ملوك المَروانيّة . وساقَ له هديّة وعدّةً من أسارى الأندلس طير[2] عليهم بأطراف جزائره البحريّة . فسُرَّ عبدُ الملك بذلك ، وإذا كتابه مكتوبٌ بالذهب على رسم ملوك الروم الذي فات الصنعة . وذكر صاعدٌ وُرودَ ذلك الرسول في شعر قال فيه :

زلزلتَ بالمُرْهَفاتِ صاحبَ قسـ   طنطينَ حتى اتّقاكَ بالكُتُبِ
يَطلبُ فيها رضاكَ مُجتَهِداً   من قبلِ أن يتّقيكَ بالهرَبِ
فليس بالفائتِ البعيد معَ الا   هِ إذا [ما] هممتَ بالطلَبِ

وتمادى استعدادُ شانجُه سِرّاً لغزو عبدالملك فسابقَه [٥٤] سنة سبعٍ وتسعين ، وظهر المسلمون عليهم . ثمَّ قفَلَ إلى قرطبةَ آخرَ ذي الحجّة منها . ثمَّ غزا سنة ثمانٍ غزوته الأخيرة في شوال ، فاعتلَّ في مدينة سالم . ورجع إلى قُرطبةَ محرَّم سنة تسع وتسعين . فكانت آخر غزاةٍ نفذتْ إلى بلاد الحرب لوَشْكان موتِه في صفر منها . وضبط أخوه عبد الرحمن الأمرَ بعدهُ لنفسه .

---

١ ضحى : شهد عيد الأضحى .
٢ طير : لعله يعني أنه افتك أولئك الأسرى عن طريق المراسلة السريعة .

فصل في ذكر الوزير أبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي [1] ، وإثبات جملة من أشعاره مع ما يتشبّث بها من طريف أخباره

بلغني أنه خرج من بغداد إذ مات أبوه . وأساء عشرته أخوه . وسِنّه دون العشرين . فلحق بالأمير محمود [2] . وشهد حروبه بأرض الهنود . وله فيه غيرُ ما قصيد . إلى أن توفّي فولِّيَ أكبرُ ولَدِه بعده [3] ، فبقي أبو الفضل على حاله عنده . إلى أن خرج بعضُ إخوته عليه . فنهضَ لحربه . فدبّر [4] وزراؤه في طريقه الفتك به ، وشاوروا أبا الفضل في القضية ، فأبى من تلك الدّنيّة . وأودعَ أذُنَ الأمير . ذلك التدبير . فخاف وزراؤه أن يُفتضحوا . وعاجلوه قبل أن يُصبحوا . وقيّدوه قبل أن يَقْدُمَ أخوه ، فسبقهم أبو الفضل إليه ، ونصّ ما فعلوه بأخيه عليه . فشكر له وفاءه لصاحبه . وقال : الوفاء حِليَةُ الأحرار . والغدرُ ثوبُ الأشرار . ووصلَ القومُ بعدُ بأخيه . ففكّ عن أغلاله ، وحبسه عند بعض عمّاله . وضرب أعناقَ الغَدَرة . وقرّبَ أبا الفضل واستوزره . إلى أن خرج عنه في خبر طويل

---

١ محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث التميمي (٣٨٨ – ٤٥٤ أو ٤٥٥) ؛ له ترجمة في الجذوة : ٦٨ (البغية رقم : ٢٠٩) ونفح الطيب ٣ : ١١١ – ١١٦ وله ذكر عارض في المغرب ٢ : ١٢ وانظر بدائع البدائه : ٣٠٨ – ٣٠٩ ، ٣٦٤ وتتمة اليتيمة ١ : ٦٤ والوافي ٤ : ٦٧ .

٢ يعني محموداً الغزنوي (– ٤٢١) .

٣ هو جلال الدولة محمد بن محمود ، وقد ثار عليه أخوه مسعود وسمل عينيه وانتزع السلطة من يده ، وفي هذا ما يخالف كلام ابن بسام فيما يلي .

٤ ص : فدبروا .

ولحق بشروان شاه[1] ، وصحبه إلى أن توفّي أيضاً وولّوا أخاه . فكاتب أبو[2] الفضل الخليفةَ أبا جعفر[3] القائم ببغدادَ في الوصول إليه . فاتفق وُرود كتابه إثر وفود رسول المعزّ بن باديس عليه . فطلب الخليفةُ رجلاً يَسفرُ بينهما ، فأرشد إلى أبي الفضل . فوجّه عنه وورد ، فجهّزه وخرج مُستتراً من بلدٍ إلى بلد حتى وصل حلب ، فاشتهرَ خبره وطُلب . فمدح معزّ الدولة[4] بقصيدته التي أوّلها : « عُهودَ الصبا مَنْ بعدَ عهدكِ آمُلُ » فأمرَ له بثيابٍ سَريّة ، وحمله على فرس عربيّة . ثمّ انفصل عنه واجتاز بمعرّة النّعمان ، وبها المعرّي أحمد بنُ سليمان ، فوصل إليه . وأنشده قصيدتَه اللاميّة ، فقبّل المعرّي بين عينَيه ، وقال له : بأبي أنت من ناظم ! ما أراك إلاّ الرسولَ إلى المغرب . فوصلَ مصرَ ووزيرها يومئذٍ صَدَقة ابنُ يوسُفَ بن علي الملقّب بالفلاحي[5] . فقصد مجلس قاضي القضاة بها ، وأثبتَ عَقْداً على رجلٍ مشهور ، كان يومئذٍ ببلاد المغرب بشهادات زور ، ولما ثبت ذلك من الطّومار ، خرج من مصر في زيّ التجار ، يَؤمُّ بلاد إفريقية ، فوقع على خبره صاحب الإسكندرية ، وطلبه فأعجزه . وبلغ

---

١ ليس هناك ملك بهذا الاسم ، وإنما هذا لقب لحكام شروان ؛ ولعل المقصود هنا هو منوجهر ابن يزيد أو علي بن يزيد أو قباذ بن يزيد (٤١٨ – ٤٤١) .

٢ ص : أبا .

٣ تولى القائم أبو جعفر الخلافة سنة ٤٢٢ وثار عليه البساسيري سنة ٤٥٠ ثم أعاده السلاجقة وبقي حتى توفي ٤٦٧ .

٤ هو ثمال بن صالح المرداسي ولي قلعة حلب أول مرة سنة ٤٢٠ ثم أقصي عنها وعاد إليها سنة ٤٢٩ فلم تطل مدته ، وأقصي مرة أخرى ثم عاد إليها سنة ٤٣٤ واعتزل أخيراً سنة ٤٤٩ .

٥ تولى صدقة الوزارة سنة ٤٣٦ وبقي فيها إلى أن اعتقل وقتل سنة ٤٣٩ (الإشارة إلى من نال الوزارة : ٣٧ – ٣٨) .

طرابُلُسَ المغربِ أوَّلَ عملِ المعزّ . فأفشيَ أمرُه ، وفُضحَ سرُّه ، فأمرَ المعزُّ بإشخاصه . فلمّا وصل سُعيَ به عنده وأراد قتلَه ، فقال له : تأنَّ فيَّ . واستقصِ عليَّ . فإنْ صدقتُ وإلاّ قُتلتُ . فمشى أبو الفضل بالقيروان مرقباً عليه ، إلى أن ورد كتابُ القائم بصدقه ، فاعتذر إليه ، ورفع منزلته وأكرمه . وبسط يده في مطالبيه وحكّمه[1] . فحملهم أبو الفضل إلى منزله ، وأحسن إليهم ، وخلع عليهم . فعجب المعزُّ من كرمه . وقلّده تدبير حَشَمه . وكان ورود أبي الفضل بلد القيروان سنة تسع وثلاثين . حكى ذلك أبو عليّ بنُ رشيق وقال : انه أول من أدخل كتاب **اليتيمة** للثعالبيّ عندهم . وشَهِدَ حصار القيروان معهم . فلما كان عامُ ستّةٍ وأربعين صرف المعزُّ خطبته إلى صاحب مصر ، ونبذ العبّاسية[2] . فخرج أبو الفضل إلى سُوسة . فتطاول عليه أهلها ، فخرج عنهم بعد أن أوقع الفتنة بينهم ، وتركهم فرقتين : قيسيّة ويمنيّة . وأوقع في نفوسهم أنّ الحرب قائمةٌ بين هاتين القبيلتين إلى يوم القيامة . فاقتتلَ الفريقان إلى أن تغلّب عليهم تميم بنُ المعزّ . وتردّد أبو الفضل هنالك عدّة سنين . وشهد الحروب مع بُلُقّين[3] . ثمّ انتبذ من تلك الناحية . وركب البحر فنزل بدانية ، فبعث إليه أميرُها ابنُ مجاهد بلحمٍ وأرباعِ دقيقٍ أولَ نزوله ، فصرفها في وجه رسوله . وتعجّل الارتحالَ عنه إلى بلنسيَة فلقيَ بِرّاً . واستجلبَه المأمون ابنُ ذي النون فحسُنَ بطُلَيطلةَ مثواه[٥٥]وأجزلَ قِراه . وتوسّعَ له ولعَبيده في البِرّ ، وأجرى له ستين مثقالاً في الشهر . وكان دخوله طُلَيْطلة

---

١ أي جعل له الحكم في الذين سعوا به إلى السلطان .

٢ يبدو أن ابن بسام ينفرد بهذا الخبر .

٣ هو بلقين بن محمد بن حماد من الحماديين أصحاب القلعة ، تولى سنة ٤٤٧ (أعمال الأعلام ٣ : ٨٧)

يوم الجمعة لثلاث بَقِينَ لجمادى الأولى سنة أربعٍ وخمسين . وتوفّي بها رحمه الله منتصفَ شوال سنةَ خمسٍ وخمسين .

ومن غريب وفاء المأمون له – زعموا – انّه استمرّتْ جرايتُه على حاشيته، وتجافّى عن ميراثه وجعله وصيّةً له إذْ لم يُوص لفَجأةِ وفاته . ورثاهُ الحكَمُ أبو محمد بن حَليفة بشعرٍ يقول فيه :

سَقى اللهُ قَبراً حلَّ فيه أبو الفضلِ سَحاباً يَسحُّ المُزنَ وَبْلاً على وَبْلِ
وكيفَ يُسقّي المزنُ قبراً يحلّه وفي طَيّه بحرُ المكارمِ والفضل
وبدرُ تَمامٍ من تَميمٍ نِجارُهُ ملوكٌ لهم قامَ الملوكُ على رِجْل

ومنها :

وما الدّهرُ إلاّ آكلٌ من نُفوسِنا ونحنُ لدَيهِ في الحقيقةِ كالأكل

وهذا كقول المعرّي[1] :

وما الأرضُ إلاّ مثلنا الرزقَ تَبتغي وتأكلُ من هذا الأنامِ وتَشربُ

وقد كرّر المعرّي هذا المعنى في مواضع[2] :

فشِمْ صارِماً واركزْ قناةً فللردَى يَدٌ هي أدرى بالطّعانِ وأدرَبُ
أفضُّ لِهاماتٍ وأرمَى بأسهُمٍ وأطعنُ في قلبِ الخميسِ وأضرَبُ

---

١ اللزوميات ١ : ٦٣ .
٢ اللزوميات ١ : ٥٦ .

ووزيرُ مصرَ الملقَّب بالفلاحي المتقدّمُ الذكر : والدُه كان يوسف ابن عليّ الذي هجاه الواسانيُّ بالقصيدة التي أوّلها[1] :

يا أهلَ جيرُونَ هل لسامِركم[2] إذ استقلّتْ كواكبُ الحَمَلِ

وهو يومئذٍ مشرفٌ على دمشق في أيّام الحاكم . وهي قصيدة في معناها فريدةٌ . وقال الحاكم يوماً : أريد سماع هذه القصيدة من رجلٍ حسَن النشيد . فقيل له صوت الذي قيلتْ فيه ، لا أحد يُجاريه . فأحضِر واستَعفى من نشيدها فلم يُعذَر ، وأنشدَ إلى أن انتهى إلى قول الواساني فيها :

كنتُ على بابِ مَنزلي سَحَراً أنتظرُ الشاكري[3] يُسرجُ لي
وطال ليلي بحاجةٍ عرَضَتْ باكَرْتُها والنّجومُ لم تَمِلِ
فمرَّ بي [في الظلامِ] أسوَدُ كالـ فيلِ عريضُ الأكتاف ذوعضَلِ
مُشقّقُ الكعبِ أفدعُ اليد والـ رّجلِ طويلُ السّاقينِ في سمَلِ
فأهدَتِ الريحُ منه لي أرَجاً مثل جنى الرّوْضِ في الندى الخضِلِ
فصِحتُ من خلفِهِ رُويدَكَ يا أسودُ مالي بالعَدْوِ من قِبَلِ
فكَرَّ نحوي عَجْلانَ يَعثرُ في مِرْطِ كساءٍ مُبرغثٍ قَمِلِ
وقد مَذَى فالمَذيُّ يَقطرُ منْ غُرمولِه في الذيول كالوشَلِ
وظَنَّ أنّي صَيْدٌ فأبرزَ لي فَيْشَلَةً مثلَ رُكبَةِ الجَمَلِ

---

[1] اليتيمة ١ : ٣٦٥ .
[2] ص : لساكنكم .
[3] الشاكري : الخادم أو الأجير .

وقال : لِـجْ داركمْ لأولجَها … فيكَ وإن كنتَ لم تَبلْ فَبُل

فطالما أسهلَتْ طَبيعةَ مَنْ … ليس بأمثالِها بِمُحتَمِل

فانظُرْ إليها فإنْ رأيتَ لها … شِبْهاً فلا تَدعُني أبا الجُعَل[1]

وخُذْ عموداً غلافُهُ شَرَجٌ … لم يُمتَهَنْ ساعةً ولم يُذَل

قلتُ له : والذي يَمدُّ لك الـ … ـعُمْرَ ويُعطيكَ غايةَ الأمل

ما شَقَّ دُبري مُذ قَطُّ فَيْشَلَةٌ … ولا انتخابُ الأيورِ من عملي

ولا لهذا [دُعيتَ] فاطلبْ لغُرْ … مُولِكَ[2] مَنْ يَستَلِذُّه بَدَلي

وهاتِ قُلْ لي بالله من أينَ أقبَلْـ … ـتَ ودَعني من هذه العِلَل

فقال لي بِتُّ عند عامِلِكُم … هذا أبي الفضل يوسف بنِ علي

فصاكَ بي طيبُه وصاكَ به … مني صنانٌ في حدَّةِ البَصَل

تركتُهُ في النهارِ أخفشَ لا … يَنظرُ في خدمةٍ ولا عَمَلِ

قلتُ تَرَدَّيتَ[3] واعتَديتَ على … شَيخٍ نَبيلٍ يُنمى إلى نُبُل

لَعلّهُ غيرُه[4] فصِفْهُ فَما … تَخدَعُ مِثلي بهَذهِ الحِيَل

فقال : يا سيّدي عَجِلتَ بمك … روهي وكان الإنسانُ من عَجَلِ

هذا الذي بِتُّ عندَهُ نَصَفٌ … دُونَ مُسِنَ وفوقَ مُكتَهِل

آدرُ رِخْوُ العِجَانِ مُنحرِفُ الـ … ـمبعَرِ ألْحَى مُهَيَّجُ السَّفَل

---

١ ص : العجل .

٢ اليتيمة : لميلوخك .

٣ اليتيمة : تزيدت .

٤ اليتيمة : لعل ذا غيره .

أتَنُ مِن كلّ ما يُقالُ إذا بالَغَ في النّتنِ ضاربُ المَثَل
نَعَم ، وفي بابِ سُرمه وَضَحٌ أبيتُ ليلي منهُ على وَجَل
أخافُ يُعدي أيْري ببَرصته فأغتَدي مُثلَةً مِنَ المُثَل
فقلتُ : هذي صفاتُه ولقد شغَلَتَ قلبي بذلكَ الرجل

ومنها في التعريض بمنشا بن ابراهيم :

فقلت قل لي من أين تعرفه فقال ذَرْني[1] من هذه العقل
كنتُ أجيراً ببدّ[2] مَعْصَرَةٍ كانت قديماً[3] لكاتبِ البَجَل[4]
فنمتُ يوماً وكنتُ من سَهَرِ الـ ـلّيلِ وقيذاً كالشّاربِ الثّمِل
فاجتازَ للحَينِ والقَضاء الذي حـ ـمّ منشّا في مَوكبٍ زَجِل
وكان منه التفاتَةٌ فرأى ذيلَ قَميصي قَد قُدّ من قُبُل
فاشتَدّ تَحديقُهُ إليّ كَما حَدّقَ ذئبٌ طاوٍ إلى حَمَل [٥٦]
ولم أبتْ لَيلتي وعَيشِكَ يا مولايَ حتى رُفعتُ[5] بالرُّسُل
فَجئتُه خائفاً كما يَلْجُ الـ ـعصفورُ مُستكرَهاً على الورَل
فارتعتُ لما رأيتُ لحيتَهُ وكدتُ أخرَى من شدّةِ الوَجَل

---

١ ص : زدني ، والتصويب عن اليتيمة .

٢ البد : موضع عصر الزيت في ديار الشام ؛ ص : بيد ، اليتيمة : بيدي .

٣ اليتيمة : بصور كانت (أي كانت بمدينة صور) .

٤ كذا وردت هذه اللفظة أيضاً في اليتيمة ولا أستطيع أن أجزم بما تعنيه فقد تعني بني بجيلة (أو بجلة) وقد تعني جماعة الأعيان ، وقد تكون لفظة شامية محلية .

٥ اليتيمة : دعيت .

وظَنّ أنّي استَحيَيْتُه فغَدا يَبسطُني بالمُزاحِ والغَزل

وقال إن كنتَ مُكرمي تُل قَد ري فبعضُ الهوانِ أرفعُ لي[1]

إنتِفْ سِبالي واصفَعْ قَفايَ ولا تَنظُر إلى قُدرَتي ولا خَوَلي

ولم يزَلْ دائباً يُشمرخُ شا قُولي ويحتالُ لي على مَهَل

فحينَ أدليتُ كالحمارِ بدا يَرفَعُ أثوابَه على[2] الكَفَل

وخرَّ للوَجْهِ والجبينِ وقد رَطّبَ حَوْلَيْ خُصيَيْه بالبَلل

طَعنتُهُ طَعنة بصَدْقِ الأنا بيبِ أصمّ الكُعوبِ مُعتَدِل

ثمّ رَمى صَفحتَي بلحيَتِه فقلتُ ذا[3] السّرم من بني ثُعَل

فقال أخطأتَ إذ أسلتَ دَمي فقلتُ كَلّا واللهِ لم يَسِل

أينَ النّجيعُ القاني فديَتُكَ من لطْخ رَجيعٍ كالوَرْسِ مُنسجل

فقال أيرٌ أرَى به هَوَجاً قد جازَ[4] حدّ الجنونِ والخَبَل

يا سيّدي ما اسمُه فقلتُ أبو الـ أسودِ يُكنى وليسَ بالدُؤلي

وهي طويلةٌ ، فلما فرغ قال له الحاكم : لِمَ لَمْ تقطَعْ لسانَه ؟ والله لا عملتَ لي عملاً بعدُ ، فصرفه .

---

[1] رواية اليتيمة :

إن كنت أكرمتني لترفع من قدري فبعض الهوان أرفع لي

[2] اليتيمة : اجلاله عن .

[3] اليتيمة : فقلت يا سيدي ويا أملي ، أظن . . .

[4] اليتيمة : وخاض جسمي أير به هوج يجوز .

جملة منَ أشعار أبي الفضل في أوصاف شتى

النسيب وما يناسبه

كان يوماً مع المعزّ بنِ باديسَ في مَجلسِ أنسٍ . وغلامٌ وسيمٌ يدورُ بالكأسِ فقال فيه [1] :

ومُعذّرٍ نقشَ الجَمالُ بمسكِهِ خدّاً له بدمِ القلوبِ مُضرّجا
لمّا تيقّنَ أنّ سيفَ جفونِهِ مِن نرجسٍ جعَلَ النجادَ بنَفسَجا

وكان له هوىً بغلامٍ في مدينةِ السلامِ فإذا رآه أنكرَ حبَّه .والغلامُ يعرِفُ شدَّةَ وجدِهِ وكلَفِهِ ، فدمَعَتْ عينا أبي الفضْلِ . فقال الغلامُ : دمعُكَ شاهدٌ عليك ، فقال [2] :

وهَبْنيَ قد أنكرتُ حبَّكَ جُملةً وآليتُ أني لا أرومُ محطّها [3]
فمن أينَ لي في الحبّ جَرْحُ شهادةٍ سَقامي أملاها ودمْعيَ خطَّها

ودخل يوماً على قَينةٍ وهي تتَبختَرُ بالنّدِ ، ودُخانُه قد علا وجهها فقال [4] :

---

١ بدائع البدائه : ٣٠٩ والنفح ٣ : ١١٤ وابن خلكان ١ : ١١٠ وتردد في نسبتهما .
٢ النفح ٣ : ١١٧ وبدائع البدائه : ٣٦٤ .
٣ بدائع : وهونت من نفسي العزيزة سخطها .
٤ النفح ٣ : ١١٤ والشريشي ٢ : ٨٧ .

وَمَحطوطةِ المتنينِ مهضومةِ الحشا ... مُنعّمةِ الأردافِ تدمَى من اللمسِ
إذا ما دخانُ الندّ من جيبها[1] [علا] ... على وجْهها أبصرْتَ غَيماً على الشمس

وهو القائل[2] :

يَغرِسُ[3] ورداً ناضراً ناظري ... في وجنةٍ كالقمرِ الطالعِ
فلمْ مَنعتم شَفتي قَطفَه ... والحُكمُ أنّ الزرعَ للزارعِ؟!

وقال[4] :

ومُبلبلٍ من صُدغهِ العَطِرِ الذي ... أهدى لي البلبالَ دونَ حِجابِ
وحياةِ ما غرسَ الحياءُ بخدّهِ ... مِن وردِهِ بِعتابِهِ وعتابي
لأغرّرَنّ بمُهجتي في حُبّه ... غرراً يُطيلُ مع الخطوبِ خطابي
ولئن تعزّزَ إنّ عندي ذلّةً ... تَستعطِفُ الأحبابَ[5] للأحبابِ

وقال[6] :

يا ليلُ هلاّ انجلَيتَ عن فَلَقِ ... طُلْتَ ولا صَبْرَ لي على القَلَقِ
جَفَتْ جفوني الآماقَ فيك فما ... تُسْبَلُ أشفارُها[7] على الحَدَقِ

---

١ ص : من جبينها .
٢ النفح ٣ : ١١٢ .
٣ النفح : يزرع .
٤ منها بيتان في النفح ٣ : ١١٤ .
٥ النفح : الأعداء .
٦ سرور النفس : ٢٨ والنفح ٣ : ١١٢ .
٧ النفح : جفت لحاظي التغميض فيك فما تطبق أجفانها .

كأنني صورةٌ مُمثلـــةٌ ناظرُها الدهرَ غيرُ مُنطبِقِ

وإنما أشار في هذا إلى قول بشار [1] :

جفَتْ عيني عن التغميضِ حتى كأنَّ جفونها عنها قِصارُ

فنقل لفظَه ومعناه ، وقصّر عنه كما تراه . وقد أخذ أيضاً العتّابي هذا المعنى ، واجتناه أرياً ، فردّه شرياً ، بقوله [2] :

في ماقيَّ انقباضٌ عن جفونهما وفي الجفونِ عن الآماقِ تقصيرُ

وقال أبو الفضل :

بَدْرُ تيمٍ عليَّ ليسَ يلينُ خاب فيما رجوْتُ فيه الظنونُ
طالباً للخلافِ إنْ لم أكنْ كا ن وإنْ كنتُ حاضراً لا يكونُ
فعلى ذا ما نلتقي قطُّ حتى يتلاقى المُضافُ والتنوينُ

وقال :

وظبْيٍ أراني غرَّةً من جبينِه تَزيدُ ضياءً بينَ أصداغِه الدُّهمِ
تجرَّعتُ بالإسعافِ جرعةَ ظلمه لأني رأيتُ الظُّلمَ يُدرأ بالظَّلم
وكم أمكنتني فرْصةٌ فتركتُها حياءً من الشيبِ الموقّرِ بالحِلم
ولو كُنتُ في ثوبِ الشبيبةِ رافلاً لصحَّ على إتيانِ زلّتها عزْمي

---

١ ديوانه ٣ : ٧ وزهر الآداب : ٧٤٧ والمختار : ٧ – ٨ والزهرة ١ : ٢٩٠ .

٢ زهر الآداب : ٧٤٧ وابن بسام يتابعه في الحكم على البيت ، والمختار : ٢٣ .

وهذا كقولِ الآخَرِ [1] :

دعَتْنيَ عيناكِ نحوَ الصبا ... دُعاءً تكرَّرَ في كلِّ ساعَهْ
فلولا وحقِّكِ عُذْرُ المَشيبِ ... لقُلْتُ لعينيك سمْعاً وطاعَهْ

وهذا مثلُ قولِ جرير : [٥٧]

[يقول العاذلات علاك شيبٌ ... أهذا الشيب يمنعني مراحي] [2]

ومنه أنشد [3] : [٥٧]

لولا الحياءُ وأنّني مشهورُ ... والعيبُ يلحقُ بالكبيرِ كبيرُ
لحَللتُ منزلَكِ الذي تحتلّه ... ولكان منزلنا هو المهجورُ

وابن الرّقاع هو القائل [4] :

لو لا الحياءُ وأنَّ رأسيَ قد عسَا ... فيه المشيبُ لزرتُ أمَّ القاسمِ

وقال بعضُ أهلِ عصرنا :

فلولا حياءُ المحيّا وما ... عراني لفقدِ الصّبا من مُصابِ

---

١ أوردهما صاحب النفح ٣ : ١١٥ ونسبهما لأبي الفضل ، وانظر المسلك السهل : ٥٠٠ وهما في زهر الآداب : ٨٢٧ للصاحب أبي القاسم .
٢ ليس في الأصل بياض ؛ وزدت بيت جرير إذ البيتان التاليان ليسا له قطعاً .
٣ وردا في زهر الآداب : ٢٧ لمنصور الفقيه ، وقال المؤلف ان أكثر الناس يرويها لإبراهيم ابن المهدي .
٤ المختار : ٢٧٠ وأمالي المرتضى ١ : ٥١١ واللآلي : ٥٢١ والحماسة البصرية ٢ : ٨٥ .

لمرّغتُ خدّي وألّفتُ[1] بينَ هشيمِ المشيبِ وروضِ الشبابِ

وقال محمد بنُ هانىء[2] :

واللهِ لولا أن يُسفّهني الهوى ويقولَ بعضُ القائلينَ تصابى
لَكَسَرتُ دُملُجَها بضيقِ عناقِها ولثمتُ من فيها البرودَ رُضابا
بنتم فلولا أن أغيّرَ لِمّتي عبثاً وألقاكم عليَّ غِضابا
لخطَطْتُ شيباً في عِذاريَ كاذباً ومحوتُ مَحْوَ النِّقسِ عنه شبابا
وخلعتُه خلعَ النِّجادِ مُذمّما واعتضتُ من جلبابِه جِلبابا
وخضبْتُ مُسودَّ الحدادِ عليكمُ لو أنني أجدُ البياضَ خِضابا

وسأله أبو منصورٍ الثعالبيُّ أن يَصفَ غلاماً صغيراً كان بديعَ الحسنِ ليُثبتَ ذلك في كتابه المترجَمِ بألف غلام ، فقال[3] :

إنّي عَشِقتُ صَغيراً قد دبَّ فيه الجمالُ
وكادَ يُفشي حديثَ الـ فُضُولِ منه الدّلال
لو مرَّ في طرُقِ الهجـ ـرِ لاعتراهُ ضلال
وتاهَ فيه اغتراراً لو لم يُغِثْهُ الوِصال
يُريكَ بدراً تماماً في الحُسنِ وهو هلال

وسأله أيضاً أن يصفَ غلاماً كاتباً كانَ حَسَنَ الخطّيْنِ خطّ اليدِ وخط الوجه ، فقال[4] :

---

١ ص : وألقيت .

٢ ديوان ابن هانىء : ١٩٨ وزهر الآداب : ٩٠٣ .

٣ هذه القطعة والقطعتان التاليتان في النفح ٣ : ١١٦ وانظر الشريشي ٥ : ٢٥٢ .

٤ الشريشي ٥ : ٢٢١

وكاتبٍ أهديتُ نفسي له فهيَ من السوءِ فِدا نفسِهِ
سلّطَ خديْهِ على مُهجتي فاستأصلاها وهي من غرسه
كأنّما خطَّ على خدّهِ مثلَ الذي قد خطَّ في طِرسه
فلستُ أدري بعدَ ما حلَّ بي بمسْكِهِ أتلفُ أمْ نِقسِهِ

وقال فيه[1] :

وشادنٍ أسرَفَ في صَدّهِ وزادَ في التيهِ على عبدِهِ
الحسنُ قد بثَّ على خدّهِ بنفسجاً يرنو إلى وردِهِ
رأيتُه يكتبُ في طِرسِهِ خطّاً يُضاهي الدُّرّ في عِقدِهِ
فخلتُ ما [قد] خطّه كفّه للحُسنِ قد خُطَّ على خدّهِ

وألمَّ أبو الفضل في هذا بقولِ بعض الكُتّابِ[2] :

ما أخطأتْ نوناتُه من صُدغِهِ شيئاً ولا ألِفاتُه من قدّهِ
وكأنما أنفاسُه من شعرِه وكأنما قِرطاسُه من جِلدِهِ

وينظر إلى هذا من طرفٍ خفي ، قولُ [ابن] أبي سَمُرَة الدارمي[3] قال :

سرابُ الفَيافي صادِقٌ عندَ وعدِها وسمُّ الأفاعي مُبرِئٌ عند صدّها
رمتني ولم أسعَدْ بأيامِ وصلِها بعَيْنَيْ مَهاةٍ أحسَنَتْ ببُعدِها

---

١ الشريشي ٥ : ٢٢٢
٢ ينسبان للصنوبري ، انظر تهذيب ابن عساكر ١ : ٤٥٨ ورفع الحجب ١ : ٨٨ والعمدة ٢ : ٣٥ ، ومعاهد التنصيص ٣ : ٩ وديوانه : ٤٧٤ وابن بسام يتابع زهر الآداب : ٦٧٦ .
٣ اسمه أحمد بن أبي سمرة ، وانظر أبياته في زهر الآداب : ٦٧٦ .

تعلّقها قلبي كما قد تعلقتْ صوالجُ صُدْغَيها[1] بتفاحِ خدّها
فقلبيَ لمّا أضعفتْه كخصرِها ودمعيَ لمّا نظّمتْه كعِقدها

وقال أبو الفضل[2] :

قلت للمُلقى على الخدَّين من وَردٍ خِمارا
والذي سلَّ على العُشاقِ باللحظِ شِفارا
أسبَلَ الصُّدغُ على خدّكَ من مِسكٍ عِذارا
أم أعانَ الليلَ حتى قهرَ الليلُ النهارا ؟
قال مَيدانٌ جرى الحُسْنُ عليه فاستدارا
ركضتْ فيه عيونٌ فأثارتهُ غُبارا

وقال يتشوّق إلى بلدِه[3] :

أهيمُ بذكرِ الشرقِ والغربِ دائباً وما بي شَرقٌ للبلادِ ولا غربُ
ولكنَّ أوطاناً نأتْ وأحبّةً فَقَدْتُ متى أذكُرْ عهودهمُ أصبُ
إذا خطرت ذِكراهمُ في خواطري تناثرَ من أجفانيَ اللؤلؤُ الرطب
ولم أنسَ مَن ودّعتُ بالشطّ سُحرةً وقد غرّدَ الحادونَ واستعجلَ الركب
أليفانِ هذا سائرٌ نحو غُربةٍ وهذا مقيمٌ سارَ عن صدرِه القلب

وقال في مثله[4] :

---

١ ص : خديها .
٢ النفح ٣ : ١١٦ والشريشي ٤ : ٢٩٠ – ٢٩١ .
٣ ستأتي منسوبة لعبد الوهاب المالكي ؛ وقد اضطربت نسبة بعض المقطوعات بينه وبين أبي الفضل.
٤ النفح ٣ : ١١٥ .

تذكَّرَ نجداً والحِمى فبكى وَجْدا | وقال سقى اللهُ الحِمى وسقى نجدا
وحيَّتْه أنفاسُ الخُزامى عشيّةً | فهاجتْ إلى الوجدِ القديمِ له وجدا
فأظهر سُلواناً وأضمرَ لَوعةً | إذا طُفِئتْ نيرانُها وقَدَت وقدا
ولو أنّه أعطى الصبابةَ حُكمَها | لأبدى الذي أخفى وأخفى الذي أبدى
ولم أنسَهُ والسكرُ يَفتِلُ قدَّه | إذا ما تثنّى كدتُ أعقِدُه عَقدا

وقال :

ومخمورِ الجُفونِ بلا خُمارٍ | حكى بدرَ الدُّجى حُسْناً وبُعْدا
فما زالتْ به حِيَلي إلى أنْ | دنا ورأى لديّ الغَيِّ رشدا
وجاد بقُبلةٍ فشمِمتُ مِسكاً | وذقْتُ مُدامةً وقَطَفْتُ وَرْدا
فكان السكرُ لي سبباً سقاني | على ظمإِ الهوى العُذْريّ بردا [٥٨]
فيا شِرباً وردتُ فكان عَذباً | ويا نجماً لحظتُ فكان سَعْدا

وقال :

قالوا تبدَّى شَعرُه فأجبتهُم | لا بدّ من علَمٍ على الديباجِ
والبدرُ أبهرُ ما يكون ضِياؤهُ | إذْ كان ملتحفاً بليلٍ داجِ

وقال [١] :

ظبيٌ إذا حرَّكَ أصداغَه | لم يلتفتْ خلقٌ إلى العِطرِ
غنّى بشعرِي مُنشداً ليتني الـ | ـلفظ الذي أودَعتُه شعري

[١] النفح ٣ : ١١٧ والشريشي ٥ : ٢٣٨ .

فكلّما كرَّرَ إنشادَهُ قبلتُه فيهِ ولم يدْرِ

وقال [1] :

يا ذا الذي خطّ الجمالُ بوجهِه سَطرَيْنِ هاجا لوْعةً وبَلابِلا
ما صحَّ عندي أن لَحظَكَ صارمٌ حتّى لبِستَ بعارِضيكَ حَمائلا

وهذا كقولِ ابنِ رشيق [2] :

وهل [على] عارضَيه إلاّ حمائلٌ قُلّدتْ حُساما

وقال أبو الفضلِ في بعضِ غِلمانِه وكان له به هوىً :

عليَّ لا تَصلْ وبِنِ فقلبي غيرُ مُرتَهنِ
غَضِبتَ فزِدْ ودُمْ غَضَباً . فإني عن رِضاكَ غَني
أتُخفي بِغَضَبي سِراً وتُبدي الحبَّ في العلَنِ ؟
لقدْ غرّتكَ في مَيلي إليكَ كواذِبُ الظِّنَنِ
أتَطمَعُ أن أزيدَ هوًى وودُّكَ لي على دَخَنِ ؟
إذا فسدتْ يدٌ قُطِعَتْ ليسلمَ سائرُ البدَنِ

فأجابهُ الغلام :

غلامُكَ غيرُ مُمتَهَنِ تُخَوّنُه ولم يَخُنِ
وتَطلُبُ عَتْبَهُ ظُلْماً على غَضَبٍ ولم يكُنِ

---

١ الشريشي ٤ : ٢٩٠ وينسبان لابن عبد ربه ، انظر نفح الطيب ٧ : ٥١ والمطمح : ٥٢ وابن خلكان ١ : ١١٠ .

٢ ديوان ابن رشيق : ١٦٩ وابن خلكان ٢ : ٣٦٧ .

وتُوقِعُه بما قد قـــلـ ـتَ في بَحْرٍ من المحنِ[1]
فقلْ لي كلّ طَرْفُكَ أمْ خلا طَرْفي من الفِتَنِ ؟

وقال أبو الفضل[2] :

وحبيبٍ [قد ضَنّ] بالوصلِ تيهاً هل تَضِنُّ البدورُ بالإشراقِ
أنا أخشى إن دامَ ذا الهجرُ أن يُنْـ شِطَ من حبّه عِقالَ وثاقي
فأريحَ الفؤادَ ممّا اعتراهُ وأردَّ الهوى على العُشّاقِ

وقال :

سمَحتُ بنفسي غداةَ الرحيلِ غَراماً على القمرِ الآفلِ
وبتُّ أفضُّ ختامَ الجفونِ وأبكي على الجسدِ الناحلِ
ومن عجبِ العشق أنّ القتيلَ يَحِنُّ ويصبو إلى القاتلِ !

وقال :

يا حادِياً وجِمالُ الحيّ سائمةٌ ماذا تريدُ بقلبي أيّها الحادي ؟
كلفتَه السّيرَ من جسمي ففارقَه وهل يَسيرُ أسيرٌ ما له فادْ ؟
رفقاً فقد هِجْتَ شوقاً ما استعدّ له فكيف يَرحلُ مشتاقٌ بلا زادِ ؟

وقال :

---

١ ص : الفتن .
٢ منها بيتان في النفح ٣ : ١١٧ .

أيا بَصَري عزّاً عليّ ويا سمعي ويا مُسرِفاً عند التضرع في مَنعي

إذا كنتَ مطبوعاً على الهجرِ والجفا فمن أينَ لي صبرٌ فأجعلَه طبعي ؟!

سَلِ المطرَ الغَمْرَ الذي عمّ أرضكم أجاء بمقدارِ الذي فاضَ من دَمعي ؟

ما أخرجته من شعره في سائر الأوصاف

كان ليلةً مع بعضِ إخوانـه وبين أيديهم شمعة ، فأفضى حديثُهم إلى وصفـها . فجعلَ مَن حضرَ يُريض نفسَه ، ويُعمل في ذلك حِسّه ، فقال أبو الفضل [1] :

ذَهَبنا فأذهبنا الهمومَ بشمعةٍ غَنينا بها عن طلعةِ الشمسِ والبدرِ

أقولُ وجسمي ذائبٌ مثل جسمِها ودمعتُها تَجري كما دمعتي تجري

كلانا لَعمري ذوبيانِ [2] من الهوَى فنارُكِ من جَمْرٍ وناريَ من هَجْرِ

وأنتِ على ما قد تُقاسين من أذىً فصدرُك في نار وناريَ في صدري

وله في وصفِ طِرْف :

حكى فرسي الليلَ في لونـِه فقابلَه البدرُ عند اضطرارِ

فكان له غُرّةً في التمامِ ونَعْلاً لحافِره في السّرار

---

1 بدائع البدائه : ٣٦٤ والنفح ٣ : ١١٧ وانظر القسم الأول من الذخيرة : ٧٨٣ حيث جمع بين عجز البيت الثالث وعجز البيت الرابع .

2 البدائع : ذوب نار ؛ النفح : ذائبان .

وقال :

رُبَّ ليلٍ أبطا عليَّ فلمّا مَدَّ ضافي دُجاه ما استبطاني
جئتُ أسعى إليه سَعيَ زُلالِ الـ ـماءِ يَستَنُّ في حشا الظمآن
ظِلتُ أسري بمثلِه فيه حتى خِلتُني قد أحاطَ بي ليلانِ
فهو طَرْفٌ له خضابي سَوادٌ أنا فيه كهيئةِ الإنسانِ

وأرى السلاميَّ قد نبّهه على هذا التشبيه ، وإن كان أبو الفضل قد زاد فيه ، وكانَ السلاميُّ قد ركبَ زورقاً بدِجلةَ فقال [1] :

وميدانٍ تجولُ به خيولٌ تقودُ الدارعينَ وما تُقادُ
ركِبتُ به إلى اللذاتِ طِرْفاً له جِسْمٌ وليس له فؤادُ
جرى فظننتُ أن الأرضَ وجهٌ ودجلةَ ناظِرٌ وهو السوادُ

وقال عبد الجليلِ للمعتمدِ بنِ عبّادٍ من شعرٍ قد تقدّم إنشادُه في صفة جوازِ البحر [2] :

فسرتَ فوقَ دِفاعِ الله تَبصرُه براحةِ الدينِ والتقوى فينهصرُ
كأنّما كان عَيناً أنت ناظرُها وكلُّ شطّ بأشخاصِ الورى شُفُرُ

وقال أبو الفضلِ في زامرٍ أسود [3] : [٥٩]

---

١ اليتيمة ٢ : ٣٩٦ – ٣٩٧ والشريشي٣ : ٤٥ – ٤٦ .

٢ انظر القسم الثاني من الذخيرة : ٥٠٥

٣ الشريشي ٢ : ٣١٠ – ٣١١ .

وحالكِ اللونِ كالليلِ البهيمِ له | فضائلٌ مُشرقاتُ الحُسْنِ كالفلَقِ
تنوبُ عن نطقِه ريحٌ مؤثِّرةٌ | في قلبِ مُصطبحٍ أو لبِّ مُغتبِقِ
تخالُ مجلسَنا وجهاً به حسنا | إذْ صارَ فيه كخالٍ مُعجبٍ لبِقِ
كأنّما كفّه من زمْرِه سُلِبتْ | أو زمرُه من يديهِ جِيدُ مُسترَقِ
تراه يَحفظُ ما يُوحى إليه به | وسِرُّه أبداً يَهوي بمُنخرِقِ
يحدو بأنفاسِه الأوتارَ مجتهداً | فتَستقيمُ [1] به الألحانُ في الطّرُقِ
أهدى الشبابُ إليه حُسنَ بهجتِه | فناسبَ المِسكَ في لونٍ وفي عبَقِ

وقال :

هاتِ اسقني فالعيشُ شاكَ جُرأةً | والدهرُ نكّبَ عن لِقاءِ أعزلا
من قهوةٍ تَدعُ الفتى مُستحسِناً | من غفْلةٍ في شُربِه أن يَجهلا
معَ ناعسِ الألحاظِ تُخبِر أنّه | ما قال فيما ريمَ منه قطُّ لا
والثلجُ يحكي في اكتنانِ سقوطِه | وضَئيلِ جثتِه دَقيقاً غُربِلا

ويا بُعدَ ما بين هذا وبين قولِ بعضِ أهلِ عصرِنا وهو :

[ ] [2] | والشمسُ طالعةٌ ولمّا تَغربِ
خِلتَ الرّذاذَ بُرادةً من فِضّةٍ | قد غُربِلتْ مِن فوقِ نِطعٍ مُذهَبِ

ولأبي الفضل في الشيب [3] :

---

١ ص : فتسبقهم .
٢ بياض في ص .
٣ الشريشي ٤ : ٢٩٧ .

طاقةٌ نغّصَتْ[1] عليَّ شبابي　　فتعمّدتُ نتفَها غيرَ وانِ
فأقامتْ عند المكانِ ونابَتْ　　عند نتْفي من غيرِها طاقتانِ
قلتُ ماذا هذا لَعمرُ التّصابي　　لِشبابي وجدَّتي محنتانِ
قالتا[2] قد جرَى من الرّسمِ للسلـ　　ـطانِ أخذُ البراةِ قَبْلَ الجانِ
وان ازددتَ في الجفاء فلا تُنْـ　　ـكِرْ قدومي عليك معْ أعوانِ

ألمَّ في البيت الأخير بقول [الآخر] :

[وزائرة للشيب لاحت بعارضي　　فبادرتُها بالقطف خوفاً من الحتف][3]
[فقالت على ضعفي استطلت ووحدتي]　　رويدَكَ حتى يَلحقَ الجيشُ مِن خلفي

وفي البيت الثاني والثالث بقول كشاجم[4] :

أخي قُمْ فعاوني على شيبةٍ بَغَتْ　　فإنيَ منها في عذابٍ وفي حرْبِ
إذا ما مَضى المِنقاشُ يأتي بها أبَتْ　　وقد أخذتْ مِن دونها جارةُ الجنب
كجانٍ على السلطانِ يجزى بذنبه　　تَعلّق بالجيرانِ من شدّةِ الرُّعبِ

وقال أبو الفضل من طَرْديّة :

أنعتُ كلباً لم يُصَبْ مِثالُهْ　　يُطْمِعُهُ من حرصه خيالُهْ[5]
مِثلَ الهزبْرِ سُلبتْ أشبالُهْ　　أو كالظليمِ ضَلَّ عنهُ رالُهْ

---

١ ص : نقضت .　　٢ ص : قالت .
٣ زيادة من الشريشي ٤ : ٢٧٩ .
٤ زهر الآداب : ٨٩٨ والشريشي ٤ : ٢٧٩ .
٥ ص : يطعمه . . . خباله .

يسأمُ من مَطالِه مَطالُه وفي وَدِيقِ فَمه جريالُه
فكلّنا من صيدِه عيالُه

وله من قصيدٍ طويلٍ[1] :

كأنما الفَحمُ والنّيرانُ تُلهبُه هامٌ من الزّنجِ في ثوْبٍ من السّرَقِ
أو الزُّنودُ براها السيفُ في رَهَجٍ من الهنودِ عليها شَطبة العَلَقِ
مَدّ الرمادُ عليه بعدَ رَقْدَتِه عيناً له حَسَكٌ مِن حُمرةِ الشّفَقِ
أقولُ للنار والأحزانُ نائرةٌ والقلبُ في غمراتِ الحبّ لم يُفِقِ
إيّاكِ أن تَقربي ناراً مؤجّجةً بلاعِجِ الشوقِ في قلبي فتحترقي
أظنُّ أنكِ ما لاقيتِ ما لَقيتْ قلوبُ أهلِ الهوى من جاحِمِ القَلقِ
ولا مُنيتِ بتوديعٍ وقد جعلوا بيضَ السواعدِ أطواقاً على العُنُقِ
ولا فُجعتِ بغزلانٍ ألفتهمُ ساروا بقلبك إذ ساروا مع الرُفَقِ
سطا الفِراقُ عليهم غفلةً فغدَوْا من جَورِه فِرَقاً من شِدّةِ الفَرَقِ
فسرتُ شَرقاً وأشواقي مُغَرّبةٌ يا بعدَ ما نزحتْ من طُرْقهم طُرُقي
لولا تَداركُ دَمعي يومَ كاظمةٍ لأحرقَ الركبَ ما أبديتُ من حُرَقِ
ياسارقَ القلبِ جَهراً غيرَ مُكترثٍ أمنتَ في الحبّ مَن بعدي[2] على السَّرَقِ
ارمُقْ بعينِ الرضا تنْعِشْ بعاطفةٍ قبلَ المنيةِ ما أوهيتَ[3] مِن رَمَقِ

---

[1] منها أبيات في نفح الطيب ٣ : ١١٥ .
[2] ص : بعدي ؛ النفح : أن يعدي .
[3] النفح : أبقيت .

لم يبقَ مني سوى لفظٍ يبوح بما ألقى فيا عجباً للفظِ كيف بقي
صلني إذا شئتَ أو فاهجُرْ علانيةً فكلٌّ ذلك محمولٌ على الحَدق

ومنها في وصف الطلِّ والنَّوْر :

كأنَّ قَطْراته من بعدِ ما جَمَدت لآلىءٌ فوقَ أصدافٍ من الورَقِ
فالنَّورُ قد رَمِدَتْ بالثلجِ أعينُه فليس يَرنو بجفنٍ غيرِ مُنطبقِ
والغصن قد ضَربتْ أيدي الضريب على أوراقِه فتراه مائلَ العُنُقِ

قوله : « بيض السواعدِ أطواقاً على العُنُقِ » معنى مشهور ، ومنه قول القائل وهي أبياتٌ يتداولها القوّالون [1] :

مشتاقةٌ طَرقتْ بالليلِ مُشتاقاً أهلاً بمن لم يَخُنْ عهداً وميثاقا
يا زائراً زار من قُربٍ على بُعُدٍ آنستَ مُستوحشاً لا ذُقتَ ما ذاقا
يا ليلُ عرّسْ على خِلّين قد جَعلا بيضَ السواعدِ للأعناقِ أطواقا

ومن قصائده المطولات في المدح وما يتعلق به من الصفات ما أخرجته من مقطوعاته الإخوانيات وغيرها

قال من قصيدة في معزّ الدولة صاحبِ حلب :

وقفت على رسم الديار مسائلاً وهل يَشتفي [2] من لوعة الحب سؤالُ ؟

---

١ الشريشي ٤ : ٣٠ . ٢ ص : يشفي .

فألوى رُسومَ الصبرِ رسمٌ من اللّوى وطلّ دموعي بالسّبيبةِ[1] أطلالُ [٦٠]
يُحيّي بها صَوبُ الحياءِ مَعالماً خَلَعنَ عليهنّ المحاسنَ أنوال
فما روّضَتْ أرضُ المِهادِ مَلاحيفٌ وزَهرُرُباهاالحَلْيُ والنّوْرُ خلخال
وورقاءَ تَستملي حنيني بنَوحِها كِلانا على عَهْدِ الأحبةِ هَدّال
وإني إذا ما ازورّ عنيَ منزلٌ رمى الحلّ في قُطريْهِ شدٌّ وترحال
أقيمُ إذا ما العز وطّدَ مَفرشي وأنبو إذا ما أعقب[2] العزّ إذْلال
أنا ابنُ السُّرى إن ملّني مَتْنُ سابقٍ تَسلمني شَخْتُ الجُزارَة مِرقال
كأن الفَلا ظِئر[3] لها الليل حَجلة تَحن إليها من ركابيَ أطفال
تُفَوّزُ في قَطعِ المفاوزِ جُرأتي إذا كاعَ عن قَطْعِ المجاهلِ جُنهُال[4]
إذا البدرُ جلّى وجهةَ البرّ نُورُه فَمَدّدُ ظِلّي فَوق وجنتِه خال
سقى حلباً والحيّ مِن آلِ عامرٍ هزيمٌ توالى من نشاصك[5] مِهطال
فكَمْ أثمرتْ فيه القنا من مُناقفٍ وكم أتعبتْ فيه الصوارمَ أبطال
إذا خطبوا العلياءَ يومَ كريهةٍ فأسيافُهمْ فيها مُهورٌ وأجمال
بيُمنِ مُعزّ الدولةِ انكشفتْ لنا من الدهرِ أحوالٌ مَرَتْهُنّ أحوال
تَجافى محيّا المالِ حتى كأنما يُقابلُه منه وُشاةٌ وعُذّال

---

١ ص : بالست ، والتصويب تقديري .
٢ ص : أعقت .
٣ ص : طير .
٤ ص : طاع . . . جاهل ؛ وكاع لغة في كع أي أحجم .
٥ النشاص : السحاب .

كأنّ الوغى طرفٌ له الجبْل[1] مَحجرٌ ... له النقعُ أكحالٌ له الزّان[2] أميال

وأسمرَ عسّالٍ إذا احتدمَ الوغى ... تَصدّقَ منه الزّادَ أطلسُ عسّال

وله من أخرى في ابنِ ذي النون المأمون :

لا يَشربُ الماءَ ما لم يُحْفِ حافتَه[3] ... حتى إذا قطرتَ أرماحُه شَربا

ولا يَرِد المُحيّا الطلْقُ بَغْرتَه[4] ... كالقِرنِ عنّ ببرقٍ خُلّبٍ خلبا

ما بالُ بَالي إذا سكّنتُه نفَرتْ ... عِشارُه وإذا كفكفتُه انسربا

ألتبرمٍ بالدنيا وزينتِها ... أم البعيدُ من الآمالِ قد قَرُبا

بهمّةِ المَلِكِ المأمونِ حين غدا ... إفضالُها لِتَناهي هِمّتي سَبَبا

الواهبِ الألف لا عَيْناً ولا وَرِقاً ... ولا عِشاراً ولكنْ أنعُماً قُشُبا

في جَحفلٍ كسوادِ الليلِ مُرْتكِمٍ ... لكنْ أسنّتُه صارتْ له شُهُبا

كأنّما نَهْجُ أنبوبِ الرماحِ به ... ما قد ورِثْتَ من العليا أباً فأبا

قَومٌ إذا ركِبوا سدوا الفَضاء وإنْ ... [حلّوا] توهّمتهم في البيدِ رَجْلَ دبا

قد صيّروا الحربَ كأساً والدماءَ بها ... خَمْراً وما جَوّفتْ[5] من بيْضِهاحببا

وله فيه من أخرى :

---

١ الجبل : الساحة ، يعني هنا ساحة الوغى .

٢ ص : الران .

٣ كذا هو ولم أستطع توجيهه .

٤ البغرة : قوة الماء أو الدفعة الشديدة من المطر ، وقد يكون معناها هنا : الشرب دون ارتواء .

٥ ص : حوفت .

ولم يفهموا ما تكتبُ البيضُ في الوغى ولا السّمرُ حتى أعجما بالحوافرِ
تَسرَّعَ حتى خِلتُ كلّ مُقصّرٍ مِن الخيلِ محمولاً على ظَهر طائرِ
وحتى توهّمنا النجومَ أسنّةً وخِلنا الهلالَ بينها إثْرَ حافرِ

وله من مرثية في الملك شروان شاه :

يا مُوضِعاً[1] عن مُلكِهِ وسَريرِه ماذا أضرَّك لو لبثتَ قليلا ؟
طَلّتْ[2] رزيّتُه دَمي إنْ لم أدَعْ دَمَ مُقلتي في خَدِّه مطلولا
يا تاركاً رُسُلَ الملوكِ ببابِه مَن ذا يَردُّ عليهِمُ التّجميلا ؟
أرَحلْتَ ثم تركتنا ولقَبلَ ذا كنا نَحُفُّ[3] إذا أردتَ رَحيلا
أتُرى دليلَك في السّرايا غَرّهُ خطأً فسارَ إلى الحِمام دليلا ؟
صِرنا نُقبّلُ قبرَه ولطالما كنّا نُبيح بِساطَه التّقبيلا
جَدَثٌ غدا جفناً لأبصرِ ناظرٍ[4] أمسى وأصبحَ بالرّدى مكحولا
يا قبرُ لم نَعرِفْ تَشتّتَ شَملِنا[5] حتى غَمَدتَ الصارِمَ المصقولا
ظلنا نشقُّ جيوبَنا من بعد أنْ كنّا نُجرّرُ في ذراهُ ذُيولا
ونَعُبُّ كاساتِ الدموعِ كأننا في أنسِ مَجلسه نَعُبُّ شمولا
عَذلَ البكاء فظلّ ينشِدُ نَفسَهُ بيتاً يُمَهّدُ عُذرَه المقبولا

---

١ ص : مرصعاً ، ولعل الصواب « مزمعاً » .
٢ ص : طلب .
٣ نحف : لعله يعني نحيط بركابك ، والا فاقرأ « نخف » .
٤ ص : لانصر ناصر .
٥ ص : تعرف ... بعملنا .

رَدُّ الجموحِ الصعبِ أيسرُ مَطلباً ... من رَدِّ دمعٍ قد أصابَ سَبيلا
ما للرماحِ قَصُرْنَ عن دَرْكِ المدى ... ورَأينَ حَمْلَ نُصُولهنَّ فضُولا ؟
ولِقَبْلُ كُنَّ إذا رَأيْنَكَ عازماً ... عاينَّ طُولَكَ فاستفدْنَ الطُّولا
لَبِسَ الحِدادَ حَديدُهنَّ فما نرى ... إلاَّ سِناناً من صَداهُ كليلا
تبكيكَ أقلامٌ [زَهَتْ] من [1] عُظْمِ ما ... كتبتْ فُتوحَكَ بُكرَةً وأصيلا
وبحورُ شعرٍ غاص [2] مدحُك فانتقى ... منهنَّ دُرّاً في النّظامِ جزيلا

وله من أخرى في بعض عبيده :

أعبدَيَّ قد أسأرتما [في] جَوانحي ... مِنَ الوجدِ داءً مُستكِنّا وباديا
أسأتمْ وللحبَّ المبرّحِ حُجّةٌ ... تُحسّنُ في عَيْنَيَّ تلك المَساويا
لئن بَزّني دَهري ببغدادَ ثَرْوتي ... فما زِلتُ من كَسْبِ المحامدِ كاسيا
فيا ليتني لم آتِ بغداد نابهاً ... وأصبحتُ في أكنافِ شِرْوانَ عاريا
فلو كنتُ فيها لم تُحَصّ قوادمي ... ولا أحفتِ الأشواق منها الخوافيا
فمزقتُ أثوابَ الفلا بسوابقٍ ... تَظلُّ بها الأنضاءُ تَفْلي الفيافيا
إذا [ما] أمالتني بها نَشْوةُ الكرى ... تَرنّحَ في كفّيَ المهنّدُ صافيا
وإن أنا طلّقتُ النهارَ بجَوْزِها ... خَطبتُ خُدارِيّاً [3] من الليل داجيا
ومَن طلبَ الغاياتِ جَرّعَ نفسَه ... سلافَ السرى واستنهضَ النجمَ ساقيا [61]

---

1 ص : عن .
2 ص : عام .
3 ص : حواريا .

ما أخرجته من مقطوعاته الإخوانيات وغيرها
في أوصاف مختلفات

له من قصيدة في وصف القيروان وقتَ فتنةِ العامة بها يقول فيها :

حالت عليّ القيروانُ بِحالِها ... عمّا عهدتُ العيشَ فهوَ منغّصُ
فخرابُها في كلّ يومٍ زائدٌ ... وصُبابةُ المعمورُ فيها تنقُصُ

ومنها :

إن كان أرخصني الزمانُ فإنّه ... أسدى إليّ بضائعاً لا ترْخُصُ
أو كانَ غيّر من طِباعي[1] موضعي ... فالخمرُ إنْ تركَتْ وِعاها تَقْرُصُ
كيف الرجوعُ وطِرفُ حالي عاثرٌ ... وجناحُ آمالي الكسيرُ مُقَصَّصُ

وله من أخرى :

ولمّا أنْ كساني الشّيْبُ ثوْباً ... ولم يكُ وقتَ تغيير الثّيابِ
أتاني غفلةً والنفسُ فيهـا ... بقايا مِن عقابيلِ التّصابي
وغُصنُ شبيبتي غَضٌ نضيرٌ ... به ظمأٌ إلى ماء الشبابِ
ورامَ الناسُ مِني ما يُضاهي ... مَشيبي في فِعالي أو خِطابي
ولم أُقْدِمْ على وَصل التّصابي ... مَخافةَ أن أدنّسه بعابِ
فَداومتُ المُدامَ فما أبالي ... ببالي إنْ تخطّى عَن صوابِ
فإن ظهرَ التصابي فيّ يوماً ... أحلتُ به على فِعلِ الشّرابِ

---

[1] ص : ضياعي .

وهذا من قول حسّان[1] .

نولّيها الملامةَ إنْ ألَمْنا إذا ما كانَ مَغْثٌ أو لحاءُ

وقال أبو الفضل :

ومُعَنِّفٍ لي في المُقامِ ضَرورة بالقيروانِ وما بها سُلطانُ
ألقى الهوانَ بها وكم مِن عِزَّةٍ قد ساقها نحوَ الرجالِ هَوان
جَهِلوا على الإحسانِ فيها مَوْضعي لو كان يَنفعُ عندهمْ إحسان
فكأنّني القُرآنُ عندَ مُعَطّلٍ أو في بلادِ هرابذٍ رَمضان
ما الدر يَنقصُ فَضلَه في بَحره أن ليسَ تَعرفُ قدرَه الحيتان
كلاّ وليسَ المِسكُ يَبطلُ عَرفُه إنْ ضَيّعته بجهلها الغِزلان
ما عيبُ ضوءُ الشمسِ عند بزُوغها أن ليسَ يُدرِكُ نورَها العُميان
والليثُ لا يَنسى استطالةَ بأسِه إنْ ضَمّهُ في خِيسِه خَفّان
أو ما ترى الدنيا بفقدِ مليكها طَرْفاً ولكنْ ما له إنسان ؟

وله من أخرى :

وأعظمُ من مُصيباتِ الليالي عَلَيّ وصَرْفِها خِلّ خَؤونُ
يقابِلُني بوُدّ مُستميلٍ وبينَ ضلوعِه داءٌ دفينُ
إذا عاتبْتُه أبدى مجوناً وعِلّةُ ذلك العَتْبِ المجون
ومن جعل السّمومَ له دَواءً فيوشكُ أن يفاجِئَه المنون

[1] ديوان حسان ١ : ١٧ .

أهُمُّ بأنْ أجازيَه فيأبى ... عليَّ الأصلُ والعِرضُ المصون

أرى هَذَرَ[1] الكلامِ المحض غثّاً ... فيردعُني عن الغثِّ السمين

ولم يُزْعِجْ زئيرُ الأسدِ حِلمي ... أيزعجُه مِن البقِّ الطّنين ؟

أيطمعُ أن يشقَّ غُبارَ مُهري ... ذَليلٌ تحتَه عَيْرٌ حَرون ؟

سَلِ السّمْرَ الذّوابلَ ما غَنائي ... إذا اشتجرتْ بها الحربُ الزّبون

ألم أجعل مُثار النقعِ بحراً ... على أنّ الجِيادَ له سَفينُ ؟

وله من أخرى في صاحبِ الخيلِ ابنِ أذين من قصيدةٍ طويلة ، منها قوله :

وأعذبُ مِن يَومنا بالعُذَيبِ ... سلامتُنا اليومَ من ذي سَلَمْ

ولستُ بمَنْ يَطّبيه الغِنى ... ويَرصُدُ طيفاً له أن يُلِمْ

ومَنْ عَبِثَتْ نَفسُه بالغنى ... تساوى الغنى عندهُ والعَدَمْ

وكمْ طَسَمَ الدّهرُ من جَبلَتي ... فردَّ نضارَةَ ما قد طَسَمْ

وكنتُ إذا ما رماني الزمانُ ... أو كادَ أو همَّ بي أو عزَمْ

عَلِقْتُ أبا الحسنِ المُرتَجى ... فأمسَيتُ من صَرفِه في حَرَمْ

فتىً لو رأى البُخْلَ في نومِه ... أو الجبنَ خُلقاً له لم يَنَم

ولو كان طيفاً وكان الكرى ... طَروقاً لغيرِ العلا ما ألم

فما لي أرى عِقدَ إحسانِه ... تَبدَّدَ من سِلكِه ما نظَمْ؟

ولِمْ ذَمّني عندَه حاسِدٌ ... كأنَّ به جِنّةً أو لَمَمْ

---

[1] ص : هزم .

بدا وجهُه فاشتهيتُ العمى   وكلّمني فاستزرتُ الصَّمَمْ
وقد كنتَ تُرضِعُ دَرَّ الصَّفا   وِدادي فما لِودادي فُطِمْ؟
كذا الطفلُ يرضعُ حتّى إذا   تَرَعْرَعَ غُيِّبَ عنه الحَلَمْ
يُسائلني الناسُ عمّا تقولُ   وما قلتَ لي قطُّ إلاَّ نَعَمْ

[وله] :

قالوا مدَحتَ أناساً لا خلاقَ لهمْ   مَدْحاً يُناسِبُ أنواعَ الأزاهيرِ
فقلتُ لا تعذُلوني إنّني رجلٌ   أقلّدُ الدُّرَّ أعناقَ الخنازيرِ

وقال :

ما إنْ [١] أرى قُربكُمُ صائباً   وأنتمْ لي غَيرُ أجناسِ
وما جُلوسي عندكُمْ أنّني   أعدّكمْ من بعضِ جُلاّسي [٦٢]
لكنني أجلسُ [ما] بينَكُمْ   تَعَلّلاً من عدَمِ الناسِ

وقال في رجلٍ يعرفُ بابن كثير :

وما الخيرُ مما يرتجى في ابنِ واحدٍ   فكيف نرجّيه من ابنِ كثيرِ؟

وقال :

وكيف نرجو السحابَ الجودَ من رَجل   لا يطمعُ الطيرُ فيه وهو مصلوبُ
أصبحتُ أحلبُ تيساً لا مدرَّ له   والتيسُ من ظنّ أن التيسَ محلوبُ

وقال :

---

١ ص : مالي إن .

يا لائماً عِمران َ لا تُنشِدنَ عَمرو بنَ كلثومٍ «ألا هُبّي»
طَمِعتَ في كلبٍ فدارَيتَهُ والكلبُ من يَطمعُ في كلبِ

فصلٌ في ذكر طائفة من الشعراء المقلّين الطارئين على هذا الأفق من بلاد المشرق ، مع ما يتصل بذكرهم من المعارف المفيدة

منهم :

. **سليمان بن محمد الصقلي**[1] : كان – فيما بلغني – من أهل العلمِ والأدبِ والشعر ، ووفد على هذا القطرِ سنةَ أربعين وأربعمائة ، وقصدَ بمديحه عِدّةً من الرؤساءِ ، وتقدّم بفضلِ أدبه عند الكُبراءِ . وممّا أنشدتهُ له في عذول قبيح قوله[2] :

رأى وجهَ مَن أهوى عذولي فقال لي أجِلّكَ عن وجهٍ أراهُ كريها
فقلتُ له بل وجهُ حِبّي مِيراءةٌ وأنت ترى [تمثال][3] وجهِك فيها

ومن شعره[4] :

---

١ لسليمان بن محمد الصقلي ترجمة في الجذوة : ٢٠٦ (بغية الملتمس رقم : ٧٦٤) وفي الخريدة (١ : ٩٤) ترجمة لسليمان بن محمد الطرابلسي (اقرأ : الطرابنشي أي من طرابنش بصقلية) وذكر انه دخل افريقية وانتقل إلى الأندلس وتوطنها واتخذها لمخالطة ملوكها سكنا ، وليس من المقطوع به أن يكون هو نفسه المترجم به عند ابن بسام ، وانظر مسالك الأبصار ١١ : ٤٥٤ والمكتبة الصقلية : ٥٧٧ ، ٥٩٤ ، ٦٥٥ .

٢ الجذوة : ٢٠٨ والشريشي ٤ : ٧٨ .

٣ زيادة من جذوة المقتبس .

٤ الجذوة : ٢٠٨ .

تَقَلَّبَ دهرنا فالصقرُ فيهِ يُطالِبُ فضلَ أرزاقِ الحمامِ
على الدّنيا العفاءُ فقد تناهى تَسرُّعها إلى أيدي اللئام
وما النعماءُ للمفضولِ إلاّ كَمِثْلِ الحَلْيِ للسيفِ الكَهام
ذَرِيني أجعلِ الترحالَ سِلكاً أنظّمُ فيهِ ساحاتِ المَوامي
فإني كالزُّلالِ العَذْبِ يُؤذي صفاهُ وطعمَه طولُ المُقامِ

وهذا المعنى مشهور . وقد مَرَّ منه في تَضاعيفِ هذا التصنيفِ كثير ، كقولِ بعضِ أهلِ عصرنا[1] :

مَلَلْتُ حِمصَ وملّتني فلو نَطقَتْ كما نَطقتُ تلاحينا على قَدَرِ
وسوَّلتْ ليَ نَفسي أن أفارقَها والماء في المُزنِ أصفى منهُ في الغُدُرِ

وكذلك قوله : « بَل وَجْهُ حِبِّي مِراءة » معنىً مُتداول . منه قول يوسف بن هارون الرَّماديّ[2] :

وإذا أرادَ تَنزُّهاً في رَوضةٍ أخذَ المراةَ بكفِّهِ فأدارها

وقال الآخر[3] :

أنا كالمرآةِ ألقى كلَّ وجهٍ بمثالِه

وقال العباسُ بنُ الأحنف[4] :

---

١ هو الأعمى التطيلي ، انظر ديوانه : ٤٥ .
٢ الشريشي ٤ : ٨٧ .
٣ لابن الرومي في تشبيهات ابن أبي عون : ٢٧٨ .
٤ ديوان العباس : ٢٨٠ والشريشي ١ : ٣٠ .

همّتْ بإتيانِنا حتّى إذا نظرتْ   إلى المِراةِ نهاها وجهُها الحسَنُ

ولبعضِ المصريين [1] في غُلامٍ كان يَهواه ، مما يُستَطرَفُ معناه [2] :

يجري النسيمُ على غِلالة [3] وجهِهِ   وأرقُّ منهُ ما يمرُّ عليهِ
ناولتُه المِرآةَ ينظرُ وجهَهُ   فعكستُ فتنةَ ناظريْهِ إليه

ورأى أبو الحسن السّلامي في يَدِ غلامٍ يَميل إليه مِرآةً فقال [4] :

رأيتُهُ والمراةُ في يَدِهِ   كأنّها شَمْسَةٌ على مَلِكِ
فقلتُ للصورة التي احتجبتْ   من غيرِ زُهدٍ فيها ولا نُسُكِ
يا أشْبَهَ الناسِ بالحبيبِ ألا   تُخبرنا عنك غيرَ مؤتَفِكِ
قال أنا البدرُ زرتُ بدرَكمُ   وهذهِ قطعةٌ مِنَ الفَلَكِ
قلتُ فإني أرى بها صَدَأً   فقال هذي بَقيّةُ الحُبُكِ

---

١ ص : أهل المصرين ، وقد صوبته اعتماداً على ما يرد في الحاشية التالية .

٢ البيتان لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى (وجده يونس ابن عبد الأعلى صاحب الفقيه المصري عبد الله بن وهب) وكان عالماً بالنجوم (انظر القفطي : ٢٣٠ وحسن المحاضرة ١ : ٥٣٩) وقد ذكره صاحب زهر الآداب وقال : وكان لأبي الحسن في الشعر مذهب حسن وطبع صحيح وحوك مليح (٦١٣) وأورد نماذج من شعره وفيها البيتان (٦١٤) وعند التوطئة لذكره قال : وقال بعض أهل العصر ، ويبدو أن ابن بسام اضطرب في النقل ، فالشاعر بعض أهل العصر بالنسبة للحصري صاحب زهر الآداب ، لا بالنسبة لابن بسام ، وبعد أن أدرك ذلك رمج على « أهل » وحول لفظة العصر إلى « المصر » بين ، ولا وجه يسوغ أن يقال أهل المصرين ، وانظر الشريشي ٤ : ٧٨ .

٣ زهر الآداب : غلائل .

٤ اليتيمة ٢ : ٣٩٧ .

وذكرتُ بذكره المرآة قولَ القراطيسي الكوفي [1] ، وهي أبياتٌ يتداولها القوّالون :

ما تَنقضي مِن عَجَبٍ فكرتي ... في خَصْلَةٍ فرَّطَ فيها الوُلاهْ
تَركِ المحبينَ بلا حاكمٍ ... لم يُقعدوا للعاشقينَ القُضاهْ
وقد أتاني خبرٌ ساءني ... مقالُها في السرّ : واسَوْأتاهْ
أمِثلُ هذا يَبتغي وصلنا ... أما يرى ذا وجهَه في المراهْ !

قال القراطيسي [2] : وقلتُ يوماً للعباس بن الأحنف : هل ألْممتَ بهذا المعنى ؟ فأنشدني لنفسه :

جاريةٌ أعجبها حُسنُها ... ومِثْلُها في الناس لم يُخلَقِ
خبّرتُها أني مُحِبٌّ لها ... فأقبلَتْ تَضحكُ من منطقي
والتفتتْ نحوَ فتاةٍ لها ... كالرشإ الوسنانِ في قُرْطقِ
قالتْ لها قولي لهذا الفتى ... أنْظُرْ إلى وَجْهِكَ ثم اعشَقِ

وحدثني الفقيهُ أبو بكرِ بنِ الوزير الفقيهِ [أبي محمد ابن] العربي [3] ؛ قال : حُدّثتُ عن الفقيهِ أبي عبد اللهِ الحُميديّ عن سليمان بن محمدٍ

---

1 هو اسماعيل بن معمر القراطيسي الكوفي وكان يصاحب أبا نواس وأبا العتاهية (انظر ترجمته في الورقة : ١٩١ – ١٠٢ والأغاني ٢٣ : ٧٢ والأبيات التي ذكرها ابن بسام وردت في المصدرين المذكورين والشريشي ٤ : ٧٧) .

2 انظر المصدرين السابقين ، وديوان العباس : ٢٠٣ والشريشي ٤ : ٧٨ .

3 وردت القصة في الجذوة : ٢٠٦ مع اختلافات يسيرة في العبارة وبدائع البدائه : ٣٤٨ .

الصّقلي . قال : كان بسُوسةِ إفريقيةَ رجلٌ أديبٌ ظريف يهوى غلاماً جميلاً من غلمانها . واشتدّ كلفُهُ به . فتجنى الغلام عليه ، فبيّنْناه ذاتَ ليلةٍ يشربُ منفرداً وقد غلَبَ عليه السُّكرُ خطرَ ببالِه [٦٣] أن يأخذَ قبَسَ نارٍ فيحرقَ به دارَه . ففعلَ وجعلَه عند بابِ الغلام فاشتعل ناراً ، فاتّفق أنْ رآه بعضُ الجيرانِ فأطفأه . فلمّا أصبحَ حُمِلَ إلى القاضي فسأله لِمَ فعلَ ذلك ، فأنشأ يقول :

لمّا تمادى على بعادي وأضرمَ النارَ في فؤادي
ولم أجِدْ مِن هَواهُ بدّاً ولا مُعيناً على السّهادِ
حملتُ نفسي على وقوفي ببابه حملةَ الجوادِ
وطارَ مِن بعضِ نارِ قلبي أقلُّ في الوصفِ من زنادِ
فاحترق البابُ دونَ علِمْي ولم يكنْ ذاكَ من مرُادي

فاستظرفَه قاضي البلد ، وتحمّلَ عنه ما أفسد .

قال الحميدي[١] : وكنتُ أظنُّ أن هذا المعنى ممّا تفردَ به هذا القائل حتى أخبرتُ أنّ نصرَ بنَ أحمد الخبزرُزي[٢] دخلَ على أبي الحسن[٣] ابن المثنى في إثرِ حريقِ المرْبَد ، فقال له : هل قلتَ في هذا شيئاً ؟ فقال : ماقلتُ ، ولكن أنشدِك ارتجالاً ، وجعلَ ينشِدُ هذه الأبيات :

---

١ انظر الجذوة : ٢٠٧ ، والأبيات في بدائع البدائه : ٣٤٨ .

٢ كان الخبزرزي (– ٣٢٧) شاعراً أمياً يخبز خبز الأرز بمربد البصرة في دكان ، وينشد أشعاره فيحتشد الناس حوله لسماعها (ابن خلكان ٥ : ٣٧٦ وفي الحاشية مصادر أخرى) .

٣ الجذوة : الحسين .

أتتكمْ شُهودُ الورَى تَشْهَدُ فما تستطيعونَ أن تجحدوا
فيا مِرْبَدِيّونَ ناشدتُكمْ على أنني منكمُ مُكمَدُ[1]
جرَى نفَسي صَعداً نحوَكمْ فمِن حرّه احترَقَ المِرْبَدُ
وهاجَتْ رِياحُ حَنيني لكمْ فظَلّتْ بها نارُكم تُوقَدُ
ولولا دموعي جرَتْ لم يكنْ حريقُكمُ أبداً يَخمَدُ

فصلٌ في ذكر الأديب أبي الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني[2]

من جُملةِ مَن وفد أيضاً على البلدِ في ذلك الأوان . وكان الغالبَ على أدواتهِ علمُ اللسان . وحفْظُ الغريبِ والشّعر الجاهليّ والإسلامي ، إلى المشاركةِ في أنواع التعاليم ، والتصرّفِ في حَمْلِ السّلاح . والحِذْقِ بالآلاتِ الجُنديّة . والنفاذِ في معاني الفروسية ؛ فكان الكاملَ في خلالٍ جمّة . طرأ

١ الجذوة : مجهد .

٢ لثابت الجرجاني ترجمة في الجذوة : ١٧٣ (بغية الملتمس رقم : ٦٠٢) والصلة : ١٢٥ والاحاطة ١ : ٤٦٢ (وفيه نقل عن الذخيرة) . وبغية الوعاة : ٢١٠ ومعجم الأدباء ٧ : ١٤٥ ؛ ولد ثابت سنة ٣٥٠ ودرس ببغداد على عبد السلام البصري والربعي وابن جني ، لقي أولهما ببغداد سنة ٣٧٨ ؛ ثم هجر إلى الأندلس . وأخذ عنه الاندلسيون شرحه لجمل الزجاجي (فهرست ابن خير : ٣١٥)ودرس عليه بعضهم حماسة أبي تمام (٣٨٧) ؛ وقد كانت صلة ابن حزم به وثيقة إلا أنه يشير إليه في الفصل (١ : ١٧) باسم « أحد الملحدين » ولعله أثر في ابن حزم بمعرفته المنطقية واتقانه للتعاليم ؛ غير أنه حين التحق بباديس بن حبوس تورط في شؤون السياسة ولحقته تهمة التدبير ضد باديس مع ابن عمه يدير فقتل سنة ٤٣١ وفي الاحاطة تفصيل واف بمحنته وخبر مقتله نقلا عن كتاب المتين لابن حيان.

على الجانب[1] منذُ صدرِ الفِتْنة للذائعِ من كرمه ، فأكرمَ نُزُلَه ، ورفعَ من شانه ، وأصحبَه ابنَه المرشحَ - كان - لسلطانه . فلم يَزل له بها المكانُ المكين إلى أن تَغيّر عليه يحيى بتغيّرِ الزمان ، وتقلّبِ الليالي والأيام بالإنسان ، ففارقه ولحقَ في غَرناطَة بعسكرِ البرابرة ، فحلّتْ به من أميرهم باديس الفاقِرَة .

ووجدتُ بخطّ الفقيه أبي محمدِ بن حزم ، قال[2] : إن أوّلَ مَن لَقيَ مِن ملوكِ الأندلسِ مجاهِدٌ العامريّ المتقدّمُ الذكر ، فأكرمَ نُزُلَه وأنِسَ به ، وسأله يوماً عن رفيقٍ له رآه معه ، فقال الجرجاني :

رفيقانِ شتى ألّفَ الدهرُ بيننا   وقد يلتقي الشتّى فيأتلفانِ

قال أبو محمد بن حَزْم : ثم لقيتُ بعدَ ذلك أبا الفتوحِ فأخبرني عن بعض شيُوخه أنّ ابن الأعرابي رأى في مجلسِه رجلينِ يتحدّثان ،فقال لأحدهما من أين أنت؟ قال من اسبيجاب ، وسأل الآخرفقال : من الأندلس ، فعجب ابنُ الأعرابي من ذلك وأنشد البيت المتقدم .

ثم أنشدني هذه المقطوعة[3] :

---

١ الاحاطة : الحاجب ، والسياق يشير إلى أنه طرأ على علي بن حمود الحسني ، ولم يكن علي حاجباً ، بل خليفة ؛ ثم اتصل بعده بابنه يحيى .

٢ انظر الجذوة ومعجم الأدباء .

٣ لم يرد في ص منها إلا بيتان هما الأول ، والشطر الأول من الثاني والشطر الثاني من الرابع ، وهذا الاضطراب يستدعي تصحيحها ، كما أن قوله « مقطوعة » يعني أنه أورد ما يزيد على بيتين .

نزلنا على قيسيّة يمنيّة لها نسبٌ في الصالحين هجانِ
فقالتْ وأرختْ جانبَ السترِ دونها [لأيّةِ أرضٍ أم من الرجلانِ
فقلتُ لها أما رفيقي فقومه تميم وأما أسرتي فيمانِ
رفيقانِ شتى ألفَ الدهرُ بيننا] وقد يلتقي الشتّى فيأتلفانِ

قال ابنُ حزم[1] : وأخبرني أبو الفتوح الجرجاني ، قال : أخبرني عليُّ بن حمزة [ان القصيدة التي أولها « هذي برزتِ لنا فهجتِ رسيسا » قالها المتنبي في محمد بن زريق]وكيل زوامل[2] ابن الزيّات صاحب طرسوس[3] وأنه وصله عليها بعشرة دراهم ، فقيل له إنَّ شعرَه حسن ، قال : ما أدري أحَسَنٌ هو أم قبيح ، ولكني أزيدُه عشرة أخرى ؛ فكانت صلتُه عليها عشرين درهماً .

فصلٌ في ذكر الأديب عبد العزيز بن محمد السوسي أحد أضياف بن ذي النون

قال ابن بسّام : ولم يقعْ إليَّ من شعر هذا الرجل إلاَّ قصيدةٌ من جملة قصائدَ لغيرِ واحد ، أنشدتْ للمأمونِ يحيى بن ذي النون ، سنة خمسٍ وخمسين في صنيعٍ احتفلَ فيه لإعذارِ حفيده حسبَ ما أصِفُه . وقصيدةُ السوسي في ذلك طويلة ، منها قولُه :

1 الجذوة ومعجم الأدباء .
2 الجذوة : الناظر في زوامل .
3 ص : طرطوس .

لمّا بنيتَ مِن المكارمِ والعُلا ما جاوزَ الجوزاء في الإجلالِ
أعملتَ رَأيَكَ في بناء مُكرَّمٍ ما دارَ قطّ لآملٍ في بال
لو زارَه كسرَى أنو شروانَ لم يَصرفْ إلى الإيوانِ لحظَ مبال[1]
يا ساقِيَ الصّهباء أينَ كبارها قد لذّ وِرْدُ القهوةِ السلسال
إعذارُ يحيى أبهجَ الدّنيا وبيـنَ عـُذْرَنا في نخوَةِ المُختال
حشدَ السّرورَ لنا طَهورُ مُطهّرٍ مِن عاثِرِ الجُبناء والبُخّال
عَرَضٌ مِن الآلامِ يَجلبُ صِحّةً وطَفيفُ نَقْصٍ فيه كلُّ كمال

انتهى ما كتبتُه منها .

ونذكر بعقبها ما تعلّق بسببِها فصلاً لابنِ حيّان في وصفِ ذلك الصنيعِ الذّنُونيّ، دلّ به على[٦٤]بَراعتِه، وأعربَ به عن مَوْضِعه مِن صناعته . وسيمرُّ أثناءه ذِكرُ شُعَراء من هذهِ الطائفةِ الطارئةِ وسواها ، لانتظام كلامِ ابنِ حيّان إياها . فمنهم مَن ذكرتُ في هذا الموضعِ بارِعَ أشعارِه ، وجرّدتُ فصلاً من كتابي في مُستطرَفِ أخبارِه . ومنهم مَن فاتَ دَرَكي، ولم يَعلَقْ بشرَكي . فاقتصرتُ في هذا الفصلِ على ذِكرِه ، وأثبتُّ ها هنا ما وقعَ إليّ مِن شِعره . وكان غيرُ السّوسي منهم أحقَّ بالتقديم كمحمّدِ بنِ شَرَف وسائرِ طَبَقَتِه ، ممّن هو أعصفُ[2] في البيانِ ريحا ، وأكثرُ عن الإحسانِ تَصريحاً ، ولكنْ وصَلْنا هذا الفصل بخبرِ هذا الرجل إذْ لم يكن له في سواه آيةٌ تُتلى ، ولا حَسَنَةٌ تُجتَلى .

---

١ ص : موال .
٢ ص : أعطف .

قال ابنُ حيّان : كتبَ إليَّ الأديبُ ابنُ جابر . قال : احتفلَ المأمون ابنُ ذي النّون في مَدْعاةِ إعذارِ حفيدِه يحيى فحشدَ أمراءَ البلاد ، وجُملة الوزراء والقُوّاد ، فأقبلوا إليها كالقَطا القاربِ أرْسالا ، وقد رسمَ لخدَمَتِه في تَوسيع مشاربِ هذا الإعْذار ، وإرغادِ موائدِه ، وتكميلِ وظائفِه ، وإذكاءِ مطابخِه ، رُسوماً انتهَوْا فيها إلى حَدّه . وشَقّقَ عليها جُيوبَ أكياسِه ، وأمرَ بالاستكثارِ من الطّهاةِ والإتآقِ للقُدور ، والإتراعِ للجفان ، والصّلّةِ لأيامِ الطعام ، والمشاكلةِ بين مقاديرِ الأخبازِ والآدام ، والإغرابِ في صَنعةِ ألوانها مع شِياب[1] أباريقها بالطّيوبِ الزكيّة ، والقِرانِ فيها بين الأضدادِ المُخالِفةِ ما بين حارّ وبارد ، وحُلوٍ وحامض ؛ والمماثلةِ بين رائقِ أشخاصها وبينَ ما تُودَعُ فيه من نفائس صِحافِها ، والاستكثارِ لها من أنواعِ الحلواءِ المجيرةِ[2] للمِعَد من داءِ الإتخام، وتجاوزِ عَسليّتها إلى السكر . فجاءوا في ذلك كلّه بأمرٍ كُبار أبيدَتْ لمطابخِه أمَم من الأنعام ، جمع فيه بينَ المشّاء[3] والطيّارِ والعَوّام . وانتُسِفتْ لمخابزِه أهراء مِن الطعام ، وأنفِقتْ على مجامِره ومعاطرِه جُمَلٌ مِن الأموالِ الجِسام ، فاغتدى جماعاً[4] لمدّاعي أهلِ الإسلامِ العِظام .

وشرّفَ المأمون بالاشتراك مع تطهير حفيده يحيى صبياناً من بني أصحابه ، وبدأ بحفيده قبلهم ، فكان أسكنَ مَن خُتِنَ معه جأشاً ، وأقلّهم

....

١ ص : شباب .
٢ ص : المجبرة .
٣ ص : الشا .
٤ قد تكون صورة اللفظة أقرب إلى « جماماً » .

زمَعاً[1] ، وإنّه مشى – زعموا – إلى الحديد مشيَ البطل النّجيد ، ومكّن الخاتنَ من عضوه فأعانه على إحكام صنعه ، وسوّى ختانَه . وخففَ آلامه ، وأوشك إفراقَه[2] ، فخلص من محنته هذه الشرعيّة ، خلوصَ صادر السّهام المُصمي للرميّة ، فسُرَّ ابنُ ذي النونِ وشامَ برْقَ الأمنيّة : فعند ذلك أذكى نيرانَه ، وأنضجَ أطعمتَه ونصبَ موائدَه ، ودعا الجَفَلى إليها ، ولم يُفْسِحْ لأحدٍ التخلّفَ عنها . فاكتملت الأطعمة ، وفُتحت الأبواب ، وسُهّلَ الحجاب ، ورُفعت السّتور ، وجُليَت المقاصير ، وزُيّنت القصور ، وأقيمت المراتب ، ووكّل بكلّ قسمٍ منها كبير من وجوه الخدَمة ضُمَّ إليه فريق من الأعوان والوزَعة ، يتصرَّفون بأمره ، ويَقفون عند حدّه ، قد أخذوا بخفض الأصوات مع سرعة الحركات وحثّ الأقدام ، فصار من بديع ذلك الصَّنيع الفَخم أنْ لم يعلُ فيه صوت ، ولا تُشُكّي منه فوت[3] ، فطال العجَب من استوائه في مثل ذلك المشهد .

قال ابنُ حيّان : ولما بكرَتْ أفواجُ عِليَةِ الناس إلى باب القصر مُستَبقين ، وغَشيتْهُ زُمَرُهم وزرافاتُهم مُبتدرين ، أنزلوا عن دوابهم عند باب المنصب الأول ، فأذن لهم بالدخول على مراتبهم ، فمشوا وقد حفّتهم سراةُ الصّقلب الخصيان ، وخَواصُّ الحَشَمِ والغِلمان ، فأجلسوا في الدار الأولى ذاتِ الحائر الريّان . فلما اكتملوا أدخلوا إلى المجلس الكبير . فلما استقرّ فيه جمعُهم خرجَتْ تسميةٌ من الأمير المأمون بإدخالِ القضاة

---

١ حنف : في هذا الموضع بمعنى ختن ؛ والزمع : القلق والجزع .

٢ ص : اقرافه ؛ والا فراق : البرء ؛ وكل عليل أفاق من علته فقد أفرق .

٣ ص : قوت (ولها وجه إذا أغفلنا السجع الدقيق) .

والفُقَهاء والعُدول ومن يليهم من كبار الناس . دعاهم لذلك ذو الوزارتين أبو [عامر بن] الفرج [1] . فقاموا والسكينةُ عليهم . يقدمهم قاضي القُضاة أبو زيد بن عيسى القُرطُبي [2] . فأدخلوا بتكريم على تُؤدَةٍ ورفق ، وجيء بهم إلى الدار الكبرى الثانية ذات الساحةِ الواسعة الزاهرة ، ثم وصلوا إلى مجلس قد فُرش بالدّيباج التّستَري المرقوم بالذهب . وسُدلت فوق حناياه سُتورٌ من جنسه تكاد تلتمع الأبصارَ بنصاعةِ ألوانها وإشراقِ عقيانها . وقد جلس لهم الأمير المأمون في جانب منه ، وحفيده في جانب آخر ، فأكبَّ الناسُ عليه يهنئونه ، ويلثمون أطرافه، ويتناغون فيما قد روَّوْا وابتدهوا ، وهو يَشملهم بإقبال طَرْفه ، ويعمّهم بإجمالِ ردّه ، فينثنون منه إلى حَفيده [٦٥] يَدعون له . ثم عُدل بهم إلى مكان الأطعمة في المجلس الأول — على ذات اليسار من تلك الدار — الواسع القطر الرَّحبِ الأبواب ، وقد فُرشَ بالوطاء التُستَريّ ، وعُلّقت على أبوابه وحناياه سُتورُ الطميم [3] المثقَلةُ ذاتُ الصُّوَر المُقيَّدة للألحاظ ، وقد مُدَّت فيه صنوفُ الطعام . فأمعنت هذه الطائفةُ في الأكل ازدِقاماً وسَرْطاً ، واختضاماً وقَضماً ، وانتهالاً وعلاً .

---

١ ص : أبي الفرج ؛ وقد كان أبو عامر بن الفرج وزيراً للمأمون بن ذي النون ثم لابنه القادر (المغرب ٢ : ٣٠٣) وترجم له ابن بسام في الذخيرة ٣ : ١٠٣ ؛ وذكر في المطمح : ١٥–١٦ باسم « أبو الفرج » ، وانتقل هذا الخطأ إلى نفح الطيب ٣ : ٥٤٢ – ٥٤٣ واستمر الخطأ في الفهرسة كذلك .

٢ هو عبد الرحمن بن محمد بن عيسى أبو زيد بن الحشا القرطبي الأصل ، استقضاه المأمون ابن يحيى بن ذي النون بطليطلة بعد أبي الوليد بن صاعد في الخمسين والأربعمائة ، وحمده أهل طليطلة في أحكامه وحسن سيرته ، ثم صرف عنها في سنة ستين وصار إلى طرطوشة واستقضي بها ثم صرف واستقضي بدانية وتوفي فيها سنة ٤٧٣ (الصلة : ٣٢٥) .

٣ الطميم : الثقيل (massif) في معجم دوزي ، ولعل المراد هنا أن يكون نوعاً من القماش الثقيل .

ووُصفاء الموائد الحافّون من حولهم يطردون الأذبّة عن مجلسهم بطوال المَذابّ البديعة الصنعة ، المُقَمّعَةِ الأطراف بفاخر الحِلية . ولما مضى لهم صَدْرٌ من أكلهم ، نجَمَ لهم الأمير المأمون قائماً فوق رؤوسهم ، مُتهمّماً بشأنهم ، مُبالغاً في تكريمهم ، قد حَفَّ به أذواء الوزارة وأهلُ الخدمة وأكابرُ الفتيان وأعاظمُ القُوّاد قائمين بقيامه . ولما قضى وطراً من القيام بمُكارمتهم صَدَرَ راجعاً إلى مرتبته .

ولما فرغت تلك الطائفة جيء بهم إلى المجلس المرسوم لوُضوئهم ، وقد فُرش أيضاً بوِطاء الوشي المرقومِ بالذهب ، وعُلّقت فيه سُتورٌ مثقّلةٌ مماثلةٌ ، فأخذوا مجالسهم منه ، وناولهم الوُصفاء الطائفون بهم رفيعَ النقاويّات[1] والذّرائرَ المُطيّبات في الأقداح والأشناندانات[2] الفِضيات المُحكمة الصناعات ، كادت تُغنيهم بطيبها عن الغَسْل . ثم أدنيَ إليهم إثْرَ ذلك الوضوء في أباريق الفضة المُحكمة الصنعة ، يَصبّون على أيديهم في طُسوس الفضّة المُماثلة لأباريقها في الحسن والجلالة ، فاستوعبوا الوضوء وأدنيت من أيديهم مناديلُ يتضاءل لها ما عليهم من سنيّ الكُسوة . ثم نُقلوا إلى مجالس التطييب أفخم تلك المجالس ، وهو المجلس المُطل على النهر العالي البناء ، السامي السناء ، فشُرع في تطييبهم في مجامر الفضة البديعة بفلقِ العُودِ الهندي ، المشوبة بقطع العنبر الفُستقي ، بعد أن نُدّيت أعراض

---

١ إعجام هذه اللفظة مضطرب في ص ؛ والسياق يدل على أنواع من الأدوات التي تتخذ لغسل الأيدي كالصابون وغيره . وعند دوزي أن « نقاي » تعني منشفة ولكن يبدو أنها ليست من استعمال الاندلسيين .

٢ ص : والأشنان ، وهو مادة مطيبة لغسل الأيدي بعد الطعام ، ولكن المقصود هنا هو الأوعية التي تحتوي الأشنان وهي الأشناندانات .

ثيابهم بشآبيب ماء الورد الجوري ، يُصَبُّ فوق رؤوسهم من أواني الزجاج المجدود [1] ، وفيّاشات [2] البلّور المحفور ، ثم أدنيَ إليهم قوارير المها [3] المحكمة الصّنعة ، الرائقة الهَيئة ، قد أترعت بالغوالي الذكيّة ، النّامّة بسرّها قبل الخبرة ، المُتخذة من خالص المسك التبّتي ، ومحض العنبر المغربيّ ، لاءم بينها رشح البانِ البرمكي [4] ، فتناولوا من ذلك حتى لأقطرت سبالهمْ ذوَبانَا ، وأعادت شيبهم شبّانا . فلمّا استتمّ هؤلاء الحَلَبَةُ نعيم يومهم ، من طعمهم وطيبهم ، أقيموا للدخولِ على المأمون ، فسلّموا عليه ، ودَعَوْا له . فأقبل عليهم أحسنَ قبول ، وردَّ أجملَ رَدّ ، وأمر بإدخالهم إلى سيّد مجالسه المسمّى المُكرَّم ، نتيجِ همّته ، وبَديع حكمَته ، السائر خبرُه ، الطائر ذِكرُه ، المعدوم نِظْرُه [5] ، ليُمتعوا أبصارهم بالنّزهة ، ولم يكن أكثرُهم رآهُ إلى يومهم ذلك مع علوق [6] وصْفه بخواطرهم ، فلما رأوْه صَغُرَ عندهم ما كانوا يَستكبرونه من وصفه ، ورَجَعوا أبصارَهم فيه ، ونبّه بعضُهم بعضاً على دقائقِ معانيه .

قال ابنُ حيان ، قال ابن جابر : وكنتُ ممن أذهلَتْه فتنةُ ذلك

---

١ من معاني « المجدود » : المقطوع (فلعله يعني زجاجاً مخروطاً على أشكال) أو زجاجاً ملوناً لأن فيه جدداً (طرائق) من الألوان .

٢ الفياشات (في الأندلس والمغرب) : جمع فياشة وهي القنينة bouteille, flacon ، قاله دوزي.

٣ المها : البلور .

٤ عند دوزي : البخور البرمكي ، ولكنه لم يعلل هذه التسمية ، وعند ابن الحشاء (١٧) بان : شجر معروف بالمشرق ويجلب ثمره ودهنه . ولعل وصفه بأنه برمكي مبالغة في تقدير جودته .

٥ ص : ذكره ؛ والنظر والنظير بمعنى .

٦ ص : علو .

المجلس ، وأغربُ ما قيّدَ لَحظي من بهيّ زُخرفه الذي كاد يَحبس عيني عن الترقي عنه إلى ما فوقَه إزارُه الرائعُ الدائر بأسّه حيثُ دار ، وهو مُتّخذٌ من رفيعِ المَرْمَرِ الأبيض المسنون ، الزّاريةِ صفحاتُه بالعاجِ في صِدْقِ الملاسةِ ونَصاعةِ التّلوين ، قد خُرّمتْ في جُثمانه صُوَرٌ لبهائمَ وأطيار وأشجار ذات ثمار ، وقد تعلّق كثيرٌ من تلك[1] التماثيلِ المصوّرةِ بما يليها من أفنانِ أشجار وأشكالِ الثمر ما بين جانٍ وعابث ، وعَلق بعضُها بعضاً بين مُلاعبٍ ومُثاقف ، تَرنو إلى مَن تأمّلها بألحاظٍ عاطف ، كأنها مُقبلَةٌ عليه ، أو مُشيرةٌ إليه . وكلُّ صورةٍ منها مُنفردةٌ عن صاحبتها ، مُتميّزةٌ [من] شكلِها ، تَكادُ تُقيّد البصرَ عن التعالّي إلى ما فوقها . قد فَصَل هذا الإزارَ عمّا فوقَه كِتابُ نَقْشٍ عريضُ التقدير ، مُخرّمٌ مَحفور ، دائرٌ بالمجلسِ الجليلِ من داخله ، قد خطّه المِنقارُ أبينَ مِن خطّ التزوير ، قائمُ الحروفِ بديعُ الشّكلِ ، مُستبينٌ على البُعْد ، مرقومٌ كلّه بأشعارٍ حِسان ، قد تُخيّرتْ في أماديحِ مُختَرعِه المأمون . وفوقَ هذا الكتابِ الفاصلِ في هذا المجلسِ بُحورٌ مُنتظمةٌ من الزجاج الملوّن المُلبّسِ بالذهب الابريز ، وقد أجريت فيه أشكالُ حيوانٍ وأطيار ؛ وصورُ أنعامٍ وأشجار ، يُذهل[2] الألبابَ [٦٦] ويُقيّد الأبصار . وأرضُ هذه البِحار مَدحوّةٌ من أوراقِ الذهبِ الإبريز ، مُصوّرَةٌ بأمثالِ تلك التصاوير من الحيوانِ والأشجارِ بأتقنِ تَصويرٍ وأبدع تَقدير .

قال : ولهذه الدار بُحَيرَتان ، قد نُصّتْ على أركانهما[3] صُوَرُ أسودٍ

---

١ ص : ذلك .

٢ ص : يذل .

٣ ص : أركانها .

مَصوغَةٌ من الذهب الإبريز أحكمَ صياغة . تتخيّل لمتأمّلها كالحةَ الوجُوه فاغرةَ الشّدوق ، ينساب من أفواهها نحو البُحيرتَين الماءُ هوْناً كرَشيش القَطْر أو سُحالَةِ اللّجيْن . وقد وُضع في قعرِ كلّ بُحيرةٍ منهما حوضُ رُخام يُسمّى المَذْبَح ، مَحفورٌ من رفيع المرمر ، كبيرُ الجِرْم ، غريبُ الشكل ، بديعُ النّقش ؛ قد أبرزتْ في جنَبَاتِه صُوَرُ حيوانٍ وأطيارٍ وأشجار ، وينحصرُ ماؤهما[1] في شَجَرَتَيْ فِضّةٍ عاليَي الأصلين ، غَريبَي الشكل ، مُحكَمَتَي الصَّنْعة ، قد غُرزَتْ كل شجرةٍ منها وسطَ كلّ مَذبحٍ بأدقّ صِناعَة ، يترقى فيهما الماءُ من المذبحين فينصبُّ من أعالي أفنانِهما انصبابَ رذاذِ المطرِ أو رَشاشِ التنديَةِ . فتحدُثُ لمخرَجِه نَغماتٌ تُصبي النّفوس ، ويرتَفِعُ بذِرْوَتِها عمودُ ماءٍ ضخم مُنضغط الاندفاع ، ينساب من أفواهِها ويُبلّلُ أشخاصَ أطيارها[2] وثمارها ، بألسنةٍ كالمباردِ الصّقيلة ، يُقيّد حُسْنها الألحاظَ الثاقبةَ ، ويدع الأذهانَ الحادّةَ كَالِيَةً .

قال ابنُ حيّان : إلى هذا المكانِ انتهى تلخيصي ووَصْفي ، وهو جَلَلٌ عند قِرانِه بموصُوفاتِه ، ووَشَلٌ عند إضافتِه إلى مغموضاته[3] . وأبرأ من عُهدةِ التّقصيرِ فيه ، وأنهجُه لمَنْ تَعاطى الاقتدارَ على الإبداعِ في وصفه .

قال : وتوالى إطعامُ أفواج الناسِ في ذلك الإعذار ، مجلساً بعد آخر ،

---

١ يعني ماء حوضي المذبحين ، وفي ص : منها .

٢ ص : أشخاصها طيارها .

٣ كذا في ص ، ولعل مغموضاته هنا تعني أسرارَه فيكون كلامه وشلا بالنسبة إلى أسرار ذلك الصرح العظيم .

أياماً متوالية . حتى استُدعِيَ له من بقايا أصنافِ الناسِ وأدونهم حتى الجفَلى ، وأزعجوا إلى النعيمِ الذي لا عهدَ لهم به ، دخلوا على التّطليق ، وحُفِظوا من ضَنْكِ المَضيق ، وأوسِعَتْ مآكلُهم مِن غليظٍ ورقيق ، فالتهموا وازدرموا[1] ، ونهِلوا وعَلّوا ، ووضّئوا وطُيّبوا .

مجلسُ الأنس

قال ابن حيان : وذهب المأمونُ إلى تَتميم تكريم زُوّاره من رجال الأمراء الذين استحضَرَهم يومئذٍ لشهُودِ فرْحتِه ، بمشاهدةِ مجلسِ خَلْوَته ، وتَنعيمِ أسماعهِم بلذّاتِ أغانيه ، وقد علم أنّ فيهم مَن يترخّصُ في النّبيذ ولا يسوغُ له نعيمٌ دونهُ ، فاحتمَلَ حَرَجَ ذلك مُبالغةً في تأنيسِهم ، فاحتفلَ لهم في مجلسٍ قد نُضّدَ ، وأحضِرَ فيه جميعُ آلات الأنس . فلمّا استوَى بالقومِ مجلسُهم ، واشرأبّوا إلى الأخذِ في شأنِهم ، قرّب إليهم أطعمةً طيوريّةً[2] جوامدَ وباردَة ، وصنوفاً من المَصُوص[3] والأشربةِ والطباهج[4] ، مَوائد مترعةً اتخذوها بُسُطاً لنبيذهم . ثم انثنوا إلى الشرابِ ونُفُوسُهم به صبّة ، وقد مُدّتْ سِتارةُ الغِناء لأهلِ الحِجاب ، ونُظّمتْ نَوْبةُ المغنّين زُمراً ، فهاجوا الأطراب ، واستخفّوا الألباب ، ونقلوا الطّباع فجاءوا بأمرٍ عُجاب ، بَذّهم فيه سابقُ حَلْبتِهم ، المُحسّدُ مِن

---

١ ازدرموا : ابتلعوا ، وفي اللسان الازدرام : الابتلاع (إلا أنه جاء في مادة : زردم) .

٢ ص : طنورية ، واستبعد أن تكون لغة في « تنورية » إلا أن يكون ذلك وهماً من الناسخ . ثم إن الأطعمة التنورية لا تكون جوامد أو باردة ، ولعلها أن تقرأ « طيفورية » أي موضوعة في أطباق غير مسطحة .

٣ المصوص : طعام قيل إنه لحم ينقع في الخل ويطبخ .

٤ الطباهج : أنواع من الطعام أساسها اللحم المقلو (انظر كتاب الطبيخ : ١٣٣) .

جماعتِهم ، الإسرائيليّ ذَيّ ، الزائدُ إحسانُه على إبراهيم الموصليّ ، صديقُ إبليس ، الظريفُ في[1] فِتْنته ، وتخايله بالماخوريّ المكنون[2] ، الذي اغتذى في باطلِه نسيجَ وحدِه ، يزدهي العيدانَ جَسُّه ، ويُخرسُ الأطيارَ شَجْوه . قاتَله اللهُ مِن آخذٍ بالقُلوب ! فطربوا وطَرِبَ المأمونُ ليلتئذٍ على وفُورِ حِلْمه . وكان الذي غَنّاه فيها ذَيّ صوتاً شجياً ، لحنه من خفيف الرَّمَل ، مُطلَق بالخِنْصَر ، في مقطوعةٍ نَظَمها عبدُ الله بنُ الخليفة الملقّبُ بالمصري ، وهي :

باكِرْ لبِكرِ الدّنانِ إنّ هِدَاءَ العَروسِ في السّحرِ
واشربْ عُقاراً[3] تخالُ حُمرتَها تَحرقُ أيدي السّقاةِ بالشّررِ
فإنّ يحيي أحيا بدولتِه ما قد محاهُ تَصرُّفُ القَدَرِ
مَلْكٌ هوَ الدهرُ في عزيمتِه يَطلُعُ فينا بطلْعةِ القَمرِ

فطمح بابنِ ذي النّونِ الإطراب ، حتى حنّ حنينَ النّاب ، وخلعَ لوقتِه عليه ثوباً من التّسْتري الأخضر مُطرزاً بالذهب ، ووصَلَه بمائتي دِينار ذهباً ، ثم فَضّ الصّلاتِ والخِلَعَ في سائر الطبقات .

هذا آخرُ خطابِ ابنِ جابرٍ إليّ بوصفِ ذلك الإعذار ، وجُمْلَه التي بَسطتُها من إدماجِه ، وسَبَكتُها من نَقْدِه . خلا أنه سامَني ذِكرَ مقطوعاتٍ

---

١ ص : من .
٢ ص : ومحاباه بالماحور في المكنون ؛ والماخوري لون من النغم ، وتعد الأنغام الماخوريات من خفائف الثقيل الثاني .
٣ ص : عمارا .

حشا بها كتابَه إليّ ، من صنعة صديقه عبد الله بن خليفةَ المِصريّ[1] ، تَعاوَرَ المغنّون في تلك الليلة الغناء بها ، وجميعها عندي في نهاية من الضَّعْف [٦٧] والتّخلّف والتّبرؤ من صَنْعَة الشعر . يَبْغي بها توشيحَ هذا المشهد الجليل الذي قِيلتْ فيه[2] ، ينظمها في عِقده ، فلم أسعِدْه على ذلك ترفيعاً به عن هُجنتها ، وتَبرئةً لنقدي على استجادة سَبْكها ، ومَذمّةً لزمن غُفْلٍ أقحمَ قائلَها في زُمرة الشعراء ، وجسّره على إنشاد جِلّة الأمراء . وطالما عنّاني هذا الرجلُ بذكر ابن خليفةَ هذا وإنمائه إلى النِّسبة المصرية ، وعزْوِه له إلى المعارف الحِكمية ، وأنا أحسبُه مِصريَّ التربة ، مُتطارِحَ الغُربَة ، مُستطيراً على بُعد النّجعة ، مُرهَفَ الحدّ ، مُحتَنكَ التجربَة ، أرتاحُ لذكره وأودُّ لُقياه والأخذَ عنه . فأبرزَه الفحصُ لي قُرطبيَّ التّربَة ، محاليّ الحومة ، سُوقيَّ الحِرفَة ؛ ابنُ جارٍ لي مِن تجارِ الخفّافين يُسمّى خليفة ، عجميٌّ نَبْزُ الأبِ بـ « المورتُهْ » مفجوء الميتة[3] منذ سنوات قليلة . لم أعهَدْ ابنَه هذا يَرتسِمُ بأدَب ، ولا يَسعى لطَلَب ، إلى أن رمَتْ به النّوى قريباً إلى بلاد العُدْوة[4] لابتغاء المعيشة ، فأطالَ بها الثّواء ، ولَقيَ الفُهماء ، وتَقَيّل الجُسراء ، فكَرَّ إلينا على زعمه مصرياً صليبةً ، وأديباً باقرة[5] ، وشاعراً باقعةً ، وحكيماً نطّيساً ، وظريفاً مُمتعاً . كلٌّ ذلك من غير طُول رياضة ، ولا تَقدمة معرفَة . وما إنْ يُستنكر لقاسم الفضائل بين خلْقِه أنْ يَجمعَ منها لواحدٍ ما فَرّق في جماعة ، له القدرةُ البالِغةُ والحِكمةُ القاهرة .

---

١ سيترجم له ابن بسام في ما يلي (الورقة : ١٢٠) .

٢ ص : قوبلت به .

٣ ص : مفجوا الممتة : والمعنى أن ميتته أدركته فجأة (منذ سنوات قليلة) .

٤ سيذكر ابن بسام في ترجمته أنه رحل إلى مصر ثم عاد إلى الأندلس « وقد نشأ خلقاً جديداً » .

٥ ص : بقرة .

وفي فصل له في ذكر الشعراء

قال ابنُ حيّان : وصار من مَناكيد ِ ذلك الصَّنيع المُلحِقة ِ به عَيْبَ التقصير عُدْمُه لحُذّاق ٍ من الشعراء يُجيدون القولَ فيه، ويُحسنون وصفَه ، فيوفّون المُبدِعَ له حقّه . إذ ألوَى ببقاياهم الزمنُ العَصيفُ المُطاولُ للفِتنة ، وجاء بأشباه له من شُعراء مُتكلفين مثل ِ الخازباز المضروبِ مُثْلة [1] ، يُهينمون بما لا وَدْقَ له مِن سَمائهم [2] . ويُفرِغون في قَوالِبَ تضيق عن إفراغهم ، ويَجهدون في حَشو قَوافيهم دونَ إرهاف ٍ للفظ ٍ ولا استنباط لمعنىً ، فلا يَسرُّون ناقِداً ، ولا يهزُّون مُمْتَرًى [3] ، ولا يُنشطون راويا . وأشقُّ ما على الحائزِ لهم غِلظُهم في أنفُسِهم ، واستِقصارُهم لمن امتدحوه في إخلاله وقعوده ِ بهم ، وهي لو عقلوا أقعدُ وأضيقُ وأقصرُ وأعكس . فيَاوَيْحهم ماذا عليهم في الإنصافِ من أنفسِهم والاعترافِ بتقصيرهم ، أليسَ ذلك كانَ أوْلى بهم ؟ فما أحسنَ قولَ « لا أدري » بمن يَدري فضلاً بمن هو بضدّها تصاب مَقاتِلُه . فلو قلّدوا الزمنَ دؤوهم ، وولّوه نقصَهم ، واعترفوا لِبلواه ، لكان أعذرَ لهم . فجلس لهم المأمون مُتخِذُ تلك المَدْعاةِ الفخمةِ في مَرتبتِه ببرطيل ِ [4] المجلسِ الموصوفِ في أبّهة ِ

---

١ يشير إلى قول المتنبي :

ومن الناس من يجوز عليه   شعراء كأنها الخازباز

والخازباز : حكاية صوت الذباب .

٢ ص : ورق . . أسمائهم .

٣ ص : ممترياً ، وقد تقرأ « ممتدحاً » .

٤ المشهور في الاستعمال « برطل = Portal » .

فخمةٍ ورُتبةٍ [1] كاملة مع كبارِ أهلِ مملكتِه من أذواءِ الوزاراتِ المثنية [2] والمُفردة ، ومِن أصحابِ الخُططِ العَليّات ، وأذِنَ لتلك الحَلْبةِ من من شُعراء [الحضرة] [3] من طارىءٍ وقاطنٍ ، وهم نَفَرٌ غيرُ مُنوَّهٍ بهم ولا بأسمائهم ، ولا تجانسَ [4] برُواتهم ، فدخَلوا إليه على هَيئتهم يَقدمهم شَيخُهم المُقدَّمُ من جماعتِهم ذلك اليوم ، محمدُ بنُ شرفٍ القَيرواني القريبُ عهدُه بالهجرة ، بعدَ خَبطه سمراتِ ملوكِ الأندَلسِ بمحْجَنه ، واعتصارهم بقصعته ، فأذنَ لهم بالأنشادِ بحسَب تطبيقهم ، فتقدَّمهمْ ابنُ شرفٍ فأنشدَ قصيدة أوَّلها : « يريني الهوى أنَّ الهوى ليِّنٌ سَهْلُ » ، ما إن هي لاحقَةٌ بعيونِ شعره ، أطال فيها التَّشبيبُ فخلصَ إلى التهنئة ، وقد استفرغَ القريحةَ وطوَّلَ فما أتى بطائلٍ . ثم تقدَّمَ بعده البائسُ عبدُ الله بن خليفةَ الأندلسي المتمصّرُ بزَعمه ، فيا بؤسى لسابقٍ صلّى بعدَه ! فأنشدَ قصيدةً ملفَّقة ، ذاتَ طنينٍ وقعقعَة ، كثّرَ أبياتها ، وقلّلَ أقوالَها ، أولها : « أرى أثلاتِ الجزْعِ بالوَصلِ تورقُ » تركهُ المأمون أيضاً يتصرَّفُ بها ، ماإن هَزتْ [5] منهُ عِطفاً ، ولا أبدَتْ له بَسماً . وقامَ بعده محمدُ بن زكي الأشبوني ، فأنشدهُ شعراً أوَّلُه : « اليومَ أبْهجَ منبَرٌ وسَريرُ » ركبَ فيها سَنَنَ من قَبلَه . ولحقَ ابنَ ذي النونِ سآمةٌ منْ كُلَفِ يومه ، فأمر بأخذِ بطائقِ جميعِ من حَضَرَهُ من الشعراءِ ، وأسلمها إلى

---

١ لها وجه مقبول ، ويمكن أن تقرأ « وزينة » .

٢ الأصوب أن يقال : المثناة .

٣ بياض في الأصل ، وما بين معقفين زيادة تقديرية .

٤ اللفظة غير معجمة في ص .

٥ ص : همت .

وزيره الأثيرِ يومئذ عبد الرحمن بن مُثنّى[1] كي يتصفّحها بفضلِ أدبه، ويطبّق قائلها بحسَبِ معرفته، فيأمرَ لهم بما يجده. فبدا على[٦٨] الشعرِ يومئذ انكسار، ولحق[2] أحفافَه انهيار، وأصمّ به الناعي مُسمعاً يندُبُ شجوَهُ بابن اليماني، مُنادياً يُنادي: يا إدريساه، ولا إدريس[3] يومئذ للقوافي، وكلُّ شيءٍ له حتفٌ مُوافي.

قال ابن حيان: وأكتبُ إثرَ هذا الفصلِ بعضَ ما اخترته من قصائدِ هؤلاء الشعراءِ على ما خيّلتْ لئلا يخلو جيدُ التأليفِ من مخشلبها.

فمن قصيدةِ ابن شرفٍ في ذكرِ وطنه وحنينه قوله:

تذكّرتُها واليمُّ بَيْني وبَينَها ... وموصُولةٌ فيحٌ ومهجورةٌ غُفلُ
ومن دونِها حربٌ عوانٌ وفارضٌ ... ولودٌ لها من نفسها أبداً بَعلُ

ومنها في ذكر قصيدته:

يُقِرُّ امرؤ القيسِ بنُ حُجرٍ لفضلِها ... ويُظهرُ عنها العَجزَ علقمةُ الفحلُ
فلو وصلت عمري الليالي لوقته ... لقالت [له] الأشعارُ ما قالت النملُ[4]

---

١ وردت ترجمة أبي المطرف بن مثنى في القسم الثالث: ٤٠٩، يضاف إلى مصادر ترجمته هنالك إعتاب الكتاب: ٢١٥ وفيه أن أبا المطرف كتب أولا للمنصور أبي الحسن عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن أبي عامر صاحب بلنسية ثم انفصل عنه إلى طليطلة فاستوزره المأمون ابن ذي النون وألقى عليه بأموره كلها.

٢ ص: ولحقت.

٣ قد مرت ترجمة إدريس بن اليماني في القسم الثالث: ٣٣٦.

٤ وقع البيت قبل سابقه في ص، ويعني أن علقمة لو أدرك زمانه لقالت له الأشعار « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ».

قال ابن بسّام : وأثبتَ ابن حيان في كتابِه لتلكَ الطائفةِ المنشِدةِ يومئذٍ عدّةَ قصائد ، ولم يَسلكْ فيها سبيلَ ناقد . قال : وأمّا المتكلّف المصري فَسُكُلُ[1] الحَلبة ، فكانَ أبطأهُم جراءً وأنآهُم عن الغاية ، لما اجتَهدَ في المَتْحِ فجاءَ بقليلِ ماء ، فوّقَ ظَماهُ بخمسين بيتاً سُدًى ، لفّقها قصيدةً مُتخاذلة لم يفتق فيها معنىً حَسناً ، ولا قافيةً حرّة ، بل ما زاد على أن صرّفَ النسيبَ في ستٍ من الخُلاّتِ مُسمّيات ، فَضَل فيهنّ إمامَ المُحدَثين أبا تمام بزيادةِ اثنتين [2] ، ثم قطعَ [3] المديحَ توسّعاً مع ما وجدَهُ هناك من آجُرٍ وجِصّ ، فهدَفَ منها فيما لم يُعِنْهُ عليه طَبْعٌ ، ولا أسعَدتْهُ صنعة ، فكان الذي أبدى كيرُ نَفخِهِ [4] من خالِصِ سَبكِه قوله [5] :

وقد كانَ لي [في] مصرَ دارُ كرامة ... ولكنْ إلى المأمونِ كنتُ أشوّقُ[6]
حلَلْتُ عليهِ والمكارمُ جَمّةٌ ... وسُحبُ العطايا برقُها يتألّقُ

انتهى ما لخّصتهُ من كلامِ ابن حيّان .

---

١ لم يظهر منها في ص إلا « كل » .
٢ يريد أن ابن خليفة تغزل في قصيدته بست نساء ففاق أبا تمام الذي تغزل بأربع في قوله :
لسلمى سلامان وعمرة عامر ... وهند بني هند وسعدى بني سعد
٣ ص : قطيع .
٤ ص : كبير نفحة .
٥ البيتان في المغرب ١ : ١٢٩ .
٦ المغرب : كان التشوق .

جملة من أخبار بني ذي النون وذكر أولية أمرهم

قال ابنُ بسام : ونتلو هذا الفصلَ بنُبَذٍ لها بهذا الموضع مَوقِـع ؛ من أخبارِ طُليطِلة البائسَةِ ، وشَرْحِ الحالِ التي أبادَتْ مصانِعها ،وطيّرتْ واقِعَها ، وما آلَ إليه أمرُ المملكَةِ القابضَةِ للأنام ، المبنيّةِ على هَدْم دَعائم الإسلام ، المجموعة من افتراقِ الجماعَةِ ، المغلوبِ عليها أئمّةُ السّمعِ والطّاعة . ونذكرُ طرَفاً من حديثِ مآلِ أميرها المترَفِ المسْرِفِ ، الملقّبِ – كان – من الألقابِ السّلطانية بالقادرِ بالله ، جهلاً منه بحقيقَتِـه ، وتهاوناً باللهِ وخَليقَتِـه . خُطّةٌ ذادَهُ المقدارُ عن مُستقرّها ، ودعوى دفعَ الليلُ والنهارُ في صدرِها . ونأتي أوّلاً بفصلِ جوّدهُ ابن حيّان في ذكرِ جدّه إسماعيلَ المتلقّب – كانَ – بالظّافر ، رئيسِ الخلافِ ، ورأسِ الانحرافِ ، وجمهورِ الجورِ والإسرافِ .

قال ابن حيان : وكانتْ أوّليّةُ نباهَةِ بني ذي النّون من جدّهم ذي النّون ، في أيام الأميرِ محمّد بن عبدِ الرحمنِ . وقد اعتلّ له خَصيٌّ في طريقِ قفولِـه من الثغرِ فتركهُ عنْده بحصنِ أقليشَ يُمرّضُه ، فلمّا أفاق لحقَ بالحَضرَةِ مع الخصيّ ، فأخذَ له توقيفاً بتَقديمه على حِصنِه . ثمّ تداول تلك الخطّةَ ولدهُ إلى أيّامِ الحكَمِ . فلما اضطَلعَ بالدولَةِ ابنُ أبي عامر ، تعلّقَ به المضراسُ بن ذي النّون وإسماعيلُ ابنُه معهُ . فلمّا انقرضَتْ الدولةُ العامريّةُ لحق بالثغر وجمعَ إليه بني عمّه ، وخطبَ من سُليمانَ ولايَةَ أقليشَ فولاّهُ إياه ، ثم تهيّأتْ له قَلعةُ كونكه ، وكانت بيد واضح العامري ، فلمّا ماتَ ضبطَها إسماعيلُ منتظراً بزعمه

مَنْ يجتمعُ عليه الناس . وتحتَ ذيلِه من غلولٍ واضحٍ كثير ، حين لم يترك إلاَّ أطفالاً وأمّهم حرَّتَه ، ألقتْ بنفسِها إليه ، معتنقةً بأمانه ، فحصَلَ لإسماعيلَ البلد . وسطا على مُجاوريه من قُوَّاد الثغور ، فاستقامتْ له الأمور . وثنّى له الوزارة سُليمانُ وسمّاهُ ناصرَ الدّولة . فاستقلَّ ذلك كلّه ، وآثر الفُرقة ، واقتطعَ جانبَه ، فكانَ أوّلَ الثوّار لمفارقة الجماعة، وفرّطَهُم في نقضِ الطاعة . ثم اتفقتْ لهُ أمورٌ اتسعَ بها عمله ، وكثرتْ جبايته وجَمعه . وكان من البُخلِ بالمالِ ، والكَلَفِ بالإمساكِ ، والتقتيرِ في الإنفاق ، بمنزلةٍ لم يكنْ عليها أحدٌ من مُلوكِ عصرِه . لم يرغَب في صَنيعة ، ولا سارَع إلى حَسَنَة ، ولا جادَ بمَعْروف ، فما أُعمِلت إليه مَطيّة . ولا حَمَلَتْ أحداً نحوه ناقة ، ولا عرّج عليه أديبٌ ولا شاعِر ، ولا امتدَحَهُ ناظمٌ ولا ناثِر ، ولا استُخْرِج مِن يدِه درهمٌ في حَقٍ ولا باطل ، ولا حَظِيَ أحدٌ منه بطائل . وكان معَ ذلك سَعيدَ الجدّ ، تنقاد إليه دُنياه ، وتَصحبُه سعادتُه فينالُ صِعابَ الأمورِ بأهْوَنِ سعيه . وهوَ كان فَرطَ الملوكِ في إيثارِ [٦٩] الفُرقة ؛ فاقتَدى به مَن بَعْدَه ، وأمّوا في الخِلافِ نَهْجَه . فصارَ جرثومةَ النّفاق ، وأوّل مَنْ استنَّ سُنّة العِصيانِ والشّقاق ، ومنه تفجّر ينبوعُ الفِتَن والمِحَن . فتبارَكَ مَن أملى له ، ولم يرضَ له عُقوبةَ الدُّنيا مثوبة .

فقد كان أصحابُه حَفِظوا عنهُ كلماتٍ في سبيلِ ذِكْر السّلفِ الصالح زيادةً إلى مَساوئه . وذلك أنّه نُوظر في شأنِ التّأمير لبني أميّة فقال : والله لو نازَعني سُلطاني هذا الصّدّيقُ لقاتلتُه ولما سلّمتُ له ، فكيفَ أسلّمُ سلطانِ لمن يُدعَى إليهِ من بني أمية ، ممّن لا يوجبُ الله طاعتَهم ، عِترةِ

مَروان خَيْط باطل[1] ، الذين لم يَسْبِقْ لهم صُحبة ، ولا أدخلهم السلف في شُورى الإمامة ؟

قال ابنُ حيّان : ومِن أشهَرِ حكاياتِه في ذلك ، ما أخْبَرَ عنهُ أبو أبو العبّاسِ السكريُّ الإسكندرانيّ - رجلٌ مُمتع الحديثِ طيّبُ المجالَسة - وحضرَ مجلِسَ ابنِ حمّودٍ بمالَقه ، فسألَه إسماعيلُ بن ذي النّون عَن مجلِسه معَه ، فأثنى عليه ، فقال أتُثْني على أدعياء ؟ فعلَ الله بهم وَصنَع ، فبُهِت الإسكندرانيّ وقالَ : معذرةً إليكَ أيّدكَ الله ، فإني جهِلتُ رأيَكَ في هذا الرّجُل معَ أني ألزَمتُ نَفسي ألاّ أذمّ ذا سُلطانِ البتّة ، وأنتَ غيرُ منازَعٍ في أئمتِكَ المروانيّة ، وهمُ أهلُ ذلكَ مِنك ، أقاديمُ الملوك ، وذوو العَدْلِ والسّياسة . [ومضى][2] الإسكندرانيّ في إطرائهم ظنّاً أنّه يَسُرّه ، إذْ كان يقولُ بِدَعْوتِهِم في ذلك الوقت . فقَطعَ عليهِ ابنُ ذي النّون بأسْوأ مِن قَطعِه عَلى الهاشميين ، وأنحى على ذمّ بني أميّة فلَمْ يُبق ، ووصلَ كلامَه بأن قال : توارثوا هذهِ الإمارةَ مَخْرقةً وضَعها قريشٌ لاستعمال[3] الناسِ ، والنّاسُ لأبٍ وأمّ ، والفخارُ باطِل ، أحَقّهم بالمُلكِ مَن استقلّ به . واللهِ ما أوَلي غيرَ نفسي ، ولا أقومُ إلاّ بسُلطاني ، ولو نازَعنيه فِلانٌ وفلان - وذكَرَ السّلفَ الصّالح الذينَ كرّمَ[4]

---

[1] في المثل : أدق من خيط باطل ، قيل هو الهباء وقيل هو الذي يخرج من فم العنكبوت ، وسمي مروان خيط باطل لطوله واضطرابه (اللسان : خيط ، وجمهرة العسكري ١ : ٤٥٤ تحقيق أبو الفضل والميداني ١ : ١٨٣)

[2] موضعها بياض في ص .

[3] ص : لاستكمال .

[4] ص : كرمهم .

اللهُ ذِكرَهم – لَضربتهم دونَهُ بسيفي ما استمسكَ بيدي . فقام عنهُ الإسكندرانيُّ مبهوتاً وأفشاهُ في غير أرضِه . وأخبارُه في مِثْل هذا كثيرة .

انتهى كلام ابن حيان .

فقلتُ أنا : ولَيْتَ إسماعيلَ هذا بَقي وَوُقي ، على فظاظَةِ جانبه ، واختلافِ مذاهبه ، وطولِ إعراضِه عن عَواقبه ، فلقد كانتْ عليه وقتَه قَليلُ رِقْبَة ، وعِنده بعضُ أهْبَة ، لقُرْبِ عَهده بأيّام الجماعة ، واستشعارِه عَوْدةَ السّمعِ والطّاعة ، ولوفورِ مَن كان قبلَه يومئذٍ من مَشْيخة ذوي الهيئات ، وزُعماء سائرِ الطّبقات . ولقد أساء مَن جاءَ بعده ، ذَهاباً في الكِبْر ، وتهاوُناً بالأمر ، وقعوداً عن النّصر ، واستِظهاراً بأحزابِ الكُفْر ، سَلْمهُ باطِلٌ وبَطالَة ، وحَرْبه غَوايةٌ وجَهالة ، في المشركينَ نُجومُه وديَمُه ، ولَهُم مواثيقُه وذِممُه ، وفي المسلمين هُمومُه وهِمَمُه ، وعندهم بَوائقُه ونِقَمُه .

بلغني أنّه لمّا ماتَ الظّافرُ إسماعيل ، كان حَمَلةُ دولتِه ورؤوسُ جملته ، الحاجّ ابنَ مَحقور وابنَ لَبّون وابنَ سَعيد بن الفرج . وكان آكَدَ ما عَهده إلى ابنِه يحيى المتلقّبِ بعدَه بالمأمون الاقتداءُ بهدْيِهم ، والانتهاءُ إلى رأيهم . قال بعضُهم : فدخلنا عليه لأيّامٍ يَسيرةٍ مِن مَهلِكِ أبيه ، وهو [في] إيوانٍ كبيرٍ قد ملأه بنُقَرِ الفِضّةِ حتى لا فَضْلَ فيه عَنْ مجلِسه ، فأمرَنا بالدُّنوّ ، فبعدَ لأيٍ ما خلَصنا إليه ، لكثْرةِ ما كان مِن ذلك بين يَدَيْه ، وقد امتلأتْ صُدورنا عجَباً ، وتقيّدتْ ألحاظُنا فما تجِدُ مُتقلَّباً ، لهذا الاتّفاقِ كيف وقَع ، ولهذا السّحْت مِن أين

جُمَيـع . فأخذَ يـُفَيِّل رأى أبيه في اختزانِه ، وينُعَرِّض بجمود[1] كان في بَنانِه ، ونحن نقولُ : لعلَّه قد أنِفَ لضَياعِ ثُغورِه ، وتَشعّثِ أموره ، وانتشارِ الشِّرك بإزائه وظُهورِه . وكأنَّه فَهِم ما نُحيِّر ، وعَلِم إلى أين نُشير ، فأظلمَ ما بيننا وبينَه ، وازورَّ ازورارةً أنكرنا بها أثرَه وعَيْنَه ، [وقال :] مِنْ حقِّ مِثْل هذا أن يُصرَف في مثل ضُروبِ الحليةِ الرائقة ، وأنواعِ الآنيةِ المؤانقة[2] . وأي معنىً في كونِها نُقر ؟ ما أعجبَ هذا وما أنكَر ! هذه بالحجارةِ أشبهُ منها بآلاتِ الإمارَةِ . فقال له ابنُ محقور ، وكان أشدَّهم جرأةً ، وأثقلَهُم وطأةً ، لعزَّةِ رُكنِه ، وإدلاله بفضْلِ سِنِّه : إنَّ هذه ـ أيّدكَ الله ـ إذا كانتْ نقراً بَقيتْ ذَخيرة زمان ، وعدَّةً لحدَثٍ إن كان ، ولا تُحوَّلُ آلاتٍ إلاَّ بعد نَفقَةٍ ، وتحيّفٍ من كلِّ طَبَقة ، ثم لا تزالُ نُصبَ عينٍ من يَرِد مِن رسُول ، وينتابُ من ابنِ سَبيل ، ويَنمي خبرُها إلى الطاغية فرذلَند فتدعو السياسةُ إلى أن يخصَّ منها بقسم ، ويُضرَبَ له في أنفَسِها بسهم . فزوى عنهم وجهه ، ولم يأمنوا نجهَه ، وثقلوا بعدُ عليه ، ويَئسوا من شيءٍ من الفلاحِ يَجري على يَديْه. وخالَفهم إلى ما أراد ، فأبدى فيه وأعاد ، وآلتْ حاله إلى ما قال الشيخُ : ما نقَصَ ولا زادَ [٧٠] .

---

١ ص : بجحود .
٢ ص : الرائقة .

ذكر الخبر عن بعض ما تناهى إليه المأمون من تشييد البنيان بقصور طليطلة

قال ابنُ بسام : ثمَّ أخذ المأمونُ في بناءِ مَجلسِه الكبير المكرَّم ِ بناءَ باءَ بإثمِه ، وخلا سريعاً من اسمِه ، لم يُخَلّدهُ في عقِب ، ولا قضى من لذّته به كبير أرَب . وكان الذي تولّى له رَصفَ بدائعِه ، وإحكامَ مَصانِعه ، رجلٌ من مَهرَةِ الفَعَلَة ِ ، أكثرُ خلقِ الله صَلَفاً ، وأشدُّهم تتَابعاً [1] وسَرَفاً . وكان المأمونُ لعدمِ نَظيرِه ، يحتمِلُ من اعتدائه وتغريره، وتهاوُنِه بجميعِ أمورِه ، ما لا مزيدَ عليه ، ولا انتهاءَ لأحدٍ إليه . واتّفق له مع ذلك الصانِع أنْ وعَدَهُ بتَمامِ مَجلِسِه المشيّدِ قبل إطلالِ العيد، فرشح ابن ذي النون للجلُوسِ في صَدرِه ، والاستظهارِ على زينَةِ عيدِه بالفراغِ من أمرِه . وتقدَّمَ إلى من كان بحضْرَتِه مِن الشّعراءِ ، على قِلّتِهم ببابِه ، ونِفارِهِم عن جنَابِه ، لقلّةِ نائلِه ، وتفاهَةِ طائلِه ، في وَصفِ مَجلسِه ذلك وتقريظِ مبانِيه ، والثناءِ على مُختَرعه وبانيه . ثمَّ إن ذلكَ الصانِعَ استمرَّ على ديدَنِه من الخلاف ، وعَمِلَ على شاكِلَتِه من التّهاوُنِ والإخلاف. واتفَقَ أثناءَ ذلك أن ضَرَبَتْ خَيلُ الطاغيةِ فرذلَنْد على بلادِ المظفّرِ بنِ الأفطس ؛ وطِئتها وطأةً مَحَتْ رسومَها، واستباحَتْ حريمَها ، واجتاحَتْ حَديثَها وقَديمَها ، وأنسَتْ ما كان قَبلَها من جَبِّ الذّروة ، وانصداعِ المروَة ، وأيأسَتْ من البقاء ، وآذَنَتْ

---

[1] ص : تتابعاً .

بشُمول البلاء . فأخبرتُ عن وزيره أبي المطرف بن مُثَنّى أنّه كان يومئذ بمنزلة بين الوجوم والإطراق ، وعلى نهاية الحذر والإشفاق ، إذ وردَتْ رُسُل المأمون عنه تترى ، وهَجَمتْ عليه زُمرةٌ بعد أخرى . فدخل عليه فوجده قد استشاطَ حَنَقاً ، حتّى كادَ يَتميّزُ شفقاً . فظنّ أنّ ذلك الضّجَر ، لما كان وردَ به الخبرُ مِنْ ضَرْبِ الحيلِ على بلدِ المظفّر ، وإخفارِ الذّممِ ، وزلّةِ القدم ، وانهتاكِ الحرَم . فطَفِق ابنُ مثنّى يبسُطه ويَقبِضُه ، تارةً يُسلّيه وتارةً يحرضُه ، وطوراً يقولُ له : فيك الخلَفُ مما فاتَ ، ومرّةً يقولُ : قد آن لك أن تُنكِرَ على الطاغيةِ هذا الافتيات . فلمّا فَهِمَ مَنْحى ابنِ مُثَنّى منه ، أعرضَ[1] عنه ، وقال له : ألا ترى هذا الضّالع[2] الفاعليّ الصّانع — يعني عريفَ بُنيانه — صَبرتُ له وأغضَيت ، وفعلتُ به كَيتَ وكيت ، فما زاد إلاّ تنغيصاً للذّتي ، واستخفافاً بإمرتي ، وتصغيراً لشاني ، واجتراءً على سُلطاني . وهبّتْ ريحهُ العَقيم ، تُقعِدُ في غيرِ شيء وتُقيم ، فَسُقِطَ في يدِ ابنِ مُثنّى وانكسرَ انكسارةً تبيّنَها ابن ذي النونِ فيه . ولم يَجِدْ بدّاً من أن قال له : هوّن عليك ، والكلُّ طَوعُ يديك ، وناهيك ، وأنا أكفيك ؛ وخرَجَ ومَثَلَ بين يديْ ذلك الصانعِ يعِدُه ويمنّيه ، ويُداورُه[3] ويُداريه ؛ والصانعُ مُقبلٌ على شأنِه ، ما أمرَه بالجلوسِ ، ولا زادَه على التجهّم[4] والعبوس . فَبَعُدَ لأيٍ ما ضَرَبَ له مَثَلَ العامّةِ وهو قولُهم : ما أفرَسَ الجالِس . ثم قال :

---

١ ص : وأعرض .

٢ الضالع : الجائر ؛ ص : الصانع .

٣ ص :وبداويه .

٤ ص : التهجم .

وبالحريّ والله أن يتمّ إلى عيدٍ آخر ، فليتجهدْ جَهدَه ، وليأتِ بكلّ ما عندَه . فرجعَ ابنُ مثنّى إلى ابنِ ذي النونِ وهوَّنَ عليه الشأن ، وخفّفَ لديه ما كان . وخرج لا يدري من أيّ الثلاثة يَعجبْ : أمن اغترارِ [ابن] ذي النون وجهلِه ، أم إفضاءِ الضرورَة بنفسِه إلى خِدمَة مِثلِه ، أمْ من جرأةِ ذلك الصانعِ القَصيرِ اليد ، النَّزرِ العَدَد ، على ذلّ [ابن] ذي النون وذُلّه .

قال ابنُ بسّام : فتبارك من أحاط بالأشياءِ ، ولم يَخْفَ[1] عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماءِ ، ومَن جَعَل اليومَ ذلك القصرَ العجيبَ بنيانه[2] ، الهادِمَ — كان — للدّينِ والدُّنيا شانُه[3] ، مَربِطاً للأفراسِ ، ومَلعباً للأعلاجِ الأرجاسِ ، مِن رِجال الطّاغيةِ أذفونشَ بن فرذلنْد ، بددَ الله شيعتَه .

ذكر الخبر عن مآل حفيده المتلقب بالقادر
مع (ما) يتشبث به من خبر نادر

قد ذكرتُ في القسمِ الثاني[4] مِن هذا المجموعِ مُلكَ جَدّه المأمونِ بقرطبَة ، ويَعودُ بنا القولُ إلى ما بدأتُ به من ذِكرِ حفيدِه المتّخَذِ له

---

١ ص : يختلف .

٢ ص : ببنيانه .

٣ ص : بنيانه .

٤ انظر القسم الثاني : ٢٦٢

ذلك الصّنيعُ المعدودُ على الأيّامِ ذَنبُه . الباقي في صفحةِ الإسلامِ نَدبُه . وقد ذكرتُ أيضاً في القسمِ الثالثِ[1] منه مَهلِكَ حَفيدِه ببلنْسية ، وأوضَحتُ صُبْحَه ، واستوفيتُ شَرْحَه . وأجرّد ها هنا القولَ في أخذِ طُليطلة مِن يَديْه ، ودَوران الدائرةِ السّوءِ بها على المسلمين وعليه ، وما تعلّقَ بأذيالِ ذلك مِن غريبة ، وانخرطَ في سِلكِه من أعجوبة .

كان يحيى حفيدُ ابنِ ذي النونِ رَكينَ المجلسِ ، ثريَّ المغرسِ ، حُلوَ الحوارِ ، ليّنَ التصرفِ بينَ الإيرادِ والإصدارِ ، مَليحَ شبا الخطِّ [٧١] هذّه كانتْ فَضائِله فَقَط . لم يَكُن له وليسَلِفِه قبلَهُ باعٌ في الطّلب ، ولا حظٌّ في الأدب ، وكان – زعموا – آية في قُربِ غَورِه . وسُكونِ فَورِه[2] ، والحورِ بعد كوْرِه[3] ، إمّعةٌ إمّرة[4] ، أجبنَ مِن قُبّرة[5] : إنْ حزَمَ لم يَعزِم ، وإن سدّى لم يُلحِم ، إلى ما كان يَعرِضُه من عَرَضٍ[6] ، ويَلزَمُه أكثر مدّته من مَرَض ، مِن ذَرَب لازم – زعموا – كان لمعِدَته ، واستحرارٍ حاسمٍ لمرّتِه[7] ، وقد كان جدُّهُ المأمونُ قَسَمَ الحضرةَ قِسمين ،

---

١ انظر القسم الثالث : ٩٢ – ٩٦ .

٢ ص : قوده .

٣ انظر في هذا المثل : « الحور بعد الكور » فصل المقال : ١٧٥ وجمهرة ابن دريد ٢ : ٤١٣ وهو يعني النقصان بعد الزيادة .

٤ رجل إمعة إمرة : ضعيف لا رأي له .

٥ لم يورده حمزة في الدرة الفاخرة . وأقرب الأمثلة إليه « أجبن من صافر » وهو يشمل القبرة.

٦ يريد : يعرض له من ضجر وقلق .

٧ ص : لمعدنه . . . لمدته .

وأدار سياستها على رَجلين . فجَعل تدبيرَ الأجنادِ . والنظرَ في طبقات القُوّادِ . إلى سائرِ الشئونِ السلطانيةِ ، والأعمالِ الديوانيةِ إلى ابنِ الفرج ، وبقيّةَ الإصدارِ والإيرادِ . والنظرَ لجماهيرِ الناسِ وكوافِ البلادِ ، والرأي والمشورة . والصغيرةَ والكبيرةَ . إلى الفقيهِ أبي بكرِ بن الحديدي[1] ، رَجل كان له قَدمٌ وإقدام . وعنده نقضٌ وإبرام . وكان قد عهِدَ لحفيده هذا المرشّحِ لأمرِه متى ورثَ سُلطانَه . وتبوّأ مكانه . أن يشُدَّ على ابن الحديدي كلتا يديه . ولا يفتاتَ بأمرٍ من الأمورِ عليه . وأخذَ الموثِق الغليظَ على ابنِ الحديديّ ليَبلغنَّ كلَّ مبلغٍ في شدّ أزرِه ، وتثبيتِ أمره عِلماً باستقلاله . واستنامةً إلى يُمنِ مناقبه وخِلاله . وحِفظاً لما كان عنده من يدِه في إقامةِ أوَدِه . ومُمالأتِه على أهلِ بلدِه . وقد كان أكثرُهم فيما سلَفَ نَفروا عنه . وهمّوا بالاستبدالِ منه . فنكثَ[2] أبو بكرٍ هذا قُوى مكرِهم . وخاطبَ المأمونَ يومئذٍ إلى بلنسية بجليّةِ أمرِهم خوفاً من الفتنةِ . وتفادياً من المحنَة . فانكدرَ المأمونُ من حينه إلى طُليطلة وقد ضاق ذراعاً . وكادَتْ نَفسُه تذهبُ شَعاعاً . وأدار الحيلةَ على مشيخةِ طُليطلة في خبرٍ طويلٍ حتى سجَنَ عامّتهُم بمطبَقِ حِصنِ [وبذَة][3] ، أخرى قِلاعهِ المنيعة . ولم يزالوا بها حتى شاب الشبابُ ، وبليت الأحقابُ ، وتلك اليدَ كان المأمونُ يراعي لابن الحديدي ، فوضَعَ في حياتِه زِمامه بيدِه ، واستخلفه بعد وفاتِه على بلدِه وولَدِه .

---

1 هو يحيى [illegible] بن عيسى بن الحديدي من أهل طليطلة ، كان متقناً فصيحاً فطناً مقدماً في الشورى [illegible] وانظر المغرب ٢ : ١٣) .

2 ص : فنكث .

3 زيادة يدل عليها ما سيلي .

مقتل الفقيه أبي بكر بن الحديدي

فلما هَلَكَ المأمون بقُرطبةَ ونُعِيَ بطُليطلةَ وماج بعضُها في بعضها ، وانطبقَتْ سماؤها على أرضها . احتوشَتْ إلى حفيدِه . اللابسِ لبُرودِه ، جُملةٌ ممن كان يتعلّقُ بسببِه ، ويُنسبُ إلى وطءِ عقبه . وطفِقوا يُغرونَه بأبي بكرِه ، جماعِ أمرِه ، ومَظنّةِ تأييدِه ونَصرِه ، لما كانوا يُدبّرون مِن التقلّبِ عليه . ويتَوهّمونَ من ضَعفِه على ما في يدَيه . وخوّفوه غَوائلَ ختلِه . وزعموا أنّ سلطانَه لا يتمّ إلا بعدَ الفراغِ مِن قتلِه . وقد كان أثيرُه أبو سعيد بنُ الفرَج ينهاه عن إخفارِ الذِّمام . ويخوّفُه سُوءَ عَواقبِ الأيام . فركِبَ هواه . وخالف ناصحَه وعصاه . وجرّدَ قِطعةً من جُندِه ، وأمرها باستقبالِ تابوتِ جدّه في طريقِهم مِن قُرطبة ، وأنهى إليهم سرّاً قتلَ ابنِ الحَديديّ المستقِلّ بجملِه ، الناظِم لأشتاتِ فَلّه . وقال لهم : إذا التقيتموه فكونوا حَولَه ، وعظّموا قولَه ، فإذا أمكَنَتْكُمْ[1] غِرّتُه . وبدَتْ لكم ثُغرتُه ، فاقتلوه كيف أمكن ، وعلى ما ظهَرَ وبطَنَ . ونما الخبرُ إلى ابنِ الحَديديّ فكَفَرَ بطاغوتهم . ونفَضَ يدَيْه من تابوتهم . ونكبَ إلى بعضِ ضياعِه . في لُمّة من شيعته وأتباعه . فاضطرمَتْ الصُّدور . وبطَلَ ذلك التدبير . ثم وافى البلدَ ليلةً وقد استوحش من أنسِه . وأوجسَ خيفةً في نفسِه . أصبحَ في المدينة خائفاً يترقّب . ونادماً يتتبعُ ويتعقّب ، يعَضّ يديه ،

....

[1] ص : أمكنتم .

ويحسبُ كلَّ صَيحةٍ عليه . وطفِقَ أصحابُ ابنِ ذي النّون بزَعمِه يقولون : قد حذّرَك ، وتيقّنَ خبَرك ، ولا يَصلحُ لك أبدا ، ولا يَردُّ عن مكروهِك يدا . ومشَتْ بينهما الرسُل ، وأعمِلَتْ في اجتماعِهما الحيَل : فركِبَ إليه ذاتَ يومٍ ، وقد أخذ حِذرَه ، وحشَدَ عُرْفَه ونُكرَه ، واستبطنَ مَن كانَ تَبِعه يومئذٍ من الدّهماء ، وتَعلّقَ بركابِه لمَشْهَدِ أمرِه مِن الغَوغاء . فملأوا أفْنيةَ القَصر أسرعَ مِن الماء إلى الصّبَب ، وأهولَ مِن النارِ في الحَطَب . فحينَ ارتفعت الأصوات . وغَصّتْ بهم العَرَصات ، ارتاع [1] ابنُ ذي النّون ، فأمرَ ابنَ الحديديّ بالخروج . فخرجَ والدّولةُ متعلّقة بأذيالِه ، وطَبقات أعيانِها عن يَمينه وشِمالِه ، والعامّةُ بين يدَيه ومِن خلفه ، يتَمسّحون بآثاره ، ويَرفلُون في غُباره ، وهو يَشكر [illegible] ويَعِدُهم [illegible] جميعهم . وكان عندما أذكى عُيونَه ، وحشَرَ [illegible] . قد أو[illegible] [illegible]خينِ مِن شيوخِ الخدَمةِ يُدعيان [illegible] وابن صَرو[illegible] [illegible] العامّة باستئصالِهما ، وحبّبَ إليهم [٧٢] [illegible] أموالِهما ، [illegible] الفِتنة ، وباكورةَ المِحنة .

[illegible] حُدّثتُ أنّ [illegible] عليه يومئذٍ بالفراغِ مِن شيعةِ ابنِ ذي [illegible] وأيّه [illegible] [illegible]عيّه ، وبودّ طُليطلَةَ البائسةِ لو أنّه [illegible] ولو أمضاها [illegible] [illegible]ها اثنان ، ولا انتطَحَ فيها عنزان .

[illegible] هذا الحِزب [illegible] [illegible]شَره ، مِن شيعةِ ابنِ ذي النّون المغْلوبِ [illegible] لصاحبِهم [illegible] [illegible]دْرِه ، والتّمادي على غُلَواءِ مكرِه .

وأرَتْهُ أنّ ذلك مِن سَعيها لا يَستوي على سُوقِه ، ولا يَخلو بسواءِ[1] طريقِه ، إلاّ [بإطلاقِ][2] تلك الطائفةِ المُغَرَّبة بمُطبَق وَبْذَة ، المحترقةَ أفلاذُ أكبادِهم ، بنيرانِ دَمِهِم وأحقادهم : داءٌ دَفينٌ ، وشرّ مَضمون . وسوّلوا له أنّه إذا فَكّ أغلالهم ، ووصلَ بحبلِ الحياةِ حبالهم ، غسّلَ جَوانحهم ، وتألّفَ نَصائحهم ، وشارَكهم في ذواتِ صُدورهم ، واعتدّ عليهم مِنّة نُشورِهم ، والبَعثة مِن قبورهم . فأثارَ منهم مُدى وشفارا ، [أعَدّ][3] بهم لِخرابِ مُلكِه أعواناً وأنصارا . فأدخلَهم البَلَدَ سِرّاً من بعضِ مَداخِلِه الخَفيّة ، وقد ستَرهم باللّيْم ، وأوْهم أنّهم بَعضُ الحُرم ، حتى وَصَلوا إليه ، ومثَلوا بين يَدَيْهِ ، وذلك اليومَ يومُ الجُمعة لعَشْرٍ خلَتْ لمحرّمٍ سنة ثمانٍ وستين .

وكان الذي مالأ ابنَ ذي النّون على ذلك ، وسهّل له — زَعموا — تلك المَناهِجَ الخبيثةَ والمسالك ، الفَقيهُ ابنُ المشّاطِ مُتولّي القضاء كان يومئذٍ بقونكَة . وكان أبو بكر بن الحديدي [يألفُه][4] ويَسكُن إليه قَديماً ، فاستدرجَه بالأمان ، واستفزّهُ إلى مَصرَعِه يَومئذٍ بمُزوّرات الأيْمان ، حتى جرّعه رَداه ، وأسلَمه إلى عِداه . ودَخلَ ابنُ الحديديّ يَومئذٍ القَصرَ ، والمقدارُ يُزعجُه ، والخائن الغَدّار ابنُ المشّاطِ[5] يَستدرجُه . فلما أفضى إلى مجلسِ ابنِ ذي النّون رأى وجوهاً قد أمِنَتها ممّا تخوّفها .

---

١ ص : بسوء .
٢ بياض في ص .
٣ بياض في ص بقدر كلمة .
٤ بياض بقدر كلمة .
٥ ص : السقاط .

وأنكرها من طول ما عرفها ، فأيقن بالشر لا خلاص . ولات حين مناص . ثم وطن لمحنته ، واتكأ فضل منته ، فجاذبهم أطراف الخصام ، وطلع عليهم من ثنايا النقض والإبرام . فقام ابن ذي النون من موضعه وابن الحديدي متعلق بأذياله ، مستجير به من أقتاله . فشغبوا عليه وشغلوه ، وأحاطوا به حتى قتلوه . فقضي الأمر ، وانقضى العجز والغدر . ولما أحست العامة بقتله ، وهمت بسلاحها من أجله ، ثار أولئك المخرجون في وجوههم ، أطلال في أسمال . فأخذ كل واحد منهم بطرف من الطريق ، وذهب ممن كان هنالك من العامة بفريق ، بين صديق لهم يسر ، وعدو يفر . وتشاغلوا بنهب دور بني الحديدي حين عجزوا عن نصرته ، وعلموا أن لا سبيل إلى كرته . ولم يكن إلا ك « لا » حتى أصبحت حبلا[1] رثا ، وهباء منبثا .

وظن ابن ذي النون [أنه]قد راع أحشاء[2] الأيام بفتكة براضية ، وهتك أستار الخطوب عن حيلة عمرية . ولعمري لقد راع ولكن آمن سربه ، ولقد هتك ولكن حجاب قلبه . أخلى وجهه لشرار أغمار ، لم تكن لهم أحلام تحجرهم ، ولا حلوم توقرهم ، أذبة[3] شهوات ، وفراش ضلالات ، أغضى الزمان لهم هنية فظنوا أنهم قد أعجزوه وانتهزوه ، فوجدهم مغترين ليس لهم سلاح إلا مقاتلهم ، ولا بهم حويل إلا تدابرهم وتخاذلهم . ونفث على نفسه من أولئك

١ ص : خبلا .
٢ ص : أحشاع .
٣ ص : أذبه .

المُخرجِين شَرارَ زِناد ، وأسرارَ عداواتٍ وأحقاد ، أحلاس السجونِ[1] والأهْوال ، وبقايا القُيُوْدِ والأغلال . فلم يَزِدْ بمَوتِ ابنِ الحديديّ وحياتِهم على أن كان الشرُّ سَبَباً فأصبحَ أسباباً . والناسُ حِزباً فتفرَّقوا أحزاباً . وانتبذ ابنُ عبدِ العزيزِ لتلكَ الوَهْلَةِ ببَلَنْسِيَةَ مِن جَماعتِه ، وخَلَعَ يدَه مِن طاعتِه . إلاّ هُدْنةً على دَخَن ، يَتَطارَدُ له بصَيْدِها ، ويُنشدُه عن كيدها :

أحبّك في البتولِ وفي أبيها ولكنّي أحبّك من بعيدِ[2]

وفَغَرَ الطاغية أذفُونش بن فردَلَنْد فمَه على ثُغوره المَثْغُورة ، فجعل وقته يَطويها طَيَّ السِّجلَّ للكتاب . ويَنهضُ فيها نَهضة الشيبِ في شَباب . وابن ذي النون يُلقمه أفلاذَ كبده ، ويَرجمه بسَبَده ولبَدِه ، أذفونشُ لعَنَه الله لا يقنعُ منه بصَيدِ العَنقاء ، ولا ببيض الأنوقِ ، بل كلّفه[3] إحضارَ الأبلق العقوق ، و[illegible]ومُه دَرْكَ الشمس . ويطلبه بردَ أمس[4] ، ممّا أكل الإنفاقُ ثَبَجَ[5] ماله ، وأخذ ال[illegible]اقُ بكظمِ احتياله ، وأحسّ بدوُّ المُشاق بذلك من حاله [illegible] ا[illegible]يعة . وذُرى أملاكه رفيعة . عُدَدِ الأنام . ودُروبِ الإسلا[illegible] [illegible]ه منها عليه غَلَبَ ، ما رام أخذه من يديه لم يُدركه حتى [illegible]

---

١ ص : خلاس الشجون .

٢ أورده العميدي في الإبانة : ١٢٥ وذكر أنه لصاحب [illegible] [illegible]رستان .

٣ ص : يكله .

٤ ص : أنس .

٥ ص : تيح .

فرار حفيد ابن ذي النون من طليطلة ودخول المتوكل

وانجرّتِ الحالُ بينه وبين أولئك الشيوخ المُخرّجين من المُطبق بمقدار [1] ما رَقَعوا خروقَهم ، وجمعوا فريقهم ؛ فلما استوثق أمرُهم ، وثابَ إليهم شرُّهم ، دلَفوا لحزبه الذُّنونيّ البَسيس [2] ، تحتَ إحدى ليالي جَديس ؛ أرعَتْ عليهم سُقُبُ السماء ، وتمخّضت لهم بالداهيةِ الدّهياء ، ورؤوسهم بأيدي الولدانِ لُعَباً . وأتى ابنَ ذي النون صريخُهم تلك الليلة فصادفَ منه رأياً مغلوباً ، وقلباً مَنخوباً ، طارَ به الذُّعرُ ففرّ ودونَه من عَبيدِه أسدُ الشّرَى ، والأسوارُ شامخة الذُّرى ، كأنّما ناجَتْه القتالَ أضغاثُ حُلمه ، أو رأى وُجوه الأقتال في وجوه حُرمه ، تجفّلَ الظّليم ، لا يحفِلُ بالعارِ المُقيم ، ولا يُصيخُ إلى الصديقِ الحَميم . حُدّثت أن زوجهُ بنتَ المظفّر بن أبي عامر ، طريد جدّه — كان — من بلنسية ، وابنته منها تبِعتاه يومئذٍ راجِلتَين نَيّفاً على فرسَخَين ، حتى أُدركتا بمركوب ، وقد أخذ الجهدُ منهما بأوفر نصيب . واجتمع مشيخةُ طُلَيطلة بفناء القصر ، مرتبكين بين اللّجاج والذُّعر ، عامّتُهم تتطاول بزعمها إليه ، وخاصّتهم تتحيّل المثولَ بين يديه ، وهم يظنّونه بحيثُ يرى ويسمع ، ويتوهّمون أنه سيفعل ويَصنع . فوجدوه قد أذعن للدنيّة ، وخرج من بعض تلك

---

[1] ص : بمقدام .

[2] من معاني البسيس : المختلط . ولعلها : « البئيس » .

المخارج الخفيّة ، ومشى القَهْقرَى ، قبلَ عَيرٍ وما جرَى [1] ، فاستأمدت كلابهم لأكل لحمٍ ليس له ناصر ، وهزج ذُبابُهم أثناء روضٍ ليس [له] واردٌ ولا صادر . ولقوا يومئذٍ في سوُرِ الطاغية أذفونش من تلك الجواهر المكنونة ، والذخائر المصونة .

وتلاحق بابنِ ذي النون بقيّة سِرْبِه المنفّر ، وفلُّ عسكره المدبر ، بحصنٍ من حصونه . وأقام أهلُ طُلَيطلة بعدَه أيّاماً ولا كالسائمة المهملة نام راعيها ، وأكبثَتْ [2] مَراعيها ، يتهادَون لحماً بين قَديدٍ ومُعجّل ويرتمون بشَحمٍ كهُدّاب الدّمقس المفتّل [3] ، في هياطٍ ومياط ، ولَجَبٍ واختلاط ، ليس عليهم أمير ، ولا فيهم إلى الصَّواب مُشير . وتشاوروا في أيّ مُلوكِ الطوائفِ يُحكّمونه فيهم ، ويُلْقونَ إليه بأيْديهم ، فطار طائرُهم ، واختلَفَت بواطنُهم وظواهِرُهم ، واشرأبَّ مَنْ كان يَليهم منهم لمملكةٍ لم يُحكموا إليها أسبابا ، وغَنيمةٍ لم يُوجفوا عليها خيلا ولا رِكابا [4] .

وكان عِنْدهم يومئذٍ أبو محمّد يوسفُ بنُ القَلاس البَطَلْيَوسيّ أحدُ

---

١ من قول الشاعر : « وتعدو القبصى قبل عير وما جرى » وهو للشماخ (اللسان : عير ومجالس ثعلب ٢٠٧ وفصل المقال : ٣٠٠) والعير هنا فيما يقال هو المثال الذي في حدقة العين ، يريدون قبل أن يطرف الإنسان عينه يعني بأقصى سرعة .

٢ أكبثت : كثر فيها الكباث ، وهو الناضج من ثمر الأراك .

٣ من قول امرىء القيس :

فظل العذارى يرتمين بلحمها   وشحم كهداب الدمقس المفتل

٤ ص : ركبانا .

عَفاريتِ الضّلال ، وأكلةِ الأموال ، مِن رَجُلٍ أجرأ خلقِ اللهِ على دَمٍ وهو أجبنُ مِن صافِر[1] ، وأجسرِهم على رُكوبِ ثَبَجٍ[2] محرَّمٍ وهو أضعفُ مِنْ لحظٍ فاتِر ، نبّهت[3] تلك الفتنةُ على قَدْرِه ، ورفَعَ عُدْمُ الرّجال صوتَه بذِكره ، فهبّتْ ريحُه شمالاً وصَبا ، واتّخذ سبيلَهُ في البرّ والبحرِ عَجَباً[4]، فعرّض عليهم بصاحبه المتوكّلِ عُمرَ بنِ المظفّر ابنِ الأفطس ، وأعربَ لهمْ عَنْ لينِ مَكْسِره ، وضيقِ مَسافةِ نَظَره ، واشتغالِه باللّذاتِ عَنْ أكثرِه، فقالوا: بُرْدٌ كبُرْد . ما أشبه سَعْداً بسَعد ! فأتاهُ سَفيرُهم . وخفَّ إليهِ عِيرُهُم ونَفيرُهم. فجاءهم ينظرُ مِن خَفاء ، ويمشي على استحياء[5] . كَوداً ناً ساموهُ خُطّةَ سِباق ، وحُبَيْنَةً أقاموها على ساق . فدخلَ طليطلة عقيبَ سنةِ اثنتين وسبعين . وأقام عندهم نحواً مِن عشرةِ أشهر . أضلَّ من يَدٍ في رَحِم ، وأذلَّ من لَحمٍ على وَضَم[6].

[و] قد كان ابنُ ذي النّون حين انفلَتَ من يدِ المقتَنِص ، انفلاتَ الحمامةِ مِن القَفَص . تهيّأ لهُ دخولُ كُونكَة في خبرٍ طويل ، فثابَ إليه حِسّه . ورجَعَت قليلاً نفسُه ، وراسَلَ الطاغية أذْفُونْش ، وهوَ بحيثُ ينتهزُ الفَرْسَةَ[7] ، ويَسمعُ القِصّة . فذكّرَه ابنُ ذي النّون سالفَ

---

١ انظر الدرة الفاخرة : ١١١ وفصل المقال : ٤٩٩ والميداني : ١ : ١٢٤ والعسكري ٢١٧

٢ ص : تبج .

٣ ص : بهت .

٤ ناظر إلى الآية : ٦٣ من سورة الكهف .

٥ ناظر إلى الآية : ٢٥ من سورة القصص .

٦ هذان مثلان ، انظر الدرة الفاخرة ١ : ٢٨٢ ، ٢٠٣ .

٧ كذا ولعلها : « الفرصة » .

عَهدِه . وشهِدَ عندَه أنعُمَ جَدِّه . فبالزِّناد الذّنونيّة — زعموا — وَريت نارُه ، ومِن التّلاع المأمونيّة[1] تَدَفَّق تَيَّارُه . أيامَ كان اسمُ هذا الطاغيةِ محمولا[2] . وصَعْبُه ذَلولا . بتغلّب أخَويْه شانْجُه وغَرْسِيَّةَ عليه . وأخذِ هما طَرَفَيْ سِلْكِه مِن يديْهِ . فآواهُ المأمونُ ابنُ ذي النّونِ ونَصرَه ، واستقلَّ بسُلطانِ طاغوتِه حتى أظهَره[3] . وعند الله جزاءٌ موفور ، وإليه مُنقابٌ ومَصير . فلبّى دعواه ، وسمعَ شكواه ، وأظهرَ الارتماضَ لما عَزَّه وعَراه . وأقبلَ معهُ إلى طُليطلَة يَردُ ماءً بماء[4] . ويُسِرُّ حَسْوًا في ارتغاء[5] ، يُوردُ وِرْداً إليه صَدرَه ، ويحلبُ حَلَباً له أكثَرُه ، والمتوكّلُ بها طليحُ جِفان ، طَريحُ أكوابٍ ودِنان ، مُكبّاً عَلى قَمْشِ ما نَحَتَتْه[6] المِحْنة ، وتجافت عن انتهابِه الفِتنة ، مِن فَرْشٍ فَخْم ، وسُرادق ضخم ، وآنيةٍ وكتب ، وصَعَدٍ من آلةِ المُلكِ وصَبَب ، حتى اجتمعَ عنده مِن خَبَثِ زُبْرتِها ، وغُثاءِ غمرتِها ، معَ ما أذابوا لهُ صَدْرَ مقدمِه من شَحْمِ سَنامِها ، وأفاضوا من بردِها وسَلامِها ، جُملةٌ علّمتْهُ الجلوسَ في الصَّدر ، وأرَتْه الفرقَ بينَ الخلّ [٧٤] والخمر ، وأهلُ طُليطلَة الممتَحَنونَ ، في غَمرتِهم ساهون ، وعلى أعقابِهم يَنكُصون ، يَخوضونَ ويَلعبون ، ويُخرّبونَ بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين[7] .

---

١ ص : المأمونة .

٢ ص : محمولا ، وربما قرئت « مجهولا » .

٣ ص : أظهر .

٤ من قولهم : « ان ترد الماء بماء أوفق » وهو علامة على الحيطة والحذر .

٥ انظر المثل في فصل المقال : ٧٦ والميداني ٢ : ٢٥١ .

٦ ص : بحته .

٧ ناظر إلى الآية : ٢ من سورة الحشر .

خروج المتوكل من طليطلة ، ورجوع ابن ذي النون إليها

فلمّا تمكّنَ المتوكّلُ مِن الرّي والشّبع ، تذكّرَ عواقِبَ الطمَع ، ورأى أنّه إنْ زاد على ملءِ بطنِه . كان كالسراج المُنغمس في دُهنِه ؛ فكايدَهم بفِرارِه ، وأجلى مُبادراً إلى بَطليوس دارِ قَراره ، يُنشدُ :

إنِ اللهُ يُرجعْني منَ الغَزْوِ لا أرى   وإنْ قَلَّ مالي طالباً ما ورائيا[1]

ومن غريبِ تأويلِ الأحلام ، أنَّ رجلاً رأى المتوكلَ قبلَ دُخوله طُليطلة بأعوام ، كأنه يأكلُ فيها طعاماً فيه سَلْقٌ معَ رجلٍ يُسمّى يوسف ، ففسّرَها الأديبُ أبو عمرَ فَتْح المعروفُ بابنِ برلوصه[2] ، وقال : إنَّ المتوكلَ سيدخُلها على يَدِ رجل يُسمى يوسفَ ، ويَنالان مِن مالها[3] وذخائرها ، لكنهما يُسلقان بالألسنةِ فيها ، ويقبُح الحديث عنهما ، فخرجَت الرؤيا كما فَسّر .

ولما دخلها وحصل إليه منها ما حصَل فَرَّ وتركهم كالسفينةِ خانَتْها الرّيح ، والجسد بانَ عنه الرُّوح ، بين نابِ الطاغيةِ أذفونش وظُفُرِه ،

---

١ البيت لمالك بن الريب التميمي ، انظر ذيل أمالي القالي : ١٣٦ .

٢ ترجم له ابن بسام في القسم الثاني : ٨٠٥ وانظر مسالك الأبصار ١١ : ٤٤٢ ، وقد ورد اسمه في هذا الموطن من الذخيرة « برلوضة » بالضاد المعجمة ؛ وفي الأصل أيضاً أبو عمر ابن فتح .

٣ ص : عمالها .

يَقدَحُ لهم نار الفِتنةِ عن حَجَرِه . ويُريهم الموتَ في أهوَلِ صُوَرِه ، مُقسماً لا يَبرحُ العَرصَةَ حتى يَفيَ لابنِ ذي النون بضمانه ، ويُكافئَه على سالفِ إحسانه . وكان عاقَدَه ابنُ ذي النون أنه إذا ضَرَحَ قَذاها ، وأماطَ أذاها ، واقتضى دَيْنَها . خلّى بينه وبينها . هذا [ما] أضمرَ . فأمّا الذي أظهرَ ، فإنه وعدَه أداء جُملةٍ من المال ،لا تَفي به مُدّةُ الإقبال ، ولا إرخاءُ الحال ، راهنَه بها أبناء الأمجاد ، وبَقايا معاقِله الأفراد ، وألقى أهلُ طليطلة بأيدي الصَّغار ، على حين أيقَنوا بالبَوار ، وضاقتْ عليهم أنشوطةُ الحِصار . فجاء ابنُ ذي النون يَقدُمه أذفُونش ، وهو يُظهِرُ من التزامِ بِرّه ، وإعزاز نَصْرِه ، ما بَهَرَ العقول ، وكثّرَ القال والقيل ، حتى زعموا أنه رَفعَ صوتَه يَدعو إليه ، وتَرجّل يَمشي بين يديه ، وصار أعجبَ من تورّطَ في حبائلِ كيْدِه ، وجَعلَ الضرغام بازاً لِصَيْدِه[1] . وكم رام أهلُ طليطلة قَتْلَ ابنِ ذي النون في أثناء تلك الوشلات[2] مِراراً ، ولكنه بَلغَ مَداه ، وكرِه اللهُ لِقاءه فأبقاه ، وكانتْ للهِ فيه مَشيئةٌ أمضاها ، وقَضيةٌ أنظرَ به إناها[3] ، لذلك ما خبّأتْه صروف الأيام ، وسَلِمَ من الحِمام إلى الحِمام[4] . فلما كان يومُ النحْر سنةَ أربعٍ وسبعين ،نَهَدوا له

---

١ من قول المتنبي :

ومن جعل الضرغام بازاً لصيده   تصيده الضرغام في من تصيدا

وفي ص : الضرغم بازياً .

٢ ص : الوسلات ، والوشلات : حالات الضعف .

٣ ناظر إلى الآية الكريمة « إلى طعام غير ناظرين إناه » (الأحزاب) .

٤ من قول المتنبي أيضاً :

وان أسلم فما أبقى ولكن   سلمت من الحمام إلى الحمام

في عَدَدهم وعَديدهم . وزحفوا إليه بجدّهم وحَديدهم ، فتجاولوا عامّة يومِهم في شوارعها ، يترامَوْن بدَوامغِ الحتوفِ وقَوارِعها ؛ فأجلَتْ الحربُ عنهم قد شَرِقوا بغُصّتها ، وخلَوا بينَه وبين عَرْصتِها . وتساقطوا على أذفونش يَشكون ابنَ ذي النّون إليه ويَستصرِخونه عليه . فرماهم بحجَر ، ولَبِسَ لهم جلْدَةَ نَمِر . فتفرّقوا بكلّ سَبيل ، وطاروا على كلّ صعبٍ وذلول ، حتى مات ابنُ مُغيث كبيرُهم الذي علمهم السّحر ، وطاغُوتُهم الذي شَرَعَ لهم الكفْر ، بشيمتور[1] من أرضِ قَشتيلةَ بين الدّنان والصُّلْبان ، فسار وإلى الله إيابُه ، وعليه حِسابُه . ورجَعَ بنوه أخيراً فانتَزَوْا بمدينةِ مَجْريط ، وانحشَرَ إليهم ذؤبان الوقائع ، وأذبَةُ المطامِع ، فكانَتْ بين ابنِ ذي النّون وبينهم أيامٌ عَدّتهم له عَدّاً ، وساقَتْهم إليه وِرْداً ، حتى بادَ جُمهورُهم ، وتلاحقتْ أعجازُهم وصُدورُهم . وبَلَغَ ابنُ ذي النّون مِن هَدمِ رُبوعهم ، وصَلبِهم على جذوعهم ، ما يُبردُ صدرَ المَوْتور ، ويُضحكُ سِنَّ الموتِ المُبير .

بقية الحديث عن شؤون ابن ذي النون بطليطلة وإسلامها لظهيره الطاغية أذفونش ، وما انطوى في ذلك من خبر ، والتف به من قبيح أثر

قال ابن بَسّام : وأخذ ابنُ ذي النّون أهلَ طُليطُلة لحِينِ استقرارِه فيها بِفَكّ تلك المعاقِل ، وأداء ما كان ضَمِنَ لأذفونش مِن الأموال

....

[1] التاء غير معجمة في ص .

الجلائل ؛ فضرب مُدبِرَهم بمُقبِلهم ، وولّى آخرَهم كِبْرَ أوّلهم ، حتى طَمِعَ فقيرُهم في غنيهم ، واجترأ ضعيفُهم على قويّهم ، وأصبح الرجل منهم يَرتاعُ مِن ظِلّه ، ويلتفتُ وإنما هو بين أهلِه . وانكدرَ أذفونش على طُلَيطلةَ يَنتسِفُ مَرافقَها ، ويقعد بالحالية أهلِها ثناياها ومَضايقَها ، يأسِرُ ويقتُل ، ويحرق ويُمثّل – وسما السّعر ، وتفاقمَ الأمر ، وأنكرت المواردُ والمصادِر ، وبلغتِ القلوب الحناجر .

وكان من غريبِ ما اتّفق [٧٥] وعجيبِ ما انتظَم مِن ذلك واتسق ، أن البُرَّ كان على زعمهم يمكُثُ عندهم أكثرَ مِن خمسينَ سنةً لا يؤثّر فيه طولُ القِدَم ، ولا يُخاف عليه آفةُ العدَم ، ولم يُرفَعْ مُدّةَ الفتْنةِ منَ البيادرِ – على تعذّرِ بذْرِه ، وضيقِ الحيلةِ عن محاولةِ شيءٍ من أمْرِه – إلاّ وقد بدا البلى عليه ، وأسرعتِ الآفةُ إليه ، أمرٌ من اللهِ لم يكُنْ له مَرَدّ ، ولا منه بُدّ . ولمّا شَمِلَ البلاء ، وفدَحت البأساء ، وأتى على أكثرِ أهلِ طُليطلةَ القتلُ والجلاء ، وقضى الطاغيةُ أذفونش – قَصَمه الله – قضاءه من استباحةِ الحَريم ، واستئصالِ الرّاحلِ والمُقيم ، وإتلافِ الموجودِ والمعدوم . أسْرى تحتَ الليل ، في قطْعةٍ غَيرِ وافرةٍ من الخيْل ، فنزلَ المُنيةَ المصوّرة التي كان المأمونُ يحشُدُ إليها كلَّ حُسْن ، ويُباهي بها جنّةَ عدْن ، ويُقلّبُ الحَويرَ[1] في جيّدِ بنيانها ، والإشادة بشانها ، ظَهْراً لبَطْن ، فاتخذ عروشَها مَرابطَ لأفراسه ، وإيواناتها[2] مَلاعبَ لأراذِلته وأرجاسه . وهجَم الشتاءُ فمنعه من ميرةٍ تأتيه ،

---

١ ص : الجور .

٢ ص : وايوانتها .

أومَدَد يُوافيه ، فأقامَ نَيِّفاً على شهرين لا يُسيغُ الشراب ، ولا يَملكُ المجيء ولا الذهاب ، ليس له شوكة إلاَّ ظلٌ لوائه ، ولا مَدَدٌ إلاَّ ضَعفُ مَن كان بإزائه . ولولا اهتبالُ مُلوكِ الطوائفِ بإقامةِ مَرافقه ، وإصغاؤهم إلى هَدَرِ شَقاشقه ، لطار شَعاعاً ، وذهب ضياعاً . وطَفِقَ أهل طليطلة يَستصرخون مَن حَوْلهم ، ويُعملون في ذلك فِعلَهم وقَوْلهم ، فيَعكفُون على طلَلٍ بائدٍ ، ويَضربون في حَديدٍ بارد . فلمَّا نأى الشتاءُ بجانبه ، وخلَّى بينَ كلِّ ذاهبٍ ومَذاهبه ، مالَ بأهل طُليطلة سَيْلٌ لا يَقومُ له سَهْلٌ ولا وَعْر ، وطَلَع عليهم ليْلٌ لا يَلوحُ لهم فيه صُبْحٌ ولا فَجْر . واضُطرَّ مَن أخطأته الحوادث ، وتخطَّته تلك الخطوبُ الكوارِث ، —من أشدها[1] ضيقُ الحصار ، وكَلَبُ البَوار ،وإبطاءُ المرافقِ والأنصار— إلى مُداخلة الطاغية أذفُونش ، فشَرعوا في ذلك غيرَ مُظهرينَ للاستسلام ، ولا مُتبرِّئينَ من الصَّبْرِ على ضَنْكِ ذلك المُقام . طَمَعاً في أن يَغروه ولو باغلاء سَوْم ، ويَخدعوه على أذماء نفوسهم ولو بِبياضِ يوم ، إشارةَ الغريقِ إلى الساحل ، واستراحةَ المحتَضَر إلى الطبيبِ الجاهل ؛ فأبى أذفونش إلاَّ عَرْصَةَ الدار ، وأمَّ الأوطار ، ولجاجاً بينَ التَّمادي والاستمرار ، لعلمه أين ينتهي طَلَقُهم ، وتَقديره لما عَسى أنْ يَفي به رمَقُهم . فخرجَ من أعيانهم جُملةٌ إلى مَضرِب أذفونش في بعضِ تلك الأيام . وقد ضاق المجال ، وتَلَمَّظت الآجال ، وأقبَلت الحتُوفُ تختال[2] ، فقامَ الحُجابُ دونَه ، وقالوا : هو نائمٌ فكيف توقظونه ؟ فعَدلوا إلى مضرب ششْنَند ،

---

١ ص : من اثلها .

٢ ص : تختل .

شرّه العتيد ، وشيطانه المَريد . وهامانه الذي أوقدَ له على الطّين ، وعلّمه الدّفعَ بالشكّ في صَدْرِ اليَقين ، أحدِ أعلاجِ ابن عبّاد – كان – من رجلٍ مُتوقّدِ جَمْرةِ الذكاء ، بعيدِ المذهبِ بينَ الجُرأة والنّكْراء ، سفَرَ بين المُعتضِد والطاغيةِ فَرْذِلَنْد ، فعقَد وحَلّ ، ونَهَض بما حَمَل من ذلك واستَقَلّ . ثم خاف المعتضدَ على نفسه ، فنَزعَ به عِرْقُ اللّوم ، إلى المقَرّ المذموم . واستقرّت قدَمُه بجِلّيقيّة ، فاضطلَع بالدُّروب والثّغور . وغلَب على سائرِ السياسةِ والتّدبير . وصار بَعْدُ قُصارى مُلوكِ الطوائفِ بالجزيرةِ نَظْرَةٌ من اهتباله ، وأدنى خَطْرةٍ من باله . فأدخَلَ على أذفونش يومئذ منهم جماعةً فوجدوه يمسَح الكرى من عَيْنيه ، ثائرَ الرأس ، خَبيثَ النّفس . وجعلوا يَنظرون إليه وهو يَضغَثُ ثُغامَةَ رأسِه . فما نَسوا دفَرَ أطمارِه ، ودَرَنَ أظفارِه . ثم أقبَلَ عليهم بوجهٍ كريه ، ولَحْظٍ لايَشكّون أنّ الشرّ فيه ، وقال لهم : إلى متى تَتَخادعون ، وبأيّ شيء تَطمعون ؟ قالوا : بنا بَغْيَة ، [ولنا] في فلانٍ وفلان أمنيّة ، وسَمّوا له بعض مُلوكِ الطوائف . فصَفّقَ بيديْه ، وتهافَت حتى فَحص برِجليْه . ثم قال : أينَ رُسُلُ ابنِ عبّاد ؟ فجيء بهم يَرفلون في ثيابِ الخناعة ، ويَنبِسون بألسنةِ السمعِ والطاعة . فقال لهم : مُنْذُ كَمْ تحومُون عليّ ، وترومونَ الوصولَ إليّ ؟ ومتى عهدُكم بفلان ، وأينَ ما جِئْتم به لا كنتم ولا كان ؟ فجاءوا بجملةِ ميرة ، وأحضروا بين يَديه كلَّ ذخيرةٍ خطيرةٍ . ثم ما زاد على أنْ رَكلَ ذلك برجْله ، وأمرَ بانتهابه كلّه ؛ ولم يَبقَ مَلِكٌ من مُلوكِ الطوائف إلاّ أحضرَ يومئذٍ رُسله ، وكانت حالُه حال من كان قبلَه . وجَعَل أعلاجُه يدفَعونَ في ظُهورهم ، وأهلُ طُليطلةَ يَعجبونَ مِن ذُلّ مُقامهم ومَصيرهم ، فخرجَ مَشيختُها مِن عِنده وقد سُقطَ في أيديهم . وطَمعَ كلُّ شيءٍ فيهم ، وخلّوا بينَه

وبين البلد ، لثلاثة أيامٍ من ذلكَ المشهد . ودَخَل طُليطلة على حُكمِه ، وأثبتَ في عَرصَتها قَدَمَ ظُلمِه. حُكْمٌ مِن اللهِ [٧٦] سَبَق به القدَر ، فلم يَكُنْ مِنهُ وزَر .

وخرج ابنُ ذي النّون خائباً مما تمنّاه ، شرقاً بِعقبى ما جناهُ ، والأرضُ تَضِج من مُقامه ، وتستأذِنُ في انتقامه ، والسّماء تودُّ لو لم تُطلِعْ نَجْماً إلاّ كدَرَتْهُ عليه حتفاً مُبيداً ، ولم تُنشِىء عارضاً إلاّ مَطَرَتْهُ عذاباً فيه شديداً. واستقرَّ بمحلّةِ أذفونش مخفورَ الذّمّةِ ، مُذالَ الحرمة ، ليس دونه باب ، ولا دونَ حُرَمِه سِترٌ ولا حِجاب . حدَّثني مَن رآه يومئذٍ بتلك الحال وبيدهِ اصطرلابٌ يرصدُ فيه أي وقتٍ يرحل ، وعلى أيّ شيء يعوّل ، وأيّ سبيلٍ يتمثّل، وقد أطافَ به النّصارى والمسلمون ، أولئكَ يضحكونَ من فعله ، وهؤلاء يتعجبونَ من جهلِه .

وعَتَا الطاغيةُ أذفونش ــ قصمه الله ــ لحين استقراره بطُليطلة واستكبر ، وأخلَّ بملوكِ الطوائفِ في الجزيرَةِ وقصّرَ ، وأخذَ يتجنّى ويتعتّب . وطفِقَ يتشوّفُ إلى انتزاعِ سُلطانهم والفراغِ من شانهم ويتسبّب . ورأى أنهم قد وقفوا دون مَداه ، ودخلوا بأجمعِهم تحت عصاه .

وولّى شِشنند المذكور تدبير طليطلة ، فهوّنَ عليهم الرزية ، وحبّبَ إليهم إعطاءَ الدنيّة ، بما أراهُم من سُهولةِ مرامِه . وبَسَطَ فيهم من عَدْلِ أحكامِه ، حتى استمال قُلوبَ أعلامها ، وحبّبَ التنصّر[1] إلى عامةِ طغامِها ، وفجأ المسلمين من اختلافِ أهوائهم ، وتنصّرِ سفهائهم ، ما ضاقَتْ عنه صدورُ الأيامِ ، واضطَرَبتْ له قواعِدُ الإسلام . وقد كان من رأي شِشنَند الإبقاءُ على أهلِ طُليطلَة ، وقال لأذفُونش : لستَ

---

[1] ص : النظر .

تجدُ بمَنْ تَعمُرها، ولا تَظفَرُ بعاملٍ أطوعَ مِن ابنِ ذي النّون يدبّرها، فأبى أذفونش إلاّ لجاجاً في سَفهِه. وانحطاطاً في حَبْلِ شرَهِه. فلمّا تهيّأ له مُلكُها. وانتثرَ في يديْهِ سِلكُها. قال له شِشنَنْد: اخفِضْ جناحَكَ لأهلِها. واستَجلبْ جاليتَها بما تمدُّ من ظلّها. ولا تُلِحَّ على ملوك الجزيرة فلَستَ تستَغني عَنهُم، ولا تجدُ عُمّالاً أطوَعَ مِنهُم، فإنّك إن أبيتَ إلاّ الإلحاحَ عليهم، والتسرُّعَ بالمكروه إليهِم، نفَّرتَهم عن ذراكَ، وأحوجتهم إلى مداخَلةِ سواك. فكان من صُنعِ اللهِ أن اتّهمَ أذفونش يومئذٍ منحاه. وخالفَه إلى ركوبِ هواه، وشَرَعَ لوقتِه في تغييرِ المسجدِ الجامِع بها، خاتمةُ النّوائبِ. ونكبَةُ الشاهِد والغائب. فقال له شِشنَنْد: إنكَ إن فعَلتَ أوغرتَ الصّدور، وأبطَلْتَ التدبير. وسكّنتَ[1] مَن نَشَط. وقبَضْتَ من انبسَط. فشَمَخَ أذفونش — لعنَه الله — بأنفِه. وثنى من عِطفِه، وأصغى إلى طَنانةِ جنونِه وسَخَفِه. وأمرَ بتغيير المسجدِ الجامع يوم [. . . . .] لربيع الأول سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة. وحدثني من شَهِدَ طَواغيتَه تَبتَدرُه، في يومٍ أعمى البصائرَ والأبصارَ منظَرُه، وليس فيه إلاّ الشيخُ الأستاذُ المغامي آخرُ من صَدر عنه، واعتمده في ذلك اليوم ليتزوَّد منه. وقدْ أطافَ به مردةُ عفاريتِه، وسَرَعانُ طواغيتِه، وبين يديْه أحد التلامذةِ يقرأ. فكلّما قالوا له عجِّل، أشارَ هو إلى تلميذِه بأنْ أكملْ، ثم قام ما طاشَ ولا تهيَّبَ، فسَجَدَ به واقترب، وبكى عليه مَليّا وانتحب، والنّصارى يعظّمونَ شانه، ويَهابونَ مكانَه، لم تمتدْ إليه يد، ولا عرضَ له بمكروهٍ أحد.

وقد حُدِّثتُ أن شيعةَ أذفونش — لعنه الله وبدّدها — أشاروا عليه يومئذٍ بلبسِ التاج، وزيّنوا له زيّ من سَلَف بالجزيرة قبلَ فتحِ المسلمين

---

[1] ص: وسلكت.

إيّاها من أعلاج ، فقال : لا ، حتى أطأ ذروةَ المُلك ، وآخذَ قُرطُبتهم واسطة السّلك . وكان أعدّ لمسجدها الجامع – حمى الله ساحتَه من الخطوب الروائع – ناقوساً تأنّق في إبداعه ، وتجاوزَ الحدّ في استنباطه واختراعه ، فالحمد لله مُوهِن أيده ، ومُبطِل كيده ، وجزى الله أميرَ المسلمين ، وناصرَ الدّين ، أبا يعقوبَ يوسفَ بنَ تاشفين ، أفضلَ جزاء المحسنين ، بما بلّ من رماق ، ونفّس مِن خِناق ، ووصَلَ هذه الجزيرةَ من حَبْل ، وتجشّم إلى تلبية دعائها واستنقاذ ما بها من حزنٍ وسَهْل ، حتى [ثلّ] عروشَ المُشركينَ ، وظهرَ أمرُ اللهِ وهُم كارِهونَ ، والحمدُ لله ربّ العالمين .

فصلٌ في ذكر الأديب الكامل أبي عبد الله محمد بن شرف [1] وسياقَةُ جملة وافرةٍ من نظمه ونثره

قال ابن بسّام : كان أبو عبدِ اللهِ بن شرفٍ بالقَيروان ، مِن فرسان

---

[1] له ترجمة في الصلة : ٥٤٥ والمطرب : ٦٦ ومعالم الإيمان ٣ : ٣٩ والخريدة (قسم المغرب) ٢ : ٢٢٤ ومعجم الأدباء ١٩ : ٣٧ والوافي ٣ : ٩٧ والفوات ٣ : ٣٥٩ والزركشي : ٢٧٨ ومسالك الأبصار ١١ : ٢٣٨ وبغية الوعاة : ٤٧ وصفحات متفرقة في ج ٣ ، ٤ من نفح الطيب ، وعنوان الأريب ١ : ٥٦ وقد جمع الأستاذ الميمني بعض شعره في « النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف » (القاهرة : ١٣٤٣) ونشرت له رسالة بعنوان اعلام الكلام (الرسائل النادرة – القاهرة ١٩٢٦) وهي نفسها بعنوان مسائل الانتقاد في رسائل البلغاء مع مقدمة ابن شرف : ٣٠٢ – ٣٤٣ (القاهرة : ١٩٤٦) وقد نشرها الأستاذ شارل بلا ومعها ترجمة فرنسية (الجزائر : ١٩٥٣) وذكر ابن دحية (المطرب : ٩٦) أن شعره في خمس مجلدات ، وانظر القسم الأول من الذخيرة : ٩١ (الحاشية : ٣) حيث أشير إلى بعض مصادر ترجمته .

هذا الشان ، وأحدَ من نَظَم قلائدَ الآداب ، وجَمَع أشتات الصواب ، وتلاعَبَ بالمنظوم والموزون ، [تلاعُبَ] [1] الرياح بأعطاف الغصون ، وبينَه وبين أبي علي ابن رشيق ماجَ بحرُ البراعَة ودامَ ، ورَجعَ نجمُ هذه الصناعة واستقام ، وذهبا من المناقَضَة مذهباً تنازعاه شراً طويلاً ، وخلّداه ذكراً محمولاً ، واحتَملاه – إن لم يَسمح الله – وزراً ثقيلاً . وكان أبو عليٍّ أوسَعهما نفسا ، وأقرَبهما مُلتمسا ، ولابن شرَف أصالَةُ منزعِه ، وجَلالةُ [٧٧] مَقطَعِه ، ومَتانةُ لفظِه ، وسَعَةُ حِفظِه ، فتَسمع بشعره ملآنَ مِن وعوَعَةٍ وجَعْجَعَة ، ولكنْ ما أبعدَ ما يَرومُه وأبدَعه ! وسال سَيْلُ فتنة القيروان ، اللاعبُ بأحرارها ، المُعَفّي على آثارها ، فتَردّد على مُلوك الطوائف بالأندلس ، بعدَ مُقارَعة أهوال ، ومُباشرة خُطوب طوال ، وقد نَبَتَتْ شَفرتُه ، وطُفِئتْ جَمرتُه . وقد قُلتُ فيما تَقَدّم إنه انتَحى مَنحى القَسطلي [2] في شَكوى الزمن ، والحديثِ عن الفِتَن . كانَ معه كَمَن تَصدى الرّياحَ [3] بجناح ، وقابَلَ الصباح بمِصباح . واستقرّ أخيراً عند المأمون بن ذي النّون ، فعليه خلَعَ آخرَ لَبوسِه ، ونَثَر بقيّة كيسه .

وكانتْ لعبّادٍ هِمّةٌ في اصطحاب الأحرار ، واستجلابِ ذَوي الأخطار ، يَنصِبُ لذلك الحبائل ، ويُعمِلُ فيه الحقّ والباطِل ، حتى إذا عشَوْا إلى سُرُجِه ، واغترّوا بزِبْرِجه ، سامَهم رَدّ أبي قُبَيْس [4] على أبيه ، وأخذهم

---

١ زيادة من المسالك .

٢ يعني ابن دراج ، انظر القسم الأول : ٥٩

٣ المسالك : للرياح .

٤ كذلك هو أيضاً في المسالك ، والأصوب أن يكون بحذف « أبي » .

بالسعاية بين الفرقد وأخيه ، فمن أعياه منهم ركوبُ الصعاب ، وعضه التقلبُ بين المضايقِ والرحاب ، عزّه في الخطاب ، وأطاعَ به سلطان الارتياب ، ﴿ أيمسكه على هُونٍ أم يدسّه في التراب ﴾ (النحل : ٥٩) وقد ذكرت في أخبار ابنِ عبد البَرّ الكاتب[1] أنه انسلّ مِن يدِ عبّادٍ انسلالَ الطيفِ ، ونجا منه واسألْه كيف . وكان ابنُ شرفٍ هذا ممن فهِمَ منحاه ، وصمّ عن رُقاه ، فلم يجتمع مع عباد في صعيد ، ولا أهدى له السلام[2] إلا مِن بعيد . وستأتي أخبارُه معه ومع سواه ، محرَّرةَ النقد ، مقدّرةَ السرْد .

ولأبي عبدِ الله عِدّةُ تواليفَ[3] أفاضها بحارا ، وأطلعها شموساً وأقمارا ، منها كتابُه الموسوم بـ « **اعلام الكلام** » وكتاب « **أبكار الأفكار** » وقلّبَ له هذه الترجمة بإشبيلية بعضُ الوزراء الكُتاب ، فجاءَ في ذلك بالعَجَبِ العُجاب . وقد أثبتُّ في هذا الفصل مِن كلام ابن شرف ما يشهدُ بذكائه ، ويُغني عن إطرائه .

جملة من نثره مع ما يتشبث به من شعره

بلغني أنّه استنهضَ صاحبه ابنَ رشيقَ[4] — مع منافرةٍ كانت بينهما

---

١ انظر القسم الثالث : ١٢٥ وما بعدها .

٢ المسالك : ولا سلم عليه .

٣ يستفاد من كلام ياقوت (١٩ : ٤٣) أن أبكار الافكار يحتوي مختارات من شعر ابن شرف مع أن بسام سيورد قول ابن شرف (ص : ١٧٩) إنه يحتوي على مائة نوع من مواعظ وأمثال وحكايات قصار وطوال . وأن أعلام الكلام فيه فوائد لطائف وملح منتخبة ، وأن رسالة الانتقاد مقامة نقدية . وذكرت له المصادر مؤلفات أخرى منها : رسالة ساجور الكلب ورسالة نجح الطلب ورسالة قطع الأنفاس وغير ذلك (انظر الوافي والفوات) .

٤ ص : ابن شريق .

ـ في أن يجتمعَ العدوّان بالطريق ، ويجوزا معاً إلى الأندلس. فأنشده ابنُ رشيق[1] :

مِمّا يبغّضني في أرضِ أندلسٍ سَماعُ مُقتدرٍ فيها ومُعتضدِ
ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضِعِها كالهرّ يَحكي انتفاخاً صورةَ الأسدِ

فأنشد ابنُ شرف :

إنْ ترميكَ الغربَةُ في مَعْشَرٍ قد جُبلَ الطبعُ على بُغْضِهِم
فَدارِهِم ما دُمتَ في دارِهِمْ وأرضِهِمْ ما دُمتَ في أرْضِهِمْ

وتَصَرّفَ ابنُ شرَفٍ في هذا المعنى فقال[2] :

يا خائفاً مِنْ مَعْشَرٍ لا يُصطلَى بنارِهِمْ
[إن تُبْلَ من شَرارهم على يَدَيْ شِرارِهِمْ][3]
أو تُرْمَ من أحجارِهِمْ وأنتَ في أجحارِهِمْ
فما بقيتَ جارَهُمْ ففي هَواهُم جارِهِمْ
وأرضِهِمْ في أرضِهِم ودارِهِمْ في دارِهِمْ

وكان أوّلَ ما بعثَ إلى المعتضِد بإشبيلية خمسُ قصائدَ من شِعرِه مع رقعةٍ خاطبَ بها وزيرَه أبا الوليد بن زيدون ، يقول في فصلٍ منها :

---

١ معجم الأدباء ١٩ : ٣٨ وبيتا ابن شرف في المطرب والخريدة وانظر النتف : ١٠٣ والشريشي ٢ : ٢٥٨ ونسبا في الخريدة ١ : ٢٨٩ لعلي بن فضال وفي الوافي (١ : ١٢٥) لأبي نصر محمد بن محمد الرامشي وانظر الريحان والريعان : ١٤١

٢ منها ثلاثة في الخريدة وخمسة عند الصفدي ، وانظر النتف : ١٠٠ — ١٠١ .

٣ بياض بالأصل وزدته اعتماداً على المصادر .

الآدابُ – أعزَّكَ الله – لأربابها ، كالمحارِم لذوي أنسابها ، تبدي البِنْتُ زينتَها لأبيها ، وترِف الأختُ لأخيها ، ولمنْ كان له في المحْرَم ِ شبيها ، وكذلك حُكْمُ ذوي الآدابِ فيها ، يَرفعون بينهم حُجبَ التحفظِ بيدِ الاسترسالِ ، ويدفعونَ سترَ التقبضِ بأكفِّ البِشْرِ والإقبالِ . وقد رفعتُ إلى حَضْرَته الرفيعة خَمْسَ أبكارٍ عُرُب . تخدِمهنَّ وليدةٌ ذاتُ حُسنٍ وأدب ، خصَصَتُ بالخمسِ القرائض خيرَ الملوك ، وبالوليدةِ برَّ الحرِّ المملوك . وهنَّ وإن زدنَ على أربَع الشَّرعِ واحدة ، فليست في دينِ الشّعرِ بزائدة ؛ ولمّا جازَ أكثرُ من أربعٍ لخيرِ الأنامِ ، اقتدينا بذلك في خير الكرامِ .

ولمّا كنتَ – أعزَّك الله – حَسّانه المقَدَّم ،رأينا ما رآه صلى الله عليه في سيرين[1] . وقد كانت النيّة ، لو تمّتْ الأمنية ، حُضوري بذاتي ، لزفافِ بُنيّاتي ، فمَنَع من المُراد مانِع ، ودَفعَ بيدِ الأقدارِ دافِع . ولمّا صار الفِعلُ الماضي مُستقبلاً ، وبقيتُ للحاق مؤمّلا ، وكلتُ بهنَّ ذا مَحْرَمِهن ، وائتمنتُ عليهنَّ ابن [. .] [2] وهو الشيخ أبو فلان . فللوزيرِ الأجلِّ علوُّ الرأي في قَبولِ ما عَرضَه وليّه المدِلُّ على إكرامه ومكارمِ أخلاقِه ، بما ينمُّ عليه من طيبِ أعراقِه ، ويقومُ بعُذري إن وَهِمت ، وبِشكري إن فَهِمت . فهو بدري إذا لَيلي عَسْعَسَ ، وشمسي إذا صبحي تنفّس . وأنا وإن بعثتُ بالأقمارِ في الأطمار ، وبالشّموسِ في خَشنِ الملبوس ، فهو برِفقِه ودقيقِ حذْقِه يُلطّفُ الهجنَ ، ويُحسّن الخشن ، ويقدّمُ

---

١ يشير إلى أن الرسول (ص) أعطى الجارية سيرين لحسان بن ثابت .

٢ بياض بقدر كلمة .

في الغيبة ، ما يُعين عند اللِقاءِ على الهيبَة . بقويّ مُنَّتِه ، وعظيم مِنَّنه ، إن شاء الله .

فأجيب ابنُ شرَفٍ برقعةٍ من إنشاءِ الوزيرِ الكاتبِ أبي محمّد بن عبدِ البرّ قال فيها : [٧٨]

رُبَّ أمنيةٍ شَطَط ، قد أتاحَها قَدَر ، ونجيّةٍ فَرَط ، قد أراحَها ظَفَر . وقد تقرّب الأماني ما يَظنّه المرء[1] نازحاً بَعيداً ، كما تُفيتُ ما يَعتدُّهُ حاضِراً عتيدا . وكانت أخبارُك – أبقاكَ الله – تَرِدُ علينا أرِجَةَ النسيم ، عَطِرَةَ الشميم ، شَهِيّةَ المسموعِ ، رفيعَةَ المحمولِ والموضوع ؛ وأشعارُك تزفُّ إلينا عرائس الألباب . ونفائسَ الآداب . فنُفديك على البُعد بالأنفسِ والأقارِب ، ونَستدنيكَ بالأماني ونحسَبُها من الكَواذِب : حتّى أسمعَ الخبرُ باغترابك ، وطَلَعَ البشيرُ بارتقابك[2] ، ووافتْ ورّاد خِطابك ، وقَهقَه مُجلجلُ سحابك ، وتصدّت بحارُ الطّلبِ لسُقياك ، ونَمّتْ رِياضُ الأدبِ بريّاك ، وهزَّ الكرمُ عِطفَه للقيالك ، ووَصَل المجدُ الأطرفُ طَرْفَه بِرعياكَ ، وجُليتْ عليك[3] عرائسُه الحاليةُ في مَعارضِ الشّدوِ والإنشاد، فَسَعِدتْ من أكرَمِ الأكفاءِ بالقبولِ والوِداد ؛ وحَظيتْ عنده بالتّرفيعِ والإعزاز . ووُضعَ ثوبها الأنفسُ في يَديْ بَزّاز . وقد استعملتُ معك في اسمِ المعتَضِدِ بالله مُفَضّلِكَ – أيّدهُ الله – مَذْهباً من مذاهبِ رُواة الحديث يُسمّونه بالتّدليس ، ويكادُ يُنسب إلى الإشكالِ والتّلبيس ،

---

١ ص : الأمر .

٢ ص : بارتعابك .

٣ ص : عليه .

للعِلم[1] المحيطِ أن الكرَمَ من أسمائِه وصِفاته، والمجدَ من ألقابِه وسِماتِه: وستَرِد ، فتَستَقصِرُ وصْفي بما تَجِد . فاقصِدْ قصدَه ، تَحلَ بطائلِ الإفادَة ، وأمّهُ وحدَه ، تحظَ بنائلِ الرِّفادَة : ولا تَبِعْ في سوقِ الكسادِ فالنَّفاق[2] أمامك ، ولا تَسمْ ببضاعَتك فالسّوقُ قُدّامَك . واذكُرْ ما أنكَرَه ابنُ الزيّاتِ على حَبيب ، وأنت المكتفي بحاليك عن الضمير ، وبما خوّلكَ اللهُ عن المشير . فذاتُكَ أنفعُ شُفعائك ، وأدواتكَ أرجَحُ سُفرائك . وقد خاطَبكَ مُستقدماً ، وجدَّ مُعتزماً ، ووجّه نحوكَ شيئاً يكون من زادِك إليه ، ويُعينُ على مؤنة طَريقكَ في قدومِكَ عليه ، وذلك ثلاثونَ مثقالاً من ضَرْبِ السكّةِ قبلَه ، ولم يُرِدْ بها غير ما أعلمك ، حتى تُوافي إن شاء الله فتستوفي . وعسى أن يكونَ وصولُكَ إسفارَ الفَجرِ الذي صَدَعتهُ إلينا ، وحُلولُك نهارَ الصُبحِ الذي أطلَعتَه علينا . وكان من البرّ أن أراجِعَ عن الشعر، لكن لا أخطو في مَيدانكَ ولو كنتُ جريرا، ولا أرجَحُ في مِيزانك ولو احتضنتُ ثَبيرا .

قال ابن بسّام : والذي ذكرَ ابنُ عبد البرّ مما أنكرَ ابنُ الزيّات على أبي تمام لمّا مدحه بقصيدته التي أوّلها[3] :

• لهانَ علينا أن نَقولَ ونَفعلا •

---

١ ص : لعلم .

٢ ص : فالنفائق .

٣ ديوان أبي تمام ٣ : ٩٨ وعجز البيت : « ونذكر بعض الفضل منك وتفضلا » وانظر أخبار أبي تمام : ١١٩ وابن بسام يتابع زهر الآداب : ٣٣٦ – ٣٣٧ .

وهي من أحسنِ شعره ، وقّع له على ظهرها [1] :

رأيتكَ سهلَ البيعِ سمحاً وإنّما يُغالي إذا ما ضنَّ بالشيء بائعُهْ
فأمّا إذا هانَتْ بضائِعُ بيعهِ فيوشكُ أن تَبقى عليه بَضائعُهْ
هو الماءُ إن أجْمَمْتَهُ طابَ وِرْدُه ويُفسدُ منه أن تُباحَ شَرائعُهْ

فاعتذرَ إليه أبو تمّام في قصيدته التي يقول فيها [2] :

أمّا القوافي فقد حصّنْتَ غرتّها [3] فلا يُصابُ دمٌ منها ولا سَلَبُ
ولو عَضَلْتَ عن الأكفاءِ أيّمهَا ولم يكنْ لكَ في أطهارِها أربُ
كانتْ بناتِ نُصيْبٍ حين ضنَّ بها على الموالي ولم تَحْفِل بها العَرَبُ [4]

وقد قيلَ إنَّ أبا تمام أجابه بقوله :

أبا جعفرٍ إن كنتُ أصبحتُ شاعراً أسامِحُ في بيعي لهُ من أبايعُهْ
فقد كنتَ قبلي شاعراً تاجراً بهِ تُساهِلُ من عادَتْ عليكَ مَنافعُهْ
فصرتَ وزيراً والوزارةُ مَكْرَعٌ يَغَصُّ به بعدَ اللّذاذَةِ كارعُهْ
وكَمْ منْ وَزيرٍ قد رأينا مُسلّطاً فعاد وقد سُدَّت عليهِ مَطالعُهْ
ولله قوسٌ [5] لا تَطيشُ سِهامُها ولله سَيْفٌ لا تُفلُّ مَقاطعُهْ

---

١ أخبار أبي تمام : ١٢٠ وزهر الآداب (حتى نهاية الخبر) .

٢ انظر الديوان ١ : ٢٥٨ .

٣ هذه الرواية ثابتة في الديوان وزهر الآداب ؛ ويروى أيضاً « عذرتها » .

٤ كان لنصيب – وهو شاعر أسود – بنات فكان يشح بهن على الموالي وتكره العرب أن تتزوجهن (شرح ديوان أبي تمام ١ : ٢٥٩ والمضاف والمنسوب : ٢٢٢) .

٥ ص : سوق .

وقيل إنّ هذه الأبيات مَنحولَةٌ لحبيب ، وقيل قالها ولم تَظهرْ إلاّ بعدَ مَوْته .

رجع

فَتوقّفَ ابنُ شَرَفٍ عن القُدوم بِقَدمِه ، وكَلّفَ ذلك سِنّ قَلَمِه . وطَرّرَ[1] تأليفَه « **أبكار الافكار** » باسم عبّاد، وبعثَ به إليه على البِعَاد .وقد كانَ وَسَمَه قبلُ باسمِ باديس بن حَبّوس في خُطْبَةٍ طويلةٍ قال فيها : ما ظَنَنتُ الابتداعَ إلاّ بلَغ ، ولاحَسِبتُ الاختراعَ إلاّ فَرَغَ ،حتى إذا استأثرتْ بُنيّاتُ صَدْري ، ولطائِفُ فِكري ، ببيتٍ واحدِ الجنسية ، ومعنًى غَريبِ الأبنيَة، قلتُ لنفسي : هَيْهات ! لاشك أنك سُبقت إلى هذهالغاية، وعِلّتُك قِلّةُ الرواية ، وكَثُرَ سُبّاقُ الروّاد، وفُرّاطُ الوُرّاد ، فما تركوا للمتأخرين من الرّياضِ زَهْرَة ، ولا مِن الحِياضِ قَطْرَة ؛ كما أنّ جَيْشَ الكَرَمِ قد انهزَمَ ، وزائِرَ الشّرَفِ قد انصرف ، ومَرْكُوبَ المجدِ قد نَدّ ، فعِشْتُ أظُنّ هذا الظّن ، حتى سافَرتْ إلينا رِفاقُ الأخبارِ بشَهادَاتٍ زَكّاها مُرورُ الأيام ،ودُؤوبُ الدّوام ،تشهَدُ بسؤددٍ بانَ عن السؤددِ العِصَامي ، وحَزْمٍ فاق الحزمَ الهِشاميّ ، وجُودٍ جاوزَ الجُودَ الكَعبي ، وبأسٍ أنسى البأسَ المُصْعَبي . ثم سفَر لي الدهرُ عن سَفَرٍ إلى مَغْربِ [٧٩] الدنيا ومَشْرقِ العَلْيا ، والبُقْعَةِ المُباركةِ الباديسيّة ، والدولةِ المُظفّرية ، والمملكةِ الشامخةِ الحميريّة ، والحضرةِ الشريفةِ المنيفَةِ الغَرناطيّة : فعايَنْتُ عالَماً في عَالمٍ ، قد شَرَكُوه في النّسبةِ إلى آدَم ، وانفَردَ مِن مُناسَبَتِهم ، وشَذّ عن مُجانَستِهم ، بجميلِ طَرائق ، وحَميدِ خَلائق ،

---

[1] طرر : (بالمهملة) أي جعل اسمه طرة ا، وقد يمكن أن تقرأ « وطرز » .

انفَردت انفِرادَ سُهَيْل ، وجَمَعَتْ في المرأى والمَسْمَعِ ما زَادَ على زَنْدِ الخَيْل . مُغرًى بالأدَبِ المَهجُور بَلِ المَطرود ، سالِياً عن المالِ المَعشُوق بَلِ المَعبود ، مُنْفِقاً للحَمْدِ الدَّفين[1] المرسُوسِ إلى صُنُوف مِنَ الفَضائل ، وأنواعٍ مِنَ الجلائِل . لا يُحيطُ بها الوَصْف ، ولا يجمَعُها الرَّصْف ، يُغْني النقلُ الكافيُّ والتواتُرُ الإجْماعيُّ عن تأتيتِها على ألسنةِ الأقلامِ إلى أفهامِ الأنام . وقد قدَحتُ زَنْدَ الفِكْر فأورَى شرَراً ، وامتحتُ[2] قَليبَ القلبِ فأجرى نَهَرا ، فرقَمتُ في هذا المجموعِ مِنَ الكلام المنثورِ المسجّعِ الأوساطِ والأطرافِ ، والمنظومِ المُكلّلِ بتيجانِ القوافي ، ما استنبطتهُ مِن ذَوَات صَدْري ، واستنتَجتُه من بَنات فِكْري : فِقَراً ابتدعتُها وسجعتُها ، ومعاني حكاياتٍ اخترعتُها ، تُطرِّزُها الأقلام ، وتُرقِّم بها أرديَةُ الكلام ، وأنا استغني بقراءةِ القارىء أصنافَها ، عن أنْ أقَدّمَ أوصافَها . وهي بَنَاتُ مُؤلّفها ، وأسجاعُ مُصنّفها ، وليستْ كالأسجاعِ المنسُوبةِ لابن أبي الزّلازل[3] ، وهي بَنَاتُ شَتّى قَبائل ، لم يَزِدْ على أنْ بَتَرحكاياتها ، وطَمَسَ مَعَالِمَ آياتِها ، ليَصحّ له ما شَرَط في السجعِ من الأعدَاد ، فأضاع ما يُراد لصون ما لا يراد . وقد تَجمّلَ بغيرِ ثيابِه ، وأنفَقَ مِن غيرِ اكتسابِه ، وأنا أنشِدُ قولَ أبي النجم[4] :

---

١ ص : الدقيق .

٢ ص : وامتحنت .

٣ هو الحسين بن عبد الرحيم بن الوليد الكلابي أبو عبد الله (- ٣٥٤) كان كاتباً شاعراً وله مصنفات منها « أنواع الأسجاع » ابتدأ بتأليفه في دمشق سنة ٣٤٣ وروى فيه عن شيوخه وغيرهم (معجم الأدباء ١٠ : ١١٨ وتهذيب ابن عساكر ٤ : ٣٠٦) .

٤ هو أبو النجم العجلي الراجز واسمه الفضل بن قدامة (انظر ترجمته في الأغاني ١٠ : ١٥٧=

• أنا أبو النجم وشِعْري شِعْرِي •

وعلى أيّ حال كان مَجموعُنا هذا ، فَيشرّفُه شَرَفُ مَن له يُجْمَع ، وإلى يَدِه العليّةِ يُرفَع ، فمَسّته يُمْناه ، ولَحظَتْه عَيْناه . فلو كان صَمْصَامُ عمروٍ لِسواه ، ما انتهى مِنَ الذّكر مُنْتَهاه ؛ ولولا حاجِبُ ابنُ زُرَارة ما ذُكِرَتْ قَوْسُه ، ولولا حَبيب ما عُرِفَ أوْسُه ، وإنما عُرِفَ الطّورُ بالكَليم ، وشَرُفَ المَقامُ بإبراهيم .

ومِن كلامه في صَدْرِ كِتابِه المُترجمِ بـ « **أعلام الكلام** » فَصْل يَقولُ فيه : قد أطلتُ[1] الوقوفَ بالعُكوف ، على غيرِ ما تصنيف ، في شَتّى الأنواع ، فلم أرَها إلاّ ولَداً عن والدٍ ، وطارِفاً عن تالدٍ ، فلا تَكادُ تُريك غَريبةً ولا شَارِدَةً إلاّ مَنقولة : بـ « حدثني فلان ، وسمعتُ عن فلان » ، والمؤلّفون قُصاص بأقلامِهم ، وإن لم يَقصّوا بكلامهم ، وقد تَكرّرتْ تَواليفهم على الأبصار والاسماع ، والمُكرّرُ مَمْلول بالإجماع ، وللنّفسِ صَبابةٌ بالغَرائب ، وإن لم تَكنْ مِن الأطايب ، لانفرادِها عمّا سَئمَتْه القُلوب ، وتَجافَتْ به الجُنُوب ؛ إلاّ أن الابتداعَ والاختراع عليهما [باب ، بينه] وبين الاستطاعةِ حِجاب . وقد كنتُ حاولتُ منه ما لم أسبَقْ إليه ، ولم أجعَلْ سوى ناظري مُعيني عليه ، فَصنّفتُ الكتابَ المُلقّبَ بـ « أبكار الأفكار » ، يشتمل على مائةِ نَوْعٍ من مَواعظَ وأمثال ، وحكاياتٍ قِصارٍ وطِوال ، مما عَزوتُها إلى مَن لم يَحْكِها ، وأضفتُ نسجها إلى مَن لم يَحُكْها ، قد طُرّزْت

= والخزانة ١ : ٤٨ والشعر والشعراء : ٥٠٢ ومعجم المرزباني: ٣١٠ والسمط : ٣٢٧ ، وانظر هذا الشطر في الأغاني ٢١ : ٣٧١) .

١ ص : أطلب .

بِلُمَح الجدّ والهَزْل »، وحَسُنَتْ بمُقابَلة الضِّدِ للمِثْل ، ليس في ذلك كلّه [روايةٌ] روايتُها عن قديمٍ و لا جديد ، ولا حُدِّثْتُ بها عَن قَريبٍ ولا بعيد . وقد رَفعتُ إليه البِكْر ، ابنةَ الفِكْر ، في هودجِها الفَرِج ، وجِلبابِها الأرِج ، وأنت الكُفْؤ الكريم ، وأشرفُ مَن أهدِيَ إليه الحريم ، الذي لا يَشوبهُ التّحريم ،وعلى كَرَمك القَبُول ،وما أهدَاه الوُدُّ فمَقبُول .

فلمّا وصَلَ الكِتاب والخِطابُ إلى المُعتَضد لم يَجِد بُدّاً مِن إنفاذِ صِلَته إليه على البُعْد ، ورَاجَع ابنَ شرفٍ بِرُقْعَةٍ من إنشاءِ ابنِ عبد البرّ أيضاً ، قال فيها : ورَدَ كِتابُك الأثير ، فاقتَضبتَ مِن النثرِ البَديع ، والنّظْم الرَّفيع ، ما يَهُزُّ أعطافَ الضمائر ، ويَسْري في حَوَاشي الخَوَاطر ، وتَتلقّاه النّفوس تَلقّي ارتياحٍ إلى بدائِعه ، وفِتْنةٍ بمَبادِيه ومَقَاطِعه ، ولا غَرْو ، فإنّك عَلَمُ العِلْم الذي لم يزَل يَحوي قَصَبَ السَّبْقِ في مَيادِينه ، ويُهدي اليانعَ الغَضَّ مِن رياحينه . وقد كان لي نزاعٌ إليك ، وحِرْصٌ عليك ، وتَصوّرٌ للأنْسِ بك ، لولا مَن جَلا لك الغِشّ في بعضِ النصيحةِ إذ حَسَدَ ، ولم يَشُكَّ فيما تَرِدُ عليه مِن صَلاحِ الحالِ فلم يألُ أنْ أفسَد. ولا بدّ لعقارب الحَسَدَةِ من دَبيب « وما كلُّ مُؤتٍ نُصحه بِلَبيب »[1] ولك — مع تَوقّفك، وأني سَلكتْ بكَ مَقاصدُ تَصرُّفِكَ — لدَيَّ المحَلُّ الكريم ، فذِكْرُك في نَفسي الشاهِدُ المُقيم .

وتأدّى مِن قِبَلِ الوزيرِ الكاتبِ التأليفُ الرائق ، والتّصنيفُ الفائِق ، فأجلتُ نَظَري منه في سِحْرٍ إلاّ أنّه حَلال ، وفتّقتُ به ثَبَجَ بَحرٍ إلاّ

---

١ عجز بيت لأبي الأسود، ديوانه: ٣٣ (ط / ١٩٧٤ تحقيق آل ياسين) والعقد ٥ : ٤٤٤ (وانظر تخريجه في الديوان) وصدره : فما كل ذي لب (أو : نصح) بمؤتيك نصحه .

أنه زُلال . ورأيتُ كيف تَزْحَم في العِلْم بالمنكِبِ العَمَم ، وتأخذُ[1] مِن البلاغةِ في المَذْهَبِ الأمَم . فما شِئْتَ مِن مَثَلٍ سائر ،وبَيْت[80] نادِر ، وفِقَرٍ مَحذُوَّة[2] بأمثالِها ، ونُكْتَةٍ غَرِيبَةٍ مُضافَةٍ إلى أشكالها ، ممَّا اتصلَت به يَدُ الإحاطة بِصِحَّةِ البَراعَة ، وتَزيَّنتْ دِيباجَةُ الطبع بِرَقْمِ الصناعَة ، فهو مُؤنِسي ،وشُغْلُ مَجلِسي . وقد وَجَّهتُ إليك مع الوزير المُتقدِّمِ الذِّكْر ، ما أحِبُّ أنْ تَضَع عليه يَدَ السَّتْر ، مكانَ لسانِ الشُّكْر ، فإني أعلمَ أنه عَدَدٌ يَقصر عن قَدْرِك ، ويَقِلّ في جَنْب اللازمِ لك،وذلك مائة مِثقَالٍ من ضَرْب السِّكةِ قِبَلي . فتَفضَّل بقبولها ، والإعلامِ بوصُولها .

قال ابن بَسّام : ومع وصولِ هذه الصلةِ إلى ابن شَرَف ، لم يَزَل على مُلوكِ الطوائفِ يَومئذ يتَطوّف ويتَنَقل في الدُّولِ مِن مَنْزِلٍ إلى مَنْزِل ،ومن بَلَدٍ إلى بَلَد ، إلاَّ حضرةَ المُعْتَضِد، فإنه كان يُخاطِبُه ويُنْشِدُهُ :

أحبكَ في البَتُولِ وفي أبيها ولكني أحبكَ مِن بعيدِ[3]

وتوهم جملةً أنّ بوادي إشبيليَة تِمساحاً من تَماسيحِ النيل ، وجعل هِجيراه بيتَيْ أبي نواسٍ حيث يقول[4] :

---

١ ص : تزدحم . . . ويوخذ .

٢ ص : محدودة .

٣ قد مر تخريجه في هذا القسم ص : ١٥٦ .

٤ ديوان أبي نواس ٢ : ٩٩ (تحقيق فاجنر) .

أضمَرت للنيلِ هِجْراناً ومَقْلِيَةً ... إذْ قيلَ لي إنما التمسَاح بالنيل
فمَنْ رأى النيلَ رأى العينِ مِن كَثَبٍ ... فلا أرى النيلَ إلاَّ في البَواقيلِ[1]

وقد حُدِّثت أيضاً أنه خاطبَ المعتضد بهذه الأبيات[2] :

أأنْ تَصيدتَ غيري صَيْدَ طائرةٍ ... أوسَعتَها الحَبَّ حتى ضَمنها القَفَصُ
حَسبتَني فُرْصَةً أخرى ظَفرتَ بها ... هَيهاتَ ما كلَّ حينٍ تُمْكِنُ الفرص
وظَاهِرٌ حسَنٌ أيضاً لِقِصَّتِها ... لكنْ لها باطِنٌ في طَيِّهِ قِصَصُ
لكَ الموائدُ للقُصَّادِ مُتْرَعَةً ... تُروي وتُشبِعُ لكنْ بعدها غُصَص
ولستُ أُعجبُ مِن قَوْمٍ بها انتَشبوا ... لكنما عَجَبي مِن مَعشَرٍ خلَصُوا
ولم يَطِبْ قَطُّ لي مَنٌّ يَلَذُّ ولا ... سَلْوَى إذا كانَ في عُقباهُما مَغَص

قال هذا لتَواتُرِ الخَبَرِ عن المعتضدِ بازورَارِ رُكْنه ، وخُشونَةِ حَزْنه ، فأضربَ عن ضَرَبه ، ولم يتَعرضْ للنُشْبَةِ في حَبائلِ نَشَبه ، خوفاً أن يورِّطَه الهوَى في هَوَان ، ويَسقُطَ العَشاءُ به على سرحان[3] ، ويَطيحَ في جملة مَن طاحَ على يديه من الخُلَطاء والندمان[4] .

---

١ البواقيل : الجرار بلغة القبط ، واحدتها باقلة (الديوان) ؛ وفي شفاء الغليل « براقيل » – بالراء – ونقل عن الصولي أن البراقيل سفن صغار ؛ قال : وقال علم الهدى في الدرر (أمالي المرتضى ١ : ٥٩٦) انما هو جمع برقال وهو كوز من الزجاج وما ذكره الصولي وهم منه؛ قلت : وفي أمالي المرتضى : بواقيل – بالواو – ومفردها « بوقال » وتعريفه « آلة على هيئة الكوز معروفة تعمل من الزجاج وغيره » . وعلى هذا فان وروده بالراء المهملة في شفاء الغليل تصحيف . وعند دوزي « Cruche » وهي جرة ذات عروة ، واللفظة مأخوذة من الاغريقية « Baucalis » ؛ وانظر الشريشي ٢ : ٣٨٤ .
٢ ورد منها أربعة أبيات في المسالك ١١ : ٢٣٩ .
٣ قد مر هذا المثل كثيراً في الأقسام السابقة ، انظر مثلا ١ : ٤٩٠ ، ٣ : ١٢٥ .
٤ ص : والندماء .

فصول من نثره في أوصاف شتى

فصل: جَرَى بكَوْدَنِه إلى غاية تتباطأ عنها السوابق، وتتطأطأ عن سُموّها السوامِق، فلم يُحِطْ بوصفها[1] ابنُ صَفْوان، ولا سَحَبَ فيها لِسانَه[2] سَحْبان. وأين لسانُ باقِل، مِن سَحبانِ وائِل؟ فالفُصَحاءُ في العَجْزِ عنها مَعذُورون، فكيفَ المُعذّرون؟

فصل: كم حاولَ دَفْنَ الشمسِ في الرَّمْس، وردَّ الأمسِ بالخَمْس، ونَيْلَ النجمِ باللمس.

فصل: أوضحُ مِن جبال تِهامَة، لِعيني زَرْقاءِ اليَمَامَة. أشهرُ مِن النارِ على المنَار، والليلُ كالقَار. أبيَنُ مِن الكَعْبةِ للطائفين، ومِنَ المساجدِ للعاكفين. أشهرُ مِن الزّبرقانِ عند جَرْوَل، ومِن الأبْلَقِ الفَرْدِ عند السموأل. أظهرُ في العَيْنَيْنِ مِن الهَرَمين. أشهرُ في العَطاءِ من الطائي، وفي الأيادي مِن الإيادي. أشهرُ من الآسِ في الأعراس. أوضحُ مِن النجومِ لبطليموس، والطبّ لجالينوس، والعاجِ في الآبنوس.

فصل في ضدّه: هو أخفَى مِن نقطةِ الجيم، ومِن بياضِ الميم. أخفَى مِن الأسرار عند الاحرار. أخفَى من السهَى، ومِنديل الرُّها — الرُّها مدينة

---

[1] ص: بصفوها.

[2] ص: لسان.

بالشام وكان أهلُ الإنجيل يخفون هذا المنديلَ في كَنيستها ويَزعمون أنّه منديلُ عيسى ثم سُرِقَ واشتُرِيَ فعُدِمَتْ بَرَكتُه ـ . أخفى من نَفَسِ الجَبَان [إذا التقتْ][1] حَلْقَتا البِطان . أخفَى من بَيْضَتَي الخائِف ، وقد أحسّ بالطائِف . أخفى مِن تفسير شِعْر لَبيد ، على فَهْم البَلِيد : أخفَى من عُطارِد على المُطارِد . أخفى من السّوسَةِ في العُود ، ومِن السرّ في الرُّعود .

فصل : قِدْحُه [2] مُعلّى ، وسَيْفُه مُجلّى ، ورياضُه أرِجَة ، وحُلله مدبّجة ؛ وطِباعُه مُهذَّبة ، وخلائقُه مؤدَّبة ، وعُقَدُه مُوَرَّبة ، وأرضُه مُعشِبَة ، وألفاظُه رائِقةٌ مُعْجِبة . لا يَمَلّه جَليسُه ، ولا يَجفُوه أنيسُه . عَقْلُه أحنَفيّ ، وعِلْمُه سُرَيْجيّ ، وذكاؤه إياسيّ ، وأدبُه خليليّ .

فصل : يُقدّم الحَزْم ، ويُثنّي بالعَزْم . يُواكِبُ الكَواكب ، ويَتعقّبُ العَواقِب ، يُشاورُ ذَوِي الألباب ، على أنّ رأيه لُبَاب ، يَثِبُ وثُوبَ اللّيث ، ويَتدفّقُ دُفُوق [3] الغَيْث ، ويُراوِح [4] بينَ العَجَلِ والرّيْث : نَوْمُه غِرار واضطرار ، وحاجاتُه سِرارٌ ثم اقتدار . لا تُثبّطه الطُّلَلُ ولا الظّلال ، ولا تَطّبيه الكِلَلُ ولا يثنيه الكَلال . عَزمَاتُه شِهابيّة ، وإضباباته عُقابيّة . رأيُه قَبَسُه ، وعَزْمه فَرَسُه . بَصيرتُه بَصَرُه . وصَدْرُه وِردُه وصَدَرُه .

---

١ بياض في ص .

٢ ص : قد حمل .

٣ ص : ويتوقف وقوف .

٤ ص : ويراوث .

فصل : هَرِمُ الجود ، على العِلاَّتِ والوجود . كفّهُ غيث . لا يبالي من حَيث . مالهُ أكثرُ جودِه . على جُنودِه . أغنى جيشه [1] . لذّاته في الإكثار والإيثار . والأخذِ بالثار . يزيحُ الأغلال ، ويبلّغُ الآمال . يحدّثُ بمكارمهِ الرّكب ، ويُنسي بِفرطِ سَماحِه حاتمٌ وكعب .

فصل [٨١] : أسدٌ وحده ، ودَعْ جندَه . قَلبه يخرجُه عن القَلب ، وضرائبُه تقتادُه إلى مكانِ الطّعنِ والضّرب . يحملُ إذا مالوا ، ويثبتُ إذا جالوا . تارةً هو للمَيسرَة يمين ، وتارةً للمَيمنة كمين . وتارةً للقلبِ حِصنٌ حَصين ، تستأسدُ به الذؤبان ، ويَتشجعُ بقربه الجبان ، عيونُ عسكَره ، إلى مِغفرِه ، ثُعَلِي السّهام ، عَبسِيُّ الإقدام ، بسطامي المرباع ، عامِري الطّباع ، عِصاميُّ السيادة ، مُصعبي الجَلادة .

فصل : عادلٌ ولا مجادل ، مُنصفٌ منتصف . سُلطانُه رحمة ، وسِيرتُه نِعمة . يأخذُ الحقَّ ويُعطيه ، ويرمي الغَرضَ فلا يخُطيه . يُنصفُ المملوكَ من الملوكِ ، ويأخذُ للرئيسِ من الصّعلوك . مرفوعُ الحجاب ، منزوع رداء الإعجاب . يُقيمُ الحقَّ على شقيقه ، ويَحكمُ بالعدلِ لعدوّه على صَديقِه ، سواءٌ عنده البعيدُ والداني ، والقحطانيُّ والعدناني ، سِيّان عنده القُرشيُّ في الحقّ والعُكلي ، والعنسيُّ والسّلولي ؛ لا فرقَ عنده بين مُضرَ في الحقّ ، وحِمْيَر وسائر الخلق . الغُربةُ عنده قربة قَريبة ، ما لم تَصحبَها رِيبة . لا يغلو في الهاشميّة ، ولا يَعدو على الأمويّة ، ولا يَلتفتُ

[1] كذا وردت هذه العبارة ولعلها : ملك : أكثر جوده ، على جنوده ، أغنى جيشه [وملك عيشه] .

إلى الأهاجي الباهليّة . (سلول وعَنْس وعُكْل وباهِلَة ألأمُ قبائلِ العرب. وقيل إنّ سببَ ذلكَ أن الشعراءَ هَجَتها ولم يكُن لهم شُعراءُ يذبّون عنها فَلبسهم الذمُّ وأكلهم الهجاء .)

فصل : أمير يأمره حِلمُه فيُطيع ، ويحمّله ما لا يُستطاع فيستطيع : كم أعطي الظَفَرَ فغَفر ، وجرّعَ الصبرَ فصبر . له حِلمُ معاوية ، على الأعداءِ العادية . له ثَباتُ يَلَمْلَم ، وتحنّكُ الجذَعِ الأزلَم[1] . قلبُه قليبٌ واسع ، وغورُه بعيدٌ شاسع .

فصل : وزيرٌ يُنيمُ أميره ، مستوطناً سَريره . متحرّكٌ وهو قارّ ، ويُرى جالساً وهو مارّ ، كالنّجمِ يرى وهو ساكن . وقد تحرّكت به أماكن .

فصل : كاتب ، فَضلهُ راتب ، وحقّه واجب . أقلامُه رِماح ، ورسائله صفاح ، وألفاظه فِصاح ، وأخلاقه فِساح . إن قَرطسَ أصابَ ، وإن سئل أجاب ، وأصابَ عينَ الصّواب . لسانه لسانُ المُلك ، ومكانُه واسِطة السّلك .

فصل : قائدٌ عليه عبءُ التّعويل ، في أوّلِ الرّعيل ، إذا الصبرُ عيل ، لا يُباحُ ما حَمى ، ولا يُشوي إذا رمى . عَودٌ إذا زحف ، وطَودٌ إذا وَقف ، وسَيْلٌ إذا حَمل ، وكتيبةٌ إذا اعتزل . حُسامه إمام[2] ، يهدي في ظُلمةِ القَتام ، ويهتدي إلى مَسالكِ الحمام . لا تردَعه لامعَةُ السّيوف ، ولا تُفزِعه مُصارعةُ الحتوف . رِماحُه نجومُ ظلامِ القتام ، ونجومُه

---

١ ص : الالزم .

٢ ص : أمامه .

رُجومُ شياطين الأنام . لا تَرُد حاجات مواضيه . ولا تمطلُه عند تَقاضيه، المغافرُ المتينة ، ولا الدُّروعُ الموضُونة .

فصل : قاضٍ يشهدُ له عَدْلُه ، أنَّ غِلَّه سَريعٌ حلّه . يَقسمُ نظَرهُ بالقِسطاس ، بين جميع الناس . حَفِظَ رسالة عُمر ، وعَمِلَ فيها بما نهى وأمر . لا يَبيع القضايا بالهدايا . به عَشا ، عن الرُّشا . ينام الخصمان ، وهوَ يَقْظان . إنْ عَجِل فعن استِدْلال ، وإنْ عَجَز [1] فَلِتأمّلِ إشكال . سُريجيٌّ الإجابة ، عِمْرانيٌّ الإصابة .

فصل : زُهّادٌ تَركوا العَرَض ، وأصابوا الغَرَض . اقترحوا الغَنا ، واطّرحوا الغِنى . رفَضوا المُزايل ، وطلبوا الطايل ، وأعرضوا عما يَبيد ، وأقبَلوا على ما يُفيد [2] . لم يُزاحِموا على الجِيَف ، ولا استخدموا بُطونهم في تَعميرِ الكُنُف . تَركوا ذلك لِمَن تَركوا ، وقَنعوا بأقَلّ ما مَلكوا ، وجَعلوا الزّادَ إلى الجنّة ، الأنّةَ بعدَ الأنّة ، وظمأ الهَواجر ، في شَهْرٍ ناجِر . فَكّروا فبَكّروا . عَلِموا فَسَلِموا من العِقال ، وتَركوا الأعناق [3] لحَمْلِ الأثقال . رَجَوا فَنَجَوْا ، وبَنَوْا فعَلَوْا ، ومهّدوا فَرقَدوا ، وعَمِلُوا فَوَجَدوا .

وذكرتُ بهذا الفصل حديثَ أبي هريرةَ قال . قال لي رسولُ اللهِ عليهِ السلام [4] : « يا أبا هُرَيرة ألا أريك الدُّنيا جَمْعاءَ بما فيها ؟ قُلتُ: بلى

---

١ ص : ان عجز . . . وان عجل .

٢ ص : يعيد .

٣ ص : اعناق .

٤ الشريشي ٥ : ١٦ .

يا رسولَ الله . فأخذَ بيدي ، وأتى وادياً مِن أوديةِ المدينة ، فإذا مَزْبَلةٌ فيها رؤوسٌ وعَذِراتٌ في خِرَقٍ وعِظام ، ثم قال : يا أبا هُرَيرة ، هذهِ الرؤوس كانتْ تَحرِص كحِرصِكُم ، وتَأمُلُ آمالَكم ، ثمَّ هي اليومَ عِظامٌ بلا جِلْد ، ثم هي صائِرةٌ رَماداً . وهذه العَذِراتُ ألوانُ أطعمتهم اكتَسبوها مِن حيثُ اكتسَبوها ، ثم قَذفوها مِن بطونهم ، فأضحَتْ والناسُ يتَحامَوْنها . وهذهِ الخِرَقُ الباليَةُ كانت رِياشَهم ولِباسَهم ، أصبحَتْ والرّياحُ تُصفّقها . وهذه العِظامُ عِظامُ دَوابّهم التي كانوا يَنتجعون عليها أطرافَ البِلاد . فمَنْ كانَ باكياً على الدنيا فليَبْكِ » . قال : فما بَرِحنا حتى اشتدَّ بُكاؤنا .

ووقَفَ سُقراط على كَسّاحٍ وقد خَرَج من الحُشّ بكُساحةٍ[1] فقال : يا أهلَ أثينيا ، هذا الذي كنتم تُغلِقون عليه الأبواب ، وتُقيمونَ لِحِفْظِهِ الخُزّان ، وكانَتْ شَهَواتُكم تَستَخدِمُ عُقولَكم في إعدادِه ؛ واليومَ نُفوسُكم آنِفَةٌ منه [٨٢] وطِباعُكم نافِرةٌ عنه .

فصول له في الذم ونقض ما تقدم

فصل : فُلان غَوْرُه أقرب قَريب ، وقَلْبُه مَوْرُودُ القليب ؛ فسرائرُهُ مَكشُوفَة ، ودَخيلَتُه مَعروفَة ، كِتمانُه إخبار ، وتَدْبيرُه إدبار ، رأيُه وَرَاء ، وساحتُه عراء : حِسّه هامد ، وفَهْمُه جامد : لا يَعرِفُ

---

[1] ص : بكساد .

الرُّشْدَ منَ الغَيّ ، ولا يُفرّقُ بينَ التّقبيل والكَيّ . طَلَلٌ بال ، لا يَخطُر على بال . الشمسُ عنده سُهى ؛ والحُمْقُ نُهى . لا يَعْلَمُ راسُه ، من أين أنفاسُه ؛ ولا يَدري دِماغُه ، أين أصداغُه .

فصل : همّهُ جَوازُ يَوْمِه ، وحَلاوَةُ نَوْمِه . أعلى هِمّتِه ، إرجالُ جُمّتِه ، واعتدالُ عِمّتِه ؛ وأسرُّ سروره ، تناهي قُدوره[1] ، وتَرويقُ خُموره . أعداؤه سِمانٌ ، في أمان ؛ وأولياؤه في هُزال ، وانتظارِ النّكال . حَسَنُ الظنّ بالزّمان ، وضُروبِ الحَدَثان . رائحُ القَرائح ، ساكِنُ الجَوارح ، مَسْرورٌ مَغْرور ، ثاني العِطْفِ عن الناصِح ، مُتَعامٍ عن الأمرِ الواضِح . مُستغنٍ بعَبْدِه ، عن جُنْدِه . مُتشاغِلٌ بالأنياب الطاحِنَةِ في فَمِه ، عن الأنيابِ الوالِغةِ في دَمِه . يَنامُ عن مُسْهِرات الأنام ، وعن جَبّ الغارِبِ والسّنام . فِكْرَتُه ساهِيَة ، وخَواطِرُه لاهِيَة ، وقواعِدُه واهِيَة ، حتى تَبْغَتَه الدّاهِيَة .

فصل : يَجود الجلمود ، ولا يَجود ، ويَعودُ إلى إثماره يابسُ العود ، وهو لا يُبدي ولا يُعيد . كيسُه مُغْلق[2] ، وبنانُه مُطبَق ، ودارُه سَمْلَق ، وجَيْشُه مُمْلِق ، وميزانُه حَبيسٌ لا يُطْلَق . كِفّتاه[3] ككفّيْه لا تُذيبُهما[4] النار ، ولا يَعرفانِ الدّرْهم ولا الدّينار . وأكياسُه كالنّقَد ، قد خَنَقَتْها العُقَد . يَدُه حافِرٌ وقَاح ، وقُفْلُه ليس له مِفْتاح . تَمر

---

١ ص : قذوره .

٢ ص : معلق .

٣ ص : كفتيه .

٤ ص : تذيبها .

الأيّام . ولا يُشَمُّ له طَعام . لو مَلَكَ طوفانَ نوح ، لم يَسْمَحْ منه بشَرْبةٍ لظمآنَ مَجْروح .

فصل : هوَ يومَ المُطاعَنَة ، ولَدُ الملاعنَة . لا حَسَبَ يُقاتِلُ عنه ، ولا نَسَب يَستحيي منه . يراعةٌ تَرْعَد ، وتقوم وتَقْعُد . إذا الحَرْبُ دَعَتْ أبطالها ، وزُلزلَتْ الأحشاءُ زلزالها ، نَخَبَ ما بينَ جَنبَيْه ، وغاب السوادُ[1] مِن عَيْنَيْه . مَهزمةٌ لجنُودِه ، ومَهدَّةٌ لعُدّتِه وعَديده. يوسعُ أعذارَ الفِرار ، ولا يَرى على الجُبَناء مِن عار . بَيْناهُ في أوّلِ الرَّعيلِ ضاربٌ[2] ، إذا به وَراء الساقَةِ هارِب . يَزحَفُ عند الزَّحْف ، إلى خَلْف ، ويَروعُه الواحِدُ وهو في ألف . لو كان سُورَ مدينةٍ لَسار ، ولو رُبِط إليه الطَّورُ لطار . إنَّ هذا في الحربِ من بَني العَنْبر ، وأدْهَشُ من مُستَطْعِمِ الماء على المِنبَر . إذا ثارَ القَتام ، سَقَط من كفّه الحسام .

وخَبَرُ بَني العَنْبر ، أشهرُ مِن أنْ يُذكر ، وقُرَيْطٌ منهم ، ولمّا استَنْجَدَهم فلم يُنْجِدوه قال[3] :

لكنَّ قَوْمي وإنْ كانوا ذوي عَدَد	لَيْسوا مِنَ الشَّرّ في شيءٍ وإنْ هانا
يجزونَ مِنْ ظُلْمِ أهلِ الظّلمِ مغفرة	ومِن إساءةِ أهلِ السوءِ إحسانا
كأنَّ رَبّكَ لم يَخلُقْ لِخَشْيَتِه	سِواهُمُ مِنْ جميعِ الناسِ إنسانا

ومُستطعِمُ الماء على المِنبر خالدٌ القَسْريُّ عامِلُ هِشامِ بنِ عبد

---

1 ص : السودان .

2 ص : يضرب .

3 هو قريط بن أنيف ، وقصيدته هي الأولى في ديوان الحماسة .

الملك على العراق . دَهِشَ يومَ الجُمعةِ في حَرْبِ الخوارج وهو على المنبرِ ، فقال : أطعِموني ماءً[1] ! فقيلَ فيه :

هتَفْتَ بكلَّ صَوْتِكَ أطْعِموني شَراباً ثمَّ بُلْتَ على السَّريرِ

فصل : أضرُّها على الأنام ، على قديمِ الأيّام ، العَصَبيّةُ في الجاهليّة والإسلام . فما لهذا السّلطان ، وخَرابِ الأوطان ؟ والعَصَبيّةُ تُفسِدُ بين الأولياء ، وتَكثُر في الأدعياء . وأبو نُواس كان أشَدَّهم فيها قَوْلاً ، وهو قِنٌ مَوْلى ، تَعَصَّبَ لليمنِ على مُضَر لكَوْنِ سَعْدِ العَشيرةِ مِنَ اليمن وهُمْ مِن مَواليهِ ، فهَجا قبائلَ مُضَر ، وغَضَّ مِنْ قُرَيْش ، هذا وهو مَوْلىً مُلْصَق ، وليسَتْ سَعْدُ العَشيرةِ له بعَشيرة ، بل لها منه الجريرة .

سُلْطانٌ يَشْتَري بدينِهِ ودَمِه ، رِضى ابنِ عَمّه . خاسِرُ التَّجْر ، مَحْرومُ الأجر ، لا يُساوي بين أهلِ القِبْلَة وهم سَواء ، ولا يَتكافأ عنده المُسلمونَ وهم عند [الله][2] أكفاء . وجِبلّةُ التّفاوتِ أفاتَتْ جِبلّةَ الرُّشْد ، وحميّتُه أحْمَتْ عليه دارَ الخُلْد . تَعَصُّبٌ جاشَتْ له صدورُ الجيش ، وتَكَدَّرَ بهِ صَفاءُ العَيْش . وللمُساعَدَةِ في العَصَبيةِ طارَتْ الرُّؤوسُ والسّواعِد ، وتهدّمَتْ الذُّرى والقَواعِد ، وحالفَتْ رَبيعةُ الأباعِد .

فصل : قد يَتَسَمّى بوزير ، مَنْ شَغَلُه البَمُّ والزّير . يُعْجِبُه اللّهو ،

---

١ الأغاني ٢٢ : ٢٠ .

٢ ص : وهم عنده .

ويَغلِبُه السَّهو . دمارُ مَنْ [أوى] إليه ، وبَوارُ مَن عَوَّلَ عليه . إن دبَّرَ أدْبَر ، وإنْ تركَ هَلَكَ . خِدْنُ لَواعِب ، وزيرُ كواعِب . لَيْلُه ناعِس ، ونهارُه بالِس . لم يَعْلَقْ به مِنَ الوَزارة، إلاَّ[1] حُسْنُ الشَّارة ، وركوبُ الهماليجِ[2] المِسيارَة ، وشِدَّةُ الإعجابِ ، والدخول على سُلطانِه بلا حجاب ، والأكلُ بملءِ فيه ، هذا جميعُ ما فيه ، حتى إذا طرَقَت السَّرايا [٨٣] وسيقَت السَّبايا ، ونَفَرَ النَّافر ، وضجَّ البادي والحاضِر ، ونَزَعَ ثقات[3] الأجناد ، فتفرَّقوا في البلاد ، فُزِعَ إلى الوزير ، في وَجْهِ التَّدبير ، فكان جَوابُه دُموعَه ، وصَوابُه هُلُوعَه ، فحينئذٍ دارَت الدَّائرة ، واضطرَمَت النائرة ، وانصَرَمَت الدُّول ، وتَبَدَّلَت الحلَل .

فصل : كاتبٌ ما عرَفَ قَطّ ، كيف البَرْيَةُ والقَطّ ، ولا نَسَخَ قطُّ سَطْرا ، إلاَّ مَسَخَ منه شَطْرا . ألفاظُه مَلْحونة ، ومَعانيه مَلقونَة ، ومقاصِدُه خَفيَّةٌ مكنونة ، وحروفُه مَطمونة[4] . إنْ تَهَجَّى هَجا ، وإنْ تَكَلَّمَ شَجَّ وشَجى . ألِفاتُه سُجُود ، ولاماتُه رقود ، وميماتُه عُقَدٌ لا عُقود ، وقافاتُه واوات ، ونوناتُه راءات . يَرْفعُ بالنَّواصِب ، ويُكثِرُ [من] النَّقَط الكواذِب ، ويُعمي عَيْنَ المعنى الجَلِيّ ، ويُخاطبُ العدُوَّ مُخاطبَةَ الوَلِيّ . وتُقِرُّ كُتُبُه بما فيها مِنَ الفَساد ، بأنَّه قُرَّةُ عُيونِ الأعداء والحُسَّاد .

---

١ ص : إلى .

٢ ص : المهاليج .

٣ ص : ثقاب .

٤ كذا ولعل صوابها : « مضمونة » أي مصابة بالضمانة ؛ أو مطبونة أي مدفونة .

فصل : ولايتُهُ القضاء ، مِنْ سُوءِ القضاء . جائرٌ حائر : إن جارَ فَعَنْ تَعَمُّد ، وإن حار[1] فعَنْ قِلّةِ تَعَهّد . لَيْلُه مُنْتَشٍ ، ونهارُه مُرْتَشٍ . تُعْجِبُه العَيْنُ في النّقاب ، ولا يُفكّر في العِقاب . إذا رأى الأمْرَدَ تَمَرَّدَ على خَصْمِه ، ومال عليه بِحُكْمِه ، يُزْري باختيارِ سُلطانِه ، ويَستَخِف بفُقهاءِ زمانِه . يَجورُ في نَظَرِه المَقْسوم ، ويَبصُق في وجهِ الخُصوم ، ويَرْكُلُهم برِجلِه ، ويَلْطِمُهم بنَعْلِه .

فصل : إخوانٌ أخْوَنُ مِن السّراب للعَيْن ، ومِنْ أهْلِ الكُوفَةِ للحُسَيْن ، وأشَدُّ مِن طالبِ دَيْن ، على صِفْرِ اليَدَيْن : ليس فيهم نفْع ولا دَفْع ، إن استَنصَرْتَهم خَذلوك ، وإن سُئِلوا إسلامَكَ بَذلوك .

فصل : تَبَسَّمْ للعَدوّ العابِس ، ولِنْ لِتَخلّق اليابِس . عامِلْ ظالِمَكَ بالصّبر ، واجعلْ صَدْرَكَ له كالقَبر ، لا يدري ما فيه رَحْمَةٌ أمْ نِقمَة ، وبلاءٌ أم نِعمَة ، حتى تُمكّنَكَ الوَثبَةُ عليه ، فتَتُلّه لجبينِه ويَدَيْه .

ومن ترسيله

فصل له من رقعة خاطب بها المظفر بن الأفطس : كتبتُ وشوقي إلى شَرَفِ لُقياه ، وشِيمِ سُقياه ، شوقُ القارظيْن[2] إلى سكون

---

[1] ص : خان .

[2] القارظان كلاهما من عنزة – في رأي ابن الكلبي – فالأكبر منهما يذكر بن عنزة والأصغر رهم بن عامر بن عنزة ، كل منهما خرج يطلب القرظ ولم يعد ، وفيهما يضرب المثل « حتى يؤوب القارظان » قال أبو ذؤيب الهذلي :

وحتى يؤوب القارظان كلاهما ... وينشر في الموتى كليب لوائل

وسكنى ، والقَيْسَيْن إلى لَيْلى ولُبنى ، واعتلاقي بذِكْرِه اعتلاقُ مالكٍ بعَقيل[1] ، وقِفا نَبْكِ بالمَلِكِ الضَّليل ، وبلالٌ بِشامةَ وطَفيل[2] ، واللهُ ببُلوغِ الأملِ خَيْرُ كَفيل . وحالُ وَليِّه بالناحيةِ التي استقذرتُها حالُ مَن ذَهبتْ منه اللَّذاذةُ والفَتاء ، والشيخ يَهدمُه الشِّتاء[3] . وقد رأيتُ طُوفان قُرطبةَ يُقيمُ دَهْرا ، وإنما أقام طُوفانُ نوحٍ شهرا . وأمّا صيفها فكما قال :

لم أستَتِمَّ عِناقَه لقدومِهِ حتّى ابتدأتُ عناقَه لِوَداعِهِ

وله من أخرى :

لي رَغْبَةٌ إلى مفاخِرِه ، وتَطارُحٌ بينَ يَدَيْ مآثِرِه ، وإدلالٌ على سَماحَةِ سَجاياه ، وتَحامُلٌ على احتمالِ عُلياه . وذلك أنَّ شيخاً يَفناً قَصَدَ فِنائي[4] ، فبكى حتّى بَلَّ بفضلِ دُموعِه رِدائي ، ومَنَعَه الشَّوق بشَجاه ، مِنَ الكلامِ على ما ارتجاه . ثُمَّ ذَكَرَ أنّه كاسِبُ نُسَيّات ، وأبو بنينَ وبنيّات ، فنسَبْتُهُ فقال : أنا أبو جَعْدَةَ نَهْشَل ، وذَكَرَ

---

١ مالك وعقيل نديما جذيمة ، وفيهما يقول أبو خراش :

ألم تعلمي أن قد تفرق قبلنا خليلا صفاء مالك وعقيل

٢ عندما هاجر المسلمون إلى المدينة كان بلال يحن إلى معاهد مكة فاذا أخذته الحمى تغنى :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفج وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

وشامة وطفيل : جبلان (معجم البكري مادة : هرشى) .

٣ عجز بيت من الشعر وصدره : إذا جاء الشتاء فزملوني فان الشيخ . . .

٤ ص : قبائي .

مولانا المظفّر فوصف خيراً كثيراً هو أكثر منه ، ودعا بخيرٍ أجابهُ اللهُ عنه ، ووصَفَ أن بغاةً بغوهُ ، وحسدةً آذوه ، وتنصّلَ من ذنوبٍ قرفوه بها ، ومولاي أعلم بصدقها من كذبها . ولم يُظهر حرصاً إلاّ في الميتةِ الأهليّة والتّربة الوطنية . فبكى – علم الله – مع باك ، وشكا مني إلى شاكٍ ، وذو الشّكوى يرحمُ الشّكوى ، لعلمهِ بمرارَة البلوى . ولا شكّ أنه سيبلغهُ تفضلُ المظفّر بالالتفاتِ إلى ذكري ، والعنايةِ ببعضِ أمري ؛ فلا يظنّ أنّ ذلك باستحقاقي ، وإن رقّاني من الشّرفِ هذه المراقي ، ومن يَسمعْ يخلْ[1] ، وما كلّ ذي سلاحٍ بطَل . وقد تلطّفتُ له بإذن اللهِ في القولِ ، وبرئتُ إليه تعالى من القوَّة والحولِ ، ووقَفته على رأي المظفّرِ الموفّق ، وحكمهِ العدلِ المحقّق . وبودّي لو تكفلتُ[2] بآماله ، وجمعت بينهُ وبين أطفاله ، فهو في قعدد[3] لُبَد ، وهامة اليومِ أو الغَد ؛ إلاّ أني – أيّده الله – لا أوثر مرادي على مُراده ، ولا أشاركه في العلمِ بأهلِ بلادهِ ، إلاّ أنْ يتفضَّلَ بالأحسنِ الأجملِ ، عليّ وعلى أبي جعدَة نهشَل ، فيعودَ – أيده الله – بفضيلة الإيثار ، ويُكسبني في الناسِ أطيبَ الأخبار والآثار . ولقد هَجمتُ في العناية بما لا أعلمُ ثقةً بما أعلم ، وهو المتطوّل إن شَفَع ، والمعذورُ إن دَفع . والجوابُ على هذه السّطور المحتويةِ على هذه الأمور ، بالأقوال والأفعال ، مِن كمالِ الإحسانِ والإفضال .

---

١ معناه أن من يسمع الشيء ربما ظن صحته ، انظر جمهرة العسكري ٢ : ٢٦٣ (أبو الفضل) واللسان (خيل) وفصل المقال : ٤١٢ والميداني ٢ : ١٦٩ .

٢ ص : تكلفت .

٣ ص : عقدد ؛ والقعدد : القريب النسب من الجد الأكبر ، يريد أنه يكاد يكون من لدات لبد وهو آخر نسور لقمان .

فأجابه المظفر برقعة من إنشاء الوزير أبي مروان بن قزمان ، قال فيها :

ورد كتابك المبتدأ خطابه من الشعر بما هو السحر الحلال ، والمصدر من القريض بما شهد لك بالجلال . لو قصد الطائيان قصده لأجبلا ، أو حذا الحمادان حذوه لأدبرا فيه وما أقبلا . لم تدع فيه فناً من الحكمة إلا أهديته [٨٤] ولا معنى لطيفاً إلا أبديته ، ولا نوعاً من الأدب إلا جلبته ، ولا غريباً من المثل إلا ضربته : فلله بلاد غذاك هواؤها ، ورؤساء تطابقت عليك أهواؤها . لقد بان فضلهم على أهل الزمان ، كما ظهر تبريزك في هذا الميدان . ومن انتحل الأبيات ، فبمثل شعرك فليات ، وهيهات ، ما أبعد الأرض من السموات[1] !

ورأيتك قد شفعت القريض بشفاعة ، وقرنته برغبة أعطتك مقاليد البلاغة والبراعة . وأسعفتك في الشيخ اليفن ، والأشيب البدن ، نهشل . فليسرع بالإقبال إلى بلده ، وليلحق بأهله وولده ، وليأت إليهم ذألانا[2] ، وليشكرنا سراً وإعلانا . والله المان بك برده إلى وطنه وأهليه[3] . يبلغك ما ترتجيه ، ويعيد حالك إلى عهدها ، والجمع بينك وبين الطبقة التي كنت واسطة عقدها .

ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه[3] ، وصب فيها على قالبه ، منها مقامة فيها بعض طول ، لكنه غير مملول ، آخذة بطرف

---

١ ص : السماء .

٢ الذألان : العدو المقارب أو السرعة .

٣ ص : وأهله .

٤ ص : باله .

مُستطْرَفٍ من أخبارِ الأدباء ، وذكرِ الشِّعر والشُّعراء ، قال[1] :

جاريتُ أبا الريّان في ذكرِ أهل النّظام ، ومَنازلهم في الجاهليّة والإسلام ، فقال[2] : عدد الشّعراء أكثر من الإحصاء ، وأشعارُهم أبعدُ من شقّة الاستقصاء. قلت : لا أعنيتك بأكثر من المشهورينَ مثل الضلّيل والقتيلِ ، ولبيدٍ وعَبيد ، والنّوابغ والعُشي ، والأسودِ بن يَعفر[3] ومن سواه من العُمي[4] ، وابن الصِّمّة دُريد ، والرّاعي عُبيد ، وزيدِ الخيل ، وعامرِ بن الطّفيل ، والفرزدقِ وجرير ، وجَميلٍ وكثير ، وابن جَندل وابن مُقبل ، وجَروَلٍ والأخطَل ، وحسّان في أهاجيه[5] ومِدَحه ، وغَيلانَ في ميّته وصَيدحه ، والهذليّ أبي ذؤيب ، وسُحيمٍ ونُصيب ، وابن حِلزة الوائلي ، وابنِ الرّقاعِ العامِلي ، وعنترةَ العبسي ، وزهيرِ المزّي ، وشُعراءِ فزارَة ، ومُفلقي بني زُرارة ، وشعراءِ تَغلبَ ويثرب ، وأمثالِ هذا النّمط الأوسَط ، كالرّمّاح والطّرمّاح ، والطّثريّ والدُّمَيني ، والكُميت الأسدي[6] ، وصريعِ الأنصاريّ ، ودِعبلِ الخزاعي ، وابن الجهم القُرشي ، وحبيب الطائي ،

---

١ قد أشرت إلى أنها نشرت بعنوانين مختلفين ، وهي في حقيقتها رسائل الانتقاد (أو جزء منها) وسأعارضها بالنص الموجود في رسائل البلغاء ؛ (ورمزها : ل) ويبدو أن ابن بسام يوجز في النقل .

٢ ل : وجاريت أبا الريان في الشعر والشعراء ومنازلهم في جاهليتهم واسلامهم واستكشفته عن مذهبه فيهم ، ومذهب طبقته في قديمهم وحديثهم فقال . . . الخ .

٣ ص : يعفور .

٤ ل : والاسود بن يعفر وصخر الغي .

٥ ل : هجائه .

٦ زاد في ل : وحميد الهلالي وبشار العقيلي وابن أبي حفصة الأموي ووالبة الأسدي وابن جبلة الحملي وأبي نواس الحكمي .

والوليد البُحتريّ ، وابنِ المعتزّ العبّاسيّ ، وأبي نواس وابن الرّوميّ [1].

ومن الطّبقةِ المتأخرة في الزمان ، المتقدّمةِ في الإحسان . كأبي فراس ابن حمْدان ، والمتنبي بنِ عبْدان[2]، وابن جدار [3] المصري ، وابن الأحنفِ الحنفيّ ، وكُشاجم الفارسيّ ، والصنوبريّ الحلبيّ ، ونصْر الخبزَرُزيّ ، وابن عبدِ ربّه القُرطبي . وابن هانىء الأندلسيّ ، وعليّ بن العباس الإياديّ التونسيّ ، والقسطليّ .

قال أبو الرّيان : لقد سمّيت المشاهير . وأبقيتَ الكثير ، قالت : بلى ولكن ما عندك فيمن ذكرتُ ؟

قال : الضّلّيلُ مؤسّس الأساس . وبُنيانه عليه الناس . كانوا يقولون « أسيلة الخدّ » حتى قال « أسيلة مجرى الدّمع » . وكانوا يقولون : « تامّة القامةِ وطويلةُ القامة . وجيداء . وتامّة العنق » . حتى قال « بعيدة مهوى القُرط » . وكانوا يقولون في الفرس السابق « يلحقُ الغزال والظّليم » وشبهه . حتى قال « قيد الأوابدِ » . ولم يكُن قبله من فطِن لهذه الإشارات والاستعارات غيره فامتثلوه بعده . وكانت الأشعار قبلُ سواذج ، فبقيتْ هذه جدداً وتلك نواهج ؛ وكلُّ شعرٍ بعدُ ما خلاها فغيرُ رائقِ النّسج ، وان كان مُستقيمَ النّهج .

وأمّا طرفة فلو طالَ عمرُه ، لطال شِعره ، وعلا ذِكره . ولقد خُصّ

---

١ زاد في ل : وابن رغبان الحمصي .

٢ ص : عبدان .

٣ ص : حدار .

بأوفرِ نصيبٍ من الشِّعرِ . على أيسرِ نصيبٍ من العُمر . فملأ أرجاءَ ذلك النصيب بصنوفٍ من الحكمة . وأوصافٍ من علوّ الهمّة . والطّبعُ معلّمٌ صادق . وجوادٌ سابق .

وأمّا الشيخ أبو عَقيل فشعره ينطقُ بلسانِ الجزالة . عن جَنانِ الأصالة . فلا تَسمع له إلاّ كلاماً فصيحاً . ومعنى مبيناً صريحاً ؛ وإن كان الشّيخُ والوقار . والشّرفُ والفَخار . لهاديات في شِعره . وهي دلائلُه ، قَبلَ أن يُعلمَ قائلُه .

وأمّا العبسي فَمُجيدٌ في أشعاره . ولا كمعلّقته . فقد انفرد بها انفراد سُهيل . وغبّر في وجوه الخيل . وجَمَعَ فيها بين الحلاوَة والجزالة ، ورقّة الغَزل وغِلظَة البسالة . وأطال واستطال . وأمن السآمة والكلال .

وأمّا زُهير : فأيّ زُهرٍ بين لهواتِ زُهيرٍ . حِكَم فارس . ومَقامات الفوارس . ومَواعظُ الزُّهاد . ومُعتبراتُ العُبّاد . ومِدَحٌ تَكسبُ الفخار ، وتبقى بقاءَ الأعصار . ومُعاتباتٌ مرّةً تَحسُن . ومرّةً تَخشُن . وتارةً تكونُ هجواً . وطوراً تكادُ تَعودُ شكوى .

وأمّا ابنُ حلّزة : فسهلٌ الحزون . قام خطيباً بالموزون . والعادةُ أن يُسهّلَ شَرحُ الشّعرِ بالنّثرِ . وهذا سهّلَ السّهل بالوعر . وذلك مثل قوله :

أبرمُوا أمرهُم عشاءً فلمّا ... أصبحوا أصبحَتْ لهم ضوضاءُ

مِن منادٍ ومِن مُجيبٍ ومِن تصـ ... ـهالِ خيلٍ خلالَ ذاك رغاء

فلو اجتمع [٨٥] كلُّ خطيبٍ ناثر ، مِن أوّل وآخر . يصفون سَفَراً نهضوا

بالأسحار ، وعسكراً تنادى بالنّهوض إلى طلبِ الثار ، ما زادوا على هذا إن لم يـَنقصُوا منه ، ولم يُقصّروا عنه . وسائر قصيدته في هذا السّلك : شكايةٌ وطِلابُ نصفة ، وعِتابٌ في عزّةٍ وأنفة ، وهو مِن شعراء وائل ، وأحدُ أسنّة هاتيك القبائل .

وأمّا ابن كلثوم : فصاحِب واحِدة ، فلا زائدة [1] ، أنطَقَه بها عزُّ الظّفر ، وهزّه [2] فيها جن الأشر ، قَعـقعتْ رعوده في أرجائها ، وجَعجَعتْ رحاه في أثنائِها ، وجَعلتها تَغلِبُ قِبلتَها التي تُصلي إليها ، ومِلّتها التي تعتمدُ عليها ، فلم يتركوا إعادتها ، ولا خلعوا عبادتها ، إلاّ بعد قولِ القائل :

ألهى بني تغلب عن كلّ مَكرُمةٍ قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ

على أنها من القصائد المحققات ، وإحدى المعلّقات .

وأمّا النابغةُ زياد : فأشعاره الجياد لم تخرُج عن نارِ جوانحه حتى تناهى نُضجها ، ولا قُطعت من مِنوالِ خواطرِه حتى تكاثفَ نسجُها ، لم تُهَلهِلها مَيعةُ الشّباب ، ولا وهي الأسباب ، ولا لؤم الاكتساب ، فَشِعره وسائط سُلوك ، وتيجانُ ملوكٍ .

وأمّا النابغَة الجعدي : فَمُنتَقيُّ الكلام ، شاعر الجاهليّةِ والإسلام ، واستحسنَ شعره أفصحُ الناطقين ، ودعا له أصدقُ الصادقين ؛ وكان شاعراً

---

[1] ل : بلا زيادة .

[2] ص : وهذه .

في الافتخارِ والثّناء ، قصير الباع لشرفه عن تناولِ الهجاء . وكان مغلوباً فيه في الجاهليّة ، وطَريد ليلى الأخْيليّة .

وأمّا العُشي بأجمعهم : فكلّهم شاعرٌ ، ولا كميمونِ بن قيس ، شاعرِ المدحِ والهجاء ، والبأس والرَّخاء ، والتصرُّفِ في الفنون ، والسّعي في السّهول والحزون . نَفّقَ مدحُه بناتِ المحلّق ، وكان في فقرِ[1] ابنِ المذَلّق[2] ، وأبكى هَجوه علقمة[3] ، كما تَبكي الأمَة .

وأمّا الأسودُ بن يَعفر : فأشعرُ الناسِ إذا ندبَ دولةً زالت ، أو بكى حالةً حالَت ، أو وصفَ ربعاً خلا بعد عُمرانٍ ، أو داراً درَستْ بعدَ سكّان ، فإذا سلَك [غيرَ] هذه السّبيل ، فهو من حَشوِ هذا القبيل ، كعمرٍو وزَيدٍ ، وسعدٍ وسُعَيد[4] .

وأمّا حسّان ، فقد اجتثَّ بواكرَ غسّان ، ثم جاء الإسلام ، وانكشف الإظلام ، فجاحشَ عن الدّين ، وناضَل عن خاتَم النبيّين ، فشَعر وزاد ، وحسّن وأجاد ، إلاّ أن الفَضلَ في ذلك لربِّ العالمين ، وتسديدِ الروحِ الأمين.

وأمّا دُريد بن الصمّة : فصمّةُ صِمّم ، وشاعِرُ جُشَم ، وغَزِلٌ

---

١ ص : فقراء .

٢ ابن المذلق من عبد شمس، يضرب به المثل في الفقر والافلاس (الميداني ٢ : ٢٠ وجمهرة العسكري ٢ : ١٠٧ /أبو الفضل) .

٣ يعني علقمة بن علاثة ، وقد أبكاه قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم   وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

٤ ص ، وسعيد وسعد .

هَرِم [1] . وأوّلُ من تغزّلَ في رثاء ، وهَزل في حزنٍ وبكاء ، فقال في مَعبدٍ أخيه ، قصيدتَه المشهورة يرثيه :

• أرثَّ جديدُ الحبلِ من أمّ مَعبدِ •

وهي من شاجيات النّوائح ، وباقيات المدائح .

وأمّا الراعي عُبيد : فَجُبِلَ على وصفِ الإبل ، فصار بالراعي يُعرف ، ونُسيَ ما له من الشّرف .

وأمّا زيد ُالخيل : فَخَطيب سجاعة ، وفارِس شجاعة ، مشغولٌ بذلك ، عما سواهُ من المسالك .

وأمّا عامرُ بنُ الطفيل : فشاعرهُم في الفَخار ، وفي حمايةِ الجار ، وأوصفهم لكريمة ، وأنعتهُم لحميدِ شيمة .

وأمّا ابنُ مُقبل [2] : فَقَديمٌ شِعرُه ، وصَليبٌ نجرُه ، ومُغَلّى مَدْحُه ، ومُعلّى قِدحُه .

وأمّا جَرولٌ : فخبيثٌ هجاؤهُ ، شَريفٌ ثناؤه ، صحيح بناؤه ، رفَعَ شعرهُ من الثّرى ، وحطَّ من الثّريّا ، وأعادَ بلَطافَةِ فكرِه ، ومتانَة شعرِه ، قَبيحَ الألقابِ ، فَخراً يبقى على الأحقاب ، ويُتوارثُ في الأعقاب .

---

[1] ص : وعزل ؛ ل : وغزل عرم .

[2] ص : أبو .

وأمّا أبو ذؤيب : فشديدُ أسْرِ الشّعرِ حَكيمُه ، شغله فيه التّجريب حديثُه وقديمُه . وله المرثيّةُ النقيّةُ السّبك . المتينة الحبْك ، بكى فيها بَنيه[1] السّبعة . ووصَفَ الحمارَ فطوّل . وهي التي أوّلها :

* أمِنَ المنونِ وريبه تتوجّعُ *

وأمّا الأخطلُ : فَسَعدٌ من سُعودِ بني مروان ، صَفَتْ لهم مرآة فِكرِه ، وظَفروا بالبديعِ من شِعرِه ، وكان باقِعة من هاجاه ، وصاعِقة مَن حاجاه .

وأمّا الدّارميُّ هَمّام : فَجوهرُ كلامِه ، وأغراضُ سِهامِه ، إذا افتخر بمالكِ بنِ حنظَلَة ، وبدارمٍ في شَرفِ المنزلة ، وأطولُ ما يكون مدىً إذا تَطاولَ اختيال[2] جرير عليه بقليلِه على كثيره ، وبصغيره على كبيره ، فإنّه يُصادمُه حينئذٍ ببحرٍ مادّ ، ويُقاومُه بسيفٍ حادّ .

وأمّا ابنُ الخطَفى : فزهدٌ في غَزَل ، وحجرٌ في جَدَل ، يَسبَحُ أوّلاً في ماءٍ عذْب ، ويَطيح[3] آخراً في صَخرٍ صُلب . كلْبُ مُنابَحة ، وكبشُ مُناطحة ، لا تفُل غربَ لسانِه مُطاولَةُ الكفاحِ ، ولا تُدمي هامته[4] مُداومَة النّطاح ، جارى السّوابقَ بمطيّة ، وفاخرَ غالباً بعطيّة ،

---

١ ص : بنوه .

٢ ص ل : اختيار .

٣ ل : ويطمح .

٤ ص : هاد .

وبلّغتْه بلاغتُه إلى المساواة، وحمّلتْه جرأتُه على المجاراة[1] . والناسُ فيهما فريقان ، وبينهما عند قومٍ فُرقان .

وأمّا القيسانِ وطبقتُهما : فطبقةٌ عشقةٌ توقة ، استحوذت الصّبابة على أفكارِهم ، واستفرغَتْ دواعي الحبّ معاني أشعارِهم ، فكلّهُم مشغولٌ بهواه ، لا يتعدّاه إلى سِواه . [٨٦]

وأمّا كُثيِّر : فحسَنُ النسيبِ فصيحُه ، لطيفُ[2] العتابِ مليحُه ، شجيُّ الاغترابِ قريحُه ، جامعٌ إلى ذلك رقائق الظّرفاء، وجزالة مدح الخلفاء .

وأمّا الكُميتُ والرمّاح ، ونصيبٌ والطّرماح ، فشعراءُ مُعاصرة، ومُناقضاتٍ ومُفاخرة ، فنُصيبٌ أمدَحُ القوم ،والطّرماحُ أهجاهم ؛ والرّمّاحُ أنسبُهم نسيباً ، والكُميتُ أشبَهُهم تشبيبا .

وأمّا بشّار بنُ برد : فأوّلُ المحدثين ؛ وآخرُ[3] المخضرَمين ؛ وممّن لحق الدولتين ، عاشقٌ سَمع ، وشاعرٌ جَمع ، شعرُه يَنفُق عند ربّات الحجال ، وعند فحول الرّجال ، فهو يلينُ حتى يَستعطف ، ويقوى حتى يستنكف[4] ، وقد طال عمره ، وكثُر شِعرُه ، وطما بحرُه ، وثقب في البلاد ذِكرُه .

وأمّا ابنُ أبي حفصة ، فمن شعراء الدّولتين ، وممّن حظي بالنّعمتين ،

---

١ ص : المجار .

٢ ل : نظيف .

٣ ص : وأحد .

٤ ص : ينكسف .

ووصل إلى الغنى بالصّلتين ، وكان دَرِب المعول ، ذربَ المقْول ، والدَّ
شُعراء ، ومنجبَ فصحاء .

وأمّا أبو نواس ، فأوّل الناسِ في خرْمِ القياس ، وذلك أنه تركَ السّيرَة الأولى ، ونَكّبَ عن الطّريقَة المثلى ، وجعل الجدّ هزلاً ، والصّعبَ سهلا ، فهلّهل المسرَّد ، وبلبل المنضّد ، وخلخل المنجّد ، وترك الدّعائم ، وبنى على الطامي والعائم[1] ، وصادفَ الأفهامَ قد نَكلتْ ، وأسبابَ العربيّة قد تخلخَلَتْ وانحلّت ، والفصاحات الصحيحة قد سُئمت ومُلّت ، فمال الناسُ إلى ما عرفوه ، وعَلِقَت نفوسهم بما ألِفوه ، فتَهادوْا شِعره ، وأغلوْا سِعره ، وشُغفوا بأسخَفه ، وكلِفوا بأضعفِه . وكان ساعده أقوى ، وسِراجُه أضوى ، لكنه عرضَ الأنفقَ ، وأهدى الأوفَق ، وخالَفَ فَشُهِرَ وعرِفَ ، وأغربَ فذُكرَ واستطرف . والعوام تختارُ هذه الأعلاق ، وأسواقُهم أوسَع الأسواق ، فشعرُ أبي نواس ، نافقٌ عند هذه الأجناس ، كاسدٌ عند أنقد الناس . وقد فطن إلى استضعافه ، وخاف من استخفافه ، فاستدركَ بفصيح طردِه ، طرَفاً [من]حدّ اللسان وجدّه [2] ، وهو مجدودٌ[3] في كثرةِ التّظاهر ، على من غضّ منه بالحقّ الظاهر ، ليس إلاّ لخفّة روح المجون ، وسُهولة الكلامِ الضّعيفِ الملحون ، على جمهورِ العوام ، لا على خصائصِ الأنام .

وأمّا صَريع : فكلامُه مُرصّع ، ونِظامُه مُصَنّع ؛ وجُملةُ شِعْرِه

---

١ ص : والقائم .

٢ ل : طرفا حد اللسان وحدوده .

٣ ص ل : محدود .

صحيحةُ الأصول ، مُصنَّعةُ الفُصول ، قليلةُ الفضول .

وأمّا العبّاسُ بن الأحنف فمعتزلٌ بهواه ، وبمعزِلٍ عمّا سواه : رَفَعَ نفسَه عن المدحِ والهِجاء ، ووضَعَها بين يَدَي هَواه من النّساء : قد رَقّقَ الشّغَفُ كلامَه ، وثقّفَتْ قوةُ الطبعِ نظامَه ، فلَه رِقّةُ العشّاق ، وَحَوْكُ[1] الحُذّاق .

وأمّا دِعْبِل : فمُدْبِرٌ مُقبِلٌ ، اليومَ مَدْح ، وغَداً قَدْح ، يُجيدُ في الطريقتين ، ويُسيء في الخليفَتَيْن ، وله أشعارٌ في العَصَبيّة . وكان شاعرَ عُلَماء ، وعالِمَ شعَراء .

وأمّا علي بن الجَهم : فرَشيقُ الفَهْم ، راشِقُ السَهْم ، استَوصَلَ شِعْرَهُ الشُّرفاء ، ونادمَ الخُلفاء ، وله في الغَزَل الرُّصافيّة[2] ، وفي العتاب الدّاليّة[3] ، ولو لم يَكُنْ له سواهما ، لكان أشعَر الناسِ بهما .

وأمّا الطّائيُّ حبيب : فمُتكلّفٌ إلاّ أنّه يُصيب ، ومُتعِبٌ لكنْ له من الراحةِ نصيب . وشُغْلُه المُطابَقَةُ والتّجْنيس ، جيد[4] ذلك أو بيس ، جَزْلُ المعاني ، مَرْصوصُ المَباني[5] . مَدْحُه ورِثاؤه ، لا غَزَلُه

---

[1] ل : وجودة .
[2] يعني قصيدته « عيون المها بين الرصافة والجسر » .
[3] الدالية :
قالوا حبست فقلت ليس بضائري حبسي وأي مهند لا يغمد
[4] ل : وحبذا .
[5] ص : الهاني ؛ ل : المغاني .

وهجاؤه ، طرَفا نقيض ، وخطّتا[1] سَماءٍ وحضيض . وفي شعْرِه عِلمٌ جمّ مِنَ النّسَب ، وجُملة وافرةٌ من أيّام العرب . وطارَت له أمثال ، وحُفِظتْ له أقوال ، وديوانُه مقرُوّ ، وشِعرُه متلوّ .

قال ابن بسّام : أمّا صِفتُه هذه لأبي تمّام ؛ فصِفةٌ لم يثْنِ عِطفَها حَميّة ، ولا تعلّقتْ بِذيْلها عصَبيّة ، حتى لو سَمِعَها حَبيب لاتّخذها قِبلَة ، واعتمَدَها مِلّة . فما آلَمَ[2] مَنْ أدّب وإن أوجَع ، ولا سَبَّ مَنْ صَدَقَ وإن أقذَع :

رجع :

وأمّا البُحتريّ : فلَفظُهُ ماءٌ ثجّاج ، ودُرّ رجْراج ، ومعناه سِراجٌ وهّاج ، على أهدَى مِنهاج . يَسْبِقُه شِعرُه ، إلى ما يَجيشُ به صدْرُه ، يُسرَ مُرَاد ، ولين قِياد . إن شَربْتَه أرواك ، وإن قدَحتَه أوراك . طَبعٌ لا تكلّفَ يغشيه[3] ، ولا العِنادُ يثْنيه ، لا يُمَلُّ كثيرُه ، ولا يُستَكَفُّ غزيره ، لم يَهْفُ أيّامَ الحُلُم ، ولم يَصِف زمنَ الهَرَم .

وأمّا ابنُ المُعتَزّ : فمليكُ النّظام ، كما هو مَليكُ الأنام ، له التشبيهاتُ المثَليّة ، والاستعاراتُ الشكليّة ، والإشاراتُ السّحريّة ، والعباراتُ الجهريّة ، والتّصاريفُ الصّوفيّة ، والطرائقُ الفنونيّة ، والافتخاراتُ

---

١ ص : وخطبا ؛ ل : وخطب .
٢ ص : ألام ؛ ل : لام .
٣ ص : يعتيه .

المُلوكيّة ، والهِمّاتُ العُلويّة ، والغَزَلُ الرائق ، والعِتابُ الشائقُ ، ووَصْفُ الحُسنِ الفائق :

وخيرُ الشّعرِ أكرمُه رِجالاً ... وشرُّ الشعرِ ما قال العبيدُ[1]

وأمّا ابنُ الرُّومي : فَشَجَرَةُ [٨٧] الاختراع ، وثَمَرَةُ الابتداع . وله في الهِجاء ، ما ليس له في الإطراء، فتَحَ فيه أبوابا، ووصل فيه أسبابا، وخَلَعَ منه أثوابا ، وطَوَّقَ فيه رِقابا ، تَبقى[2] أعماراً وأحقابا ، يطول عليها حِسابه ، ويُمْحَقُ بها ثوابُه . ولقد كان واسِعَ العَطَن ، لَطيفَ الفِطَن ، إلاّ أنّ الغالِبَ عليه ضَعْفُ المَريرة وقوّةُ المِرَّة .

وأمّا كُشاجِم : فحكيمٌ شاعِر ، وكاتِبٌ ماهر ، له في التشبيهات غرائب ، وفي التأليفات عجائب ، يُجيدُ الوَصْفَ ويُحقّقه ، ويَسْبِك المعنى فيرقّقه ويُروّقُه .

وأمّا الصَّنَوْبَري : فَفَصيحُ الكلامِ غريبُه ، مَليحُ التّشبيهِ عَجيبُه ، مُسْتَعْمِلٌ لشَواذّ القَوافي ، يَغْسِلُ كُدُرَتَها بمياهِ فَهْمِه الصَّوافي ، فيَجِلُّ ويَدِقُّ ، ويَعْذُبُ ويَرِقّ . وهو وحيدُ جِنْسِه في صِفَةِ الأزهار ، وأنواعِ الأنوار . وكان في بعض أشعارِه يَتخالَع ، وفي بعضِها يتشاجَع . وقد مَدَحَ وهجا ، وسَرَّ وشَجا ، وأعجَبَ شِعْرُه وأطرَب ،

---

١ البيت للفرزدق في هجاء نصيب ، انظر زهر الآداب : ٣٣٦ .

٢ ل : يبقين .

وشَرَّقَ وغَرَّب . ومَدَحَ من أهلِ إفريقيَّةَ أميرَ الزَّاب جعفرَ بنَ عليّ [1] ، مُنَفِّقَ سِلَعِ الأدب ، فوصَلَه بألفِ دينار [2] .

وأمّا الخُبْزَرُزّيّ : فَخَليعُ الشِّعْرِ ماجِنُه ، رائقُ اللفظِ بائنه ، كثيرةٌ مَحاسِنُه ، صحيحةٌ أصولُه ومعادنُه ، رائقة البِزَّة ، [مائلة][3] إلى العِزَّة ، تُسليه عن الحبّ الخِيانة ، ويربقُه [4] الوفاء والصِّيانَة . وله على خُشونةِ خَلْقِه ، وصُعوبةِ خُلُقِه ، اختراعاتٌ لطيفة ، وابتداعاتٌ طَريفة ، في ألفاظٍ كثيفَة ، وفصولٌ قليلةُ الفضولِ نظيفة . حتّى إن بعضَ كُبراءِ الشّعراء [5] اهتدَمَ أشياء مِن مَبانيه ، واهتَضَمَ تَطَرّفاً مِن مَعانيه ، وهو مِنْ مُعاصريه ، فقَلّ مَن فَطِنَ لِمراميه .

وأمّا أبو فِراس بنُ حَمْدان : ففارِسُ هذا الميدان ، إن شئْتَ ضَرْباً وطعنا ، أو لفظاً ومعنى ، مَلَكَ زمانا ، ومُلِك أوانا ، أشعَرُ الناسِ في المملكة ، وأشعرُهم في ذُلّ المَلَكَة [6] . وله الفخريّاتُ التي لا تُعارض ، والأسريّاتُ التي لا تُناهَض .

---

١ انظر ديوان الصنوبري : ٢٨ وجعفر بن علي هو ممدوح ابن هانيء أيضاً ، إذ كان موالياً للعبيديين ثم تحول إلى موالاة أموي الأندلس (انظر أخباره في المقتبس لابن حيان تحقيق الدكتور عبدالرحمن الحجي ، ط . بيروت) .

٢ زاد في ل : بعثها إليه مع ثقات التجار .

٣ زيادة من ل .

٤ ص : ويريقه ؛ ل : ويروقه .

٥ يعني المتنبي ، وهذه تهمة ساقها نقاد المشارقة مثل ابن وكيع وغيره .

٦ ص : الملك .

وأمّا المُتَنَبِّيّ : فقد شُغِلَتْ به الألسُن ، وسَهِرَتْ في أشعارِه الأعيُن ، وكَثُرَ الناسِخُ لِشِعْرِه ، والآخِذُ لِذِكرِه ، والغائِصُ في بَحْرِه ، والمُفَتِّشُ في قَعْرِه ، عن جُمانِه ودُرِّه . وقد طال فيه الخُلْف ، وكَثُر عنه الكَشْف ، وله شيعَةٌ تَغْلو في مَدْحِه ، وعليه خَوارِجُ تَتعايا في جَرْحِه . والذي أقول إنّ له حَسَنات وسَيِّئات ، وحَسَناتُه أكثرُ عددا ، وأقوى مَددا . وغرائبُه طائِرَة ، وأمْثالُه سائرة ، وعِلْمُه فَسيح ، ومَيْزُه صحيح ، يَروم فيَقْدِر ، ويَدري ما يُورِد ويُصدِر [1] .

وأمّا ابنُ عَبْدِ ربّه القُرطبي : وإنْ بَعُدَتْ عَنّا دِيارُه ، فقد صاقَبَتْنا أشعارُه . ووَقَفنا على أشعارِ صَبْوَتِه الأنيقة ، ومُكفّرات [2] تَوبتِه الصَّدوقَة ، ومدائِحِه المروانيّة ، ومطاعِنِه في العبّاسيّة . وهو في كل ذلك فارسٌ مُمارِس ، وطاعن مُداعِس . واطلعنا في شِعرِه على عِلْمٍ واسع ، ومادة فَهْمٍ مُضيء ناصع . ومن تلك الجواهرِ نَظَمَ عِقْدَه ، وتركه لمن تَجَمّلَ بعدَه .

وأمّا ابنُ هانىء مُحَمّدٌ الأندلُسيّ وِلادة ، القيروانيُّ وفادةً وإفادة ، فرَعديُّ الكلام ، سرديُّ النظام [3] ، إلاّ أنه إذا ظهرت معانيه ، في جزالة مبانيه ، رَمَى عن مَنجَنيق ، يؤثّر في النّيق . وله غزلٌ قفْريّ لا عُذْرِيّ ،

---

١ زاد هنا في ل ما ينبيء أن أبا الريان انتهى من تقييم شعراء المشرق .

٢ ص : وتكفرات ، ل : وتكفيرات .

٣ زاد في ل : متين المباني ، غير مكين المثاني ، تجفو بعطنها عن الاوهام ، حتى تكون كنقطة النظام .

لا يقنعُ فيه بالطّيف ، ولا يشفع بغير السيف . وقد نوه به مَلِكُ الزّاب . وعظّم شأنَه بأجزلِ الثواب . وكان سيف دولته ، في إعلاء منزلته ، من رجلٍ يَستَعين على صلاح دنياه بفسادِ أخراه ، لرداءةِ عَقْله ، ورقّة دينه ، وضَعْف يقينه ، ولو عقل لم تضِقْ عليه معاني الشعر ، حتى يستعين عليها بالكُفر .

وأمّا القَسْطَلّيّ : فشاعرٌ ماهرٌ عالمٌ بما يقول ، تشهدُ له العقول ، بأنّه المؤخّرُ بالعصر ، المتقدّمُ في الشّعر . حاذقٌ بوضع الكلام في موضِعه ، لا سيما إذا ذَكرَ ما أصابه في الفتنة ، وشكا ما دهاه في أيام المحنة : وبالجملة فهو أشعرُ أهلِ مَغرِبه ، في أبعدِ الزمان وأقربه .

وأمّا عليٌّ التّونسي : فشِعْرُهُ المَوْرِدُ[1] العَذْب ، ولفظه اللؤلؤُ الرّطبُ ، وهو بحتريُّ الغَرْب ، يصِفُ الحمام ، فيروقُ الأنام ، ويُشبّبُ ، فيُعَشّق ويُحَبّب ، ويمدحُ ، فيمنحُ[2] أكثر مما يُمنَح .

هذا ما عندي في المتقدّمين والمتأخّرين ، على احتقارِ المعاصِر ، واستصغارِ المجاور ، فحاشَ لله من الاتصاف ، بقلةِ الإنصاف ، للبعيد والقريب ، والعدوّ والحبيب .

قلتُ يا أبا الريّان ، وُقيتَ مُرورَ الحَدَثان ، فلقد سُبِكْتَ فهما ، وحُشيتَ عِلما .

---

١ ص : المورود .

٢ ص : فتمتح .

مقامة له أخرى

حدّثني الجُرجاني قال : كان فتىً بجُرجانَ من أبناء الأقيال ، قد جمع إلى النّهايةِ في المالِ الغاية في الجمال . وكان مألفاً للأدباء [1] ، ومأوًى للغرباء، ورزقاً للفقراء ، فلا يخلو منزله من أهلِ الإعدام . فإني لَعندَه في بعضِ الليالي إذ استؤذِنَ عليه لضريرٍ فقيرٍ فأمر بإكرامه وإطعامِه .فلمّا فَرَغَ من شانه ، استدعاه إلى إيوانه، فدخل علينا رجلٌ شيخٌ وافرُ السّبال [88] ،قد عمّه البياضُ بالكمال ، مطموسُ العَيْنين ، مسترخي الحاجبين ، قد صَلِعَتْ هامتُه ، وركعتْ قامتُه ، وقصُرتْ مَسافةُ خُطاه ، وثَقُلَ جِسمه على عصاه ، فسلّم بصوتٍ ضئيل ، ودعا بلسانٍ ثقيل . وأقبلَ يذكرُ شبابه ، ويتذكّرُ أحبابه ، وينوحُ على سالفِ زمانه ، ويندُبُ ثِقاتِ إخوانِه . فرقّ له الفتى فأدناه ، حتى أجلسَهُ على يمناه ، وصبَّره وسلاّه . ثمّ سمرنا إلى وقت النوم ، فرقَدَ سائرُ القوم ، ونام الفتى في مكانه ، مُراعاةً لحقّ ضِيفانِه .

وكنتُ أدنى مِن الفتى مرقدا ، كما كنتُ أدنى منه مقعدا ، ولي عين أخف العُيونِ هَجْعة ، وأقربها إلى الانتباهِ رَجْعة . فأيقظتني نَبْرة لم أكنْ عَهِدتُ من الفتى مِثلَها ، ولا أجراها مع ضَيفٍ قبلها . فعجِبْتُ مِن خَرْقِ العادَة ، وأصغيتُ ألتمسُ [استزادة] . فسمعتُ الأعمى

---

[1] ص : لأدباء .

يقول : يا سيّدي أنا ضرورة ، وثمّ ضرورة ، وقد طالت الغُربة ، واضطرّتني العُزْبة . فقال الفتى له : فما وَجدتَ لضرورتك سواي ، ولا لعُزبتك جاشاي ؟ قال له : فإن أبيتَ إلاّ أن تمنع ، فدُلّني على ما أصنع . قال له الفتى : أرى لكَ أنْ تتسرّى . قال : ومَن للصّعلوك بالمملوك ؟ قال : فتتزوّج . قال : والمُحْوِجُ كيف يتزوج ؟ قال له الفتى : فإنّك لو خضخضْت ، لكان أشبهَ مما إليه تعرّضت . قال الأعمى : والله يا مولاي لا يسعهُ خُفّي ، فكيفَ كفّي ؟ فصاح الفتى : السّلاحَ السلاح : « ألا أيّها النوّامُ ويحكمُ هبّوا » قال الجُرجانيُّ فقلتُ : « فللشيخِ زُبٌّ ليسَ يُشبهه زُبُّ » . فقال الفتى : أسمعتَ العَجَبَ العُجاب ؟ قلتُ : نعم ، وحفِظتُ العِتاب . وجعلتُ أقول : ما سألك الشّيخُ في عسير ، ولا حمّلك على خطير . فهلاّ قضيتَه فأرضيتَه ؟ قال : فحسِبَ الأعمى كلامي ردّا ، وظنّه جِدّا ، فقال : فديتُك أيّها الناصِر ، حين خذَلني الأواصِر ، واحتقَدني[1] المُعاصِر ، ثم تنهّدَ وقال : آه واهرَماه ! بقينا حتى شقينا ، آه . طاحَ أهلُ البذْلِ والسّماح ، وبقيَ أهلُ البُخلِ والجِماح . انظرْ أيّ أجناس ، بعد أيّ ناس ، لكنّ الفقير حقير . قلّ المال ، وذهب الرجال . سَمِعنا فطَمِعنا ، يا فتى ، أُخبرنا عنكَ خبَرا ، ما رأينا له أثرا ، وربّ منسوبٍ إلى حال ، مَرجوعُها إلى مُحال ؛ أينَ الكرَمُ الذي ذُكر ، والخُلقُ الذي شُكر ؟ حسبُ ما سألناكَ يَشُقُّ ، أينَ الحقُّ الذي يحق ؟ كذَبَ رائدُنا . وقلّتْ فوائدُنا . فقال له الفتى : ويحَكَ ! اتقِ اللهَ خالِقَك ، فقد آنَ أنْ تترك خلائقك .

---

١ كذا في ص ، ولعلها « واحتقرني » .

فقال : يا مَولاي ، لو تركتني الشّهوةُ لتَركت ، لكن حرّكتني فتحرّكت . إني وإن سبقني جُمهورُ الأتراب إلى التراب ، فلي قلبٌ[1] لَهَبيّ ، وجِسمٌ ذَهَبيّ ، لا يغيّرهما إدمانُ الزّمان ، ولا يؤودهما حديث الحدثان . ولو عادتْ إليّ ساعةٌ من أيامي ، أو حَصلَت في يَدي إبرةٌ مِن حُسامي ، لسبقَتْ كلُومي فيكم كَلامي . وسأجْهدُ بهذِه العَصا ، فأجاهدُ مَن عَصا . ثم اهتزّ كأنّه نَسْرٌ مَقصوص ، أو حِمارٌ مَرْهوص ، فقُمنا وتركنا جانبَه ، وجعل يَضرِبُ بعصاهُ ما قاربَه . فتركناه وشانَه ، وأدَمْنا عِيانَه ، نُصعّدُ فيه ونُصوّب ، ونَعجَب ونُعجّب . فلم تَزلْ شِقشقتُه تَهدِر ، وعَصاه تَتكسّر ، حتى كلّت يَداه ، وانحلّتْ قُواه . ولاحَ وجهُ الصّباح ، وجِئنا إليه بالمِصباح ، فإذا هو كالجِدارِ المَهدوم ، والجِذْرِ المَهشوم ، قد فارق النّفْسَ النّمرودِيّة ، ومات الميتة الجاهليّة . فدفَنّه الفتى في أطمارِه ، وسألنا كِتمان أخبارِه ، وأفَنٌ لَعمري أيُّ أفَن ، أن يُطمعَ لخبَرِ هذا في دَفْن ، بل هو منشور ، إلى يَومِ النّشور .

ما أخرجته من شعر ابن شرف في أوصاف شتى

النسيب وما يناسبه

[قال][2]:

قَد كنتَ في وَعدِ العذارِ فأنْجزَا   وقَضى لحُسنكَ بالكمالِ فأوجزا

---

١ ص : قلبي .

٢ هي في الشريشي ٢ : ٢٦٥ (٥ : ٢٤٠) وانظر النتف : ١٠٢ .

وافى لنَصرِ الحُسْنِ إلاّ أنه وَلّى إلى فئةِ الهوى مُتحيّزا
عَطفٌ تعلّم منك عِطفُكَ عَطفه وجدَ الفؤادُ بهِ السبيلَ إلى العزا
لم يَكفِ وجهَكَ حُسنُه وبهاؤه حتى اكتسى ثوبَ الجَمالِ مُطرّزا
سُبحان مَن أعطاكَ حُسناً ثانياً وبثالثٍ من فِعْلِ حُسْنِك عزّزا

وقال :

تَصعّدُ نَفسٍ لا صُعودُ تَنفّسٍ وترديدُ روحٍ في حُشاشةِ مَكروب
فلا القُرْبُ يُحييني ولا البعدُ قاتلي ولا الهَجرُ يُسليني ولا الصَّبرُ يلوي بي
وأصبحتُ ذا ضرّ ولُقياك مُبرىءٌ لضُرّي ولكنْ أينَ عيسى مِن أيّوب؟

وقال :

بين أجفانِك سِحْرُ وعلى غُصنِك بَدرُ
جَردتْ عَيناك سَيفيـ ن لذا أمرك أمر
فعلى خدّك مِن نَثـ ـرِ دَمِ العشّاقِ أثر
ومن الكُثبانِ شَطرْ لك والأغصان[1] شَطرْ
وسَواءٌ قلتُ دُرٌّ ما أرى أو قلتُ ثَغرْ
وبماذا أصِفُ الخَصـ ـر وما إنْ لك خَصْر [٨٩]
بِك شُغلي واشتغالي ومضى زَيدٌ وعَمرو

---

١ ص : وعلى الأغصان .

وقال :

وَشمس ٍ تَراخَتْ أن تغيبَ لقبلَتي ... كما أمسكتْ فيما مضى شمس يُوشع ِ

فيا قاطعاً وَصْلي ويا واصِلاً غَدي ... بأمسي ويَومي في العذابِ المُمتع ِ

صرَفتَ رَجائي عن لعلَّ وعن عسى ... وأبعدتني باليأس ِ من كلّ مَطمَع

أعنّي بإطماع ِ الوصال ِ على النّوى ... إذا لم تُقاتلْ يا جَبانُ فشَجّع

لديكَ فؤادٌ ما لَه من مُطالب ٍ ... أأطلبُ في بَعْضي وقد بانَ أجمعي ؟

وَديعةُ مَيْت ٍ أنت فيها مُحكّمٌ ... وإن شِئتَ فاحفظْها وإن شئتَ ضيّع ِ

أرى مُهَجات ٍ في يَديكَ فما ترى ... بمَنْ شِئتَ أوْقعْ أو بما شئتَ وقع

قوله : « إذا لم تُقاتِل يا جبانُ فشجّع ِ » مثَلٌ من أمثالهم ، وإليه شار أبو نُواس بقولِه[1] :

فكأني وما أزيّنُ مِنْها ... قَعَديّ يُزيّنُ التّحْكيما

وقال[2] :

واذكُرْ لياليَكَ التي ذَهبَتْ لنا ... [illegible] وعَيشاً كان كالتّهويم ِ

يُسعِدْكَ وابلُ أدْمُع ٍ في [illegible] ... [illegible] مِياهَ الدّمْع ِ شُربَ الهيم

أيّامَ شَمْسُ المَشرقَيْن ِ [illegible] ... فيها وبَدرُ المَغْربَيْن نَديمي

ونجومُ كاساتي طَوالعُ [illegible] ... والسّعْد يَسْتَغني عن التّقْويم

1 ديوان أبي نواس : ٣٢٥ .

2 البيت الرابع منها في التتف : [illegible] ولم يذكر مصدره ، وقد ورد في القسم الأول : ٤٧٧ .

مَحمودُ عَيشٍ جاد لي دَهْري به ثمَّ استردَّ فكان فيه خصيمي
وَلّى وخلّى جَمْرَةً مَشبوبَةً تُذْكي على الأحشاءِ نارَ سَموم
فإذا رأيتَ لَهيبَها وسَلامتي فاذكُرْ بذلك نارَ إبراهيمِ

يَنظرُ مَعنى البيتِ الرابعِ مِنْ هذه إلى قَوْلِ أبي الطيّب [1] :

يُقرُّ له بالفَضْلِ مَنْ لا يَوده ويَقضي له بالسَّعْدِ مَنْ لا يُنجِّمُ

ولأبي [الحسن] أحمد البصري [2] من أناشيد الثعالبي :

كنتُ إذا ما سِرْتُ في حاجَةٍ أطالِعُ [3] التقويمَ والزّيجا
فصار لي [4] الزّيجُ كتَصحيفِهِ وعاد لي [5] التقويمُ تعويجا

وقال بعضُ أهلِ عَصرِنا وهو أبو بكرٍ الدّاني [6] :

وبِمُهْجتي نجمٌ له في مُهْجَتي مَسْرًى ولي في نُورِه تَعديلُ
حَوّلْتُ عَهْدَ مُناخه بمناخه فقضى بتحويلي له التّحويلُ

---

١ ديوان المتنبي : ٢٩٢ ، واستشهد به ابن بسام أيضاً في القسم الأول : ٤٧٦ .
٢ هو أحمد بن أيوب البصري ، أبو الحسن المعروف بالناهي ، انظر اليتيمة ٤ : ٣٨٣ – ٣٨٤ وقد ورد البيتان في ترجمته .
٣ اليتيمة : استعمل .
٤ اليتيمة : فأصبح
٥ اليتيمة : وأصبح .
٦ شعر ابن اللبانة : ٨٣ والذخيرة ٣ : ٩٦٠ .

وقوله : « محمودُ عيش جادَ لي دهري به » من مُتداولاتِ المعاني ، منها قولُ محمد بن هاني [1] :

وهَبَ الدّهرُ نفيساً فاسترَدّ   رُبّما جاد لئيمٌ فحَسَدْ

وأخذه بعضُ أهلِ عصري فقال :

يَهَبُ القليلَ وقد يَرى استرجاعَه   هِبَةُ اللئيمِ أقلُّ منه وأنزَرُ

ومن قصائده المطولة في المدح وما يتشبث به من سائر الأوصاف

قال في المنصور حفيدِ ابن أبي عامر :

مرَّ بي غُصْنٌ عليه قَمَرٌ   مُتَجَلٍّ نورُه لا يَنْجلي
هَزَّ عِطفيْه فقُلْنا إنّه   ذو الفقارِ اهتزّ في كفّ علي
ورأيتُ الناسَ صرعى حوله   فكأنَّ اليومَ يومُ الجمل
تلك أخبارُ زمانٍ قد مضى   وأمورٌ في السنين الأوّل
زَمَنُ المنصورِ قوّى منّتي   وسرى هَمّي وأحيا جَذلي
وسرورُ النفسِ مِن بعد الصّبا   ناشرٌ عَصْرَ الصّبا والغَزَل
فاستُطيبَ العيشُ في بَلدتِه   فكأنَّ الناسَ في قُطْرُبّل
وكأنَّ الشمسَ مِن بَهْجتها   أبَداً فيها ببرْجِ الحَمَل

---

[1] ديوان ابن هانيء : ٣٦٧ .

وله من أخرى في عبّاد :

فما جشأتْ نفسي عشيّةَ مُشْرِف ... ولا احتلبتْ عينيَّ حزْوى وفيفاء[1]

ولا لِغُرابيّ دِمْنة الدارِ ظَلْتُذا ... سؤالٍ وما عندَ الغُرابين أنباءُ

مقامُ زمانٍ ماتَ عُرْوَةُ حَسْرَةً ... عليه وظَلّتْ تَسْفحُ الدَّمْعَ عفراءُ[2]

فلو نال حظّاً منه غَيْلانُ لالتقتْ ... له صَيْدَحٌ فيه ومَيّ ودهناء

ومنها في ذِكْرِ طِفْلَيْن له :

أجَشّمهم لَيْلَ القِفارِ وظُلْمةَ الْ ... بحارِ وكم ريعوا وللسّيدِ إرْخاءُ

ولي منهما سهمانِ هذا ابنُ أرْبعٍ ... وهذا ابنُ سِتّ كلّما كان إغفاء

أضمّهما والليلُ داجٍ كأنّما ... هُما نقطتا ياءٍ وجسمي هو الياء

فطوراً يُغشّيهم على ذِكركَ الكرى ... فتُصبح أضواءٌ عليهم ولألاء

وطوراً يمجّونَ الدُّجى ومِطالَه ... وما كان للغاياتِ مطلٌ وإرجاء

فتضجرُ منهم أنفسٌ ربّما بكتْ ... بكاً هو للصمّ الجلاميدِ إبكاء

ومنها :

فإن أفحمتنا هيبةٌ عُمَريّـــــةٌ ... لديكَ لها في الشّعرِ[3] كسرٌ وإقواءُ

بذلتَ انبساطاتٍ لنا عَلَويّةً ... لها بعدَ مومات المهامِه أفياءُ

---

١ يشير إلى قول ذي الرمة (غيلان) :

لقد جشأت نفسي عشية مشرف ... ويوم لوى حزوى فقلت لها صبرا

٢ فيه إشارة إلى قول قيس لبنى ، وسيوضحه ابن بسام فيما يلي .

٣ ص : العشر .

صَيدح التي ذكرها ناقةُ غيلان، والدَّهناءُ وطَنه، وميٌّ صاحبتُه، وكان ذو الرُّمَّة يلهجُ بذكرِ هذه الثلاثة في شعره. وقولُه [٩٠] «ولا لغرابي دِمنة الدار» ... البيت، أشار إلى قول عروةَ بن حزامِ العُذري في عَفراءَ بنتِ مالك العُذريّ، وتُنشدُ الأبياتُ لحسنها، ولكونِ المعنى فرعاً من غُصنها[1]:

ألا يا غرابي دِمنةِ الدّارِ خبّرا ... أبالهجرِ من عَفراءَ تَنْتَحبانِ؟
فإن كان حقّاً ما تقولانِ فانهضا ... بلحمي إلى وكريكما فكُلاني
ولا يَعلمَنَّ الناسُ ما كان ميتتي ... ولا يأكلنَّ الطيرُ ما تَذَران
جعلت لعراف اليمامةِ حُكْمَه ... وعَرّافِ حَجرٍ إن هما شَفياني
فقالا: شفاكَ اللهُ واللهِ ما لنا ... بما ضمّنَتْ منكَ الضّلُوعُ يدانِ

وضَربَ المثل بهيبةِ عمرَ بن الخطابِ، وكان مشهوراً بها، وبانبساطِ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وله من أخرى في ابن طاهرٍ[2] أميرِ مرسيَة وقتَه:

وعاجوا على عُسفانَ والليلُ أليَلٌ ... ومرّوا[3] بذاتِ البينِ والصبحُ مُسفرُ
وحازَتْهم حزوى ضُحىً وتروّحوا ... بمنْعجَ واستَعلوا أباناً فنوّروا
ولمّا تواقفنا بذي سَلَمٍ بدا ... سلامٌ لسلمى ظلّ يخفى ويَظهَر
شَعرْتُ له والرّكب حيرانُ غافلٌ ... وما شاعرٌ أمراً كمَنْ ليسَ يشعُر

---

[1] ديوان عروة: ١٦، ١٤.
[2] يعني أبا عبد الرحمن بن طاهر، وقد وردت ترجمته في القسم الثالث: ٤٤ — ٩٢.
[3] ص: وهزوا.

رأت ظبيةَ الوَعساءِ عيني فهيّجتْ ... لها ذكرَهم والشيءُ بالشيءِ يُذكَر
سأبكي طُلولاً كنتِ فيها مطلّةً ... عليها وكلّ الليلِ تحتكِ مُقمر
تَصَرَّمَ ذاكَ العيشُ إلاّ إدكارهُ ... وإلاّ كذوباً في المنامِ تُزوِّر
فتىً طاهريٌّ طاهرُ الثّوبِ ذكرُه ... من المسكِ أذكى أو من الماءِ أطهر

وله من أخرى في المعتضد[1] :

لولاهُمُ لحجَجتُ أوّلَ حجّةٍ ... حَرَمَ الكرامِ وطال فيه طوافي
ولزرتُ حمصَ الغَربِ أغربَ زائرٍ ... بغرائبٍ كالحلّةِ الأفواف
وزَحمتُ واديَها بمثلِ عُبابه ... من سَلسبيلٍ في القلوبِ سُلاف
وأريتُه بحراً يفاخرُ قعرُه ... بلآلىءٍ فيه بلا أصداف

ومنها في مدحه :

يا حاسديهِ على علاً خُطّتْ له ... سَبَقَ القضا بالنّونِ[2] بعدَ الكافِ
يخلي الدّيار من الجسومِ ويجتني ... ثمرَ الرؤوسِ وطرفَةَ الأطراف
فكأنما الأجسامُ بعدَ رُؤوسِها ... أبياتُ شعرٍ ما لهنّ قواف

قال ابن بسّام : أظنُّ ابنَ شَرف ، فيما وصفَ ، شبّه الأجسامَ دون رُؤوسها بأبياتِ شعره في هذه القصيدة ، فليسَتْ لها مبادىء ولا قوافي ،

---

١ منها بيتان في المسالك ١١ : ٢٣٩ ، كما أن الأخير منها ورد في القسم الأول : ٣٨٣ .
٢ ص : القضاء النون .

وما أمتري أنّ الغربَة فلّتْ غربَ طَبعِه ، وغَسَلَتْ عن جوانِحِه ، وأطفأت نارَ قرائِحِه .

ومن أشبهِ مدائحِه قولُه في عليّ بن أبي الرّجال[1] بعضِ أمراءِ القيروان من قصيدة[2] :

جاوِرْ علياً ولا تحفَل بحادثةٍ ... إذا ادّرعتَ فلا تسألْ عن الأسَلِ
إسْمٌ حكاهُ المسمّى في الفَعال فقد ... حازَ العليّين من قولٍ ومن عَمَلِ
فالماجدُ السيّدُ الحرُّ الكريمُ له ... كالنّعتِ والعَطْفِ والتوكيدِ والبدل
زانَ العُلا وسواهُ شانَها وكذا ... للشمسِ حالانِ في الميزانِ والحمَلِ
وربّما عابَه ما يفْخَرونَ به ... يُشنا من الخصرِ ما يُهوى من الكفَلِ
سَلْ عنهوانطِقْ بهوانظُرإليه تجِدْ ... ملءَ المسامع والأفواهِ والمقَلِ

وله من أخرى[3] :

ما لي كذا كلّ ما طالَبتُهُ عَسِرٌ ... وقد أخذتُ بحبّ المطلَبِ العَسِرِ ؟
مالي أجاذِبُ ذي الدُّنيا مُوليّةً ... فكلُّ ثوبٍ عليها قدَّ من دُبُرِ

---

١ ص : الرحال ؛ وعلي بن أبي الرجال عالم شاعر كان راعي الأدب والأدباء في القيروان أيام المعزبن باديس ، وباسمه طرز ابن رشيق كتاب العمدة ، وهومؤلف كتاب البارع في أحكام النجوم وفي ترجمة ابنه محمود قال ابن الأبار (اعتاب الكتاب : ٢١٤) انه كان هو وأبوه وأهل بيته برامكة افريقية . (وانظر الفصل الخامس من كتابي : ملامح يونانية في الأدب العربي : ٧٥ – ٧٩) .

٢ وردت أبيات منها في ياقوت والصفدي والفوات والمسالك واعتاب الكتاب . وانظر النتف ١٠٨ – ١١٠ والشريشي ٤ : ٢٢٣ – ٢٢٤ .

٣ منها بيتان في الشريشي ٢ : ١٠٠ (٤ : ٨٨) والنتف : ١٠١ – ١٠٢ .

ومنها :

يُعطي الجزيلَ مِن التّنويلِ مُعتَذِراً ... وربَّ مُعطي قليلٍ غيرِ مُعتَذِرِ
أنى الزمانُ على يأسٍ به لبني الدُّ ... نيا كبشرى بمولودٍ على الكِبَرِ
إنّي ومجدِكَ صيّرتُ الورى نهراً ... وقلتُ ما قاله طالوتُ في النّهرِ[1]
فأنتَ عنديَ منهم غَرفةٌ بيدي ... حلّتْ وحرّمَ باقي النّهرِ في الزُّبُرِ

ومعنى البيتِ الرابعِ من هذه كقولِ أبي تمام، ونَقَصَ فيه عن التّمام[2] :

بُشرَى الغَنِيِّ أبي البناتِ تَتابعتْ ... بشراؤهُ بالفارِسِ المولودِ

وذكرتُ بقوله : « فكلُّ ثوبٍ عليها قدَّ من دُبُر » قولَ القائل :

قَميصُ يوسُفَ لمّا قدَّ من دُبرٍ ... كانتْ براءتُه فيها من الكَذِبِ
وفي قميصكَ لمّا قدَّ من دُبُرٍ ... ممّا يدلُّ على الفَحشاءِ والرِّيَبِ

وفي الحسنِ بن وهبٍ يقول القائل :

إذا لقيتَ بني وهبٍ بمنزلةٍ ... لم تَدرِ أيّهما الأنثى من الذّكرِ
مؤدَّبونَ على الفَحشاءِ من صِغَرٍ ... مدرَّبونَ على النّكراءِ في الكِبَرِ
يحنّكونَ ولم تُقطَعْ سرائرُهم ... بين الحواضِنِ والدايات بالكَمرِ
قَميصُ أنثاهُمُ ينشَقُّ من قُبُلٍ ... وقُمصُ ذُكرانهم تنقدُّ من دُبرِ [٩١]

---

١ انظر الآية : ٢٤٩ من سورة البقرة .
٢ ديوان أبي تمام ١ : ٤٠٤ .

سائر مقطوعات له في أوصاف شتى

قال[1] :

لعل اللهَ يَفتكُ المعنّى الـ   أسيرَ فيغتَدي وهوَ الطَّليقُ
وإن أرجو التخلّصَ من عظيمٍ   فقد ينجو من اللّجج الغريق
لقد أنفذتُ من جَلَدي دروعاً   زَرَرنَ على الذي نَسَجَتْ سَلوق
وصبراً لو تجسّمَ لي مِجنّاً   كفاني ما رَمَتهُ المنجَنيق
وأفقَدُ ما طَلَبتُ فلمْ أجِدْهُ   رفيقٌ في صَحابَتِهِ رفيق
فأصبح وهو للعنقاءِ ثانٍ   وثاوٍ حيثُ فرّخَتِ الأنوق
صَحبتُ بهذهِ الدنيا أناساً   إذا غدروا فغَدرُهُمُ وثيق
ولم أصحَبْهُمُ وداً ولكن   كما جَمَعَ العدوينِ الطريق

لعلّه ذهب في هذا إلى قولِ أبي الطّيب[2] :

ومِنْ نَكَدِ الدُّنيا علىالحرّ أن يرى   عدوّاً له ما مِن صَداقَتِهِ بدُّ

وقال :

بعيشِكَ نادِ أيامي وقُلْ هلْ   لديكِ إلى مَرَدٍّ من سَبيلِ

---

١ منها بيتان في المسالك ١١ : ٢٣٩ – ٢٤٠

٢ ديوان المتنبي : ١٨٤ .

أراكَ كما يرى المحتاجُ مالاً وقد مَلَكَتْ عليه يدُ البخيل
أراحلَةً وما أبقيتِ مني سوى لحظٍ يترجِمُ عن قتيل
وقد عاقبتِ بالعَبَرات عيني بلا ذنبٍ وما ذنبُ الرّسول
وجدتُ الناسَ كلّهمُ طُلولاً فلمْ أُطِلِ الوقوفَ على الطّلول
وتَسمعُ منهمُ ما لا تراهُ كسامعِ ضَربةِ السّيفِ الصّقيلِ
فمَنْ بسواك باعَكَ فاغْنَ عنه كما استغنى علي عن عَقيلِ

عقيلُ أخو عليّ بن أبي طالب كان وُلدَ معه توأماً ، ولذلك قال : زوحِمتُ حتى في الرّحم . ولمّا كان يومُ صفّينَ هرب إلى معاوية وفارق أخاه علياً .

وقوله : « أراكَ كما يرى المحتاجُ مالاً » . . . البيت ، أراه توارد فيه مع لِدَتِه وابن بلدَتِه أبي عليّ بنِ رشيق حيثُ يقول [1] :

والصبحُ قد مَطَلَ الليلُ العيونَ به كأنّه حاجة في كفّ [2] ضنّينِ

وقال ابنُ شرف [3] :

وما بلوغُ الأماني في مَواعِدها إلاّ كأشعَبَ يَرجو وَعْدَ عُرْقوبِ
وقد يخالِفُ مكتوبُ القضاء يَدي فكيف [لي] بقضاءٍ [4] غَيرِ مكتوب؟

---

١ ديوان ابن رشيق : ٢٢١ (عن الذخيرة) .
٢ ص : يد ؛ وصوبته بما يغني عن ارتكاب الضرورة .
٣ البيتان في معجم الأدباء ١٩ : ٤٣ والشريشي ٣ : ٣١٦ .
٤ ص : يقضا .

وقال[1] :

سَلْ عن رِضاي عن الزمانِ فإنّه ... كرِضى الفرزدقِ عن بني يَربوعِ
لله حالٌ قد تَنَقَّلَ عهدُها ... بخلافِ نَقْلِ الدهرِ حال صَريع
دارتْ دراريُّ الخطوبِ قواصِداً ... حتى نَظرنَ إليَّ مِن تَرْبيع

كان صريعُ الغَواني خامِلاً فولاه بنو سَهْلٍ جُرجان فشَرُفَ .

وقال :

أهلَ الصفاءِ نأيتمْ بعد قُربِكُمُ ... فما انتَفعْتُ بعيشٍ بعدكم صافِ
وقد قصدتَ ندى مَن لا يوافقني ... فكان سَهْمِيَ عنه الطائشَ الهافي
أردتُ عَمْراً وشاءَ الله خارِجَةً ... أما كفى الدهرَ من خُلفي وإخلافي ؟

وقال[2] :

يقولون ساد الأرذَلونَ بعصرِنا ... وصار لهم قَدْرٌ وخَيْلٌ سَوابقُ
فقلت لهم ولى الزمان ولم تَزَلْ ... تُفَرْزِنُ في أخرى البيوتِ البيادق

وقال[3] :

قالوا تَصاهلَتِ الحَميـ ... ـرُ فقلتُ إذ عُدِمَ السَّوابقْ
خَلَتِ البيوتُ من الرِّخا ... خِ فَفَرزَنت فيها البيادقْ

---

١ الأبيات في الشريشي ٢ : ١٠٠ (٤ : ٨٨) والنتف : ١٠٤ .
٢ ورد البيتان في كتاب المقترح في جوامع الملح – باب الأشعار ـ (مخطوطة جامعة برنستون) وكتاب الآداب : ١٠٤ .
٣ البيتان في ياقوت والصفدي والفوات والنتف : ١٠٦ والغيث ٢ : ١٢ .

وقال :

شَكوتُ حُزْني وبَثّي إلى القَريبِ المجيبِ
فكان عُقباي عُقبى نَبيِّهِ يَعقوبِ

وقال[1] :

لكَ منزل[2] كمُلَتْ ستارتُه لنا لِلّهْوِ لكنْ تحتَ ذاك حَديثُ
غنّى الذبابُ وظَلّ يَزمرُ حولَه فيه البعوضُ ويَرقُص البرغوثُ

وهذا كقول السّميسِر[3] :

ضاقَتْ بلنسية بي وذادَ عني غموضي
رَقْصُ البراغيثِ فيها على غناء البَعوضِ

ما أخرجته من مراثيه لأهل القيروان بلده

قال من قصيدة وصفَ فيها إذلالَ أهلِ سوسَة جاليةَ القيروان ، وهي طويلة قطفتُ عيونها :

آهِ للقيروانِ أنّةَ شَجْـوِ عن فؤادٍ بجاحِمِ الحُزْنِ يَصْلى
حين عادَتْ به الدّيارُ قُبوراً بَلْ أقولُ الدّيارُ منهنّ أخلى

---

١ البيتان في ياقوت والمطرب والنفح ٣ : ٣٢٩ وبدائع البدائه : ٣٩٤ (ونسبا فيه لابن رشيق) والنتف : ٩٤.
٢ البدائع والمطرب : لك مجلس .
٣ وردا غير منسوبين في القسم الأول : ٨٨٨ وهما للحصري في بدائع البدائه : ٣٩٣ .

مُ لا شَمْعَةٌ سوى أنجمٍ تَخـ ... ـطو على أفقِها نَواعِسَ كَسْلى

بعدَ زُهْرِ الشَّماعِ تُوقَدُ وَقداً ... وميتانِ الذُّبالِ تُفتَلُ فَتلا

والوجوهِ الحِسانِ أشرقَ منهنَّـ ... ـم ويَفضُلنَهنَّ مَعنًى وشكلا

لو رأيتَ الذين كان لهم سَهْـ ... ـلُكَ وَعراً قد صيَّروا الوَعرَ سَهْلا

ومنها :

بعدَ يومٍ كأنّما حُشِرَ الخَلْـ ... ـقُ حُفاةً بهِ عَواريَ رَجْلى

ولهم زَحْمَةٌ هنالك تَحكي ... زَحْمَةَ الحشرِ والصحائفُ تُتلى

وعَجيجٌ وضجّةٌ كضجيجِ الـ ... ـخَلْقِ يَبكونَ والسرائرُ تُبْلى

مِن أيامى وراءهن[1] يتامى ... مُلئوا حَسرةً وشَجْواً وثُكلا [٩٢]

وثكالى أراملاً حاملاتٍ ... طِفلَةً تَحمِلُ الرِّضاعَ وطِفلا

وحَصانٍ كأنّها الشمسُ حُسنا ... كفّنتها الأطمارُ نَجْلاء كَحْلا

فاتَ كرسيَّها الجِلاءُ فأضحَتْ ... في ثيابٍ[2] الجلاء للناسِ تُجلى[3]

جار فيهم زمانُهم وأولو الأمْـ ... ـرِ فَفَرُّوا يَرْجون في الأرضِ عدلا

تَركوا الربعَ والأثاثَ[4] وما يَنْـ ... ـقُلُ لا حامِلٌ من الناسِ ثِقْلا

لَبِسوا الباليات مِنْ خَشِنِ الصُّو ... فِ ليغدو النَّبيهُ في الناسِ غُفلا[5]

---

١ ص : وراءهم ، ولعلها « وراءهم ويتامى » .

٢ ص : تباب .

٣ الذخيرة ١ : ٩١ .

٤ ص : والاناث .

٥ ص : لتعدوا البنيه . . . عقلا .

نادباتٍ ، عَفْراءُ تُسْعِدُ سُعْدى وسُعادٌ تُجيبُ بالنّوحِ جُمْلا

ليس منهنَّ مَن يُوَدّعُ جاراً لا ولا حُرمَةٌ تُشيّعُ أهْلا

كلّهنّ اعتلى الفراقُ عليه فاقتحمنَ الجلاءَ حَفْلاً فَحَفلا

فإذا القَفْرُ ضمّهُمْ فوقَ[1] الدَّهْـ ـرُ لهُمْ غيرَ ذلك النّبْلِ نَبلا

مِنْ ثَعابينَ حاملينَ نيوباً[2] عُصُلاً : ذابلاً ونَبْلاً ونَصْلا

وشياطينَ راحينَ يُلاقو نَ بجونِ الفلا مساكينَ عُزْلا

فترى للظّهور[3] تُعتلُ عَتْلاً وتُشقُّ البطونُ تُغسلُ غسلا

فإذا مَطمَعٌ أصابوه في أحـ ـشاءِ قَوْمٍ[4] عَمّوا بذلك كُلّاً

فإذا نجتْ[5] المقاديرُ مِنهم راحِلاً بالخلاصِ يَحْمِلُ رَحلا

لَقِيَ الهونَ في المذلّةِ أنّى كان مِن سائرِ البلادِ وحَلّا

ليس يلقى إلا أمرءاً مُستطيلاً طالباً عندَهُ حُقوداً وذَحلا

فترى أشرفَ البريّةِ نَفْساً ناكِساً رأسَهُ يُلاطِفُ نَذْلا

فهمُ كلّما نَبَتْ بهمُ أرْ ضٌ مطايا الفِراقِ خَيْلاً ورَجْلا

مُزّقوا في البلادِ شَرْقاً وغَرْباً يَسكبونَ الدُّموعَ هَطْلاً ووَبْلا

لا يلاقي النسيبُ منهم نسيباً يَتَعَزّى به ولا الخِلُّ خِلا

ليت شعري هل عَودةٌ ليَ في الغَيْـ ـبِ إلى ما أطال شَجويَ أم لا ؟

---

١ ص : فرق .

٢ ص : ليوثاً .

٣ ص : الظهور .

٤ ص : أحشا قد .

٥ ص : خبث .

قوله « حينَ عادَتْ به الدّيارُ قبوراً » يشبه من وجهٍ قولَ أبي تمام [1] :

وما القَفْرُ بالبيدِ القواءِ بلِ التي　　نَبَتْ بي وفيها ساكنوها هي القَفْرُ

وأخذَه بعضُ أهل عصري وزاد فقال :

ثاوٍ بحِمْصَ كأنّما هي قَبْرُه　　لو لم يقاسِ بها صروفَ زَمانِه

وقوله « ثم لا شَمْعَةٌ سوى أنجم » يَنظر إلى قولِ محمد بن هانىء الأندلسي [2] :

وبات لنا ساقٍ يَقومُ على الدُّجَى　　بشمعةِ صُبْحٍ لا تُقَطّ ولا تُطْفا

ويُرْوى « بشمعةِ ليلٍ » ، وإنما أخذه من قولِ أبي الحسنِ سُليمان ابن حسّان النّصيبي [3] :

وإنْ يَكُ لَيلُنا فيه نهاراً　　فشمعةُ بَدْرِه ليستْ تُقَطُّ

وربما توارد مَعَه لأنّه كان مُعاصِرَه ، إلاّ أنّ ابنَ هانىء أقدم موتاً ، حكى أبو عليّ في رسالة « **قُراضة الذّهب** [4] » أنه ماتَ سنةَ اثنتين وستّين وثلاثمائة .

---

١ ديوان أبي تمام ٤ : ٥٧٠ .

٢ ديوان ابن هانىء : ٢٣٨ .

٣ سليمان بن حسان النصيبي : أحد شعراء اليتيمة (١ : ٤٢٥) وهذا البيت لم يرد هنالك .

٤ لم أجد هذا في قراضة الذهب ، فلعل ابن بسام وهم أو لعل ما بين أيدينا من قراضة الذهب ناقص ؛ على أن كل المصادر التي ترجمت لابن هانىء جعلت وفاته سنة ٣٦٢ .

وقال ابنُ شرَف من قصيدة وصَفَ ما كان من صيانة الحريم في أوطانها ، ثم ما صارتْ إليه من الانكشاف في الحيل والترحال ، وركوب ظهور الخُطوب والأهوال ، يقول فيها[1] :

بعدَ خطوبٍ خطبَتْ مُهجتي | وكان وَشْكُ البَيْنِ إمهارَها
ذا كَبِدٍ أفلاذُها حوْلَها | قَسَّمَتِ الغُرْبةُ أعشارَها
أطافلٌ ما سَمِعَتْ بالفلا | قطُّ فعايَنتُ الفلا دارَها
ولا رأتْ أبصارُها شاطئاً | ثم جلَتْ باللُّجِ أبصارَها
وكانت الأستارُ آفاقَها | فعادَت الآفاقُ أستارَها
ولم تكنْ تعلو سَريراً علا | إلاّ إذا وافَقَ مِقْدارَها
ثمَّ علَتْ كلَّ عثورِ الخُطا | يَرْمي بها الأرضَ وأحجارَها
ولم تكنْ تلْحَظُها مُقْلَةٌ | لو كَحلَتْ بالشَّمسِ أشفارَها
فأصبحَتْ لا تتَّقي لَحظَةً | إلاّ بأنْ تَجمَعَ أطمارَها

قوله « وكانت الأستارُ آفاقها » مِن الكلام الفَصيح ، والقَلْبِ المَليح . ويُشبه مَنْحاه ، وإن لم يكُنْ في معناه ، قَوْل الأوّل[2] :

---

١ هي في التتف : ٩٩ نقلا عن معالم الإيمان .

٢ البيت لعبد الله بن الزبير الأسدي في الحماسة (شرح المرزوقي : ٩٤١) وزهر الآداب : ٤٠٥ ونسب في أمالي القالي ٣ : ١١٥ للكميت بن معروف ، وانظر اللسان (سمد) والعيني ٢ : ٤١٧ كما نسب في أنساب الأشراف (٤ / أ : ١٣٤) لأيمن بن خريم (وفي ص : 60 من المصدر الأخير تخريجات كثيرة أخرى يتضح منها أنه ينسب في بعض المصادر لفضالة بن شريك) .

فَرَدَّ شُعورَهُنَّ السّودَ بيضاً   وردَّ وجوهَهُنَّ البيضَ سودا

وكقول الآخر :

نديمتي جاريَةٌ ساقِيَهْ   ونُزْهتي ساقِيَةٌ جارِيَهْ

وله من أخرى[1] :

كأني وأفراخي إذا الليلُ جَنَّنَا   وبات الكرى يَجْفو جفوناً ويَطرُقُ

حمائمُ أضْلَلْنَ الوكورَ فَضَمَّها   تَجانُسها حتى تراءى المفرّق

إذا أفْزَعَتْهم[2] نَبْوةٌ زاحموا لها   ضلوعيَ حتى ودُّهم لو تُفَتَّقُ

ويَصغرُ جسمي عن جميع احتضانهم   فيثبُتُ ذا فيه وذا عنهُ يَزهَق

كأنّهمُ لم يَسْكنوا ظِلَّ نِعمَةٍ   لها بَهْجَةٌ مِلءُ العيونِ ورَونَق

إلى أنْ غدوا فَيْءَ الفيافي فتارةً   تُباعُ وفي بعضِ الأحايين تعتقُ

وطوراً على مَوْجِ البِحارِ كأنّنا   قذًى قد وثِقنا أننا ليس نَغْرَق [٩٣]

ونحن نفوسٌ تِسعةٌ ليس بيننا   وبينَ الرَّدى إلاّ عُوَيدٌ مُلَفّق

نظم هذا من قولِ الفَيلسوفِ[3] وقد ركب سَفينةً فقال للملاّح : كَمْ غِلَظُ لوحِ سَفينتك ؟ قال : إصبعان . قال فإنما بَيننا وبينَ الموت إصبعان .

---

١ الأبيات في المسالك ١١ : ٢٤٠ .

٢ المسالك : قرعتهم .

٣ ينسب هذا القول إلى أناخرسيس في صوان الحكمة : ٢٤٧ (ط . طهران) .

وقوله «إذا أفزَعتهم نَبوةٌ» . . . البيْت ، بناهُ على قولِ امرىء القيس ، إلاّ أنّ الوجدَ لَذَعهُ لَذْعَةً أنطقَتْه بالحال ، وقوّلَتْه السّحْر الحلال ، فعلّمته كيف يُفتّتُ الأكباد ، ويَفُتُّ في الأعضاد . وهو قولُه[1] :

إذا أخذَتْها هِزَّة الرَّوْعِ أمْسَكَتْ ... بمَنْكِبِ مِقدامٍ على الهَوْلِ أرْوعا

وقال من أخرى[2] :

يا قيروانُ وَدِدتُ أنيَ طائرٌ ... فأراكِ رُؤيةَ باحثٍ مُتأمّلِ

آهاً وأيّةُ آهةٍ تَشْفي جوى ... قلبٍ بنيرانِ الصّبابةِ مُصْطلي

أبدَتْ مَفاتيحُ الخطوبِ عجائباً ... كانت كوامِنَ تحت غيبٍ مُقْفَلِ

زعَموا ابن آوى فيك يعوي والصدى ... بذراكِ يصرُخُ كالحزينِ المثكَلِ

يا بيدَ روطةَ[3] والشوارعُ حولها ... معمورةٌ أبداً تغص وتمتلي

يا أربعي في القُطبِ منها كيف لي ... بمعادِ يومٍ فيك لي ومن آين لي ؟

يا لو شَهدتِ ، إذا رأيتكِ في الكرى ... كيف ارتجاع صباي بعد تكهّلِ

لا كثرةُ الإحسان تنسي حسرةً ... هيهاتَ تذهبُ علّةٌ بتعلّلِ

وإذا تجَدَّدَ لي أخٌ ومُنادمٌ ... جدّدتُ ذكر إخاءِ خلٍّ أوّلِ

« لو كنتُ أعلمُ أن آخرَ عَهدَهم ... يومُ الرحيلِ فعلتُ ما لم أفعَلِ »

---

[1] ديوان امرىء القيس : ٢٤٢ .

[2] منها خمسة أبيات في النتف : ١١٠ عن معالم الإيمان .

[3] روطة بالأندلس ، والشاعر يندب معاهده بالقيروان ، فلعل فيه تصحيفاً .

وهذا البيتُ لجرير ؛ وإنما تضمّنه . وبعده قولُ جرير [1] :

لو كنتُ أحذَرُ وَشكَ بينٍ عاجلٍ   لَقَنعتُ أو لسألتُ ما لم يُسألِ

وقولُه « واذا تجدّدَ لي أخٌ ومُنادِمٌ » من قول أبي تمام :

نقّلْ فؤادكَ حيثَ شئتَ من الهوى   ما القلبُ الاّ للحبيبِ الأوّلِ

وقال أبو الحسنِ الرضيّ [2] :

ما ساعَدَتني الليالي بعدَ بَيْنِكُمُ   إلاّ ذكرتُ ليالينا بذي سَلَمِ

وقال ابن شرفٍ من قصيدة [3] :

كأنّ الديارَ الخالياتِ عرائسٌ   كواسدُ قد أزرتْ بهنّ الضرائرُ
وتُنكِرُ بُقياهَا الأسِرّةُ حُسّراً   عواطِلَ لا تفشى لهنّ السّرائر
إذا أقبل الليلُ البهيمُ تمكّنَتْ   بها وحشةٌ منها القلوبُ نوافر
ولا سُرُجٌ إلاّ النجوم وربّما   تغَطّتْ فسدّتْ جانبيها الدّياجر
يمرُّ عليها المورُ يسحَبُ لُحفَهُ   ولا كانسٌ إلاّ الرياحُ الغَدائر
ويمتَدّ عمرُ الصّوتِ فيها وربّما   تجودُ مراراً بالكلامِ المقابرُ
فلو نطَقتْ ما كان أكثرُ نطقِها   سوى قولها أين الخليطُ المعاشر ؟
ألا قمرٌ إلاّ المقنّعُ في الدّجى   فأين اللواتي ليلهُنّ المعاجِر؟

---

١ ديوان جرير : ٩٤٠ .

٢ ديوان الرضي ٢ : ٢٧٥ .

٣ منها ثلاثة أبيات في معجم الأدباء ١٩ : ٤٢ وأحد عشر بيتاً في النتف : ٩٨ عن معالم الإيمان .

ألا منزلٌ فيه أنيسٌ مخالطٌ ... ألا منزلٌ فيه أنيسٌ مجاور ؟
تُرى سيئاتِ القيروانِ تعاظَمتْ ... ألم تكُ قدماً في البلادِ الكبائر ؟

ضجرَ أبو عبد الله – عفا الله عنه ؛ وفيها يقول :

ترحّلَ عنها قاطنوها فلا ترى ... سوى سائرٍ أو قاطنٍ وهو سائرُ
تكشّفَتِ الأستارُ عنهُم وربما [1] ... أقيمتْ ستورٌ دونهم وستائر
إذا جاذبتْ أستارها تبتغي بها ... لأقدامِها ستراً تَبَدّتْ غدائر
تبيتُ على فُرشِ الحصى وغِطاؤها ... دوارسُ أسمالِ زَوّارٍ [2] حقائر
فيا ليتَ شعر القيروانِ مواطني ... أعائدةٌ فيها الليالي القصائر ؟
ويا روحتي بالقيروانِ وبكرتي ... أراجِعةٌ روحاتها [3] والبواكر ؟
كأن لم تَكنْ أيامنا فيكِ طَلقةً ... وأوجهُ أيامِ السُرورِ سوافر
كأن لم يكُنْ كلٌّ ولا كان بعضُه ... سيمضي به عصرٌ ويمضي المعاصِر [4]

قوله « كأنّ الديار الخاليات » ينظرُ من وجهٍ إلى قولِ أبي تمام [5] :

وكذاك لم تُفرِطْ كآبةُ عاطلٍ ... حتّى يُجاورَها الزّمانُ بحالي

وقال ابن شرفٍ من أخرى :

---

١ ياقوت : عن أهلها وكم .
٢ النتف : عليها
٣ النتف : روحاتنا .
٤ النتف : وتمضي العصائر .
٥ ديوان أبي تمام ٣ : ١٣٢

سقى القصرَ فالميدانَ أخلافُ مزنةٍ ... وراحتْ على الروحاءِ منها أفاويقُ
على أنه مرمىً[1] نبَتْ عنهُ أسهُمي ... فلا حَزٌ لي في الأفقِ منه ولا فوق
أناديهِ والبحرُ المحيطُ مجاوبي ... ودوني خليجٌ منه أفيحُ مخروق
وقُرطُبةٌ ضمّتْ إليها جوانحي ... كما ضمّ من عفراء عروةَ تعنيق
نزلنا [بها] لا نبتغي السّوق عندها ... فما كان بدٌ أن أقيمتْ لنا سوق
وأحيا ابنُ يحيى ميّتاتِ خواطري ... وفسّحَ آمالي وكان بها ضيق
أبا حسَنٍ أحسنتَ بدءاً وعودةً ... وللغصنِ إثمارٌ إذا كان توريق
فلم يرَ بؤسٌ إذ وليتَ أمورَها ... ولا كسدَتْ سوقٌ إذ[2] التفتَ السّوق
وكم لقيت حربَ الأزارقِ منهُمُ ... وكمْ زرقَتْ في جانبيها المزاريق

قال ابن بسّام : وكثيراً ما يذكرُ ابنُ شرفٍ في شعره أحياءَ الأعرابِ التي أخرجتهم من القيروان كبني هلالٍ [٩٤] وقرة وزُغبة وهم الذين تولّوا حرب بلدِه في التاريخ المتقدّم الذكرِ ؛ فمن ذلك قصيدةٌ أوّلها[3] :

جُسومٌ على حُكمِ العيونِ صحاحُ ... وفي طيّ أحناءِ الضُلوعِ جراحُ

يقول فيها :

إذا كان للأحبابِ رسلٌ فرُسلنا ... بروقٌ إلى أحبابنا ورياح
ومن دونِ تلك الرُّسلِ أخضرُ زاخرٌ ... أجاجٌ ومهجورُ الفجاجِ فَياح

---

١ ص : مرعى .
٢ ص : إلا
٣ منها بيتان في معجم الأدباء ١٩ : ٤٢ وثلاثة في النتف عن معالم الإيمان .

وللسهمِ دون القيروانِ تسهّمٌ   وما شوكُه إلاّ ظبا ورماح
وقرّةُ قد قرّتْ هناكَ عيونُها   وزُغبَةُ ريشَت زُغبُها ورياح
كأن لم يكنْ لي أمس في عرصاتها   من العيشِ جدٌ طيّبٌ ومُزاح
يخيّلها زَورُ الكرى ليَ في الدُّجى   فأرغبُ في ألا يلوحَ صباحُ
كُسيتُ قناعَ الشيبِ قبلَ أوانه   وجسمي عليه للشبابِ وشاح
ويا ربَّ وجهٍ فيه للعينِ متنزَهٌ   أمانعُ عيني منه وهو مُباحُ
وأهجره وهو اقتراحي من الورى   وقد تهجَرُ الأمواهُ وهي قَراحُ

وهذا مصراعُ بيتِ المعرّي [1] :

* والعذبُ يهجَرُ للإفراطِ في الخصَرِ *

وقوله : « يخيّلُها زَورُ الكرى » ألمَّ فيه ابنُ شرف بقولِ العبّاس ابن الأحنَف [2] :

حتى أقول إذا استيقظتُ من أسفٍ   يا ليتني كنتُ دهري راقداً أبداً

وله من أخرى يمدحُ الأمينَ ابن السّقاء :

فيا أخويَّ من أسدٍ وسَعدٍ   أحيٌّ حيٌّ زغبةَ أم دفينُ
فلا اشتملَتْ مساكنها بشَملٍ   ولا هدأ القرارَ به سُكون

---

١ شروح السقط : ١٢٠ وصدره: لو اختصرتم من الاحسان زرتكم ؛ وقد كرر ابن بسام الاستشهاد به في مواطن .

٢ لم يرد في ديوان العباس .

ولا سَرَتِ الرياحُ على رياحٍ لواقِحَ مزنَةٍ أنّى تكون
فقدْ دارَتْ علينا من رحاها طَحونٌ كلما لاقتْ زَبون
فلا وطنٌ لنا إلاَّ المطايا وإلاَّ الماءُ طوراً والسَّفين
لعلّكَ أيها البرقُ اليماني إذا كشّفْتَ عن خبرٍ تبين
أفي وكناتها عُقبانُ قوم كعَهدي أمْ خَلَتْ منها الوُكون
وبين قِباب صَبرةٌ والمصلّى نُهىً ومهاً وآسادٌ وعِين
وأجبالٌ تَمورُ بها المذاكي وأقمارٌ تميسُ بها الغصون
وقرطُبةٌ أعيدَتْ قيروانا لنا لمّا دَهَتْ تلك الفتُون
وكيف يضيعُ مثلي في مكانٍ يكون به أبو الحسنِ الأمين
أيأمنُ أن تكونَ النونُ راءً وقد وَجبتْ له راءٌ ونون

انتهى ما أخرجته من أخبارِ ابنِ شَرَف ، ونتلو ذلك بطرف من أخبارِ ابنِ السَّقاءِ مدبّرِ الدولةِ الجهوريّة بقُرطُبة ، ونُشيرُ إلى مَقتله ، ونلمعُ بذكرِ أوّله ، وكيف ارتقى من الحضيضِ ، إلى ذروَةِ الجاهِ العريض ، حتى زاحَم نجومَ الأفلاك ، وملأ صدورَ الأملاك ، وسارتْ عنه في السّياسةِ أخبار ، مَحَتْ أضواءَ الأسحار ، وعَطّرتْ أنفاسَ الأزهار .

جملة من أخبار ابن السقاء القرطبي ، مدبر الملك الجهوري

قال ابنُ حيّان : كان أبو الحسنِ ابراهيمُ بن محمد بن يحيى المعروف بابنِ السّقاء قد كابدَ من شَظَفِ المعيشةِ في فَتاءِ سنّه ما لا شيء فوقه ، إذْ

كان يعالجُ السَّقطَ بسُويقَة ابن أبي سُفيانَ في قُرطبَة ببضاعة نزْرة . وأعلى ما انتقل إليه عند إكداءِ تلك الحرفةِ الاستخراجُ في جهةِ الأحباسِ ، وراثة[1] عن والدِه محمّد السّقاء . وبأسبابها خدَمَ القضاةَ وتمرَّنَ مع الفقهاء ، وهو يقتاتُ معيشَته مياومةً ، ويأوي ليله إلى بيتٍ في دويرةِ والده محمد بجوفيِّ المسجد الجامع ، يحاضرُ فيه جماعةً إخوةً لا يجد بينهم إلى مدِّ ساقه سبيلاً . وما هو إلاّ أن حَملَ الأمانةَ على كاهله ، فوضعها أسفلَ رجله ، وتَذكّرَ عضّ الكلابِ لعَصاه ، فتحوّل جُرَذاً للسّرقِ والخيانة ، وابتنى القصور المنيعة ، واقتنى الضِياعَ المُغِلّة ، إلى أملاكٍ لا تُحصى كثرة .

قال ابن بسّام : وقد رأيتُ ابنَ حيّان مَدَحَ ابنَ السّقاء في غيرِ ما مَوضعٍ مِن كتابه ، فقال فيه في فصل :

وصار مِن المناجحِ للدّولَةِ الجَهوريّةِ أن استعانَ فيها الوزيرُ الرئيسُ أبو الوليدِ جَهورٌ على أمره بالأمين أبي الحسنِ إبراهيمَ بنِ محمد ، مُتولي النّظر في المسجدِ الجامعِ على قديم الأيّام ، خادمِه الكافي المُنقطع إليه ، ونَصيحه المُتهالكِ[2] في طاعته . فتفرّسَ فيه فِراسةَ مِثْلِه ، فقلّده القيامَ بأعباء دَولته ، فأصابَ نقّافاً يخذم[3] ، ونفَذَ فيما يُريدُ عنه كالسّنانِ اللّهذم ، بجَودةِ استقلاله ، ورَجاحةِ وزْنه .

ثم ذَكرَه بعدَ مَقْتَله فقال : وهذه عَصْفَةٌ مِن عَصفاتِ الدّهرِ الخؤون ، الذي هو لمن أصغى إليه أنصحُ الواعظين [٩٥] . قَصَفَتْ مِن هذا الرّجلِ

---

[1] ص : وارثه .
[2] ص ، وتصبحه التهالك .
[3] ص : يحدث .

الظالم – كان – لنَفسِه، الغاشّ لمُصْطَنِعه، سَرْحةٌ نوّارة أطال الباطل مُتَرَعَها مِن غِراسٍ أودع خَضراء دِمْنَة. فَمَوَّه على أهلِ وَقتِه بِليانةٍ كانت فيه سوقيّةٍ، وخلابةٍ[1] جبِليّة، عَضَدَها جَدٌّ صاعِدٌ رقّاه من الحَضيض إلى السّها، وحرَسَتْهُ إلى مُدّة اجتذَبَتْه عند توفّيها أعراقُه اللئيمة، فتولّى ذميماً لسوءِ أفعالِه، فلا سماؤه بَكتْ عليه ولا أرضُه. وقد كنتُ كتبتُ من وصْفِ ظاهرِ محاسنِه أوانَ اعتلاقِه بقَهْرمةِ أميرنا محمد بن جَهْوَر، وعدَدتُ من حِسان خِصالِه ما لم يَبْعُدْ عن الصدْقِ عنه، لأخذنا بظاهرِ ما تَمَوَّهَ في العيونِ وقتَ بنائه لنفسِه، وتَنفيقِه لكسادِه، من طَأةِ الخُلُق، وحُسْنِ الاحتمال، ولين الحِجاب، وخِفّةِ المواطأة، وجَوْدةِ الوَساطة، معرضينَ فيه عن ذِكرِ ما لم يمكن لنا النفْثُ عنه ممّا في باطنِه من نَذالةِ الخِيم، ونَطَفِ الصُّحبةِ، وتُهمةِ الخلوة. وإذا به مُتخلّقٌ ليسمو إلى مُرادٍ أنالَه المِقدارُ إياه، فتنةٌ من الله. فلم يَلبثْ أن أدركَه عِرقُ السّوء، واجتذبَه إلى نَصْرِ طباعِه، فاستحالَ وتَغيّر، وعتا واستكْبر، وخانَ وغَدَر، فاستخفَّ المظالم، واستهان الكبائر، واطّرح الفُروض، واحتقرَ الحُقوق، واغترى بذوي الهيئات، وحَمَلَة المروّات، فأذالَ صَوْنهم، وأغرى غاشيتَه من سِفْلةِ الناسِ وأوغادِهم بهم، فأضرَعَ خُدودهم، وحَطّ أقدارَهم، وأشعرَ الأعِزّةَ الذّلّة، وألصقَ أنوفَها بالرَّغام، وأصمَتَها عن الكلام. فارتَفَعَ الأمرُ بالمعروف جُملَةً، ووَسعَ أهلَ السلامةِ الدُّخولُ تحت التّقيّة. فصِرنا ممن أخذ بذلك في ذِكره، فيما كتَبْنا له مِن ظاهرِ أخبارِه مُدّةَ سَتْر اللهِ عليه، إلى أنْ ارتفَعَتْ بزوالِ سُلطانِه، وأمانِ عُدوانِه، ففارَقَنا

---

[1] ص: وخلانة.

الحَزْمُ[1] في ذكرِه ، ولَزِمَنا العُذْرُ عَنْه بالنّقضِ لما أسلفناهُ مِن تَقريظِه .

قال ابن حيّان : ولمّا[2] رآه ولدُ ابنِ جَهورٍ آخذاً بخُطَطِ المُلكِ أجمعِها ، ومَراتبِ الرئاسةِ بكليّتِها ، وتَركَهم أعطالاً ، وبَسَطَ يدَه إلى مال الخراج واحتوى عليه ، يأخُذه كيف شاء ، ويُنفقُه فيما يُريد ، واصطنَعَ الرّجال ، واتخذَ الأصحابَ والغِلْمان ، فخضَعتْ له الرّقاب ، وَسَمَتْ إليه الآمال ، فتَوقّلَ ذِروةَ الإمارةِ حالاً حالاً ، حتى ثَنى الجندَ والرعيّةَ لنفسِه ، وصَدّهم عَن لقاءِ أميرِهم ابنِ جَهور . ولم يَستحي مِن اللهِ ولا مِن عبادِه في خَوْنِ أمانته ، ولا تستّرَ عن الإعلانِ بغُلول وَديعتِه ، وقدتولّى أمرَ السّلطانِ وهو فقيرٌ فلم يَستتر في الاكتساب ، بل جاهرَ في التحامُلِ على الجيرةِ والإكراهِ للمستضعفينَ ممن يُصاقبُه مِن ذوي خُطّةٍ أو سُهْمَةٍ . له في كلّ ذلك أمورٌ لا تُحصى كثرةً . ثم خلّط لأوّلِ ترقّيهِ في الرئاسةِ بأن اتخذَ لنفسِه جُنْدَ سَوْء ، مال به طَبعُه الرَّذلُ إلى الاستظهارِ بهم على أقادمِ الجُنْدِ بقُرطبةَ ممن مَرَنَ على الاستقامَةِ ، فتخيّرَ هو مِن أراذلِ الطبقاتِ ومُصاصِ شِرارِ الناس ، وانتقاهُمْ من أصنافِ الدّعَرَةِ والداثرةِ والأساودِ والرقّاصَةِ ، نخلَ مِن كلّ طَبقةٍ مرفوضةٍ ما بعثَ على الناسِ منهم ذِئاباً عاديَةً ، وأعدّهم ليوم الكريهةِ فلم يُغنوا عنه شيئاً لمّا حاقَ بهِ قضاؤه . وكان قد أقْفرَ دارَ الخِدمَةِ بقُرطبةَ ونَقَلها إلى دارِه ، فجعَلت المواكبُ تَزدحِمُ على بابِه ، ولم

---

[1] كذا في ص .

[2] لم يأت جواب « لما » .

يوفّقه اللهُ لاختيارِ حاجبٍ لبيبٍ يعلو [1] جماعةَ حجّابه ، فيحمِلُ له وجوهَ الناسِ ويرتّبُ قعودَهم بدِهليزِه فيُطمِعُهم بخُروجِه أو يعتذِرُ إليهم عنه بما يؤيسُهم منه ، فيذهبون لسَبيلِهم مُعافينَ من سوءِ غِلمانِه ؛ وما كانوا يلقونَه إلاّ [في] فَصيلٍ فيه أقدامُ [2] الرجال لسوءِ أدبِ حَجَبتِه في حَمْلِهم على الناس بعُنفِ الردّ . ولربّما دقّوا الأنوفَ ونتَفوا الشّواربَ غيرَ مميّزينَ لطبَقةِ الناس ، فحَقَدوا عليه ، إلى أشتاتٍ [3] من المساوىء نَظَمها ، وأنواعٍ من المخازي جَمَعها . وألقي له على قُلوبِ الناسِ رَهبَةٌ مع أضغانٍ [4] شَبّوا بها أصبغَةَ مَساويه [5] ، والأقدارُ تَدفَعُ عنه ، إلى أن حاقَت به فكبا لفيه . ولم يَزَل يرجَعُ [6] في مراتعِ الباطلِ ، ويُلَبّسُ على الناسِ أمرَهم ، وصدَّهم عن أميرهم ، وأخذَ اللهُ بسَمعِهم وبَصرِهم ، وتمثّلَ لهم الجَسَدُ المُلقى على كرسيّ سُليمان ، فحارَتْ ألبابُهم فيه ، وتاهَت منه ، مِن وَزيرٍ في قُعودِ أمير ، وقاضٍ في مِسْلاخِ جُنديّ ، وفقيهٍ على دينٍ يُحيي بالقول ويَقتل بالفِعل . فسُبحانَ من سوّاه من ألأمِ [7] طينةٍ فأمهله مُدّة . مِن رَجلٍ عَهِرِ الخَلوةِ لزُهدهِ في النساءِ وكلفه بالغلمانِ . واتّخذَ داراً آخرَ مُدّتِه للخلوةِ بهم ، فكان لا

---

١ ص : يغلوا

٢ ص : أقدام .

٣ ص : الا اشتاتاً .

٤ ص : اضطغان .

٥ قد يفهم المعنى مجازاً ، بأن مساويه كانت مخضوبة فشبتها أضغانهم أي أظهرتها بقوة التضاد .

٦ يرجع : يتردد ، وقد تقرأ : « يرتع » .

٧ ص : ألم .

يَخدِمه فيها [٩٦] ولا يَحُفُّ به غيرُ خاصَّةِ غِلمانه، ولا يأذَنُ لأحدٍ من طَبَقات الناسِ بالدُّخول إليه فيها. فأكثرَ الناسُ القولَ في هذه الدار وسمَّوها «دار اللذَّة» لأنّه كان يَجيئُها في أكثرِ النّهارِ عند فراغه من أحكامه فيقضي بها راحته. فإذا جاء الليلُ عاد إلى دارِ سُكناه الّتي فيها أهلُه. ومِن تمامِ العَجَبِ في شأنه أنّه لم يَكشفْه ولا نَبَشَ صَداه إلاّ تلك الطائفةُ من بِطانته الّتي اختارَهُم لنفسه من أراذِلِ الطبقات، وذلك مَعهودٌ في أمثالهم. فالصَّنيعَةُ لا تَزكو إلاّ عند ذي حَسَبٍ أو دين.

قال ابن حيّان: فلما قَطَعَ أموالَ الناسِ جُملةً عَن بني جَهور، وأخلى أبوابَهم مِن جميعِ الطبقات، ولم يَدَعْ لابنِ جَهورٍ من سُلطانه غيرَ التوقيعِ وحدَه، وتَقَدَّمَ إلى جميع أصحابه وحجّابه أن يُدعى بالسلطان، فكان إذا ركب إلى دارِ أميره ابنِ جَهور سأل سائل: أين يكونُ السّلطان؟ قال حجّابُه: في دارِ الوزير، فيجيئون بمعكوسٍ مِن القولِ يَمجّه السّمع، دانَ له النّاس بذلك عَنوةً، وخاطبوه بالتَّهويلِ دعاءً ومُكاتبة، إلاّ قليلاً تمسّكوا بالمروءةِ فاكتسبوا لديه مقتاً[1]. فظلَّ يزدادُ مع الأيّامِ استكباراً، ويُبطِنُ تدبيراً، ويُسيءُ تفكيراً[2]. أخبرتُ أنّه قال [له] يوماً بعضُ بِطانته عندما رآه يَرتكبُ من الفواحش: خَفِّضْ عليك، فقال له: وما علينا؟ واللهِ ما بها كَلبٌ يَنبحُ فيُجتمعُ إليه. وما علم الخائن[3] الشقيُّ أنَّ هناك شِبْلَ أسَدٍ جَهوريّ قد لَبَدَ لبطشٍ

---

١ ص: معنى.

٢ ص: تفطيرا.

٣ ص: الخائن.

به وهو عبدُ الملكِ الأصغر مِن إخوتِه ، لم يَستشِر في الفَتكِ به غيرَ نفسه [1] .
فلمّا كان في يومِ السبتِ لسبعٍ بقينَ لرمضانَ سنةَ خمس وخمسين أعدّ له رَجّالةً في فصيل أبيه ، وأقام هو يَنتظرُه ، وأرسل عنه رسولاً كان أبوه يوجّهه عنه . فلمّا وصل إلى بابِ ابنِ جَهور ومعه مِن أصحابه الناشبين معه نَزْرٌ يَسير ، وأراد النزولَ على حَجرٍ لاصِقٍ بالباب ، وإذا بعبد الملك قد قام عليه بخنجر أعدّه له فضرَبه ثمّ خرج عليه الرجّالة المُعدّون له وابتدروه كالصُّقورةِ بالسّيوفِ وحزوا رأسَه . وركب من حينه عبدُ الملكِ وجعل رأسَه على رُمحه وطيفَ به البلدُ كُلّه حتى انتهى إلى دارِه « دارِ اللذّة » ورمى رأسَه للعامّةِ ، فعاثَتْ فيه ، وكسروا أنيابه ونَتفوا لِحيتَه ، فأصبح شأنُه عَجَبا . واحتوى عبدُ الملكِ على تلك الدارِ وحازها بما فيها ، وعلى أصاغِرِ غلمانِه : واجتاز على السّجنِ وأطلقَ مَن فيه .
وسمع أبوه محمدُ بنُ جَهورٍ خبرَ الواقعةِ فخرج دهيشاً ، ورآهُ مُجدّلاً فارتاعَ وتلهّفَ، وانتهر ابنَه وهو يُحاولُ تطويفَ الرأس ولم يَقِف على أبيه . وأمرَ ابنُ جَهورٍ بستَرِ جَسدِه في دِهليزِ الإصْطبل . وتَقدّمَ بإصلاح أبوابِ المدينةِ ، وركب إلى المسجدِ الجامعِ وقد دخل الناسُ في السّلاح وجاشوا جَيْشاً عَظيماً ، وأبْدَوا بقَتلِ ابنِ السقّاء سُروراً عظيماً ، وأعلنوا بالشّماتِ به وإقداحِ القَولِ فيه .

وقعد ابنُ جَهورٍ بالمسجدِ الجامع على كُرسيّ المُصحَفِ ، وبادر المجيء إليه لأوّلِ الهَيْشةِ الوزيرُ الزّمِنُ ، بقيةُ وزراءِ الفتنةِ ، أبو إسحاقَ

---

[1] من قول الشاعر :

فلم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

ابنُ حمام عَدوٌ ابنِ السقّاء كأنّما أنشِطَ من عِقال . وقُتِلَ ذلك اليومَ مِن حاشِيَتِه نَحوٌ مِن عشرين رَجُلاً . واعتصم أخوه بمنارِ المسجدِ الجامعِ فنجا . وانطلقَتْ أيدي الناس على [أتباعِه][1] فنُهِبَتْ دورُهم . ثم أمر ابنُ جَهورٍ بسَوْقِ رأسِه وضُمَّ إلى جَسَدِه ، ووُرِيَ في أخدودٍ خُدَّ له بباب مَسجدِ ابنِ السقّاء في أطمارِه ، وهِيلَ عليه التّرابُ هيْلاً . وسُلِبَتْ كُسوةُ المسجدِ وثريّاه ، وعُطّلَتْ فيه الصَّلاة ، فصار ثويّاً[2] للثاوي .

فصلٌ في ذكر الأديب الأستاذ أبي الحسن عليّ بن عبد الغني الكفيف المعروف بالحُصري[3] واجتلابُ جملةٍ من نظمه ونثره

وأبو الحسنِ هذا ممّنْ لَحِقتُه أيضاً بِعُمري ، وأنشدني شِعْرَه غيرُ واحدٍ من أهلِ عصري . وكان بحرَ بَراعة ، ورأس صناعة ، وزَعيم

---

١ بياض في ص .

٢ ص : ثاوياً ؛ والثوي : البيت .

٣ للحصري ترجمة في الجذوة : ٢٩٦ (بغية الملتمس رقم ١٢٢٩) والصلة : ٤١٠ والسلفي ٦٣ ، ١١٠ ، ١١١ والخريدة ٢ : ١٨٦ ومعجم الأدباء ١٤ : ٣٩ والوفيات ٣ : ٣٣١ وغاية النهاية ١ : ٥٥٠ ونكت الهميان : ٢١٣ وعبر الذهبي ٣ : ٣٢١ والشذرات ٣ : ٣٨٥ وقد ترجم له في المسالك ثلاث مرات ١١ : ٣٧٥ ، ٤٥٥ ، ٤٦٨ (والأخيرة منها خطأ باسم علي بن عبد العزيز) ولم يأت في ترجماته بشيء ، وله شعر في نفح الطيب والمطرب والحلة ٢ : ٤٥ وذكر خبره في الحلة ٢ : ٦٧ مع المعتمد وهو ينقل عن الذخيرة – وقد =

جماعة . طرأ على جزيرةِ الأندلسِ مُنْتَصفَ المائةِ الخامسةِ من الهجرة[1] بعدَ خرابِ وطنه بالقَيروان . والأدبُ يومئذٍ بأفْقِنا نافِقُ السّوق ، مَعمورُ الطريق . فتَهادَتْهُ مُلوكُ طَوائفِها تَهاديَ الرياضِ النّسيم ، وتنافسوا فيه تنافُسَ الدّيارِ في الأنسِ المُقيم ، على أنّه كان فيما بَلَغني ضَيّقَ [٩٧] العَطَن ، مشهورَ اللّسَن . يتلفّتُ إلى الهجاء تَلَفّتَ الظمآن إلى الماء . ولكنه طُويَ على غَرّه[2] ، واحتُمِلَ[3] بين زمانته وبُعْدِ قُطره . ولمّا خُلِعَ مُلوكُ الطوائفِ بأفْقنا — حسبما شرحتُ فيما تقدَّمَ من هذا المجموعِ وأوضحتُ — وأخوَتْ تلك النجوم . وطُمِسَتْ من الشّعْرِ الرُّسوم . اشتملتْ عليه مدينةُ طَنْجة ، وقد ضاق ذَرْعه ، وتَراجَع طَبْعُه . وله على ذلك سَجْعٌ ، يَمجُّ أكثرَه السّمْع ، لم يَسْمَحْ نَقْدي أن أكتبَه ، ولا رأيتني أن أرويَه[4] . وما أراه يَسْلُكُ[5] إلاّ سبيلَ المعرّي فيما انتحاه ، وكان هو وإيّاه كما وصف العباسُ بن الأحنف[6] :

= تقدم — . وتكرر هذا الخبر في المعجب : ٢٠٥ ، وكانت وفاة الحصري سنة ٤٨٨ (ووقع خطأ في غاية النهاية إذ كتب ٤٦٨) ومن الغريب أن ابن عسكر حين ترجم له (ادباء مالقة : ١٥٧) عده من أهل سبتة . وقد قام الاستاذان محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى بدراسة عنه مرفقة بما وجد من رسائله وأشعاره وديوانه المعشرات واقتراح القريح (تونس : ١٩٦٣)

١ ذكر الحميدي أن الحصري دخل الأندلس بعد ٤٥٠ هـ .

٢ ص : عره ؛ والتصويب عن ابن خلكان ؛ وطويت فلاناً على غره أي لبسته على دخل .

٣ ص : واحتفل ؛ والتصويب عن ابن خلكان .

٤ ص : ولا . . . أن أدريه .

٥ ص : أن يسلك .

٦ ديوان العباس : ٢٢١ وزهر الآداب : ١٠٣٣ .

هي الشمس مَسْكَنُها في السماء فعزِّ الفؤادَ عزاءً جميلا
فلنْ تَستطيعَ إليها الصُّعودَ ولنْ تَستطيعَ إليكَ النّزولا

أو كما قال ابنُ الرُّومي[1] :

دَعوا الأسدَ [تربضُ] في غابها ولا تدخلوا بين أنيابها

وهيهاتَ في قُدْرَةِ العَمى ، أنْ يَجمع بين الأرضِ والسما ، ولا بتَقاربِ الصّفات ، تَقتَرِنُ مَنازلُ الموصوفات :

أكلُّ أبي ذُؤَيبٍ مِن هُذَيلٍ وكلُّ أبي دوادٍ من إيادِ ؟

جملة ما أخرجته من نثر الحصري المكفوف[2]

فصل له من رقعة : السلامُ عليك أيّها القَلبُ الثاني ، والبعيدُ الدّاني ، الرّاقي في سماء المعالي ، الواقي مِنْ داءِ الليالي . أوّلُ مَن عدَدْت ، وأفضَلُ مَن أعدَدْت . ومَن لا زال النّسيمُ في البُكَرِ والعَشيّات ، يهدي إليه طَيّبَ التّحيّات . ومَنْ جُعِلْتُ وِقاءه ، ولا عَدِمْتُ لِقاءه ، فإذا كان الكريمُ سالما ، كان الزمانُ مُسالما .

---

١ ديوان ابن الرومي ١ : ٣٥٢ (عن الذخيرة) .
٢ أدرج الأستاذان المرزوقي والجيلاني هذه الرسائل عن الذخيرة في كتابهما : ٩٣ - ٩٩ ولم يعتمدا أصلا آخر . ولذلك اكتفي بهذه الاشارة إليها .

وله من أخرى : وصَل كِتابُك أبْهى من الحَلي والحُلَل ، وأشهى مِن القَبول والقُبَل . وشيٌ مرقوم ، ودُرّ مَنْظوم ، وأنفاسٌ عراقيّة[1] ، ومِياهٌ دجليّة لا زعاقيّة :

فلو أني استطعتُ من ارتياحٍ   لَطرتُ ببعضِ أجنحَةِ الرياحِ
وكنتُ أطير لولا قصُّ ريشي   وكيف يطير مقصوصُ الجناحِ

كتابٌ كأخلا قبلَك لولا سوادُه ، الهدبُ حروفُه والحدَقُ مِدادُه . فاستقبلتُ منه قِبلَةَ الحسنِ ، وقبّلتهُ تقبيلَ الركن ، وقلت لصحبي : اقرأوه عليَّ . فلما نظروه عجبوا من خطّه ، وتعجّبتُ أنا من لفظِه وضبطِه . فتنزّهوا بالنواظر ، ونزّهوني بالسّمعِ والخواطر ، فكنتُ الأظفر ، وكان حظّي الأوفَر ، إذْ بَصرتُ بما لم يبصروا به ، من فنونِ العلمِ وضروبِه .

قولُه : « فتنزّهوا بالنّواظر ، وتنزّهتُ بالسّمعِ والخواطِر » معنىً مُتداولٌ منقول ، وكأنّه محلولٌ من قول الرَّضي حيثُ يقول[2] :

فاتني أن أرى الديارَ بعيني   فلعلي أرى الديارَ بسمعي

وله فصلٌ من أخرى : والعِلم منهاج ، وسراجٌ وهّاج . ما صَديَ مَنْ سَقاهُ صوبَ صَفائه ، ولا عرِيَ من كساهُ ثوبَ عرائه . ولا حاف عن الحقّ لسانُ من يرويه ، ولا خاف من الخلْقِ جَنانُ من يحويه . هو الجوهرُ

---

١ ظن الأستاذان المذكوران قبل أن هذه الرسالة (لذكر الانفاس العراقية) موجهة إلى صديق عراقي ، وهو ظن مستبعد ، لضعف الدلالة .

٢ ديوان الرضي ١ : ٦٥٨ .

استخرجَتْهُ[1] أفكارُ الليالي من بُحورها، فالتقطته أبكارُ المعالي لنُحورها، وجَميعُ العلومِ كمال، والأدبُ منها جمال، هو لسان النبيّ العربي، صلى الله عليه: فَقيهٌ يَلحَن، حِمارٌ يَطحَن، وكاتبٌ غيرُ أديب، أشبَه الحيوانِ بذيب، وشاعرٌ غير معرِب، أشبَه من بانٍ بمخرّب، ربَّ وزيرٍ يُعجِبُ الناسَ وهو صامِت، فإذا نَطَقَ فكلٌّ حاسدٍ به شامت.

وله من رقعةٍ طويلةٍ خاطبَ بها أبا الحسين بن الطّراوة[2]، وجرت بينهما هِنات[3]. قال في أولها[4]:

يموتُ من في البلادِ طُرّاً	من طيّبٍ كان أو خَبيثِ
فَمُستَريـــحٌ ومُســـتراحٌ	منه كذا جاء في الحديثِ

ما حياتي بين الحيّات، وثَباتي في الجميع أو الثُّبات، وقد حانَتْ وفاةُ الوفاء، وخانَتْ صفاتُ الصفاء، وأرداني الزمانُ بأردانه، وأعياني بتقلبِ

---

١ ص: استمزجته.

٢ هو سليمان بن محمد بن الطراوة المالقي النحوي درس على أبي الحجاج الأعلم وأبي مروان بن سراج وتجول في بلاد الاندلس معلماً، وله كتاب «المقدمات على سيبويه» وكانت وفاته سنة ٥٢٨ (التكملة رقم: ١٩٧٩ والذيل والتكملة ٤: ٧٩ – ٨١ وتحفة القادم: ١١ والمغرب ٢: ١٠٨ وبغية الملتمس رقم: ٧٧٩ وبغية الوعاة: ٢٦٣ ونفح الطيب، وله أخبار وشعر في معجم السلفي: ١٧، ٤٦، ٦٣ وأدباء مالقة: ١٨٨ وعيون التواريخ ١٢: ٢٨٤.

٣ هنالك صورة من هذه الخصومة بين ابن الطراوة والحصري في كتاب السلفي: ٦٣ وروى السلفي عن أحد المالقيين قوله: «كانت بينهما منافرة ومناقرة ويهجو كل منهما الآخر». وقال ابن عبد الملك: «وكانت بينه وبين الأستاذ أبي الحسن الحصري مخاطبات نال كل واحد منهما فيها من صاحبه».

٤ البيتان في التكملة: ٤١٩ والنفح ٢: ١٥٤.

أعيانه ؟ الجاهلُ هو الحاظي ، والعالِمُ مَبخوسُ الأحاظي ، والغاوي مَقبول الدّعاوي . وما أبعَدَ الخيرَ من العَير ، والكَيسَ من التَيس ، والفَضلَ من الفَسل ! إذا كانَ الجاهُ للجاهلِ ، والباسُ على الباسل ، والمنافقُ هو النافِق ، وصَوَّحتَ المراعي ، وقَلَّ المساعِدُ والمراعي ، فيا دهرُ ما أسهاك ، ويا مَوتُ ما أشهاك ، المنيّة هي الأمنيّة . فالبر بائر ، والحر حائر . بينَ أخوَن [1] إخوان ، وأجورِ جيران ، إن وَصَلهم صرموه ، أو سألهم حرموه . وإن أجاب بالصواب ، قالوا أخطأ في الجواب [٩٨] .

وممّا أضحكني ملء فيَّ ، وأطاشني وليس الطّيشُ فيَّ ، هذا المتَنَحوي المتنخويّ . سقَطَ إلى دانيّة ، وطَمعَ في الأجادل ، وإن كان أضعَفَ من العَنادل ، فعاد ذمرا ، وإن كان زَمرا ، وبَعثَ رسوله لي يقول : كيف تكتف نقري [2] ؟ فقلتُ : إن كان الجنون داء فالكي يُبري . ونَظَمتُ قصيدةً سمّيتها سهم الشّهم ، وضَمّنتها مسائل لا تخفى على أولي الفَهم ، فما بلَغته حتى دمغته ، وألقاها كأنّها حيّةٌ لدَغته .

وفي فصلٍ منها : وأما زعمُه أني لم أدر اسم سيبويه فمن مضحكاتِ الدهر ، أما كفاه خطأه في الآيات والأبيات حتى تعرَّضَ لعرضي غروراً : ﴿ إن هذا إلاّ إفكٌ افتراهُ وأعانَه عليه قومٌ آخرون ﴾ (الفرقان : ٤) ، فقد جاءوا ظلماً وزُورا . أنا الذي سبقت الشّعراء ، وفَضحتُ في المحافل الوزراء . فلو لاذ بسور حلمي لحمَيتُه ، ولو عاذَ بنورِ علمي لهَديتُه . أيّها المموّه بجهله ، والمدّعي العلم وليس من أهله ، سَكرتَ فصَحوكَ لا يجديك [3] .

---

١ ص : أخوين .

٢ لم أهتد لمعنى هذه العبارة .

٣ ص : يحومك .

اعترف بذنبكَ قبل صرعكَ على جنبك ، فيدحَض [1] حجاجُك ، وتَطمس محاجّك ، إلامَ تلجأ فتاوي ، إذا نفذَت فيك الفتاوي ؟ ! وكأنيّ بمن ضمَك قد ضامك ، وبمن لمّك قد لامك ، وبمن حلاّك ،قد خلاّك ! الحقائق واضحة ، والمخارقُ فاضحة . تشبّه بالحصيّ [2]، أما يُدرى الفَحلُ مِن الحصيّ ؟ ! مَثَلُ العالم والجاهل ، مثلُ الناهقِ والصاهِل :

وليس يصحُّ في الأفهام ِ شيءٌ   إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ [3]

وزعم هذا الأهوجُ الأعوج أنه لم يعرف رسمي . ولا سَمعَ باسمي ، كأنّما ولدَ بالأمس ، أو بُعثَ من الرّمسِ ، أو عَمي عن الشّمس ، لو عَلمَ قدرَ نفسِه لم يَتجهل العَلَم ، ولو أراد السلامة لألقى السّلم .

وفي فصل منها : يا مَهووس ، أنا الطاء وأنت الهواء، فلستَ من طباقي، كم بين همسِك وإطباقي ! لو زرتَ نقرانَ [4] ونَجرانَ ، لألفيتَ ذكري قد علا ، وشِعري قد غلا . ما اغتابني في غَيب ، إلاّ ذو عَيبٍ وخيم ،مع لؤم ِ مَعلوم [5] . ولولا بذؤكَ بالنّجه ، لما كبَبتكَ على الوجْه . وكنتَ فيما تظن نوراً فكسفتك ،ومستوراً فكشفتك : وما استوعبتُ خطأك ولا استقصيته،

---

١ ص : فتدحض .
٢ ص : بالخاصي ؛ والحصي : الحصيف الشديد المقل .
٣ بيت للمتنبي ، انظر شرح العكبري ٣ : ٩٢ .
٤ ص : نقدان ؛ ونقران في ديار بني تميم ؛ وإذا كانت نعوان فهيَ في ديار غطفان ، وإذا كانت قران فهي في اليمامة (وأرجح الأخيرة لأنها أشهر) .
٥ ما اغتابني . . . معلوم : هذه العبارة وردت في إحكام صنعة الكلام : ٢٥٠ وكتبت هنالك : « ما اعتابني في عيب إلا ذو حيب وخيم مقيم مع لؤم معلوم » .

ولو رمتُ عدده ما أحصيتُه ، وهل شعركَ إلاَّ كنحوك ؟ ! وما أبردَ الهواءَ من نحوكَ ، ألستَ المنشد في الحاجب أبي حَكَم[1] :

أبا حَكَمٍ فُتَّ الملوكَ جلالةً فكلّهم فاسَ المخافةِ عالكُ

لو زدتَ الياء في فاسك ، لكان أشبه بأنفاسك ؟

وله من أخرى إلى الأديب غانم[2] بمالقة : أبي صرْفُ القضاء ، وشبيه لسانك في المضاء ، ونظير[3] صدرِك ويديك ، في سعة المعروفِ والعلومِ لديك ، أن أكون من زوّارك ، فأقبسَ من أنوارك ، وأقطِفَ من أنوارك ، يا لبابَ أولي الألباب ، يا سلسبيل أبناء السبيل :

فارقتني وأنا والشوقُ إلفان فاسأل رسولكَ عني كيف ألفاني
قبّلتُ كتبكَ من فرطِ الهوى قُبَلاً أقلّهنَّ إذا عدَّدتَ ألفانِ

ولما شُقتني بغُرَرِك الأثيرة ، ورُقْتني بدُرَرِك النّثيرة ، ذممتُ عبدَ الحميد ، ومحمدَ بنَ العميد ، وأنشدت :

لقد فاتَ في نثره غانِمٌ بديعَ الزمانِ وقابوسَهُ
وروّى الظّماء بماء النعيمِ فلا عيشَ إلاَّ وقى بوسَه

---

١ ورد البيت في القسم الأول : ٨٤٢ .
٢ هو غانم بن وليد المخزومي ، ترجم له ابن بسام في القسم الأول : ٨٥٣ وأورد له رسالة إلى الحصري أيضاً ص : ٨٥٦ .
٣ ص : ويضير .

وكنتُ ـ أبقاك الله مَنهلاً عَذْباً لأودّائك ، ومُنْصلاً عَضْباً على أعدائك ـ صَنَعْتُ قصيداً يُحيي الطَّرب إذ كان [ميتا] ، فيه تسعةٌ وتسعون بيتاً ، وكنتُ كتبتُه ،فلم أجِدْهُ إذ طَلَبتُه ، وفكّرتُ الآن فيه ، فلم أحفَظْ غيرَ قَوافيه ، وهذين البيتين :

تحيّتي وسلامي على الأديبِ البليغِ
المُرْتدي بالمعالي والحِلمِ قبلَ البُلوغ

وأنا ربُّ القريضِ الجيّد ، لأني أقولُ في الأديب السيّد[1] :

مِن طينِ طُوبى خُلِقْتَ فَذّاً فأنت في ذا الورى غريبُ
بُدِّلَتِ النونُ فيكَ باءً فالناسُ طينٌ وأنت طيب

وله من أخرى إلى أبي الفضل بنِ حَسْداي[2] شاكياً بصِهْرِه ابن عيّاش[3] اليهودي : سيّدي الذي حُتِمَت[4] عليه المِنَح ، فَتَخُتِمَتْ به المِدَح . حَفِظَ الله عُلاك حِفْظَ سمائه ، وأعاذك من العَينِ بأسمائه . بحُسْنِ أوصافك ، احكُمْ بإنصافك [٩٩] أترضى لِصِهرِكَ المُشْرِف ، بأخلاق البخيلِ المُسْرِف ؟ قصدت بالرّهان للسلَف ، فعدتُ بالدّهانِ والصَّلَف ، وسألْتُ في الزّمان ، فأعطيتُ عطاء الزّمان ، وأنا شاعرُ الزمانِ ، فأحطّ ، فما رفع[5] أو حَطّ ، ولا بدّ أنْ أنْشدَهُ لأرْشدَهُ :

---

١ ورد البيتان في إحكام صنعة الكلام : ٢٤٦ .

٢ وردت ترجمته في القسم الثالث : ٤٥٧ .

٣ ص : عباس .

٤ ص : ختمت .

٥ ص : فارفع .

أيّها المُشْرِفُ حاشا ... لأولي الرأي الخطاءُ
لا تَقُلْ ما بيدي ما ... لٌ ولا عندي عطاءُ
بَيْتُ أموالِكَ بحرٌ ... ما على البحرِ غِطاءُ
أحمَدٌ غيرُ عليّ ... حين يشتدُّ الوِصاء
هل هما في الهمْسِ والإط ... باقِ إلاّ ها وطاء
وكذاكَ الخَيْلُ منه ... نَّ سِراعٌ وبطاءُ

وصديقك إن لم يأتِ ، فابسُطْ عُذرَه بهذه الأبيات :

عِرْفانُ عرْفك شاقني ... فلو استطعتُ لساقني
ما بالُ صهرِكَ صَدَّني ... وإلى سَناكَ أتاقَني
وأنا الرّحيقُ سُقيتَهُ ... فاسألْهُ كيف أراقني
ولقد حلَوْتُ ولَيتني ... أمرَرْتُ لمّا ذاقني
قد كنتُ رَحبَ الصّدْرِ حتـ ... ـى غاظَني فأذاقني
هو عَقّني وبَرَزْتَني ... هو عن لقائكَ عاقني
إنّي أخفُّ على [الوزيـ ... ـر] ولو ثَقُلْتُ لطاقني
نَفسي فِداؤكَ يا أبا الـ ... ـفضْلِ الذي قد راقني
أحبَبْتُهُ وأحبّني ... فاشتَقْتُهُ واشتاقني
من سال عنك أجَبْتُهُ ... ما فُقْتَهُ بل فاقني

ما أخرجته من شعره في أوصاف شتّى

النسيب وما يتشبث به

أغيَدُ ريّانُ بماءِ النّعيمْ ... ألبَسني السُّقمَ بلَحظٍ سَقيمْ
قد خطّ بالمِسكِ على خدّهِ ... ما الحُسنُ إلاّ لأديميّ أديم
يا عاذلاً يَحسَبُني مثلَهُ ... لا تَحسَبِ السّالمَ مثلَ السّليم

وقال :

وهبتُ قُوايَ للحدَقِ الضعافِ ... وإن كانتْ بسفكِ دَمي تُكافي
فكان الضُّعفُ قوّتَها علينا ... وهل ذا الطّبعُ إلاّ في السّلافِ ؟
شَغَلنا عن مُساعدَةِ اللّواحي ... بشاغِلةِ الحجيجِ عنِ الطّواف
خضبتُ الشّيبَ أخدَعُها فقالتْ ... تَشبّهتَ الحمامةُ بالغُداف
فقلتُ صدقتِ لِمْ أنكرتِ منّي ... وأنتِ عفيفَةٌ نَبتَ[1] العفافِ ؟
فقالتْ بيننا في الشّيبِ خُلْفٌ ... ويُفتينا بمسألةِ الخلافِ
ولمّا أينَعتْ رُمّانَتاها ... ونادى الوَصلُ حَيَّ على القِطافِ
تأذّتْ فيهما بفَمي فقالتْ ... شمائِلُ عاشِقٍ وفِعالُ جافِ

---

[1] ص : سبت ؛ وقد تقرأ « نسب » .

قوله : « تَشَبَّهتِ الحمامةُ بالغدافِ » كقول القائل [1] :

يا أيها الرَّجلُ المُسَوِّدُ شَعْرَهُ [2] | كيما يُعَدَّ بهِ من الشبّانِ
أقصِرْ فلو سَوَّدتَ كلَّ حمامةٍ | بَيضاءَ ما عُدَّتْ من الغِرْبانِ

وما أملحَ قول أبي بكر الخالديّ [3] :

ما كان يَنفعُهُ لَدَيَّ شَبابُهُ | فعلامَ يُجهِدُ نَفسه بخِضابِهِ !؟

وقال الحصري :

مَن لي بظبيٍ جَناهُ مَعسُولُ | دمي بدمعي علَيهِ مغسولُ
أقرأ في خَدِّهِ كِتابَ هَوًى | أنَّ دَمَ العاشِقِينَ مطلول
حُسامُ عَينيكَ من فُتورِهما | كأنَّهُ مُغمَدٌ ومَسْلُولُ
اغمدْ وسُلَّ ليسَ لي وَزَرٌ [4] | أنا على الحالَتينِ مقتول

وقال :

رُدّي حُشاشَةَ عاشِقٍ مهجور | بين المَلُومِ عليكِ والمَعذُورِ
للؤلُؤِ المنظومِ في فمِكِ انبرَتْ | عَبَراتُهُ كاللّؤلُؤِ المَنثُورِ

---

١ نسبا لابن الرومي في أمالي القالي ٢ : ٢٨٢ والشريشي ٢ : ٣٤ وقال ابن رشيق في القراضة : ٤٦ – ٤٧ البيت الأول لابن الرومي والثاني لعبد الملك بن صالح ، ارتجل ابن الرومي بيته واستجازه .

٢ القراضة : يا من يسود بالخضاب مشيبه .

٣ لم يرد البيت في ديوان الخالديين الذي جمعه سامي الدهان .

٤ ص : وزراً .

ذَكَرَ الفِراقَ فماتَ إلاّ شوقَه وأولُو الهوى مَوْتَى بغيرِ قبورِ
ودَّعتُ مَن أهوَى بل استَوْدَعتُها قلبي وسِرٌّ مَدامعي وزَفيري
فبكَتْ بنَرْجِستَينِ خفتُ عليهما نَفْسي فلم ألُمْ بغَيرِ ضَميري
قالت : أترحلُ والأحبّةُ هاهنا قلتُ : القضاء كما علمتِ ضَروري
قالت : متى الرُّجعى فقلتُ : إذا انتهى مَقدورُ رَبّي ، مُقدرِ المقدورِ[1]
وعسى مُفرِّقنا سيَجمَعُ بيننا إنَّ العسيرَ عليهِ غيرُ عسير
ولئِنْ أبَى مَنْ تَعلَمينَ فربّما حدثَتْ أمورٌ لانتقاضِ أمورِ
لا تَجزَعي من نَكبَةِ الدُّنْيا وإنْ ساءتْ فرُبَّ مَساءةٍ لسرور

وله في غلام كان يُسمّى هارون[2] :

يا غزالاً فتَنَ النّا سَ بعينَيهِ فتُونا
أنتَ هاروتُ ولكنْ صَحّفُوا تاءكَ نُونا

وقال ممّا ذَهبَ به مَذهبَ أبي الفتح البُستي صاحب الطريقة الأنيقةِ في تجنيسِ القوافي :

أصبحتُ مَفتُوناً بكمْ مُدْنَفاً وإنّما بُرْئي لمى فاتـني
يا أملَحَ النّاسِ وحَقّ الهوى لو كان لي الحُكْمُ لما فاتني

....

١ ص : مقدور من يقدر للمقدور .
٢ البيتان في المسالك ١١ : ٤٥٥ والمطرب : ٧٥ والخريدة ٢ : ١٨٦ ومختارات ابن الصيرفي ١٣١ .

وقال : [١٠٠]

رابَه عِلّتي ضَنىً فأتاني   عائداً في يديه[1] [لي] ياسمينُ
فتفاءلْتُ أنّه قد تَهَدّى   لهُزالي فقال لي يا سَمِينُ

وقال[2] :

رُبَّ ظَبْيٍ هويتُهُ   يَنتمي للهوازنَهْ
قلتُ ما أثقلَ الهوى   قال ما للهوى زِنَهْ

وقال :

إن كتمتُ الهوى فقد   صار سِرّي علانيَهْ
لسَقامٍ أذابَني   وشُحُوبٍ علانيَهْ

وقال :

فكّرْتُ في خلقِ الوَرَى فاستوَى   عندي عَبيدٌ وسلاطينُ
أصلُ الفَريقَينِ – ومِن أجلِ ذا   قلبي عن الهمّ سَلا – طِينُ

وكان سأل بعضَ الملوكِ أن يكسوَه ومَطَلَه ثم أعطاه قمحاً مُسوّساً ، فقال فيه :

يُريدُ سياسةً مَن لا يسمّى   وطبعٌ فيه يأبَى أن يَسوسا
سألتُ كُسًى فمنّاني بقمحٍ   وأعطاني مكانَ القمحِ سُوسا

---

[1] البيت مضطرب في ص : رابه على ضنى فأتى . . . يده ياسمين .
[2] هذه القطعة والتالية في الشريشي ٥ : ٢٤٠ .

وقال أوّل جوازه إلى الأندلس[1] :

في كلّ أرضٍ موْطنٌ يُعرَفُ فيه جاهُنا
وإنّما ألْجآنـــا إلى هُنا التّهنُنـــا

وقال :

يا مَن تكحّلَ طرْفُها بالسّحرِ لا بالإثمِدِ
نفسي كما عذّبْتِها وقتلْتِها بالإثمِ دِي

وأنشد يوماً بيتَ المعرّي :

ياقُوت يا قوت روحي رُوحي براح براحِ

وفيه ستُ كلماتٍ مُتجانساتٍ على قِصَرِ عرُوضِه . وكُلِّفَ تذييلَه فقال :

أوفاكِ أوفاكِ رِقّي رقّي بِطاحَ بِطاح

فقيل له لو ذيّلتَه ببيتٍ فيه ياء النداء ، كما في بيت أبي العلاء ، فقال :

يا زَوْرُ يا زَوْرُ فيها فيها نُواحي نُواحي

وقد قلتُ فيما تقدّم من تلخيص التعريف بخبر الحُصري إنّه اتّبع المَعَرّي في سُلوكِ هذه المسالك ، فضلّ عنها هنالك . على أنّه لا يتّفق لأحدٍ لضيقِ هذا الباب ، أكثر من الوزن والإعراب .

---

[1] وردا في الريحان والريعان ١ : ١٤١ /أ المعتمد وكذلك في النفح ٤ : ٢١٢ (مع اختلاف في الرواية) وانظر الشريشي ٥ : ٢٨٠ .

وله في المديح

قال :

ظَمِئْتُ ومُنْهَلٌ المَدامعِ منهلي ... ولا حَوْمَ لي إلاّ على وِرْدِ حَوْملِ

على سلسلٍ من ذي غروبٍ وإن غدتْ ... مَغاني الفوافي[1] كالرّداء المُسلسَلِ

فيا نُعمُ وافاكِ النّعيمُ فأنعِمي ... ويا جُملُ والاكِ الجَمالُ فأجملي

حلَفتُ لربّاتِ الخدور[2] بما جَنَى ... فمُ الصَّبّ من وَرْدِ الخدودِ المُقبّلِ

وما صامَ من خصرٍ لهنّ مُخففٍ ... وأفطَرَ من رِدْفٍ لهنّ مُثَقّلِ

وما وَرَّدَتْ من أدْمُعي بمُورَّدٍ ... وما خلخَلَتْ من أضلعي بمخَلخَلِ

وما شاقني من شقّ جيبٍ ومَدْمَعٍ ... أسيلٍ على خدّ أسيلٍ بمأسَلِ

لأنتُنَّ أشفَى للسّليمِ منَ الرُّقَى ... وأطيَبُ للظّمآنِ من كلّ سَلسَلِ

وإن يكُ دَهري ضمّني ثم ضامني ... فإنّ عليّاً خيرُ مولى وموْئِلِ

هُمامٌ إذا [ما] همّ بالأمرِ فامتطى ... عزيمتَهُ ناءتْ برَضوَى ويَذبُلِ

وقال من أخرى :

على العُدْوَةِ القُصوَى وإن عفتِ الدارُ ... سلامُ غريبٍ لا يؤوبُ فيزدارُ

وحقٌ بُكاءُ العَينِ والقلبُ مُسعدٌ ... لمن بات مثلي لا حَبيبٌ ولا جارُ

[1] ص : معالي القوافي .

[2] ص : الخدود .

أعادى على فضلي وأستصحبُ العدا   ولي حَسَنَاتٌ عندهم هي[1] أوزار

مَديحي هجاءٌ وابتسامي تَجَهّمٌ   وشكوايَ كفرٌ واعترافيَ إنكار

ولم أرَ مثلي فاضِلاً يتنقّصونَــهُ   بلى قلّما يخلو من القَرْضِ دينار

عزيزٌ علينا أن نُقيمَ بذِلّةٍ   فليت حشايانا الوَطيئةَ أكوار

شَفَى اللهُ داءَ القيرَوانينِ بعدَنا   فقد مَرِضَتْ للقيروانينِ أبصار

وكيف غناءُ الطّيرِ في غيرِ أيْكِها   وقد بعُدَتْ منها فِراخٌ وأوكار ؟

وإنّي لأوْلى بالبكاءِ لأنّهـــا   تَطيرُ إذا اشتاقَتْ وما أنا طَيّارُ

ألا يا بُرُوقاً لُحْنَ من نحوِ صَبرَةٍ   وليس لها إلاّ دُموعيَ أمطار

عسى فيكِ من ماء الحَنيّاتِ[2] شَرْبةٌ   ولو مثلَ ما يُوعي من الماء مِنقارُ

ومنها يَعتذرُ ممّا كان قَرِفَ به :

أصيبَ قَصيدٌ فيه كُفرٌ فنيطَ بي   وكم شاعرٍ قيلَتْ على فيه أشعارُ

ومن كلّ كَفّ قد رُميتُ بصَخرَةٍ   وفي راحتي لو أمكنَ الرأيُ أحجار

وله من أخرى في المعتمد :

أعَنِ الإغريضِ أمِ البَرَدِ   ضَحِكَ المتعجّبُ من جَلَدي

يقول فيها :

---

١ ص : وهي .

٢ ص : الحبيات .

يا هارونيَّ الطَّرْفِ تُرَى نَفَثَتْ [ألحاظك] في العُقَدِ
فطعنتَ الأسدَ بلا أَسَلٍ عبثاً وقتلتَ بلا قَوَدِ
رَشأٌ يصطادُ الأسدَ وكمْ رامتْهُ الأسدُ فلمْ تَصِدِ
واهاً لجديدٍ منك وَهَى وَشبابٍ بان فلمْ يَعُدِ
رُضْتُ الأيّامَ جَوامِحَها وكففتُ اللَّدَّ عنِ اللَّدَدِ
وبَلَوْتُ النّاسَ فلستُ أرى كبني عبّادٍ مِن أحدِ
القومُ بحارٌ مسجورا تٌ[1] محفوفاتٌ بالزَّبَدِ
لم يَعدمْ واردُها دُرَرَ الـ آداب ولا دُرَرَ الصَّفَدِ [١٠١]
أبني عبّادٍ ما حَسُنَتْ إلاَّ بكمُ الدُّنيا فقَدِ
نَقَدَ الكُرَماءَ الدّهرُ معي فتخَيَّرَكُم في المُنتَقَدِ
وقضى لكُمُ بالفَضلِ على مَن في أدْنى أو في البُعُدِ
دانَتْ بَغدادُ لقُرْطُبَةٍ وخلائفُها للمُعْتَمِدِ
سَمِعُوا برشادِ فتى لَخْمٍ فنفَوْا هارُونَ عنِ الرَّشَدِ
قرأوا شعرَ اللَّخْميِّ فلمْ يَرْضَ المُعتَزُّ عنِ الوَلَدِ[2]
يا فَرْعَ المُنذِرِ والنّعما نِ بلغتَ النّجمَ فطُلْ وَزِدِ
طُفِئَتْ أنوارُ أميّةَ في قَصرِ الخُلَفاء فقلتَ قدِ
نافَسْتَ بقَصرِهِمُ إرَماً فكأنَّ أميّةَ لم تَشِدِ
مُرْ وافتَحْ باقيَ أندلسٍ ما في صَبَبٍ أو في صَعَدِ

---

١ ص : مسجورات الجود .

٢ اللخمي هو المعتمد نفسه ، والشاعر هنا يشير إلى أنه أشعر من ابن المعتز العباسي .

عبدَ الرحمنِ[1] وليَ خمسينَ | وأنت تزيدُ على العَدَدِ
لو أنّ الأرضَ بلا جبلٍ | وعليها حِلمُكَ لم تَمِدِ
بَشّارٌ أمّكَ مُمتَدِحاً | فأنَسْ بغرائبِهِ الشُّرُدِ
يَكبو عَبودٌ في خَبَبي | فالعَيْرُ وراءَ المُنجرِدِ[2]
ولعلّ بلادَكَ لي وَطَنٌ | فأحُطَّ الرَّحلَ عن الأجُدِ
وأقابلَ منكَ سَنا قَمرٍ | لو قابلَهُ الأعمى لهُدي

وله من أخرى : وهي من أعلى حُجَجِه ، وأجلى سرجِه ، أنشدها أحمدَ بن سليمان بن هُود المتلقّبَ — كان — من الألقاب السّلطانيّة بالمقتدر حين غلب عليَّ بن مُجاهدٍ على دانية[3] :

كذا تَقتَضُّ[4] أبكارَ البلادِ | ولا مَهرٌ سوى البيضِ الحِدادِ
هَدَيتَ العسكرَ الجرّارَ ليلاً | فأهدَيتَ الظُّباةَ إلى الهوادي
مَلأتَ به الفَضاءَ فضاءَ ليلٌ | محَتْ فيه الظُّبا شكلَ السّوادِ

---

١ عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموي بالأندلس ولي خمسين سنة (٣٠٠ – ٣٥٠) .
٢ عبود : قد يكون اسم فرس (وفي خيل العرب عبيد) والأرجح أنه اسم رجل ، والاندلسيون –كما يقول أبو حيان الجياني في النضار– يسمون عبد الله عبوداً كما يسمون محمداً « حموداً» (بغية الوعاة ١ : ١٤٧ تحقيق الأستاذ أبو الفضل ابراهيم) ، والخبب ، نوع من السير ، كما انه اسم البحر الذي استعمله الحصري في هذه القصيدة ، فهو يقول إن عبوداً لا يستطيع أن يجاريه في هذا البحر ، بل يقصر عنه كما يقصر العير (الحمار) عن الفرس العتيق (منجرد قيد الاوابد) .
٣ منها أربعة أبيات في أدباء مالقة : ١٥٨ .
٤ ص : يقتص ، والتصويب عن ابن عسكر .

وما أقبلتَ إلاّ بَعدَ ما قد سَقَيتَ[1] الثّغرَ من ثُغَرِ الأعادي
وكان مرامُ دانيةٍ عزيزاً فهانَ على المُسَوَّمَةِ الجياد
فأثّرَتِ العوالي في المعالي وأثّرَتِ الصّلادِمُ في الصّلاد
كأنّ سُيوفَك الأقدارُ تجري بما شاء الإلهُ على العباد
ومثلك مَن جنى ثمرَ الأماني وآتى حقّهُ يَوْمَ الحَصادِ
تَشاغَلَتِ الملوكُ بمن دَهاها وشُغلُكَ في جهاتِكَ بالجهاد
بناك اللهُ للإسلامِ حصناً وعلّمكَ التجلّدَ للجِلاد
وتَنهَضُ والثقيلُ عليك خِفٌ وتَنظرُ والخفيُّ إليكَ بادِ
وكيف يُنافسونكَ في المعالي وأنت سبقتهم سَبْقَ الجوادِ؟
فتَحتَ معاقلاً لو أبصروها لقالوا أنت لُقمانُ [بنُ] عادِ
وفي سَرَقُسطَةٍ لك دارُ مُلكٍ زَرَيْتَ بها على ذاتِ العِمادِ
ورأيُك في الإدارةِ لو رآهُ مُعاويةٌ لأغني عن زِيادِ
لقد أربتْ[2] سيوفُك يوم سُلّتْ على قُسّ بنِ ساعدةَ الإيادي

---

[1] ابن عسكر : شفيت .
[2] ص : رابت .

ذكر الخبر عن دانية
وكيف تغلب عليها يومئذ المقتدر

قال ابنُ بسّام : قد قدّمتُ في أوّل القسم الثالث من هذا المجموع ذِكرَ مُجاهد العامريّ المُنتزي – كان وقته – على دانية ، وشرْحَ الأسباب التي أنشأت سحابه ، ورضّتْ[1] على دانيةَ وِهادَه وهِضابَه .

وغلبت الروم في بعض أيام سلطانه على جزيرة سردانيةَ ، التي كانت من فتوحه قبلُ ، ففلّتْ شَباتَه ، ونَهنَهَتْ شَذاتَه . وأسرَت ابنَه عليّاً هذا[2] ، فنَشأ عِلجاً مُتجهّماً ، وأعجماً طِمطِماً[3] ، إلى أن افتكّه أحدُ آل حَمّاد أمراء بني مَناد ، فأسدى البيضاءَ فيه ، وخلع على عِطفَيه بُرديه[4] . فلمّا خفقَ علمُه ، وتمكّن في مقام أبيه قدَمُه ، ألقى السلمَ ، وأغمدَ السيفَ وشامَ القلَمَ : هِمّتُه كانت في خراجٍ يَجبيه ، لا في مَعقِل يَجتَبيه ، وهمّه المَتجَرُ يُنميه ، لا المَفخَرُ يَحميه . أصبُّ خَلقِ الله بلبوس ومطعم ، وأصباه إلى دينار ودِرهم . حتى ولاّه البرُّ حَلَّ[5] عُقَدِه ،

---

١ كذا في ص ، ولعل صوابه « ورصت » أو « ربضت » بمعنى ألقت .

٢ انظر الخبر عن وقوع علي أسيراً في يد الألمانيين ، وكيف بذل فيه والده عشرة آلاف فلم يقبل آسره الفدية في أعمال الاعلام : ٢١٩ (ثم تيسر فكاكه سنة ٤٢٣)

٣ عند عودة علي من الأسر عرض عليه والده الاسلام فقبله ، ثم أصبح عليه معوله في الأمور (اعمال الاعلام : ٢٢١) .

٤ ص : بردانه .

٥ ص : حلى .

ورماه البحرُ بأفلاذِ كبدِه ؛ ورُزق عدَّةَ بناتٍ أحسنَ من الشموس ، وأفتنَ من الطواويس ، فتبارى ملوك الطوائف بأفقنا في نكاحهنَّ ، وتنافسوا في غدوّهنَّ إليهم ورواحهنَّ . واغتنم هو ذلك منهم وأذكاهنَّ عليهم عيوناً ، وبناهُنَّ بينَه وبينهم دُروباً وحُصوناً ، مُعتقِداً أنَّ الصِّهرَ رَحِمٌ لا تُجفَى ، وطريقٌ إلى رَعْي الذِّممِ لا تَخفى . فقلَّ ملكٌ منهم إلاَّ وقد علِقَ له به حبل ، واتّصل بينه وبينه نسل . فسما إليه منهم ابنُ هُودٍ المذكورُ سنةَ سبعٍ وستينَ يُريه أنَّ الناسَ مأكولٌ وآكل[1] ، وأنَّ القياسَ أكثرُه باطل . مِن رجلٍ لا يَستظلُّ إلاَّ أعلامَه . ولا يرضى [١٠٢] إلاَّ أحكامَه ، ولا يَستَشيرُ إلاَّ حُسامَه . فجرَّ إليه الهضابَ كتائب ، وملأ عليه الشِّعابَ مُرْداً أحاجب ، وجرداً نجائب .

أخبرني غيرُ واحد أنه لم يبقَ ملكٌ من ملوك أفقنا سمع بمخرجِ ابن هُودٍ يومئذٍ إلاَّ توقّعه وتوقّاه ، وظنَّ أنّه لا يريد سواه . وإنّما كان يُريدُه ، زعموا ، على قِلاعٍ كانت تتصلُ ببلده ، ليضمّها إلى أميرِ طَرطوشَةَ ، وقتَه ، من ولده .فلم يرُعْ ابنَ مُجاهدٍ إلاَّ مجرَى الجيادِ بحيثُ يرَى ويَسمع ، ولا نَبّهَه إلاَّ مَجَرُّ الصِّعاد ، بحيثُ لا يُعطي ولا يمنع . فاستُطيرَ فرَقا ، وقام وقَعَدَ تلدّداً[2] ونزَقا . وحين علم المُراد ، وفهِمَ الجليّةَ أو كاد ، أعطى فضلَ القِياد ، وكتب إلى عمّاله بإخلاء تلك البلاد .

فلمّا أخذ ابنُ هودٍ في إيابه ، وخلا ابنُ مُجاهدٍ بطوائفه وأحزابه ،

---

١ ص : وأكيل .

٢ ص : تلدأ .

عنّفوه بما فعل ، وزيّنوا له الغدرَ به وقد رحل . وأتي ابنُ هودٍ ، وقد سار غيرَ بعيد ، بكُتُبٍ طيّرَها ابنُ مُجاهد إلى عمّال تلك المعاقل ، يأمرهم بالتحصّن والاحتيال ، ويَحضُّهم على الجِدّ في القتال : فكرّ المقتدر ، ولم يرُعْ أهلَ دانيَةَ إلاّ تَصهالُ الخيل ، وقد انصبّت عليها انصبابَ السّيلِ باللّيل . واضطربَ[1] أبنيتَه بحيثُ يُسمَعُ الحِوار ، ويُحمَدُ الجِوار ، فاستولى الجزَع ، وضاق المتّسع . وأخرج إليه لحينِه ابنَه الذي كان قد سمّاه مُعِزَّ الدولة ، ورَشّحَه لجرّ أذيالها[2] ، وعلّمه مُمايَلَةَ ظِلالِها : فجاء إلى ابنِ هُودٍ مُدِلاً بقديمِ صِهْرِه ، عاثراً في إدبارِ أمره وانقطاعِ ذِكْرِه ، من رجلٍ قليلِ الطّبع ، ثَقيلِ السّمع ، ضيّق الذَّرْع ، قد غُذي بالترَف واللّين ، ونشأ في الحلْيَةِ وهو في الخصام غيرُ مُبين[3] . فطفِقَ ابنُ هودٍ يَقرعُ له عصا الوعيد ، ويرمي به مُضلاّت البيد ، وهو يقول : أيْ عمّ ، تبلغُ رِضاك ! ومتى اختلفنا عليكَ أو خالفناك ؟ فقال له ابنُ هودٍ فيما قال : والله لا أريمُ[4] العَرْصةَ حتى يَسهُلَ مَرامُها ، ويُخلّى في يدي زِمامُها — يعني تلك المعاقل — فقال له معزّ الدولةِ الجبان الجاهل ، وظنّه يريدُ دانية : أي عمّ ! وأينَ تنقلُنا ، وإلى مَن تَكِلُنا ؟ ولم يَفطن ابنُ هودٍ لما قَصَد ، وكان إلى جنبِه وزيرُه ابن أحمد[5] ، فغمز يدَه وقال له : غِرّةٌ فاهتَبِلها ، وعَثْرَةٌ فلا تُقِلْها ، قد ألقى

---

١ اضطرب هنا بمعنى ضرب .

٢ أذيالها يعني أذيال الدولة ، أي كان قد جعله ولي عهده .

٣ من الآية : أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين (الزخرف : ١٨) .

٤ ص : أديم .

٥ يعني أبا المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن مثنى .

الرجل بيده ، وخلّى بينك وبين بلده . فعمل ابنُ هُود على ذلك ، وأخذ في إحكام ما هُنالك ، فما متّع النهارُ إلاّ وأشرقت إياتُها ، واهتزّتْ في يُمنى يديه قناتُها . ورجع بابن مُجاهد غنيمةً باردة ، وأمنية على الأيّام شاردة[1] . تعالى مَن لا يروعه الزمان ، ولا يُغيّرُ سُلطانَه الحدَثان .

مقطوعات للحصري في أوصاف شتى

قال[2] :

كم من خليلٍ كان عنديَ شُهدةً ... حتى بلوتُ المرَّ من أخلاقِهِ
كالمِلحِ يُحسَبُ سُكّراً في لونِهِ ... أو حجمِهِ ويحول عند مذاقه

وقال :

نَصَبْتُ الفخَّ ثمَّ قعدتُ عنه ... بعيداً كي أرَى فيه فلاحا
إذا قِرْدي مُقيمٌ عند رأسي ... يقولُ لمُقبِلاتِ الطيرِ حاحا

واجتاز على قومٍ فسمعهم يقدحون فيه وفي ابن خلَصة[3] فقصده

---

١ قام ابن هود بنقل ابن مجاهد ومن معه إلى سرقسطة وأقطعه اقطاعاً يمونه (اعمال الاعلام : ٢٢٢) .

٢ مختارات ابن الصيرفي : ١٣١ والخريدة : ١٨٧ وكتاب الآداب : ٩١ .

٣ يعني محمد بن خلصة الشذوني النحوي وكنيته أبو عبد الله ، وقد وردت ترجمته في الذخيرة ٣ : ٣٢٢ وذكرت هنالك مصادر ترجمته ، ويضاف إليها أيضاً : المحمدون : ٣٩٩ وانباه الرواة ٣ : ١٢٥ والوافي ٣ : ٤٢ .

وأنشده[1] :

يا أديباً ملّكتني في يَدَيه المَكرُماتُ
ليتَ قَوْماً دأبُهم فيَّ (م) وفيك المَكرُ ماتوا

وقال[2] :

خضبَتْ يَدَيْها لونَ فاحِمِها فما نَقَصَ البياضُ مَلاحةً بل زادا
ما بالُ شَيبي تُنكِرِينَ[3] خضابه وأراكِ صابغةَ البياضِ سوادا
قالت[4] نَجيعُكَ في يديَّ وإنّما بَدّلتُه أسفاً عليك حِدادا

ومن أحسن ما قيل في التّطاريف السّود قول ابن المعتز :

وكفٍ كأنّ الشّمسَ مدّتْ بَنانَها إلى اللّيلِ تجلوهُ فقبّلَها اللّيلُ

وله أيضاً في التطاريف الحُمْر[5] :

أشارَتْ بأطرافٍ رِطابٍ كأنّها أنابيبُ دُرٍّ قُمّعَتْ بعَقيقِ

---

١ الشريشي ٥ : ٢٤٠ .
٢ الأبيات في المطرب : ٧٩ .
٣ ص : تنكرون .
٤ ص : قال .
٥ ديوان ابن المعتز ٤ : ١٠٨ .

ما أخرجته من مراثيه مع ما يتشبث بها

قال يرثي أباه وقد ودَّع قبره وقتَ جوازه إلى الأندلس :

أبي نَيِّرُ الأيّامِ بعدكَ أظلما ... وبُنيانُ مَجدي يومَ مِتَّ تهدَّما

وجِسمي الذي أبلاه فقدكَ إن أكنْ ... رَحلتُ به فالقلبُ عندكَ خيَّما

وقى اللهُ عيني[1] مَنْ تَعمّدَ وَقفةً ... بقَبرِكَ فاستَسقى له وتَرَحّما

وقال سلامٌ ، والثّوابُ جزاء مَن ... ألمَّ على قبرِ الغريبِ فسلّما

وأخذ من ترابه فقال : [١٠٣]

رَحلْتُ وها هنا مثوَى الحَبيبِ ... فمَن يَبكيكَ يا قَبرَ الغَريبِ ؟

سأحمِلُ مِن تُرابكَ في رِحالي ... لكي أغنى به عن كلّ طيبِ

وقال من مَرثيةٍ له في المُقتدر بنِ هود :

نَعُدُّ حُصُوناً كلَّ دِرْعٍ ومِغفرٍ[2] ... وتَعدو المنايا في عرينِ الغَضَنفَرِ

وإحدى بَنَاتِ الدّهرِ تَنسِفُ أُحْدَهُ ... وتَهدِمُ بالتّدميرِ بُنيانَ تَدْمُرِ

نَبا ناب[3] عادٍ وهو كاللّيثِ عادياً ... وماتتْ مُنَى كسرى الملوكِ وقيصرِ

---

١ ص : سقى الله عيناً .

٢ ص : ومقفر .

٣ ص : باب .

وما درأتْ[1] عن تُبَّعٍ تُبَّعٌ له ... صُروفَ الرَّدى الجاري على كل قسور
أصَمَّ وأصمَى ثُغرَةَ الثَّغرِ حادثٌ ... تُحدّثنا عنه الثّقاتُ فنَمتري
هو البحرُ في ذا الخطبِ أعطاك دُرَّه[2] ... فقُلْ للّسانِ انْظِمْ وللدمعِ فانثُرِ
أجدَّكَ بَزَّ[3] الدهرُ شُهبَ بُزاتِه ... وعزَّ مُعزَّ الدولةِ ابن المظفَّر
أعزَّ مَن اقتاد الخميسَ إلى الوغى ... وأكرمَ مَن يُدعى له فوقَ منبرِ
تلمْ حياءً يا زمانُ من العلا ... مَضيتَ بمعروفٍ وجئتَ بمُنكرِ
مضيتَ فما للأرضِ بعدَكَ لم تَمِدْ ... وما لسماءِ المجدِ لم تتفطّرِ ؟
بعثتُ بها مشقوقة الجَيْبِ ثاكلاً ... وإنْ فتقَتْ ريحَ الغَزاء بعنبرِ[4]

وله من أخرى :

فاجأتَنا[5] والمنونُ مُنتظِرَه ... مِن جامع الطيّباتِ مُختَصَرَه[6]
أصمَّ سمعي حديثُ حادثةٍ ... فَلَّ السّيوفَ الذكورَ من ذكَرَه
مُتوَّجٌ من جُذامَ مات له ... ثلاثةٌ فليعِشْ له عَشَرَه
ثلاثةٌ لا خِلافَ أنّهــمُ ... خَيرٌ من الفرقَدينِ والزُّهَرَه
ما نفَعَ المُشتري ولا زُحلاً[7] ... ضوءٌ بلِ اللهُ مُنفِذٌ قدرَه

---

١ ص : دارت .
٢ ص : رده .
٣ ص : بر .
٤ فيه اعتماد على قول ابن هانيء : « فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر » .
٥ ص : حاتنا .
٦ ص : مختصرة .
٧ ص : زحل .

ومنها ، وهو من طريف الاستطراد للاستجداء ، وطلب الحباء ، وكان الحُصْريّ مَشْحوذَ المُدْية ، في أبواب الكُدْية :

بيّضَ كلّ ولا بَياضَ مَعي إلاّ بَياضُ المشيبِ والبَشَره
فغبْتُ عن مجلسِ العزاء على رَغْمي[1] وإن كان مِقْوَلي حَضَرَه
يا أهلَ هودٍ إذا الورى حُسِبوا[2] مِن صَدَفِ البحرِ كنتمُ دُرَرَه
يا كُرَماء الزّمانِ لستُ أرى حُجولَهُ غيرَكُم ولا غُرَرَه

ومن قبيحِ استجداء الحُصْريّ ما فَعَلَهُ بالمُعتمدِ بن عبّاد ، تصدّى له في طريقه بالعدوة على حالِه مِن[3] اعتِقاله . ولم يلقه باكياً على خَلْعه من مُلكِه ، ولا تأدّب معه في وَصْف ما انتثر من سِلْكه ، بل بأشعارٍ قديمةٍ له ، صَدْرُها في الرّباب وفَرْتَني ، وعَجزُها في طَلَبِ اللّهى . وعلى تلك الحال ، وما يُناجي بالَ المُعتمدِ من البَلْبال ، قاسمَهُ فيما كان بيده ممّا كان به زُوّد ، حسبما وصفتُ له في أخباره مِن هذا المجموع[4] .

وله من أخرى في المُقتدِرِ بنِ هود :

نُفرّطُ في العُمُرِ[5] الذّاهِبِ ونغترُّ بالأملِ الكاذبِ

---

١ ص : زعمي .
٢ ص : حبسوا .
٣ ص : على .
٤ انظر القسم الثاني : ٦٦ .
٥ ص : القمر .

يقولُ فيها :

تنزّه عن تبِعاتِ المُلوكِ فخفّ على المَلَكِ الكاتب
فقدْنا الربيعَ أبا جعفرٍ فلا درّ خِلْفٌ على حالبِ
لبِسْتُ البياضَ ولولا الخِلافُ لسوّدْتُ ثوْبيَ كالرّاهبِ

ومنها :

نقدْتَ القريضَ على ربّه وفصْلَ الخِطابِ على الخاطبِ
بَديعُكَ أزرى بعبد الحميدِ وبابنِ العميدِ وبالصاحبِ
ففضْلُكَ مَنْ لي بإحصائِه وفي بعضِه عِلّةُ الحاسبِ

وله في موْتِ المعتضِدِ وولاية المعتمد[1] :

مات عبّادٌ ولكنْ بقِيَ الفرْعُ الكريمُ
فكأنّ الميْتَ حــيّ غيرَ أنّ الضادَ ميمُ

ومات للحُصْريّ ابنٌ بلغَ مِن جزَعِه عليه النّهاية ، وتجاوز في ذلك الغاية ، وصنعَ فيه مراثي على حُروفِ المُعْجم[2] ، منها[3] :

---

١ انظر ياقوت ١٤ : ٤٠ والخريدة ٢ : ١٨٧ والنفح ٤ : ٢٤٦ ومختارات ابن الصيرفي : ١٣١ والغيث ٢ : ٢١٩ والوافي في نظم القوافي ، الورقة : ٤٣٦ .

٢ هذه هي القصائد التي تضمنها ديوانه اقتراح القريح واجتراح الجريح وقد نشره الأستاذان المرزوقي والجيلاني في كتابهما عن الحصري : ٢٤٣ - ٤٩٠ وسأشير إليه فيما يلي باسم « اقتراح » .

٣ اقتراح : ٢٧٥ .

عرضَتْ لهُ تُفّاحةٌ نفّاحةٌ   بعضُ الإماء فرَدَّ بالإيماء
ولو استطاعَ القولَ قال مُشافِهاً   تُفّاحُ جَنّاتِ الخُلُودِ شفائي
فُزْ مطمئنَّ القَلْبِ لا مستوفزاً   طلّقْتَ دارَ مَشقّةٍ وشقاء
عبدَ الغنيِّ لكَ المسَرَّةُ غائباً   وليَ المساءةُ مُصْبحي ومَسائي
لمّا غَدَوْا[1] بكَ جائزينَ كأنّما   يَمشونَ في ظُلَمٍ لِدَفنِ ضِياء

وقال فيه[2] :

لستُ أنسى مَقامَهُ ومقامي   وكِلانا مثلُ القضيبِ قَضيبا[3]
أنفُه ينثرُ العَقيقَ وعَيْني   تَنثُرُ الدَّمعَ بالعقيقِ مَشوبا

وقال فيه[4] :

ذوى ريحانيَ الأرِج   وضاقَ بخِلّتيَ[5] الفَرَجُ
ذَبيحٌ طُلَّ مِنْهُ دَمٌ   ولم يُقطَعْ له وَدَجُ
رأيتُ دماءهُ ودِما   ءَ عَيْني كيف تَمْتزج
تَرَفّقْ يا سَقامُ به   أبعدَ المُسْتوى عِوَجُ ؟
صَدَعْتَ بما أمِرْتَ وما   عليكَ معَ القضا حَرَجُ
فأين غِرارُ مِقْوَلِه   وأيْنَ حِجاهُ والحُجَجُ ؟ [١٠٤]

---

١ ص : غدونا ؛ اقتراح : أتوا .
٢ اقتراح : ٢٧٨ .
٣ اقتراح : مثل القتيل خضيبا .
٤ اقتراح : ٢٩٦ .
٥ اقتراح : محلي .

شأي ابنَ الأربعينَ وما اذ … تَهتْ عَشْراً به الحِجَجُ
عُروقُ النّاسِ كلّهمُ … إلى عِرْقِ الثرى تَشِيجُ[1]
بنو الدُّنيا كأنّهُمُ … لِقِلّةِ هَمّهِمْ هَمَجُ
وهل هيَ غيرُ دارِ أذّى … إذا دخلوا بها خَرَجوا
تأمّلْ كيف تأكُلُهُمْ … وهُمْ وَلَدٌ[2] لها نَتَجُ

وقال له[3] :

على تَعْميرِ نُوحٍ مَاتَ نوحُ … فنائحةٌ لأمرٍ ما تَنوحُ
وكيفَ الصّبْرُ أمْ كيف التّعَزّي … ومِن عِرْنِينِهِ[4] وَلَدِي ذَبيحُ

وقال فيه[5] :

أنا فردٌ بلا خلي … لٍ ولا ابنٍ ولا أخٍ
أنا كالأورقِ اشتكى … بُعْدَ وَكْرٍ[6] وأفْرُخٍ
أنا كالزَّرعِ والعِدا … كالجرادِ المسخّخ[7]

---

١ من قول امرىء القيس :
إلى عرق الثرى وشجت عروقي … وهذا الموت يسلبني شبابي
وقيل في تفسير عرق الثرى إنه ابراهيم .
٢ ص : ولدها
٣ اقتراح : ٣٠١ .
٤ ص : غريبته .
٥ اقتراح : ٣٠٦ .
٦ اقتراح : فقد إلف .
٧ ص : المسرخ ؛ اقتراح : المصوخ ؛ والمسخخ : الذي يغرز ذنبه في الأرض .

قُرَّةُ العَيْنِ[1] دُونَهُ برزَخٌ أيُّ بَرْزَخِ
صاحِبَ الصُّورِ آنِفاً حَضر الموت[2] فانفُخِ
عَلّني[3] مِنهُ أشْتَفي بالنّسيمِ المضمّخِ
كلُّ عُمْرٍ مُؤقّتٌ في كتابٍ مُؤرَّخِ

وقال[4] :

تَنَاثَرَتْ مِنْ مَدامعي دُرَرٌ أثْرَى بها ، وافتقرْتُ ، مَن لَقَطا
إنَّ دياراً حَلَلْتُها لفَلاً وإنَّ سِرْباً بكى معي لَقَطا

وقال فيه[5] :

بِنَفْسي نَجْمٌ أظْلَمَ الأفْقُ إذ هوى وكادَ يُعزّيني به القَمَرانِ
أحِينَ شَأى مِنْ فَضْلِهِ كلَّ سابقٍ وغَنّى شآمٌ باسمهِ ويَمَانِ
وهزَّ قنَاةَ القَصْدِ[6] للطّعنِ في العِدا وراشَ جناحَ العِزِّ للطّيرانِ
رَمَتْه فأصْمَتْهُ السّهَامِ وإنّه لَفِي زَرَدٍ من دَعْوَتي وكِنَانِ

وفيه يقول[7] :

---

١ ص : عين .
٢ اقتراح : الوقت (وهوأصوب) .
٣ ص : علّي .
٤ اقتراح : ٣٤٤ .
٥ اقتراح : ٣٧٥ .
٦ اقتراح : وجر . . . النصر .
٧ يبدو أنهما لم يردا في اقتراح القريح .

عبدُ الغنيّ بُنيّتي كَلاهُ بالحِفْظِ ربُّهْ
يقولُ قلبيَ كُلُّهُ واشرَبْهُ ممّا أحِبّهْ

وله من قصيدة يَندُبُ وطنَه بالقيروان ، ويتذكّرُ من كان هنالك مِن الإخوان :

مَوْتُ الكرامِ حياةٌ في مواطِنِهمْ فإنْ [هُمُ]اغتربوا ما توا وما ماتوا
يا أهلَ ودّيَ لا واللهِ ما انتكثَتْ عندي عُهودٌ ولا ضاقَتْ مَودّات
لَئِنْ بعُدْتُمْ وحالَ البَحْرُ دونَكمُ لَبَيْنَ أرواحِنا في النّومِ زوراتُ
ما نِمْتُ إلاّ لكي ألقى خَيالَكُمُ وأين من نازحِ الأوطانِ نَوْماتُ؟
إذا اعتللنا تعلّلنا بذِكرِكُمُ لو أحسنَتْ بُرْءَ عِلاّتٍ تَعِلاّت
ماذا على الرّيحِ لو أهْدَتْ تحيّتَها إليكُمُ مِثْلَ ما تُهْدَى التحيّات؟
أصبحتُ في غُربتي لولا مُكاتمتي بَكَتْنِيَ الأرضُ فيها والسّموات
كأنّني لم أذُقْ بالقيروانِ جَنَىً ولم أقلْ ها لأحبابي ولا هاتوا
ولم تَشُقْني الخدُودُ الحُمْرُ في يقَقٍ ولا العُيون المِرَاضُ البابِليّاتُ
أبعدَ أيامِنا البيضِ التي سلَفَتْ تَروُقُني غَدَواتٌ أو عَشِيّاتُ ؟
أمُرُّ بالبَحْرِ مُرْتاحاً إلى بلدٍ تَموتُ نفسي وفيها منه حاجاتُ
وأسألُ السّفْنَ عن أخبارِه طَمَعاً وأنْثَني وبقلبي منه لَوْعَاتُ
هل مِنْ رِسالَةِ حبّ أستعينُ بها على سَقامي فقد تَشفي الرّسالات؟
ألا سَقَى اللهُ أرضَ القيروانِ حَياً كأنّه عَبَراتي المُستهلاّتُ
فإنّها لِدَةُ الجنّاتِ تُرْبَتُها مِسْكِيّةٌ وحَصاها جَوهرياتُ
إلاّ تكنْ في رُباها رَوضةٌ أنُفٌ فإنّما أوجهُ الأحبابِ روضات

أو لا يَكُنْ نَهَرٌ عَذْبٌ يسيلُ بها … فإنَّ أنهارَها أيْدٍ[1] كريمات

أرضٌ أريضةُ أقطارٍ مُبارَكَة … لله فيها براهينٌ وآياتُ

لا يَشمتَنَّ بها الأعداءُ إنْ رُزِئتْ … إنَّ الكُسوفَ له في الشمسِ أوقاتُ

ولم يزَلْ قابضُ الدُّنيا وباسِطُها … فيما يشاءُ له مَحْوٌ وإثْباتُ

هل مَطْمَعٌ أنْ تُرَدَّ[2] القَيروانُ لنا … وصَبْرَةٌ والمُعلى فالحنيّاتُ ؟

ما إنْ سجا الليلُ إلاّ زادني شَجَناً … فأتبعَتْ زَفَراتي فيه أنّات

ولا تَنفّستُ أنفاسَ[3] الرّياضِ ضُحى … إلاّ بَدَتْ حَسَراتي المُستكنّات

هذا ولم تَشْجُ قَلْبي للرَّبابِ رُبىً … ولا تقضّتْهُ[4] من لُبْنى لُبانات

وكم دُعيتُ لبُستانٍ فجدَّد لي … وَجداً وإنْ كان في مَعناهُ سَلْوات

ولو تَراني إذا غَنَّتْ بَلابِلُه … أشكُو البلابلَ لو تُغْني الشَّكيات

أني لأظمأُ والأنهارُ جاريَةٌ … حَوْلي وأضْحى ودونَ الشَّمسِ دوْحاتُ

وما أرى الموتَ إلاّ باسطاً يَدَه … مِن قَبلِ أنْ يُمكِنَ المأسورَ إفلات

ومنها في المدح :

بلِّغْ أحبّتَنا الباكينَ من جِهَتي … أني حمَتْني أسُودٌ حِمْيَريّاتُ

منَ الضراغِمِ إلاّ أن غابَهُمُ … بِيضٌ حِدادٌ وحُمْرٌ سَمْهَريّاتُ

فمن يكُنْ فيه بين اثنينِ مُختلَفٌ … فذا الذي اتفقَتْ فيه البريّاتُ

---

[1] ص : ابدا .
[2] ص : أن ترى أرض .
[3] ص : أنفا في .
[4] ص : تقصته .

ومن شعره مما خاطب به الفقيه القاضي أبا المطرف الشعبي [1] بمالقة من جملة قصيدة :

سَرَيت وخلّيتُ السريَّ مُصاحبي [2] فهذا الهوى يُصبي وهذا الهوى يُنضي [3]
فثَوْبَك منّي سُلَّ يا أسَدَ الشَّرَى وطرفك عني يامهاة النقاغضي [١٠٥]
تفكرتُ في الدنيا وفي غُربتي بها فضاقتْ عليَّ الأرض في الطول والعرض
لقد شعَبَ الشعبي قلباً صدَّعَتْه كما تصدَعُ المظلومةَ [4] الخيلُ بالرَّكض
نَهوضٌ لإمرٍ آمرَتْهُ خَوارِجٌ [5] نَهوضٌ بأعباءِ العُلا أيّما نَهْضِ
جلا عَدلُه إظلامَ كلِّ ظُلامةٍ وحاطَ قَناةَ الدينِ حِفظاً من الخفض

---

١ هو أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبي المالقي (٤٠٢ – ٤٩٧) كان فقيه مالقة في عصره ، وعليه كانت الفتيا تدور ، وكان حافظاً من الحفاظ المشاهير ، يحفظ المدونة وغيرها ، أخذ عن شيوخ جلة كأبي أيوب (أبي العباس) أحمد بن أبي الربيع الالبيري وعن أبي محمد قاسم بن محمد المأموني السبتي وغيرهما ؛ وقال فيه الفقيه أبو العباس أصبغ بن أبي العباس : « عصرة أهل العلم الرفيعة ، وهضبته العبقة البديعة ؛ بذ فيه الجموع والأفراد ، وأربى نظره على النفاذ والنفاد ؛ وبورك له فيما منح من الاستيلاء والاستحواذ . . . » (وقد جرى التعريف به في القسم الأول : ٨٤٨ الحاشية : ٢ اعتماداً على أدباء مالقة والصلة ، ولكني زدت التعريف به هنا بياناً) .

٢ ص : لصاحبتي .

٣ كذا ورد هذا البيت في ص ؛ ومعناه فيما أرى : أنني سريت واتخذت الجمل السري (المختار) مصاحباً لي ، فهواي يصبيني ، أما هوى الجمل فانه ينضي ، أي يسبب له النحول .

٤ المظلومة : الأرض .

٥ كذا ؛ ولعله « نقوض لامر » أي أنه ينقض ما اجتمعت عليه الخوارج من رأي وكيد ؛ والامر – بكسر الهمزة – الأمر العظيم الشنيع .

كففتَ أكُفَّ الظلم عن كل مسلم ... عرضْنَ لمالٍ منه أو دَمٍ أو عرض

تنيم بريّا جنّةِ الخُلْدِ ريّةٌ[1] ... لئن قطفَ الأزهارُ من روضِك الغَض

كأنّكَ منها مالكٌ وهي طيبةٌ ... فما جَمْعُ أهلِ العلمِ عنكَ بمنفضٍ

وإن أنشدَتْ في دارِ حُكمِكَ مدحتي ... لقد جُليتْ بِكراً على خيرِ منْتَقضٍ

لثمتُ حصى مَغناكَ لمّا وطئتُه ... وقلتُ اللآلي كيفَ تُظلَم بالرَّضّ

غدا عيسنا بالبيدِ شدْوُ حُداتِنا ... بذِكرِك فاستغنتْ عن الماءِ والحَمَض

وقَدِمَ من الشرقِ فأنزلَه في دارِه وأكرمه ، فقال فيه من جُملة قصيدة :

أمولىً شرُفتُ به أم صديقُ ... يُواصلُني حين يجفو الشقيقُ

تملّكني ومُنىً مِلكُهُ[2] ... فحسبُ معاليه أنّا رقيق

سقاني وأخلاقُه جنّةٌ ... فمنها الرياضُ ومنها الرحيق

حلَتْ وأحلَتْ[3] كريقِ الحبيب ... فطاب الصَّبوحُ بها والغَبوق

وزاد على الزادِ ما قاتني ... زماناً وإنْ طالَ ذاك الطريق

وخرج تميم[4] عن مالقةَ معزولاً فقال :

---

١ رية هو الاسم القديم لمالقة .

٢ ص : ملك .

٣ ص : وحلت .

٤ هو تميم بن بلقين صاحب مالقة ، الملقب بالمستنصر وكان أحد الذين استنفرهم يوسف بن تاشفين في جوازه الثاني لحصار حصن لييط، ثم ان المرابطين نحوه وأخاه عبد الله بن بلقين وأرسلوهما إلى العدوة وأسكنا بأغمات (انظر الحلل الموشية : ٥٨ ومذكرات الأمير عبد الله) .

أهَواكمْ جَدَّ مازِحُهُ والحِمَى لم يَدْنُ نازِحُهُ؟

مارَسَتْ مني العِدا رَجُلا أسْمَعَ الصمّاءَ صائحه

إنْ زَجرتُ[1] الطيرَ في سَفَري عن يميني مرَّ سانحهُ

عجِبتْ أسماءُ من جَلَدي يومَ أصمَى القلبَ جارِحه

ومِنها :

لا يَضِقْ مَن صَدرُه حَرِجٌ[2] شَيخُنا الشّعبيُّ شارِحهُ

إنّما أخلاقُهُ زَهَرٌ عَطّرَ الآفاقَ فائحه

إنّمَا أقلامُهُ أسَلٌ هابها في الجوّ رامِحهُ

قُبِلَ الشّعبيُّ حين دعا فكبا بالليثِ سابِحهُ

بتَميمٍ حين حانَ به الـــحَيْنُ وانقَادَتْ جَوامِحهُ

ضَعُفتْ منه القُوى فَغَدَتْ مِن قواريرٍ قَوارِحهُ

وانجلَتْ عن حُسْنِ مالقةٍ بفَقِيهِيها[3] قَبائِحهُ

وصفا البحرانِ من كدَرٍ فارتَوى بالماءِ ماتِحهُ

ذِكرهُ غنّى الزمانُ به وأنا فيه أطارِحهُ

---

١ ص : ان جر .

٢ ص : في صدره حرجاً .

٣ الفقيهان هما الشعبي وابن حسون .

وله من أخرى [يمدحه و] يمدحُ القاضيَ أبا مروانَ بنَ حَسّون[1] :

سَهْلُ الأباطحِ من عُلاكَ يَفاعُ والنّجمُ أنت وكفُّكَ المِرباعُ
بل أنتَ شمسٌ لا تَزالُ ولم [يزل] في سائرِ الآفاقِ [منك] شُعاع
مَن يختلِفْ كلُّ الورَى في حُبِّه فأبو المطرِّفِ حبّه إجماع
شَهِدَتْ عقولُ العالمينَ بفضلِه فسَواءٌ الأعداءُ والأشياع
مِصباحُ مالقَةٍ أرادَ خُمودَه قَوْمٌ ليرتفِعوا وهم أوْضاع
فالعامُ لم يَكْمُلْ لعَزْلَتِه بها حتّى عَلَتْ يَدُه وطالَ الباع[2]
انظُرْ إليه [اليوم] كيف أصابَهُ صرْفُ الزّمانِ وليس عنه دِفاع
لولا إساءَتُه إليكَ وظُلمُه لغدا وأنت له يدٌ وذِراع
بين ابنِ حسّونٍ وشَعْبيِّ الهُدى مِنْ ثَدْيِ خالِصَةِ الإخاءِ رَضاع

١ بنو حسون من الأسر المشهورة بمالقة ، وكان منهم أبو علي الحسن بن حسون قاضي مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود (المغرب ١ : ٤٣٠) وأبو الحكم ابن حسون الذي تولى أمر مالقة فترة من الزمن (النباهي : ١٠٤) وذكر ابن الأبار أبا عامر بن حسون (التحفة : ٩٦) وانه كان والياً على مالقة ؛ أما أبو مروان هذا فهو عبيد الله بن عيسى (أو ابن حسين بن عيسى) الكلبي المالقي ، ولي قضاء مالقة وكان أبوه (الشهير بحسون) قد وليها لبني حمود (انظر ما تقدم قبل قليل فلعله هو الذي ذكره ابن سعيد باسم الحسن ، وذكره ابن الأبار باسم الحسين) ، وتوفي يوم الاثنين لأربع خلون لربيع الآخر من سنة ٥٠٥ وقد كان ابنه محمد من الفقهاء المشاورين في بلده (أدباء مالقة : ١٥٢ - ١٥٣ والتكملة : ٩٢١ - ٩٢٢) .

٢ يبدو أن تميم بن بلقين كان قد عزل أبا المطرف الشعبي ، فلما عزل تميم عاد أبو المطرف إلى منصبه ، وهذا ما يفسره البيت التالي الذي يصور الشماتة بتميم ؛ وانظر القصيدة السابقة ففيها تصريح بسوء العلاقة بين تميم من ناحية والشعبي وابن حسون من ناحية أخرى .

ياما[1] أجلّهما وأشبَه ذا بذا حَسُنَتْ وجوهٌ منهما وطِباع
ما أحْسَنَ الدُّنيا بحسنهما الذي تَلتذُّه الأبصارُ والأسماع
خُلِقَا لنَصرِ الدّين والكَرَمِ الذي تَخضرُّ منه بَسيطةٌ وتِلاع
كمهنّدين مُجرَّدين بريّةٍ تنبو الظُبا وكلاهما قَطّاع

وله فيهما مِن أخرى أوّلُها :

بريّةَ [ربّا] روضةٍ ورياضِ بها علّما عِلمٍ وأعدَلُ قاضِ
معاليهما فوق النّجومِ مُنيفةٌ ورأيُهما في المشرفيّةِ ماض
سَئمتُ حياتي والمقامَ بطَنْجةٍ كأنَّ بِلادَ الله غيرُ عِراض
سيورِقُ عُودي إنْ سَكنتُ بريّةٍ ويَسودُّ من فَوْدَيَّ[2] كلٌّ بَياض
لدى قَمرَيْها إنَّ في غُرّتَيهما هِدايةَ عُميانٍ وبُرءَ مِراضِ
أريّةُ مَرْعايَ المَريعُ وأينُقي وأنتِ ابنةٌ في عِصْمةِ[3] ابنِ عياض

وقال :

يا عجبا للسّيوفِ استوى كليلُها اليومَ وماضيها
وقد رأيتُ العَدْلَ في بَلدَةٍ فقيهُها الشّعبيُّ قاضيها
أحكامُه بالحقّ مَرضيّةٌ والله بعد الخَلْقِ راضيها
لو شوورَتْ فيه بنو هاشمٍ لقدَّمَتْهُ عن تَراضيها
كمْ حُجّةٍ أوضَحَ ، كم حاجةٍ قضى لنا قبلَ تقاضيها

---

١ ص : فما .

٢ ص : فؤادي .

٣ ص : انبه في صفة .

ذكر الأديب أبي الحسن عبد الكريم بن فضال القَيرواني
واشتهرَت معرفته بأفقنا بالحُلْواني [1]
وسياقةُ جملةٍ من شعره

وله كلامٌ في النَّسيبِ رائق ، ومتأخِرٌ سابق ، ومَديحُه أيضاً عليه طَلاوة ، وبالجُملةِ ففي ألفاظِ الحُلواني حَلاوَة .ومن خَطّه نَقلتُ ،جُملَة ما ها هنا له أخرجتُ .

النسيب وما يناسبه

قال [2] :

ولمَّا تَنَادَوْا للرَّحيلِ وقُرِّبتْ كرامُ [3] المَطايا والرِّكابُ تَسيرُ

---

1 هناك اثنان يعرفان بابن فضال وكلاهما يكنى بأبي الحسن : علي بن فضال القيرواني المجاشعي النحوي وقد شرق ، ومدح نظام الملك وزير الدولة السلجوقية (وله ترجمة في الخريدة ١ : ٢٨٧ والمنتظم ٩ : ٣٣ ومعجم الأدباء ١٤ : ٩٠ وانباه الرواة ٢ : ٢٩٩ وانظر مزيداً من مصادر ترجمته في الخريدة ٣ : ٦٩٤ وكانت وفاته سنة ٤٧٩) ؛ والثاني هو عبد الكريم ابن فضال القيرواني الحلواني – وله ذكر في المطرب : ٥٩، ٧٥ ورايات المبرزين : ١٠٧ (غ) ومسالك الأبصار : ٤٥٦ والخريدة ٢ : ١٨٨ وهذا هو الذي غرب فدخل صقلية والأندلس ، وقد مر ذكره في القسم الأول ١ : ٥٠٦ وأنشد له بيتين في لبس البياض وهو شعار الحداد عند الاندلسيين .

2 انظرها في المسالك والخريدة والمطرب ومختارات ابن الصيرفي : ١٣١ .

3 في أكثر المصادر : عتاق .

جَعلتُ على قلبي يَدَيَّ مبادِراً فقالوا مُحِبٌّ للعناقِ يُشير
فقلتُ ومَنْ لي بالعِناقِ وإنّما تَداركتُ قلبي حينَ كاد يَطير

وقال الحلواني[1] :

قالوا التحى فامَّحتْ بالشَّعْرِ بهجتُهُ فقلتُ لولا الدجى لم يَحسُنِ القمرُ
مَن كان مُنتظِراً للصَّبرِ عنه به فإنّني لغرامي كنتُ أنتظِرُ
خَطّتْ يدُ الحُسْنِ منه فوق وَجنَتِهِ هذي مَحاسِنُ يا أهلَ الهوَى أخَرُ

ومعنى هذا البيتِ يَتطرّفُ قولَ ابنِ شرف[2] :

سُبحانَ مَن أعطاكَ حُسْناً ثانياً وبثالثٍ مِن حُسْنِ فِعلِكَ عزّزا

وقال الحلواني[3] :

لي حبيبٌ إذا شكوتُ إليهِ في الهوى سامني عذاباً شديدا
لستُ أدعو عليه بالشَّعْرِ [غَيْظاً] خيفة أن يكون حُسْناً جديدا
غيرَ أني أدعو بقلبٍ قريحٍ أن أراه مِثْلي مُحبّاً عميدا

كأنّه عكسَ قولَ البُحتري[4] :

أُعيذُكِ أنْ تُمْني بشكوى صَبابةٍ وإنْ اكْسَبَتْنَا منكِ عَطْفاً على الصَّبِّ
ويَحزُنني أنْ تَعرِفي الحُبَّ بالجوى وإن نفعَتْنا فيكِ مَعرِفَةُ الحُبِّ

---

١ الشريشي ١ : ٤١٤ .
٢ انظر التتف : ١٠٣ وما تقدم ص : ٢١٥ .
٣ الشريشي ١ : ٤١٤ .
٤ ديوان البحتري : ١٠٥ .

وقال[1] :

رُبَّ خيّاطٍ فُتِنْتُ به | فِتْنَةٌ أفنتْ قُوَى جلَدي
لاعِبٌ بالخَيْطِ يَفْتِلُه | أتراهُ ظنّهُ جَسَدي
ليتَ أنّي كنتُه فأرى | بين ذاك الوَرْدِ والبَرَدِ
فعلَتْ بالثّوبِ إبرَتُهُ | فِعْلَ سَهْمِ الشّوقِ في خَلَدي
وجرى المِقْراضُ في يده | جَرْيَ عَيْنَيْهِ على كَبِدي

وذكرتُ بذكرِه الخيّاطَ قولَ أبي محمد عبدِ اللهِ بن القابلَة السَّبْتي[2] في غُلاَمٍ وسيمٍ يرفو في السوقِ ثوباً :

يا رافياً قَطَّعَ كلَّ ثوْبٍ | ويا رشاً حُبُّهُ اعتقادي
عسى بكفِّ الوِصَالِ تَرْفُو | ما قَطّعَ [الهَجْرُ] من فؤادي

وهذا من اللفظِ الطيّار الخفيفِ الرُّوح . ومن الكلام ِ الفجّ الثّقيل ، قولُ عبد الجليل :

بسُوقِ الخياطةِ مُسْتَمْرَدٌ | تَوَدُّ لمنْ ناكَه ألْفَ خَيْرِ
وأشهدُ أنّ الفتى صانِعٌ | لطَوْقِ عِجانٍ على عُنُقِ أيْرِ

وما أحلى لفظَ الحُلْواني هذا في غلامٍ وسيمٍ أراد النُّهوض إلى الحَجّ[3] :

---

[1] الشريشي ١ : ٣١٧ .
[2] سيترجم له ابن بسام في هذا القسم ، وله ذكر في رايات المبرزين: ٩٩ – ١٠٠ وبيتاه في الشريشي ١ : ٣١٧ .
[3] وردت في المسالك ١١ : ٤٥٦ والمسلك السهل : ٤٩٦ والشريشي ٤ : ١٨ .

يا طالبَ الحجّ وهو ذو صِغَرِ عَجِلتَ فاستَأنِهِ إلى الكِبَرِ
إنْ كنتَ تبغي مَثوبةً فعسى تَحمِلُ لي قُبلَةً إلى الحَجَرِ
وإن رميتَ الجِمَارَ فارْمِ به كلَّ فؤادٍ عليك لم يَطِرِ
فقال دَعْني وزَمْزَماً فعسى أغسِلُ من مُقلتي دَمَ البَشَرِ

وعلى ذكرِ قولِه «تَحمِلُ لي قُبلةً إلى الحجرِ»، قال الحسَنُ لغُلامٍ رآه بالمكتَبِ، فأشار لتقبيلِ يدِه، فقبّلَه[1] :

ظَفِرتُ بقُبْلَةٍ منهُ على عَيْنَيْ مُعلّمِهِ
أشرتُ بها إلى يدِه فوصلَها إلى فَمِهِ

وقال الحُلْواني :

تَعرّضتُ مَن شَفّني هَجْرُهُ ببَدْءِ سَلامٍ عليه شَفَاها
وقُلتُ عَساهُ يَرُدُّ السّلامَ فتَبْلُغُ نَفْسيَ منه مُناها
فجاد عليَّ بتقبيلةٍ وقد كان أعرضَ عنّي وتاها
فكنتُ كموسى أتى للضياءِ ليقبِسَ ناراً فناجَى الإلها

وقال :

يا صاحِ خُذْها نصيحةً لَبِكَهْ بالوُدّ إن كنت فاتِكَ الفتَكَهْ
اسفِكْ دَمَ المُرْدِ إن وجَدتَهمُ فليس يلقَى العذابَ مَن سفَكَه
واترُكْ هواهم إذا همُ تَرَكوا قد يترُكُ الحِبُّ حُبَّ مَن تَرَكَه

[1] انظر البيتين وأبيات الحلواني بعدهما في الشريشي ٥ : ٢٥٣ .

وقُلْ لمن خان في محبّتِه لي هِمّةٌ عن هواكَ مُمتسِكَهْ
كان بفَرطِ الغرامِ يملِكُني فأصبح الدهرُ عازِلاً مَلِكَهْ
وكان سِتْرٌ عليه من مُلَحٍ لولا نَباتٌ بخدِّهِ هتَكَهْ[1]
واللهِ لا صادني له شَرَكٌ فمذْ بدا الشّعْرُ قطّعَ الشركهْ
أفلتُ مِن بعدِ نَتْفِهِ ذَنَبي ولستُ طيْراً يعودُ للشّركه

وذِكرُه نَتْفَ ذَنَبِه من اللفظِ الرثّ ، والمُستَهجَنِ الغَثّ .

وكان أبو محمّدٍ المَهْدَويُّ المعروفُ بابنِ الطلاّء أحَدُ الشّعراء[١٠٧] الطارئينَ على الأندَلسِ[2] كثيراً ما يأتي بالاستعارةِ التي تُضحِك كقوله :

لِحىً جراياتٍ مَنتُوفَةٌ ومرّ دَهرٌ وهْيَ لم تُنْتَفِ

وقد ألمعتُ بلُمَعٍ من هذا البابِ، في أخبارِ ابنِ شمّاخٍ من هذا الكِتاب[3] .

وقال الحلواني[4] :

قد حلّ في سُوقِكَ الكسادُ مُذْ لاح في خَدّكَ السوادُ
كأنّما الشّعرُ فيه زَرعٌ والنّتْفُ منه له حَصادُ

وقال :

صَدّ فما يُصغي لشاكٍ إليهْ وراحَ والألبابُ في راحتَيْهْ

---

١ ص : فتكه .
٢ ستجيء ترجمته في هذا القسم : ٣٦٠ .
٣ انظر القسم الأول : ٨٤٢ .
٤ نسبه لغيره في الشريشي ١ : ٤١٤ .

مُفوّقُ[1] السهمِ إذا ما رَمَى	رمى ولا قوسَ سوى حاجبيه
يَودُّ سيفُ الهندِ لو أنّهُ	تَعلّم الفَتْكةَ مِن ناظِرَيْه
ذُو وَفْرَةٍ زاد بها هَيبةً	وقد يُهابُ الليثُ في لِبدتيه
عندي له من خُدَعى رُقيةٌ	لو أنّها مرّتْ على مِسْمعَيْه
لا يدّعي السُقمَ بألحاظِهِ	فمُهجَتي أسقمُ من مُقْلتَيه
انظر لحالَيْه فقد أقسما	أنْ ليس يَنجو أحدٌ من يديه
انظرْ لحاليْهِ[2] فقد أقسما	بسيف عَيْنَيْهِ على وَجْنتَيْه
رَيْحانَةٌ تَمنعُ من شَمّها	وغيرُها تُنفضُ في مِدْرَعَيْه[3]
تاهَ بوجهٍ كاد من رِقّةٍ	يَقطُرُ ماءُ الحُسْنِ من صَفْحتَيه
رقيبُه مِن فَرطِ ظنٍّ بهِ	لشخصِه ألزَمُ مِن حافظَيه[4]

وقال :

يا حامِلَ السكّين في وَسْطِه	ليس بهذا تُعرَفُ العينُ
هل يَحمِلُ السكّينَ مَنْ لحظُه	في مُهَجِ العشاقِ سكّين ؟ !

وقال :

رضابُ ثَغْرِك يُضنيني ويَشْفيني	وسِحْرُ عَيْنيك يُغويني ويُغريني

---

١ ص : مفرق .
٢ ص : لحاليه ؛ وهذا الشطر يبدو تكراراً لما سبقه عن طريق السهو .
٣ ص : وغيره . . . مذرعيه .
٤ ص : الذم من خافضيه .

وفي تَثنّيك معنى لا يقومُ به ما في الغُصونِ من الإرهافِ واللينِ

وهذا كقول أبي الفرجِ الوأواءِ [1] :

مِن أينَ للبدرِ حُسْنُ صُورتِه وقَدُّهُ للقَضيبِ مِن أينِ ؟

وما أحسَنَ قولَ بعضِ أهلِ عصرِنا :

ما قَدرُ نَعمانَ إذا ما مشى وما عسى تَبلغُه عالجُ ؟

وفي هذه القصيدةِ يَقولُ الحلواني :

إذا وصفتُكَ باللحظِ الفتُورِ فمَن قَدَّ القُلوبَ بأطرافِ السّكاكينِ ؟
وإنْ نَعتُّكَ بالغُصْنِ الرطيبِ فما في الغُصْنِ ما فيكَ مِن كلّ الأفانين
جِسمٌ من الماءِ لكنْ قلبُه حَجَرٌ أستغفرُ اللهَ لمْ يخلقْ مِن الطّين
وما سَمعْنَا بغُصنٍ مُثمرٍ قَمَراً تَجمّعَتْ فيه أشتاتُ الرَّياحين
الوردُ والآسُ والنّسرينُ مجتمعاً فيه وفيه بَنيّاتُ الزَّراجينِ
لم يَرضَ عنّي فؤادي مِنْ ضنانَتِهِ حتّى مَسَحتُ به في كفّ ضنّينِ
في حُبّ مَن لو رآني ميتٌ مِن عَطَشٍ والنّيلُ في يَدِه ما كان يَسقيني
طَمِعتُ فيه وغَرّتني لواحظُه إن المطامعَ أسبابُ الشياطينِ
قُل لابنِ عشرٍ وخمْسَيها من آينَ جرت سِهامُ عَينَيكَ في قَلْبِ ابنِ سبعينِ ؟
ما حُجّتي عند مَن في الحبّ يَعذُلُني وآيي [2] في نُبوّات المجانينِ

---

[1] ديوان الوأواء : ٢٢٢ .
[2] ص : وآيات .

إنْ كنتَ في الحبّ سُلطاناً على كبدي | فخَفْ عُقُوبةَ سُلْطانِ السّلاطِين
أو كان عندكَ للمسكينِ مَرْحمةٌ | فإنّ عبدَك مِسكينُ المَساكينِ

وأراه عارضَ بهذه قَصيدةَ ابنِ رشيق ، فضَلّ عن الطّريق . هذا وقد قلتُ إنّ له في النّسيب ، أوفَر نَصيب . فأمّا إذا وصفَ أو مَدَحَ ، فقلما رأيتُه في ذلك نجحَ ولا أفلح .

ما أخرجته من قصائده المطولة في المديح وما يتشبث به من الأوصاف

قال يمدحُ الشيخَ صاحبَ الخُمسِ أبا عبد الله محمد بن إبراهيم[1] الكِنانيّ الشامي بصقليةَ من قصيدةٍ يقولُ فيها :

شَدُّوا الحدُوجَ وزَرُّوها على قَمَرٍ | في الحُسْنِ تَنْجابُ عن أنوارِه الظلمُ
دُرّانِ مِن فَمِهِ شَتّا مُحَدّثَهُ | للنّثْرِ والنّظمِ مَسْموعٌ ومُلْتَثَمُ
فليت شِعْري لِمَن أنْهِي ظُلامَتَه | وغيرُ مُنْتَصِفٍ مَنْ خَصْمُهُ الحَكَمُ
قد قلتُ لو قَبِلَ الوَعْظَ المُبِينَ له | خَفِ المُهَيْمِنَ فينا إنّنا نَسَمُ
فقال مَن ضَرّجتْ خَدّيَّ نَظرتُه | فإنّ سيفَ جُفُوني منه يَنْتقِمُ

ومنها :

---

[1] أرجح أن يكون اسمه « ابراهيم بن محمد » وسيسميه ابراهيم في غير موضع في قصائده ، ويشير إليه أحياناً بابن محمد .

لله منزلة بالقيروان محا أيامها البين لا الأيام والقدم
شققت جيب شبابي بعد فرقتها حزناً عليها ولا شيب ولا هرم
إن فرق الدهر عنها شملنا فلنا بصاحب الخمس إبراهيم معتصم

وله فيه أخرى[1] :

ليت شعري وليت حرف تمن ربما علل الفؤاد السقيما
كيف يا قيروان حالك لما نثر البين سلكك المنظوما
كنت أم البلاد شرقاً وغرباً فمحا الدهر وشيك المرقوما
نحن أبناؤها ولكن غنينا[1] بعد أن لم نطق بها أن نقيما
دمن كانت البروج وكنا أقمراً في قبابها ونجوما

ومنها :

وأنا قد أخذت إن عبث الدهـ ـر ذماماً من عند إبراهيما

وقال من أخرى[2] :

نطقت بسر ضميره عبراته وبدت بنار فؤاده زفراته
بأبي وأمي بدر تم تحته غصن كثرن لشقوتي ثمراته
يمشي فيعثر في ذيول شبابه مشي النزيف وخمرة رشفاته

ومنها :

---

١ الشريشي ٣ : ٤٤٢ .

٢ الشريشي ١ : ١٢٨ .

ولربَّ باكيةٍ رأتْ في لِمّتي بعضَ[1] المَشيبِ تألّقتْ ضَحكاته

[قالتْ]: أغُصنُكَ قد علاهُ كما أرى زَهَرُ الرياضِ وما بدَتْ ورقاتُهُ

فأجبتُها: قارعْتُ في جَنْبِ الهوى صَرْفَ الزمانِ وهذه نَكباتُهُ

ومن المديح:

شَيْخُ القبيلةِ في الجزيرةِ والذي سَبَقَتْ ظنونَ الحاسدين أناتُهُ

ما تَفعلُ الأيامُ غيرَ مُرادِه فكأنّما حركاتُها أدواتُهُ

هذا الثناء عليكَ يَعبَقُ طيبُهُ يا ابنَ الكرامِ وحاسدوكَ رواتُهُ

قولُه في الشّيبِ « صَرفُ الزمانِ وهذه نكباتُه » كقولِ ابنِ المعتزّ[2]:

قالتْ كبِرتَ وشِبتَ قلتُ لها هذا غُبارُ وقائعِ الدّهْرِ

وقال أحمدُ بنُ أبي طاهرٍ[3]:

قالتْ غُبارٌ قد علا كَ فقلتُ بل غيرُ الغُبارِ

هذا الذي نَقَلَ المُلوكَ إلى القبورِ مِنَ الدّيارِ

وقال ابنُ لَنكَكَ[4]، في مثلِ هذا المسلَك:

---

١ ص: بعد؛ الشريشي: وخز.

٢ ديوان ابن المعتز ٤: ٢١٠.

٣ زهر الآداب: ٨٩٣ والمختار: ٣٣٦ والذخيرة ١: ٩١٠.

٤ هو محمد بن محمد بن جعفر البصري أبو الحسن، أكثر شعره في شكوى الزمان وهجاء شعراء عصره كالمتنبي وغيره (اليتيمة ٢: ٣٤٨ ومعجم الأدباء ١٩: ٦). وبيته هذا في الشريشي ١: ١٢٩ منسوب لابن الجد.

وتعجّبتْ للشيبِ ، لا تتعجّبي   هذا غُبارُ وقائعِ الأيّامِ

وقولُه « حاسِدوك رُواتُه » كقول البُحتري[1] :

ليُسايرَنّكَ[2] رَكْبُ شِعْرٍ سائرٍ   يَرْويهِ فيكَ لحُسْنِهِ الأعداءُ

وأخذه من قول حبيب[3] :

فإن أنا لم يَحْمَدْكَ عنيَ صاغِراً   عدوُّكَ فاعلمْ أنّني غيرُ حامِدِ

وقال الحلوانيّ من أخرى :

وإذا أردتَ ترى فضيلةَ صاحِبٍ   فانظُرْ بعَيْنِ البَحْثِ من نُدمانُهُ
فالمرءُ مَطويّ على عِلاّتِه   طيَّ الكتابِ وصَحبُه عُنوانُهُ
وكذا دليلُ الجودِ في ابنِ محمّدٍ   بادٍ بصَفْحِ جبينِه بُرهانُهُ
وترى الليالِيَ فاعلاتٍ أمرَه   حتى كأنَّ صروفَها أعوانُهُ

ومعنى البيتِ الأوّلِ من هذه كقولِ الآخر :

* واعتبرِ الصاحبَ بالصاحبِ *

وقول الآخر[4] :

---

١ ديوان البحتري : ٢٢ .
٢ الديوان : ليواصلنك .
٣ ديوان أبي تمام ٢ : ٧٧ .
٤ من قصيدة تنسب لعدي بن زيد العبادي ، انظر ديوانه : ١٠٦ (وتخريجه ص : ٢٢٣)

عنِ المرءِ لا تسألْ وسَلْ عن قَرينِهِ فكلُّ قَرينٍ بالمُقارنِ مُقتدِ

ومعنى البيتِ الأخيرِ لفظُ أبي الطّيب[1] :

وأراكَ دهرُكَ ما تحاولُ في العِدا [حتى] كأنَّ صروفَه أنصارُ

وقال :

هل بعدَ [سنُّ] الأربعينَ تصابي ذهبَ الشّبابُ ولاتَ حينَ شَبابِ
هل يَنفعنّكَ[2] بعد شَيبكَ في الهوى توفيرُ مُكتسَبٍ وحُسْنُ ثياب ؟
هيهاتَ ما فَخْرُ المهنّدِ في الوغى بحُليِّ غِمْدٍ فوقه وقرابِ

وهذا كقولِ المعرّي[3] :

وإنْ كان في لبسِ الفتى شَرَفٌ له فما السيفُ إلاّ غِمدُه والحمائلُ

وقال[4]:

أنت الذي قَسَمَ الزّمانَ لنفسِهِ قِسْمينِ بين رياسةٍ ومَتابِ
أعطى لمرتَبَةِ العلاءِ نهارَه منها وجُنْحَ الليلِ للمِحرابِ
قامَتْ على أسِّ الفِخارِ عِمادُها وتَزيّنَتْ بتأدُّبِ الحُجّابِ
سهُلَتْ مَداخِلُها لطالبِ حاجةٍ فكأنّما بُنِيَتْ بلا أبوابِ

---

١ ديوان المتنبي : ٢٦٨ .

٢ ص : ينفعك .

٣ شروح السقط : ٥٢٦ .

٤ منها بيتان في الشريشي ٣ : ٣٥٦ .

ووجدتُ بخطّه ، و قد[1] مَدحَ هذا الشيخَ الكِينانيّ رجلٌ من الأندلس بشعرٍ اتّهمه[2] فيه وجرى في مجلسه بصِقلية :

يا شاعرَ العَصْرِ قد كلّفتني شَطَطا	فاصرِفْ عِنانك عنّا ، أوتأنَّ خطا
حمّلتني ذَنْبَ غَيري ظالِماً وأنا	قد كنتُ أقسِطُ في إنصافِ مَن قَسطا
وما حَسَدتُكَ في شِعرٍ أتيتَ به	ومَنْ يحاولُ لمْساً للسّهى سقطا
يا فارسَ الشّعرِ إنْ كلّتْ فوارسه	يَوماً وسابقُها[3] إنْ أعلمَتْ مرَطا
إنَّ ابنَ درّاجِكم لو قام مِن جَدَثٍ	وصِحْتُ يوماً بهِ من خلفِه ضرَطا
وليس يحسُدُ طَبْعي أبجنيسَكمُ[4]	فكيف أنت ، لقد جشّمتني شططا
فخُذْ « قفا نَبكِ » وانسُبها لنفسك ما	في الخلق من كاشفٍ بالبحثِ عنك غطا
ولا تَظنّنَّ أنَّ الشّعرَ مَكرُمَةٌ	فالحُرُّ إنْ رام أنْ يعلو به هبطا

قلتُ أنا — صاحبَ الكِتاب : — نَشَدْتُكَ باللهِ يا أبا الحسن إلاّ ما رَفَقتَ بأسيرَيْكَ ! فانّهما شَيْخا العَشيرَة ، ولِسانا الجزيرة ؛ فإنْ كان ولا بدَّ فالرَّماديُّ ، فإنّه كان أقلَّ طَيْشاً ، وأودَعَ عَيْشاً . وأمّا ابن درّاجٍ فمَنخوبُ القَلب ، مُشتَرَكُ اللبّ ، يكفيكَ منه هَولُ الإتهامِ والإنجاد ، وبَيعُ الشّعرِ في سوق الكساد .

وقال من أخرى[5] : [١٠٩]

---

١ ص : حل

٢ يعني اتهم ابن فضال .

٣ ص : ومنابعها .

٤ أب جنيس : أبو جنيس وهي كنية الرمادي بعجمية الاندلس (جنيش = الرماد) .

٥ منها بيتان في المسالك .

طرقْتَهم ببيضِ الهندِ ليلاً فعادَ الليلُ عندَهم نهارا
أطرتَ فؤادَها في الجوّ ذُعْراً لبرقٍ في يديكَ قد استطارا
بَنيتَ الأرضَ فوقَهم سماءً وقد أجريْتَ من علَقٍ بحارا
فليس تراك ألحاظُ الدّراري وأنت حَشَوتَ أعيُنها غبارا

ومعنى هذا البيتِ والذي قبله كقولِ التّهاميّ[1] :

فَدَحَوا فويقَ الأرضِ أرضاًمن دمٍ ثم ابتَنوا [دون] السماء سماءا

وقال من أخرى في الوزير أبي بكر بن عبد العزيز[2] ببلنسية :

أُغالِبُ فيكَ الشّكَّ أنيَ حالِمٌ ومَن لم يذُق طعمَ الكرى كيف يحلمُ

ومن المدح :

وقمتُ بها بين السّماطينِ مُنشداً كما يتغنى الشارِبُ المترنّمُ
بمدحِ امرىءٍ كلُّ امرىءٍ من عفاته يُخيّرُ فيما عنده ويُحكّمُ
كأنَّ الذي سوّاهُ قال لكفّه عليكِ لهذا الخلْقِ رزقٌ مُقسّمُ
لقد علِمَ المأمونُ[3] أنّكَ صارمٌ بيُمناهُ لا ينبو ولا يتثلمُ
يقولونَ لي إنَّ الملوكَ كثيرةٌ ورأيُكَ أمضى في البلادِ وأحزَمُ
فقُلتُ[4] لهم ما كلُّ بيضاءَ شحمةٌ ولا كلّ مصقولِ الصّفيحةِ مخذَمُ

---

١ لم يرد البيت في ديوانه ، والقافية في (ص) : غبارا .
٢ مرت ترجمته في القسم الثالث : ٤٠ .
٣ ص : المأموم .
٤ ص : فقل .

وله من أخرى يَستعطِفُه لأمرٍ وقع ، ولكلامٍ عليه رفِــع :

أتسمَعُ فيَّ مَقالَ الوُشاةِ وإنْ جئتُ بالعُذْرِ لا تسمعُ ؟
تقشّعَ غيمٌ بكفيّ منكَ وصَوَّحَ في ساحتي مُمْرِعُ
فلولا اعتلاقي بحَبْلِ الرَّجاء لما حَمَلَتْ قلبيَ الأضلُعُ
فإن كان قد مات حظّي لديك وحاشاكَ بل أنت لي أرفعُ
فدعني أبيّضْ بشَيبي عليكَ فلُبْسُ المشيبِ له أفجَعُ

وقد كرَّرَ الحلوانيُّ هذا المعنى في شِعْرٍ قد تقدَّم إنشادُه .

وقال من أخرى[1] :

نَجمٌ تَولدَ من شَمْسٍ ومن قمرٍ وأينَ من أبوَيْهِ الشمسُ والقمرُ ؟
شَمسُ العفافِ وبَدرُ المجدِ بينهما تولّدَ النّورُ إلاّ أنّه بَشَرُ

وهذا كقولِ ابنِ عمّارٍ يُهنىءُ المعتمد وقد وُلِدَ له مولودان :

اهنأ بنَجلَيْكَ من أنثى ومن ذكَرٍ لاتَعدَمُ الضَّوء بينَ الشّمسِ والقمَرِ

وهو من قَولِ ابنِ الرُّوميّ[2] :

شَمْسٌ وبدرٌ وَلَدا كَوكبا أقسمتُ باللهِ لقد أنجَبا

وقد تقدَّم إنشادُه .

---

١ الشريشي ٤ : ٣١٤ .

٢ ديوان ابن الرومي : ٢٣٢ وزهر الآداب : ٢٩٤ وهذه القصيدة في مدح أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن بشر المرثدي .

ومن قصيدةِ الحلوانيّ :

لا أقتضيك مَواعيداً بدأتَ بها ... كما تنفّس مِن أكمامِها الزَّهَرُ
ولا ألومُكَ في تأخيرِ عاجِلِها ... من بعدِ عِلمي بما يجري بهِ القدر
أما ترى الله وهو اللهُ مَوعِدُه ... مُؤخرٌ بنعيمِ الخُلْدِ مُنتظَرُ ؟

وقال :

وما كنتُ أدري قبل لؤلؤ ثغرِه ... بأنّ اللآلي من نَباتِ المباسمِ

ومنها :

مَناديةٌ أنسابهُ حِميَريّةٌ ... مُتوَّجةٌ بالمجدِ قبل العمائم
فما انبسَطَتْ إلاّ لجُودِ أكفّهم ... ولا انقبضَتْ إلاّ لضَبْطِ القوائم
يجرّونَ أطرافَ الرّماحِ إلى الوغى ... كما جرّتْ العِقبانُ سُودَ الأراقم

ومعنى البيتِ منها كقولِ الآخر :

وما خُلقَتْ كفّاكَ إلا لأربعٍ ... عَقائلَ لم تُخلَقْ لهنّ يدانِ
لتَقليبِ[1] هنديّ وإعطاءِ نائلٍ ... وتَقبيلِ أفواهٍ وقَبْضِ عنانِ

وقال الحلواني[2] :

يا نفسُ ويحَكِ في التغرُّبِ ذِلةٌ ... فتَجرّعي كأسَيْ أذًى وهوانِ
وإذا نَزلتَ بدارِ قومٍ دارِهِمْ ... فلهمْ عليكَ تعزُّزُ الأوطان

---

١ ص: لتقبيل .

٢ الشريشي ٢ : ٢٥٨ .

فالشّمسُ أشرفُ ما تكونُ بكبشِها   وسقوطُها في كِفّةِ الميزان

وصدرُ هذا البيت الأخير كقولِ الآخر[1] :

إذا غدا مَلِكٌ باللهوِ مُشْتَغِلاً   فاحكُمْ على مُلكه بالوَيْلِ والحَرَبِ
أما ترى الشمسَ في الميزانِ هابطَةً   لما غدا وهو بُرجُ اللهْوِ[2] والطرَبِ؟

وزارَ بعضَ إخوانِه فحجبَهُ فخاطبَهُ برُقعةٍ يقول في فصلٍ منها :

تصدَّيْتُ لقاءَ سيّدي تصدّيَ المحبّ الكئيب ، للقاءِ رسولِ الحبيب ، وطُفْتُ ببابِه الكريم ، طوافَ الحجيجِ بالبيتِ العظيم ، فحال عُثُور الجَدّ ، عن مُطالعةِ القَمرِ السّعْد ، ومَنَعَ سوء البَخت ، عن لِقاء الكرمِ البَحْت ،فحدَسْتُ أنّ سيّدي ــ وقتَه ــ ظفِرَتْ يداه بمن يهواه ، فغابَ مغيبَ القمر ، تحت غَمامِ الظّفر ، وتعاطيا بكأس الوصال ، مُدامَيِ السّرورِ والجريال ، وضَيّقَ بضيقِ العِناق ، مجرى الوِشاحِ والأطواق : هنّأه الله ببلوغِ أمانيه ، وهنّأنا فيه بما يُرضيه . فحياتُنا بسروره مُرتبطة ، ونفوسنا بما يشتهيه مُغتبطة .

---

[1] هو أبو الفتح البستي ، والبيتان في اليتيمة ٤ : ٣١٥ وزهر الآداب : ٣٩٧ .
[2] اليتيمة والزهر : برج نجم اللهو .

فصل في ذكر الأديب أبي العرب الصقلي[1]

وكان لساناً بهذا الأفقِ عن العرب أعرب ، وكوكباً من المشرق غرَّب ، ولم يقعْ إليَّ عند إكمالِ هذا الديوان ، وإخراجه من الخبر [١١٠] إلى العيان ، من شعره، إلاَّ ما لا يكادُ يُعْرِبُ عن قدره . ومن أشهر خبرٍ بلغني عنه[2] أنه حضر يوماً مجلسَ المعتمد وقد أدخل اليه جملةٌ وافرةٌ من دنانيرِ الفضة ، فأمر له بخريطتين منها ، وبين يديه تصاوير عنبر من جملتها صورة جمل مرصّع بنفيس الجوهر ، فقال له أبو العرب على البديهة معرّضاً : ما يحمل هذه الدنانير — أيدك الله — إلاَّ جمل ، فتبسم المعتمد وأمر له به ، فقال أبو العرب على البديهة :

---

١ مصعب بن محمد بن أبي الفرات بن زرارة القرشي العبدري ، أبو العرب : ولد بصقلية سنة ٤٢٣ وخرج عنها لما تغلب الروم عليها سنة ٤٦٤ قاصداً المعتمد ، فدخل إشبيلية في شهر ربيع الأول من السنة التالية (٤٦٥) وكان إلى شهرته بالشعر عالماً بالأدب، روى عنه بعض الأندلسيين كتاب أدب الكتاب لابن قتيبة ، وبعد أن سجن المعتمد لحق بناصر الدولة صاحب ميورقة وبقي فيها إلى أن توفي . ويذكر ابن الأبار أنه توفي سنة ٥٠٦ الا أن ابن الصيرفي يقول : وبلغني في سنة سبع وخمسمائة أنه حي بالأندلس ؛ وقبره وقبر ابن اللبانة بميورقة كانا متجاورين ، وكان هو رجلا طوالا بينما كان ابن اللبانة دحداحاً (التكملة: ٤١١) (انظر ترجمته في التكملة : ٧٠٣ والخريدة ٢ : ٢١٩ والسلفي: ٦٨ ، ١٣٨ والمسالك: ٤٥٦ وابن خلكان ٣ : ٣٣٤ وعيون التواريخ ١٢ : ١٦ (نقلا عن الذخيرة) ورايات المبرزين : ١١١ والمغرب (قسم صقلية) وله ذكر في النفح وبدائع البدائه والمنازل والديار : ١٢٨/أ ، وعنوان الأريب ١ : ١٢٣ وقد أشرت إلى بعض مصادر ترجمته في القسم الأول : ٩٠ .

٢ وردت هذه القصة والأبيات في المسالك والرايات وبدائع البدائه : ٣٧٣ والنفح ٣: ٥٦٩ ٤ : ٢٦٠ ، ٢٦١ وعيون التواريخ .

أجْدَيْتَنِي[1] جملاً جَوْناً[2] شفعتَ به | حملاً من الفضة البيضاء لو حَمِلا
سماحُ[3] جودِكَ في أعطانِ مكرمةٍ | لا قيدٌ يَعْرِفُ[4] من منعٍ ولا عُقُلا
فاعجَبْ لشاني فشاني كلّه عجَبٌ | رَفَّهتَني فحملتُ الحملَ والجملا

فطارت يومئذٍ بهذا الخبر الركائب ، وتهادته المشارق والمغارب ، وذكرته شعراء الوقت ، ورأيتُ في ذلك عدّةَ قصائدَ لغيرِ واحدٍ ، ولم أحفظْ منها إلاّ قولَ بعضهم ممن وفد أيضاً على المعتمد ، من جملة قصيدة استُبْرِدتْ بجملتها ، قال فيها :

يا مَنْ بجُودِ يدَيهِ يُضرَبُ المثلُ | وَمَنْ مواهبه الأمصارُ والدوَلُ
بحدٌ جُودِكَ في جَنْبِ اللّها أبداً | يا خاتمَ الجود جُرْحٌ ليس يندمل
عند ابنِ حمّادَ في ذال المكانِ على | بُعدِ المَسافةِ والأخبارُ تَنتقل
جرى حديثُ الصقليّ المثابِ على | شعرٍ فصارَ إليهِ الحملُ والجمل

ومن شعر أبي العرب في المعتمد قصيدة أولها :

لولا السّرَى في ذمامِ الصارمِ الذَّكرِ | لم أطرُقِ الحيَّ في أمرٍ على خَطَرِ
ما الباردُ العذبُ مورودًا على ظمإٍ | أشهى إلى الصبّ من وصلٍ على حذر
قالت تجشّمتَ في سُبلِ الهوَى غَرَراً | قلت المتيّمُ مقدامٌ على الغرر[5]

---

[1] النفح : أعطيتني ، أهديتني ؛ عيون : أهديتني .
[2] ص : أحورا .
[3] النفح والعيون : نتاج ؛ البدائع : يناخ .
[4] النفح : تصرف .
[5] ص : غرر .

لا كالهَيوبِ حَماهُ الخوفُ بُغيتَهُ ... تَهيَّبَ الوردَ حتى عاد بالصَّدَرِ

توقَّ رقبةَ أعداءٍ عيونُهُمُ ... أذكى من الزُّرقِ في الخطّيّةِ السُّمُرِ

قلتُ اليَماني حليفي ما يُفارقني ... [إني] بغير اليماني غيرُ منتصر

رضيتُه دونَ إخوانِ الصفاء أخاً ... ما غيَّرَتْهُ صرُوفٌ جمّةُ الغِيَر

لاحَ السَّنا فانبرتْ من ساعدي فِرَقاً ... تجرُّ ذيلاً يعفّي شاهدَ الأثر

صدَّ كوَحشيّةٍ همَّ الأنيسُ بها ... إلاّ التِفاتاً بجيدِ الخائفِ الحَذِر

تكفُّ بالفرعِ من لألاء غُرَّتِها ... كي لا تمدَّ بياضَ الصبحِ بالقمر

حُثّوا المطيَّ [. . .] إنَّ لَها ... عقبى الإقالةِ من أينٍ ومن ضمر

حتى تُنيخَ بربِّ المجدِ من يَمَنٍ ... في قُبَّةِ الملكِ ربَّ الشِّعرِ من مضر

ومنها في ذكر جواز المعتمد البحر :

ما كان عندك هولُ البحرِ تركبُهُ ... جوداً بنفسكَ إلاّ جريةَ النَّهَرِ

وله من أخرى[1] :

أحاديثنا هذا الربيعُ فخيِّمِ ... وأمنيّةُ المرتادِ والمتوسِّمِ[2]

وحطَّ بنا عن ناجياتٍ كأنّها ... قسيٌّ رمتْ بنا البلادَ بأسهُمِ

وقد قدمت من هذا المعنى جملة في ما مرَّ من الكتاب[3]، ومنه قول الطبني[4]

---

١ يقول ابن الصيرفي ان هذه القصيدة أول قصيدة أنشدها أبو العرب للمعتمد ؛ ومنها في الخريدة خمسة أبيات وستة في عيون التواريخ : ١٩ .

٢ الخريدة : والمتيمم .

٣ الذخيرة ١ : ٨٩ — ٩٠ . ٤ ص : الطنيني .

شاعر الحكم ، مما أنشده ابن عبد الرؤوف[1] :

قد نَصبنا من الوَجيفِ وأنْضَيْـ　　نا قِلاصاً سياطهنَّ الكلامُ
فكأنَّ الركابَ والركبَ للضمْـ　　ر قسيٌ من فوقهن سهـــامُ

وفي هذه القصيدة يقول :

وقد يبلغُ التأويبُ أقصاهُ والسّرى　　فلا تَشتكي عبثاً ولا تَتَظَلّمي[2]
وما طَلَبَتْ إلاَّ فِناءَ مُحمّدٍ　　وهل دونه للركبِ من متلــوَّمِ
جعلتُ إليهِ همّتي وعزيمـَتي　　فناوَلتاهُ بَعدَ حَوْلٍ مجرَّمِ
فقالَ ليَ الفالُ الصدوقُ مُبَشّراً　　قدمتَ على التوفيقِ أيمنَ مَقْدَمِ
وأقبلتَ بابَ الإذنِ فاستأذنِ الندى　　على ملكٍ وافي الجلالِ معظّمِ
فَرُفّعَ[3] عن ذاك البَهاءِ حِجابُهُ　　وقيلَ استلمْ أندى بَنانٍ وسلّمِ
فقبّلتُ يمنى راحتَيه كأنني　　أقبّلُ ركنَ البيتِ سيرةَ مُحرمِ
نظرتُ إليه والمهابةُ دونَه　　فقسّمتُ لحظي بين بدرٍ وضيغمِ
بلى ورأيتُ الشمسَ والبدرَ والعلا　　مجسّمةً في جوهرٍ متجسمِ
فأغضيتُ عنه العينَ أوّلَ نظرةٍ　　ومن يرَ عينَ الشمسِ لا يتوسمِ
كأن عياني كان غير حقيقةٍ　　فلم ألقَه إلاَّ بعين التوهمِ

---

[1] هو محمد بن عبد الرؤوف بن محمد بن عبد الحميد الأزدي– مولا هم – أبو عبد الله ، كان عالماً باللغة والأخبار والتواريخ وألف كتاباً في شعراء الأندلس وتوفي سنة ٣٤٣ .

[2] ص : يشتكي عيناً . . . يتظلم .

[3] ص : ترفع .

وفي المعتمد أيضاً يقول من أخرى[1] :

وقد أزار . وللزوّار حكمهم — عندي من البرّ والإيناسِ والأدب
وأفضلُ البرّ برٌّ يقتضي طرباً — وأعوزتنيَ أمُّ اللهو والطرب
والدَّجنُ يبعثُ همّي من مكامنه — والشمسُ ما أخلفتها الريح لم تغب
والسُحبُ للأرضِ بالسقيا مواصلةٌ — حتى ارتوت فاستكفّت أبيض السحب
سحٌ وهطَلٌ وجَودٌ صوبُ درِّهما — فسحَّ أنت بها واهطُل وجدْ وصُب
إني أعاطيك في الشكوى مفاكهةً — كما تعاطَتْ أكفُّ الشّربِ بالنّخبِ
والنفسُ . ما انفردت بالجدّ ، متعبة — حتى تراوحَ بين الجدّ واللعبِ
بَرِمْتُ باثنين ضاقَ الصدرُ بينهما — فَقدُ المدامةِ واستيحاشُ مغترب
وكلُّ ربعٍ وإن حلَّ الجميعُ به — قفرٌ إذا لم تكنْ فيه ابنةُ العنبِ
وقد حللتُ كناساً لا أروعُ به — حورَ الظباء وإن أعرضن من كثبِ
كالليثِ عاد كسيراً لا افتراس به — يطوي على زفراتٍ نفسَ مكتئب

وقال في الزهد[2] :

أرى الدنيا الدنيّة لا تواتي — فعالج في التصرُّفِ والطلابِ
ولا يَغررْكَ منها حُسنُ بُردٍ — له عَلَمان[3] من ذهَبِ الذهاب
فأوّله رجاءٌ من سرابٍ — وآخره رداءٌ من تراب

---

١ منها سبعة أبيات في عيون التواريخ : ١٨ .
٢ منها بيتان في طراز المجالس : ١٢٨ والشريشي ٣ : ٩٨ وهي في العيون : ١٩ .
٣ ص: بردان ، والتصويب عن الشريشي .

ولما نفذت الأقدار ، بالقبض على ذي الوزارتين أبي بكر بن عمار ، بشقورة ، على الصورة المذكورة ، حسب ما شرحته في أخباره [1] ، قال أبو العرب للمعتمد من جملة قصيد [2] :

كأنّ بلادَ الله كفـّكَ إن يسِر [3] بها هاربٌ [4] تجمع عليه الأناملا
فأين [5] يفرُّ المرء عنكَ بجرمه إذا كان يطوي في يديك المراحلا

وهذا المعنى قد تداولته جماعةٌ من الجاهليين والمخضرمين ، والمحدثين والمولدين ، وأرى أن أوَّلَ مَنْ أثاره ، ورفعَ مناره ، النابغة حيث يقول [6] :

فانـّك كالليل الذي هو مدْركي وإن خلتُ أنّ المنتأى عنك واسع
خطاطيفُ حجنٌ في حبالٍ متينةٍ تمدُّ بها أيدٍ إليكَ نوازع

وأخذه أشجع السلمي فقال لإدريس بن عبد الله العلوي ، وقد بعث إليه الرشيد من اغتاله بالمغرب [7] :

أتظنُّ يا ادريسُ أنـّكَ مُفلِتٌ كيدَ الخلافةِ أو يقيكَ حذارُ
إنّ السيوفَ إذا انتضاها عـَزمُهُ طالتْ وتقصرُ دونها الأعمار

---

١ انظر القسم الثاني : ٤١٥ وما بعدها .
٢ البيتان في الخريدة ٢ : ٢٢١ والريحان والريعان ١ : ١٥٦ب والشريشي ٣ : ١٧١ والعيون : ١٦ .
٣ الخريدة : كأن فجاج الأرض يمناك .
٤ الخريدة : خائف .
٥ الخريدة : فأنى .
٦ ديوان النابغة : ٣٥ وزهر الآداب : ١٠٣١ والمؤلف يتابعه ، والشريشي ٣ : ١٧ والعيون : ١٦ .
٧ زهر الآداب ، نفسه والشريشي ٣ : ١٧١ والعيون : ١٦ .

هيهاتَ إلاّ أن تكونَ ببلدةٍ لا يهتدي فيها إليك نهار

وقال البحتري [1] :

سُلبوا وأشرقتِ الدماءُ عليهمُ محمرّةً فكأنهم لم يسلبوا
ولو أنهم ركبوا الكواكبَ لم يكن ليجيرهم من حدّ [2] بأسكَ مهرب

وقال عبيد الله بن طاهر [3] :

وإني وإن حدّثتُ نفسي بأنني أفوتكَ إن الرأي مني لعازبُ
لأنكَ لي مثلُ المكانِ المحيط بي من الأرضِ أنّى استنهضتني المذاهب

وقال سعيد بن حميد [4] :

يا باخلين علينا في حكومتهم والجورُ أقبحُ ما يؤتى ويرتكبُ
لسنا إلى غيركم منكم نفرٌ إذا جُرتم ولكن إليكم منكم الهرب

وقال المتنبي [5] :

فإنك كالدنيا إليّ حبيبةٌ فما منك لي إلاّ إليك ذهابُ

والذي هو أشبه وأقرب ، بقول أبي العرب ، ومنه أراه نقل ، وعليه

---

١ زهر الآداب : ١٠٣٢ والعيون : ١٧ وديوان البحتري : ٧٦ .
٢ الديوان : لمجدهم من أخذ .
٣ زهر الآداب : ١٠٣٢ والعمدة ٢ : ١٧٩ والعيون : ١٧ .
٤ عيون التواريخ : ١٧ .
٥ العمدة ٢ : ١٧٩ وديوان المتنبي : ٤٨٢ والعيون : ١٧ .

عوّل ، قول الأول [1] :

كأنَّ بلادَ الله وهي عريضةٌ على الخائفِ المطلوبِ كفةُ حابلِ
تؤدي إليه أنَّ كلَّ ثنيّةٍ تيمّمها ترمي إليه بقاتل

واستقصاء المناسبة والملاحظة في كل معنى حبلٌ ممدود ، يحلُّ لنا الشرط المعقود ، من إيثار الاختصار ، وقد مرَّ منه في تضاعيف هذا التأليف جملة وافرة .

في ذكر الأديب الكاتب أبي عبد الله محمد بن الصباغ الصقلي [2]

أحد أدباءِ وقتِه المشاهير ، وكلامُه يُعرب له عن أدبٍ كثير ، وحفظٍ غزير ،

فصل له من رقعة خاطب بها الأديب أبا حفص القعيني الأندلسي يعزّيه في هرة نفقت له ، وجلس للعزاء عنها تماجناً ، قال فيه :

[الحياة]لبني الدنيا مراحل ، والمنايا لجميعهم مناهل ، والأعمارُ كالأسفار ، منها القريبُ الوصول ، العاجلُ الحلول ، ومنها البعيد الشقّة ، الشديد المشقّة ،

---

١ وردا في الأغاني ١٣ : ١٦٣ منسوبين لعبد الله بن حجاج وهما في الكامل ٣ : ١٣١ والحيوان ٥ : ٢٤٠ – ٢٤١ وحماسة البحتري : ٢٦٠ ومجموعة المعاني : ١٣٨ وينسبان أحياناً للقتال الكلابي (انظر ديوانه : ٩٩) وعيون التواريخ : ١٧ .

٢ لعله هو محمد بن أحمد بن عبد الله الصباغ الصقلي الذي وردت ترجمته في المحمدون : ٦٨ نقلا عن الدرة الخطيرة لابن القطاع .

أنفاسٌ معدودة ، وآجالٌ محدودة ، وليس بناجٍ من محتومها أحد ، ولا لمخلوقٍ منها مُلْتَحَد ، وانتهى إليَّ – سهل [1] الله الصبر الجميل سبيلك ، وأطفأ ببردِ السّلوانِ غليلك – نبأٌ جَلَل ، وخطبٌ مُعضِل ، وهو مصابُك بشقيقة نفسكَ ، وموضعِ راحتك وأنسِك ، وربيبة حجركَ وحجرتك ، وآلة حَيطَتِك [2] على حنطتك ، وكالئة ذخائرك وقُنيَتِك ، واستحواذ فجيعتها على لبّك ، وما عالجتها به من ذَرورٍ وحنوط ، وإشفاقك من تعجيل إسلامها إلى التراب ، وإبقائك إياها طويلاً في المحراب ، وأليّتك عليها لتدعونَّ إلى[١١٢]جنازتها مأتماً يَشقُقنَ عليها جيوبَ المدارع ،ويُفضنَ من الوجدِ بها غروبَ المدامع ، ويُعوِلنَ عليها بالصراخ والنياح ، ويُذرين لمصرعها شعورهنَّ مع الرياح .

وفي فصل : ولستُ بناسٍ ذكر تلكَ المُلَح التي كتبتَ تصف من أخلاقها وآدابها ، والمدَحِ التي [3] تورد في أعراقها وأنسابها [4] ، والغرائب التي تذكرُ عن قوّتها وأيدِها ، وحيلها وكيدها ، ومكرِها بالفارِ وصيدها ، ولعمري ما أفرطتَ في نعتها بل فرّطتَ ، وما صرّحت بجميع محاسنها بل لوّحت ، فلقد كانت لبؤةً إلاّ انها تدعى هِرّة ، ونمرةً إلاّ انها أكثرُ منها شِرّة ، ذات نابٍ مطاول ، وساعدٍ مفتول ، وخصرٍ مجدول ، ريانة الكاهل ، ظمآنة الأسافل ، تطير من قوائمها بأسرع من الجناح ، وتستضيء من عينيها بأنور من المصباح ، وتعتدُّ من مخالبها بأمضى من السلاح ، وتسطو من

---

١ لعل الصواب : جعل .

٢ س : حمطتك .

٣ ص : الذي .

٤ ص : ونسبها .

جرأتها بمثلِ القدرِ المتاح ، لينةُ الوبرِ كالسّمور . سوداءُ الشعر كالديجور . مأمونة الجيب ، بظهرِ الغيب . عظيمةُ النفس ، لطيفة الحس ، أمينةٌ على اللحم الموضوع . ولو شفّها فرطُ الجوع . وما خانت قطُّ أمانة . ولا رضيت يوماً خيانة ، فهي عُوذة الدار ، من الفار ، وعهدُ الأمان ، من الجرذان .

قال ابن بسام : وكانت للأديب القعيني هذا جاريةٌ سوداء كلفَ بها ثم باعها ، وندم فحاول استرجاعها ، فزعم المبتاع أنها حامل – وللقعيني في ذلك أشعارٌ كثيرة – فكتب أبو عبد الله هذا رقعةً قال فيها : كشف الله عن قلبك أيها الأديب الحسيب زَينَ الشهوة . ومحا من لبّاك شَيْنَ الهفوة . فعلى رأيك يعتمد من اختلفت آراؤه . وبهديك يهتدي من أضلَّ القصد . وبه يقتدي من عَدم الرشد . ونقل إليَّ بعض من يعرفُ أحوالك . ويشارفُ فعالك . خبراً يُصمُّ السمع . ويضيّقُ الذَّرع . وذلك أنّك نبذت من يدك كُرتَك المتكفشّة . فتلقاها من أحمَدت صولجانه . وأخرجْتَ عن ملكك ضفدعتك المريعة . فتناولها من استحسنت غدرا نه [1] . وبلغك من إقبالها عليه ، وانصرافها بكليّتها إليه ، ما أضرمَ قلبك شوقاً لا تخبو ناره ، وسلَّ الوجدُ بها عضباً لا ينبو غراره . فأنشرتَ للناسِ من نفسك قيسَ الأخيلية [2] . وأحييتَ لهم منك مجنون العامرية . وعضضت على بيعتها أناملَكَ . وأنضيتَ في طلبها رواملك . وأطلتَ في وصفِ شوقك لها وأوجزت . وقصَّدتَ في ذكر الأسف عليها ورجزت [3] ، وجمعت لها من المحاسن ما

---

١ ص : غدراته .

٢ حقه أن يقول : توبة الأخيلية .

٣ ص : وقصرت . . . وذخرت .

افترق ، وفتحت من البدائع فيها ما انغلق ، وجعلتها نبض [1] حياتك ، وموضع شكاتك ، وسُعنَة [2] أوطارك ، وجونة عطارك :

ففيها عنبرُ الهنـــدِ وفيها مسكُ دارينِ
وفيها قضبُ نَعْمانٍ وفيها كثبُ يبرينِ
وفيها قامتِ الحربُ كما كانتْ بصفّينِ

فأصبحتَ والظنونُ بك مُرَجّمة ، والألسنةُ عنك مُتَرْجِمة ، والأقوالُ فيك كثيرة ، والأيدي إليك مشيرة ؛ ويا عجبا منك كيف لم تُبْصِرْ بصيرتُكَ هذا العوار وشهابُها ثاقب ، ولم تعفْ نفسُكَ الساميةُ هذه الأقذار وإباؤها واجب ، شدَّ ما ملكتك سورةُ الغَرارةِ وأنت كهلٌ أمين ، وهَفَت بلبّكَ هَفَواتُ الهوى وعندك عقلٌ رصين ؛ أفي الحقّ أن أستفرغَ قلبك فلا يخلو ، وأنشدك فلا تسلو :

ندمتَ ندامةَ الكُسَعيّ لمّا تَبَطّنها يباضعها سواكا
رأتْ ما سدَّ كعثبها وأودى بِغُلمتها فَلَجّتْ في جفاكا
فلا تذهبْ بلبّكَ طائشاتٌ من الصَّبَواتِ واسترجعْ نهاكا

ما لك وللتمادي في غُلَوائك ، والزيادةِ في بُرحائك ، نهنِهْ قلبكَ ، وراجعْ لبّك ، واذكر خَلْقَها وخُلُقَها ، وتأملْ وجهها وعُنُقَها ، وانظر خدَّها وقدَّها ، وهل شيء مما يُستَمْلَحُ عندها ؛ والله ما رأيتُ

....

[1] ص : بيض .
[2] ص : وحصنة ؛ والسعنة : القربة ينبذ فيها ، وربما وضعت فيها المرأة غزلها وقطنها .

شخصها قطّ إلا تخيلتُ الشيطان ، ولا مَقَلْتُ مُقْلَتَها إلا ذكرتُ السّرطان . وأيةُ ضفدعةِ ماء تعشّقْتَ . وقرنْبى بها تعلّقْتَ ، لقد وَرِيَ زَنْدُ مَنْ خرجت من يديه ، وتَعِسَ جَدُّ من صارت إليه .

وفي فصل منها : فهنيئاً أبا حفص راحةُ بصرك من شخصها المقيت ، وفراغُ قلبك من الكَبَد بِخَلْقِها المميت ، لو غَسَلْتَها بكلّ ماءٍ في البحر ، وطيبتها بكلّ عنبرٍ في الشحر ، وضمّختها بملابِ كلّ عطّار ، وفتتّ عليها من المسك ألفَ قنطار ، ما ازدادت مع الطيب [١١٣] إلا دَفَرا ، ومع الغسل إلا وَضَرا ؛ وكأني بك قد أنشدت بيتَ ابنِ الروميّ في من لا يشبهها الا في سوادِ الجلد ، ولا يَشْرَكُها إلا في النسبةِ إلى الجدّ ، يقول [١] :

أكسبها الحبَّ أنها صُبِغَتْ صِبْغةَ حبّ القلوبِ والحدقِ

وقال الآخر :

مشبهاتُ الشبابِ والمسكِ تفديهنَّ نفسي من الردى والكروبِ
كيف يهوى الفتى الأديبُ وصالَ البيضِ والبيضُ مشبهاتُ المشيبِ

هيهات ! هنا يقال : ظُنّ [٢] تَخِبْ ، واقلبْ تُصِبْ ، ما كلُّ بيضاءَ شحمة ، ولا كلُّ سوداء تمرة . فأمسك عنها فقد سَلَتْ عنك ، وابرأ منها فقد بَرِئَتْ منك ، واستصغرت آلتك [٣] ، واعتاضت منكَ بزعمها أكبر

---

١ زهر الآداب : ٢٣٠ وقد استشهد به ابن بسام من قبل في القسم الأول : ١٥٠ .
٢ ص : ظنون .
٣ ص : واستصغر إليك .

أيرا وأكثر خيرا ، ووصفتَ عنه من نشاطِ العُدَّة ، وإفراطِ العِدة ، ما شُرِحَتْ به صدرا ، وأوسعتَ عليه شكرا .

وفي فصل منها : وأمّا قولك : ما الذي أعجبها من دمامته ، وقِصَرِ قامته ، وعِظَمِ هامته ، ووسخ عمامته ، حتى شغفها حُبّا ، وأصبحَ فؤادها به صبّا ، فنعم :

أعجبها من خَلْقِهِ قُمُدّ عُجارمٌ ضخمُ القذال[1] نَهْدُ
ماملمُ الأقطارِ عَبَنْلٌ جلد مثلُ ذراعِ البَكْرِ أو أشدُّ

ولو كنت ممن يُربِّعُ بالنهار ، ويُشْبِعُ بالليل ، كما حكت عنه ، لما واجهتك بما لا تريد ، وباعت صُحْبَتَكَ في من يزيد[2] ، فانقضْ غَزْلَ حبلك لها أنكاثاً ، وطلّقْ علاقةَ قلبك بها ثلاثا .

فراجعه القعيني برقعةٍ طويلة انتصر فيها لنفسه هنالك ، وأقام حججاً على صواب ذلك .

فأجابه الصقلي برقعة أخرى يقول في فصل منها : زعمتَ أنّك شديدُ الغرام ، بشقيقةِ الظلام ، وأني أخطأتُ في عَتْبِكَ على حبّها ، وظلمتُ في نهيك عن قربها ، وجعلتَ أشعارَكَ في النسيبِ بها حجّةً لتمييزك ، وإنكارَ التأنيبِ عليها عذراً من تعجيزك ، وطفقتَ تنشد رافعاً عقيرتك ، مستصغراً كبيرتك :

---

١ ص : العدال

٢ ص : تريد .

أستودعُ اللهَ مولىً مُلَّكتَهُ يدي　　ودَّعتُ إلا شجوني إذ أودِّعُهُ
جسمٌ من المسكِ أقصته النوى فمضى　　وفي[1] ذؤابته عندي تضوّعه
وبدر تمّ تقاضاهُ الأفولُ فيا　　وبلي طويلاً وعندي كان مطلعه
عَدِمتُهُ ذهباً لوناً وفائدةً　　واذلّ من ليستِ الآدابُ ترفعه
يا قطعةً من فؤادي جذّها قَدَرٌ　　حتّامَ تجفوه عدواناً وتقطعه
أهوى الأصيلَ إليها من ملابسةٍ　　ثوباً بهياً ولكن ليس تخلعه

فجعلتها مسكاً فتيقاً ، وذهباً عتيقاً ، وقطعةً من فؤادك ، ومَضِنّةً لودادك ، وسبباً لانقيادك ، وألبستها من الأصيلِ ثوباً لا يُخلع ، ودِرْعاً لا يُنزع ، وزعمتَ أنك اخترعتَ في هذا النسيب معنىً لم يُسْمَعْ ، فانتصرتَ لمذهبك ، وحلّيْتَ عاطلَ مركبك . وما أدري ما أقبلُ من شِعرَيْكَ ، ولا ما آخذ من قوليك ، أهذا الأولُ الذي زعمتَ أنّك قلتَه في عُنفوانِ الصَّبابة ، وإفراطِ الكآبة ، أم حين[2] جلّى الله [عن] بصيرتك غَيايَتَها ، وكشفَ[3] عنها عمايتها — حين قلت :

ياسوءَ مااخترتَها في الحبّ ضفدعةً　　جحوظَ عينٍ وقداً مفرطَ القصرِ
إذا أردتُ نكاحاً وهي مجمرةٌ[4]　　عطراً أرت خَلْقَ إبراهيمَ من قذر
الحمدُ لله جلّى في الغرام بها　　بصيرتي فرأى أقذارها بصري

فمتى عادتِ الضفدعةُ غزالا ، وصار هذا النقصُ كمالا؟ ! وشدَّ ما عَمِيتَ

---

١ ص : وتبقى في .
٢ ص : جبل .
٣ ص : وكشفت .
٤ ص : مجهدة .

بصيرتُكَ بعد جلائها ، وتسامحتْ [1] سيادتك بعد إبائها ، وظمئتَ إلى سؤرِ هذا الجازر ، وهو من لبنِ حازر . أتراها بعد أن اختبرت عَرْده ، وبلَتْ زَوْجَهُ وفرده ، وذاقتْ صابَهُ وشهده ، ورأتْ كلَّ ما يسرها عنده ، تصبرُ على دِقّةِ مِسْبارِكَ ، وترضى مَلّةَ خُشْكارك ، وهيهات ما سوّلتْ لك الأحلام . والله لو عادتِ إلى ملكك ، ما ملّتْ من فَرْكك ، ولا رجعت عن تركك . ولو جعلتَ السندسَ لها بُسُطا ، والثريّا في أذنيها قرطا ، وصيّرتَ بني حام كلّهم لها خَوَلاً ، وحشرتَ عليها كلَّ شيء قُبُلا ، ما كانت لتُقْبِل عليك ، ولا لتصرف وجه محبتها إليك .

وفي فصل : وأما ما ذكرت من خُلَيدة [2] التي ادعيتَ عشقَها عليّ ، ونسبتَ حبّها إليّ ، فقد أذكَرْتني الطعنَ وكنت ناسيا ، قد كنتُ رأيتها في المعرض ، وعندي من الارتياحِ إلى الملاح ، ما عند الغصونِ لهيف الرياح ، ومن الشّغفِ [3] في أمثالها إلى اللقيا ، ما بالرياض إلى السقيا [١١٤] فرأيتُ لثامها قد حُطّ عن بدر كمال ، وإزارها قد غصّ بردفِ ريّان ، وسرّحت طرفي منها في روضةِ حُسْنٍ أريضة ، وحديقةِ جمالٍ أنيقة ، وأعطيتُ مولاها فيها السّولَ ، وبلّغتُهُ في ثمنها المأمول ، وسألها بعض التجار ، عن الدار وعن النّجار ، فترجمتْ عن منصبها ، وأعربتْ عن نسبها ، بغرائبِ ألفاظ ، عزيز سماعُ مثلِها بسوقِ عكاظ ، مسخت القاف كافا [4] ، وردّت الأوصافَ « أوسافا » ، فقبّحتْ بذلك الكلام حُسْنَها ، ورجمت الأسماعَ بلغةٍ كأنّها :

---

١ ص : وتشاخت .

٢ ص : جليدة .

٣ ص : السفن .

٤ ص : الكاف قافا .

• بَرَدٌ تحدّرَ من متون غمامِ •

فعاد مُبْرَم حبي لها سحيلا ، ولم تَسْوَ عندي لذلك فتيلا . وما عجبتُ كعجبي من وصفكها بِقِصَرِ الخطا ، وتشبيهكها بإبهام القطا ، فإن كان نَقْدُكَ في الشعر ومراميه ، واقتضابُكَ لغريبِ معانيه ، بهذه القريحة الصافية ، والبصيرةِ النافذة المتناهية ، فقد فُتَّ الأولين والآخرين سَبْقاً ، وبرزتَ على القدماء والمحدثين صدقاً . كيف جاز عليك هذا الغلطُ وأنت صيرفيُّ الكلام ، معنويُّ النظام ، وغيرُكَ بذلك التشبيهِ كان أليق ، وهو به أعلق ، تلك بيضاءُ قصيرةٌ بزعمك ، وهذه سوداءُ دحداحةٌ بزعمك :

قريبةُ الأقطارِ ملمومةٌ مغموسةٌ في خُضرةِ جَوْنِ
لا تخطىءُ البقّةُ أوصافها في النَّتْنِ والقامةِ واللونِ

وأمّا ما عِبتَه من زُرْقَتِها — وإن لم تكن كذلك ، وكانت الشهلاء في نعتك — فأين أنت من [1] قول القائل :

وأزرقِ العينِ فاترِ الغَنَجِ زرقةُ عينيه آفةُ المهجِ
قالوا به زرقةٌ فقلتُ لهم تمّ بها حُسْنُهُ وجهه البهج
ما زرقةُ العينِ مثلُ كحلتها كم بينَ ياقوتةٍ إلى سَبَجِ

وفي فصل منها : وها هنا وقفتُ وأمسكتُ ، لأنّ بعضَ الإخوانِ أحرقني بنار العتاب ، وأخرجني بها عن طبقةِ الكتّاب ، وركب في ملامتي راسه ، ومدّ بها إليّ أنفاسه ، وأطنبَ في اللوم وأسْهَبَ ، وصعّد فيَّ

---

[1] ص : فأين منك من .

العَتْبِ وصوَّب ، يقول في فصل منها[1] : « وقفتُ على ما أدّاك إليه كثرةُ الفضول ، من إيرادكَ تلك الفصول ، التي مَسَخْتَ جواهرها خزَفا[2] ، ولآلئها صدَفا ، ورأيتُ تلك النصيحة ، التي صارتْ فضيحة ، والمحاسنَ التي عادت قبيحة ، والألفاظَ العِذاب ، التي آضتْ سياطَ عذاب ، وتأدبَ من عاطيتَ ، وجوابَ من كاتبت ، فتأوهتُ وتفجّعْت ، وحَوْقَلْتُ واسترجعت ، وقلت : أما انتبه من سِنَةِ غفلته ، وذكرَ بيتي حكمتِهِ ، إذ يقول :

إذا ما هَدَيْتَ امرءاً مخطئاً أضلَّ السبيلَ إلى قَصْدِهِ
ولم تَلْقَهُ سامعاً قابلاً فَحَسِّنْ له المشيَ في ضدّه

ولقد سررتُ بما أصابك ، وابتهجتُ بما نابك ، فعساك يوماً تعرفُ أخلاقَ الناس ، وتزنُ أحلامَهُمْ بالقِسْطاس ، وتنتقدُ أحوالهم وأفعالهم ، وتختبرُ ضرائبَهُمْ وأشكالهم ، فتميزُ الخبيثَ من الطيّب ، وتتجانف[3] مِنْ بعدُ عن الدعابةِ في خطاب ، أو إجابةٍ بكتاب » .

هذه شكيمةٌ كَبَحَني بها هذا الصديقُ بعد أن جمحتُ ورمحتُ ، وخطامٌ خطمني به بعد أن أرقلتُ وأوْجَفْتُ ، ولولاه لعرضتُ أكثرَ من هذا المتاع ، وَكِلْتُ بأكبرَ من هذا الصاع .

---

[1] ما يلي هو نص ما كتبه إليه صديقه حين لامه .

[2] ص : خرفا .

[3] ص : وتجانب .

وله من رقعة إلى ابن الشامي صاحب الخمس ، راغباً في أن يكلّم له الأمير صمصام الدولة[1] في أن يحرّر له أرضاً كان اشتراها :

إذا الحاجاتُ عيَّ بها رجالٌ وكان قضاؤها صعبَ المرامِ
وقلّتْ حيلة الشّفعاء فيها فحاولْ نُجْحها ببني الشآمي
دراريٌّ العلا حفّتْ ببدرٍ منيرٍ في سماءِ المجدِ سام

ويعلم – أدام الله تمكينه – مذهبي في التخفيف ، وتحمّلِ مؤنة التكليف ، إلاّ في ما تلجىء الضرورة إليه ، ويحملُ الاضطهاد[2] عليه ، وكنتُ من ترفيهِ النفس عن الامتهان ، والقناعةِ بما تسمحُ به نفسُ الزمان ، عن حالةٍ يعلم – حرس الله مجده – تقلّبي في أثنائها ، ومقيلي في أفيائها ، حتى عرَض لي من سوء القضاء ، ما أجار بالنارِ منَ الرمضاء ، فسوّل لي الحرصُ الذي ما شمتُ له قطُّ بارقاً ، والطمعُ الذي ما ركبتُ له قطُّ عاتقاً ، النظرَ في إحداثِ بستانٍ في خرائبَ أخرَبَتْ مالي ، وشغلتني عن كثيرٍ من أشغالي ، وصرتُ منفقاً ما جمعتُ في الغربة والوطن ، وكسبتُ في الإقامة والظعن ، بين جدارٍ فيها أهدمه ، وغارٍ أردمه ، وأرضٍ أرفعُ مرّةً وهادها ، وأخفضُ تارةً نجادها ، حتى استوت ساحاتها [١١٥] وتوطّتْ ، وغابت مغاراتُها وتغطّت ، وانكشطتْ أسنِمَتُها وانحطّتْ ، وفي بناء حائطٍ أحدق بأقطاره ، وآمنُ به على ثماره ، وفي حفر بئر ينقعُ ماؤها صداه ، ويبلُّ إذا حَمِيَ الهجيرُ

---

[1] هو الصمصام بن يوسف ثقة الدولة ، تولى بعد أخيه الأكحل تأييد الدولة سنة ٤٢٧ ولم تطل أيامه ، بل ثار عليه أهل بلرم وأخرجوه ، واستقل كل قائد في جزيرة صقلية بمنطقته .

[2] كذا ، ويمكن أن تقرأ « الاضطرار » .

ثراه ، ما لو أقررتُ به بين يدي القاضي أو شُهِدَ به عليّ لتوجّهَ عليه فيما يلزمُهُ من الفرض . ويحقّ عليه في الإبرام والنقض ، أن يُثبتني على رأي الفقهاء ، في ديوانِ السفهاء ، إذ لا يُقْدَرُ على سَقْيِ دوحاته ، ولا يُتوصَّلُ إلى احياء مواته ، إلاّ بدولابٍ وجابية ، يأخذانِ الماءَ أخذةً رابية ، وعند الوصولِ إلى هذه الفصول ، والانتهاءِ إلى هذا المحصول ، قرعتُ سنَّ النادم ، وانتبهتُ انتباهَ الحالم ، وكنت كتاجرِ البلّوْر ، في ابتياع السنّوْر ، ومسرّحِ الدجاج ، في مخزنِ الزجاج : أحدثَ هذا في ماله من البوار ، ما لا يحدثه عابثُ الفار ، وجلبَ ذلك إلى بضاعته من الفساد ، ما لا يحدثه وافدُ الكساد .

وفي فصل منها : ولا بدّ لغريق البحر أن يدرج فيخرج [1] ، وللتائه في القفر أن يضلّ فيهلك ، أو يُدَلّ فيسلك ، وقد علم قلّة حاجاتِ وليّه إليه ، وإيثارَه التخفيفَ عليه ؛ ومتى أعلمَ الأميرَ أنّ هذه الخرائبَ التي عانى وليّهُ غِراسها ، لا يُرتَجى لها عمارةٌ تعودُ بفائد ، ولا ينتفعُ الديوانُ منها بدرهمٍ واحد ، وساكنوها منذ أعوام ما أدّى واحدٌ منهم خراجاً ، ولا صنع لبيته باباً ولا رتاجاً ، فهم بين قومٍ يأكلون الشجر قبل الثمر ، ويَرْعَوْنَ الأبَّ قبل الحبّ ، وما آمن مع ما أحدقت به من الأسوار ، وخرجت في [النفقة] عن المقدار ، أن يوجفوا إليه بالجوالق ، وينقضّوا فيها كالشوانق ، كما يفعلون في بستانِ فلان ، الذي أنفق فيه عمره وماله ، وصرفَ إليه همّه واهتباله ، فهو في الشتاء من علوجِ الزّبر والحفر ، وأصحاب الغَرْسِ والبَذْر ، فإذا بلغتْ ثمرته ، ووجبتْ غلّته ، حامَ

---

[1] لعله : فيغرق أو يخرج .

عليه بنو حام ، ولم يمتنعْ منهم بحارسٍ ولا حام ، ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ (الكهف : ٤٢) . وناهيك [بِدُرَّةٍ] ظَفِرَتْ يدي بأختها ، وَمَخْشَلَبَةٍ غَنِيَتْ عن ثقبها ونحتها ، ومتى لم يلحظني مولاي بعينِ رعايته ، ويمدَّ إليَّ [يدَ] عنايته ، في ما رغبتُ وسألت ، انقلبتُ بأملٍ عاطلٍ ، وعملٍ باطل .

في ذكر الأديب أبي محمد
عبد الجبّار بن حمديس الصقلّي [1]

أحدُ مَنْ وفد أيضاً على المعتمد ، وهو من جُمْلَةِ مَنْ لقيته وشافهته ، وأسمعني شعره ، وهو شاعرٌ ماهرٌ يقرطسُ أغراضَ المعاني البديعة ، ويعبّر عنها بالألفاظ النفيسة الرفيعة ، ويتصرّفُ في التشبيه ويغوصُ في بحر الكلام على درّ المعنى الغريب .

---

١ انظر الخريدة ٢ : ١٩٤ ورايات المبرزين : ١١٢ والمطرب : ٥٤ ومسالك الأبصار : ٢٨٨ والسلفي : ٨٦ وابن خلكان ٣ : ١٢١ وعيون التواريخ ١٢ : ٢٥٥ والمكتبة الصقلية ونفح الطيب ، وقد كتبت عنه دراسات منها دراسة للأستاذين السقا والمنشاوي (القاهرة ١٩٢٩) ودراسة بالإيطالية للاستاذ جبرايلي ، وقد كتبت عنه فصلا في كتابي «العرب في صقلية» : ٢٣٥-٢٦٢ ودراسة جعلتها مقدمة على ديوانه الذي قمت بنشره سنة ١٩٦٠ ويبدو من المقارنة أن الذخيرة انفردت بقصائد لا نجدها في أصول ديوانه ، ومعنى ذلك – في الأرجح – أن هذه القصائد تمثل رواية – أو مجموعة – كانت له بالأندلس ، وبخاصة وان ابن بسام لقيه وسمع شعره ، ولكن ابن حمديس عاش حتى سنة ٥٢٧ وكثر شعره ، فالذخيرة تمثل حقاً المرحلة التي سبقت مغادرته للأندلس وبعض قصائد مما قاله في بني زيري من بعد . وسأعارض شعره الوارد هنا بديوانه وحده لأني قمت بتخريج شعره من المصادر المتيسرة حين تحقيق الديوان نفسه .

فمن ذلك قصيدة أوّلها[1] :

لم نؤت ليلتنا الغرّاء من قِصَرِ   لولا وِصالُ ذواتِ الدلّ والخَفَرِ

يقول فيها :

إنّي امرُؤٌ لا أرَى خَلْعَ العذارِ على   من لا يقومُ عليه في الهوَى عُذُري
فما فتنتُ بردفٍ غيرِ مُرْتدفٍ   ولا حَنَنْتُ لخصرٍ[2] غيرِ مختصر
وربَّ صفراءَ لم تترِكْ بِسَوْرتها   لِصَوْلةِ الهمّ من عَيْنٍ ولا أثر[3]
تزدادُ ضعفاً [قواها] كلما خَلَقتْ[4]   بها الليالي حدودَ الضّعفِ والكبر
لا يعرفُ الشّرْب عيباً في مَناقبها   إلاّ دعاويَ بين المسك والزهر[5]
يصافحُ الراحَ من كاساتها شُعَلٌ   ترمي مَخافَةَ لمسِ الماءِ بالشّرر
إذا النديمُ حَساها خِلْتَ جريتها   نجماً تصوَّبَ حتى غابَ[6] في قمر

ومنها :

---

١ ديوانه : ٢٠٤ .
٢ الديوان : ولا جننت بخصر .
٣ روايته في الديوان :
وشربة من دم العنقود لو عدمت   لم تلف عيشاً له صفو بلا كدر
أو لعله بيت آخر وقع موقعه أو بعده .
٤ الديوان : بلغت .
٥ روايته في الديوان :
لا يسمع الأنف من نجوى تأرجها   إلا دعاوي بين الطيب والزهر
٦ الديوان : غار .

بالله يا سَمُرات الحيّ هل هَجَعَتْ في ظل أغصانك الغزلانُ عن سحري[1]
وهل يراجعُ وكراً فيك مغتربٌ عزَّت جناحيه أشراكٌ من القدر
يفديك[2] قلبي ولو أستطيعُ من وَلَهٍ طارتْ إليكِ بجسمي لمحةُ البصر

ومن المدح[3] :

الباسطُ الكفّ بالجدوى التي وَكفَتْ بالرزقِ ما بين منهلٍ ومنهمر
والموسعُ الأرض إذ جارتْ أكابرها عدلاً يؤلّفُ بين الشاءِ والنمر
كم آيةٍ لك في الإفضالِ معجزةٍ لها بوادرُ لا تُبقي على البدر

قوله : « نجماً تصوّب حتى غاب في قمر » معنىً قد طوي ونُشر ، ومنه قول الحسين بن الضحّاك[4] :

كأنّما نصبُ كأسه قَمَرٌ يكرعُ في بعضِ أنجمِ الفلكِ

وأخذه أبو نواس فقال[5] :

إذا عبَّ فيها شاربُ القوم خلته يقبّلُ في داجٍ من الليل كوكبا [116]

وقد أخذ بعض أهل عصرنا هذا المعنى ، وهو الأديب أبو محمد بن صارة الشنتريني فقال :

---

1 الديوان : سهري ، وفي ص : سحر .
2 الديوان : ففيك
3 هذه الأبيات الثلاثة لم ترد في رواية الديوان واثبتها هنالك في الحاشية : ٢٠٨ .
4 ديوانه : ٨٨ .
5 ديوان أبي نواس : ٢٤٤ .

وافى بها صهباءَ من أوصافِه   دقُّ الثنايا دونَ نيلِ مَرَامِيها
فرأت نديماً منهما شمس الضحَى   في الليل قابضةً على بهرامِيهـا

وقال فيه أيضاً :

ورشاً خَدُّهُ حديقَةُ وَردٍ   حُمِيَتْ من عذارهِ بِحُبابِ
خلتُهُ حينَ عبَّ في الكاسِ بدراً   عبَّ من ذوب كوكب في عباب

وقال الصقلي من أخرى[1] :

باكرْ إلى اللذّاتِ واركبْ لها   سوابقَ اللهوِ ذواتَ المراحْ
من قبل أن ترشفَ شمسُ الضحى   ريقَ الغوادي من ثغورِ الأقاح

وله من قصيدة[2] :

قد طيّبَ الآفاقَ طيبُ ثَنائِهِ   حتى كأنَّ الشمسَ تُذْكي المندلا

وكرَّر هذا المعنى فقال[3] :

وكأنّما شمسُ الظهيرةِ نارُهُ   وكأنّما شجَرُ البسيطةِ عودُهُ

وله يستنجز المعتمد بن عباد وقد لزم باب قصره عاماً كاملاً[4] :

---

١ ديوان ابن حمديس : ٨٩ .
٢ ديوانه : ٥٥٩ (عن الذخيرة) .
٣ ديوانه : ٥٤٤ (عن الذخيرة) .
٤ ديوانه : ١١٠ .

أبا مولِيَ الصُّنعِ الجميلِ إذا انتشى ويا مُسديَ النيْلِ الجزيل إذا صحا
وفي كلِّ أرضٍ من نَداهُ حَديقةٌ تضوّعَ مسكاً نَوْرها وتفتّحا
ألمْ تَرَهُ بالحرمانِ من كلِّ عاطلٍ تطوّقَ من نعماكَ ثمَّ توشّحا
أتتني على بُعْدِ النّوى منك دعوةٌ أثارت بناتِ السيرِ حُولاً ولقّحا [1]
فجاءك من أهلِ البديعِ مصرّفٌ مهارَ القوافي [2] في امتداحك قرّحا
وكان عليه الخلقُ ليلاً يجوبه إليكَ فلمّا لاحَ وجهك أصبحا
رفعتُ بأظعاني إلى ما تحدُّهُ [3] علاك فوقّعْ ممسكاً أو مسرّحا

ثمّ تصرّفتِ الليالي والأيام ، اللاعبةُ بالأنام ، واقتضت بالمعتمد الحال ، إلى الاعتقال ، بسجن أغمات ، وسمع الصقلّي هذا شعر المعتمد الذي قد تقدم إنشاده حيث يقول فيه [4] :

قضى الله في حمصَ الحمامَ وبعثرتْ هنالك عنّا للنشورِ قبورِ
تراهُ عَسيراً أم يَسيراً نَنالُهُ ألاَّ كل ما شاءَ الإلَهُ يَسير

فأجابه الصقلي أبو محمد بأبيات منها قوله [5] :

أتيأسُ من يومٍ يناقضُ أمسَهُ وشهبُ الدراري في البروجِ تدورُ
ولما رحلتم بالنّدى في أكفّكم وَقُلْقِلَ رَضْوَى منكمُ وثبير

---

١ الديوان : قطعت لها بالعزم نجداً وصحصحا .
٢ الديوان : ويختال من أهل القريض . . . يهادي القوافي .
٣ الديوان : وأصحابي . . . تجده .
٤ القسم الثاني : ٧٥ وديوان ابن حمديس : ٢٦٧ .
٥ ديوان ابن حمديس : ٢٦٨ — ٢٦٩ والذخيرة ٢ : ٧٦ .

رفعتُ لساني بالقيامةِ قد دَنتْ فهذي الجبالُ الراسياتُ تَسير

وله من قصيدة في القاضي ابن القاسم بسلا[1] :

لكلّ محبّ نظرَةٌ تَبْعَثُ الهَوَى ولي نظرَةٌ نحو القَتولِ هي القتلُ
أتزتدُ[2] بالتكريهِ رسل نواظري ومن شِيَمِ الإنصافِ أن تكرمَ الرسل

ومنها :

ركبتُ نوًى جوابةَ الأرضِ لم يعشْ لراكبها عيسٌ[3] تخبُّ ولا رحل
أسائلُ عن دارِ السّماحِ وأهلِهِ ولا دارَ فيها للسماحِ ولا أهل
ولولا ذرى ابن القاسمِ الواهبِ الغنى لما حُطَّ منها عند ذي كرمٍ رحل
تُخَفّضُ أقدارُ اللّئامِ بلؤمِهم وقدرُ عليٍّ من مكارمهِ يَعلو
فتىً لم يفارق كفَّهُ عقدُ مِنّةٍ ولا عِرْضَهُ صَوْنٌ ولا مالَهُ بذل
له نِعَمٌ تَخضَرُّ منها مواقعٌ ولا سيّما إن غَيّرَ الأفقَ المحل
ورحبُ جنابٍ حين ينزلُ للقرَى[4] وفصلُ خطابٍ حين يجتمع الحفل
ووجهٌ جَميلُ الوجه تحسب حُرَّهُ حساماً له من لحظِ سائلِهِ صَقْلُ
مروَّعَةٌ أموالُهُ بِعطائِهِ كأنَّ جنوناً مسّها منه أو خَبْلُ
وأي أمانٍ أو قرارٍ لخائفٍ على رأسه من كفّ قاتله نصل

---

١ الديوان : ٥٥٧ (عن الذخيرة) ومنها أربعة أبيات في المسالك .
٢ ص : تريد (دون اعجام للياء) .
٣ المسالك : عنس .
٤ لعل صوابه : حينما يبذل القرى أو : حين يستنزل القرى .

ومنها :

لقد بَهَرَتْ شُهْبَ الدراري منيرةٌ — مآثرُ منكم لا يكاثرها الرمل
ورثتم تراثَ المجدِ من كلّ سيّدٍ — على منكبيه من حقوقِ العلا ثِقْلُ
فمن قمرٍ يُبْقي على الأفقِ بعده — هلالاً ومن ليثٍ خليفتُه شِبلُ
وأصبحَ منكم في سلا الجور أخرساً — وقام خطيباً بالذي[1] فيكم العدل
ملكتُ القوافي إذ توخيتُ مدحكم — ويا رُبَّ أذوادٍ تملّكها فحل

وله من أخرى في تميم أمير المهدية ويتفجّع على دخول الروم صقلية ، أوّلها[2] :

تدرّعْتُ صبري جُنّةً للنوائب — فإن لم تُسَالمْ يا زمانُ فحاربِ

يقول فيها :

بلادٌ جرى فوق البلادةِ ماؤها — فأصبح منه ناهلاً كلُّ شارب
فُطِمْتُ بها عن كلّ كأسٍ ولذّةٍ — وأنفقتُ جُلَّ العمر في غير واجب
يبيتُ رئاسُ السيفِ في ثِنْيِ ساعدي — معاوضةً من جيدِ غيداءَ كاعب
وما ضاجعَ الهنديَّ غيرُ مثلّمٍ — مضاربُهُ يوم الوغى في الضرائب
إذا كان لي في السيف أنسٌ ألفتُهُ — فلا وحشةٌ عندي لفقد الحبائب
وكنتُ وقدّي في الصبا مثلُ قدّه — عهدتُ إليه أنَّ منهُ مكاسبي

---

[1] كذا هو في ص ولعله : « بالهدى » أو ما أشبه .
[2] ديوان ابن حمديس : ٢٨ .

فإن كان لي في المشرفيّ مآربٌ ... فكم في عصا موسى له من مآرب

بعيشك أيّ الفجعتين استربتها[1] ... خيانةَ دهري أم خيانةَ صاحبي [١١٧]

تغذّى باخلاقي قديماً[2] ولم تكنْ ... ضرائبه إلاّ خلافَ ضرائبي

ويا ربَّ نبتٍ تعتريهِ مرارةٌ ... وقد كان يُسقى عذبَ ماء السحائب

جهلتُ فجربتُ الذي أنا عالمٌ[3] ... وقد تُجهَلُ الأشياءُ قبل التجارب

ومنها :

وكم عزماتٍ كالسيوف صوادقٍ ... تجرّدُها أيدي الأماني الكواذبِ

فلي في سماء الشرقِ مطلعُ كوكبٍ ... جلا من ضلوعي بين زهرالكواكب[4]

ألفتُ اغترابي عنه حتى تكاثرت ... له عُقَدُ الأيّامِ في كفّ حاسب

متى تسمعِ الجوزاءُ في الجوّ منطقي ... تُصخْ من مقالي في ارتجالِ الغرائب

ليالِيَّ بالمهديّتين كأنّها اللآ ... لىءُ من دنياك فوق ترائب

إذا شئتُ أن أرمي الهلالَ بلحظةٍ ... لمحتُ تَميماً في سماء المناقب

ومنها :

ولو أنّ أرضي حُرّةٌ لاتبّعتُها ... بعزمٍ يقدُّ[5] السير ضربةَ لازب

---

١ الديوان : أتحسبني أنسى وما زلت ذاكراً .

٢ الديوان : صغيراً .

٣ الديوان : علمت بتجريبي أموراً جهلتها .

٤ ص : حلا من ضلوعي بين زند الكواكب .

٥ [illegible] وجه من معنى ، وأحسبه « يعد » كما في الديوان .

ولكنْ أرضي لا عدمتُ فكاكها[1] من الأسرِ في أيدي العلوجِ الغواصب
لئن ظفرتْ تلك الكلابُ بأكلها فبعد سكونٍ للعروقِ الضوارب
أحينَ تفانَى أهلُها طوعَ فتنةٍ يضرّمُ فيها نارَهُ كلُّ حاطب
وأضحتْ بها أهواؤُهم وكأنّما[2] مذاهبهم فيها اختلافُ المذاهب
تخبُّ بهم قُبّ يُطيلُ صَهيلُها بأرضٍ أعاديهم نياحَ النوادب[3]
مؤلّلة الآذانِ تحتَ [الاهم] كما حُرّفتْ بالبري أقلامُ كاتب

وله من أخرى أولها[4] :

شفاؤكَ في نوًى تُنْضي الركابا ونُجْحُكَ عن سرًى تطوي اليبابا
فلا تَقنَعْ منَ الدُّنيــا بحَظٍّ إذا لم تَحوِهِ يدكَ اغتصابا
فشرٌّ ليوث [هذي الأرض] ليثٌ يُشاركُ في فريستهِ الذئابا
سأسري تحتَ نجمٍ من سناني إذا نجمٌ منَ الأنصارِ غابا[5]
وينجدُني على الحدثانِ[6] عَضْبٌ يفلّلُ قَرْعُهُ النّوبَ الصّعابا

---

١ الديوان : كيف لي بفكاكها .
٢ ص : وكأنها .
٣ ما حذفه ابن بسام قبل هذا البيت يشوه السياق ، ففي ما قبله كان ابن حمديس ينعى على قومه نشوبهم في فتنة قسمتهم وأوهنت قوتهم ، وفي هذا البيت وما يليه يشيد بما كان لهم من بطولات قبل تلك الفتنة .
٤ ديوانه : ١٤ ومطلعها مختلف ، وهو :
ألا كم تسمع الزمن العتابا تخاطبه ولا يدري الخطابا
والأبيات الثلاثة الأولى هنا ليست في رواية الديوان .
٥ الديوان : عن الأبصار .
٦ قراءة غير دقيقة لما في ص ، واقرب الصور المثبتة « الحدفا » .

يمانيّ إذا[1] استمطرتُ صوباً به من عارضِ المُهجاتِ صابا
كأنّ شعاعَ عينِ الشمسِ فيه وإن كان الفرندُ به ضبابا

ومنها :

وكنّا في مواطننا كراماً تعافُ الضيمَ أنفسنا وتابَى
ونطلعُ في مطالعنا نُجوماً تُعِدُّ لكلّ شَيطانٍ شِهابا
صبرنا للخطوبِ على ضرُوبٍ[2] إذا رُميَ الوليدُ بهنّ شابا
ولم تَسلَمْ لنا إلاّ نُفوسٌ وأحسابٌ تكَرّمْنا اكتِسابا[3]
ولم تخلُ الكواكبُ من سقوطٍ ولكن لا يُبلّغُها التّرابا

ومن أخرى[4] :

بلى جرَّ أذيالَ الصّبا فتَصابَى وأوجفَ خَيلاً في الهوَى وركابا
قصرتُ[5] زماني بالشّمولِ مُسِنّةً وبالروضِ كَهلاً والفتاة كعابا

يقول فيها :

وأقصر أيّامِ الفتى يومُ لذّةٍ صفا ما صفا بالعيش منه فطابا[6]

---

١ الديوان : يمان كلما .
٢ الديوان : صروف .
٣ الديوان : نكرمها اكتسابا .
٤ الديوان : ٥٤ ، ٥٣٩ (والثانية نقلا عن الذخيرة وهي تكاد تكون رواية مستقلة) .
٥ الديوان : قطعت (٥٤) .
٦ من هنا حتى آخر القصيدة مما تستقل به رواية الذخيرة .

لياليَ لا تَرمي الرَّميَّ وإن تُصِبْ بسهمكَ خوداً فالشبابُ أصابا

وعصبةِ لهوٍ غادروا الهمَّ جانباً فلم يألَفوا إلاَّ السرورَ جنابا

يديرونَها راحاً كأنَّ بكاسِها إذا لَبِستْ درعَ الحَبابِ حُبابا

تنافرُ لمسَ الماءِ وهو يَروضُها تَفَرَّكُ كالبكرِ الفَروقِ لِعابا

فأحببْ بذاكَ العيشِ عيشاً ذكرتُهُ وبالعصرِ عصراً والصحابِ صِحابا

وليلٍ تَخوضُ النيّراتُ ظلامَهُ كأوجهِ غَرْقَى يغترفنَ عبابا

سرَيتُ بمحبوكٍ منَ القُبِّ كلّما دعا شأوَهُ وحيُ العِنانِ أجابا

من الجنَ فاسم الله إمّا وَضَعْتَهُ مكانَ قَطيعٍ طارَ عنكَ وغابا

ترَى ضحكَ الإصباحِ فوقَ جَبينه وقُبَيّضَ[1] منَ ليلِ المحاق إهابا

تخالُ الثريا رأسَهُ وهوَ مُلجَمٌ إذا الجري[2] لم يلبس طلاهُ سخابا

يحرّفُ بالتأليل[3] أذْناً كأنّما برى قلماً منها يخطُّ كتابا

سما الدرُّ في أرساغهِ عن زبرجدٍ يغادر بالوطء الصخورَ ترابا

هو الطّرْفُ فاركبْ منه في ظهرِ طائرٍ تَنَلْ كلَّ ما أعيا عليك طلابا

إلى قمرٍ تَسري إليهِ كأنّما عليهِ سماءُ اللهِ تغلقُ بابا

كأنّيَ سرّ في حَشا اللّيلِ داخلٌ على حَبّةِ القَلبِ المَصونِ حجابا

فبتُّ مُرَوّى من مُجاجةِ باردٍ غزا ذكرُهُ قلبَ الغيورِ فذابا

كأنَّ قِطافَ اللثْم من ثغرِ رَوْضِهِ تكسَّبَ من طلِّ الغمامِ رضابا

---

١ هكذا في ص ؛ وله وجه ، والأحسن ما أثبته في الديوان « وقمص » .

٢ ص : الجو .

٣ ص : بالتأويل .

ومنها :

ولم أرَ كالدنيا خؤوناً لصاحبٍ ... ولا كمصابي بالشبابِ مصابا
فقدتُ الصّبا فابيـَضَّ مسوَدُّ لمـّتي ... كأنَّ الصّبا للشيبِ كان خِضابا

ومن أخرى[1] :

أمطـَتْـكَ همـّتكَ العزيمةَ فاركبِ ... لا تلقيَنَّ عصاكَ دونَ المطلبِ
ما بالُ ذي النظر الصحيحِ تقلّبتْ ... في عَيْنِه الدنيا ولم يتقلّبِ
فاطوِ العجاجَ بكلّ يعملةٍ لها ... عَومُ السفينةِ في سرابِ السبسبِ
شرّق لتجلو عن ضيائك ظلمة[2] ... فالشمسُ يمرضُ نورها بالمغربِ
والماءُ يأجنُ في القرارةِ راكداً ... فإذا علتْـكَ قذاتُه فتسرَّبِ
طالَ التغرُّبُ في بلادٍ خُصّصتْ ... بوخامة المرعى وطَرق المشربِ [١١٨]
فطويتُ أحشائي على الألم الذي ... لم يَشفِه إلاَّ وجودُ المذهَبِ
إنَّ الخطوبَ طرقنني في جنّةٍ ... أخرجنني منها خروج المذنبِ

ومنها :

من سالمَ الضعفاءِ راموا حربَه ... فالبسْ لكلّ الناس شكـّةَ محرَبِ
كلٌّ لأشراك التحيّل ناصب ... فاخلِب بني دنياكَ إن لم تَغلِبِ
من كلّ مركومٍ الجهالةِ مبهمٍ ... فكأنما هو قطعة من غيهَبِ
لا يكذبُ الإنسانَ رائدُ عقلِه[3] ... فامرُر تمجَّ وكنْ عذوباً تُشرَبِ

---

١ الديوان : ٣٧ (عن الذخيرة) ومنها في المسالك ثمانية أبيات .

٢ [illegible]

٣ [illegible] : « إن الرائد لا يكذب أهله » .

ولربَّ محتقرٍ تركتُ جوابَه ... والليث يأنفُ عن جواب الثعلب
لا تحسبني في الرجال بغاثةً ... إني لأقعصُ كلَّ لَقوةِ مَرقب
أصبحتُ مثلَ السيف أبلى غمدَهُ ... طولُ اعتقالِ[1] نجادِهِ بالمنكبِ
إنْ يَعلُه صدأ فكم من صفحةٍ ... مصقولةٍ للماء تحت الطحلبِ

ومنها :

كم من قوافٍ كالشوارد صُرتُها ... عن مِثلِ جَرجَرَةِ الفَنيقِ المصعَب
ودقائقٍ بالفكرِ قد نظَّمتُها ... ولو آنهنَّ لآلىءٌ لم تثقَب
وصلتْ يدي بالطبعِ فهو عقيدها ... فقليلُ إيجازي كثيرُ المسهَبِ
نفثَ البديعُ بسحرهِ في مقولي ... فنطقتُ بالجادِيِّ والمتذهب[2]
لو أننا طيرٌ لقيل لخيرنا ... غرِّد وقيلَ لشرِّنا لا تنعَبِ
وإذا اعتقَدتَ العدلَ ثم وزنتني ... رجَحتْ حصاتي في القريضِ بكبكب
إني لأغمدُ من لساني مُنصلاً ... لو شئت صمَّمَ وهو دامي المضرب

ومن أخرى[3] :

تظنُّ مزارَ[4] البدرِ عنها يَعزُّني ... إذا غاب لم يبعدْ على عينِ مُبصِرِ
وبين رحيلي والإيابِ لحاجها ... من الدهرِ ما يُبلي رتيمةَ خنصرِ

---

١ المسالك : اعتلاق .
٢ ص : فنقطت بالجاري وبالمتشلهب .
٣ الديوان : ٥٥٠ (عن الذخيرة) ومنها في المسالك أربعة أبيات .
٤ في ص صورة : من ان (دون إعجام) .

ولا بد من حَملي على النَفس خطّةً تعلّقُ وِردي في اغترابي بمصدري
وتطرحني بالعزم من غيرِ فترةٍ سفائنُ بيدٍ في سفائن أبحر
وما هي إلاّ النفسُ تفنى حياتُها مصرّفَةً في كلّ سعيٍ مقدّر
أغرّكَ تلويحٌ بجسمي وأنني لكالسيف تعلو متنهُ غين[1] جوهر
وما هي إلاّ لفحةٌ[2] من هواجرٍ تخلّصتُ منها كالنضار المسجر[3]
وأنكرتُ إلمامَ المشيبِ بلمّتي وأيُّ صباحٍ في دجىً غير مسفر
وما كان ذا حِذْرٍ غرابُ شبيبتي فلمْ طار [عن] شخصي لشخصٍ منفر
وأبقتْ[4] صروفُ الدّهرِ مني بقيةً مذكّرة مثلَ الحسامِ المذكّر
وما ضعضعتني للحوادثِ نكبةٌ ولا لان في أيدي الحوادث عنصري

ومنها :

وحمراءَ لم تَسمَح بها نفسُ بائعٍ لسَومٍ ولم تَظفَر بها يدُ مشتري
أقامَت مع الأحقابِ حتى كأنّها خبيئةُ كسرى أو دفينَة قيصرِ
فلم يبق منها غيرُ جزءٍ كأنّهُ توهّم معنىً دقّ عن ذهْنِ مُفكرِ
إذا قَهقَه الإبريق للكاسِ خلتَهُ يرجّعُ صوتاً من عقابٍ مصرصِر
وطافَ بها غَمرُ الوشاحِ كأنّما يقلّبُ في أجفانه طرفَ جؤذر
قصرتُ بكلٍ كلّ يومٍ لهوتُهُ ومَهما يَطبْ يومٌ من العيشِ يقصر

---

١ ص : حين .
٢ ص : نفحة .
٣ ص : المشحر .
٤ المسالك : لأبقت .

ومن أخرى في المعتمد[1] :

أتُنكرُ ضعفاً أمرضَ الحدقَ النّجلا   وقد أكثرت فينا لواحظها قتلا[2]

يقول فيها :

أقائدَها قبَّ الأياطل لم تدعْ   له عندَ أعداءِ إغارتُه ذَحلا
حَمَيتَ حمى الاسلام إذ ذدتَ دونه   هزبراً ورشّحتَ الرشيدَ له شبلا
لئنْ قلتَ فيه صحَّ تأليفُ سؤددٍ   فبارعُ نقلٍ من شمائلكَ استملى

ومنها في صفةِ القصرِ :

ويا حبّذا دارٌ يدُ الله مسّحتْ   عليها بتجديد البقاءِ فما تبلى
مقدسةٌ لو أنَّ موسى كليمَه   مشى قادماً في أرضها خلعَ النعلا
إذا فتحتْ أبوابها خلتَ أنها   تقولُ بترحيبٍ لداخلها أهلا
وقد نَقَلَتْ صنّاعُها من صفاته   [إليها] أفانيناً فأحسنتِ النقلا
فمن صدره رحباً ومن نوره سناً   ومن صيته فرعاً[3] ومن حلمه أصلا
نسيتُ به إيوان كسرى لأنّه   أرانيَ مثلاً ما رأيتُ له مثلا[4]
كأنَّ سليمانَ بنُ داودَ لم تُبِحْ   أوامرُه للجنّ في شيدِه مَهلا
كأنَّ عيونَ السحرِ نافذةٌ له   عليهنَّ فصلاً من بدائعه فصلا[5]

---

1 الديوان : ٣٧٥ .

2 ورد بدل هذا المطلع في الديوان :

أغمر الهوى كم ذا تقطعني عذلا   قتلت الهوى علماً أتقتلني جهلا

3 ص : بدعاً .

4 الديوان : أراني له مولى من الفضل لا مثلا .

5 الديوان : على كل بان غاية منه أو فضلا .

فكانَ مكان القول ببعثُ[1] وصفهُ رقيقاً وأذنُ الدهرِ تسمعه جذلى
ترى الشمسَ فيه [ليقةً] تستمدُّها أكف أقامتْ من تصاويرها شكلا
تحوز[2] له الأمواهُ بركةَ جدولٍ تخالُ الصبّا منه مشطّبة نصلا
إذا اتخذتها الشمس مرآةَ وجهها أجالتْ عليها من مداوسها[3] صقلا
وقد توّجَ البهو البهيّ بقبّةٍ فقلْ في عروسٍ في [جلابيبها] تجلى
تجمعتِ الأضداد فيها مصانعاً ولم أرَ خلقاً قبلها جمّع الشملا
وأغربُ ما أبصرتُ بعدَ مليكها بها مُترعٌ يُعدي[4] الشجاعة والبذلا
ولما عَشينا من توقّدِ نورها تخذنا سناه في نواظرنا[5] كحلا
فيا دارُ أغضى الدهرُ عنكِ وأكثرت أسودكِ نسلاً فيك يختتلُ[6] النسلا

---

١ الديوان : فجاء . . . نبعث .
٢ الديوان : تجوز .
٣ ص : مدارسها .
٤ ص : منزع تعدي .
٥ ص : نواظرها .
٦ ص : تختتل .

ومن شعره في أوصاف شتى

قال [1] : [١١٩]

نفوسنا بالرجاءِ مُمْتَسكَه والموتُ للخَلقِ ناصبٌ شركَه
تُبْرِمُ أجسامَنا وتنقضنا طبائعٌ في المزاجِ مشتركه
لولا انتشاقُ الهواءِ متُّ كما تموتُ مع فَقدِ مائها السمكه
ننْشأ بالبعْثِ بعد ميتتنا أما يُعيدُ الزجاجَ من سبكه
ما أغفَلَ الفيلَسوفَ عن طرقٍ ليستْ لأهلِ العقولِ مُنسلكَه
من سلّمَ الأمرَ للإلهِ نجا ومن عدا القصدَ واقعَ الهلكَه

وقال [2] :

جاءَ به ملآنَ من صافيةٍ معمورةٍ منها أقاليمُ الفرحْ [3]
حلّ وكاءً شدَّه عن مذبحٍ [4] طلَّ دمَ العنقودِ منه وسفح
حتى إذا ما صبَّ منه ريّنا سدَّ على التبرِ الذي كان فتح [5]

---

١ الديوان : ٣٥٩ (عن الذخيرة) .
٢ الديوان : ٨٥ .
٣ جاء في موضعه بيت آخر في الديوان .
٤ الديوان : مدمج .
٥ الديوان ، ريقاً ، سد على ذوب العقيق ما فتح .

ترى نجيعَ البرقِ[1] منه راشحاً كأنّه من وَدَجِ الليلِ رشح
مدامةٌ للروحِ أختٌ بَرَّةٌ آخذَةٌ ثاراتِها من التّرح[2]
قد علمت مزاجها فصرفُها يجبرُ ما هاضَ ويأسو ما جرح[3]
يومٌ كأنّ القَطرَ فيه لؤلؤ ينظُم للروضِ عقوداً أو وشح[4]
تقدحُ نارٌ من زنادِ برقه ويطفىءُ الماءُ[5] سريعاً ما قدح
لما جرَتْ فيه الصّبا عليلةٌ رقّ الهواءُ فيه للنفسِ وصح
كأنما الكافورُ نثرُ ثلجنا أوندَفَ البرْسَ لها[6] قوسُ قزح
حتى أتى الليلُ بصحوٍ لم يكنْ يغتبقُ الغيثُ به كما اصطبح[7]
كأنّما خلّفَ منه قشعمٌ يَندى علينا ريشُه إذا جنح[8]
وقد محا صبغَ الدياجي قمَرٌ دينارُهُ في كفّة[9] الغربِ رجح

---

١ الديوان : الزق .
٢ الديوان : ينأى بها سرورنا عن الترح .
٣ الديوان :
قد علمت مزاجه فشربها يجرحه ثمت يأسو ما جرح
٤ هذا البيت مع اثنين آخرين وردت في الوافي في نظم القوافي ، الورقة : ٤٩ (مخطوطة ليدن) .
٥ الديوان : يقدح ناراً . . . الماء .
٦ الديوان : لنا .
٧ الديوان :
حتى علا الجو دجى لم يغتبق فيه الحيا من الثرى كما اصطبح
٨ الديوان :
غراب ليل فوقنا محلق يقبض عنا ظله إذا جنح
٩ ص : كف .

حتى إذا ردَّ حداءُ عَدوِهمْ ... من كان في وادي الرّقادِ قد سرح
نبّه ذا هذا وكلٌّ طرفُهُ ... يلمَحُ طرفَ السكرِ من حيثُ لمح
يسألُ في تقويمِ جيدٍ مائلٍ ... لو [لم] يسامح في الحميّا لسمح
وجاءهُ الساقي بكوبٍ مفعمٍ ... لو شاء أن يسبَح فيه لسبح
يا عاذلي [1] في الراحِ كم سيئةٍ ... تجاوز الرحمن عنها وصفح
أغشُّ خلقِ الله عند ذي هوىً ... من عرَّض الرشدَ عليه ونصح
حتى إذا فكّر عن بصيرةٍ ... ذمَّ [من] الأفعالِ ما كان مدح

وقال [2] :

ومشمولةٍ راحٍ كأنَّ حبابها ... إذا ما بدا في الكاسِ درٌّ مجوّفُ
لها من شقيقِ الروضِ لون كأنما ... إذا [ما] بدا في الكاسِ منه مطرّف
شربتُ [3] على برق كأنَّ ظلامَهُ ... إذا احمرَّ فيه أسودٌ باتَ يرعف

وهذا من قول المعري [4] :

إذا ما اهتاجَ أحمرَ مستطيلاً ... حسبتَ الليلَ زنجياً جريحا

وقال أبو محمد أيضاً [5] :

---

١ الديوان : يا لائمي .
٢ الديوان : ٥٥٤ (عن الذخيرة والمسالك) .
٣ ص : سريت .
٤ شروح السقط : ٢٤٠ .
٥ الديوان : ٥٤١ (عن الذخيرة ، ومنها بيتان في المسالك) .

ما زلتُ أشربُ كاسهُ من كفّه ورضابُه نقلٌ على ما أشربُ
حتى انجلى الإصباحُ عن إظلامهِ كالسترِ [يُرفَعُ]عن مليكٍ يحجب
والشهب في غَرْبِ السماءِ سواقطٌ كبناتِ ماء في غديرٍ تَرسُبُ

وقال في صفة نهر[1] :

ومطردِ الأجزاءِ تحسبُ[2] مَتْنَهُ صباً أعلنتْ سرَّ القذى في[3] ضميره
جريح بأطرافِ الحصى كلّما جرى عليها شكا أوجاعَهُ بخريره
كأنَّ حُباباً ريعَ تحتَ حَبابهِ فسارَعَ يلقي نفسَهُ في غديره
شربنا على حافاتهِ دَوْرَ سكرةٍ وأقتل سكراً[4] منه عينا مديره
كأنَّ الدجى خطٌّ[5] المجرة بيننا وقد كُلّلتْ حافاتُها ببدوره
كلفتُ بشربي للصبوحِ[6] مبكراً وكم بركاتٍ للفتى في بكوره

وله في شمعة[7] :

قناةٌ من الشّمعِ مركوزةٌ لها حربةٌ طُبعَتْ من لهبْ
تحرّقُ بالنارِ أحشاءها فتدمعُ مقلَتُها بالذهب

---

١ الديوان : ١٨٦ .
٢ الديوان : يصقل .
٣ الديوان : صبا أعلنت للعين ما في .
٤ ص : وأقبل سكراً .
٥ ص : حط .
٦ الديوان : بكاسات الصبوح .
٧ الديوان : ٢٤ وسرور النفس : ٤٣٣ .

تمشّى لنا نورُها في الدّجى كما يتمشّى الرضى في الغضب
فأعجبْ[1] لآكلةٍ جسمَها بروحٍ يشاركها في العطب

وله فيها [2] :

مصفرةُ الجسم وهي ناحلة تستعذبُ العيشَ معْ تعذّبها
تطعَنُ صدرَ الدّجى بعاليةٍ صنوبريّ لسانُ كوكبها
إن تلفتْ روحُ هذه اقتبستْ من هذه فضلةً تعيشُ بها
كحيّةٍ باللسانِ لاحسةٍ ما أدركتْ من سوادِ غيهبها

وقال [3] :

صَدَّتْ وبدرُ التمّ مكسوفٌ به فحسبتُ أنَّ كسوفَهُ من صدّها
فكأنّه مرآةُ قينٍ أحميَتْ فمشى احمرارُ النارِ في مسودّها

وقال [4] :

سكنَ القلبَ هوى ذي صَلَفٍ زاده فيه سكوناً حَرَكَهُ
فهو كالمركزِ يبقى ثابتاً كلّما دار عليه فلكه

وقال [5] :

---

١ الديوان : عجبت .
٢ الديوان : ٥٤١ (عن الذخيرة والمسالك) .
٣ الديوان : ١٤٣ (والبيت الأول من الذخيرة والمسالك) ومنها بيتان في الشريشي ١ : ٣١١ منسوبان لابن الصباغ الصقلي .
٤ الديوان : ٥٥٦ (عن الذخيرة) .
٥ الديوان : ٥٥٥ (عن الذخيرة) .

يومٌ كأنَّ نسيمَهُ نفحاتُ كافورٍ ومسكِ
وكأنَّ قطرَ سمائِهِ درٌّ هوى من نَظْمِ سلكِ
متغيِّرٌ غَيماً وصحـ وآً مثلما حدثت عنكِ
كالطفلِ يُمنَحُ ثم يُمْـ نَعُ ثم يضحك ثم يبكي [١٢٠]

وقال [1] :

وحمامِ سوءٍ وخيمِ الهواءِ قليلِ المياهِ كثيرِ الزحامِ
فما للقيامِ به من قعودٍ ولا للقعودِ به من قيامِ
حنيّاتُهُ عَطَفَاتُ القسيِّ وقَطَراتُهُ صائباتُ السهام
ذكرتُ به النارَ حتى لقد تخيّلتُ إيقادَها في عظامي
فيا ربِّ عَفوكَ عن مذنبٍ يخافُ لقاءَكَ بعد الحمام

وقال [2] :

قَبَسٌ بكفِّ مديرها أم كوكبُ ينشقُّ منه عن الصباح الغيهَبُ
وأريجُ مسكٍ فاح عن نفحاتها فذوائب الظلماءِ منه تَطَيَّبُ
قالوا الصبوحُ فقلتُ قرّب كاسه إني لمهديها [بها] أتقرب
لا تسقني اللبنَ الحليبَ فإنَّ لي في كلّ داليةٍ ضروعاً تُحلَبُ
وذخيرة للعيشِ مرٌّ لعمرها عددٌ يشُقُّ على يَدي من يحسب
دبّابةٌ في الرأسِ يصعدُ سكرُها فتجدُّ منا بالعقولِ وتلعب

---

١ الديوان : ٥٥٩ (عن الذخيرة) .
٢ الديوان : ٥٤٢ (عن الذخيرة) .

دارتْ بعقلي سَورةٌ من كاسها حتى كأن الأرض تحتي لولبُ
باكرتها والليلُ فيه حُشاشَةٌ يستلّها بالرفقِ منه المغرب
والجوُّ أقبلَ في تراكبِ مُزنه قُزحٌ بعطفةِ قوسهِ يتنكّب
صابتْ فأضحكتِ النديمَ بأكؤسٍ عهدي به من نقطهنَّ يقطب
والبشرُ في شُربِ المدامةِ فارتقب منها سرورَ النفسِ ساعة تعذب[1]

فصل في ذكر الوزير الحكيم أبي محمد المصري[2]

شيخُ الفتيان ، وآبدةُ الزمان ، وخاتمةُ أصحابِ السلطان ، وكان رحل إلى مصرَ واسمُهُ خامل ، وسماؤه عاطل ، فلم ينشب أن طرأ على الأندلسِ وقد نشأ خَلقاً جديداً ، وأجرى إلى النباهةِ طَلَقاً بعيداً ، فتهادتْهُ الدول ، وانتهتْ إليه التفصيلاتُ والجمل ، وكلما طرأ على ملكٍ فكأنه معه وُلِدَ ، وإياه قَصدَ ، فجرى مع كلّ أحد ، وتموّلَ في كلّ بلد ، وتلوّنَ في

---

١ كذا في ص ، وأحسب صوابه : « تقرب » .

٢ هو عبد الله بن خليفة القرطبي ، المعروف بالمصري ، قال ابن سعيد : لطول اقامته بمصر ، وأنكر ابن حيان أن يكون ابن خليفة (وكان ابن جار له) قد تعدى في رحلته العدوة ، وأنحى عليه بالذم عند الحديث عن الشعراء الذين أنشدوا قصائدهم في الاعذار الذنوني (ص : ١٣٧ ، ١٣٩) وقد دافع عنه الحجاري في المسهب ؛ وذمه ابن اللبانة في كتابه « سقيط الدرر » لأنه لم يكن وفياً للمعتمد بعد خلعه (انظر ترجمته في المغرب ١ : ١٢٨ وفيها اعتماد كثير على الذخيرة ؛ وراجع أيضاً الخريدة ٢ : ١٩٣ والمسالك ١١ : ٤٦٦ وأجرى ذكره في القلائد : ٦ والمطمح : ١٥ وله أشعار في النفح) .

العلوم [1] تلونَ الزمان ، وتلاعبَ بالملوك بأفقنا تلاعُبَ الرياحِ بالأغصان ، حتى ظفرَ به المأمون بن ذي النون ، فشدَّ عليه يدَ الضنين . فوجد كنفاً سهلاً ، وسلطاناً غفلاً ، فسرَّ وساء ، وارتسم في أيّ الدواوين شاء ، وكان بالطبِّ أكلفَ ، وعليه أوقفَ ، فتعلّقَ بسببه ، حتى اشتُهرَ به ، ولم يكن من النفوذ فيه حسبما استذاع عنه الخبر ، خلا أنه كان – زعموا – بصيراً بطبِّ النظر ، وكان مع ما يحمله من هذا الفنّ حسنَ البيان مليحَ المجلسِ ، حاضرَ الجوابِ كثير النادر ، راوية [2] للشعرِ والمثل السائر ، نسّابةً للمفاخر ، عارفاً بالمثالب والمناقب . وقفتُ له على شعرٍ مجموع ، عاطلٍ أكثرُهُ من حلي البديع . وكان بالجملةِ روضة أدب ممتعاً للمجلس ، وهيهات أن يأتيَ الدهرُ بمثله . وقد وصفه ابن حيان ، في فصل قد أثبته في أول هذا القسم من الديوان [3] .

فلما انصرفت الدولة الذنونية ، تحيّز أبو محمد إلى اشبيلية ، فأنس المعتمد بمكانه ، وجعل له حظاً من سلطانه ، ولم يزل في من يتردد عليه ويغشاه ، حتى أشجاه من الخلع – حسبما وصفناه – ما أشجاه . وبقي أبو محمد على حاله ، مشتملاً بفضل جدّه وإقباله ، غير مستريبٍ بدهره ، ولا منكر لشيء من أمره ، ممتعاً بآلاته ، مقبلاً على لذاته [4] ، إلى أن توفي سنة ست وتسعين منتصف رجب الفرد .

وعلى ذكره ، فقد أجريتُ طرفاً من نظمه ونثره ، منبهاً على مكانه ، ومُشْهِداً على ما وصفتُ من شانه .

---

١ المغرب : العالم .

٢ ص : رواية .

٣ انظر ما تقدم : ١٣٧ ، ١٣٩ .

٤ ص : لداته .

فصل له من رقعة خاطب بها المعتمد بن عباد ، وقد خرج عنه إلى مالقة ، قبل القبض عليه ، واستفتحها بهذين البيتين [1] :

رحلتُ وفي القلبِ جمرُ الغَضا ... وهجري لكم دون شكّ صوابُ
كما تهجرُ النفسُ حرَّ الطعامِ ... إذا [ما] تساقطَ فيه الذباب

وهذا المعنى مشهور ، قد اندرج منه في تضاعيف هذا التصنيف كثير ، مثل قول بعضهم :

وتَجتَنِبُ الليوثُ ورودَ حوضٍ ... إذا كان الكلابُ يَلَغْنَ فيهِ
كما سقطَ الذبابُ على طعامٍ ... فتتركه ونفسك تشتهيه [2]

كتبتُ وقلبي متقلّب على جمر الغضا ، أحرّ من الرمضا ، وصلتُ فقُطِعتُ ، وسامحتُ فقوبحت ، وارتفع عليّ الباطل فما سومحت ، حميت بقرطبة أهلك وبنيك ، وحفدتك وذويك . أصبتهم في منزل عالي الحيطان ، وثيق الأركان ، في شهر كانون ، دون كنّ ولا كانون ، ولا ما يدفع عنهم ريب المنون ، أكفّ الرزايا تصافحهم . [illegible] ب المنايا تضاجعهم ، لا يمنعهم من القرّ شعار ، ولا يحميهم منه [illegible] فأنفذت الفرش وآلاتها ، وما يتعلق بجهاتها ، وافتقدت بالطّرف [illegible] بالتحف ، وصنتهم صَوْن الدرّ [illegible] والسّوادِ في الأحداق [illegible] الأطواقِ في الأعناق ، ومن عندك

---

[1] انظر المغرب ١ : ١٣١ والشريشي [illegible]

[2] مقتبس من قول الأول :

إذا وقع الذباب على طعا[م] [illegible] يدي ونفسي تشتهيه

يعلم هذا ولا ينكره ، ويشكره ولا يكفره ، وما كانت لك عليّ نعمة فأرعاها ، ولا سطوة فأخشاها ، وإنما فعلت ذلك بالجوهرية التي ركبها الله في نفسي ، والطبع الذي جبل عليه حسّي :

ولكنَّ أشخاصَ المعالي خفيّةٌ على كلّ عينٍ ليس تُبْصرُ باللبّ

فهل سبق لأحدٍ مثلُ هذا الوفاء ، أو كان له شكلُ هذا الولاء ، فان قيل إن السموأل أتى بمثله وشكله ، فليس الخبر كما ظن ، ولا الأمر كما احتسب .

ومن شعره في أوصاف شتى

قال :

ريمٌ إذا رمتُ أن أحظى بموعدِهِ أقام لي بلسانِ الخُلْفِ أعذارا
وإن تلطّفْتُ لاستنزالِ سَوْرَتِهِ أصار قلبي لخيلِ الهجرِ مضمارا
إذا تذكّرْتُ أياماً لنا سَلَفَتْ خطّتْ يدُ الشوقِ في الأحشاءأسطارا
قال الوشاةُ ودمعُ العينِ منحدرٌ ودمعُهُ فوق روضِ الوردِ قد حارا
يا مُجريَ الدمعِ من عينيهفي ذهبٍ أما ترى الدرَّ بالمرجانِ قد جارا
النارُ يحرقها قلبي بزفرتِهِ من العجيبِ فؤادٌ يحرقُ النارا

وقال :

يا ناظراً قد سلّ من ناظري إلى سوادِ القلبِ والخاطرِ
طيفك لما نامَ عن زورتي زادك [زادَ] الكلفِ الساهر

ظلّك أضحى لي بلا مرية مؤثّراً في خدّك الناضر
ما أرفق الله بأهل الهوى إذ صيّر الجور على الجائر

وقد تقدم مثل هذا المعنى لعبد الجليل حيث يقول [1] :

دعوتُ دعاءَ مظلومٍ عليه فعلّق من عِذاريْه الذنوبا

وقال [2] :

الحبُّ داءٌ دواؤه القُبَلُ والرُّسْلُ بين الأحبّةِ المقلُ
يا حَفِظَ الله ليلةً سلفت حَيّيْتُ ببدرٍ سماؤه الكلل
بتنا وراحُ العفافِ [3] تُلْحفنا بُرْدَ وفاءٍ والشملُ مشتمل
اثنان من شدةِ التعانقِ قد صارا كفردٍ بالرُّوحِ يتّصل
لو أن جَوْدَ السماء أمْطَرنا لم يُصِبِ الأرضَ تحتنا بلل
حتى إذا غُرّةُ الصباحِ بَدَتْ وجفنُهُ بالعبيرِ مكتحل
فارقني وهو خائفٌ وَجِلٌ نشوانُ من خمرةِ الصّبا ثمل
عيناي منه قريرةٌ أبداً والنارُ بين الضلوعِ تشتعل

وقال :

قالوا الصديقُ شقيقُ النفسِ قلتُ لهم إنّ الصديقَ مع العنقاءِ قد طارا

---

١ انظر القسم الأول : ١٤٥ باختلاف في الرواية .
٢ المغرب ١ : ١٢٩ – ١٣٠ .
٣ ص : ونار الحجاب ؛ وأثبت ما في المغرب .

اسمٌ لعمري بلا جسمٍ ولا نَفَسٍ إلاّ كلاماً بزورِ القولِ قد سارا
فما ترى غيرَ من يسقيك من يده أرْياً وفي قلبه قد أضمر النارا
فنادمِ الكُتْبَ ما عُمِّرتَ إنّ لها عندي وعَيْشِكَ أسراراً وأخبارا

ومن قصيد له في ابن حماد بلقين أوله :

الرأيُ يسبقُ وَقْعَ الصارمِ الذكَرِ والعزمُ يفصلُ بين الخُبْرِ والخبَرِ
والناسُ قد جمعوا في أصْلِ خلقتهم لكنّهم فرّقوا في اللبّ[1] والنظر
كالنّورِ أوّلُهُ نارٌ وبينهما من التفاضُلِ ما يَخْفى على البشر
كما تهدّى ابنُ حمّادٍ وقد طَلَعتْ طلائعُ السّعدِ تحدوها يدُ القدر
والناس قد رجّموا الأقوالَ من حَذَرٍ وقال بعضهمُ هذا من الغرر
حتى إذا أظلمَ الخطبُ المهمُّ لهم جلّوْتَه بصباحِ البيضِ والسمر
ليس الجسومُ لها صبرٌ ولا جَلَدٌ وإنما الصبرُ بالأرواحِ والفكر
لا تَلْقَ دهرَكَ إلا راكباً خطراً فإنّما تُبْلَغُ العلياءُ بالخطر

بيته الثاني ، من متداولات المعاني ؛ ومنها قول الأول[2] :

الناسُ أخيافٌ وشتى في الشّيَمْ وكلّهُمْ يجمعهم بيتُ الأدَمْ

وأخذه التهامي فقال[3] :

---

١ ص : البلاد .
٢ المعاني الكبير : ١٢٥٣ واللسان (أدم) وفصل المقال : ١٩٧ والصداقة والصديق : ٢٨
٣ ديوان التهامي : ٥٧ .

الناسُ متّفقون في إيرادهم   وتفاضُلُ الأقوامِ في الإصدارِ

وقوله : « ليس الجسوم لها صبر » . . . البيت ، هو شبيه بقول الآخر :

فالعبدُ أصبرُ جسماً   والحرُّ أصبرُ قلبا

وقال من أخرى [يمدحه] ويذمُّ بني رياح :

أبا المنصورِ ما للدهرِ عَيْنٌ   سواكَ فوارِها فهو الصلاحُ
ولا تَتَعرَّضَنَّ[1] إلى رياحٍ   فأعدى ما على العينِ الرياح
إذا حَلَفَتْ رياحٌ فاتّهمها   ورأسُ الحنثِ ما حَلَفَتْ رياح
قبيّلةٌ لها في اللؤمِ بأسٌ   وعند المكرماتِ لها جِماحُ
سبالُ اللؤمِ لا كانت سبالٌ   وجوهُ الذلّ والخدُّ الوَقاحُ
أناسٌ في مفارقهم قرونٌ   ولكن بالفِقاح هو النطاح
ولا تتزوجنَّ لهم ببنتٍ   فللسودانِ عندهمُ مراح
بأرجلهنَّ يستغفرنَ دأباً   فأرجلهنَّ في الدعواتِ راح

وذكرتُ[2] بمعنى هذا البيتِ الأخير منها خبراً أورده بعضُ الرواةِ عن شاعرٍ أنشدَ زُبَيْدَةَ بنتَ جعفرٍ شعراً قال فيه : [١٢٢]

---

١ ص : تعرض .

٢ ابن خلكان ٢ : ٣١٥ والهفوات النادرة : ٣٧ وغرر الخصائص : ١٤٣ (ط /١٣١٨) والبيتان وحدهما في عيار الشعر : ٩٢ .

أزبيدةُ ابنةَ جعفر طوبى لزائركِ المثابِ
تعطينَ من رجليكِ ما تُعْطي الأكفُّ من الرّغاب

فجعل عبيدُها يقرعون رأسه فقالت : دعوه فإنّه أراد خيراً فأخطأ ، وهو أحبُّ إلينا ممن أراد شراً فأصاب ، سمع قولهم : شمالُكَ أندى من يمين فلان فظن [أن هذا مثل ذلك][1] .

وله من أخرى يستأذن في الجواز إلى الأندلس :

فيا أثلاتِ الجزْعِ من مَرْبَعِ الحمى فؤادي على تلك الرسومِ ينوحُ
فعلّ أبي[2] المنصورِ يُدْني بِسَعْدِهِ ركابيَ منها إنه لَنَزوحُ

ومنها :

فسرْ إنما العلياءُ شخصٌ مصوَّرٌ وأنت له دونَ البريةِ روح
أتيتَ بآيٍ[3] أعجزتْ كلَّ عالمٍ كأنّك من بعد المسيح مسيح
ولو جيتُ للانصافِ ما جيتُ مادحاً لأنّكَ من نجرِ السماحِ صريح
ومن أصبحتْ [فيه]المكارمُ جوهراً بلا عَرَضٍ فالمدحُ فيه قبيح
ولكن رأيتُ الشعرَ يثبتُ ذكرُهُ فلا غَرْوَ أن يُهدى إليكَ مديح

---

١ بياض في ص ، وأثبت ما عند ابن خلكان .
٢ المعروف : « أبا » ولكني أبقيته على حاله ، إذ لعل الشاعر هنا يحاكي قول كعب بن سعد الغنوي (وهو شاهد نحوي) « لعل أبي المغوار منك قريب » .
٣ ص : بآية .

وله من أخرى في باديس بن حبوس[1] :

رَسَخَتْ أصولُ علاكمُ تحت الثرى ... ولكمْ على خطّ المجرّةِ دارُ
تبدو شموسُ الدّجْنِ من أطواقكم ... وتفيضُ من ثِنْيِ[2] البنانِ بحار
إنّ المكارمَ صورةٌ معلومةٌ ... أنتم لها الأسماعُ والأبصار
ذلّتْ لكم قِمَمُ الخلائقِ مثلما ... ذَلّتْ لشعري فيكمُ الأشعار
فمتى مدحتُ ولا مدحتُ سواكمُ ... فمديحكم [في] مَدْحِهِ إضمار

وهذا من قول أبي نواس[3] :

وإنْ جَرَتِ الألفاظُ يوماً بمدحةٍ ... لغيرِكَ إنساناً فأنت الذي نعني

وأخذه المتنبي فقال[4] :

وظنّوني مدحتُهمُ قديماً ... وأنت بما مدحتهمُ مرادي

والمصريُّ أيضاً القائل ، من قصيدة كأخواتها طويلةٍ دون طائل ، أولها :

دعي لَوْمي فما أنا بالمليمِ ... ولا من هَجْرِ سلمى بالسّليمِ

يقول فيها :

---

[1] المغرب ١ : ١٣٠ .

[2] المغرب : بين .

[3] زهر الآداب : ٩٢٣ والصناعتين : ٢٠٨ والوساطة : ٣١٨ وديوان أبي نواس : ٦٦ .

[4] ديوان المتنبي : ٨٠ .

وإن شئتَ اختبارَ الناسِ جهراً ولم تكُ بالتجاربِ بالعليم
فجرِّبْ مَنْ تشا منهمْ عياناً وقد أصبحتَ في بُردَي عديم
فإن لم [تُلْفِ] ذلك مستحيلاً وترعى منه في مرعىً وخيم
فقلْ إني دعيٌّ في نزارٍ وإني ضدٌّ لقمانَ الحكيم
رأينا معشراً لبسوا ثياباً مجدَّدَةً على عِرْضٍ رميم
لهم دورٌ مشيّدةٌ [ ] وأفعالٌ مُحيلاتُ الرسوم

ومن المدح :

وما يحتاجُ يومَ الحربِ جيشاً فانَّ عِداهُ كالزَّرْعِ الحطيم
وإن أبقى لهمْ فرعونُ سحراً ففي يدِهِ عصا موسى الكليم

وقد تقدم إلى هذا المعنى أبو نواس بقوله ، ونذكر خبراً يتعلّق بذيله[1] : كان أبو نواس قويَّ البديه ، ويرتجلُ كلَّ ما يقولُ ولا يُرَوِّيه ، فقال له الخصيبُ يوماً وهو يمازحُهُ بالمسجدِ الجامع : أنت في الشعرِ غيرُ مدافَعٍ ولا منازع ، ولكنّك لا تخطبُ ، فقام من فورِهِ يقولُ مرتجلاً :

منحتكمُ يا أهلَ [مصرَ] نصيحتي ألا فخذوا من ناصحٍ بنصيبِ
رماكم أميرُ المؤمنينَ بحيّةٍ أكولٍ لحيّاتِ القلوبِ[2] شروب
فإن يكُ باقي سحرِ فرعونَ فيكمُ فانَّ عصا موسى بكفِّ خصيب

---

[1] انظر الخبر والشعر في بدائع البدائه : ٣٣٣ وديوان أبي نواس : ١٠٣ .
[2] بدائع : لحيات البلاد .

ثم التفتَ إليه وقال : والله لا يأتي بمثلها خطيبٌ مِصْقَع ، فاعتذرَ إليه وأقسمَ أنه ما قال ذلك إلاّ مازحاً .

وقول المصري : « معشراً لبسوا ثياباً » . . . البيت مع الذي بعده ، ألمَّ فيه بقولِ منصورِ الفقيه :

لبس الثياب وتشييد القصور وفي   تلك الثياب علتها أنفسٌ خَرِبَهْ
لأضْرِبنَّ رجائي ألفَ مقْرَعةٍ   فيكم وأصلبُ آمالي على خَشَبه

وقال المصريُّ في ابن مجاهد من قصيدة ، يرثي مهراً أخذ له ، وحكي أن الذئبَ أكله :

وقد أقمتُ لدهري وهو يظلمُني   حتى وصلتُ عليّاً سيدَ العربِ
وإن يكنْ ليس منهم في أرومتِهِ   فإنّه منهمُ في المجدِ والحسب
يا مَنْ إليهِ شكَوْناهُ فقال لنا   شكوَى القتيلِ [إلى] الخطيّةِ السلب

ومنها :

يا ويحَ قلبيَ من دهرٍ تعمّدَني   بالنائباتِ فلاذتْ بي يدُ النوب
حتى بمهرٍ هضيمِ الكشحِ ذي هيفٍ   كأنَّ أجزاءهُ جابٌ على نَسَب
حلوُ الصّهيلِ له في صَوتِهِ فِتَنٌ   كأنّه حين يَشدو بالثقيلِ ربي
لولا تشكّلُهُ في حينِ خلقتِهِ   بالخيلِ أضحى مع العِقبانِ في نصب
يا يوسفَ الخيلِ يا مَقتولَ إخوتِهِ   قلبي لفَقدِك بينَ الحربِ والحَرَبِ
إن كانَ يَعقوبُ لم يَقنَعْ بكذبِهمُ   إني لأقنعُ منهم بالدمِ الكذب [١٢٣]

ومنها[1] :

وما التناسب . . . . إن لم تكنْ أنفسُ القرْبَى ذوي نسب

وهذا من قول القائل :

. . . . إذا لم يرافقها انتسابُ قلوبِ

وقال من أخرى[2] :

. . . . نفحة الخد جائلُ
لئن كنتَ من درّ القلائدِ عاطِلاً فإنّ الظبّاءَ المشبهيك عواطلُ
. . . . وكلُّ رسولٍ قد بعثت مماطل
سقاني وخدُّ الفجرِ يلطمُهُ الضُّحى شَمولاً لها من وجنتيه شمائل
. . . . بهاراً فأجدى ما علينا الرسائل
عليك زكاة من جمال وغرة وأنتَ بمفروضِ الزكاةِ تماطل

ومنها :

فصاح وشاحٌ هز . . . . إليك ولكن لم تجبْهُ الخلاخل
رعى الله دهراً قد نعمنا بطيبِهِ لياليهِ من شمس الكؤوسِ أصائل
لدى روضة غناء غنت قيانهـا وجاوبت الألحان منها البلابل
ونرجسها [در] على التبر جامد وقهوتها تبر على الدر سائل

---

١ طمست أجزاء من الورقة هنا فلم أتمكن من قراءة ما وضعت نقطاً في موضعه .

٢ منها بيتان في النفح ٣ : ١١٨ .

وإن سأل الأقوام عن عرض منزلي فانيَ ما بينَ السماكين نازل
وأنّي قد قلدت سيف مآثر له من عليٍّ المكرمات حمائل

إلى أبيات غير هذه من قصيدة طويلة اهتدم فيها أبو محمد قصيدتي أبي الطيب والمعرّي[1] اللتين في وزنها ورويها ؛ وقوله : « عليك زكاة من جمال »... البيت ، من قول المعري أيضاً[2] :

لغيري زكاةٌ من جمالٍ فإن تكنْ زكاةَ جَمالٍ[3] فاذكري ابنَ سبيلِ

وعلى [ذكر] هذه الزكاة فما أملحَ مُلَحَ البستيّ في تلك الفقهيّاتِ حيث يقول :

أقولُ لشادنٍ في الحسنِ فردٍ يصيدُ بلحظِهِ لحظَ الكميّ
ملكتَ الحسنَ أجمعَ من نظامٍ فأدِّ زكاةَ منظرِكَ البَهيّ
وذلك أن تَجودَ لمُستهـامٍ برَشفٍ من مُقبّلِكَ الشهيّ
فقال أبو حنيفَةَ لي إمامٌ ويُفتي لا زكاةَ على الصبيّ

وقال الحصري الكفيف في مثله :

وظبيٍ غَريرٍ[4] هزَّ أعطافَهُ اللّينُ وسمّتهُ ريحانَ المحبّ الرياحينُ

---

[1] قصيدة أبي الطيب مطلعها : « دروع لملك الروم هذه الرسائل » (الديوان : ٣٦٤) وقصيدة المعري : « ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل » (شروح السقط : ٥١٩) .
[2] شروح السقط : ١٠٤١ .
[3] ص : جميل .
[4] ص : عزيز .

أقولُ له والحبُّ يُفتِي برخصةٍ عليك زكاةٌ [ما] ونحن مساكين
فقال ولم يعلمْ زكاةً أردتُها وكيفَ أؤدّيها ولم يحنِ الحين
فقلتُ زكاةُ الحسنِ أعني فقال لا أؤدّيك[1] فالعشاقُ [ليس] لهم دين

جملة من مقطوعات المصري في فنون مختلفة

في صفة قصر طليطلة[2] :

قصرٌ يُقَصِّرُ عن مَداهُ الفرقدُ عَذُبَتْ مصادِرُهُ وطابَ الموردُ
نشر الصباحُ عليهِ ثوبَ مكارمٍ فعليهِ ألويَةُ السّعادةِ تُعقَدُ
وكأنّما المأمونُ في أرجائِهِ بدر تَمام قابلتْهُ أسْعُدُ
وكأنّما الأقداحُ في راحاتِهِ درٌّ جمادٌ ذابَ فيهِ العسجَدُ

وله في صفة البركة والقبّة عليها[3] :

شمسيّةُ الأنسابِ بدريّةٌ يحارُ في تَشبيهِها الخاطرُ
كأنّما المأمونُ بدرُ الدُّجَى وهي عليهِ الفلكُ الدائرُ

وله في صفة عود :

---

١ ص : أعطيك .
٢ نفح الطيب : ١ ٥٢٩ .
٣ نفح الطيب ١ : ٥٢٩ .

يا حبّذا العُودُ فكم من فتىً باحَ له البمُّ بأسراريَه

غنّت عليه الطّيرُ رطباً وقد غنّتْ به لما قسا جاريه

فهو على أخلاقها قد جرَى وهي على أخلاقه جاريه

وبيته الثالث كقول ابن قاضي ميلة[1] :

جاءَتْ بعُودٍ يُناغيها ويُسعِدُها فانظرْ بدائعَ ما خُصَّتْ به[2] الشجرُ

غنّتْ على عودِهِ الأطيارُ مُفصِحةً[3] غضّاً فلمّا ذوَى غنّى به البشر

فلا يزالُ عليهِ أوْ بهِ طَرَبٌ[4] يَهيجُهُ الأعجمانِ[5]: الطير والوتر

وقال المصري من جملة أبياتٍ خاطبَ بها صاحب المدينة يشفعُ للفقيه البرّ الطليطليّ :

يا ماجداً أصبحَ من رفعةٍ منزلُهُ تحتَ نجومِ الفَلَكْ

هذا الفقيه البرُّ ما ذَنبُهُ لقد غدا قُبّرةً في الشَّرك

أيؤخذ المسكينُ معْ فتيةٍ قد عقدوا الأمرَ لحلّ التّككْ

وقارعوا بالبَيْضِ بيضَ الحصى وطاعنوا الأشراجَ [في] المعترك

---

١ ابن خلكان ٥ : ٣٤٨ . والمسالك : ٣٠٤ والشريشي ٣ : ٢٠٥ .

٢ ابن خلكان : ما يأتي به .

٣ ابن خلكان : ساجعة .

٤ ابن خلكان : عليه الدهر مصطخب .

٥ ص : الأعجام .

وهذا مثل ما أنشدنيه لنفسه أبو بكر الخولاني المنجم ، مما خاطب به بعضَ الحكّام يشفع للقلمندر [1] ، وقد أخذ في مثلِ ذلك سكرانا :

إن درءَ الحدودِ بالشبهاتِ لحديثٌ رواه [كلُّ] الثقاتِ
ما أراه إلا تناولَ تفّا حاً فَنَمّتْ عليه في الطرقات [١٢٤]
نفحاتُ التفاحِ والراحِ والأتـ ـرُجِّ للمرء جيدُ مشتبهات
فبتلك الشمائلِ المخجلاتِ الـ ـروضَ غبَّ الغمائمِ الهاطلات
وبحلمٍ إليه مذ كنتَ تُعْزى وبصبرٍ تعزى له [2] وأناة
اعفُ عنه وأعْفِـهِ من ثمانيـ ـنَ تدمّي أعطافه المائسات
وأقِلْ ذنبَهُ وَعَثْرَتَهُ فهـ ـو بمرآهُ من ذوي الهيئات

وقال :

وشادنٍ طالَبْتُهُ قبلةً فأظهرَ الإعراضَ والصّدا
وأرسل الدرَّ على عسجدٍ من سَبَجٍ فانتظما عقدا
فقلت إذ أبصرته باكياً نرجسةُ العينِ سَقَتْ وردا

وهذا كقول [الآخر] :

---

١ هو أبو الأصبغ عبد العزيز البطليوسي ، وكان طبيباً مستهتراً بالخمر وكان يقول : أنا أولى الناس بألا يترك الخمر لأني طبيب أحبها عن علم بمقدار منفعتها (انظر المغرب ١ : ٣٦٩ والنفح ٣ : ٤٥٢ وكتب لقبه فيه « القلندر » ، وورد عند العماد في الخريدة ٢ : ٢٥٨ من لقبه « القمندر » ولكنه كناه أبا بكر) .

٢ ص : إليه .

كأنَّ تلك الدموعَ قطرُ ندىً   تسقطُ من نرجسٍ على وردِ

وقال في صباه في طريق بلاد المشرق وقافلاً من الحجاز [1] :

ألا يا هندُ قد قضَّيْتُ حجتي   فهاتِ [2] شرابَكِ العَطِرَ العجيبا
فقد ذهبتْ ذنوبي في الليالي [3]   فقومي الآنَ نقترفِ الذنوبا
خلطنا ماءَ زمزمَ في حشانا   بماءِ الكرم [4] فامتزجا قريبا
وطاف بها غزالٌ كسرويّ   طبيبُ النفسِ يدعوه طبيبا
أطاعَتْهُ الجسومُ فساعدته   كذاك يكونُ مَنْ مَلَكَ القلوبا
بدا غُصناً وأطلع بدرَ تِمّ   وأضمرَ في مآزرِهِ الكثيبا
نراهُ في تواصُلِهِ بعيداً   ونلقى وَعْدَهُ أبداً قريبا

وقال [5] :

أيّ هلالٍ أطلَّ فينا   مَطْلَعُهُ الطوقُ والجيوبُ
كحيلُ طرفٍ ثقيلُ ردفٍ   مبسمهُ اللؤلؤ الرطيبُ
يقودنا كيف شاءَ طوعاً   لأنَّ أعوانَهُ القلوب

---

١ المغرب ١ : ١٣٠ ومنها ثلاثة أبيات في الشريشي ٥ : ٣٠٥ .
٢ صوابه : فهاتي .
٣ المغرب : في طواني .
٤ الشريشي : المزن .
٥ المغرب ١ : ١٣٠ .

وله في بعض إخوانه وقد عذّر غلام كان يهواه :

يا ذا الذي عذّر خلّ لـــه   أتحتَ عيشِ العزّ معنى الهوانْ
لم ينبتِ الشعرُ على خدّهِ   بل دبَّ في أعضائه عقْربان
رفقاً على نفسِكَ لا تُفْنها   فجوهرُ الأنْفُسِ شيءٌ يصان
وسقّهِ من مُزَّةٍ عُتّقَتْ   لتقتضي الحبَّ بلا ترجمان

وله في غلام وسيم رمدت عيناه :

قال خلّي وجفوني   لا تغطّي مقلتيها
سُقْمُ عينيَّ أراه[1]   بعثَ السقم إليها
أم ترى توريد خدّي   نفضَ الوردَ عليها
قلتُ لا أدري ولكنْ   أنا مِنْ قتلى يديها

وقال :

رَمِدَتْ عيني فجاءوا   دون رأيي بطبيبِ
وطبيبُ العينِ أعمى   في مداواةِ القلوب
رمدي من فَقْدِ خِلّي   فاكحلوني بالحبيب

وما أحسن ما قال بعض أهل عصري . وقد تقدم إنشاده :

إذا رمدتْ بحمرته عيونٌ   شفاها منه إثمدُ عارضَيْهِ

---

١ ص : أراني .

في ذكر أبي محمد ابن الطلاء المهدوي[1]

أحدُ أضيافِ المعتمد ، وقد أجريتُ ذكره في ما مرَّ من هذا المجموع [2] ، ووصفت أن شعره عاطلٌ من حلي البديع ، وأفرط في باب الاستعارة وأبعد ، وخرجَ فيها إلى حيِّزِ الإضحاكِ بما برد ، كقوله متغزلاً :

* بقُرْاطُ حُسْنِكَ لا يرثي على علِلي *

وكقوله في الوزير الأجل أبي بكر بن زيدون :

شبيليّةٌ وابنُ زيدونها أتى في قِراهُ على شينها

وسمعته ينشد المتوكل شعراً قال فيه :

* أفاقتْ بكَ الأقطارُ من بَرَصِ البلوى *

ومن أشبه شعره في المعتمد قوله من قصيدة أولها :

فتحت سعودُكَ كلَّ بابِ مغلقِ فتهنَّ ذلك وابق يَصْلُحْ ما بقي

يقول فيها ومدح ابن عمار حين دخوله بمرسية وخروج بني طاهر منها حسبما وصفتها :

1 ذكره ابن سعيد في رايات المبرزين : ١١٠ (غ) باسم « عبد الله » وأورد له بيتين في حرشوفة نقلا عن كتاب « زمان الربيع » للخشني ، وانظر المسالك ١١ : ٤٥٧ .
2 انظر القسم الأول : ٨٤٢ .

إنّ ابنَ عمّارٍ حكى عمرو القنا | للمستجير وحاتماً للمملق
لما وصلتَ المغربَ الأقصى به | هجر الكرى فاقتاد مُلْكَ المشرق
بمصرّف الجيش اللهامِ بحكمة | سمكتْهُ بالإسكندرِ المستَلْحَق
يسري بنيّةِ خالصٍ ، من خلفها | صدرٌ كمثل السورِ خلف الخندق
ويصيد عنقاء الأمانيّ التي | أعيتْ سواه خلافَ صيدِ الخِرنِقِ
فبجوده وببأسِهِ وبجيشِهِ | هو فيلقٌ في فيلقٍ في فيلق

ومنها :

يا أيها الملكُ السعادةُ أطْبَقَتْ | جفناً عليك فبتْ بجفنٍ مُطْبَقِ
هبط المطوقُ جبرئيلُ منظّماً | لك درَّ كلّ كرامةٍ فتطوَّقِ
ما غيرك الملكُ المطوّق وحده | أبداً بروحِ القدس فافتقْ وارتقِ
ما دولة إلا ونادتْ بعلها | وافاك مقتضُّ البلادِ مطلّقِ [١٢٥]
فليعترفْ بالجودِ كلُّ مشعوذٍ [١] | ويقرَّ بالانصاف كل ممخرق
الأرضُ كالشطرنجِ فادعُ ملوكها | ما الرخُّ في حركاتِهِ كالبيدقَ
يا يوسفيّ الحُسْنِ والصدقِ استمعْ | أحلى محاورة [٢] وإن لم تُنْطَق
نادتْكَ هيتَ لكَ البلادُ بأسرِها | فتَبَخْ ، أسيرُكَ مَنْ ينادي غلّق
ولو استطاعتْ مصرُ إذ لم تَدْنُها | جعلتْ تقولُ عشقتُ من لم يعشق

---

١ ص : مشعوث .
٢ ص : مراوحة .

وجميلُ صُنْعِكَ في البلادِ وأهلها مِغْنيطسٌ فَيَجذبِ قوّتِه ثِقِ
لكفاكَ أندلسٌ فنفسْ كلّ من تُرضيكَ طاعتُهُ وإلا خَنّقِ
من حمص تفتح حمصَ غيرَ مُدافع عنها وتفتحُ جِلّقاً من جلّق

وأخبرني أبو بكر الخولاني المنجم قال : كتب إليّ أبو محمد المهدوي بهذه الأبيات يستهدي مشروباً [1] :

قل للوزير فتى خولانَ خوّلني علمي بفضلك مَيْزاً فهو ميزاني
رصدتُ في فلكِ الأشواقِ بدرَ هوًى له رقيبٌ ثقيلٌ مثلُ كيوان
فابعث إليّ براحٍ مثلِ ريقته فمثلها كان يُسْقى عند رضوان

ويا بعد ما بين هذا وبين [قول] بعض أهل عصرنا ، وهو أبو حاتم الحجاري يستهدي أيضاً مشروباً من الحكيم أبي الأصبغ البلنسي [2] بقرطبة :

يا من سقاني الكؤوسَ سائغةً وكأسُ أخلاقِه غدا أسوغْ
ساعَدَني للمبيتِ ذو هَيَفٍ وذو لسانٍ مستعذبٍ ألثغ
أبلغتُ في وصفه [على]سَنني لكنْ رأيتُ السكوتَ بي أبلغ
وقلتُ والسرُّ لا أبوحُ به من حقّ هذا الحديثِ أن يمضغ
ما [إن] ترى ساعةَ الخلوّ به وقد بداني الشيطانُ أن ينزغ

---

١ منها بيتان في المسالك ١١ : ٤٥٧ – ٤٥٨ .
٢ لعله : البطليوسي ، أي القلمندر الذي مر التعريف به آنفاً ص : ٣٥٧ .

والليلُ قد أسْبغَتْ ذوائبُهُ   على هلالٍ فروعُهُ أسبغ

قهقهتُ أثناء ذاك من ضحكٍ   قهقهةَ الجامِ يا أبا الأصبغ

فَرِشْ جناحي[1] وما قرأتَ فقل   قوالبُ السّحر هكذا تفرغ

وقال أبوَ حاتم في مثله :

يا سيدي والنهارُ تبصُرُهُ   منسجمَ الدَّمعِ مُطْلَقَ الأفُقِ

وعنديَ البدرُ قد خلوتُ به   وفوق خديه حمرةُ الشفق

جاذبته الحبلَ فاستقاد وكم   يستنُّ جَرْيَ الجموحِ في الطلق

والخمرُ نعم العتاد سائغةٌ   لشاربيها مسكيّة العبق

وقد هززناكَ كي تُوَجّهها   في الشعرِ هزَّ القضيبِ في الورق

وقال الأديب أبو محمد بن صارة الشنتريني[2] :

أعندكَ[3] أنَّ البدرَ باتَ ضجيعي   فقضَّيْتُ أوطاري بغيرِ شفيعِ

جعلتُ ابنةَ العنقودِ بيني وبينه   فكانت لنا أمّاً وكان رضيعي

---

١ ص : جوانحي .

٢ النفح ٣ : ٤٥٨ والقسم الثاني من الذخيرة : ٨٣٧ .

٣ ص : أعيذك .

فصل في ذكر الأديب الفقيه أبي بكر
ابن الحسن المرادي القروي
وإثبات قطعة من أشعاره ، وطريف أخباره

وكان أبو بكر هذا فقيهاً فطناً ، وشاعراً لسناً ، ممن جمع براعة الفقهاء ، وبراعة الشعراء النبهاء ، وتصرَّفَ تصرُّفَ المطبوعين ، وتكلّم بألسنةِ المجيدين ؛ أشعارٌ كصفحاتِ البدور ، ودواوينُ كأثباجِ البحور ؛ وتقلّب أبو بكر بين السهول والحزون ، تقلّب الميلِ بين أطباقِ الجفون ، وقلّت دولةٌ من دول ملوكِ الطوائف بالأندلس إلا وقد ابتغى إليها وسيلة ، وأعمل في الهجوم عليها حالاً وحيلة ، فتنزوي عن مكانه انزواء الخائفِ من الرّصدِ ، وتَغَصُّ باحسانه غصصَ العين بالرمَد، ثم كرَّ إلى أمراءِ المرابطين بالمغرب فانخرطَ في أسلاكهم ، وعرض بنفسه على أملاكهم [1] ، ووقع آخراً منهم إلى محمد بن يحيى بن عمر ، فاقتعد صهوةَ منبره ، وولي قضاءَ معسكره ، وأخذَ ينجدُ ويَغور ، وطفقَ يدبّر ويدير ، وإنما أراد أن يسلك في حَمل دول المرابطين ، مسلكَ عبدِ الله بن ياسين ، ولم يدرِ أنها أقدارٌ محتومة ، وحظوظٌ مقسومة ، فلم يحصل إلاّ على بُعد السّفر ، وانقطاعِ العين والأثر ، وتوفي رحمه الله بدكول من بلاد الصحراء ، حيث لا يروق وجهُ النهار ، ولا يُحمَدُ صوبُ القطار .

---

[1] ص : مماليكهم .

وقد أخرجتُ مما وجدتُ من شعره ونثره ، ما يستخفُّ رواسي الجبال ، ويستوفي ضروب [السحر] الحلال .

فصل له من رقعة كتبها عن بعض الأمراء جواباً عن كتابٍ وردَ من بعضِ العمال الجهّال يهول فيه : وقفنا على كتابك الذي طال فَقَصُرَ ، وكبُرَ جرمُه فَصَغُر ، صدَّرته بنون التعظيم . وسطّرته بمجدك الحديث والقديم ، وخاطبتَنا فيه بالألفاظِ الحجّابية ، التي تخاطب[1] بها غوغاءُ الرعيّة ، ارجعْ – أصلحك الله – عن هذا الأدب . وتأدّب في خطابك لذوي الرُّتب ، فقد أطعنا فيك[١٢٦] سلطانَ الحكم . لانتسابك إلى اسم العلم .

واجتاز على مدينة مرسية في مدة رياسة الكاتب الماهر ، أبي عبد الرحمن ابن طاهر ، فأنزله هنالك بدارٍ اتفقَ أن يدخلَ فيها قبل أن تُفرش له ، وابنُ طاهرٍ قصد ذلك ، ليرى ما يأتي من بديهته هنالك . فكتب إلى ابن طاهر رقعةً قال فيها : بيد أنني نزلتُ هذا المنزل الجديد بالرحلِ القديم ، نزول السَّفر . بالبَلَدِ القَفْر ، فهو معمورٌ ، إلاّ أنه بور . وما هو إلاّ أنه مُحيلٌ[2] قليلُ السكونِ والغموض ، كثير البراغيث والبعوض . لفقد الستور ، ويرضي البراغيث فقدُ السرير : الطولُ والعرض ، والسماءُ والأرض . فقد كثُر رهطه ، وقلّت نمارقُه وبسطُه ؛ قراعتي[3] في أكنافه : ﴿ منها خلقناكُم وفيها نُعيدُكمْ ومنها نُخرِجُكُمْ تارةً أخرى ﴾ (طه : ٥٥) .

---

١ ص: خاطب .
٢ ص: مخيل .
٣ ص : فراني .

وبلغه عن بعض الشعراءِ بمرسية انّه هجاه . فبعث إليه رجلاً كان يتصرّفُ له يعرف بابن المقدّم فصفعه . فاستعدى عليه ابنَ طاهر . فكتب إليه المراديُّ بأبياتٍ منها قوله :

تعرّضني كلبٌ بهجوِ مخذّلٍ[1] كقيءِ السّكارى أو هُراءِ المبرسَمِ
فأنفذتُ من وقتي إليه سحائباً من الصّفعِ يحدو وَفدَها ابنُ المقدم
فحامتْ عليه كالجرادِ تساقطت من الجوّ في أنوارِ روضٍ معمم
وغنّى دويُّ النعلِ في صَحنِ رأسه « ألا عم صباحاً أيها الربعُ واسلم »

وكان بالمرية مؤدّبٌ يسمى وليد بن عبد الوارث وينبز بالبقري كان يقول بقدمِ الحروف . فألّفَ المراديُّ في ذلك رسالةً رادّاً عليه وقصيدة قال فيها :

لا درَّ درُّ سخافةٍ شنعاءَ جاء بها الوليدُ
كفرٌ تكادُ له الجبا ل على ثقالتها تميدُ[2]
قلْ للرئيسِ الأحوذ يَ ورأيهُ أبداً سديد
حمقَ المؤدّب فادّعى من بينهم ما لا يجيد
مكّنتموه من الكلا م وجهلُه أبداً يزيد
وتركتموه مسرّحاً أين السلاسلُ والقيودُ ؟
أغَلا الحديدُ بأرضكمْ أم ليسَ يمكنُه الحديد

---

١ ص : محول .

٢ ص : مقالتها (دون إعجام التاء) تبيد .

وكانت بينه وبين الشيخ أبي محمد عبد العزيز التونسي مناقضة في مسائل من العلم ، فسافر المرادي عن أغمات ، وكتب عند رحلته إليه بهذه الأبيات :

قلْ لعبد العزيزِ يكثرُ من بَعدِ ... يَ ما شاءَ منه قيلاً وقالا
وتشجعْ ما غبتُ عنكَ فإنّا ... قد ضربنا لكَ الأمثالا
« وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ ... طلبَ الطعنَ وحده والنزالا »

وسايرَ المراديَّ يحيى بن بانو [1] بسجلماسة . فاتفقَ أن سقطَ كاتبٌ له كان يكنى بأبي الأصبغ عن دابّته ، وقام بأثرِ جرحٍ في وجهه ، ثم اتفقَ أن سقطَ إثرَ ذلك أيضاً المراديّ وقامَ دونَ أثرٍ عليه ، فقال أبو الاصبغ : وهذا الفقيه أيضاً قد سقط ؛ فقال المرادي من جملة أبيات :

فشتّانَ بين وقوعي أنا ... وبين وقوعِ أبي الأصبغِ
فذاك سقوطٌ يشجّ الوجوه ... وهذا سقوطٌ كما ينبغي

[1] يجيء أحياناً « فانو » (انظر البيان المغرب ٤ : ١٠٣) .

الأديب أبو الحسن البغدادي المعروف بالفكيك[1]

من جملة هذه الطائفة الطارئة المذكورة[2] ، على الجزيرة ، ومع بديهة كانت له قوية ، توفي على الرويّة ، استهدم[3] عدة قصائد ، لغير واحد ، من أهل الشام والعراق ، وغيرها من تلك الآفاق ، وكان مع ذلك حلْوَ الحوارِ ، مليحَ التنديرِ ، يُلهي ويضحك من حضر ، ولا يضحكُ هو إذا ندَّر . وفيه يقول النحلي[4] :

لو بيعَ يوماً فكيكٌ وبينَ فكّيهِ دُرّهْ
ضربتُ من يشتريه بخريةٍ ألفَ مرّهْ

وكان الفكيك قصيراً دميماً ، ورأيته يوماً قد لبس طاقاً أحمر على بياض ، وفي رأسه طرطوراً أخضر ، وقد عمّمَ عليه عمّةً لازوردية ، وهو ينشد بين يدي المعتمد شعراً قال فيه :

وأنتَ سليمانُ في مُلكهِ وبين يديكَ أنا الهدهدُ

فأضحك من حضر :

---

١ انظر نفح الطيب ٣ : ١١٩ (وفيه نقل عن الذخيرة) ونقل المقري حكاية المضحك البغدادي في مجلس المنصور بن أبي عامر وسماه « الفكيك » ، وهو خطأ لأن الفكيك لا يمكن أن يكون قد أدرك عهد المنصور (انظر ما تقدم في هذا القسم ص : ٢٨)

٢ ص : المذكورين .

٣ استهز في .

٤ ترجمته في القسم الثاني : ٨٠٩

وسمعته أيضاً ينشد في جماة قصيدة في المعتمد [1] :

أبا القاسم الملكُ المعظّمُ قَدرُهُ سواك من الأملاكِ ليس يعَظّمُ
لقد أصبَحَتْ حمصٌ بعدلك [2] جنةً وقد أبعدَت عن ساكنيها جهنّمُ
ولي بحماك الربع عامٌ وأشهرٌ أزَخرفُ أعلامَ الثناءِ وأرقم
وأنفقتُ ما أعطيتني ثقةً بما أؤمّلُ فالدينارُ عنديَ درهمُ
وقلبي إلى بغداد يصبو وإنني لنشرِ صباها دائماً أتنسمُ

وكنتُ يوماً بدارِ أبي بكر الخولاني المنجم باشبيلية مع لمة من الأدباء ، فأفضى بنا الحديثُ إلى ما للشعراءِ من مُلح التضمين [١٢٧] في المديح والهجاء، فأنشد بعضهم ما حضره من تضمينات الحمدوي [3] في الطيلسان وشاةِ سعيد ؛ وأنشد آخر قولَ القائل في الحسن بن وهب . وتضمّن بيتَ مهلهل [4] :

وسائلي عن الحسنِ بن وهبٍ وعمّا فيه من كرمٍ وخيرِ
فقلتُ هو المهذّب غير أني أراه كثير إرخاءِ الستور
وأكثرُ ما يغنّيه فتاهُ حسينٌ حين يخلو بالسرورِ
« فلولا الريحُ أسْمِعَ من بحجرٍ صليلَ البَيضِ تُقرَعُ بالذكور »

---

١ النفح ٣ : ١١٩ .
٢ بعدلك : لم يبق منها في ص إلا « لك » .
٣ ص: الحمدي ، والحمدوي (ويرد في المصادر « الحمدوني ») هو اسماعيل بن ابراهيم بن حمدويه وكان كثير النظم في طيلسان بن حرب وشاة سعيد (انظر طبقات ابن المعتز : ٣٧١ والأغاني ١٢ : ٦١ والوافي ٩ : والفوات ١ : ١٧٣ وابن خلكان ٧ : ٩٥) .
٤ زهر الآداب : ٢٣٤ والغيث ٢ : ١٢٣ .

وأنشد بعضهم قول الآخر ، وضمّن بيت النابغة فقال [1] :

يا سائلي عن خالدٍ عهدي به رطبُ العِجانِ وكفّهُ كالجلمدِ
« كالأقحوانِ غداةِ غِبِّ سمائِه جفّت أعاليه وأسفلُه ندِ »

فدخل الفكيك ونحن من هذا الحديث المستطرف على طرف ، فقال : أحسنُ من جميع ما أنشدتم أبياتٌ زعم أنه قالها في البديع يهجوه وهي :

رأيتُ البديعَ على أربعٍ وقد عاينته عيون البشرْ
يقولُ وقد شَرَعَتْ خلفه كماةُ الفحولِ رماحَ الكَمرْ
« فلا وأبيكِ ابنة العامريّ لا يدّعي القومُ أني أفر »

فكأنّ الجماعة لم تجبه لكثرة حمقه ، وفجاجة خلقه ، ثم حركت الفكيك أريحية العُجب لسكوتِ أهلِ المجلس عنه هنالك ، فكأنّه غاظني ذلك ، وقلت : لم تأتِ أنت بشيء ، ومن حَضر لم يصمتْ عنك ، وإنما أردتَ أن تحذو حَذوَ كاتب بكر حيث يقول وضمّن بعضَ أبياتِ لامرىء القيس ، فقصّرتَ عنه وهو قوله [2] :

حديثُ أبي الفضل شيءٌ نُكُرْ إذا ما تذكّرتُه أقشَعِرْ
مررتُ به وعليه الغلامُ ومن خلفه ذنبٌ مستطر

---

[1] الغيث : (نفسه) والإيجاز والإعجاز : ٨٧ وقد نسب فيه لأبي الحسن اللحام الحراني ، كما نسب في رفع الحجب ١ : ٩٧ لابن الرومي ، وانظر الذخيرة ١ : ٣٠٨ .

[2] ما جاء مضمناً في الأبيات فهو من قصيدة لامرىء القيس في ديوانه : ١٥٣ وما بعدها .

« فلا وأبيك ابنةَ العامري » ما هاب مني ولم يزدجر
فقال وقد قامَ عنه الغلام وماذا عليكَ بأن تنتظر
فقال أرى رجلاً واقفاً فقال هُبلْتَ ألا تنتصر
« فلو أنَّ قيساً وأشياعَها وكندة حولي جميعاً صبر »
لما رمتَ أو تنقضي حاجتي « ولا يدَّعي القومُ أني أفر »
فوليتُ عنه على خجلةٍ « فثوباً نسيتُ وثوباً أجر »
وراكبه فوقه مثلما « أكبَّ على ساعديه النمر »

فلما انتهيتُ إلى آخر هذا الوصف ، سكت ولم ينطق بحرف .

ومن شعر الفكيك – على زعمه – قوله من قصيد أوَّله [1] :

معاهدهم حلّت رُباكِ عُهودُ وحلّت عقودَ المزنِ فيك رعودُ
وأبكتْ عيونَ السحبِ فيك روائحٌ تضاحكُ أغوارٌ بها ونجود
وحاكتْ لكِ الأنواءُ كلَّ مُلاءةٍ عليك بها من رَقْمهِنَّ برود
بها نثرت كفُّ الصبا لؤلؤ الندى فمنها بأجيادِ الغصونِ عقود
وحيّا نسيمُ الودّ آرامَ رملةٍ وحيّاً حواه عالجٌ وزرود
فكمْ من عميدٍ فيه قلّبَ قلبه على جمرِ نارِ الشوق وهو عميد

ومنها :

---

[1] منها أبيات في النفح ٣ : ١١٩ – ١٢٠ .

وقفنا بركبِ الوجد نبكي معالماً وكلٌّ بخيلٍ بالدموعِ يجود
وقيّد إنسانَ العيونِ جمالُها وكلٌّ جمالٍ للعيونِ قيودُ
بكى بعدهمْ حولاً وأوسعَ[1] عذره بما [سنّه] في العالمين لبيد
وذرّى[2] على ربعِ العقيقِ دموعه عقيقاً ففيها توأمٌ وفريد
شهدتُ وما تغني شهادةُ عاشقٍ بأنَّ قتيلَ[3] الغانياتِ شهيد

ومنها :

إذا قابلوه قبّلوا تُربَ أرضِهِ وهمْ لعلاه ركّعٌ وسجود
وقد حازهم نقصٌ وأصبح قدرُهُ على رغمهم في المأثراتِ يزيد
سهرتَ وأحداقُ النجومِ رقودُ وقمتَ إليها والملوكُ قعود
وقد هزَّ منك الله للمُلكِ صارماً تُقامُ بحدّي شفرتَيهِ حدود
وربعُك مخضَرٌّ به ينبتُ الغنى ويورقُ في دَوحِ المكارمِ عود

وله من أخرى[4] :

لأيّةِ حالٍ حالَ عن سُنّة العدل ولم أصغِ يوماً في هواه إلى العذلِ
ولا خطَرتْ ذكرى سُلوٍ بخاطري ولا طَمِعتْ نفسي لما عنه لي يُسلي

---

١ ص : وأوشح .
٢ ص : وروى ، وأثبت ما في النفح .
٣ ص : قال .
٤ منها أبيات في النفح ٣ : ١٢٠ .

إذا كان لا يرضيكَ إلاّ مَنيّتي فيا قاتلي مِن قَتلَتي أنتَ في حلّ

وليلٍ كأنَّ الأنجمَ الزهرَ نرجسٌ به في رياضٍ فتّحتها يدُ الطلّ

على زهراتٍ كحّلَ القَطرُ مُرهَها سَقَتها ثديُّ المزنِ عَلاّ على نهلِ

كأنَّ عليلَ[1] الطلّ فوقَ عيونِها دموعُ التصابي حرنَ في الأعينِ النجل

وكمْ عطّرَ الروضُ النسيمَ كأنّه نسيمُ نشيدِ الملك في الحزنِ والسهل

يجرّد من غمدِ الندى صارمَ الحيا فتضربُ يمناه به عُنُقَ البخل

وكمْ ميسمٍ من جودِ يمناهُ عاجلٍ لراجي نوالٍ منه في جهةِ المطل

تملكتَ رقّي بالعوارفِ منعماً وأغنيتني بالجودِ عن كلّ ذي فضلِ

وأنسيتني أرضَ العراقِ ودجلةً وربعيَ حتى ما أحنُّ إلى أهلي [١٢٨]

وكان يرهّق في دينه ، فأفضت به الحال ، في اشبيلية إلى الاعتقال ، فمن شعره في المعتمد وهو مسجون :

أيا ابنَ عبّادٍ الملك الذي يدُهُ من فيضها الرزقُ بين الخلقِ مقسومُ

أضحى مديحكَ في درعِ العلا عَطراً به تنفّس منثورٌ ومنظومُ

وكنتُ أُحسَدُ إما[2] كنتُ أنشدُهُ فاليومَ ها أنا بين الناسِ مرحوم

فمن رأى شاعراً في السجنِ مطّرحاً في ظلمةٍ وهو بالبهتانِ مظلوم

ناديتُ حلمك والأقدارُ حائمةٌ كصاحبِ الحوتِ نادى وهو مكظوم

---

١ ص : عليا : النفح : بقاء .

٢ ص : ما .

فاحلل بيمنكَ[1] ربقَ الأسر عن عنقي   فأنتَ بالفضل والإفضالِ موسوم

ومن أخرى في ذلك :

يا محيياً بنداه ميتَ آمالي   ومصلحاً في فسادِ الدهرِ أحوالي

إني لأعجبُ من سجنٍ به أمِنتْ   نفسي من الخوفِ في عرّيس رئبال

ولم أر فيه مثلَ السيفِ أغمدَه   من انتضاه لأشعاري[2] وأقوالي

أمسي وحولي رجالٌ في الكبول [وهم]   مقرّنونَ بأصفادٍ وأغلال

كم قائلٍ لي وأثوابي مدنّسةٌ   وقد غدوتُ مذالاً مثلَ أذيالِ

أصرتَ ترفلُ في الأسمالِ قلتُ لهم   أسمالي اليوم بين الناسِ أسمى لي

الأديب أبو زكريا يحيى بن الزيتوني من مدينة فاس[3]

أحد من وفد أيضاً على هذا البلد أيام ملوك الأندلس ، وله شعرٌ بديع ، وتصرُّفٌ مطبوع . وكان حاضر الجواب ، ذكيَّ الشهاب ، قال له ابن زيدون أبو الوليد يوماً ، وهو بين يدي المعتضد وكأنّه استجهله ، أو أرادَ أن يفحمَهُ ويخجله : أفاسي أنت يا أبا زكريا ؟ يوهم أنه يسأله عن بلده ،

---

١ ص : بيمينك .

٢ ص : لأشعار .

٣ ترجمته في جذوة الاقتباس ٢ : ٥٣٦ نقلا عن الذخيرة ، وانظر المسالك ١١ : ٤٥٨ .

وخبأ له [1] فيها شيئاً فهمه يحيى بصفاء خلده . وأجابه سريعاً بفضل توقده ، فقال : منسوبٌ – أعزّك الله – فأعجبَ به عبّاد ؛ ولجَّ ابنُ زيدون فقال : نعم الفتى أبو زكرياء ، وفهم ابن الزيتوني تصحيفه ، فصَدمهُ بمثله ، ورماهُ بشكله ، فقال له – وقبّل يده – : عَبدكَ أعزّك الله ، فخجل أبو الوليد وتشوّر ، واستخف الطرب جميع من حضر [2] .

ومن شعره في المعتضد يستنجزه :

سفينة الوعدِ في بحرِ الوفا وقَفَتْ فامنن بريحٍ من الإنجاز تجريها

وله من قصيدة أوّلها :

فُقْتَ الهلال بذا الجمال فَواسِهِ وجرحت باللحظ الغزالَ فآسِهِ

يقول فيها :

لم أفنِ دمعاً في سواه ولا جَرى قلمٌ بغير ثناه في قرطاسه
فلقيتُ من كلفي به ما لم يكن لاقى سُحيمٌ من بني حَسحاسِه
ما البحتريُّ وإن أرقَّ نسيبه وأجادَ وصفَ الرَّوضِ في بطياسِه [3]
وأتى بتشبيهات حُسنٍ نسيمه ونوادرٍ بصفاتِ عَينٍ طِماسه

---

[1] ص : وخاله .
[2] حاول ابن القاضي المكناسي حل هذا الحوار عن طريق التصحيف ، حلا جزئياً ، ولعله وفق في بعضه فليراجع (عبدك : عندك ، نعم : يعم ، الفتى : الفسا . . الخ) .
[3] بطياس : قريبة من حلب (انظر ديوان البحتري : ٢١٤ ، ١١٣٥) .

بأرقّ من شعري وأحسنَ موقعاً منه اليناقي في حُلى أنفاسهِ

طماس كان ابن أخي ابراهيم بن العباس [1] ، وكان البحتري يتولع بوصف عوره .

[فصل في ذكر] الأديب أبي بكر بن العطار ، اليابسي الدار [2]

ويابسة من الجزائر الشرقية ، وهي من الأندلس في سمت دانية ، وهو من جملة من لقيته وأنشدني شعره ، ولم أحفظ منه عند تحريري هذه النسخة إلاّ أبياتاً من قصيدة في المعتمد أوّلها :

بحدّ عزمكَ نَصّلتَ القنا السُّلُبا قدماً وأجّجْتَ في ماءِ الظبا لهبا

يقول فيها في صفةِ البحر وجوازِ المعتمد له في وجهّته إلى أمير المسلمين وأنشدها يومَ أنشده عبدُ الجليل قصيدته البرمكيّة المتقدمّة الذكر :

كيف اضطربتَ به قدستَ [3] من جبلٍ لو دكّتْ الأرض من حوَلَيه ما اضطربا

---

[1] اسمه أحمد بن عبد الله بن العباس وهو عم أبي بكر الصولي (انظر ديوان البحتري : ١٢٧١ والحاشية)

[2] انظر المسالك ١١ : ٤٥٨ والمغرب ٢ : ٤٧٠ أبو بكر العطار (بحذف كلمة ابن) والنفح ٤ : ١٠ وفي عنوان المرقصات : ٣٠ من إسمه عبد الله بن محمد العطار ولا أظنه هو لأن المترجم به اسمه في النفح « محمد » . ولعبد الله العطار أيضاً ترجمة في المسالك ١١ : ٤٣٢ وهو من شعراء الأنموذج ، فهو على هذا ليس من يابسة .

[3] ص : قد سدت ، والتصويب عن المسالك .

وضاق حتى لو استنهضتَ طَرفَكَ أن يجتابَ طامِحَهُ في وثبةٍ وثبا
وكان كالسيفِ ألقَتْ[1] فوق صفحته مدارجُ [الريح] من تكسيره[2] شُطبا
وكان من بعضِ ما أهدت مكارمُه سوابقٌ لو تباري بارقاً لكبا
من كلِّ أشوسَ سامي الطّرْفِ منجردٍ قيدِ الأوابدِ سبّاقٍ لما انتدبا
إلى نجائبَ خوصٍ في حقائبها ما شئتَ من شرفٍ يستنفد الحقبا
يهوي بمتّخذِ الماذيِّ من دَرَقٍ إذا استخفَّ الكماة البَيض واليلبا
إذا استطالَ رماحَ الخطِّ قَونَسُهُ سما فأدرك من أطرافها العَذبا
فَدُسْ [فديتَ] بخيلِ الله أنديةً للشّركِ تصطلم الأوثانَ والصُّلُبا
واجلُ الظلامَ بوقّادِ الفرندِ كأنْ في صفحتيه [جمعتَ] الماءَ واللهبا [١٢٩]
يروقُ مضطرباً ماءُ الصقالِ به كأنّه جدولٌ هبّتْ عليه صَبا
ولا تردَّ حديدَ الهندِ ذا وضحٍ حتى يُرى بنجيع الكفرِ مختضبا
تفترُّ منه الليالي الغرُّ عن لعسٍ تخالُ إفرنْدَه من فوقِه شنبا
ولا تحلَّ يداً من كعبِ ذابلةٍ إلاَّ لتملأها نهداً وقد كعبا

ومنها :

فالأرضُ تقلقُ من جيشٍ قفلتَ به والجوُّ يعثرُ فيه من قناً وظبا
جيشٌ إذا ما [قتامُ] النقعِ جلّلهُ كانت سيوفُكَ ناراً والعدا حطبا

---

١ ص : ألفت .
٢ ص : تكسره .

من كلِّ ملتثمٍ والبيضُ سافرةٌ والشمسُ قد كُسيت من قسطلٍ حجبا

جمّت مياهُ وجوهِ القومِ فاتخذوا من الحياءِ على أبشارها نُقُبا

وليس ينفكُّ من سُحْبٍ تظلّلُه [1] إن لم تكن رَهَجاً كانت دخانَ كبا

ومنها في صفة الزورق :

يبدو على الموج أحياناً وتضمِرُهُ كالأيْم يعتسفُ [2] الأهضامَ والكثُبا

أمطاك [3] عزْمُكَ منه متنَ سابحةٍ خلتَ الحباب على لبّاتها لهبا

وله من أخرى [4] :

أقسمتُ بالزُّرقِ والهنديّةِ الذُّلُقِ والأعوجيّةِ والمهْريّةِ النّلحُقِ

لأنت بدرُ سماءِ المُلْكِ تحرسُهُ شهبُ الأسنةِ عن إصغاءِ مسترق

وأنت يا فتحُ عن فتح خُصِصْتَ به وعمَّ كلاًّ عمومَ العارضِ الغدق

جاء البشيرُ به تذكو ذلاذلُهُ كأنّما المسكُ مذرورٌ على الطرق

فراقَ أعيننا [ما] في صحيفتهِ كأنّه شَعَرٌ في عارضٍ يَقَق

والجيشُ قد جعَلَتْ أبطالُهُ مرحاً تختالُ عن خُيَلاء السبّقِ العتُقِ

هزّت نواصيَها لما قفَلْتَ بها قبَّ البطونِ لما فيها من النّلحَقِ

---

[1] المسالك : تنفك . . تظللها .

[2] ص : تستمف .

[3] النفح : أمطيت .

[4] منها بيتان في المغرب والمسالك .

هي البحورُ ولكن في كواثبِها[1] عند الكريهةِ منجاةٌ من الغرق

إذا تَسَعّرَتِ الهيجاءُ أخمَدَها ما في معاطفها من نَدْوَةِ العرق

وله من أخرى[2] :

يا حبّذا شُهُبُ الذوابلِ ما اعتلى من نورِ وَجْهِكَ فوقَها لألاء

والبيضُ سافرةُ الوجوهِ كأنّما لخدودهنّ من اللقاءِ حياء

تشدو بهامِ المشركين فيعتري أذْنَ الهدى لغنائها إصغاء

والجيشُ مضطّربُ البنودِ كأنّه تحتَ العواصفِ لُجّةٌ خضراء

ثابرتَ في طَلَبِ العدوّ مغاوراً حتّى اشتكى التأويبُ والاسراء

فصدرتَ والإسلامُ فوق جبينه وَضّحٌ[3] تضاءلُ عن سناه ذكاء

والكفرُ منحطِمُ الفقارِ بِعُنقِهِ خَضَعٌ وفي أجفانِهِ إغضاء

فتسنّموا قُلَلَ الجبالِ وعنده أنّ البسائطَ والجبالَ سواء

هيهات يُعْجِزُهُ العدوّ لو آنّهُ فوقَ اليَفاعِ فريدةٌ عصماء

وإذا أقامَ على الرضى في بلدةٍ رُبَّ النباتُ بها وماجَ[2] الماء

---

١ الكواثب : جمع كاثبة وهي من الفرس قدام السرج .

٢ أورد العمري منها ثلاثة أبيات .

٣ ص: وضاح .

فصل في ذكر [ابن القابلة السبتي][1]

وأنشدت لعبد الله بن القابلة السبتي [2] :

الشيبُ في مفرقيَّ حلا … وعقدَ عَهْدِ الملاحِ حَلا

وكان كالآبنوسِ رأسي … فاحتلّه عاجُهُ فحلّى

وحرَّمتْ وصليَ الغواني … وَقُلْنَ قتلُ العميدِ حَلا

وكان ابنُ القابلةِ [3] هذا يوماً مع ابنِ عبادةَ بالمرية ، فنظر إلى غلام وسيمٍ شديدِ البياض يسبحُ بالبحر ، وقد تعلّق بأحدِ المراكب ، وبقيَ نصفُ جسَدِه بالماء ، فقال له ابن عبادة :

انظرْ إلى البدرِ الذي لاحَ لكْ

فقال ابن القابلة :

---

[1] سقط عنوان الفصل من ص ، وهذا قد يفسر كيف أن العمري في المسالك لم يتنبه إلى أن ابن بسام قد انتقل إلى ترجمة جديدة ، ولهذا أدخل العمري بيتي شعر لابن القابلة في ترجمة ابن العطار اليابسي ؛ وحين أراد أن يترجم لابن القابلة عقد له ترجمة مستقلة (١١ : ٢٢٩) واعتمد في هذه الترجمة على عنوان المرقصات : ٣٠ وهي قاصرة على ثلاثة أبيات له وردت أيضاً في الدرة المضية : ٤٨٧ واسم ابن القابلة عبد الله ؛ ولا بد من أن نفرق بينه وبين ابن قابلة آخر ليس سبتياً وهو محمد بن يحيى الشلطيشي (المغرب ١ : ٣ [illegible]

[2] الشريشي ١ : ٦١ .

[3] انظر القصة في بدائع البدائه : ٨١ والنفح ٣ : ٦١٠ ، ٤ : ١٣

في وسَطِ اللّجةِ يجلو الحَلَكْ

قد جعل الماء مكانَ السما   واتّخذ الفُلْكَ مكانَ الفَلَكْ

وأنشدت له[1] :

ووجهِ محبّ[2] رقَّ حسناً أديمه   يرى الصبَّ فيه وَجْنَتَهُ حين ينظرُ

تعرَّضَ [لي]عند اللقاءِ بهرشاً   تكادُ الحميّا من محيّاهُ تعصر[3]

ولم يتعرَّضْ كيْ أراهُ وإنّما   أرادَ يريني أنَّ وجهيَ أصفر

وأنشدتُ له يصف القتلى[4] :

تركتَهمُ نهبَ الفلاة وَوحْشِها   شعورُهم شُعثٌ وأوجُهُهُمْ غُبْرُ

تظلُّ سباعُ الطيرِ عاكفةً بهم   على جُثَثٍ[5] قد سَلَّ أنفسَها الذعرُ

وقد عوَّضتهم من قبورٍ حواصلاً   فيا من رأى ميتاً يطيرُ به قبر

وهذا كقول التهامي[6] :

---

١ انظر المرقصات والدرة المضية والمسالك والغيث ٢ : ٢٥٩ ورفع الحجب ١ : ١٨٣ والشريشي ٤ : ٧٨ .

٢ ص : وجه محبي ؛ في أكثر المصادر : ووجه غزال ؛ الغيث : ووجه مليح .

٣ في المصادر : تقطر .

٤ منها بيتان دخلا في ترجمة ابن العطار اليابسي في المسالك ١١ : ٤٥٩ .

٥ ص : لهم على جثة .

٦ لم يردا في ديوانه .

حمتهمْ قبورٌ من ذئابٍ وأنسرٍ تروحُ بأشلاءِ الدفينِ وتغتدي
فمن حاملٍ فوق البسيطةِ ملحداً وآخرَ يهوي في السماء بملحدِ

قال ابن بسام : إلى هذا المكان انتهى ما انتخبته من أشعار هذه الفرقة الوافدة من المشرق ، على بلاد هذا الأفق . ونتلوه إن شاء الله بأخبار من وعدنا أن نأتي بذكره من أعيان أهل الآداب . وأعلام الشعراء والكتاب ، ممن كان [١٣٠] بالمشرق ومعاصراً لطبقة هذا الكتاب ، وقد قدمت السبب في اجتلاب أخبارهم ، وانتخاب أشعارهم . . .

ملحق القسم الثاني (قراءات النسختين ك ل)[١]

١١ : ٨ هي كانت قاعدة (ك)

١١ : ١٥ – ١٦ لأولي العقول وذوي العلوم (ك)

١٣ : ٣ ولا مشيراً إليه (ك ل)

١٨ : ١٨ إلا وبه شيء راتب (ك)

٢٠ : ٦ فهتكت أستارها وخربت ديارها (ك)

٢٠ : ٩ – ١٠ هذه الغزاة : : : وتجاوز البلاء برعيته (ك)

٢١ : ٨ واستخرجوا بذلك ما ادخروه (ك)

٢١ : ١٣ فلا يقاتل الأعداء (ك)

٣٢ : ٨ فمن ذلك قوله وذكر فتح رندة (ك)

٣٩ : ٥ بأي شيء صنع (ك)

٤٠ : ١ لم تُجِرْه الوفادة (ك)

---

١ انظر القسم الثاني ص: ٨٥٥ في وصف هاتين النسختين ، ولم أذكر في هذا الملحق ما تخل به كل نسخة منهما ، ولا ما تشترك فيه مع النسخ الأخرى ، [فعلى وجه الجملة تلتقي (ك) بالنسختين (ط د) كما تتفق (ل) مع النسختين (م س)] ولم أدرج في هذا الملحق أيضاً القراءات التي لا وجه لصحتها فذلك عبء لا مجال له هنا ، وإنما أثبت قراءات محتملة أو بعض زيادات تنفرد بها النسختان ، وهذه الزيادات – فيما عدا بضعة مواطن – لا تضيف كثيراً إلى المعنى ، ولكن إثباتها أمر تفرضه أمانة التحقيق . لهذا أرجو القارىء ألا يعتبر هذا الملحق في معظمه تصويباً لأخطاء ، وإنما هو وفاء بمتطلبات العمل ، والتزام بالدقة العلمية .

٤٢ : ١	لا يجدّ إلا راثثا (ك)
٤٨ :	زاد في (ك) بعد السطر السابع :
	فالنفس جازعة والعين داعية
	والصوت منخفض والطرف منكسر
	وبعد السطر العاشر :
	قوم نصيحتهم غش وحبهم
	بغض ونفعهم ان صرفوا ضرر
	يميز البغض في الألفاظ إن نطقوا
	ويعرف الحقد في الألحاظ إن نظروا
	(وانظر ديوان المعتمد : ٣٨)
٥٦ : ٩	وحذراً من حضور الوفاة (ك)
٥٨ : ٤	قبل القبر ومرغ جبينه (ك)
٥٩ : ١٢	رواهما الرواة على روي اللام (ك)
٦٨ : ١	وعند ذلك أيضاً قال (ك)
٦٨ : ٨	ما أعجب الحادث (ك)
٨٠ :	زاد في (ك) بعد السطر : ١٢
	يا ضيف أقفر بيت المكرمات فخذ
	في ضمّ رحلك واجمع فضلة الزاد
	ويا مؤمل واديهم ليسكنه
	خف القطين وجف الزرع بالواد
	وأنت يا فارس الخيل التي جعلت
	تختال في عدد منهم وأعداد

لما دنا الوقت لم تخلف له عـــدة

وكل شيء لميقات وميعاد

٨١ : ٣	والنوح يتبعها (ك)
٨١ : ١٥	عبد الله بن أبي سعيد (ك)
٨٦ : ٨	وصحت منابته في الكرم (ك)
٩٢ : ٨	ومن كلام المحدثين مما أجروه فجرى (ك)
٩٦ : ٥	من تأويل الدواوين (ل)
١٠٧ : ٩	تقول في كل معنى (ك ل)
١٠٩ : ٣	غربت ألبابنا (ك ل)
١١١ : ٣	وقال أبو عامر (سقطت لفظة الوزير في ك ل)
١١٣ : ٣	وذوي الرياسة والفهم (ك)
١٢٥ : ٨	وقد أخرجت من نظمه ونثره ما يشهد بنبله وفهمه (ل)
١٢٧ : ٥ ـ ٦	وقد اقتضبت من الرسالتين بعض فصول (ك)
١٢٨ : ٢	فإن لكل واحد منها (ل)
١٣٠ : ١٢	وقوام أمرها به (ل)
١٣٠ : ١٥	ولما أن قرأته (ك ل)
١٣٨ : ١٨	فليس يرغب في الحرام (ل)
١٤٢ : ٣	بالله من شيطانك استعذ (ل)
١٥٠ : ١٠	كما تجاوب أطيار بأشجار (ك ل)
١٥١ : ٣	عاطني أكؤس المدام (ل)
١٥١ : ٦	وأختار ذيبا (ل)
١٥١ : ١٢	سهل للناس هذا السبيل (ل)

١٥٢ : ١١ وما يتشبث بهذه الأسباب (ك ل)

١٥٥ : ٩ يخرج بي عن المقصود (ك)

١٦٥ : ١١ خدّ جرى للنعيم فيه (ك)

١٧١ : ١١ إلى البدر صاحبي (ك)

١٧٧ : ٩ فتعطيني العطاء المضاعفا (ك)

١٧٨ : ١٥ يخر وجلباب الدجى يتمزق (ل)

١٨٣ : ١٧ كل مرأى ومسمع (ك)

١٩٣ : ١٧ بمرأى عينك نفس أريب (ك ل)

١٩٤ : ٤ أو كانت للمجد روضة (ل)

٢٠٠ : ٩ وإماماً في سائر التعاليم محفوداً (ك ل ؛ قلت : والمحفود : المعظم الذي يخدمه إخوانه)

٢٠١ : ٥ ويصف الشعر (ل ؛ قلت : اقرأ : الشقر وهو شقائق النعمان أيضاً)

٢٠٧ : ١٥ وقد يحرم الرامي المصيب فريصة (ك ل)

٢٠٩ : ١٤ أبي الأصبغ بن سيد (ك ل)

٢١٤ : ٥ صنعة ثوبها (ك)

٢٢٠ : ١٣ والكريم إلى سكنه (ل)

٢٢٧ : ٩ وهي أن أكبر بناته (ك)

٢٢٧ : ١٠ تسدّ به بعض خلتها (ك ل)

٢٢٩ : ١٥ ما وجدت من شعر (ل)

٢٣٤ : ١٢ ــ ١٣ وتخلى للمعتضد عن أونبة (ل)

٢٣٤ : ١٨ جلالاً وخلالاً (ل)

٣١٦ : ١٠ والله يعوضك منه العزاء (ك)
٣٢٨ : ١٥ لا شيء أعرف من عقل (ل)
٣٢٩ : ٨ وقد خطبت وخطبت (ل)
٣٣٠ : ٩ ومددت إلى اجتلاء السرور عيني (ل)
٣٣٧ : ١٤ — ١٥ وأرب قصيّ عنّ فأبرمه (ل)
٣٣٩ : ٧ وحوم به جناح (ل)
٣٤٠ : ١٢ — ١٣ لا يسمن ولا يغني (ل)
٣٤٢ : ١١ لن تجدوا في غيري مرشفا (ل)
٣٤٤ : ١١ ونجباء الأولاد (ل)
٣٥٢ : ١ قاس من الأيك أو رطيب (ل)
٣٥٢ : ١٢ — ١٣ ولا أخفض من الجهارة (ك ل)
٣٥٣ : ٦ وتستدر جلموداً (ل)
٣٥٦ : ٩ ولا شره المكتسب (ل)
٣٥٩ : ١ وفي فصل منها (ك)
٣٦١ : ٨ أنا من فرط بري (ك ل)
٣٦٦ : ١٤ ولو شكت له نبوّ المنزل (ل)
٣٦٧ : ٤ ويحوز المعنى الأتم (ك)
٣٦٩ : ١٣ رغبة بنفسه عن نحلة (ل)
٣٨٢ : ٢ نسخ الغدر اقتضاء وفائه (ك)
٣٨٨ : ١ ما وجدته من شعره (ك)
٤٠٤ : ١ عند وقع المصائب (ك)
٤١٤ : ٧ تدعى بشميس مصغرة (ل)

٤١٤ :	زاد في (ك) بعد سطر : ١١ أبياتاً في هجاء ابن عمار للمعتمد ، ولا ريب في أنها دخيلة على الأصل ، لأنها من فاحش الهجاء الذي يتحاشاه ابن بسام، وهو قد قال: «وبعده ما أضربت عنه»
٤١٥ : ٢	بنظر اشبيلية (ل)
٤٢٥ : ٤	ونأى لأبصار العداة (ك)
٤٢٦ : ٤	قل لبرق الغمام ظهر البريد (ك)
٤٣٠ : ١	على ابن عمار الخائن (ك)
٤٣٢ : ٦	من كان تقدم فيه إليه (ك ل)
٤٤٠ : ١٢	ولا أمتري في أنها (ك) ... ومن أبلغ حججهم (ك ل)
٤٤١ : ٤ – ٥	يتعايرون به أشد منه (ل)
٤٤٧ : ٣	بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه : . البيت (ك ل)
٤٤٨ : ٩	ابن ذريح (ك)
٤٤٩ : ٢ – ٣	دفن بمقبرة الروم (ل)
٤٥٠ : ١٣	يداعب ابن جهور (ل)
٤٥٠ : ١٥	الشهود لما تدعي (ل)
٤٥١ : ١	فجئنا ابن جهورٍ (ل)
٤٥٤ : ٣	أم خمت الخطوب الموردا (ل)
٤٦٢ : ١	ولم أسمع بهذا البيت (ل)
٤٧٢ : ١٠	فجلس المعتمد يوماً على تلك البحيرة (ل)
٤٧٧ : ٥ – ٦	وسآخذ فيما بعد بطرف (ل)
٤٨١ : ١٢	في حساها الغبي والألمعي (ك ل)

٤٨٧ : ٣ أبو الحسين بن الجد (ك)

٤٩١ : ١٢ خافق وجل (ك)

٤٩٤ : ٧ من أهل بلدنا وعصرنا (ل)

٤٩٤ : ١٤ يؤتى الأمن من حيث يبتغى (ل)

٤٩٦ : ٣ من نعت الأصاحيب (ك ل)

٤٩٦ : ٧ بوجوه اللوم مخضوب (ل)

٤٩٩ : ٦ أشكو لديك الندى (ل)

٥٠١ : ١٣ في سلطانها النكد (ل)

٥٠٧ : ١ وقال أبو محمد الايادي (ل)

٥١٠ : ٥ بطشة تنسي الأعادي (ل)

٥١١ : زاد في (ل) بعد البيت الثالث :

وأعتبني الزمان فصرت أردى
بما أحيا سقاماً واعتلالا

٥١٣ : ١٠ ومن عجائبه قول جنوب (ل)

٥١٦ : ١٢ تأوي له وتثوب (ل)

٥١٧ : ٢ زمان ممهّى الصفحتين ضروب (ل)

٥١٩ : ٧ ترقرق عنها الملك (ل)

٥٢٠ : ٣ – ٤ في صفحة شمعة (ل)

٥٢٠ : ١٢ بالقصر المبارك (ل)

٥٣٤ : ٧ ولم نظلم (ل)

٥٣٧ : ١٣ صديقنا الفاضل أبي الحسن (ل)

٥٣٩ : ١ شغفت بها (ل)

٥٣٩ : ٣ والا زياد يحوك الخطب (ل ؛ قلت : وهذه قراءة جيدة)

٥٤٢ : ٤ فتبقى سمحة القياد (ل)

٥٤٢ : ١٣ لكن أخبرك عن حال (ل)

٥٤٥ : ٦ المستعين بن هود أعزه الله (ل)

٥٤٩ : ٧ خدك أزهر (ل)

٥٥١ : ٧ فصعد وتولى (ل)

٥٥٢ : ٧ ويزيد على الأيام (ل)

٥٥٢ : ١١ عند الملك الطاهر (ل)

٥٥٣ : ١ ــ ٢ من يمرّ به النسيم (ل)

٥٥٣ : ٥ أمّلها فأمّ لها ، وقدّم رجاءها (ل)

٥٥٥ : ١٤ أو يدور بنا عليك مدارا (ل)

٥٥٥ : ١٦ وتأتى فعلاً وأشرق حسناً (ل)

٥٥٩ : ٣ حين خططت هذه الحروف (ل)

٥٥٩ : ٧ وختمتها بهذه الأبيات (ل)

٥٦٤ : ٢ له من قصيد أوله (ل)

٥٦٥ : ٩ ونازعتهم حتى فللت (ل)

٥٦٩ : ١٤ يتيح الجنى (ل)

٥٧٦ : ١١ كل فعل يقصر (ل)

٥٧٧ : ١ بفصول الانعام والاجلال (ك)

٥٧٧ : ٦ بهذه العين أبصرت (ل)

٥٧٧ : ١٠ ــ ١١ لما يجعل المعذّر في حيز الاعتذار (ل)

٥٨٠ : ١ ومن النثر أبرعه (ك)

٥٨١ : ٥ – ٦ المنبت الذي إليه منتحاه (ك)

٥٨٣ : ٨ فأحاله هذا لجيناً (ل)

٥٨٥ : ٦ قد عظم الله شأنه (ل)

٥٨٧ : ١ اعطاء سائل (ك)

٥٩٣ : ٧ ابق للعليا تشيد (ل)

٥٩٧ : ١٥ مذ حيل منك بأذني (ك ؛ قلت : اقرأ : مذ حلّ)

٦٠١ : ٢ كم قلت فيه (ل)

٦٠٤ : ١ ولقد أباح لك الهوى (ل)

٦٠٥ : ٤ فصكت ضلوعي ... صكة (ل)

٦١٩ : ١٧ ما في الليل من درن (ك)

٦٢١ : ٣ إما من الجبن أو من شدة الفشل (ك)

٦٢١ : ١٤ ويصرع أقراناً (ك)

٦٢٤ : ١٤ بعض أهل عصري (ل)

٦٢٦ : ٨ للين لباس (ل)

٦٢٧ : ١٣ يشق علينا ترك مدحك (ك)

٦٣٣ : ١٣ برح الهوى (ل)

٦٣٧ : ٥ وهينم بأسمائهم السلطان هنيهة (ك ل)

٦٣٨ : ٧ أنظره وهو في السما ينظر (ل)

٦٣٩ : ٨ – ١٠ والأعيان الأدباء ... في الدولة المؤرخة ... المحيط الرومي والأندلس (ل)

٦٤٠ : ٩ – ١٠ خمسين مجلداً (ك ل)

٦٤١ : ٧ في جملة ما سرد (ل)
٦٤١ : ٨ بذلك الأوان (ك ل)
٦٤١ : ١٦ ابن شرف القروي (ل)
٦٤٣ : ١٣ كتب بهذا القصيد (ل)
٦٤٤ : ٨ لأنه أنبأ أنه يسهره (ل)
٦٤٤ : ١٠ إلا مع وفور النوم (ل)
٦٤٦ : ١١ فشمرت عن ساق (ك)
٦٤٨ : ٧ على قديم الزمان (ل)
٦٤٩ : ١٣ لا على المتصل عنك الآن (ك ل)
٦٥٠ : ٧ ـ ٨ لدهي في جبلته (ك)
٦٥٠ : ١٠ وثغره مثغوراً (ل)
٦٥٢ : ٦ وفرد العصر (ل)
٦٥٣ : ٤ وأخذ بأعنان السماء (ك ل)
٦٥٥ : ٥ وهي من الجزيرة (ل)
٦٥٦ : ٤ رحمه الله يومئذ مشغول (ل)
٦٥٦ : ١٠ حسبما تخلّص الخبر عنها (ل)
٦٦١ : ١٢ والأجل يتقحمه (ك)
٦٦٢ : ٢ أسطولاً ضخماً (ل)
٦٦٣ : ١١ ليلة الجمعة [...] من صفر المؤرخ (ل)
٦٦٣ : ١٢ في نفر من أصحابه (ك)
٦٦٣ : ١٦ من رؤوس جماعته (ل)
٦٦٩ : ٣ يبري ظبة السيف (ك)

٦٦٩ : ٩ وهو اليوم ببلدة يابرة (ل)

٦٧٠ : ٨ والأفواهَ رِيّا (ل)

٦٧١ : ٧ رحمي النسب والأدب (ل)

٦٧٢ : ٥ – ٦ وأبهى لفظها ومعناها (ل)

٦٧٣ : ١ – ٢ إن كان للكلام إمارة (ل)

٦٧٣ : ١٤ ما يربي على الديمة (ل)

٦٧٦ : ٨ – ٩ اقرأ : وأغوص رياها على الأفراح

٦٧٦ : ١٠ لقد حيا نفوسنا بها (ل)

٦٧٦ : ١٤ وأبقى من أرواحها (بعد « أرواحها » لفظة في ل لم أستطع قراءتها)

٦٧٦ : ١٥ في وجوه مائها (بعدها لفظة غير واضحة في ل)

٦٧٧ : ٥ فأعدي ، واشتكى من الفقر فأشكي ، والممحل : أنس من السقيا ببعثة الحيا فقال : يا رباه فرحاً بسقياه (ل)

٦٧٧ : ٩ ما حاسنتُ البقيعَ المزهرَ بحدَرَّة (ل)

٦٧٧ : ١١ مشكورة أياديه (ل)

٦٧٨ : ٢ المصلي بالسابق ، وتطلق الضحى الشارق (ل)

٦٧٨ : ١٧ وتجهز كتائبك إلى عديد قليل ، وبديد فليل (ل)

٦٧٩ : ٤ وما حسبتها إلا تميمة (ل ؛ وكذلك س : ١٦)

٦٧٩ : ٧ ونظمي في ضنك معانيها (ل)

٦٨٠ : ٤ فصل من ترسيل (ل)

٦٨١ : ٢ إذ الصبابة أزكى عتاد (ل)

٦٨١ : ٧ عن كل طبع (ل)
٦٨٢ : ١٢ من اجتبائه بأبرّ قسم (ل)
٦٨٢ : ١٧ تفرد بالخلافة (ل)
٦٨٢ : ١٩ تلك الشمائل الواعدة الصادقة (ل)
٦٨٥ : ٨ [ورحمت] في الأدنا (اقرأ : الأدباء) (ل)
٦٨٦ : ٥ برز العوالي (ل ؛ قلت : والرز : الصوت)
٦٨٧ : ٣ وان يسلم فقد تركت به (ل)
٦٨٨ : ١ حباً عليها جآجيا (ك ل ؛ جمع جؤجؤ)
٦٩٠ : ٦ على استنجاز طبعي (ل)
٦٩٥ : ١٣ راعوا قديم ولائي . . . وما أطرت (ل)
٦٩٦ : ١٢ مثل التاء في التّرخيم (ك)
٧٠٥ : ١٠ فلم تبقَ فيها (ل)
٧١٠ : ١٢ بما خلف الدروع (ك)
٧١٢ : ٣ بقرية لب على وادي آنه (ل)
٧١٣ : ١٤ إلا أن قول أبي محمد أولى بالتقدم منه قول بشر (ل)
٧٢١ : ٣ والبيض والسمر مثل . . . (ك)
٧٢٣ : ٣ وانتدبت لجعفر وابنه (ل)
٧٢٣ : ٩ سحقاً ليومكم سحقاً (ل)
٧٢٣ : ١٣ ويح السماح وويح الناس (ل)
٧٢٤ : ٥ وردها يدعو إلى صدر (ل)
٧٢٤ : ٦ سلام منتصب للأجر (ل)
٧٢٤ : ٧ شتّى وذو عبر (ل)

٧٢٤ : ٨ التطيلي في قصيدة يرثي بها السيناقي وقتل غيلة فقال (ل)

٧٢٥ : ٢ فأعقب عنها آخر الدهر (ل)

٧٢٩ : ١٣ وانثالت في يدك (ل)

٧٢٩ : ١٤ وان لم يكن فشبع وريّ (ل)

٧٣٠ : ٨ الذي شرف قدره على الأقدار (ل)

٧٣١ : ٣ إن عنّي سواي وعرها (ل)

٧٣١ : ١٩ ولترى أين أقع وتأمر بما أصنع (ل)

٧٣١ : ٢٠ يبسط نفسى (ل)

٧٣٥ : ٨ يا قلب ذب كمداً (المورد)[١]

٧٣٦ : ٨ تأملتني أم المجد (ل والمورد)

٧٣٦ : ١٦ سيعديها فيعطفها (المورد)

٧٣٦ : ٢١ خير من الهجر في جهد (المورد)

٧٣٧ : ٧ ان كنت ' لست ' بذي نقص (اقرأ : بغض كما في المورد) (ل)

٧٣٧ : ٨ إلا فت في عضدي (المورد)

٧٣٧ : ١٣ من خبل ومن كمد (ل)

٧٣٧ : ١٥ نفثت بالسحر في عقد (ل)

٧٣٨ : ١٤ منه الأسى في السهل والجلد (ل والمورد)

---

١ مجلة المورد ٦ : ٢/١٩٧٧ ص : ٣٠١ – ٣٠٤ استدراكات د . محمد مجيد السعيد على ديوان التطيلي .

٧٣٨ : ١٩ ووجه الدهر أسحم مظلم (المورد)
٧٣٩ : ٢ كأنهن العندم (المورد)
٧٣٩ : ٥ تتبينوا ألا أطيق فترحموا (ل والمورد)
٧٣٩ : ٧ وتظلمون بجهدكم (ل والمورد)
٧٤٣ : ٥ اقرأ : فآبتْ بدمعي . . . وأبتُ بما في مقلتيها
٧٤٣ : ٩ بدت رقة الشكوى على عصفاته (ل)
٧٤٧ : ٧ بالبرس يثبت بين القوس (ل)
٧٤٩ : ٨ ليس شعري بمنقص (ل)
٧٥٠ : ٣ مكذوبي النهى والتجارب (ل)
٧٥٠ : ١٩ وعدي له الأيام الا نواهب (؟) (ل)
٧٥٤ : ٦ خاطب بها الوزير الفقيه أبا الحسين (ل)
٧٥٥ : ١٤ بعض الريش إلى جناحي (ك)
٧٥٥ : ١٧ وأقرئك من أثناء تلك الدولة (ل)
٧٥٦ : ٧ ولا أقر إلا لنعمائك (ل)
٧٥٦ : ١٠ والله تعالى يبقيك لي ويمليك (ل)
٧٥٦ : ١٢ ومؤديه ناصح مملوكك (ل)
٧٥٧ : ١١ من علامات الكرام أنه شبيه (ل)
٧٥٩ : ٣ قال الله تعالى فيه (ل)
٧٥٩ : ٥ وجدته أمراً من الزيادة (ل)
٧٥٩ : ١١ من النسر الأشغى (ل)
٧٦٠ : ٧ له بين وردك وياسمينك (ل)
٧٦٠ : ٧ ــ ٨ وتنسى على منابر أدواحك (ل)

٧٦٢ : ٥ أولى الأمة بذلك نوح (ل)

٧٦٥ : ٧ وهو الوسع المحمود (ل)

٧٦٥ : ١٠ بأبيات قال فيها (ل)

٧٧١ : ٩ موشومة ، إذا ما تأملتها كالسفن (ل)

٧٧٣ : ١ ولم يسترك من بعضها (ل)

٧٧٣ : ١٠ ثم انبسط أبو بكر (ل)

٧٧٦ : ٩ وتعاور أطوارها وتناوبها (ل)

٧٧٧ : ٥ إلى هذا النسب الكريم (ل)

٧٧٨ : ٩ فابدعوه بالتحية (ل)

٧٧٨ : ١٠ والغريب مثل المنكوب (ل)

٧٧٨ : ١٥ وعلى الطائر أن يغشى أخاه ويراجع (ل)

٧٧٩ : ١ على أني إنما أتكبر (ل)

٧٧٩ : ٢ – ٣ ويشرع في وداد (ك ل) ويكشف . . . عن أصل هذا التهاجر (ل)

٧٧٩ : ٦ فذكرك بصفاتك (ل)

٧٧٩ : رواية (ل) في ترتيب الأبيات هي الصحيحة وهي كما يلي :

أبا أيوب والأيام لا تبقى على حال

[وان المرء منها بين ادبار واقبال]

لئن رحتَ رخيَّ البال ذا جاه وذا مال

ومركوب وغاشية وأنعام وأذيال

جميعَ الشمل ملقى الرحل بين الأهل والآل

وأصبحتُ مقلاً رهنَ إقلال وإذلال

فإنك حد .... (الأبيات)

٧٨٣ : ٨ كسبيل ما وردني الآن به كتابك (ل)

٧٨٣ : ١٤ خان بعض الثقات (ل)

٧٩٠ : ١٢ منع الجواز إليها (ل)

٧٩٢ : ١٥ رفعت راياته (ل)

٧٩٤ : ٩ فلم يتّزن (ل)

٧٩٥ : بعد السطر السادس ورد في (ل): وقال آخر :

والثريا في الجو كالعنقود

٧٩٦ : ٧ رهينة بانصداع الشمل (ل)

٧٩٧ : ٢ ممن نظم الدر المفصّل وطبق المفصل (ل)

٨٠٠ : ٩ على الله الثناء (ل)

٨٠٠ : ١٥ وللبروق مجامر (ل)

٨٠٥ : ٢ لم يبقَ للظلم في أيامكم (ل)

٨٠٥ : ٤ تأمنْ وتكفَ (ل)

٨٠٧ : ٥ وأنهم في قولهم كاذبون (ل)

٨٠٧ : ٨ قل لي أبا مروان (ل)

٨٠٧ : ١٢ إليه واستبسل عساه يلين (ل)

٨٠٩ : ٤ دراهم ملوك أفقنا (ك ل)

٨١٠ : ٨ ماورد (ك : بماء ورد) كان بين يديه (ل)

٨١٥ : ٨ من وثاقه وأذن الله بانطلاقه وله في ذلك قصيدة (ل)

٨١٦ : ١٢ يقول فيها (ل)

٨٢٤ : بعد البيت الرابع (س : ٤) في ل ورد البيت :

أدامت حمامات على فقد إلفها
وينكر أقوام عليّ دوامي

٨٢٧ : ٨ ليت الزمان من العثار يقال (ل)

٨٣٠ : ٩ على جيد ما جد (ل)

٨٣٢ : ٨ ومما راعني لم أصدق (ل)

٨٣٤ : ٧ مما انتحاه (ل)

٨٣٥ : ٢ أوحش حلولاً من الليل (ل)

٨٣٦ : ٨ وفي مثل ذلك يقول (ل)

٨٣٧ : ٢ أعندك أن البدر بات (ل)

٨٣٩ : ١٣ لم أدرِ (ك) ما جِدّ الهوى (ل)

٨٤٢ : ١٢ ووسطى في نظام المكرمات (ك)

٨٤٣ : ١٢ حتّى حسبنا أديم الماء (ل)

٨٤٦ : ٦ في غير ما موضع (ل)

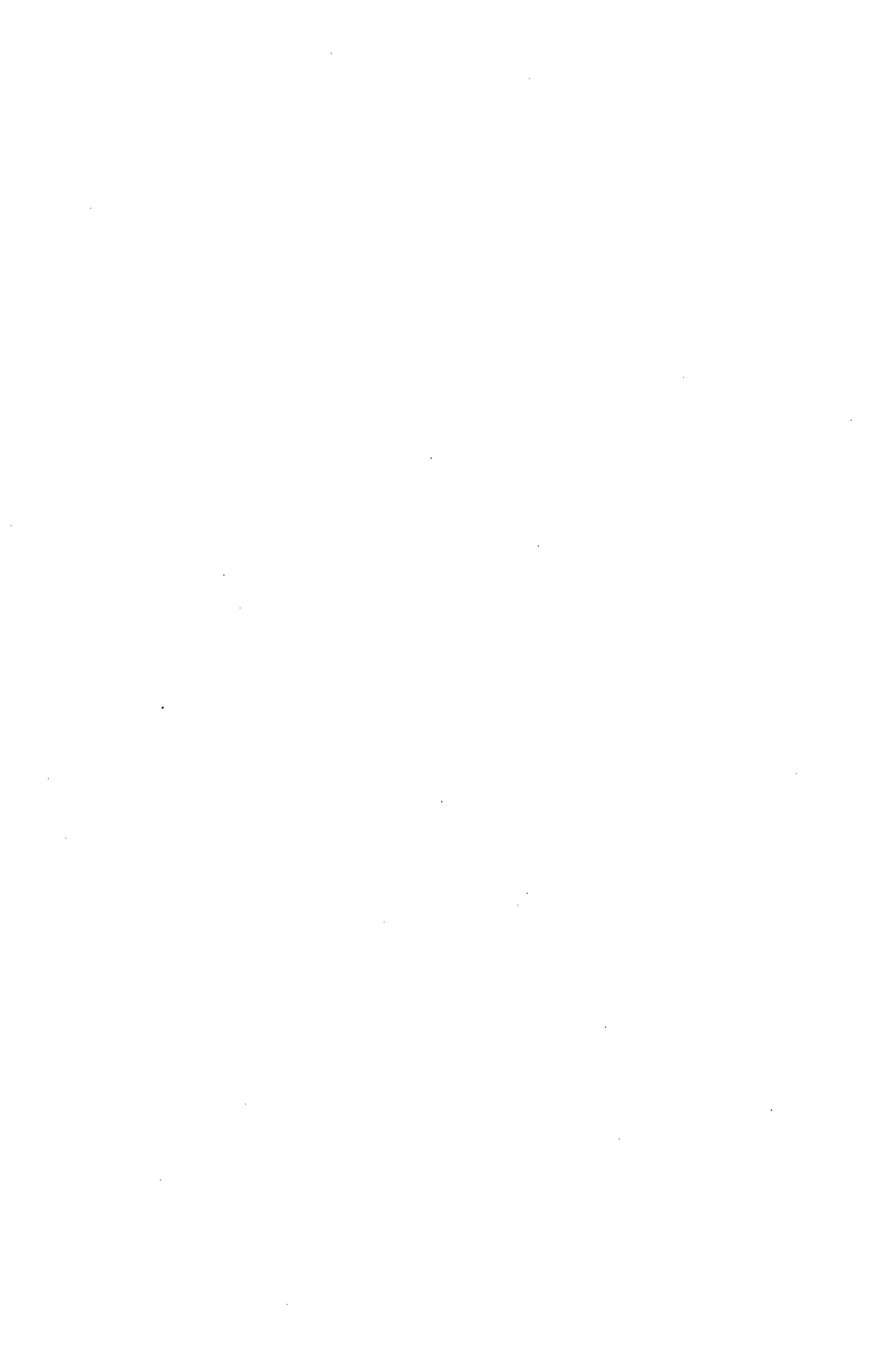
٨٤٧ : ١٠ يسير بالعدل والأحكام (ل)

٨٤٩ : ٢ وله من أخرى (ل)

٨٤٩ : ٣ من سروهم شبه الأحجال

٨٥٠ : في (ل) بعد السطر السابع :

أنا يا ابن حمدين وتلك مقالة
برئت شهادتها من التجريح



فهرس الكتاب

١ - فهرس الأعلام

– ث –

– ج –

- ح -

- ص -

- ض -

- ط -

– غ –

— ف —

— ق —

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

— هـ —

— و —

— ي —

٢ - فهرس الأماكن

– ك –

– ل –

– م –

٣ - فهرس الطوائف والقبائل والأمم

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —

٤ – فهرس الكتب المذكورة في المتن

٥ – فهرس القوافي

– أ –

– ب –

– ق –

ـ ك ـ

– م –



فهرس المحتويات

بعونه تعالى
انجز طبع هذا الكتاب
بدار الثقافـــة
ص. ب. ٥٤٣ - بيروت

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

تأليف

أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني (٥٤٢)

القسم الرابع - المجلد الثاني

تحقيق

الدكتور إحسان عباس

دار الثقافة

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

٤

فأول من أبدأ به منهم من رسخت أصوله في تربة التقديس والتسبيح ، والتفَّتْ فروعه بأجنحة الملائكة والروح ، مَنْ عُبِدَ الرحمن في زمانه ، وخُلِعَتِ الأوثانُ بين صارمه وسنانه ، صلى الله عليه أتمَّ صلاةٍ وأزكاها ، وأقربَهَا من رضوان الله وأدناها ، وعلى أهلِ بيته أوْلى الناسِ بِنُصْحِ جيوبنا ، وأحقّهم بطاعة قلوبنا ، وأرجاهُمْ لحطِّ خطايانا وذنوبنا .

فصل في ذكر الشريف أبي القاسم المرتضى ذي المجدين علم الهدى [1]

واثبات جملة من شعره الذي شرف بقائله وطائله ، وعرف بجلالة ناظمه ، وأصالة مباديه وخواتمه .

كان هذا الشريفُ المرتضى إمامَ أئمةِ العراق ، بين الاختلافِ والاتفاق ، إليه فَزِعَ علماؤُهَا ، وعنه أَخَذَ عظماؤُها ؛ صاحبُ مدارسها ، وجماعُ شاردِهَا وآنسها ، ممن سارتْ أخباره ، وعُرِفَتْ به أشعاره ، وحُمِدَتْ في ذاتِ الله مآثره وآثاره ؛ الى تواليفه في الدين ، وتصانيفه في أحكامِ المسلمين ، بما يشهدُ أَنَّه فرعُ تلك الأُصول ، ومن أهلِ

---

١) مولده سنة ٣٥٥ ووفاته سنة ٤٣٦ ، وقد تفرد في علوم كثيرة مثل علم الكلام والفقه وأصوله والأدب والنحو ومعاني الشعر واللغة وله عدد كبير من الكتب ، وديوانه يقع في ثلاثة مجلدات ؛ انظر ترجمته في انباه الرواة ٢ : ٢٤٩ ومعجم الأدباء ١٣ : ١٤٦ وابن خلكان ٣ : ٣١٣ (وفيه نقل عن الذخيرة) ودمية القصر ١ : ٢٧٩ وتاريخ بغداد ١٢ : ٤٠٢ وتتمة اليتيمة ١ : ٥٣ والمنتظم وابن الاثير والذهبي (وفيات ٤٣٦) وتلخيص مجمع الآداب ٤/١ : ٦٠٠ ومرآة الجنان ٣ : ٥٥ ولسان الميزان ٤ : ٢٢٣ وبغية الوعاة : ٣٣٥ والشذرات ٣ : ٢٦٥ وعبر الذهبي ٣ : ١٨٦ والنجوم الزاهرة ٥ : ٣٩ وروضات الجنات : ٣٨٧ والدرجات الرفيعة : ٤٥٨ والذريعة ٢ : ٤٠١ وابن كثير ١٢ : ٥٣ وللدكتور عبد الرزاق محيي الدين دراسة عنه بعنوان « أدب المرتضى » (بغداد ١٩٥٧) ؛ ويعتمد ابن بسام هنا في الاكثر على كتاب « طيف الخيال » (القاهرة : ١٩٦٢)

ذلك البيت الجليل ؛ وقد أخرجتُ من شعره ما لا يمكنُ لحاقُهُ ، ولا يُنْكَرُ تبريزُهُ وسباقه .

جملة من شعره في أوصافٍ شتَّى

في وصفِ الطَّـيْفِ

[قـال] [1] :

ما زال يخدعنـي بأسبـابِ المـنى [2] ... حتّـى حسـبـتُ بأنَّـه حقـاً معي

أَحْبِـبْ إليَّ وقـد تغشَّى ناظـري ... وَسَنُ الكرى بالطيفِ يطرقُ مضجعي [3]

ولقد عجبتُ على المسـافةِ بيننـا ... كيف اهتـدى من غـير هادٍ موضعـي

أفضى إلى شُعْـثٍ لقـوا هاماتهم ... لما سُقُـوا خمـرَ الـكـرى بالأذرع

هجعـوا قليلاً ثم ذَعْـذَعَ [4] نَوْمَهُمْ ... غبَّ السرُّى داعـي الصبـاحِ المسمع

وقـال : [5]

وزورٍ تخطَّـى جنـوبَ المـلا ... فنـاديتُ أهـلاً بـذا الزائـرِ

أتانـي هدوّاً وعيـنُ الرقيـبِ ... مطروفـةٌ بالـكـرى الغامـر

وأحببْ به [6] يُسْعِـفُ الهاجعيـن ... وَتُحْـرَمُـهُ مقلـةُ السـاهر

وعهـدي بتمـويه عيـنِ المحـبِّ ... ينـمُّ علـى قلبـهِ الطائـر

فلمـا التقينـا برغـمِ الرقادِ ... موّه قلبـي علـى ناظـري

---

١ طيف الخيال : ١٢٠ والديوان ٢ : ٢٢٢ (طيف الخيال = ل ، والديوان = ن)

٢ ل ن : الكرى

٣ هذا البيت مقدم في : ل ن .

٤ في الاصل : زعزع

٥ ل = ١٢١ ؛ ن ٢ : ٦٢ والشريشي ٢ : ٢٣٠ ـ ٢٣١.

٦ ل ن : وأعجب به

قال الشريف المرتضى [١] : قلت هذه الأبيات في سنة أربع [٢] وثمانين وثلاثمائة ، وتداول أهل الأدب إنشادها ، واستغربوا هذا المعنى ، وشهدوا أنه مخترع لم يسمع ، فلما تصفَّحتُ ديوان شعر أخي لاستخراج ما يتعلق بوصف الطيف في هذا الوقت وهو سنة اثنتين [٣] وعشرين واربعمائة وجدت هذه البائية بخطّه على ظهر الجزء الثاني من شعره [٤] :

إن طيفَ الخيالِ زارَ طُروقاً ... والمطايا بين القِنَانِ وَشِعْبِ
زارني واصلاً على غيرِ وعدٍ ... وانثنى هاجراً على غير ذنب
كان قلبي إليه رائدَ عيني ... فعلى العينِ مِنَّةٌ للقلب
كان عندي أنَّ الغرورَ لطرفي ... فاذا ذلك الغرورُ لقلبي

فلستُ أعرفُ كيف جَرَتِ الحالُ في خبرها ، وهل قصد رحمه الله إلى نظمها حتى لا يخلوَ شعرُهُ من هذا المعنى ، أو أُنْسِيَ سماعَهُ مني ، وقذفَ به خاطِرُهُ وجرى على هاجسه ، وكثيراً ما يلحقُ الشعراءَ ذلك فيتواردون في بعضِ المعاني المسبوقِ إليها ، وقد كانوا سمعوها فأُنْسُوها ، فالخواطرُ مشتركة ، والمعاني معترضةٌ لكلِّ خاطر ، وكيف جرى الأمرُ فيها فان العنصرَ واحد ، وأيّنا سبقَ إلى معنىً فالآخرُ بالنَّجْرِ والسِّنْخِ إليه سابقٌ وبه عالق .

وقال المرتضى [٥] :

أَمِنْكِ سرى طَيْفٌ وقد كان لا يسري ... ونحن جميعاً هاجعون على الغَمْرِ
تَعجَّبْتُ منه كيف أَمَّ ركابَنا ... وأَرْحُلَنا بين الرِّحالِ وما ندري

---

١ ل : ٩٤ ـ ٩٥
٢ ل : في سنة نيف
٣ ل : نيف .
٤ ديوان الرضي ١ : ١٧٢ والشريشي ٢ : ٢٣١
٥ ل : ١٢٢ ـ ١٢٤ ؛ ن ٢ : ٦٧

وكيف اهتدى والقاعُ بيني وبينه ... ولّماعةُ القطرين [1] منّاعةُ القطر
وأفْضى إلى شُعْثِ الحقائبِ عرَّسوا ... على منزلٍ وَعْرٍ ودوّيةٍ قفر
وقومٍ لقوا أعضادَ كلِّ طليحةٍ ... بهامٍ ملاهُنَّ النعاسُ من السُّكْرِ
سَرَوْا وسماكُ الرمحِ فوقَ رؤوسهم ... فما هَوَّموا إلا على وقعةِ النَّسْرِ
وبات ضجيعاً لي ونحن من الكرى ... كأنَّا ترَوَّينا العتيقَ من الخمر
أضمُّ عليه ساعديَّ إلى الحشا ... وأفرشُهُ ما بين سَحْري إلى نحري

قال المرتضى : قلت : « منّاعةُ القَطْرِ » ، وهي على الحقيقة ممنوعة ، لأُقابلَ بين لماعة ومنّاعة ، والمعنى مع ذلك صحيح/[١٣١] وإنما قلتُ : سماك الرُّمحِ [2] لضيق الشعر . ومعنى : « لقوا أعضادَ كلِّ طليحةٍ » أيْ توسّدوا أَذْرُعَ المطيِّ كلالاً وتصعلكاً .

قال ابن بسّام [3] : ومثله قولُ ذي الرمّةِ [4] :

رمى الإدلاجُ أيْسَرَ مِرْفَقَيْها ... بأشعثَ مثلِ أشلاءِ اللجامِ

يعني نفسه [و] أنه عرَّسَ على إحدى ذراعي ناقته ، وخصَّ اليسرى لتكون وجوههم ووجوهُ الإبلِ في ناحيةٍ واحدةٍ فيكتلئوا بأبصارها [5] [لأنها أبصر وأسهر] ولو توسدوا أيامنَ المطيِّ كانت وجوههم إلى أعجازها ؛ وفي الاكتلاءِ لعين المطية يقول الآخر [6] :

أَنَخْتُ قَلُوصي واكتليتُ بِعَيْنِهَا ... وآمرتُ نفسي أيَّ أمريَّ أفعلُ

وقال ذو الرمة أيضاً [7] :

---

١ في الأصل : القرطين ؛ ولماعة القطرين : السحابة .
٢ يعني كان حقه أن يقول : السماك الرامح
٣ النصّ منقول عن شرح الأمالي : ٢٠٠
٤ ديوان ذي الرمة ٢ : ١٣٩٨
٥ في الأصل : فيكتلئون بأبصارهم ، وما بين معقفين زيادة من السمط .
٦ السمط ؛ ٢٠٠
٧ ديوان ذي الرمة : ٢٩٠ (مكارتني)

جَنَحْـنَ علـى أردافِهِـنَّ وهوَّموا سُحَيـراً علـى أعضـادِهِـنَّ المياسرِ

وقال أيضاً [1] :

رجيعـةِ أَسـفـارٍ كـأنَّ زمامَهَا [شجاعٌ] لدى يُسرَى الذراعينِ مُطْرِقُ

كأنّ الزمامَ إنما يكونُ في الشقِّ الذي يضطجعُ عليه . وقد بيَّن ذلك أبو حية بقوله :

[...] [2] أيمَـنَ الكشـحـينِ منـه إلـى يُسْرَى يَدَيْ حَـرَجٍ أمونِ

وإنما يتوسَّدُ القومُ أيمانَهم لمكانِ السلاح من أياسرِهمْ ، وأنَّ مُعَرَّسَهم ليس بمكانِ طمأنينةٍ ولا وضعِ السلاحِ من أياسرهم .

وقوله : « فما هوّموا إلا على وَقْعَةِ النَّسْرِ » ، بين مسامتةِ السماكِ لقمّةِ الرأسِ من وقعهِ زمانٌ طويل . ومثله مما أنشده أبو علي البغـدادي [3] ، إلا أنَّـه في ذكر الشعرى والنسر ، قولُ أيمنِ بن خُرَيْم :

أتانـي بهـا يحيى وقـد نمتُ نومةً وقد غابتِ الشِّعْرى وقد جنحَ النَّسْرُ

وقد أنكر أبو عبيد البكري عليه هذه الرواية وقال [4] : الصحيح في المعنى : « وقد طَلَعَ النسرُ » ، لأنّ الشعرى العبورَ اذا كانت في أفقِ المغرب كان النسرُ الواقعُ طالعاً من أفقِ المشرقِ على نحو سبع درجات ، وكان النسرُ الطائرُ لم يطلع ؛ واذا كانت الشعرى الغُمَيْصَاء في أفقِ المغرب ، كان النسرُ الواقعُ حينئذٍ غيرَ مكبِّدٍ ، فكيف أنْ يكونَ جانحاً ، وكان النسر الطائر حينئذٍ في أفقِ المشرقِ طالعاً على نحو سبع درجات أيضاً ؛ فرواية أبي عليّ لا تصحُّ ألبتّةَ ، فكأن النسرَ الواقع نظيرُ الشعرى العبور ؛ قال الشاعر :

وإنـي وعبـدَ اللـه بعـد اجتماعنـا لكـالنَّسْـرِ والشعرى بشـرقٍ ومغـربِ

١ ديوان ذي الرمة : ٣٩٤ (مكارتني)

٢ الكلمة قد كشطت ولم يبق منها إلا الحرف الأول وهو التاء ؛ ولم يرد البيت في شعر أبي حية المجموع .

٣ أمالي القالي ١ : ٧٧

٤ انظر التنبيه : ٣٨ والسمط (شرح الأمالي) : ٢٦٢

يلوحُ اذا غابتْ من الشرقِ شخصُهُ وان تَلُحِ الشعرى لـه يتغيَّب

وقال أبو نواس [1] :

وخمارةٍ نبَّهتُها بعدَ هجعةٍ وقد لاحتِ الجوزاءُ وانغمص [2] النسرُ

فقالتْ : مَنِ الطُّرَّاقُ قلنا عصابةٌ خِفافُ الأداوَى تُسْتَقَى لهم الخمر

قال ابن بسام : وأبو عبيد البكري هذا كان آخر علماء أفقنا بالأوان ، وأوّلَهم بالبراعةِ والاحسان ، حتى كأنَّ العربَ استخلفته على لسانها ، والأيامَ ولَّتْهُ زمامَ حدثانها ، وقد ذكرت[له]في القسم الثاني من هذا التصنيف [3] ، عدَّة من التواليف في شتى الفنون ، تشهدُ أنّه تلقّى رايةَ المعارفِ باليمين .

وقال المرتضى من قصيدة أخرى [4] :

ألا يا ابنةَ الحيَّينِ مالي ومالكِ وماذا الذي ينتابُني من خيالكِ

هجرتِ وأنتِ الهمُّ إذ نحنُ جيرةٌ وزرتِ وشَحْطُ دارُنَا من ديارك

فما نلتقي إلاَّ على نشوةِ الكرَى بكلِّ خُداريٍّ من الليلِ حالك

يفرِّقُ في ما بيننا وَضَحُ الضّحى وتجمعنا زُهْرُ النجومِ الشوابك

وما كان هذا البذلُ منكِ سجيَّةً ولا البذلُ [5] يوماً خلةً من خلالك

فكيف التقينا والمسافةُ بيننا وكيف خَطَرْنَا من بعيدٍ ببالك

ولما امتطيتِ الليل كنتِ حقيقةً بغيرِ الهدى لولا ضِياءُ جمالك

---

١ متابع للسمط ، وانظر ديوان أبي نواس : ٢٧٣

٢ السمط : وانغمس ؛ الديوان : وانحدر

٣ موضع ترجمة أبي عبيد في القسم الثاني من الذخيرة : ٢٣٣ ولم يرد فيها ذكر لتصانيف أبي عبيد لأن النسخ المعتمدة قد أخلت بايرادها ، وهذه الاحالة هنا تثبت أن ابن بسام كان قد أدرج له ترجمة مستوفاة ، ولعله فعل ذلك في مرحلة متأخرة من إعداده للكتاب ؛ ويجدر القول أن للبكري عدة مؤلفات هامة ذكرت بعضها في حواشي ترجمته في القسم الثاني .

٤ ل : ١٢٤ ، ن : ٢ : ٣٧٠ وحماسة ابن الشجري : ١٨١

٥ ل : الوصل

وهذه أبيات غريبةُ الطَّرْحِ ، بدوية السِّنْخ .

وقال من أخرى [1] :

يا طيفُ زُرْنَا إن نَشَطتَ لنا ... فالركبُ بالأبواءِ قد نزلا

عُدَّ النهارَ مطيّةً لَغِبَتْ ... وخذِ الظلامَ مع السُّرى جملا

ودعِ التعلّلَ فالحبيبُ إذا ... ملَّ الوصالَ تطلَّبَ العللا

عَجِّلْ سُراكَ إلى مضاجعنا ... واذا خطرتَ [2] فلا تغبْ عَجِلا

من أينَ يعلمُ من نحاذِرُهُ ... قَطَعَ الخيالُ الحبلَ أمْ وصلا

وقال [3] :

يا طيفُ ألاّ زُرْتنا بسوادِ ... لما تضرَّعنا حيالَ الوادي

ما كان ضَرَّكَ والوشاةُ بمعزلٍ ... عنا جميعاً لو طَرَقْتَ وسادي

والريُّ فيك وقد صديتُ فقل لنا ... مَنّاً علينا كيف يَنْقَعُ صاد

ومن أجلِ أنَّكِ تسعفينَ على الكرى ... أهوى الرقادَ ولاتَ حينَ رقاد

يا زورةً من باخلٍ بلقائِهِ [4] ... عَجِلَتْ عطيَّتُهُ على الميعاد

تركَ البياضَ لآمنٍ وأتى به ... فَرَقَ الوشايةِ في ثيابِ حداد

وقال [5] /[١٣٢]

ألا [يا] أيّها الحادي ... قفِ العيسَ على الوادي

وأينَ الطيفُ من ظميا ... ءَ أمْسى وهو معتادي

---

١ ل : ١٢٦؛ ن ٣ : ٤٦

٢ ل ن : حضرت

٣ ل : ١٢٧ ، ن ١ : ١٦٠ والشهاب : ٦٦

٤ ل : برقاده

٥ ل : ١٣١ ، ن ١ : ٢٦٥

جفا صبحاً ووافاني صريعاً بين أعضاد [1]
تلاقينا بأرواحٍ وفارقنا بأجساد

قال المرتضى : الأرواحُ لا يصحُّ لها في الحقيقة التلاقي والتزاور ، لكنَّ الشعراءَ لما رأوا الأجساد في طيف الخيالِ لم تلتقِ ولا تدانت ، نسبوا التلاقيَ إلى الأرواح تعويلاً على مَنْ جَعَلَ النفسَ لها قيامٌ بنفسها ، وأنها غيرُ الجسد ، وأنَّ التصرُّفَ لها ، فجرينا على هذا الطريق ، وإنْ كانَ باطلاً بالتحقيق .

وقال [2] :

زارني والرقادُ منّي ومنهمْ داخلٌ في العيونِ من كلِّ بابِ
زَوْرَةٌ زوّرت عليَّ ولو كا نت يقيناً لما شَفَتْ بعضَ ما بي

وقال [3] :

قل لطيف الخيالِ ليلة هوَّمْـ ـنا بنجدٍ هلاَّ طرقتَ هزيعا
والمطايا من الكلالِ على رَمْـ ـلِ زَرُودٍ قد افترشْنَ الضلوعا
ما على من يحلُّ بالغَوْرِ لو با تَ لنا طيفُهُ بنجدٍ ضجيعا
خادعونا بالزَّوْرِ منكم عن الحـ ـقّ فما زال ذو الهوى مخدوعا
واطلبوا إن وجدتمُ كاتماً للسرِّ منكم فقد وجدنا المذيعا

وقال [4] :

وليلةَ بتنا بالأُبيرقِ جاءَني على نشوةِ الأحلامِ وَهْناً رسولها
خيالٌ يُريني أنّها فوقَ مضجعي وقد شطَّ عني بالغُوَيْرِ مَقيلها

---

١ ل ن :
جفا صبحاً ووافاني صريعاً بين رقاد
وأعناق المطايا من كلالٍ بينَ أعضاد

٢ ل : ١٣٤ والشهاب : ٧١ ولم يردا في الديوان .

٣ ل : ١٣٦ ؛ ن ٢ : ٢٠٤

٤ ل : ١٣٨ ؛ ن ٣ : ٣٦ ـ ٣٧

فيا ليلةً ما كانَ أنعمَ بثَّها تنازحَ غاويها ونام عذولها
وما ضرَّني منها وقد بتُّ راضياً بباطلها أنْ بان صبحاً بُطُولها
فلما تجلّىَّ الليلُ بالصّبح وامّحتْ دياجيرُ مرخاةٌ عليها سدولها
أفقتُ فلم يحصلْ عليَّ من الذي خُدِعْتُ به إلاّ ظنونٌ أُجيلها

قال المرتضى [1] : ولهذه الأبياتِ ما تراه ، مما لا تقدرُ على جَحْدِهِ من الفصاحة والطّلاوةِ والبدوّيةِ التي يُوجَدُ طعمُها في فصيح الكلام ؛ وإنما جعلتُ الطيفَ رسولها لأنه مذكِّرٌ بها ومترجمٌ عنها ، فجرى مَجْرى الرسول . وكان عندي أنني سابقٌ إلى وَصْفِ الطيفِ بالرسولِ حتى وجدتُ أشجعَ السلميّ يقول :

حيٍّ طيفاً أتاكَ بعد المنامِ يتخطَّى إليكَ هولَ الظلامِ
شحطَ الحيُّ من سعادَ ومنّا رُسُلٌ بيننا من الأحلام

وقال البحتريّ [2] :

إذا أرسلتْ طيفاً يذكّرني الهوى رددتُ إليها بالنجاح رسولَها

وقال المرتضى [3] :

وزورٍ زارني والليلُ داجٍ [وقد ملأ الكرى منَّا العيونا]
يريني أنه ثاني وسادي مضاجعةً وَزُورٌ ما يرينا
نعمتُ بباطلٍ ويودُّ قلبي وداداً لو يكونُ لنا يقينا

وقال [3] :

حللتِ بنا والليلُ مُرخٍ سُدُولَهُ فلألاً وضوءُ الصبحِ في العينِ مُشْرِقُ

---

١ ل : ١٣٩ ـ ١٤٠
٢ ديوان البحتري : ١٧٩٧
٣ ل : ١٥٣ ؛ ن ٣ : ٣٠٥والشريشي ٢ : ٢٣٠
٤ ل : ١٦٢ ؛ ن ٢ : ٣٠٦

فأحبِبْ به من طارقٍ بعد هدأةٍ على نشوةِ الأحلام لو كان يصدق
ولما تفرَّقنا ولم يكُ بيننا هنالك لولا النومُ إلاَّ التفرّق
تطايرَ وصلٌ غرَّنا فكأنّه رداءٌ سحيقٌ أو مُلاءٌ مُشَبْرَقُ

وقال[1] :

ألمَّ خيالُ من أُمَيْمةَ طارقُ ومن دونِ مَسْرَاهُ اللِّوى فالأبارقُ
ألمَّ بنا لم نَدْرِ كيف لمامُهُ وقد طال ما عاقَتْهُ عنَّا العوائق
فلله ما أَوْلَى الكرى من دُجُنّةٍ جَفَتْهَا الدراري طُلَّعاً والبوارق
نعمنا به حتى كأنَّ لقاءَنا وما هو إلا غايةُ الزُّورِ، صادق
فما زارني في الليلِ إلاّ وَصُبْحُنَا تُسَلُّ علينا منهُ بيضٌ ذوالق
وكيف ارتضيتَ الليلَ والليلُ ملبسٌ تضلُّ به عنا وعنكَ الحقائق
تُخَيِّلُ لي قُرْباً وأنتَ بنجوةٍ وتوهمني وَصْلاً وأنْتَ مُفَارِقُ

وقال[2] :

ضنَّ عني بالنَّزْرِ إذْ أنا يقظا نُ وأعطى كثيرَهُ في منامي
والتقينا كما اشتهينا ولا عَيْـ ـبَ سوى أنَّ ذاكَ في الأحلام
وإذا كانتِ الملاقاةُ ليلاً فالليالي خيرٌ من الأيام

وقال[3] :

وسَّدني كفَّهُ وعانقني ونحنُ في سَكْرةٍ من الوَسَنِ
وباتَ عنديَ إلى الصباح وما شاعَ التقاءٌ لنا ولم يبن

---

[1] ل : ١٧٠ ؛ ن ٢ : ٣٠٧
[2] ن ٣ : ٢٧٠ ؛ ل : ١٧٤ ـ ١٧٥ وابن خلكان ٣ : ٣١٤
[3] ن ٣ : ٣٤٢ ؛ ل : ١٧٥

خادعني ثم عدَّ خَدْعَتَهُ بمقلتي مِنَّةً من المنن
فان تكنْ زورةً مُهَوَّمَةً فقد أمِنَّا به من الظِّنَنِ
وإنْ يكنْ باطلاً فكم باطلٍ عاشَ به ميّتُ من الحزن

[وقال] [1] :

يا خليليَّ من ذؤابةِ قيسٍ للتصابي رياضةُ الأخلاقِ /[١٣٣]
غنّياني بذكرهمْ تطرباني واسقياني دمعي بكأسٍ دِهَاق
وخذا النومَ من جفوني فاني قد خلعتُ الكرى على العشاق

فصل في ذكر الوزير أبي القاسم

الحسين بن علي المغربي

واجتلاب سابق أشعاره ، ورائق أخباره [2]

كان أبو القاسم نجماً مطالعُهُ الدُّوَلُ ، وبحراً عُبابه القولُ والعمل ، وروضةً تقوتُ القلوبَ نفحاتُها ، وتقيدُ الأبصارَ صفاتُها وموصوفاتُها ، أمّا العلماءُ فعيالُ عليه ، وأمّا العظماءُ فَلُعَبُ في يديه ، وأما الأقلامُ فبعضُ شِيَعِهِ وأنصارِهِ ، وأما الأقاليمُ فبينَ إيرادِهِ وإصداره ، وأما مكانُهُ من العلم الحديثِ والقديم ، وسَبْقُهُ إلى غايتي المنثورِ والمنظوم ، وإقدامُهُ على المهالِكِ ، وتلاعبُهُ بالأملاكِ والممالك ، فأشهر من الصباح ، وأسْيَرُ من الرّياح .

---

١ ن ٢ : ٣٤٢ وابن خلكان ٣ : ٣١٤

٢ وردت ترجمة الوزير المغربي (٣٧٠ ـ ٤١٨) في تتمة اليتيمة ١ : ٢٤ ودمية القصر ١ : ٩٤ والمنتظم ٨ : ٣٢ وتهذيب ابن عساكر ٤ : ٣٠٩ ومعجم الأدباء ١٠ : ٧٩ وتاريخ ابن الأثير ٩ : ٣٦٢ وابن خلكان ٢ : ١٧٢ ـ ١٧٧ وبغية الطلب ٥ : ١٤ ـ ٣٠ واعتاب الكتاب : ٢٠٦ ورجال النجاشي : ٥٥ والاشارة الى من نال الوزارة : ٤٧ ولسان الميزان ٢ : ٣٠١ ، وراجع في أخباره أيضا ذيل ابن القلانسي : ٦١ ـ ٦٤ وصفحات متفرقة من اتعاظ الحنفا (جـ :٢) والدرة المضية ٦ : ٣٠٩ ـ ٣١٢ والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٦٦ ؛ وقد ذكره ابن القارح في رسالته وحكى شيئاً من أخباره معه (انظر رسالة الغفران : ٥١ ـ ٥٨) وقد علّق ابن العديم على ذلك بقوله : وكان بين أبي القاسم ابن المغربي وبين علي بن منصور (ابن القارح) ما يوجب ألا يقبل قوله فيه .. (بغية الطلب ٥ : ١٩)

ومن أوابدِ أخبارِهِ ، وخالدِ آثاره ، كتابُهُ المُتَرْجَمُ بِـ « المنخَّل » في اختصاره « إصلاح المنطق » لابن السكيت [1] ، فانه غايةٌ لا يتعاطاها إلا من بَهَر عِتْقُه ، واشتهر سَبْقُهُ ، وطريقةٌ لا يتوخَّاها إلا مَنْ رسخت في العلم قدمه ، وترامتْ به إلى معالي الأمورِ هممه ؛ ومما يعجب من أمره ، ويرفعُ الصوتَ بجلالة قدره[2]: « أنـه استظهر القرآن وعدةً منَ الكتبِ المجرَّدةِ في اللغة ، ونحوَ خمسةَ عشرَ ألف بيتٍ من مختار الشعر [القديم ، ونَظَم الشعرَ] وتصرَّف في النثر ، وبلغ من الخطّ إلى ما يقصّر [3] عنه نظراؤُهُ ، ومن علم الحسابِ وجميع الأدواتِ [4] إلى ما يستقلُّ بدونه الكاتبُ ، وذلك كله قبل استكماله أربعَ عَشْرَةَ سنـةً ، واختصر ذلك الكتـابَ فتناهـى في اختصاره ، وأوفى على جميع فوائده ، حتى لم يَفُتْهُ شيءٌ من ألفاظه ، وغيَّرَ من أبوابه ما أوجبَ التدبيرُ تغييره للحاجة الى الاختصار ، وجمعَ كلَّ نوع [إلى] ما يليقُ به » .

ولما أوقع الحاكم بأبيه وأهل بيته ونَذَر دَمَهُ ، خرجَ من مصرَ معتقداً لعلوّ همَّته ، ناشداً لضائع ذِمّتِهِ ، فأتى مكةَ فحملَ أبا الفتوح [5] على القيام بها ، وقرَّب له ما كان يستبعدُ من طلبها ، وجسرَّه على أَخْذِ ما كان بها من محاريب الفضة والذهب ،

[1] بعث ابن المغربي بالمختصر إلى أبي العلاء المعري فكتب اليه الرسالة الاغريضية يثني على اختصاره وينبه على فضله ، ومما قاله ، « ووقفت على مختصر إصلاح المنطق الذي كاد بسمات ألباب ، يغني عن سائر الكتاب ، فعجبت كل العجب من تقييد الاجمال ، بطلاء الاحمال ، ... شرفاً له تصنيفاً شفى الريب ، وكفى من ابن قُرَيْب ، ودلَّ على جوامع اللغة بالايماءِ ، كما دلَّ المضمر على ما طال من الأسماء..» (رسائل أبي العلاء : ١٨ وصبح الاعشى ١٤ : ١٨٢) ولأبي العلاء رسالة أخرى إلى ابن المغربي تعرف بالمنيح (انظر الرسائل ص : ٣)

[2] ما بين اقواس صغيرة يكاد ان يكون نصَّ ما كتبه والد الوزير المغربي في ابنه ، على ظهر مختصر اصلاح المنطق ، ونقله ابن العديم في بغية الطلب ٥ : ١٧ وما بين معقفين زيادة منه، وما جرى إصلاحه فانما تمَّ اعتماداً عليه ، وكذلك هو عند ابن خلكان .

[3] في الأصل : نقص

[4] ابن العديم : ومن حساب المولد والجبر والمقابلة وجميع الأدوات ..

[5] هو الحسن بن جعفر العلوي، وقد جوز له الوزير المغربي أخذ مال الكعبة وضربه دراهم، وتلقب بالراشد بالله ، وإلى بعض هذا يشير ابن القارح بقوله : « وبغضي له ـ شهد الله ـ حياً وميتاً ؛أوجبه أخذه محاريب الكعبة ، الذهب والفضة وضربها دنانير ودراهم وسماها الكعبية .. » (رسالة الغفران : ٥٨ ، وانظر بغية الطلب ٥ : ٢٤)

فضـربها دنانير ، وفرَّقها على من تَبِعَهُ من ذُؤْبانِ العرب ، ثم سار يدعو إليه ، وَيَسْفِرُ بينه وبين من عسى أن يأبَى عليه ، حتى دخل الرملةَ وصعدَ منبرها ، فتلا من غير استفتاحٍ لتحميد ولا صلاةٍ على النبيِّ عليه السلام قولَ الله تعالى : ﴿إنَّ فرعونَ علا في الأرضِ وجَعَـلَ أَهْلَهَـا شِيَعَـا﴾ وأومـأ بيده إلى مصر ، يعنـي الحـاكم ﴿يَسْتَضْعِفُ طائفَةً منهم يُذَبِّحُ أبناءَهُمْ وَيَسْتَحيي نِسَاءَهم إنَّهَ كانَ منَ المفسدين . ونريدُ أنْ نَمُنَّ على الذين اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ﴾ (القصص :٤) ثم عاد إلى أبي الفتوحِ المذكور ، وهزَّه لذلك ، فألفى سَيْفَهُ كَهَاما ، وسحابَهُ جَهَاما ، فخرج إلى العراق ، ودخل الكوفةَ متقرباً لسلطانها، ثم خافه وزيرُ قرواش [1] فتقرَّبَ إليه بالمال ، وأشارَ عليه يالترحال ، فصار إلى ميّافارقيـن ، وأميرُهَا يومئذٍ نصرُ الدولة أحمد بن مروان الكرديّ ، فتقلَّد وزارتَهُ بعدَ طولِ مقام ، وبُعْدِ مرام ، وخلع المرقّعةَ والصوف ، ولبس المسَّكَ والشّفوفَ ، فهتك سِتْرَ الحياء ، وخلعَ رِبْقَةَ الرياء ، فصار كما قال في نفسه ، وقد ابتاع غلاماً تركياً كان يهواه ، قبل أن يبيعه منه مولاه [2] :

تبـدَّلَ من مُـرَقَّعـةٍ ونُسْـكٍ … بـأنـواع المـسَّـكِ والشفـوفِ
وعـنّ لـه غـزالٌ ليـس يحوي … هـواه ولا رضـاه بلبسِ صـوف
فعـاد أشَـدَّ مـا كـان انهتاكـاً … كـذاك الـدهـرُ مختلفُ الصـروف

ثم روسل بعدُ بوزارةِ الموصل [3] ، فسار إليها ، وتقلَّد لحينهِ وزارةَ المستولي عليها ، فملكَ زِمامَها ، وصرَّفَ أيامَها ، ودوّخَ معالمها وأعلامَها ، وأتى على ما كان بها من رَمَق ، وجرى من العَسْفِ بأعاظم أهلها من أَبْعَدِ طَلَق ؛ ثم راسَلَتْهُ وزارةُ بغداد وأميرُهَا يومئذٍ أبو علي بن سلطان الدولة أبي شجاع بن بهاء الدولة بن عضد

١ هو المعروف بابن ابي الوزير الكافي ، وكان وزيراً ومدبراً لدولة قرواش بن المقلد ، ويقول ابن العديم ان هذا الوزير قدم إلى ابن المغربي مالا كثيراً كي يرحل عن الموصل فسار عنها الى ديار بكر (بغية الطلب ٥ : ٢٦)
٢ الأبيات في بغية الطلب ٥ : ٢٦ واعتاب الكتاب : ٢٠٦ والشريشي ٥ : ٣٠٥ وتاريخ المسبحي : ٢٣٤ ب
٣ كان ذلك بعد وفاة ابن أبي الوزير الكافي .

الدولة بن ركن الدولة أبي عليّ ،فتبحبحَ ذروتها ، واقتعد لِوَقْتِهِ صَهْوَتها ، فانتظمتْ له الأيام ، وَحُمِدَ على يديه النقضُ والإبرام ، وبلغ الحالَ التي تَصْغُرُ عنها النِّعَمُ ، وتقصرُ دونهَا الهمم . ثم إن أبا عليّ أوقع بمن كان يتهمه من الأتراك ، وكان قد نهاه الوزير ، وأشار عليه بما يقتضي التدبير ، فأبى إلاَّ ركوباً لرأسه ، وإدلالاً بنفسه ، فاضطرب العسكرُ اضطراباً اضطرهما جميعاً الى الهرب ، وأفضى بهما إلى استجارة أمير العرب .

حدَّثَ نحريرُ غلامُهُ قال : عهدي بالوزير وهو خارجٌ ، وقد لبس ثياباً رثّةً ، وعلى وجههِ منديلٌ قد لفَّه فيه لئلا يمتازَ/[١٣٤] من جملةِ العامّةِ ، وقد أقبل عليّ واستقبلني في الدهليز ينشدني لنفسه في الحال [١] :

تَمـرَّسـتْ منّي العـلا بامرىءٍ [٢] قـد علـقَ المجـدُ بأمراسِـهِ
يسـتنجـد النجـدةَ مـن رأيـهِ ويسـتقـلُّ الـكُثْـرَ مـن باسـه [٣]
أروعُ لا يـرجـع [٤] عـن تيهِـهِ والسـيفُ مسـلـولٌ على راسـه

وقد قيل إن إخراجَهُ المَلِكَ معه إنما كانتْ حاجةً في نفسه قضاها ، وخطةً من مكره أَلْزَمَهُ إيّاها ، إبقاءً على جلالةِ المقدار ، وأَنَفَةً من الانفرادِ بعيبِ الفرار ، ثم إن أبا عليّ ثاب سلطانُهُ ، وراسله شِيَعُهُ بالحضرةِ وأعوانُهُ ، فعاد إليها ، وأَقام أبو القاسم بالموصل وقد كثر أتباعه ، وملأ البلادَ [عيـانـه] وسماعه ، فأقام بها يسيراً ، واستشعرَ من صاحبه تقصيراً ، فاستأذنَهُ في الرجوع إلى ميافارقين ، فحلَّها ، وتلقَّاه نصرُ الدولةِ بالاصطناع ، وأَقْطَعَهُ صامتَ الأموالِ وفاشي الضياع ، ثم رُوسِلَ ثانيةً

---

١ الأبيات في دمية القصر ١ : ٩٦ ومعاهد التنصيص ٣ : ٣٣ وإعتاب الكتاب : ٢٠٧
٢ دمية : قارعت الأيام مني امرءاً
٣ روايته في دمية القصر :
يستنـزل الـرزق باقدامـه ويستـدر العزَّ من باسـه
٤ دمية : لا ينحط

من بغدادَ للوزارة ، واستأذن نصرَ الدولة ، فخلى بينه وبين مراده ، ولم يجدْ بُدّاً من إسعاده، ووفاءً بانجازِ ميعاده.فلما برزتْ قبابُهُ ، وكادتْ تستقلّ ركابه ، خُوِّفَ نصرُ الدولة عاقبةَ مكره ، وأُشيرَ عليه بالرأيِ في أمره ، فسقاهُ شربةً كانت آخرَ زاده ، ووفاءً بانجاز ميعاده ، وتقدَّم حين أحسَّ [بالموت] بحملِهِ الى الكوفةِ ليدفنَ في حجرةٍ أعدَّها هنالك بازاء قبرِ أمير المؤمنين علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، فَسِيرَ بتابوته مسيرةَ شهر ، بين أيدي الحتوف ، وتحت أظلال السيوفِ ، أكرومةٌ ختم بها مَجْدَهُ ، وأحدوثةٌ أبقاها في الناس خالدةً بعده .

وقد أجريتُ من نثره الرائقةِ فصوله ، ونظمهِ المتقنـةِ فروعُهُ وأصولُهُ ، ما يعطِّر الزهرَ شذاه ، ويروقُ النجومَ الزهرَ مرآه .

فصـل من رسـائله

لمـا دخل البطيحةَ وبها أبو القاسم هبةُ اللهِ بن عيسى [1] [وزيـر] مهذّبِ الدولة ، وكان من أفاضل أهلِ وقتِهِ ، فدخل الى ابنِ المغربيّ رجلٌ يُعْرَفُ بسليمانَ ابن الربيع ، وسلَّم اليه قصيدةً قد بُنِيَتْ على السؤالِ عن ألفاظٍ من اللغة على جهةِ الامتحانِ لمعرفته ، فلما وقف عليها امتعضَ في الحال ، وأحفظه ما لقيَ من التعدّي والسؤال ، ونَسَبَ ذلك إلى فعل أبي القاسم وزيرِ مهذّب الدولة البطيحيّ ، فكتب عَقِبَ الوقوف [2] على ذلك لوقته جواباً أثبتُّ بعضَ فصوله ، لطولـه ، بعـدَ هذه الأبياتِ المذكورة :

يـــا أفضـــلَ الأدبـاء قـــو لاً لا تعـارضُــــهُ الشكـــوكْ
لا العلـــمُ نـــاءٍ مـــن حجـا كَ إذا نطقـــتَ ولا فَـــرُوكْ

---

1 ذكر ابن الأثير (٩ : ٢٥٢) أنه توفي سنة ٤٠٦ وقال فيه : « كان من الكتاب المفلقين ، ومكاتباته مشهورة ، وكان ممدحاً ، وممن مدحه ابن الحجاج » .

2 ص : عقب الدولة .

عرضتْ مسائلُ أنت للفتوى بمشكلها دَرُوكْ
ما الحيُّ والحيّوتُ أم ما جِلْبَحُ نِضْوٌ بَرُوكْ
أمْ ما ترى في بِرْقِعٍ رقشاءَ مجهدها حبيك
أم ما الصَّرَنْقَحُ والزَّريرُ وما الملمّعةُ النَّهوك
ولك الدرايةُ والبصيرةُ في مداحيها السّهوك
وأَبِنْ لنا ما خمطُ أبداً بأمْرِغةٍ معيك
أو ما اعتنانةُ فَوْهَدٍ فيه الملامةُ لا تحيك
أم ، ما ترفُلُ [هَبْرَجٍ] يرتبّ مِرْسَنَهُ هلوك
ولربَّ ألفاظٍ أتتك وفي مطاويها حلوك
فارفقْ بنشرك طيَّها وانظر بذوقك ما تلوك
هذا وقد لَذِمَتْ فُؤادي خِرْمِلٌ هِرْطٌ ضحوك
دعكنَّة نظرنَّةٌ في خَيْسٍ غانظها شكوك
تغدو وخرفعها المذيَّلُ في طوائفِهِ سُدُوك
وأراكَ ما لك مشبهٌ في ما علمتَ ولا شريك
حقاً لقد حُزْتَ العلوَّ مَ حيازةَ العلم الضريك

فأجابه ابنُ المغربيّ برقْعةٍ قال فيها : وقفتُ على ما ذكرتَ أنَّ بعضَ أهلِ الأدب كلَّفكَ المسألةَ عن شعرٍ وجدتَهُ ، لا أحبُّ أن أقولَ في صناعته شيئاً ، مشتملاً على ألفاظٍ من حوشيّ اللغةِ لا يَتَشَاغلُ بمثلها أهلُ التحصيل ، ولا يتوفَّرُ على تأمّلها إلاّ كلُّ ذي تأمُّلٍ عليل ، لخروجها عما ينفعُ في الأديان ، ويعترضُ في القرآن ، ولمباينتها ما يجري في المذاكرة ، وتُستخدم فيه المحاورة ، وزاد في عجبي منها صَدَرُهَا عن البطيحةِ وفيها الأستاذ [1] الفاضلُ هبةُ الله بحرُ الأدبِ الذي عَذُبَتْ مواردُهُ

[1] ص : من الأستاذ ، ولعلها « مثل الأستاذ »

ومصادرُهُ ، وريُّ العقول الظماء ، وطبُّ الجهلِ المستغمر الداء [1] ، والبابُ الذي يفتحُ عن الدهر تجربةً وعلماً ، والمرآةُ التي تُتَصَفَّحُ بها أوجُهُ الأيام/ [١٣٥] إحاطةً وفهماً .

وفي فصل : فان كانَ الغرضُ في هذه الأَبياتِ الخرابِ ، المقفرةِ من الصواب ، طلبَ الفائدةِ ، فقد كان يجبُ أن يُناخَ عليه بِمُقْفَلها ، وَيُقْصَدَ إليه بِمُعْضِلها ، فعندَهُ مفتاحُ كلِّ مسألةٍ مُقْفَلة ، ومصباحُ كلِّ داجيةٍ مُشْكِلَة ؛ بل لستُ أَشُـكّ أنَّ هذا السائلَ لو جاوره صامتاً عن استخباره ، وعكفَ على ذلك الجَنَابِ كأنَّما لجأ في طيِّ إضماره ، لأَعداهُ رقةُ نسيمِ أرضه ، وهذَّب[2] خاطِرَهُ التقاطُ لفظه ، حتـى يغنيَهُ الجوارُ عن الحِـوار ، والاقتـرابُ عن رَجْـع الجـواب ؛ وان كان قصـدَ الامتحـانَ للمسؤول ، وتعرَّض لهذا الموقفِ الزَّحُول ، فذلك أعجبُ : كيف لم يتأدَّبْ بآدابه الصالحة ، ويَعْتشي إلى هدايتِهِ الواضحة .

وفي فصل : وكيف لم يعلمْ هذا العِرِّيضُ المكلَّف ـ بما أُعْطِيَ من سعـادة مكاثَرَتِهِ ، وسيق [3] إليه من بَرَكة صحبته ـ أن هذا التعريض كما قال المخزوميّ لعبد الملك بن مروان وقد [4] لقيه في طريق الحجـاز : بئسـتْ تحيةُ الغـريبِ من القاطنين ، ولؤُمَتْ هديّةُ الوافدِ من المقيمين ، وقد كان حقُّ الغريب بينكم أن يكثرَ قليلُهُ ، وَيُسَدَّ ذريعه ، وَيُعارَ من معالي الصفاتِ ما يُؤْنِسُ غُرْبَتَه ، ويصدِّقُ مخيلَتَهُ . وعلى أنّه لو كان قد احتبى للجدال ، وركبَ للنزال ، لما كان في عزوبِ [5] كلماتٍ من حوشيِّ اللغةِ عن ذكره ، ما يدلُّ على قِصرَ باعه ، وقلَّةِ اطلاعه ، ويا عجبا للفراغ

١ ص : المستعمي [illegible] .
٢ ص : وهذبـت .
٣ ص : وساق .
٤ ص : ولقد .
٥ ص : غـروب .

كيف يسوّغ لهذا المغترّ أن يجاريَ بخلوّ ذَرْعِهِ تَقَسُّمَ أفكاري ، وكيف أنساهُ اجتماعُ شمله بُعْدَ دياري ، وكيف أذهلَهُ حضورُ أحبّته عن مغيبِ أفلاذِ كبدي ، وكيف طرفت نواظِرَهُ سكرةُ الحظِّ عن تصوّر ما يُجِنُّ خلدي، وكيف لم يدر ما ليَ من ألحاظٍ مُقَسَّمة ، وظنونٍ مُرَجَّمَة ، وقد تكلَّفْتُ الإجابةَ لما تَضَمَّنَتْهُ الأبياتُ انقياداً لمرادك ، ومقتصرَ الرأي على إسعادك ، أجرُّ أقلامي جرّاً وهنَّ نواكل ، وأنبّهُ قرائحي وهنَّ في غَمَرات الهمومِ ذواهل :

قال السائل : « إن المسؤولَ دَرُوكٌ لتلك الفتوى ، ومستحقٌ بها للرتبة العليا » وَدَرُوكٌ لا يجوز هنا لأنَّ فَعولاً لا يكونُ من أفعل ، ولو جاز ذلك لجاز « حَسُون » من « أحسن » و « جَمُول » من « أجمل » . وما نحبُّ استيفاءَ القولِ في هذا الزلل ، ولا نستفتحُ كلامنا بالمناقشة في السَّهْوِ والخَطَل ، ولعلَّ القائلَ أُوهم حَمْلاً على قراءةِ حَفْص ﴿ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ منَ النّارِ ﴾ (النســاء : ١٤٥) فظن أن الدَّرْك بوزنِ فَعْل ، وأنّ فَعْلاً مصدرُ فَعَلَ يفعل ، ولم يجعله من الدَّرَك ، لأن الفتح عندهم لا يخفف ، لا يقولون في جَمَل « جَمْل » ، وذهب عنه أن يكون اسماً مبنياً مثله وان لم يكن مخففاً منه كما قالوا : « دِرَكَةٌ وَدِرْكَةٌ في حَلْقَةِ الوتر التـي تقـع في فُرْضَـة[1] القوسِ ، فخففوا وحرّكوا ، وعلى أنهما لو كانا مصدرين لجاز أنْ يبنيا على الشذوذ ولا يحمل عليهما ما يُبْنَى من الفعل ، لأن الشذوذَ ليس بأصْلٍ يقاس عليه . ولعله اغترَّ بقولهم : « دَرَّاك » ـ بالشدِّ ـ وهو شاذّ لأنهم قد [بنــوا] أفعل من فعَّل . وهـو قليل ، قالوا فطَّرته فأفطر ، وبشَّرْته فأبْشرَ ، فجاز على هذا درّكتـه فأَدْرَكَ ، قال سيبويه : وهذا النحو قليل في كلامهم . ولعله ذهب إلى قولهـم : « دَرَاكِ » مثـل « نَزَالِ » فظنَّ أنه يقال منه « دَرَكَ » كما يقال من « مَنَاع » و « نَزَال » : مَنَعَ ونَزَلَ . وذهب عنه [أنــه] قد جاء الرباعي في هذا الباب ، قالوا : قرقار وعرعار ، في

١ ص : فرض .

٢ ص : يفعــل

معنى قرقر وعرعر. فأما الفرق بين الرباعي والثلاثي، فسيبويه يرى إجازة « فَعالِ » في موضعِ فعلِ الأمرِ الثلاثيّ كله، ويمنعه في الرباعيّ إلا مسموعاً، وقال غيره من النحويين: بل هما ممنوعان إلا مسموعين، واعتمد سيبويه في الفرق على كثرةِ الثلاثيّ، وقلّةِ ما جاء في الرباعي. أو لعله أصغى إلى قول الآخر [1] :

إن يكشِف الله قناعَ الشكِّ فهو أحقُّ منزلٍ بِدَرْكِ

فذهب إلى أن « دَرْكاً » مصدرٌ، ولم يعتقدْ أنه كما قرأ حَفْصٌ بالاسكان. أو لعله عَلِقَ سمعه [قول] العتبي :

اذا قلت أوفى أدركتْهُ دروكةٌ فيا موزعَ الخيراتِ بالعُذْرِ أَقْصرِ

وما أعرفُ له حجةً أقوى منه. أو لعله أراد بقوله: دروك من الدَّرَك مثل: لغوب، وهي لغة تكلَّمتْ بها العرب.

ثم بدأ السائل فسأل عن « الحيّ »، ولم أَقِفْ على صحَّة سؤاله لأني وجدتُ الأبياتَ مكتوبةً بخطٍّ عليل، وإن كان سأل عن « الحِيّ » ـ بكسر الحاء ـ فقد أنشدَ أهلُ العلم قولَ العجاج [2] :

وقد نرى إذ الحياةُ حِيُّ واذ زمانُ الناسِ دَغْفَلِيُّ

فقال الحِيُّ من الحياة، والحُيُّ/ [١٣٦] جمعُ حيّ. وأما كونُهُ على معنى الحياةِ فوزنه على فِعْل باختلاف.

١ ورد في اللسان (درك) :

بظفر من حاجتي ودرك فذا أحق منزل بترك

وفي التاج :

إن يكشف الله قناع الشك بظفر من حاجتي ودرك

فذا أحق منزل [بترك]

٢ ديوان العجاج: ٤٨٦ واللسان والتاج (دغفل) ؛ والدغفلي من العيش: المخصب الواسع.

قال ابن بسام : ومدَّ أبو القاسم في هذا الجواب أطنابَ الإطناب ثم قال : « والحيّوت » الحية وَزْنُهُ فَعْلوت . والتاءُ فيه زائدة ، وكثيراً ما تُزَادُ خامسةً مثل عفريت ، وإنما هو عفريّ .

و« الجلبَحُ » العجوزُ الكبيرةُ ، وأنشدوا : « إنّي لأَقلي الجِلْبَحَ العجوزا »
و« بِرْقِعُ » : السماءُ الدنيا ، قال أمية بن أبي الصلت [1] :

وكأنَّ بِرْقِعَ والملائكُ حولها سَدِرٌ تَوَاكَلَهُ قوائمُ أربعُ [2]

و« الصَّرَنْقَح » : الشديدُ الخالصُ ولا يكونُ فَعَنْلَل إلا وصفاً لا اسماً ، قال جران العود [3] :

ومنهنّ غلٌّ مُقْمِلٌ لا يفكُّهُ من القومِ إلا الشَّحْشَحَانُ الصرَّنقحُ

و« الزِّرِيرُ» الذكيُّ والمتحدّر [4] ، وكان شيخنا أبو أسامة [5] يخالفُ جميعَ اللغويين فيه ويقول : هو الزِرّير ، ومنه اشتق اسم « زُرارَةَ » ، وقولُ أبي أسامة أصحّ .

و« الملمَّعة » الفلاةُ التي يَلْمَعُ فيها الآل ، وفي مَثَلٍ : « **أَكْذَبُ من يَلْمَع** [6] » وهو السراب ، ومنه الألمعيُّ ، كأنه يلمعُ العواقب بدقة فطنته ، وأما

[1] ديوان أمية : ٣٥٨ واللسان (سدر) وتجيء قافية البيت أحياناً « أجرد » و« أجرب » وقال ابن بري : صوابه « أجرد » والقصيدة دالية ، والجرد : الملاسة .
[2] السدر : البحر ، ولم يسمع به إلا في شعر أمية ، تواكلته : تركته ، والقوائم هنا : الرياح .
[3] ديوان جران العود : ٨
[4] في اللسان والتاج أن الزرير هو الذكي الخفيف .
[5] هو جنادة بن محمد بن الحسين الأزدي الهروي (ـ ٣٩٩) كان مكثراً من حفظ اللغة ، أخذ عن الازهري وغيره ، وقتله الحاكم العبيدي (انظر ابن خلكان ١ : ٣٧٢ ومعجم الادباء ٧ : ٢٠٩ وبغية الوعاة ٢ : ٤٨٨)
[6] انظر المثل في الدرة الفاخرة : ٣٦٢ (وفيها تخريجه) .

اللوذعيّ فهو الذي يتلذَّعُ من شدة ذكائه . ويقال ألمعتِ الوحشيّةُ وغيرها اذا بان لِضَرْعها سِقَالٌ وبريقٌ باللبن ، قال الأعشى [1] :

مُلْمِعٌ لاعَةُ الفؤادِ إلى جحشٍ فَلاَهُ عنها فبئسَ الفالي [2]

ويقال إن « لاعةَ » فَعْلة ومذكرها لاعُ ، وفي الحديث : هاعُ لاعُ ، وقيل بل لاعة بوزن فاعلة ، كان الأصل « لاعية » من اللعو ، وهو أشدُّ الحرص ، وبين الخليل وأهلِ النحو فيه خلاف يشقّ إحصاؤه .

و « النَّهوك » و « النَّهيك » و « النهاكة » معروفة .

و « البصيرةُ » الترسُ ، قال الأسعر الجعفي [3] وليس بالأسعر [3] المازنيّ :

راحوا بصائرُهُمْ على أكتافِهِمْ وبصيرتي يعدو بها عَتَدٌ وَأَى [4]

والبصيرة : الدم ؛ [والبصيرةُ : الدية] ومعنى البيتِ على هذا أنهم أخذوا الدياتِ ولم آخذْ ، فركبتُ يعدو بي فرسي لطلبِ الثأرِ ، ويكونُ هذا مشبهاً لقولهم :

.... [5] ورحتُ أجرُّ ثوبَيْ أرجوانِ

---

١ بيت الأعشى في اللسان والتاج (لوع) وديوانه : ٨

٢ قال الأصمعي : الملمع التي قد استبان حملها في ضرعها فأشرق ضرعها باللبن ؛ وقال أبو عبيدة : ملمع : نتوج مقرب ، لاعة الفؤاد اراد لائعة الفؤاد أي مستخفة من الحزن ، ورجل هاع لاع وهائع لائع مشتاق إلى الشيء . والفالي : الطارد .

٣ في ص : الأعسر ؛ والأسعر الجعفي ـ ضبطه الآمدي بالسين المهملة ـ هو مرثد بن أبي حمران ، وأورد له بيتين من قصيدته التي منها هذا البيت التالي وهي قصيدة اصمعية (الأصمعيات : ١٥٦) وانظر اللسان (عتد . وأي) والمعاني الكبير : ١٠١٣ والوحشيات رقم : ٥٧

٤ العتد : الفرس الحاضر المعدّ للركوب ؛ الوأى : السريع المشدّد الخلق ؛ وقال ابن قتيبة في شرح البيت ، البصيرة ، الدفعة من الدم أي دماؤهم قد خرجت فصارت على اكتافهم وبصيرتي في جوفي يعدو بها فرسي ، يريد أنهم جرحوا ، ويقال بل أراد أن الذي طلبوه من الذحول على اكتافهم لم يدركوه بعد ، فهو ثقل عليهم ، وبصيرتي أي ذحلى قد أدركت به .

٥ لم أستطع قراءة هذا الشطر ، وصورته في ص : عدا دل داء هن حجة .

كلانــا اختــار فانظــرْ كيفَ تَبْقَى أحــاديثُ الرجــالِ على الزمانِ

والبصيرة في هذا الموضع : الحق .

و « المداحي » مُفاعِلُ من الدَّحْوِ وهو البَسْط ، والدَّحْوُ أيضاً النكاح .

و « السَّهوك » من السَّهْكِ وهو السَّحْقُ ، ويقال : ريح سَيْهوكٌ وسَيهْوجٌ ، اذا كانت شديدةَ المرورِ والهبوب .

و « الخمطط »[1] هو الِكُحْكُحُ ، وهو الشيخُ الكبير .

و « المَرْغُ » الريقُ ، يقال أحمق ما يجافي مَرْغَهُ ، أي ما يمسك ريقه ، والمرغ : التراب ، في غير هذا .

و « مَعِيك » فعيلٌ بمعنى مفعول من المَعْكِ ، وهو كالكنى .

وسأل عن الفَوْهَدِ ، والفَوْهَدُ والثَّوْهَدُ : الغلامُ الممتلىء شباباً ، وأنشدوا[2] :

تحبُّ منّــا مُطْرَهِفّــاً فَوْهَــدا عِجْــزَةَ شيخــينِ غلامــاً أمردا

ينشــد بالثــاء والفاء .

و « القِلْفِعُ »[3] الطينُ الذي يتقلَّعُ عن الكمأة ، وفيها خلاف .

و « الهَبْرَجُ » من صفة بقر الوحش .

و « يرتبُّ » يفتعل ، من ربَّ الأمرَ ، أصلحه .

و « المِرْسَن » موضع الرسن .

١ لم أجد هذه اللفظة وأقرب الصور اليها « لطلط » وهي بمعنى الكحكح .

٢ اللسان (طرهف . فهد) والمطرهف : الحسن التام ، والفوهد والثوهد والفلهد : الغلام السمين الذي قد راهق الحلم .

٣ لم ترد في الأبيات ، فلعل فيها سقطاً .

و « الهَلوكُ » الفاجرةُ لأنها تتهالك في مشيتها أي تتمايلُ وتتهادى .
و « لَذِمَ » بالمكانِ وألذم ، مثل لزم وألزم .
و « الخِزْمِلُ » المرأةُ الفاجرة ، وقيل الحمقاء ، قال مزرّد [1] :

* إلى خِزْملٍ شـــــرُّ النســاءِ الخزامــلُ *

و « الهِرْطُ » النعجةُ المسنَّةُ و[اللحم المهزول] في غير هذا ، والهَرْدُ : الشقُّ
و « دعكنّة » أصله السّمَنُ والفتوة ، وهو ما لا يُسأل عنه ، لأن كلَّ ما زيدت فيه النون في هذا الموضع يدلُّ لفظه على اشتقاقِهِ كما تدل سمعنّة ونظرنَّةٌ على السمع والنظر ، ودعكنَّة من الجلادة ، كأنه من الدعاك [2]

و « الخِيسُ » الغابة ، وفي غير هذا الموضع اللحية .

و « الغانظُ » فاعلٌ منْ الغنظ وهو الكَرْبُ ؛ قال عمر بن عبد العزيز : في الموت غنظ ليس كالغنظ وكظّ ليس كالكظّ ، وهما الكربُ .
و « الخِرْفِعُ » [3] القليلُ من كل شيء .
و « المذيّل » المكمّل .
و « الطوائفُ » الأيدي والأرجل .
و « السَّدوك » لا أُومِنُ به لأنه يقال/ [١٣٧] سدك سَدَكاً وسَدْكاً ، فان جاء فيه سدوكاً فهو شاذّ قليل ، وهو اللزوم .

قال ابن المغربي : هذا ما حَضرنا من القولِ ، ولولا أنّنا لا نودّ أن نَنْهَى عن

---

١ روايته في ديوان مزرد : ٤٨
إلى صبيةٍ مثلِ المغالي وخرملٍ ... رواء ومن شر النساء الخرامل
٢ ص : الدعـــاء .
٣ الخرفع : القطن وقيل ثمر العشر .

خُلقٍ ونأتيَ مثله [1] لسألنا مستفيدين ، نثراً لما فيه من شفاءِ البيان ، لا نظماً لما فيه من التعاطي والطغيان ، فسألناه عن اللغة ان كان عُنِيَ بها : عن العُلاَفِقِ بالعين ، فهو بالغين معروف [2] ، وعن المِصمَّةِ بكسر الميم ، فهو بفتحها مشهور ، وعن هندٍ لا تضافُ الى الأحامسِ [3] فان ذلك معروف ، وسُكْرَى بضم السين فهو بفتحها معروف . وعن الدّون بالواو فهو بالياء معروف ، وعن الفَرْنِ بالفاء فهو بالعين مذكور ، وكم في الكلام أفعلة أسماء فهو في الصفات معروف ، وما النديمُ في الناسِ فانه في الجماد معروف ، وما الشاهدُ على جوازِ أفلج بالجيم فانه بالحاء معروف .

هذا ان كانت اللغةُ عنده مهمّةً ، فان قال إنَّ النحو هو المهمُّ عنده قلنا : فما جمعٌ على أَفْعِلَةٍ أغفَلهُ سيبويه فلم يُلْحِقْهُ بكتابه أحدٌ من النحويين ، وهل ذلك الجمعُ إن كنت عارفاً به مطَّردٌ أو محمولٌ على مكانه في اللفظ ؟ وعلى أيّ شيء خفض ﴿ وقيله يا ربّ ﴾ في قراءة حَفْصٍ ، لا على ما أورده أبو علي الفارسي ، فانه لم يسلكْ مذهبه في التدقيق عليه ؟ ولمَ منعَ سيبويه من العطفِ على [عـا]ملين ، وهو في سورةِ الجاثية بنصب ﴿ آياتٍ ﴾ ، ورفعُهُ لا يتَّجِهُ إلا عطفاً على عاملين ، فان كان أخطأ الأخفشُ فمن أين زلَّ؟ وان كان أصاب فكيف تجوزُ له مخالفةُ الكتاب ؟ وهل قولُ سيبويه في النسبة إلى أُميَّةَ أمويّ ـ بفتح الهمزة ـ صوابٌ أو سهوٌ استمرَّ عليه وعلى جميع النحويين بعده ؟ ولم قيل معدي كرب ، ولم تحمل الياء في لغةِ من أضاف ولا من جعلها اسماً واحداً إلا على ما أورده النحويون ، فلهم فيه أقاويل غير متجهة . وهل مذهبهم في أنَّ سُدَى وَهُدَى مصدران صحيحٌ أم لا ؟ وهل

---

[1] فيه إشارة إلى قول الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

[2] ذكر ابن دريد في الجمهرة (٣ : ٣٩٦) الغلافق وقال انه اسم موضع ، ولم يذكر العلافق .

[3] يقال لقي هند الأحامس اذا مات أو وقع في الداهية ، وإضافتها إلى غير الأحامس مثل هند الهنود ، وهند بني سعد وما إلى ذلك ، ولكني أعتقد ان ابن المغربي يشير الى ما هو أدق من ذلك .

بيض في قولهم : حمزة بن بِيض اسم أم جَمْعٌ ، وما معناه في اللغةِ ووزنه في النحو مسموعاً لا مقيساً على ما ذكرناه نحن في هذه الرسالة ؟ ولم اختاروا « أنْ » مع عسى وكرهوه مع كاد ؟

فان قال : لست أتشاغلُ بعلوم المؤدبين ، وإنما آخذُ بمذهب الحافظ ، إذ يقول : علمُ النسبِ والخبرِ علمُ الملوكِ ، قلنا له : فمن أبو خَلْدَة[1] فان أبا جِلْدَة[2] معروف ، ومن العاصُ وما اشتقاقه[3] فان العاصَ معروف ، ومن حَبْشِيَةُ ـ مفتوح الأول مخفف ـ فانه بالتشديد وضم أوله معروف[4] ؟ ومن عمرو بن معدي كرب غير صاحب : « أمِنْ ريحانةَ الداعي السميعُ »[5] فان هذا معروف ؟ وما اسم امرىء القيس على الصّحة لا على هذا الظاهر وعلى أن في اشتقاقه كلاماً طويلاً فان هذا معروف ؟ ومن الزُّبَيْرُ غير الأسدي واليهودي فكلاهما معروفان ؟ ومن الزَّبير بفتح الزاي فانه بضمها معروف[6] ؟ ومن القائل :

وقابلة لجلجتها فرددتُها لدى الفرسِ لو نَهْنهتها قَطَرَتْ دما

أرجلٌ أو امرأة ؟ وهل صفية الباهلية قلب ام مولاة ؟ وهل المستشهد بشعره في « غريب المصنّف » أبو كعب بالباء أو التاء ، وفي أيّ زمان كان ، وأيّهما كان اسمه

---

١ الخاء غير معجمة في ص ؛ وخلدة هي بنت طلق اليامي ، حدثت عن أبيها ، وخلدة بنت العرباض بن كلاب ، روت عن عمها (الاكمال ٣ : ١٨٢)

٢ أبو جلدة بكسر الجيم مسهر بن النعمان ، وشاعر يشكري وآخر عجلي (الاكمال ٣ : ١٨٢)

٣ العاض بن ثعلبة بن سليم الدوسي ، وقال الوزير المغربي هو بلا تشديد (تبصير المنتبه : ٨٩٠) وهو من عضا يعضو الجرح أي كان بصيراً بالجراح .

٤ هنالك حبشية بن كعب بن ثور من مزينة (تبصير : ٤٨٦) وحبشية بن سلول ، وهذا الثاني يقرأ أيضاً بفتح الحاء وتخفيف الياء (تبصير : ٤٠١)

٥ صدر بيت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وعجزه : « يؤرقني واصحابي هجوع » (ديوانه : ١٣٦) ؛ وهناك رجل آخر بهذا الاسم وهو عمرو بن معد يكرب الزبيدي الاكبر جاهلي قديم (المؤتلف : ٢٣٣)

٦ الأسدي هو الزبير بن العوام ، واليهودي هو الزبير بن باطا من بني قريظة أسلم ابنه عبد الرحمن (الاكمال ٤ : ١٦٦) وهناك الزبير بن عبد الله الكلابي وقد عاش آخر خلافة عمر (الاستيعاب : ٥١٠) ؛ وأما الزبير ـ بفتح الزاي ـ فهو ابن عبد الله بن الزبير شاعر ابن شاعر (الاكمال ٤ : ١٦٥ ـ ١٦٦) .

ومن أي شيء اشتقاقه ؟ ومن النّطفُ الذي يُضْرَبُ به المثل فيقال : كنز النطف[1] ؟ ومن العكمّص ، لا أسأل عن تفسيره فانه في اللغةِ معروف[2] ؟ وكذلك ذو طلال[3] ، وما خَوْعَى فانَّ جَوْعَى معروف ، وهل أخطأ ابن دريد في هذه اللفظة أم أصاب[4] ؟ وما تقول في عدنان غير الذي ذكره محمد مولى بني هاشم فانه معروف[5] ؛ وهل يخالَفُ فيه أم لا ؟ وحبيب والد ابن حبيب العالم رجل او امرأة ، وهل هو لغيّةٍ أم لرشدة[6] ؟ ومن أجمد بالجيم فهو بالحاء كثير[7] ؟ ومن زَبْد بالباء فهو بالنون معروف[8] ؟ ومن روى عنه عليه السلام : « لا يمنع الجارُ جارَهُ أن يجعل خشَبهُ في حائطه »[9] وقال « خشبة واحدة » وقالوا كلهم : خَشَبَهُ مضافاً ؟ ومن يكثر ذكر الحضرمي في شعره من العرب[10] ؟ والنبيذ المشروب : هل كان معروفَ الاسم أم لا

---

١ هو النطف بن خيبري أحد بني سليط بن الحارث (انظر قصة احتيازه الكنز في ثمار القلوب : ١٣٩ وسرح العيون : ٥٤ ـ ٥٥)

٢ العكمص : الحادر من كل شيء أو الكثير أو الشديد الغليظ وبه كني أبو العكمص التميمي (التاج : عكمص)

٣ ص : ذو أطلال ؛ ولم يبين ما يريده هنا ، وذو طلال : ماء قريب من الربذة وقيل هو واد لغطفان (معجم البكري : ٨٩٢)

٤ جوعي المعروف هو مؤنث جائع وقال ابن دريد في الجمهرة (٢ : ١٠٥) إن جوعى موضعٌ وأثبتها البكري عنه ، وذكر أنها خوعى بالخاء المعجمة في شعر امرىء القيس (معجم البكري : ٤٠٤)

٥ محمد مولى بني هاشم هو محمد بن حبيب نفسه وهو يذكر أن في الازد عدنان بن عبد الله بن الازد وقال غيره انه عدثان (الاكمال ٦ : ١٥٣ ـ ١٥٥)

٦ حبيب اسم أمه ويقال إن اباه غير معروف .

٧ أجمد بن عجيان شهد فتح مصر (تبصير ١ : ٣)

٨ زبد بن سنان بفتح الزاي ، وزند بن الجون ابو دلامة وزند في نسب عدنان (الاكمال ٤ : ١٦٨ ـ ١٦٩)

٩ ورد الحديث في البخاري (مظالم : ٢٠ وأشربة : ٢٤) ومسلم (مساقاة : ١٣٦) وسنن أبي داود (أقضية : ٣١) وابن ماجه (أحكام : ١٥) والموطأ (أقضية : ٣٢) ومسند أحمد ١ : ٣١٣ ، ٣ : ٤٨٠ ؛ قلت : خشبة (بالافراد) هي رواية أبي ذر ورواه غيره (خشبه » بالهاء ـ بصيغة الجمع ؛ وقال عبد الغني بن سعيد : كلّ الناس يقولونه بالجمع إلا الطحاوي (وانظر مزيداً من التفصيلات في ارشاد الساري ٤ : ٢٦٦)

١٠ الحضرمي : النعلُ المصنوعة بحضرموت ، وأراها ترد كثيراً في شعر كثير « الى مرهفات الحضرمي المعقرب » (ديوانه : ٢٦٥) ، و« بأقدامهم في الحضرمي الملسّن » (ديوانه : ٢٥٢) الخ ...

عند العرب[1] ؟ ومن روى عن ظئر رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأنها قالت في شارفها : « وكانت لا تغذي أحداً » وما معناه[2] ؟ ومن تفرَّد من أهل العلم بنصر ذي الرمة وتغليط الأصمعي في قوله : إيه عن/[١٣٨] أمِّ سالم، لا على ما قاله النحويون من التعريف والتنكير ، فان ذلك معروف[3] ؟ ومن قال عن المتنبئة إنها سَجاحِ مثل قَطامِ ومن قال سجاح مثل غمام غيرُ مبني[4] ؟ ولم سميّ خليد الشاعـر : خليد عينين[5] ؟ ومن عُمَيّ التي تنسب اليها الصَكّة فيقال « صكَّهُ صكَّة عُمَيّ » ، وهل ذكر في شعر ومن ذكره[6] ؟ ومن هو الذي تنسب اليه العرب الضلال ومن ذكره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ومن كرب المنسوب اليه معدي كرب[7] ؟

١ التسمية معروفة ولكن الدلالة مختلفة ، إذ كانت اللفظة تدل على كل ما نبذ في الدباء والمزفت فاشتد ، ولكنه كان شيئاً غير الخمر ولهذا نجد القلمس يقول في الخمر :

أروي بها نفسي فتحيا بشربها ... ولا أشتهي شرب النبيذ من التمر

٢ ذلك هو حديث عبد الله بن جعفر عن حليمة السعدية وكانت قدمت المدينة تطلب ولداً ترضعه ومعها شارف ـ وهي ناقة مسنة ؛ فلما قدر لها أن تكون مرضعة للرسول درّ ثدياها ودرّت الشارف « وقام صاحبي إلى شارفي تلك فاذا بها حافل فحلب ما شرب وشربت حتى روينا » وذلك بعد أن قالت : « ما يجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذيه » (أسد الغابة ٥ : ٤٢٧)

٣ قال ذو الرمة « وقفنا فقلنا إيه عن أم سالم » ـ بكسر الهاء ـ قال الأصمعي : أخطأ ذو الرمة إنما كلام العرب إيهٍ (بالتنوين) وقال يعقوب بن السكيت أراد إيه (بالتنوين) فأجراه في الوصل مجراه في الوقف وكذلك قال ثعلب ، كما قال الزجاج انه ترك التنوين للضرورة ولكن أبا علي الفارسي انتصر لذي الرمة وقال : اما هذا فالأصمعي مخطىء فيه .. ديوان ذي الرمة : ٧٧٩ واللسان والتاج (إيه)

٤ يقول الازهري وابن دريد والجوهري وغيرهم من اللغويين انها « سجَاحِ » مثل قطام ؛ ولم أعثر على من أجاز أن تكون مثل « غمام » .

٥ قيل سمي بذلك لأنه كان يسكن أرضاً بالبحرين تعرف بعينين (الشعر والشعراء : ٣٧٣)

٦ الصكة : شدة الهاجرة . يقال : لقيته صكة عمي وصكة اعمى وهو اشد الهاجرة حرّاً ، وقال بعضهم : عمي اسم رجل من العماليق أغار على قوم في وقت الظهيرة فاجتاحهم . ويقال هو تصغير أعمى مرخماً . وأنشد ابن الأعرابي :

صكَّ بها عين الظهيرة غائراً ... عمّي ولم ينعلن إلا ظلالها

٧ معد يكرب اسم يمني يرد في النقوش ، وهو سبأي محض ، ولا تنطبق عليه التفسيرات التي يوردها لغويو عرب الشمال .

وهل أصاب المبرد في نسبة الأبيات الجيمية :

لما دعا الدعوة الأولى فأسمعني أخذتُ بُرْدَيَّ واستمررتُ أدراجي

أم أخطأ[1] ؟

فان قال إنه صاحبُ سِيَرٍ وآثارٍ وأحكام ، قلنا : أرشدك الله ، وما معنى قوله عليه السلام : « من سعادة المرء خفة عارضيه » وهو عليه السلام لم يكن خفيفَ العارضين ، لا على ما فسرَّه المبرد فانه لم يأتِ فيه بشيء[2] ؟ ومعنى قوله عليه السلام : « تسحَّروا فانَّ في السحور بركة »[3] ونحن نرى [أنه] ربما أهاض وأتخم ، وأضرَّ وأبشم ؟ ومعنى قوله عليه السلام : « اتقوا النار ولو بشقّ تمرة »[4] ولو سرق سارق [كيلجة] تمر فتصدق بنصفها كان مستحقاً للنار عند أكثر المسلمين ؟ وما معنى قوله عليه السلام : « لا يزال الأنصار يقلّون ويكثر الناس »[5] ؛ ولو شئنا لعددنا أشخاصهم اكثر مما كان في البادية والحاضرة ؟ ومعنى قوله « ان امرأ القيس حاملُ لواءِ الشعراءِ الى النار »[6] وهل يثبت الخبر أم لا ؟ ولم قال : « ان من الشعر

---

١ نسب المبرد هذه الأبيات للراعي (الكامل ١ : ٢٨١) وفي ظنه انها للراعي النميري ، وبين الآمدي الأمر في المؤتلف : ١٧٧ إذ قال انها للراعي الكلبي واسمه خليفة بن بشير بن عمير بن الأحوص .

٢ اورد المبرد هذا الحديث في الكامل (٢ : ١٢٩) وقال : ليس هذا بناقض لما جاء في إعفاء اللحى وإحفاء الشاربين .

٣ ورد الحديث في النسائي (صيام : ١٨) وابن ماجه (صيام : ٢٢) والدارمي (صيام : ٩) ومواضع متعددة من مسند أحمد ، منها ٢ : ٣٧٧ ، ٤٧٧ ، ٣ : ٣٢ ، ٩٩ (انظر معجم الفاظ الحديث)

٤ ورد في البخاري (أدب : ٣٤ ، زكاة : ١٠ ، رقاق : ٥١ ، توحيد : ٣٦) ومسلم (زكاة : ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٠) والترمذي (قيامة : ١ ، زهد : ٣٧) والنسائي (زكاة : ٦٣ ، ٦٤) وابن ماجه (مقدمة : ١٣ ، زكاة : ٢٨) والدارمي (زكاة : ٢٤) ومسند أحمد ١ : ٣٣٨ ، ٤٤٦ ، ٤ : ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣٧٧ ، ٦ : ٧٩ ، ١٣٨ .

٥ الحديث في البخاري (الجمعة : ٢٩ ومناقب : ٢٥ ومناقب الانصار : ١١)

٦ ترورده الكتب الأدبية ، انظر مثلاً الشعر والشعراء : ٦٧ وليس في الأحاديث المتعلقة بامرىء القيس ما هو قويّ مقبول منها .

لحكمة »[1] ، ثم قال عليه السلام : « أوتيت جوامع الكلم »[2] وهل تخرج الحكمة من جوامع الكلم ؟

فان قال : إنما أفنيت عمري في القرآن وعلومه ، وفي التأويل وفنونه قلنا : اذن يكون التوفيقُ دليلك ، والرشادُ سبيلك : صفْ لنا كيفَ وقعَ التحدّي بهذا المعجز ليتم بوقوعه الإعجاز ، وأخبِرْنا عن صفةِ التحدّي : هل كانت العربُ تعرفه أم لا ، أم كان شيئاً لم تجرِ عادتُها به فكان إقصارها عنه ، بل لأنه التماس ما لم تجرِ المعاملة بينهم بمثله ، ثم يُسألُ عن التحدّي هل لقي بمعارضة بان تقصيرها عنه أو لم تكن بمعارضة ، ولكن القوم عدلوا إلى السيف كما عدل المسلّمون مع تسليمهم ولم يعارضوه . ثم يسأل عن قوله تعالى ﴿لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (النساء : ٨٢) وفيه من الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ما لا يكون أشدَّ اختلافاً منه[3] ؛ ويسأل عن قوله تعالى ﴿وغرابيب سود﴾ (فاطر : ٢٧) وما معنى الزيادة في الكلام ، والغرابيبُ السودُ هي الغرابيب ، فان قال تأكيداً فقد زلَّ ، لأنّ رجحانَ بلاغةِ القرآن إنما هو إبلاغ المعنى الجليّ المستوعَبِ إلى النفس باللفظ الوجيز ، وانما يكون الاسهابُ البليغُ في كلامِ البشر الذين لا يتناولونَ تلك الرتبةَ العاليةَ من البلاغة ؛ على أنه لو قال تأكيداً لخرج عن مذهب العرب ، لأنَّ العربَ تقول : أسْوَدُ غِرْبيب ، وأسودُ حالكٌ وحُلكوكٌ، فتقدم السواد الأشهر ثم

---

١ ورد في البخاري (ادب : ٩٠) والترمذي (ادب : ٦٩) وابن ماجه (ادب : ٤١) والدارمي (استئذان : ٦٨) ومواضع كثيرة من مسند أحمد منها ١ : ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ... الخ .

٢ حديث أعطيت جوامع الكلم في مسلم (مساجد : ٥ ـ ٨ واشربة : ٧٢) والبخاري (تعبير : ١١) والترمذي (سير : ٥) ومسند احمد ٢ : ١٧٢ ، ٢١٢ ، ٢٥٠ ، ٢٦٤ ... الخ وحديث « بعثت بجوامع الكلم » في البخاري (جهاد : ١٢٢ وتعبير : ٢٢ واعتصام : ١) والنسائي (جهاد : ١ وتطبيق : ١٠٠)

٣ يرى الزمخشري ان عدم الاختلاف هنا معناه عدم التناقض والتفاوت في مستوى النظم والبلاغة والمعاني ، وصدق الخبر .. (الكشاف ١ : ٥٤٦ ـ ٥٤٧).

تؤكده ، وهذه الآيةُ تخالفُ ذلك ، فاذاً بطل التأكيد في المعنى[1] ؛ وما معنى ﴿فَخَرَّ عليهم السَّقْفُ من فوقهم﴾ (النحل : ٢٦) وهل يكون سقف من تحتهم فيقع لبسٌ يحتاج إلى إيضاحه بذكر فوق وتحت[2] ؟ ونحوُ منه قوله تعالى ﴿يخافونَ رَبَّهُمْ من فوقهم﴾ (النحل : ٥٠) وهل لهم ربٌّ من تحتهم ؟ وما معنى فوق ها هنا ، وهل تدلُّ على اختصاص مكان[2] ؟ وما معنى قوله ﴿كَلَمْحِ البَصرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ (النحل : ٧٧) وما هذا الأقرب[2] ؟ وما معنى قوله ﴿فهي كالحجارة أو أشدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة : ٧٤) وهل شيء أشدُّ قسوةً من الحجارة[3] ؟ وما معنى قوله ﴿إلٰهين اثنين﴾ (النحل : ٥١) وهل بعد قوله (إلٰهين) إشكال بأنهم أربعة فيستفيد بقوله اثنين ثباتَ المعنى[2] ؟ وما معنى قوله ﴿أَنْ تضلَّ إحداهما فَتُذَكِّرَ إحداهما الأخرى﴾ (البقرة : ٢٨٢) هَلاَّ كان أوجز وأشبه بالمذهب الأشرفِ في العربية ؟ وما معنى قوله ﴿أو يأخذهم على تخوّفٍ فان ربّكُمْ لَرَءوفٌ رحيم﴾ (النحل : ٤٧) ومن أين تُناسِبُ الرأفةُ والرحمةُ هذا الأخذَ الشديد على التخوف الذي يقتضي العفوَ والغفران[2] ؟

---

١ قال الزمخشري : فان قلت : الغربيب تأكيد للأسود ، يقال اسود غربيب وأسود حلكوك .. ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك أصفر فاقع وأبيض يقق وما أشبه ذلك قلت : وجهه أن يضمر المؤكد قبله ويكون الذي بعده تفسيراً لما أضمر كقول النابغة « والمؤمن العائذات الطير » وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريقي الاضمار والاظهار جميعاً (الكشاف ٣ : ٣٠٧)

٢ الوجه في « فوق » هنا في قوله « وهو القاهر فوق عباده » أي أنهم يخافون ربهم عالياً قاهراً لهم (انظر الكشاف ٢ : ٤١٣) ؛ وقوله « كلمح البصر أو هو أقرب » أي كما تبالغون أنتم حين تستقربون شيئاً (نفسه : ٤٢١) ؛ وقوله « الهين اثنين » الوجه فيه : ان الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فاذا أريد التأكيد على ان المقصود هو العدد شفع بما يؤكده فقيل الهين اثنين او رجل واحد .. الخ (نفسه : ٤١٣) ويأخذهم على تخوف أي وهم متوقعون وقيل هو أن يأخذهم على أن ينتقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم وبذلك تكون الرأفة والرحمة حيث يحلم عنهم ولا يعاجلهم مع استحقاقهم (نفسه : ٤١١) .

٣ ان قلت لم قيل أشد قسوة وفعل القسوة مما يخرج منه افعل التفضيل وفعل التعجب قلت : لكونه أبين وأدل على فرط القسوة ، ووجه آخر وهو أن لا يقصد معنى الاقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدة كأنه قيل اشتدت قسوة الحجارة وقلوبهم أشد قسوة (الكشاف ١ : ٢٩٠) ولم يورد الزمخشري توجيها لتكرير كلمة « احداهما » في الآية ٢٨٢ من سورة البقرة ، وذهب أبو حيان الى أنه أبهم الفاعل في أن تضل بقوله « إحداهما » ولهذا أبهم الفاعل في=

وعلى أن هذا السائل لو علم لسأل عن الصناعة التي أنا بها مُرْتَسِمٌ ، وبشروطها مُلْتَزِمٌ ، لا في الترسّلِ / [١٣٩] فاني ما صَحِبْتُ به ملكاً ؛ ولكن في صناعة الخراج ، فكان يجبُ أن يقولَ : ما البابُ المسمَّى المجموع من الجماعة[١] وأين موضعُهُ منها ، وأيّ شيء قد يكون فيه ولا يحسن ذكرُهُ في غيره ؟ وأن يقول : ما الفائدة في إيراد المستخرج في الجماعة ومن كم وجه يتطرَّق الامتثال عليها بالغاية منها ؟ وأن يقول : ما الحكمَ في متعجَّلِ الضمان قبل دخولِ يدِ الضّامن ، وأي شيء يجبُ أن يوضعَ منه إذا أراد الكاتبُ الاحتسابَ به للضامن من النفقات ، وخاصةً من جاري العامل ، وفيه أقوالٌ تحتاجُ إلى بحثٍ ونظر ؟ وأن يقول : إنَّ عاملاً ضمنَ أن يرفعَ عمله بارتفاع مالٍ إلاّ أنه لم يضمنْ استخراجَ جميعه ، وضمنَ استخراجَ ما يريدُ على ما استخرج منه خمسَ سنين إلى سنته بالقسط ، كيف يصحُّ اعتبارُ ذلك ، ففيه كمين يُحتاجُ الى تقصّيه وتأمله ؟ وأن يقول : لِمَ يُقدَّمُ المبيعُ على المستخرج ، والمبيعُ إنّما هو من المستخرج ، وكيف يصحُّ ذلك ؟ وأن يقول : أيّ غلطٍ يلزمُ الكتاب وأيّ غلطٍ لا يلزمه ؟ وأن يقول : متى يجبُ الاستظهارُ للسلطانِ في صناعة الخراج ومتى لا يجوزُ الاستظهارُ له ؟ وأن يقول : متى يـكون النقصُ في مال السلطانِ أسدَّ في صناعةِ الكتابة من الزيادة ، ولست أعني نقصَ الارتفاع مع العدل ، وعـادلَ زيادةٍ مع الجور ، فذلك ما لا يُسأَلُ عنه ، وأن يقول : ما بابٌ من الارتفاع إذا كَثُرَ دلَّ على قلّةِ الارتفاع ، واذا قلَّ دلَّ على جمام الارتفاع ووفوره ؟ وأن يقول : متى تكونُ مشاهدةُ الغلطِ أحسنَ في صناعة الكتابة من عدمِه ؟ وأن يقولَ : كم نسبةُ جاري العمل من مبلغ الارتفاع وأوّل من قرَّره ورتَّبه ؟ وأن يقول : ما رتبتانِ من رُتَبِ الكتابة إذا اجتمعتا لكاتبٍ بطلت أكثرُ حججه في احتساباته ؟ وأنْ يقول : هل يطَّرِدُ في أحكام

= « فتذكر » فكرر إحداهما ، إذ كل من المرأتين يجوز عليها الضلال والاذكار فلم يرد باحداهما معينة (البحر المحيط ٢ : ٣٤٩) .

١ الموافقة والجماعة حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل ، ولا يسمى موافقة ما لم يرفع باتفاق ما بين الرافع والمرفوع اليه ، فان انفرد به احدهما سمي محاسبة (مفاتيح العلوم : ٣٨) .

الكتابة حملها على مناصبة أحكام الفقه أم لا ؛ وهل يذهب [الى ذلك] أحدٌ من متقدّمي الكتاب ، وما الحجّةُ فيه ، وبالله التوفيق .

قال ابن بسام : وهذا المجموعُ إنما هو لسانُ منظومٍ ومنثور ، لا ميدانُ بيانٍ وتفسير ، أُوردُ الأخبارَ والأشعارَ لا أفكُّ معَّماها ، في شيءٍ من لفظها ولا معناها ، ولو ذهبتُ فيه إلى إيضاح مُبْهَم ، وإعراب مُسْتَعجم ، لكانت هذه الفصولُ أولى ما فتحتُ مُقْفَلَهُ ، وآكدَ ما أوضحتُ مُشْكِلَهُ . على أنّي قد ألمعتُ فيه ببعضِ تنبيه ، بين ذكرٍ أجريه ، ووجهِ عذرٍ أُريه .

فصـــولٌ من سائِر ترسيله

فصل له من رقعة : وقفتُ على كتابِكَ ولم أزلْ ألثُمُهُ ، كأنّي قد ظفرتُ باليد التي بَعَثَتْهُ ، وأضمُّـهُ كأنّي أضمُّ الجوانحَ التي نَفَثَتْه ، وكأنّي كلّما أدنيتُهُ إلى الكبدِ المعذّبةِ بِبُعْدِكَ ، وأمْرَرْتُهُ على العينِ المطروفـةِ بفَقْـدك ، سحبـتُ على النـار ذيلَ السحاب ، وَسقيتُ عَطِشَ الحبِّ كأسَ الرُّضَاب ، وأعَرْتُ أخا سبعينَ ظلَّ الشباب ، فأرَّخْتُ يومَ قدومِهِ لأجعلَهُ موسماً للسرور ، وعيداً باقياً على الدهور ، أرتقبُ السَّعْدَ عنده كلَّ عام ، وأنتظرُ الفرجَ منه من كلِّ غرام ؛ واتّفَقَ ورودُهُ في أشْرَفِ فصولِ الدَّهْرِ حَسَباً ، وأكرَم مفاخرِ الأيام نَسَباً ، حين ابتدأ [1] الـربيعُ يزخـرفُ بُرودَه ، والروضُ ينظمُ عقوده ، وكنتُ أعرفُ هذاالفصـلَ باعتدالِ منهاجه ، وصحَّةِ مزاجه ، وأنّه لو كان الزمنُ شخصاً لكان له مُقَبَّلا ، ولو أنّ الأيام غوانٍ لكان لها حُلِيّاً وَحُلاً ، لأنّ الشمسَ تخلصُ فيه من ظلماتِ حُوْتِ السماءِ ، خلاصَ يونسَ من ظلماتِ حوتِ الماءِ ، فاذا وَرَدَتِ الحملَ وانـث أحبَّ أوطانها إليها ، وأعزَّ مساكنها عليها .

وفي فصل منها : فيا حُسْنَ تلك الصحيفةِ ومدادُهَا يُنْتَهَبُ بالأفواه ، ويزيدُ بالتقبيل لَعَساً في الشّفاه ، ويا عجبا كيفَ حَفِظَ مع بُعْدِ العهد نَشْرَ عَرْفِك ، وكيف

[1] ابتدا : مكررة في ص .

علقَ مع تراخي الأيام طيبَ كفّك ، وكيف جاءَ كأنَّكَ كتبتَهُ من أَمَم ، وأَنْفَذْتَهُ وبيننا خطوةُ قَدَم ، وكيفَ لم يغيره ما قطعَ من مهاولِ قفار ، وليلٍ ونهار ، وعدوٍ كاشح ، ورقيبٍ لامح ، فأنْعِمْ به من ريحانةِ ألفاظٍ دامتْ لدونتها ، وباكورةِ وصالٍ سلمتْ غضوضَتها [1] ، ومسحةِ يدٍ بَقِيَ أَثرُهَا أرِجَا ، وروضةٍ كلما دام على الصيف بهجتها [2] .

وفي فصل منها : فامّا سُؤالُكَ عنّي فما يُشْبِهُ سيرتَكَ الحسنى ، ولا يليقُ بطريقتك المثلى ، كيف تسألني والإجابةُ معك ؟ وكيف تستخبرُني ومحلُّ الخَبَرِ والاستخبار عندك ؟/ [١٤٠] ومتى سمعتَ بجوابِ جَسَدٍ رهينة ؟ وأين رأيتَ طِماحَ عينٍ لواحظها مقيّدةٌ كليلة ؟ ألم أفارِقْكَ وقلبي عندك أعشار ، وأضلعي منه قفار ؟

وفي فصل : وردتُ الموصلَ التي خالف اسمُها معناها ، وكانتْ مَقْطَعاً بيننا لولا خُدَعُ الأماني ، وَفَصْلاً لولا المرجوُّ من عفو الليالي ، فوجدتُ هواءَهَا يعطِّلُ سوقَ بقراطَ اعتدالاً وطيبة ، وماءَها يُسْلِي عن مُجاجِ النَّحلِ استمراءً وعذوبة ، وصقعها قد تَبَغْدَدَ رقةً ولطفاً ، وجوَّها قد تزندقِ تنعّماً وظرفاً ، تكادُ تُثْقِلُهُ عقودُ الغانيات ، وَيُخْجِله تتابعُ اللحظات ، كلُّ شمأله نسيم ، وكلُّ جَنُوبه حياً عميم ، ورأيتُ أرضَها أطيبَ الأرض خِيا ، وأزْيَنَها أديماً [3] ، تُنسَجُ بالسُّنْدسِ الأخضر ، وتفترُّ عن الأُقحوانِ الأحمر ، والفيتُ بنيانَها هو الذي حمده اللهُ في تنزيله [4] ، وأحبَّه لنا أن نكونَ مثلَهُ جهاداً في سبيله ، مَرْصُوصاً بِوَقَاحِ الجلمد ، ملاءَماً بينه بالشِّيد المردَّ ، قد حُصِّنَ ظاهره على باطنه عن تداخل الإبر ، ومساكنِ الذرّ ، يزلُّ عنه ظُفْرُ الطائر ، وتتدحرجُ عليه أحداق [5] الناظر ، وتَغْنَى به العروسُ عن الماويّ المنير [6] ، وتستبينُ

١ ص : غضاضتها ، وهو عند بعض اللغويين جائز ، وأنكره عليّ بن حمزة ، والالتزام به هنا غير ذاهب مع السجع

٢ كذا وردت العبارة في ص ، ولعلها « دام على الصيف زهرها بهجاً » أو ما أشبه .

٣ ص : ديما .

٤ يعني أنه بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً (انظر الآية ٤ من سورة الصف) .

٥ ص : اكداه .

٦ الماويّ : حجر البلور أو المرآة .

به الجفونُ منابتَ الشكيرِ من أهدابها والغمير ، متلاقيةً أقطارُهَا على رجالٍ كأنهم أنْسِلاءُ عادٍ وَثَاقةَ أجسام ، وصلابةَ أحلام ، وَبُعْدَ مَرام ، لطفوا عن بدويةِ الشام وغلظته ، وجمدوا عن ذَوْبِ العراقِ وخلابته ، قد عُقِدَتْ ألسنَتُهُمْ بالصّدقِ فما ينتثرُ الباطلُ من عَذَباتها ،وصحَّتْ غرائسُهُمْ في المودّة فما يُجْتَنَى الغَدْرُ من ثمراتها ، إنْ سلماً فسلماً وإنْ حرباً فحرباً ، لا يعرفون تدليسَ الأخلاق ، ولا تمويهَ النفاق ، وشعراؤهم[1] ملء اليدين ، وكتّابهم أثرٌ بعد عَيْنٍ ، أدبهم [حسن][2] على قلة المِلوكيِّ فيه ، وعلمهم مُتْقَنٌ لمن تأمَّلَ أدقَّ مسربٍ[3] في فِتَنِ معانيه ، قد محّص تهذيبُ المحنِ شرارَهُمْ وأوْهَنَ خيارهم ، بَلَدُهُمْ أطلالٌ ، وأحوالهم آل ، قويّهُمْ يئنّ ضعفاً ، وضعيفُهُمْ يماطلُ حَتْفاً ، بَقِيَتْ عليهم أسمالُ النعم وذهب الدهرُ باجسامها ، وانجلت عنهم ظُلَلُ المحنِ وهم يتأوهون من غيرِ آلامها ، إلا أنّ فيهم بقيّةً نقيّة ، وفيهم موضعُ تداركٍ إن رُزِقوا سيرةً مرضيّة ، فلولا ما أَرْجُوهُ من مداواةِ أسقامهم ، وإعادةِ صالحِ أيامهم ، لفضاني الانتاء بمعايشتهم قبل معاناتهم ، وبملاحظتهم قبل مقاساتهم ، لكنّي أعلمُ أنَّ من يحيي العظامَ وهي رميم ، ويبعث[4] الروضَ وهو هشيم ، وينشيء [...] بعد ما كانت قفارا ، ويجعلُ من الشجرِ الأخضرِ نارا ، قادرٌ على أنْ يجعلَ ثوابَ نيّتي فيهم معونتي على ما أنويه لهم ، وجزاءَ تأمّلي بهم بلوغ الغرضِ في تدارُكِ رَمَقِهِمْ .

وفي فصل : لو أَطَقْتُ تفصيلَ المجمل ، وإيضاحَ المُشْكِلِ ، لجرتْ لك به يدي طَلَقَ الجموح ، ولأَغْنَتْكَ أسمارُهُ عن الوترِ الصّدوح ، إلا أن القلبَ عليل ، والخاطرَ كليل ، والزمانَ ببلوغِ الأملِ بخيل .

١ ص : وسفراؤهم .
٢ ليس في موضعها بياض في ص .
٣ ص : متقن من .... مسرباً .
٤ وص : ويبلى (دون اعجام) .

وفي فصل من أخرى إلى ذي السعادتين [1] : للرياسةِ كُلَفٌ لا يستقلُّ بها إلا المهذَّبُ الكاملُ ، ولا يخطو تحتَ أثقالِها إلاّ الأوحدُ الفاضـل ، ولا يبلـغُ ذوائـبَ أعاليها ، إلاّ مَنْ شرِبَ الأُجاجَ من ماءِ واديها ، ولا يلذُّ بملكها إلا من أغلى المهرَ من كريم مساعيه، ولا يفضُّ ختامَها إلا من جعل منازلةَ الخطوب سلكاً لعقودِ أيّامِهِ ولياليه ، ولذلك قيلَ ما أنْشدتُهُ استبصاراً ، وأنا إلى إيراده أبينُ إصراراً :

لا تحسـبِ المجـدَ تمـراً أنـتَ آكلُهُ   لن تبلغَ المجدَ حتى تلعـقَ الصَّبِرَا [2]

* * *

وإنَّ سياســةَ الأقـوامِ فاعلمْ   لهـا صَعْـداءُ مَطْلَعُهَـا طويلُ [3]

* * *

ويظلمـوا فنـرى الألـوانَ مسفـرةً   لا خوفَ ذلٍّ ولـكن فضـلُ أحـلامِ

ويحتاجُ الرئيسُ إلى أعوانٍ يُظْهِرُ بهم كمينَ مكارمِهِ ، وَيُمضي فيهم وبهم ماضي عزائمه ، فلولا الطالبُ لعاش الكريمُ مطوياً على حَسَرَاتِ أوطارِهِ ، ولولا الخاطىءُ لما وجد الحليمُ لذَّةَ حلمه ووقاره ، وكلّما كان التابعُ أبعدَ مذهباً في معناه ، كان المتبوعُ أشدَّ جَذَلاً بظهورِ مناقِبِهِ وعلاه .

وفي فصل : وقد كانت مني كبائرُ تكنَّفَتْها معاذيرُ لا أشينُ وَجْهَ العفوِ بايرادها، ولا أنتقصُ جملةَ الصَّفْح والغفران بتعدادها ، في أنْ لم أَفْتَتِحْ مناسكي بالسَّعْي إلى حَضرتِهِ،ولم أبدأ من مطالبِ شرْعي بالتـوفـّـر على/ [١٤١] خِدْمَتِهِ ، وقد عَلِمَ الله

---

١ ذو السعادتين هو الحسن بن منصور أبو غالب وكان وزيراً للسلطان البويهي بهاء الدولة ثم وزر بعده لسلطان الدولة (٤٠٩) ثم ثالثة لمشرف الدولة (سنة ٤١٢ ؛ وتوفي في هذه السنة نفسها) .

٢ من أبيات تنسب لرجل من بني اسد (شرح المضنون : ٤٧٣)

٣ ورد البيت غير منسوب في اللسان والتاج (صعد) ؛ واكمة ذات صعداء : يشتد صعودها على الراقي .

أنَّ ذلك ليس من اعتلالٍ بصيرةٍ بشرف الانتماء إليه ، ولا انخفاضِ همّةٍ عن سعادةِ المثولِ بين يديه ، ولا إمعانٍ في البدويّةِ ـ وإن كنت من أهلها ـ حتى أذهلَ عن مطلع النّير الأعظم من الأفقِ الذي سكنتُ ظلّه ، ومفيض الفراتِ الأعذبِ من البلد الذي استوطنتُ محلّه ، ولا أنَّ ذِكْرَهُ لم يكنْ في تلك الأوطانِ زينةَ الأعياد ، وحليةَ البلادِ ، وأُنسَ الحاضرِ والبادي ، وَبُلْغَةَ المسافرِ والحادي ، ولا أني لم أكنْ ذكيَّ الخاطرِ بتلاوةِ مآثِرِ آلائِهِ ، ومستشفياً بنسيم الريح من أرضِــهِ وسمائه ، ومُعْجَباً بما جمع الله فيه لِعُفَاةِ أهلِ الأدب ، بل السّراةِ أهلِ الرتب ، ومعنى قول القائل :

يأتيك عن فهــم الثنــاء عطـــاؤُهُ   عَفْــواً وتلـــك عطيةُ المستبصرِ
كرمٌ تكشَّــف عن حُلَى آدابِـــهِ   كالبحـــرِ يكشفُ غَمْـــرُهُ عن جوهر

وفي فصلٍ من أخرى : ولما أزعجتني الأقدارُ إلى هذا المقـرِّ الجليل على اضطرارٍ باد ، بنبوِّ ذلك المهاد ، وردتُ مطروفَ الناظر ، كليلَ الخاطر ، فقصدتُ مع ذلك خدمتَهُ ـ في وروده الأول ـ باللقاء أو استطلاعِ الإذنِ بالمكاتبة ، فأعجلها مسيرُهُ الميمونُ ، فأحَلْتُ بذلك على الجَدّ الظَّنون ، والزَّمنِ الخؤونِ ، ثم كتبتُ مستبدهاً في هذه الرقعة بأمورٍ يشفُّ عنها الكتمانُ بصادقِ ظنّه ، وينمّ بها السرُّ والاختفاءُ إلى نجيِّ ذهنه ، فلم أُبَشر بقدومه حتى أُنْذِرتُ بِصَدَرِهِ ، وقد كان من الحقِّ أن أسيرَ في أثَره ، وأنفذَ في تصيّد العزّ بملاحظة غُرَّته ، واستلامِ حضرته ، ولكني أهديتُ من ضَعْفِ عذري وقوّةِ ذنبي زينة إلى حلمه ومسامحته ، ورجوتُ أنْ يُضيفَ إلى الاغضاءِ عن زلّتي ترثياً لي بما حُرمْتُهُ طولَ هذه المدة من خدمته ، فان حقّقَ مخيلةَ الظنّ في الاغضاءِ فَبِفَضْلِهِ ، وان أعـرضَ عن كلِّ من تَغْـرُبُ عليه الشمس لجُرْمي فَبِعَدْلِهِ ، وإنْ يكُ ظني صادِقي[1] فسينخدعُ لي انخـداعَ ذوي الإنعام ، ويتغابنُ في صمتي عن[2] إيجابه تغابنَ الكرام ، بأريحيّته اللدنةِ الأعطافِ ،

١ ص : صادقني .
٢ ص : قيمتي من .

ورياستِهِ الموطَّأةِ الأكناف .

ومن جواب ذي السعادتين له : للسؤددِ محلٌّ يدعو إلى نفسه ، وَيُسْفِرُ عن شمسه ، ويأبَى أن يتقلقلَ به مهاد ، أو يتململَ بقرارِهِ وساد ، أو يكونَ إلا لمن وطَّأَ له [كنفاً] ، وألانَ بحمله معطفاً ، واستقلَّ بأعباءِ تكاليفه ، وأغمضَ بدائعَ أفكاره في تضاعيفه ، ونصَّ [1] المذكّياتِ في مضماره ، واستبردَ المُصْطَلَى من أُواره ، وغدا لفَارِدِهِ عَشرْاً ، وشرح للعناء [2] فيه صَدْرا ، وكان كما قيل : إنْ رأى حسنةً قالَ ، أو رأى سيئة أقالَ ؛ فقدأحسنَ القائل :

إمّـا يَرِبْنـي مفصــل [3] فقطعته فيوشــك أنْ يَدْوَى لذلكَ سائــرُهْ

وإنما نصصتُ على الموقِعِ الأنبهِ من حضرته ، ودللتُ عليه بنارِهِ وسِمته ، لياذاً بقوة الدواعي منه في تمثّل ما أجراه الاتفاقُ على ضدّ المراد ، وثناه القدرُ الغالبُ فيه عن غَرَضِ الاعتقاد ، وسَنَنِ الارتياد .

وفي فصل منه : حتى بدا مطلعُ الأملِ من حَيْث شِمْتُه ، وصدَّقَ اليقينُ بتلك الأوصاف اللائقةِ ، والفضائلِ الشائقةِ الرائقة ، ما تصوَّرْتُهُ وتحققته ، وذرَّ البدر [4] الكامل بالكتاب المعربِ عن جميع أدواتِ الفضلِ ومعـانيه ، وبـوارع الأدبِ [5] النبيل ومعاليه ، فأكرِمْ به من واصلٍ بالمعنى في مَوْضِعِ العَتْب ، ووافدٍ بالحسنى على الأساءَة بالذنب ، وأعْجِبْ بما حواه من رائع البلاغة وبارعِ العبـارة ، ومستـكرم الماتّة ، ومستغنم الاطالة . ولقد أخبرَ من أنباءِ السلامـة في النفس المحروسـةِ ما ضاعفَ المسرَّةَ ، وضاعفَ الغبطَةَ والحبرة ، وأشار فيما عداها إلى ما أسال العَبْرة ، وأشعرَ الحسرةَ ، وللّهِ تعـالى في مثـل ذلك ألطـافُ تُوضِـحُ عن حُسْـنِ عواقـبِ

١ ص : ونصل .

٢ ص : للنهاء .

٣ ص : ما يربي مفصل .

٤ ص : وذر البر .

٥ ص : وبورع الأب .

التفويض ، وتقومُ باكرام الانابةِ والتعويض. وقد استرهن عندي بمبتـدا التطـوُّلِ بالمكاتبةِ يداً ، اقتضى اعتدادي بها وشكري لها بما يبرهنُ عن توافقنا في الصفاء ، وتشاكلنا في الاخاء ، وسيّدي يطيعُ في ذلك بواعثَ كرمه ، ونوازعَ شيمه .

فأجابه ابن المغربيّ برقعةٍ قال فيها : أُلقي إليَّ كتابٌ كريمٌ يكتفي شَرَفُ الهمةِ بخيال عنوانه ، ولا يُبْلُغ بشقِّ النفس شكرُ ظاهره فضلاً عما في طيِّ جَنانِهِ ، ففضضتُ عن الرَّوْضِ العازب ، والتقطتُ منه فرائدَ الكواعب ، ووجدتُ فيه نسيمَ الشباب ، وتَعلَّلْتُ به في عَطْفِ الأيام/ [١٤٢] السالفةِ العـذاب ، ووجدتـه قد احتوى من عقائلِ الفصاحةِ وكرائمِ البلاغةِ على ما يُعْدي المعجمَ العييَّ فينطقُ متخيرّا ، وَيُنْشَدُهُ الناطقُ البليغُ فَيُبْلِسُ متحيرّاً ، وظننتُ أنّ العشّاقَ لو أُعيروا من ألفاظِهِ مزاجاً للمراشف ، ووهبوا من أنفاسه عِطراً للسوالف ، لصالوا بِحُجَجٍ تجلُّ عن تَسْمِيَةِ المعاذير ، وتصبغ الخطأَ بلمعِ الصواب المنير ، ولو أنهم جعلوه رميَّ سُهْمَةِ الفراق لكُفَّتْ عواديها ، وأُخْذَةً لأعين الرقباءِ لَطَفَرتْ [من] مآقيها ، ولو أن الحَمامَ أصغتْ إليه لعاد نَوْحها شَدْواً ، ولو أنَّ الليالي تتدثَّر[١] به لصارَ دُجَاهَا غَدْوَاً ، وعجبتُ مما حملَ على مُنّتي الضعيفة من مِنَنٍ كنتُ قبلها نِضْوَ العزيمة فكيف [أنهض] بها ، ومن مبارٍّ يكادُ يمنعني فادحُ أثقالها أن أَستارَ مرفَقَها ، فلو أنَّ ذلك الكتابَ الجليلَ صدرَ إليَّ من عدوّي لاهتززتُ ببدائع ما فيه ، ولو أنه تاه عن إنعامٍ عليَّ لغالطتني عذوبةُ لفظه عن مرارةِ معانيه ، فكيف وقد جاءني عن الأيام عُتْبَى ، وجعل قلبي لخواطِرِ الجَذَلِ نهباً ، ولستُ أُلمُّ بشكره عن هذه العاطفةِ الكريمةِ فأوهمُ أنها مما تتناوله أفكاري الكليلة ، ولا أتعرَّضُ لحمدها فأحبطُ أجريَ في الاعتراف بالتقصير عن مواهبها الجزيلة ، ولكن أوفّيها ، ما وَجَبَ من إظهارِ العجزِ فيها .

وفي فصل منهـــا :

١ ص : تتدهما ، وعليها علامة خطأ .

* وأيــنَ الثريّــا من يــدِ المتناولِ *

لو أُعِنْتُ بما تلاقى عليه [...] من خواطرَ ملتهبة المطالع ، وألسنةٍ معروفةِ المقاطع ، لما ازداد هذا الدَّيْنُ عليّ إلاّ توثّقاً ، ولا استجدَّ هذا الحقّ إلا تعلُّقاً ،

* دَعْ ذا وعـــدِّ القـــولَ في هـرِم[1] *

أنا الآن من التشوّقِ إلى خدمته لو وجدتُ إليها سبيلاً ، وأعملتُ نحوها رحيلاً ، وقد كنتُ ارتحتُ للفقرة التي تضمنها كتابُهُ العـالي من ذكر التفـويضِ والتعويض ، ورأيتُ أنها لو صَدَرَتْ عن الحسنِ البصريّ لما زادتْ[2] على ما غشّاها في عينيَّ من البهاءِ وجلالةِ الصدق ، ولقد انتفعـتُ بهـا ورجـوتُ يُمْـنَ نقيبتهـا [وَحُسْنَ] عاقبتها . وجملةُ ما أَقْتَرِحُهُ ان يتصوَّرَ فيّ ما يتصوّر في بعضِ الأقربين من خادمٍ يُصْطَنَعُ فَيُجْرَى من الحنوّ عليه مُجْرَى خواصِّ الأهلِ وأداني الأصحاب ، فله الرأيُ العالي في إنزالي حيثُ أنزلتُ نفسي من الاختصاصِ بجهته ، فأما المكاتبةُ فقد تقدَّمَ القولُ في اقتناعي منها بمثلِ طيفِ الخيال ، أو رضائي أن يخطرَ ذكري بالبال ، إن شاء الله .

وطار للشريف أبي طاهر بازٍ كان يتصيد به ، فكتب إليه : بلغني خبرُ الغادِر المفارق ، والباشقِ الآبق[3] ، فشاركتُهُ في الاستيحاش [مِنْ فـراقِـهِ] لما كان يُبْدِعُ من مصايده ، ويقرّب عن مطارده ، ورأيتُهُ قد شابَ فضائلَهُ بهذا الغدر الذي يُسْلي عن تذكاره ، والإباقِ الذي يُنْسي محاسنَ آثاره ، والنَّكْثِ الذي ختم به عواقبَ عهده ، وبغّضَ إلينا ، بل إلى سيدنا ، استخدامَ أمثالِهِ من بعده ، لأنّ أحقَّ الناس بكراهةِ الغدر من كان الوفاءُ رضيعَ لبانه ، والحفاظُ منبتَ أُصُولِهِ ومنشأَ أَغْصانه ،

١ صدر بيت لزهير بن أبي سلمى ، وعجزه : « خير الكهول وسيد الحضر » (شرح ديوانه : ٨٨)
٢ ص : رددت .
٣ ص : الاربق .

وكأني بفقده وهو عند الدَّراج من أنعم الأعراس ، ومن الوحشةِ منه وهي بين سرابِ الطيور من ألذِّ الإيناسِ ، لأنها أُريحتْ بعدَهُ من حَتْفها العاجِل ، وَسَمِّها القاتل ، وأَجَلِها القاصر ، وَوَجَلها الحاضر ، وَعُقْلَةِ قوادِمِهَا وخوافيها ، ودهشةِ نواظرها ومآقيها ، والكوكبِ المنقضِّ[1] على مسارحها ، والسهمِ القاصِد الى مذابحها ، والآفة التي كانت حُرِمَتْ بها حُسْنَ الرياضِ المونقة ، وثكلتْ بَرْدَ الغدرانِ المغدقة ، وتنغَّصت مشاهدةَ هذا الجوِّ الرقيقِ الشمائل ، اللازورديِّ الغلائل ، حتى صارتْ لا تلتذُّ بوكرٍ تَبْنيهِ ، ولا بِفَرْخٍ تُغَذِّيه ، علماً بأنَّ لها منه مُفَرِّقَ العدد ، وفاجعَ الوالدِ بالولد ؛ ولو علمتْ هذه الأطيارُ الشامتةُ بنفاده ، السالكةُ سبيلَ الأَشَرَ بافتقاده ، بما يُعِدّهُ سيدنا لها من ذي ظُفُرٍ مظفّر ، ومِنْسَرٍ للطير مُيَسّر ، وخَلَفٍ صالح ، وجارحٍ جارح ، أشدَّ لها منه اصطلاماً ، وأَسَدَّ إلى مقاتِلِها سهاماً ، لعلمتْ أنَّ كثرتها استجماع[2] له ، وأن وفورها توفير عليه .

وفي فصل منها : وما ألومُ هذا المارقَ على مَلِلِه وانحياشه ، لأنه كان قد تعوَّد أن يصيدَ بمقدار قُوْتِهِ ومعاشِهِ ، فصار سيّدنا يستخدمه بهمّةٍ تَطْلُبُ الغايةَ البعيدة ، وتستسهل/[١٤٣] المشقة الشديدة ، التي هَزْلُها جِدّ ، وَجَوْزُهَا قَصْدٌ ، ولعبُها ارتياض ، يتصيرُّ من لم ينقدْ إليها سريعا ، [ذا] ضراوة على اقتناص من لم ينتهِ إلى أوامرها مطيعاً ، فلم يُطِقْ على ذلك جَلَدا ، ولم يجدْ بهذا الأمرِ الفادِح يداً ، فما أشدَّ بَسْطي لعذره ، ومعرفتي بسببِ غَدْرِهِ ، وآملُ أن يتذكَّرَ ما كان له بفنائِهِ من نعيمٍ ، خَيالُهُ بين عينيه ، وطيبِ عيشٍ ، تذكّرُهُ أَجْدى له من حماقيه ، فتدعوه عواطفُ التربية والإيثار ، وتزولُ عنه عوارضُ السَّهْوِ والاغترار ، فيعودُ إلى رسمه ، ويعوذُ من جُرْمِهِ ، ويرجعُ وقد أَدَّبَتْهُ النكبةُ ، وهذَّبَتْهُ الغربة .

١ ص : المناقض .

٢ ص : استجنام .

وكان في ذلك الأوان بمدينة [تكريت ، رئيس][1] ممن يشار إليه ، ويعوِّلُ قومُهُ عليه ، فرأى في منامه[2] النبيَّ عليه السلام مع عليِّ بن أبي طالب ، وحضّاه على الاسلام ، ووجد في الانجيل ما دَلّهُ على البشارةِ بمحمّدٍ عليه السلام ، فاستدعيَ إلى الحضرةِ ببغداد ، وطيفَ به في سائر البلاد ، فكتب إليه ابنُ المغربيّ رقعةً قال فيها :

ويعلمُ الله ما ورد عليَّ وعلى كافّةِ مَنْ حضر من المسلمين من السرورِ بما أبانَ الله[3] من آية قَطَعَتْ عُذْرَ الجاحدين، و[حجة][4] استهلكتْ شُبَهَ العاندينَ الجاهلين، لا أنَّ هذا الدينَ ـ بحمد الله ـ مفتقرٌ من بعضِ حواشيه ، إلى بيّنةٍ تزيدُ فيه ، ولا أنَّ الاستدلالَ الصادقَ كان تَرَكَ شُبْهةً إلا فضحها ، ولا معجزةً إلا أوضحها ، وزائغاً إلا قوَّمَهُ ، وجاهلاً إلا علَّمه ، وركناً للباطلِ إلا خفضه ، وعقداً للشرك إلا نقضه ، إلاّ أنَّ المخالفين قد شغلتِ الدنيا أكثرَهُمْ عن التأمّل ، وحجبتِ العاداتُ خواطِرَهُمْ عن التأوُّلِ، فَبَعُدَ بالحجج السالفةِ ذكرهم ، واشتدَّ إلى البراهين المستحدثة فَقْرُهُمْ ، فكان أبلغ [برهان] إقبالُ مثلِهِ إلى المحجّةِ عن غير رغبةٍ استفزَّته ، ولا رهبةٍ هَزَّته ، ولا محاسدةٍ أغْرَتْهُ ، ولا مناظرةٍ عزَّته ، بل أطلقَ عنانَ عَقْلِهِ ومدَّ به راشداً حتى وقفه على الصراط المستقيم ، واستتلاه قاصداً حتى أوردَهُ إلى المنهج السليم ، فوردتِ النعمةُ بتخيرّهِ صافيةً غير مكدَّرة ، والمنحةُ في استئنافه وافيةً غيرَ مقصرة ، فهنأ الله الاسلامَ ما لا يزال يتولاّهُ به من إيضاحِ مَنَارِهِ ، وتبلُّج أنواره ، وإدامةِ صبحه

---

١ بياض في ص، وزدته من تاريخ المسبحي : ٢٣٥ ب والرئيس المشار اليه هو أبو مسلم مشرف بن عبيد الله ، وكان يعرف بالمطران الكبير ، رئيس اليعاقبة ؛ ويذكر المسبحي ان أسلام الرجل تمَّ يوم الخميس السابع من جمادي الأولى سنة سبع [...] واربعمائة وان الوزير المغربي أرسل اليه هذه الرسالة من ميافارقين ؛ وقد أورد المسبحي جانباً من الرسالة لم يورده ابن بسام ، وانقطع فيها بضياع الأوراق ما أورده صاحب الذخيرة ما عدا سطرين منها .

٢ ص : مناها .

٣ المسبحي : سروراً بما آتى الله جلت قدرته .

٤ زيادة من المسبحي .

ضاحكاً تتصدَّعُ عنه دياجيرُ الشبهات ، وتنجلي منه ملابسُ الضلالات ، وهنأ الله الشيخَ ما رآه له أهلاً من هذا السناء الذي تقفُ دونَهُ هممُ المعالي ، وتضيءُ به ظُلَمُ الليالي ، وغرسَ عنده التوفيقَ الذي يسترهن لواءَ النعمة ، ويضمنُ بقاءَ العصمة .

وفي فصل من أخرى : ولولا أنّي إذا أردتُ المواصلةَ بنفسي ثَقَلْتُ ثقلين بالزيارة ، وبالدالة[1] المستعارة ، لما استنبتُ واللهِ على لساني قلمي ، ولا استنطقتُ يدي قبلَ فمي ، ولكن الاضطرار يقود وأتّبعُ ، والزمانَ يقولُ فأستمع .

وله من رقعة [في] فتح : ولما تقاربتِ الفئتانِ إذا بِعَدُوِّنا في عُدّةٍ قد اشتملتْ منهم على كلِّ سهمٍ في كنانتهم ؛ قد استكثروا من علوجٍ لا يَخُشُّون[2] حَوْمَةَ اللقاء ، ولا يثبتونَ على مقارعةِ الأكفاءِ ، فلما اجتمع أعداءُ الله وقلوبُهُمْ بالذّعرِ متفرّقة ، وأقدموا وأقدامُهُمْ القهقراءَ راجعة ، وكانت لنا عيونٌ تجثـمُ على مدارجِ أنفاسهم ، وطلائعُ تقبضُ على مسارح ألحاظهم .

وفي فصل منها : وبادَرَتْهُمْ فتيان بني عامرٍ على الجُرْدِ الصلادم[3] ، قد بَزُّوا الجُنَنَ تَعَجُّلاً للطِّراد،وتخفَّفوا من الرماح تقصيراً للبعاد،فوكزوهم بالرماح وكزاً ترك الدروعَ منهم غلائلَ ، وأمانيَّ الحياة فيهم قلائلَ،فلم يتركِ القتلُ منهم إلا أنفساً عافتها كرامُ السيوف،أوآخرين عزين[4] تكفكفُ عنهم الرحمُ العَطوف،يتمسكون بأنفسهم حَوْزاً ، ويعتدون ذلَّ الفرار عزّاً ، وافترقوا إلى أوطانهم يرقبون الليلَ كما يُرْتَقَبُ الصباح ، ويدلجون بكلِّ ماشٍ من الخيل بجناح ، وكان أميرهم في بُلَهْنِيَةِ الاستهامة بهم ، وقلة الفكر فيهم ، قد بات يعملُ كاسَهُ ويلهي جُلاَّسه ، وغدا سكرانَ

---

١ غير واضحة تماما في ص .

٢ يخشون : يدخلون

٣ ص : الصوارم

٤ ص : عن

٥ ص : عرينة (دون اعجام)

على فَرَسٍ جموحٍ يبادرُ النهابَ وهي أنفسهم ، ويحاولُ الغنائمَ وهي مُهَجُهُمْ ، فرقَصَتْ به الفرسُ فصادف ذلك الأَجَلَ المكتوب له. فجزى اللــه هذا الحيَّ من آلِ عامر أهنأ الجزاءِ عاجلاً ، وأدومَهُ آجلاً ، وثنى ببني عمنا الأقربين ، وعشيرتنا المستخلصين ، خفاجةَ ، وكذلك الجيران ، وأهل البلدِ والأعيان [١٤٤] وألفاف[1] كانتْ أسماؤهم نكرةً ، فعرَّفَتْها المواقفُ الحميدة ، وطوائف عاطلة حَلَّتها الخطا البعيدة ، وخاملة نبَّه عليها شكرُ السيوف لأيدٍ منهم وَصَلَتْ قصارَها ، وأَوْصَلَتْ في زحامِ الوردِ حوارها .

وفي فصل له : وكلّما هممتُ بمفاتحتِهِ اعترضتني خَجْلَةُ المتَارَكَةِ ، واستوقفتني غفلةُ المجانبة ، وخانتْ يدي قلمي ، فلم تَشْفِهِ باظهارِ ضميره ، ولم تحسنِ النيابة عنه في الاعتذارِ من تقصيره .

وهذه أيضاً جملةٌ من شعره في أوصافٍ شتى

قال :

عجبتْ هندُ من تَسَرُّعِ شيبي   قلتُ هذا عقبي فطامِ السرورِ
عوَّضتني يدُ الثلاثين من مسـ   ـكِ عذاري رشّاً من الكافور
كان لي في انتظارِ شيبي حساباً   غالَطَتْني فيهِ صروفُ الدهور

والبيت الثاني منها كقول الوزير أبي محمد ابن عبدون :

يا دهرُ ذنبكَ عندي غيرُ مكفورِ   على مَ عوَّضتَ مِنْ مسكي بكافورِ

وقال[2] :

---

١ ص : والفات

٢ منها أربعة أبيات في دمية القصر ١ : ٩٤ وثلاثة في الشريشي ٣ : ١٢٠ والأبيات ٩،٧،٦،٣،٥،٤،٢،١٠ في ريحانة الألباء ٢ : ٤٧٦

عُلِّمْتُ منطقَ حاجِبَيْهِ والبينُ ينشرُ رايتَيْهِ
وعرفتُ آلاتِ النعيم بقبلةٍ في عارضيه
ولقد أراه في الخليج[1] يشقّه من جانبيه
والماءُ مثلُ السيفِ وهو فِرِنْدُهُ في صفحتيه
لا تشربوا من مائِهِ أبداً ولا تَرِدُوا عليه
قد ذاب فيه الحسنُ[من] حَرَكَاتِهِ أو مقلتيه
والسلم أسلمُ فاحذروا من فترةٍ في ناظريه
صبغتْ بياضَ النيل حمرةُ وردةٍ [في] وجنتَيْه

وقال :

تمنَّعَ أنْ رأى زغبا بعارضِهِ قد التهبا
وتاهَ عليَّ أنْ أبدتْ عقاربُ صُدْغِهِ ذنبا
وقدَّرَ أنه سببٌ يقطِّعُ بيننا النسبا
ولا واللهِ لا آلو لحقٍ عنده طلبا
ولا خَلَّيْتُ في كفَّيْهِ قلباً طال ما انتهبا
أما عيناهُ اللّتانِ أباحتا الرِّيَبا

وقال وقد كسفت الشمس :

لمثلِ ذا اليوم يا معذّبتي كانت ترجِّيكِ أختُكِ الشمسُ
قومي اخلفيها في ذا الكسوفِ ففي وَجْهك عنها ان أوحشت [أُنْس][2]
وغالطي حاسبَ النجومِ فانْ لجَّتْ وغابتْ أصابَهُ لَبْسُ

---

[1] الشريشي والدمية : الغدير.

[2] موضع هذه اللفظة في ص : « خلف ».

وقال:

يومُ الكسوفِ جلا على بصري قمراً أحارَ الجنَّ والإنسا
قامتْ فأرْخَتْ من ذوائِبِهَا وتجلّلَتْ من شعرها لبسا
فسألتُها لمَ قد لبستِ دجىً قالتْ أُسَاعِدُ أختيَ الشمسا

وقال:

قالوا كسوفُ الشمسِ مقتربٌ قلت ادّخرتُ لدفعِ نائبها
ثِقَتي بكاسِفها وكاشِفها وبفضل ماحيها وكاسبها
مَنْ لو يشاءُ أعادَ مَشرِقَها متبسّماً لك من مغاربها
هيَ شُعْلَةٌ من نورِهِ فاذا ما شاء أظلمَ أو أضاءَ بها

وقال[1]:

أدِرْ كأسَ المدام فان قلبي أُتيحَ له عن التقوى ارتحالُ
حللتُ ببابلٍ وأردتُ ألاّ أهيمَ بسحرهم ، هذا محال

وقال[2]:

دنفٌ بحمصَ وبالعراقِ طبيبُهُ يُضْنيه عنه بعادُهُ ويذيبُهُ
ما ناله إلا الذي هو أهْلُهُ إذ غاب عن بلدٍ وفيه حبيبه
لزم السهادَ تحيّراً وتلدداً وتأسّفاً إذ أوبقته ذنوبه
زعم الفراقَ دعا به فأجابه ونعمْ دعاهُ فلمْ أراد يجيبه

---

١ تاريخ المسبحي : ٢٣٣/أ
٢ الشريشي ٣ : ١٢٠

وهذا كقول الآخر :

أَتَـظْعَـنُ عن حبيبكَ ثم تبكي ... عليه فمن دعاكَ إلى الفراقِ

وقال آخر :

كَذَبَتْكَ نفسُكَ لستَ من أَهْلِ الهوى ... تشكو الفراقَ وأنتَ عينُ الظالمِ

وقال ابن المغربي[1] :

ولما احتوى بدرَ الدجى صحنُ خدّه ... تحيّر حتى ما درى أين يذهبُ

تبلبلَ لما أنْ توسَّطَ خدَّهُ ... وما زال من بدر الدجى يتعجَّبُ

كأنَّ انعطافَ الصدغ لامُ أمامها ... أديبٌ يجيدُ الخطَّ أيَّانَ يكتبُ

وهذا المعنى كقول الآخر ، وأُنشِدُ القطعة بكمالها ، استيفاءً لجمالها :

تعلَّم العطفَ من صدغيه فانعطفا ... وكان من شأنِهِ ألاَّ يفي فوفى

دبَّ العذارُ على ميدانِ صفحته ... حتى إذا همَّ أن يسعى به وقفا

كأنه كاتبٌ عزَّ المدادُ به ... أراد يكتبُ لاماً فابتدا ألفا

وقال ابن المغربي :

حبيبٌ سرى يستقبلُ الليلَ وَحْدَهُ ... ويسبقُ آرام الصريم وأُسْدَهُ

فلا الأُنسُ من أمثاله الأُدمِ عاقَهُ ... ولا الذعرُ من أعدائِهِ الغُلْبِ صدَّه

يخوضُ إليّ الليلَ ما بلَّ عطفه ... ويفرج غيلَ الدوح ما حلَّ عقده

المصراع الأول منه كقول المعرّي[2] :

---

١ الأول والثالث في الشريشي ٥ : ٢٢٣

٢ شروح السقط : ١٢٢٣

عجبتُ وقد جزتِ الصراةَ رِفَلّةً ... وما خَضِلَتْ مما تَسَرْبَلْتِ أذيالُ[1]

[١٤٥]/ وقد طلعتْ في الرأس منّيَ رايةٌ ... ثكلتُ بها هزلَ النعيم وجدَّه

كلوحُ مشيبٍ لو يكون[2] تبسماً ... كما زعموا ما [إن] بكى القلب عنده

وما زَهَراتُ الشيبِ فيه ظوالمٌ ... كذا العشبُ يأتي يانعُ الزهرِ بعده

أخذتُ من الدهرِ التجاريبَ جملةً ... وقبلَ أشدّي ما بلغتُ أشده

قوله « كلوح مشيب » ينظر إلى قول ابن الرومي[3] :

لم يضحكِ الشيبُ من فَوْدَيْهِ بل كلحا ... سمِّ القبيحَ من الأسماءِ ما قَبُحا

ان كان ابنُ المغربيّ قد نَقَصَ معناه ، وطمسَ سناه ، فقد زاد فيه ما ذهبَ ببعض جنايته ، ومحا كثيراً من إساءته . وكان الناسُ قديماً وحديثاً يستعيرونَ لبياضِ المشيبِ التبسّمَ ، حتى جاء ابن الروميّ بحرُ الإبداع ، وعذبةُ لسانِ الاختراع ، فقال بيته المتقدم فأسكتَ به القائلين ، ودفع في صَدْرِ المتقدمين ، وبيّنَ أنه ربما كان الفضلُ للآخر ، وأبقى السالفُ للغابر . وأرى أوّلَ من نحا هذا المنحى ، وسلك بالشيب هذه المحجّة المثلى ، حيث استعار الضحكَ للشيب ، غير مبالٍ إلى ما في ذلك من العيب ، دعبل حيث يقول[4] :

لا تعجبي يا عبدَ من رجلٍ ... ضحكَ المشيبُ برأسه فبكى

فاستعار الجناح ، وغدا على ألسنةِ الرواةِ وراح ، وتتابع فيه الشعراءُ فأبدأوا فيه وأعادوا ، ونقصوا وزادوا .

١ الرفلة : الطويلة الذيل ؛ الصراة : مجتمع دجلة والفرات ؛ خضلت : ابتلّت .

٢ ص : يكن .

٣ ديوان ابن الرومي : ٥٦٣

٤ ديوان دعبل : ١١٧ وروايته : لا تعجبي يا سلم (وفي الديوان تخريج مستفيض)

وقال ابن المغربي[1] :

ولما دعوتُ الكأس تؤنسُ وحشتي لبعدكَ زادتني اشتياقاً إلى القربِ

ومالت بأعطافي لها أريحيةٌ فقربُكَ أحلى من جناها إلى القلب

فأنت مزاجُ العيشِ إن كان صافياً وأنت المعيرُ الصفوَ في كَدَرِ الشرب

وقال في غلام تركي وسيم ، كان به يهيم :

غزال لم أُلابِسْ قبله التبريحَ والكمدَا

أظنُّ عِدَاهُ حانيةً لعشقي مذ كذا رصدا

وقال :

يا أهل مصرٍ قد عاد ناسِكُكُمْ بالكَرْخِ بعد التقى إلى الفَتْكِ

جَمَّشَ قلبي [مُقَرْ]طَقٌ غَنِجٌ بدا لقلبي فيه من النسك

رمى فؤادي بسهمِ مقلتِهِ وكيف يُخْطي مولَّدُ الترك

وذكرت بمعنى البيت الثاني من هذه قول كشاجم ، وان لم يكن به ، فيتعلَّقُ بسببه[2] :

يقولون تُبْ والكأسُ في يد أغيدٍ وصوتُ المثاني والمثالث عالِ

[فقلت لهم لو كنتُ أزمعت توبةً وشاهدت هذا في المنام بدا لي]

وقال ابن المغربي[3] :

حبيبٌ مللتُ الصبرَ بعد فراقِهِ على أنّني عُلِّقته وأَلِفْتُهُ

محا سنٌّ يأسي شَخْصَهُ من تفكّري فلو أنني لاقيتُهُ ما عرفتُهُ

---

١ الشريشي ٥ : ٣٠٥

٢ انظر زهر الآداب : ٦١١ والشريشي ٥ : ٣٠٥

٣ تاريخ المسبحي : ٢٣٤/أ

وقـال :

اللـهِ يعلَـمُ ما إثـمٌ هممـتُ به إلا وَبَغَّضَـهُ خوفي من النار
وان نفسيَ ما هـامـتْ بمعصيـةٍ إلا وقلبـي عليهـا عاتـبٌ زارِ

ولـه في غلام نصراني :

رغبـتُ فـي ملّـةِ عيسى ومـا يخيـبُ من يـرغـبُ في ملَّتِـهْ
رغَّبنـي في دينـه شادنٌ رأيتُـهُ يخـطـرُ من بيعتـه
صنـعُ حكيـمٍ ما أرى أنّـهُ يسـلِّـطُ النـارَ على حكمتـه
إنْ كان ذا من ساكنـي نـارِهِ فنـارُهُ أطيـبُ من جنتـه

ومن مرثية له في الشريف أبي الحسن ، صهره :

يا ناعـيَ الـدين والـدنيا أشِـدْ بهما في حيث سالَ بآلِ اللـه وادِيْهِ
هذي معـالي قريشٍ غاضَ آخرها ومجـد هاشـمَ زارَ التـربَ باقيه
قل يا أبـا حسـنٍ والقـولُ ذو سعةٍ[1] لولا حجـابُ من الثَّريـاءَ[2] يَثْنيهِ
أآخـرُ الدهـرِ أم تُحْنـى عواطفُهُ وفيصـلُ البـينِ أم يُرْجَـى تلافيه
كلاً لقـد فاتَ منـك الوصـلُ آملَه مذ شَيَّدَ الجـدثَ المأهـولَ بانيه
هُنّيتَ ربعـاً برغـمِ المجـدِ تسكنُهُ تلقـى أبـاك علياً في مغانيه
إنْ أخْـلُ بعـدكَ بالـدنيا أُرَوِّضها فقـد خلا بضمـيرِ النبـع باريه
هل كنـتَ تعلـمُ إذ عوّدتنـي أبداً حُسْـنَ التصبّـرِ أنـي فيك أُفنيه

وهو القائل[3] :

---

١ ص : في سعة
٢ الثرياء : الأرض ، أو الثرى والندى
٣ الأبيات في ياقوت ١٠ : ٨٢ والمنتظم ٨ : ٣٣ وابن خلكان ٢ : ١٧٦

كنتُ في سَفْرَةِ البطالةِ والغيِّ زماناً[1] فحانَ منه قدومُ
تبتُ عن كلِّ مأثم فعسى يُمحى بهذا الحديثِ ذاك القديم
بعد سبعٍ[2] وأربعين لقد ما طلتُ إلاّ أنّ الغريمَ كريم

انتهى ما أثبته لأبي القاسم من فصوص نثره ، وملح شعره ، وأختم ذكره بخبر يتعلق بكرمه ، ومحاسن شيمه[3]: كان يوماً بدارِهِ ببغداد في نوروز سنةِ ثماني عشرة وأربعمائة ، وهو اذ ذاك وزيرها ، وله تدبيرُهَا ، فدخل عليه وجوهُ أمراءِ الديلم والاسفهسلارية من الأتراك على طبقاتهم ، ووضعتِ الهدايا بين يديه على رَسْمِ الفرس ، فلما/[١٤٦] خفَّ المجلس وتعلىَّ النهار ، استؤذن عليه للديلمي مهيار ، فأذنَ له ودخل ، فلما مثل بين يديه وسلَّم قال : أيدك الله ، هذه البضاعةُ التي معنا كانت كاسدة ، وقد وجدنا لها نفاقا بحضرتك ، فقال : هات ما معك ، فأنشده قصيدتَهُ التي أولها[4] :

* عسى مُعْرِضُ وجهُهُ مُقْبِلُ *

وهي قصيدةٌ نيَّفَ فيها على المائة ، وقد أثبتُّ ما أخرجتُ منها في موضعها من هذا القسم، فجعل ينشدها وابنُ المغربي يستعيد أبياتَهُ النادرةَ فيها ، ويكثر إعجابه بها ، ويجمع كفَّيه ويبسطهما ويقول : أحسنتَ والله ، أجدتَ والله ، إلى آخرها . فلما فرغ أشار له إلى دراهيم ودنانيرَ كانت بين يديه دونَ باقي الهدايا ، ففتح مهيارُ كمّه الأَيْسَرَ وجمع بيده اليمنى حتى ملأ كمه الأيسر ، ثم فتح كمه الأيمن وجمع بيده اليسرى إلى أن لم يبق في الموضع دينار ولا درهم ، ونهض ؛ وسئل مهيار بعدُ عن

١ ياقوت : كنت في سفرة الغواية والجهل مقيماً
٢ ياقوت : بعد خمسٍ .
٣ بغية الطلب ٥ : ٢٩ ، ١٩
٤ ديوان مهيار ٣ : ١٢٤ وعجز البيت : فيوهب للآخر الأول .

زنةِ ما حصل له يومئذ فقال : كانت الدنانير ألفاً ومائةَ مثقالٍ وعشرين ، والفضة ثمانيةَ آلافِ درهم .

فصل في ذكر الفقيه الحافظ
عبد الوهاب بن نصر المالكي البغدادي[1]

ناصر دين المالكية ، وإيراد قطعة من شعره
الذي هو حلاوة الأمان ، وبشر وجه الزمان

كان أبو محمد في وقتِهِ بقية الناس ، ولسانَ أصحابِ القياسِ ، وهو أحدُ مَنْ صرّف وجوه المذهب المالكيّ ، بين لسانِ الكنانيّ ، ونظرِ اليونانيّ ، فقدَّرَ أُصولَهُ ، وحرَّر فصوله ، وقرّر جُمَلَهُ[2] وتفاصيله ، ونهَجَ فيه سبيلاً كانت قبله طامسةَ المنار ، دارسةَ الآثار ، وكان أكثرُ الفقهاءِ ممن لعلّه كان أقرب سَنَداً ، وأرْحَبَ أَمَداً ، قليلَ مادة البيان ، كليلَ شَبَاةِ اللسان ، قلَّما فصَّلَ في كتبه غيرَ مسائلَ يلقفها ولا يثقفها ، ويبوِّبُها ولا يرتبهـا ، فهي متداخلةُ النظامِ ، غيرُ مستوفاةِ الأقسام ، وكلُّهُمْ قُلِّدَ أَجْرَ ما اجتهد ، وجـزاء ما نوى واعتقد .

وقد وجدتُ له شعراً معانيه أجْلى من الصبح ، وألفاظُـهُ أحلى من الظَّفَـرِ بالنُّجْح ؛ ونَبَتْ به[3] بغداد ، كعادة البلاد ، بذوي فضلها ، وعلى حُكْمِ الأيامِ في مُحْسني أهلها ، فخلع أَهلها ، وودّع ماءها وظلَّها . وقد حُدّثت أنه شيَّعَهُ يوم فَصَلَ

١ ترجمة عبد الوهاب المالكي في طبقات الشيرازي : ١٦٨ وتاريخ بغداد ١١ : ٣١ والمنتظم ٨ : ٦١ وترتيب المدارك ٤ : ٦٩١ والديباج المذهب : ١٥٩ ومرآة الجنان ٣ : ٤١ وابن خلكان ٣ : ٢١٩ والمرقبة العليا : ٤٠ وابن كثير ١٢ : ٣٢ والشذرات ٣ : ٢٢٣ والفوات ٢ : ٤١٩ والزركشي ٢ : ٢٠٢ وتبيين كذب المفتري : ٢٤٩ والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٧٦ وورد في دمية القصر (١ : ٢٩٥ ـ ٢٩٧) ترجمة أبي نصر عبد الله بن علي بن نصر المالكي، ولعل صوابه « عبد الوهاب بن علي » إذ نسب له الباخرزي أبياتاً نسبت لعبد الوهاب في اكثر المصادر .

٢ ص : حصله .

٣ ص : بعد

عنها ، من أكابرها ، وأصحابِ محابرها ، جملةٌ موفورة ، وطوائفُ كثيرة ، وأنّه قال لهم عندما وقفهم للتوديع ، وعزم عليهم في الرجوع : واللهِ يا أهلَ بغداد لو وجدتُ بين ظهرانيكم رغيفين كلَّ غداةٍ وعشيّةٍ ، ما عدلتُ ببلدكم بلوغَ أمنية ؛ والخبزُ عندهم يومئذٍ ثلاثمائة رطل بمثقال . وزعموا أنه ارتجل يومئذ هذه الأبيات[1] :

سلامٌ على بغـدادَ في كلِّ موطنٍ ... وحـقَّ لهـا منّـي السـلامُ المضاعَفُ
لعَمـركَ ما فارقتُهـا قالياً لها ... وإنـي بشـطَّـيْ جانبيهـا لعارف
ولـكنهـا ضاقـتْ علـيَّ برحبها ... ولـم تكـنِ الأرزاقُ فيهـا تساعف
فكانت كخلٍّ كنتُ أهوى وصالَهُ ... وتنأى بـه أخـلاقُـهُ وتخـالف[2]

وبلغني أنه اجتاز في وجهته تلك بمعرةِ النعمان ، وبها يومئذ أبو العلاءِ أحمدُ بن سليمان ، فضيَّفه ، وكتب اليه بما أثبته في موضعه ، وفي ذلك يقول أبو العلاء[3] :

والمالـكـيُّ ابـنُ نصرٍ زار في سَفَرٍ ... بلادنـا فحمـدنـا النـأيَ والسَّفَرا
إذا تفقَّـه أحيا مـالـكـاً جـدلاً ... وينشـرُ الملـكَ الضـلّيلَ إن شعـرا

واستقرَّ الفقيه أبو محمدٍ بمصر ، فحملَ لواءَها ، وملأَ أرضها وسماءَها ، واستتبع سادَتَها وكبراءها ، وتناهتْ إليه الغرائبُ ، وانثالتْ في يديه الرغائب ، فمات لأوّلِ ما وصلها ، من أكلةٍ اشتهاها فأكلها ؛ زعموا أنه قال وهو يُقَلَّب ، وَنَفَسُهُ [قد] تصَّعدَ وتصوّب « لا إله إلا الله ، إذا عشنا متنا » . وكانت وفاته بها رحمه الله سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة .

وقد أخرجتُ من شعره ما يروقُ العيونَ ، ويفوقُ المنثور والموزون . ومن شعره

١ وردت في اكثر المصادر التي جاءت فيها ترجمته ؛ وقيل إن الأبيات ليست له ؛ وانظر الشريشي ٤ : ٣١٧

٢ ترتيب المدارك : وتجانف .

٣ شروح السقط : ١٧٤٠ وابن خلكان : ٢٢٠ والفوات : ٤٢٠ والشذرات : ٢٢٤

مما أنشده أبو المطّرف المالقيّ[1] :

لا تتعجَلْ قطيعتي فكفى   يوماً يدُ الدهر بيننا تَقْطَعْ
عمّا قليلٍ تحين[2] فرقتنا   ثمّتَ لا مُلْتَقَى ولا مَجْمَعْ

واستقضي بمدينة اسعرد[3] ، فبلغه عن أحد أدبائها أنه قال عنه/ [١٤٧] كلاماً معناه : القاضي ـ أعزّه الله ـ مجيد ، في كلِّ ما يريد ، إلا أنه ربما فَتَرقولُهُ إذا شعر . فقال عبد الوهاب :

أبغي رضاكمْ جاهداً حتى إذا   أمَّلْتُ حُسْنَى عاد لي منكمْ أذى
إني لأُصْبِحُ من تَجَنٍّ خائفاً   وَبِسَلْمِكُمْ من حربكم متعوِّذا
فالى مَ صبري للتعتّب منكمُ   وإلى مَ إغضائي الجفونَ على القذى
لو شئتُ أمَّنني القريضُ مِنَ الذي   أنا خائفُ ولكان لي مستنقذا
فيظلُّ بي متململاً متنغصاً   من كان قبل الشرِّ بي متلذذا
لكنّني أرعى الودادَ وإن غدا   غيري به متشدّقاً[4] متطرمذا[5]
وأظلُّ يملكني الحنوُّ عليكمُ   وأكفُّ عائرَ أسهمي أن ينفذا
وأُجِلُّ قدري في المودّة أن أُرى   بعد الحفاظ لعهدهمْ ان ينبذا
أتظنّ بغداديَّ طبعٍ خالص   يُلْفَى هزيمَ من اغتدى متبغددا
هيهات إنَّ من الظنون كواذباً   والحزمُ أوْلَى في الحجى أن يحتذى
إن تعتذْر منها تجدني قابلاً   أو رمتَ تجديدَ الودادِ فحبذا

١ السريسي ٢ : ١١٣ ـ ١١٤
٢ ص : تجر
٣ اسعرد (وتكتب أيضا : أسعرد ، اسعرت ، سعرت) إلى الجنوب من ميافارقين (انظر تقويم البلدان : ٢٨٨ ـ ٢٨٩)
٤ ص : متسوقا .
٥ المطرمذ : الصلف المتكبر بما لم يفعل .

طبعي التجاوزُ عن صديقٍ إن هفا | وبِغَفْرِ زلّات الأَخلاَّءِ اغتذى
فتجنَّبنْ عَتْبي وَعُدْ لمودتي | لا تصغينَّ لقولِ واشٍ إن هذى
واعلمْ بأني لستُ غافرَ زلةٍ | إن رابني ظنٌّ بكمٍ من بعدِ ذا
ذو الحلم إن سالَمْتَهُ لك منصفٌ | فاذا نضا عنه تجَدْهُ قد بذا
يا شاعراً ألفاظُهُ في نظمه | دُرَراً غَدَتْ وزبرجداً وزمرّذا
خذها فقد نظّمتها لك حكمةً | فيها وقلَّ لمثلها أن يؤخذا
حتى تظلَّ تقولُ من عَجَبٍ بها | مَنْ قال شعراً فليقلْهُ هكذا

وقال [1] :

ونائمةٍ قبَّلْتُها فتنبهتْ | وقالت تعالَوْا فاطلبوا اللصَّ بالحدِّ
فقلتُ لها إنّي فديتكِ غاصبٌ | وما حكموا في غاصبٍ بسوى الردّ
خذيها وحطي [2] عن أثيمٍ ظلامةً | وان أنت لم تَرْضَي فألفُ عن العدّ
فقالت قصاصٌ يشهدُ العقل أنه | على المذنبِ الجاني ألذُّ من الشهد
وقالتْ ألم أُخْبَرْ بأنكَ زاهدٌ | فقلت بلى ما زلتُ أَزْهَدُ في الزهد
فباتتْ يميني رهن [3] هميانِ خَصرْها | وباتت يساري رهن [3] واسطةِ العقد

وقال [4] :

ومحجوبةٍ في الخدر عن كلِّ ناظرٍ | ولو برزتْ بالليل ما ضلَّ مَنْ يسري
أَقولُ لها والعيسُ تُحْدَجُ للنوى | أعدّي لفقدي ما استطعت من الصبر

١ أوردها ابن خلكان والفوات والشذرات ومرآة الجنان وابن كثير .

٢ في رواية : وكفي

٣ في رواية : وهي ... وهي

٤ وردت ثلاثة أبيات منها في ياقوت ١٠ : ٨٨ وابن خلكان ٢ : ١٧٣ منسوبة للوزير المغربي ؛ وأربعة في الشريشي ١ : ٢٩٩ للقاضي عبد الوهاب .

سأُنْفِقُ ريعانَ الشبيبةِ آنفاً   على طَلَبِ العلياءِ أو طَلَبِ الأجر
أليسَ من الخسرانِ أنَّ ليالياً   تمرُّ بلا نفعٍ وَتُحْسَبُ من عمري
وإنّا لفي الدنيا كواكبُ لجّةٍ   نُظَنُّ قعوداً والزمانُ بنا يجري

وقال [1] :

حمدتُ إلٰهي إذ بُليتُ بحبّها   وبي حَوَلٌ يُغْني عن النَّظَرِ الشَّزْرِ
نظرتُ إليها والرقيبُ يخالني   نظرتُ إليه فاسترحتُ من العذر

وقال :

لا تتركِ الحزمَ في شيءٍ تحاذرُهُ   فان سلمتَ فما في الحزم من باسِ
العجزُ ذلٌّ وما بالحزمِ من ضَرَرٍ   وأحْزَمُ الحزم سوءُ الظنِّ بالناس

وقال :

لستُ وإن كنتُ معنّىً به   مشتكياً منه أذى حُبِّهِ
بل راضياً ما كان منه وإنْ   حُمِلْتُ في الحبِّ على صعبه
مُرُّ الهوى أطيبُ من عَذْبِهِ   وَجَدْبُهُ أنعمُ من خصبه
ما صدقَ الحبَّ امرؤ لم تَبِتْ   نيرانه تُضْرَمُ في قلبه
يستعذبُ التعذيبَ فيه وإن   آل به ذاك إلى نحبه
لا باغياً منه نوالاً ولا   يشكو الذي يلقاه من كربه

وقال :

الله يعلمُ أني يومَ بينهمُ   ندمتُ إذ ودَّعتني غايةَ الندمِ

١ انظر حاشية : ٢ في ابن خلكان : ٢٢١ ونسبها ابن خلكان نفسه في ٤ : ٣٨١ لأبي حفص الشطرنجي .

تزاحمتْ في فؤادي للنوى حُرَقٌ تزاحُمَ الدمعِ في أجفانِ منسجم
ثم انثنيتُ وفي قلبي لفرقتهمْ وقعُ الأسنَّةِ في أعقابِ منهزم

وكتب يخاطب المستنصر بالله صاحب مصر : حصَّنَ الله المؤمنين من الشيطانِ [بِجُنَنِ] الطاعة ، ودثّرهم من قرِّ وسواسه بسرابيل القناعة ، ووهَبَهُمْ من نِعَمِهِ مَدداً ومن توفيقه رَشَداً ، وصيرَّهُمْ إلى مَنْهَجِ الاسلام وسبيلهِ الأَقْوم ، وجعلهم من الآمنين فيما هم عليه موقوفون ، وزيَّنَهُمْ بالتثّبتِ فيما هم عنه مسؤولون ﴿وما ربُّكَ بظلامٍ للعبيد﴾ (فصلت : ٤٦)

كتابي إليك من الجُبِّ بازاءِ مصرك ، وفناء برّك ، بعد أن كانت بغداد لي الوطنَ ، والأُلفةَ والسَّكَن ؛ ولما كنتُ على مذهبٍ صحيح ، ومتجرٍ ربيح ، كَثُرَتْ عليَّ الخوارج ، وشقَّ [على] الماءِ ارتقاءُ المناهج ، ﴿ولينصرَنَّ اللهُ مَنْ ينصره ، إن الله لقويٌّ عَزيزٌ﴾ (الحج : ٤٠) فأتيتُ مكّةَ -حرسها الله - لكي أقضي فرضَ الحج ، من عجّ وثجّ ، أسألُ الله تعالى القبولَ ، وكيف وإنما يتقبَّلُ الله من المتقين ؛ وقد كنتَ عندي ذا سُنَّةٍ ودين ، مُحّباً في الله تعالى وفي النبيّين ، وفي محمدٍ صلى الله عليه وسلم والمهديين ، فورد الناطقون ، وأتى المخبرون ، بخبرِ ما أنت عليه ، فذكروا أنَّكَ مُدْحِضٌ لمذهبِ مالك ، موعدٌ/[١٤٨] لصاحبه بأليمِ المهالك ، هيهات هيهات ﴿إنّكَ ميّتٌ وإنَّهُمْ ميّتون . ثم إنَّكُمْ يومَ القيامةِ عند رَبِّكُمْ تختصمون﴾ (الزمر :٣٠-٣١) فأبيتُ القبولَ على أمرٍ لم يصحَّ بيانُهُ لكثرةِ الكذبِ في الدنيا ، وإذ لا يحلُّ لمسلمٍ أن يموتَ طوعاً ، فأردتُ الكشفَ عن ذلك بكتابٍ منك ، والسلامُ على من اتّبعَ الهدى .

جواب المستنصر بالله : حَرَسَ الله مهجتك ، وطوَّلَ مُدَّتَك ، وقدَّم أميرَ المؤمنين إلى المنية قبلك ، وخصَّه بها دونك ، ورد كتابُكَ المكرّم ، وأتى خطابُكَ المعظّم ، يُفْصِحُ البكم ، ويُنْزِلُ العُصْمَ ، هَبَّتْ عليه رياحُ البلاغةِ فنمقته ، ووكَفَتْ

عليه سحائبُ البراعةِ فرقّقَتْهُ ، فيا له من خطٍّ بهيّ ، ولفظٍ شهيّ ، تذكر فيه حُسْنَ ظنونك بنا ، وتثبتُ مآثرنا ، فلما أن عرَّست بازائها ورد من فَسخَ عليك ، فَخُذْ بظاهِرِ ما كان عندك وَرِدْ ، وَدَعْ لربِّكَ عِلْمَ ذاتِ الصدورِ ، والسلام .

ومن شعره أيضاً قوله[1]

أهيمُ بذكرِ الشَّرقِ والغربِ دائماً ... وما بيَ شرقٌ للبلادِ ولا غربُ
ولكنَّ أوطاناً نأتْ وأحبّةً ... فَعُدْتُ متى أذكرْ عهودهُمُ أَصْبُ
إذا خطرتْ ذكراهُمُ في خواطري ... تناثَرَ من أجفانيَ اللؤلُؤ الرطب
ولم أنْسَ من ودَّعتُ بالشَّط سُحْرَةً ... وقد غرَّد الحادون واستعجل الركب
أليفان هذا سائرٌ نحو غربةٍ ... وهذا مقيمٌ سار عن صَدْرِهِ القلب

وقال[2] :

ومحطوطةِ المتنين مهضومةِ الحشا ... مُنعَّمةِ الأطرافِ تَدْمىَ من اللمسِ
إذا ما دخانُ الندِّ من طيبها علا ... [على] وجهها أبصرْتَ غيماً على الشمس

وقال :

رحلتمْ فكم من أنّةٍ بعد زَفْرةٍ ... مبيِّنةٍ للناس شوقي إليكمْ
فان كنتُ أعتقتُ الجفونَ من البكا ... فقد ردّها في الرقِّ حزني عليكم

وقال :

يأبى مقامي في مكانٍ واحدٍ ... دهرٌ بتفريق الأحبَّةِ مولعُ
كفكفْ قِسيَّكَ يا فراقُ فانّه ... لم يبق في قلبي لسهمكَ موضع

---

١ الأبيات التالية عدا الثالث في ابن خلكان : ٢٢١ والمنازل والديار : ١١٩/أ ووردت في القسم الرابع من الذخيرة : ١٠١ منسوبة لأبي الفضل البغدادي .

٢ وردا في هذا القسم الرابع : ٩٦ منسوبين لأبي الفضل البغدادي .

وقال[1] :

تذكَّرَ نجداً والحمى فبكى نجدا ... وقال سقى الله الحمى وسقى نجدا
وحيَّتْهُ أنفَاسُ الخزامى عشيّةً ... فهاجَتْ إلى الوجدِ القديم له وجدا
فأظهر سلواناً وأضمرَ لوعةً ... إذا طُفِئت نيرانها وقدت وقدا
ولو أنه أعطى الصبابة حقّها ... لأبدى الذي أخفى وأخفى الذي أبدى
ولم أنْسَهُ والسكرُ يفتلُ قدَّه ... إذا ما تثنّى كدتُ أعْقِدُهُ عقدا

وقال :

بالكرخِ من جانبِ الغربيّ عنَّ لنا ... ظبيٌ ينفِّرهُ عن وصلنا نفَر
ذؤابتاه نجادا سيفِ مقلتِهِ ... وجفنُهُ جفنه والشفرةُ الشفر
ضفيرتاه على قتلي تضافرتا ... يا من رأى شاعراً أودى به الشعر

وقال :

من بعد ودّي رمتمُ أن تهجروا ... ما بعدَ فُرْقَةِ [مزا]معين تخيُّرُ
وزعمتمُ أن الليالي غيَّرتْ ... عهدَ اللوى لا كان من يتغير
إنْ شئتمُ أن تُنْصفوني في الهوى ... لا تَقْطعُوا حبلَ الوصالِ وتغدروا
رُدُّوا الفؤادَ كما عهدتُ إلى الحشا ... والمقلتينِ إلى الكرى ثم اهجروا

وقال :

أتبكي على بغدادَ وهي قريبةٌ ... فكيف إذا ما ازددتَ عنها غداً بعدا
لعمركَ ما فارقتُ بغدادَ عن قلىً ... لها أنْ وجدنا للفراقِ بها بدا
إذا ذَكَرتْ بغدادَ نفسي تقطَّعتْ ... من الشوق أو كادت تموتُ بها وجدا
كفى حزناً إنْ رُمْتُ لم أستطعْ لها ... وداعاً ولم أُحْدِثْ لشاطئها عهدا

[1] وردت ص : ١٠٢ من هذا القسم منسوبة لأبي الفضل البغدادي .

وقال[1]:

تملكتَ يا مُهْجَتي مُهْجتي ... وأسهرتَ يا ناظري ناظري
وما كان ذا أملي يا ملولُ ... ولا خَطَرَ الهجرُ في خاطري
فجدْ بالوصالِ فدَتْكَ النفوسُ ... فلستُ على الهجر بالقادر
وفيكَ تَعلّمْتُ نظمَ الكلامِ ... ولقّبني الناسُ بالشاعر
أيا غائباً حاضراً في الفؤاد ... سلامٌ على الغائبِ الحاضر

وقال :

وكلُّ مودّةٍ في اللهِ تبقى ... على الأيامِ من سَعَةٍ وضيقِ
وكلُّ مودةٍ في ما سواه ... فكالحلفاءِ في لَهَبِ الحريق

وقال :

أمنزِلتَيْ سلمى وحسبي رُباهما ... فمجتَمعَيْ واديهما بأُثالِ
سلامٌ على تلك المعاهدِ إنها ... مهبُّ جنوبي أو مَصابُ شمالي
لياليَ لا أخشى حزونَ قطيعةٍ ... ولا أمشِ إلاّ في سهولِ وصالِ
فقد صار حظّي من جميع لقائكمْ ... تَعَرُّضَ برقٍ أو طروقَ خيال

وقال :

يا أملحَ الناسِ بلا مريةٍ ... من غير مستثنىً ولا مستعادْ
ما زادني صدُّكَ إلاّ هوىً ... والشَّزْرُ [من] عينيك[2] إلاّ وداد
فاحكمْ بما شيتَ ففيه الرِّضَى ... وكنْ كما شيتَ فأنتَ المراد

---

[1] وردت منسوبة للوأواء الدمشقي في الشرشي ١ : ١١٢ وهي في ديوانه : ٩٩ ومنها ثلاثة أبيات في اليتيمة ١ : ٢٩٦ له أيضاً .

[2] ص : وسود عينيك .

وما عسى تبلغُهُ طاقتي … وإنّما بينَ ضلوعي فؤاد

وقال :

فؤادي فرَّ من جَسَدي إليكمْ … فجئتُ اليومَ أطلبه لديكُمْ
فضمّوا الجسمَ أو ردّوا فؤادي … فما في ردِّهِ حرجٌ عليكم

وقال :

يا لهفَ نفسي على شيئينِ لو جُمِعا … عندي لكنتُ إذنْ من أسعدِ البشرِ
[١٤٩] كفافُ عيشٍ يقيني كلَّ مسألةٍ … وخدمةُ العلمِ حتى يَنْقضي عُمُري

وقال [١] :

أشكو الذين أذاقوني مودَّتَهُمْ … حتى إذا أيقظوني في الهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمتُ منتصباً … بحملِ [٢] ما حَمَّلوا من ودّهم قعدوا
لأخرجنّ من الدنيا وحُبّكمُ … بين الجوانح لم يشعرْ به أحَدُ
ألِّفتُ بيني وبين الحبِّ معرفةً … ما تنقضي أبداً أو ينقضي الأبد

وقال :

ولما رأيتُ العيشَ أزمعَ للنوى … عزمتُ على الأجفانِ أن تترقرقا
فخذ حُجَّتي من تَرْكِ قلبيَ سالماً … وجيبي ومن حَقَّيْهِمَا أن يمزقا
يدي ضَعُفَتْ عن أن تمزّقَ جيبها … ولو كان قلبي حاضراً لتمزّقا

وقال :

حَرِّق سوى قلبي وَدَعْهُ فانّني … أخشى عليك وأنت في سودائِهِ
جاوَرْتَهُ سوءَ الجوارِ فَسُؤْتَهُ … لما حللتَ فِناءَه بِفَنائِهِ

١ هذه الأبيات للعباس بن الأحنف (ديوانه : ٨٤) والبيت الأول منها ـ في الأقل ـ لا يمكن أن يكون للقاضي عبد الوهاب لوروده في مصادر سابقة لعصره مثل الأغاني والشعر والشعراء ؛ وقد ورد في الذخيرة : ٥١٤ منسوباً للعباس ابن الأحنف .

٢ ديوان العباس : بثقل ؛ ص : معتدلاً بحمل ... فقدوا

وقال :

في النَّفْسِ ضيقٌ وفي الفؤاد سَعَهْ ... فآلةُ الجودِ غيرُ مُتَّسِعَهْ
البخلُ لا أَستطيعُ أفعلُهُ ... والجودُ لا أستطيع أن أدعه

وقال :

قَضَتْ أيامُنا سهماً صحيحاً ... لمن يأوي إلى فهمٍ سقيمِ
كأنَّ عليَّ للإعدامِ دَيْناً ... فلازمني ملازمةَ الغريم

وقال :

يحتاجُ مَنْ كان في مواعِدِكُمْ ... إلى ثلاث من غير تكذيبِ
أموال قارون يستعينُ بها ... وعمرِ نوحٍ وصبرِ أيوب

وقال :

طُوِّلتُ للنفسِ في الأماني ... فحسرتي اليومَ حسرتان
لما رأيتُ الشبابَ ولَّى ... وطالعَ الشيب قد علاني
أيقنتُ [أني] على فناءٍ ... مشمّر الذيلِ غير وان
يا طولَ شوقي إلى أُناسٍ ... خَلَّفني عنهم التواني

وقال :

أنا في الغربة أبكي ... ما بكتْ عينُ غريبِ
لم أكنْ يومَ خروجي ... من بلادي بالمصيب
عجباً لي ولتركي ... وطناً فيه حبيبي

وقال[1] :

بغدادُ دارٌ لأهلِ المالِ واسعةٌ ... وللصعاليكِ دارُ الضَّنْكِ والضيقِ

---

[1] ورد البيتان في ابن خلكان : ٢٢١ وترتيب المدارك : ٦٩٤ والفوات : ٤٢٠ والديباج : ١٦٠ وابن كثير : ٣٣ والشريشي ٤ : ٣١٧

أصبحتُ فيها مهاناً في أزقتها[1]   كأنني مصحفٌ في بيتِ زنديق

وقال :

جَرِّدْ عزيمةَ ماضي الهمِّ معتزم   ودونَ نيلِ الذي تبغيه لا تنمِ
ولا يصدَّنْكَ عنها خوفُ حادثةٍ   فانما المرءُ رهنُ الموتِ والسقم
ما قدَّر الله آتٍ،كنتَ في سفرٍ   أو في مقرّك بين الأهل والحشم

وقال :

إن يكن ما بكَ هزلٌ   فالذي بي منكَ جِدُّ
جملةٌ تغني عن التفسير :   ما لي عنكَ بدّ

وقال :

إن تُرِدِ الوصلَ فهذا أنا   وإنْ تُرِدْ هجري لكَ الأمرُ
ما أنا محتاجٌ ولا وامقٌ   فواحدٌ وَصْلُكَ والهجر

وقال :

لما نَشَرْنَ على عَمْدٍ ذوائبها   يكادُ منها فتيتُ المسك يَنْتَشِرُ[2]
تقولُ يا عمّتا كفّي ذوائبهُ   ويحي ضنيتُ وأَخْفَى جيديَ الشعر
مثلَ الأساودِ قد أعيا مواشِطَها   فيه تضلُّ مداريها وتنكسر
تدعو على شعرها لما أضرَّ بها   يا ليته كان [فيه] الجَعْدُ والقِصَرُ

وقال :

رحلتُ وخلَّيْتُ الفؤادَ لديكمُ   رهيناً وإن لم تَخْلُ منه الأضالعُ
فان أنتمُ ضيعتموه أسأتمُ   وماالحقُّ إلا أن تصانَ الودائع

[1] ترتيب المدارك : مضاعا بين أظهرهم
[2] ص [illegible]

وقـال :

أطـال بيـنَ الـديـارِ ترحـالي قصـورُ مـالي وضـعـفُ آمـالي

إن بُرْتُ في بلـدة مشيتُ إلى أخـرى فمـا تسْـتقـلُّ أجمـالي

كأننـي فكـرة الموسـوسِ مـا تبقـى مدى ساعـةٍ على حال

وقال يتشوق إلى بغداد[1] :

خليليَّ في بغـدادَ هل أنتما ليا على العهـدِ مثلي أم غدا العهـدُ باليا

وهــل أنــا مذكورٌ بخـيرٍ لديكما اذا ما جرى ذكرٌ بمـن كان نائيا

وهـل ذَرَفَـتْ عنـد النـوى مقلتاكما علـيَّ كما أُمسي وأُصْبـحُ باكيا

وهــل فيكما مَنْ إنْ تنـزَّلَ منزلاً «أنيقـاً وبستانـاً من النَّـوْرِ حاليا»

«أجـدَّ لنـا طيبُ المكانِ وحسنُهُ مُنـىً فتمنينـا فكنـت الأمانيا»[2]

كما بيَ عن شوقٍ شديدٍ اليكما كأنَّ على الأحشـاء منـه مكاويا

على أدمـعٍ منهلّـةٍ فتأمَّـلا كتابـي تبـنْ آثارهـا في كتابيا

ولا تيأسـا أن يجمعَ اللـه بيننا كأحسـنِ ما كنّا عليه تصافيـا

«فقـد يجمـع اللـه الشتيتـين بعدما يظنـان كلَّ الظـنِّ أن لا تلاقيا»[3]

فدىً لك يا بغـداد [أهـلاو] منزلا ولـم أرَ فيهـا مثـلَ دجلـةَ واديا

ولا مثـلَ أهليهـا أَرقَّ شمائلاً وأعـذبَ ألفاظـاً وأحلى معانيا

وكم قائـلٍ لو كان ودُّكَ صادقاً لبغـدادَ لم ترحـلْ ، فكان جوابيا

«يقيمُ الرجـالُ الأغنياءُ بأرضهمْ وترمـي النـوى بالمعسرين المراميا»[4]

---

١ وردت الأبيات ١٢ ـ ١٤ من هذه القصيدة في المرقبة العليا : ٤١ وترتيب المدارك : ٦٩٤

٢ يضمن ويجري بعض التحوير في قول الشاعر :

ولـمـا نزلنـا منـزلا طلـه النـدى أنيقا وبستاناً من النور حاليا

أجـدَّ لنـا طيـب المكـان وحسنـه .... (البيت)

٣ مضمن أيضاً من شعر المجنون .

٤ الأبيات الثلاثة الاخيرة مضمنة من شعر إياس ابن القائف (الحماسية رقم : ٤٠٦ في شرح المرزوقي) وإن لم يرد البيت الأوسط في الحماسية المذكورة .

«ومـــا هجـــروا أوطانهُـــمْ عن ملالةٍ ولـــكن حذاراً من شماتِ الأعاديا»
«إذا زرتُ أرضـاً بعـد طولِ اجتنابها فقـدت حبيبـي والـديارُ كما هيا»

وقـال :/[١٥٠]

ومـــاذا عليكم لو مَنَنْتُـمْ بزورةٍ فأجزلتـمُ فيهـا علينـا التفضّلا
فان لم تكونـوا مثلَنَـا في اشتياقنا فكونـوا أناسـاً يعرفـون التجملا

وقـال[١]:

هبني أسأتُ كما زعمتَ فأينَ عاقبةُ الأُخُوَّهْ
ولئن أسأتَ كما أَسأتُ فأين فَضْلُكَ والمروّه

وقـال :

ولما حدا الحـادي بِعِيسِ أَحِبَّتـي ونـادى غرابُ البـينِ بالبـينِ يهتفُ
بكيتُ دمـاً حتـى لقـد قال قائلُ تَرَى ذا الفتى من جَفْنِ عينيه يُرْعَفُ

وقـال :

قلـتُ لهـا يومـاً وأبصرتُهـا بسباسَـةً في كفِّهـا نرجسُ
ما أقبـحَ الصـدَّ فقالت:بلى، أقبـحُ منـه عاشـقٌ مفلس

وقـال :

متى أُخْفِ الغرام يَصِفْهُ جسمي بألسنةِ الضَّنَى الخُرْسِ الفصاحِ
فلـو أن الثياب فُحِـصْـنَ عني خفيتُ خفـاءَ خَصرِكِ في الوشـاح

وقـال[٢] :

قطعـتُ الأَرضَ في شَهْـرَي ربيعٍ إلـى مصـرٍ وعـدتُ إلى العراق

١ ورد البيتان في الصداقة والصديق : ٢٠٦ (دون نسبة)
٢ وردت في ابن خلكان : ٢٢١ وتنسب للوزير أبي القاسم المغربي في دمية القصر ١ : ٩٦

فقـــال لِيَ الحبيبُ وقــد رانــي سَبُـوقــاً [للمضـمّـرةِ] العتـاقِ
ركبـتَ على البــراقِ ؟ فقلــتُ كلاً ولكنّــي ركبـتُ[1] على اشتياقـي

فصل في ذكرِ الأديب الأريب
أبي عبد الله بن قاضي ميلة[1]

وهو ممن طرأ[2] ذكره ، وانتهى إليَّ شعره ، إذ ضرب في الأدب بأعلى قِدْح ، وافترَّ عنه على أوْضَحِ صُبْح ، وأقام دَوْحَهُ على سوقه ، وبنى المنازل[3] على سواء طريقه ، ورأيتُ ابا علي بن رشيق قد ذكره في ما اندرج من كلامه في شعراء « **الأُنْمُوذَج** » ، وأعرب عن فضائله ، وأوضحَ ما لم يخفَ من دلائله[4] ، ولعلَّ بعض من يتصفح كتابي هذا يقول : إن شعراءَ الأنموذج مائة شاعر وشاعرة ، واكثرهم كان في المائة الخامسة من الهجرة ، وتقاربت موالدُهُمْ ، وتشابهتْ مصادرهم ومواردهم ، أَفَلا ذَكَرَهُمْ عن آخرهم ، وماله اقتصرَ على بعضهم دون سائرهم ؟! فبعضُ الجواب أني كثرت بهذا الكتاب عَدَدي، وجرَّدته في محاسنِ أهل بلدي ، ثم عرضتُ بعد معارضته أبا منصور ، بذكرِ مَنْ هنالك من شاعرٍ مشهور ، واجتلابِ ما يتعلق بذلك من خبرٍ مأثور ، فأشَرْتُ إلى ذكرِ من كان في هذا الوقت المؤرّخ ممن طال[5] طَلَقه ، وأشرق أفقه .

---

١ سماّه ابن خلكان (٦ : ١٥٩) عبد الله بن محمد التنوخي وكنيته أبو محمد ؛ وفي أحد أصول ابن خلكان « ابو عبد الله محمد بن محمد » ؛ وقد ترجم له في المسالك ١١ : ٣٠٤ (وفيه نقل عن الذخيرة والانموذج) ومرَّ ذكره في كتاب التعريف بالقاضي عياض : ٧٢ ؛ وميلة التي ينتسب اليها تقع في الجزائر .

٢ المسالك : طار .

٣ المسالك : وابتنى منازله .

٤ قال فيه ابن رشيق (كما نقل العمري) : هو شاعر لسن مقتدر يؤثر الاستعارة ، ويكثر الزجر والعيافة ويسلك طريق ابن أبي ربيعة وأصحابه في نظم الأقوال والحكايات (واستشهد على ذلك بفائيته) .

٥ ص : كان .

ولأبي عبد الله أشعارٌ شاردة سارتْ على ألسنةِ الأنام ، وكُتبتْ في جبهات[1] الأيام ، غير أنه لم يقعْ إليَّ منها عند تحرير هذه النسخة إلا ما أثبتّ . فمن ذلك ما حدَّثَ به أبو محمد بن خليفةَ المصريّ[2] قال : لما وليَ ابنُ البواب وزارة المعزِّ بن باديس سأله أبو عبد الله أمراً كلفه ، فمطله فيه حتى صرفه ، فكتب إليه[3] :

أقــولُ له إذ طَيَّشَــتْــهُ رياسةٌ ... أتـتْ غفلـةً مهـلاً فقـد غَلِـطَ الدهرُ
ترفَّــقْ يراجــعْ فيك دهــرُكَ عَقْلَهُ ... فما سُدْتَ إلا والزمــانُ به سكر
فما برحــتْ أيامُــهُ أن تصرَّمَتْ ... ومــا عندنــا شكرٌ ولا عنــده عذر

وأنشد أيضاً له المصري المذكور[4] :

جــاءت بعــودٍ تنــاغيه فيتبعهــا[5] ... فانـظـرْ بدائـعَ ما يأتــي به الشجرُ
غنَّــى على عودهــا الأطيارُ مفصحةً ... رطبــاً فلما عســا[6] غنَّــى به البشر
فما يزالُ عليـه أو بـه طربٌ[7] ... يهيـجُـهُ الأعجمـانِ الطـيرُ والـوتر

قال ابن بسام : وهذا في ما وصف ، كقول ابن شرف[8] :

سقى الله أرضـاً أنبتـت عودك الذي ... زكت منـه أغصــانٌ وطـابـتْ مغارسُ
تغنِّــى عليه الطــيرُ والعــودُ أخضرُ ... وغنَّــى عليه النــاسُ والعــودُ يابس

---

١ المسالك : جبهة .
٢ وردت ترجمته في الأول من القسم الرابع : ٣٤٢.
٣ المسالك : ٣٠٤
٤ وردت الأبيات أيضاً في الأول من القسم الرابع : ٣٥٦ وقد خرجتها هنالك .
٥ ابن خلكان : ويسعدها
٦ ابن خلكان : غنت عليه ضروب الطير ساجعة ، حباً فلما ذوى .
٧ ابن خلكان : فلا يزال عليه الدهر مصطخب .
٨ ورد بيتا ابن شرف عند ابن خلكان (٥ : ٣٤٨) برواية أخرى ، وانظر الشريشي ٣ : ٢٠٥

وأنشد أيضاً له المصري [1] :

أشـــقـــى لجدِّكَ أن تكـونَ أديبا ... أو أن يرى فيك الـورى تهذيبا
إنْ كنـتَ مستـوياً ففعلُكَ كُلُّـهُ ... عِوَجٌ وإن أخْـطـأتَ كنـتَ مصيبا
كالنقـشِ ليس يَصِحُّ معنـى خَتْمِهِ ... حتـى يكـونَ بنـاؤُهُ مقـلوبا

وأنشد له أيضاً [2] :

لـدنيـاك نـورٌ ولكنّـه ... ظلامٌ يحـارُ بـه المبصـرُ
فـإن عشـتَ فيهـا على أنها ... كمـا قيـلَ قنطـرةٌ تُعْبَـر
فـلا تعمـرنَّ بهـا منـزلاً ... فـإن الخـرابَ لمـا تعمـر
ولا تـذخـرنَّ خـلافَ التقـى ... فيفنَـى ويبقـى الـذي تذخـر
وظـنَّ أنـاسٌ بأن قد سَمَوْا ... فقـالـوا علـونـا ولـم يشعروا
كذا البحـرُ يطفـو عليه القذى ... ويـرسـبُ في قعـره الجوهـر

وكان لابن قاضي ميلة صديقان فتقاطعا وندما ، واتفق أنْ بَنَى أحدهما منزلاً ، فقيل لصاحبه : لستَ تجدُ وقتاً لمراجعةِ صديقك أحْسَنَ من تهنئتك له بهذه الدارِ الجديدة ، فركب إليه وهنأه ، وكان على صاحبِ المنـزل قَبـاءُ ديبـاجٍ فيه صُوَرُ طواويسَ ، فكرَّر بصرَهُ فيهـا ذلك القاصـدُ ، فقـال له صاحبـه : أتعجبُـكَ هذه/[١٥١] الصُّوَرُ ؟ قال : أجَلْ ، فوهب الثوبَ له صاحبُ المنـزل ، فقـال له القاصدُ : وأنا عندي طواويسُ حيّةٌ تصلحُ لهذه الدار ، فلبَّسَ صاحبُ المنزل القباءَ غلاماً وسيماً له اسمُهُ نحرير ، كان صديقه يهواه ، وأهـداهُ إليه ، وأخـذ صديقُـه الطواويسَ وأهداها مع غلامٍ له اسمه بديعٌ كان صاحبُ المنزلِ أيضاً يكلفُ به ،

---

١ الثاني والثالث في المسالك : ٣٠٤ ووردت لابن رشيق في ديوانه : ٣٧ وانظر الذخيرة ١ : ٤٤٨ والغيث ٢ : ١١٤ والشريشي ٥ : ١٢٧

٢ الشريشي ٣ : ١٠١ (أربعة أبيات)

فبلغ ذلك الاكحلَ تأييدَ الدولة[1] صاحبَ صقيلية[2] ، فأمر الشعراءَ بصفةِ ذلك ، فمن شعر ابن قاضي ميلة فيهما هنالك ، من جملةِ قصيدة :

وللهِ يومُكُمَا إذْ أتاكَ . مبتهجاً بتمامِ البناءِ
فأنفذَ في حضنِ نحريره طواويسَ موشيّة في قباء
فما جنَّك الليلُ حتى بعثتَ بديعاً بكلٍّ بديع المكاء
بأحسنِ مُتَّخَذٍ في البيوتِ وأطرفِ مكتَسبٍ في القباء
تقابلتما لاختلافِ الصفاتِ ولولاهما لاختلافِ الهواء
ويعلي الذُّنابى مدلاً بها على رأسهِ كانتصاب اللواء
فتلحظ مرأىً يروقُ العيونَ ويقضي لواصفه بالغناء
هدايا أقمتمْ لايصالها ظباءً تجرُّ ذيولَ البهاء
وما عاينَ الناسُ من قبل ذا طواويسَ [فوق] أكفِّ الظباء

ومنها :

وعاينَ رِجْلَيْهِ في معزلٍ من الحسنِ حلَّ عقودَ البكاء
فيهدمُ جلوته بعدما أقام لها محكماتِ البناء
ومن سامَ بالنفسِ عينَ التمام نازعه النقصُ حظَّ النماء
فيا قَمَرَيْ سؤددٍ قابلا وجوهَ السَّنا بوجوه السناء
إذا الدهرُ رفَّع قدريكما فقد سرْبلَ الدهرُ ثوبَ العلاء

ومن شعره[3] :

قالت الحسناءُ لما أن رأتْ أدمعي ترفضُّ في ما ابتدرا
ليس هذا الدمعُ ما خُبِّرته أنا من يهدي إليك الخبرا

١ أحد امراء صقلية من بني أبي الحسين الكلبيين ؛ انظر دوره في حكم الجزيرة في « العرب في صقلية»: ٤٧ ـ ٤٨ وصفحات متفرقة من المكتبة الصقلية .

٢ هذا وجه من الوجوه التي يكتب بها هذا الاسم .

٣ وردت ما عدا الثاني في المسالك : ٣٠٥

رقّ في خدّيَّ من ماء الصبا ... رونقٌ يُعْشي سناه البصرا
تأخذُ الالحاظ منه ريها ... فاذا جاز التناهي قصرا

وله من قصيد فريد يقول فيه[1] :

ولما التقينا محُرمينَ وسيرنا ... بلبيك يُطْوَى والركائبُ تعسفُ
نظرتُ اليها والمطايا كأنها ... غواربها منها معاطسُ رُعَّف
وقالت أما منكنَّ من يعرفُ الفتى ... فقد رابني من طول ما يتشوّف
أراه إذا سرنا يسير أمامنا ... ونوقفُ أخفافَ المطايا فيوقف
فقلتُ لتربيها ابلغاها بأنني ... بها مستهامٌ قالتا : نتلطف
وقولا لها يا أمَّ عمروٍ أليس ذا ... مِنىً والمنى في خَيْفِهِ ليس تخلف
تفاءلتُ في أن تبذلي طارف الهوى ... بأن عنَّ لي منها البنانُ المطرف
وأما دماءُ الهدي فهو تواصلٌ ... يدوم ورأيٌ في الهوى يتألف
وفي عرفاتٍ ما يخبّرُ أنني ... بعارفةٍ من نيل وصلك أسعف
وتقبيلُ ركنِ البيتِ إقبالُ دولةٍ ... لنا وزمانٌ بالمودّةِ يعطف
فأبلغنها ما قلتُهُ فتبسمتْ ... وقالت أحاديثُ العيافة زخرف
بعيشي ألم أخبركما أنه امرؤ ... على لفظِهِ بُرْدُ الكلام المفوف
فلا تأمنا ما اسطعتما كيدَ نُطْقِهِ ... وقولا ستدري أينا اليوم أعيف
لئن كنت ترجو في منى الفوزَ بالمُنَى ... فبالخيفِ من إعراضنا تتخوف
وقد أنذر الإحرامُ أن وصالنا ... حرامٌ وأنا عن مزارِكَ نصدف
فهذا وقذفي بالحصى لك منذر ... بأن النوى بي عن ديارك تقذف
فبادر[2] نفاري ليلةَ النفرِ إنه ... سريعٌ وقل من [في] العيافة أعرف

---

١ اورد ابن خلكان ٦ : ١٥٩ هذه القصيدة كاملة ومنها ثلاثة عشر بيتاً في المسالك ، وسبعة عشر في رفع الحجب ٢ : ٤٨ وأحد عشر بيتاً في الشريشي ٤ : ٢٦١ وفي الرواية اختلافات يسيرة لا داعي لاثباتها .
٢ المسالك وابن خلكان : فحاذر .

ومن مليح الزجر وغريب الفأل قول أبي حيَّة[1] :

جرى يومَ رحنا عامدين لأرضها ... سنيحٌ فقال القومُ مرَّ سنيحُ
فهابَ رجالٌ منهمُ فتعنّفوا ... فقلتُ لهم : جارٌ إليَّ ربيح
عقابٌ بأعقابٍ من الدار [بعد] ما ... نأتْ نيةٌ بالظاعنين طروح
وقالوا حماماتٌ فَحُمَّ لقاؤُها ... وطلحٌ فزِيَرتْ والمطِيُّ طليح
وقال صحابيَ هدهدٌ فوقَ بانةٍ ... هدىً وبيانٌ بالنجاح يلوح
وقالوا دمٌ دامتْ مواثيقُ بيننا ... ودام لنا حلوُ الصفاءِ صريح
لَعَيْناكَ يومَ البين أسرَعُ واكفاً ... من الفَنَنِ المطورِ وهو مَرُوحُ

وقال ذو الرمة[2] :

رأيتُ غراباً ساقطاً فوق قضبةٍ ... من القضب لم ينبتْ لها ورقٌ خُضُرُ
فقلت غرابٌ لاغترابٍ وقضبة ... لقضبِ النوى هذي العيافةُ والزجر

وقال آخر[3] :

دعا صُرَدٌ يوماً على غُصْنِ بانةٍ ... وصاح بذاتِ البين منها غرابها
فقلت أتصريدٌ وشحطٌ وغربةٌ ... فهذا لعمري نأيها واغترابها

ومن قصيدة جحدر[4] :

ومما هاجني فازددتُ شوقاً ... بكاءُ حمامتين تجَاوبانِ/[١٥٢]

١ هو أبو حية النميري ، انظر شعره في الأمالي ١ : ٦٩ (وقارن بشرح الامالي : ٢٤٣) وزهر الآداب : ٤٧٧ ورفع الحجب ٢ : ٤٨ ومنها أبيات في الشريشي ٤ : ٢٦١ وديوان أبي حية (المورد : ١٩٧٥ ، العدد الأول : ١٣٧)

٢ زهر الآداب : ٤٧٨ ونقل المبرد ان الرواة لم يرووها في ديوانه ، وانظر ديوانه : ٦٦٧ (مكارتني) ورفع الحجب ٢ : ٤٨ والشريشي ٤ : ٢٦٠ (لجران العود)

٣ زهر الآداب : ٤٧٨.

٤ وردت الأبيات الثلاثة الأولى من قصيدة جحدر في رفع الحجب ٢ : ٤٨ والقصيدة في معجم البلدان (حجر) ، والنسخة الاستانبولية من منتهى الطلب وتهذيب ابن عساكر ٤ : ٣٦ والخزانة ٤ : ٤٨٣ ورفع الحجب ١ : ٥٠

تجاوبتا بلحنٍ أعجميٍّ على عودين من غَرَبٍ وبان
فكان البانُ أن بانتْ سُليمى وفي الغَرَبِ اغترابٌ غيرُ دانِ

وفي هذه القصيدة يقول :

فيا أخويَّ من كعبِ بن عمروٍ أَقِلاَّ اليومَ إن لم تسعداني
يحاذرُ سطوةَ الحجاجِ ظلماً وما الحجاجُ ظلاّمٌ لجانِ

وكان من آخرِ خبرهِ معه أنَّ الحجاجَ جوّع له أسداً ثم سلَّطَهُ عليه ، فبادر جحدرٌ إليه وقتل الأسدَ ، فعفا عنه الحجاج لما رأى من جرأته ، واتخذه من صحابته .

وحكى المدائني قال[1] : خرج كثير من الحجاز يريد مصر ، فلما قرب منها رأى غراباً على شجرة ينتف ريشه ، فتطير من ذلك ومضى لوجهه ، فلقيه رجل من بني لهب فقال : يا أخا الحجاز ، مالك كاسف اللون ، هل رأيت شيئاً أنكرته ؟ قال ؛ أجل ، غراب على بانة ينتف ريشه وينعب ، قال : إنك تطلب حاجة لا تدركها ، فقدم مصر والناس منصرفون من جنازة عزة ، فقال :

رأيتُ غراباً ساقطاً فوقَ بانةٍ ينتّفُ أعلى ريشهِ ويطايرهْ
فقلتُ ولو أني أشاءُ زجرته بنفسيَ للنهديّ هل أنت زاجره
فقال غرابٌ لاغترابٍ من النوى وفي البان بينٌ من حبيب تجاوره
فما أعيفَ النهديَّ لا درَّ درّه وأزجره [للطير] لا عزّ ناصره

ومن مليح الزجر[2] قولُ أبي نواس وقد اجتمع إخوانه واختفوا عنه ، ووجهوا

١ متابع لزهر الآداب : ٤٧٩ ـ ٤٨٠ وانظر عيون الاخبار : ١٤٧ وديوان كثير : ٤٦١ ـ ٤٦٢ وفيه تخريج الأبيات ، ويضاف إليه ربيع الأبرار : ٢٩٦/أ والبيت الأول في اللسان (تشش) وشرح النهج ٤ : ٤٣٣ (ط . ١٣٢٩) والشريشي ٤ : ٢٦٠

٢ بايجاز عن زهر الآداب : ٤٩٢ وانظر الشريشي ٤ : ٢٦٠

رسولاً إليه بظهرِ قرطاسٍ أبيضَ لم يكتبوا فيه شيئاً ، وخزموه بزير وختموه بقارٍ ، ورمى بالكتاب من وراء الباب ، فاستعلم موضعهم وأنشدهم :

زجرتُ كتابكم لما أتاني ... يمرُّ بسانح الطير الجواري

نظرتُ إليه مخزوماً بزيرٍ[1] ... على ظَهْرٍ ومختوماً بقار

فقلتُ الزيرُ ملهيةٌ ولهوٌ ... وخلتُ القارَ من دنٍّ العقار

وخلتُ الظهرَ أهيفَ قرطقياً ... يحرّ[2] العقلَ منه باحورار

فَهِمْتُ إليكمُ طرباً وشوقاً ... فما أخطأتُ داركمُ بدارٍ[3]

فكيف ترونني وترونَ زجري ... ألستُ من الفلاسفةِ الكبار

ومن أبدع ما لأبي عبد الله وأغربه ، وأحلى الكلام واوطئه قولُهُ من كلمةٍ ، يعني السيفَ ، وقد رويت لغيره[4] :

حيث التقى أسَدُ العرينِ وشادنٌ[5] ... تحت اللحاف وصارمٌ وسوارُ

قالت أرى بيني وبينك ثالثاً ... ولقد عهدتك بالدخيل تغار

أأمِنْتَ نَشْرَ حديثنا فأجَبْتُها ... هذا الذي تُطْوَى به الأسرار

وقوله أيضاً[6] :

وتعجبني الغصونُ إذا تثنَّتْ ... ولا سِيَما وفيهنّ الثمارُ

اذا اهتزت[7] نهودٌ في قدودٍ ... فقلْ للحلمِ قد ذهب الوقار

١ الزير : الكتان (وهو ايضاً أحد أوتار العود)

٢ زهر الآداب : يحيل ؛ الشريشي : يحار .

٣ الشريشي :

فطرت اليكم يا أهل ودي ... بقلب من هواكم مستطار

٤ المسالك : ٣٠٥ والشريشي ٤ : ٣١

٥ الشريشي : وظبية

٦ ورد البيتان في المسالك : ٣٠٥

٧ المسالك : هزت .

فصل في ذكر أبي الحسن علي بن محمد التهامي

واثبات جملة من شعره[1]

كان مشتهر الاحسان ، ذربَ اللسان ، مخلّىً بينه وبين ضروب البيان ، يدل شعره [على] فَوْزِ القِدْح ، دلالة برد النسيم على الصبح ، ويُعْرِبُ عن مكانه من العلوم ، إعراب الدمع[2] عن سرِّ الهوى المكتوم .

جملة من شعره في أوصاف شتى

المدح وما يتصل به من النسيب

له من قصيدة أولها[3] :

فـؤادي الفـداءُ لهـا من قُبَبْ　　طوافٍ على الآلِ مثلَ الحبَبْ

يقول فيها :

كأنَّ [على] الجـوِّ فضفاضةً　　مسـامـيرهـا فضّـةٌ أو ذهب

كـأن كـواكبَـهُ أعيـنٌ　　تُـراعـي سنـا الفجـر أو ترتقب

فلمـا بـدا طَفِقَـتْ هَيْبَـةً　　تُسَـتِّـرُ أحـداقَهـا بالهـدب

وشـقّـتْ غلائـلَ ضوءِ الصّباحِ　　فـلا هُوَ بـادٍ ولا محتجب

ومنها :

أبـا قاسـمٍ حُزْتَ صَفْـوَ الكلامِ　　وغـادرتَ مـا بعـده للعرب

وليس كـلامُـكَ إلاّ النجـومَ　　علـوتَ فنـاثَـرْتَهـا من كثـب

١ كان على صلة بالوزير المغربي ، وله فيه مديح ، وقد استخدمه حسان بن مفرج (الذي ثار على الفاطميين بتحريض الوزير المغربي) رسولاً إلى عرب بني قرة ببرقة لتحريضهم على الثورة ، فقبض عليه في مصر وسجن ثم قتل سنة ٤١٦ ؛ ترجمته في تتمة اليتيمة ١ : ٣٧ وابن خلكان ٣ : ٣٧٨ (وهو ينقل عن الذخيرة) وعبر الذهبي ٣ : ١٢٢ والشذرات ٣ : ٢٠٤ ومرآة الجنان ٣ : ٢٩ وقد وصف ابن خلكان ديوانه بأنه صغير وأن اكثره نخب .

٢ ص : الربيع　　　٣ ديوان التهامي : ١٥ ـ ٢٠

رأيتَ الفصاحةَ حيثُ الندى وهل ينظمُ الروضَ إلا السحب
وقد شَرُفَ الغيثُ إذ بينه وبين بنانِكَ أدنى نسب

ومنها في صفة القلم :

وأرْعَنَ أخرسَ من كثرة اللغاتِ بأرجائِه واللَّجَبْ
يلاقي النجومَ بأمثالها من البَيْضِ من فوقها واليلب
إذا واجه الشمسَ ردَّ الشعاع واعترضَ الريحَ[1] سدَّ المهب
ثنيتَ بأرقشَ ذي زينةٍ[2] تُجَلَّى الخطوبُ به والخطب/[١٥٣]
إذا ما جعلتَ له لهذماً من النِّقْسِ طال الرماحَ السُّلُبْ
وطالتْ به مفخراً أنها وإياه في الأصلِ بعضُ القصب
تقلِّمُ أقلامُكَ الحادثاتِ فتبرا[3] وتهتمُ نابَ النوب

وله من أخرى[4] :

وكيف لا تُدْرِكُهُ نشوةٌ واللحظُ راحٌ وجنى الريقِ راحْ
لو لم تكن ريقتُهُ خمرةً لما تَثَنَّى عطفه وهو صاح
يبسمُ عن ذي أشَرٍ مثلما يلتقطُ الظبيُ بفيهِ الأقاح
أفلته مني وقد صدتُهُ برقدةٍ صوتُ منادي الفلاح
فنحن في نومٍ وفي يقظةٍ بين دنوٍ منهمُ وانتزاح
وموقفٍ لولا التقى لالتقى فيه نجادي ونظامُ الوشاح

ومنها :

ومجهلٍ مشتبهٍ طُرْقُهُ كأنما هُنَّ خطوطُ قُزاح

١ الديوان : وان واجه الريح .
٢ الديوان : ريقة .
٣ الديوان : قسراً .
٤ ديوان التهامي : ٢٢

وهذا تشبيه مخترع ، ومعنى مبتدع .

كأنما أشباحُ أنضائِنا ... قسيُّ نبعٍ وكأنَّا قداح

حتى اجتلينا بعدَ طولِ السُّرى ... بغرَّةِ الكاملِ وَجْهَ الصباح

فقال لي صحبي أبدرُ الدجى[1] ... فقلتُ لا بل هو بدرُ السماح

يُنْبيكَ عن سؤدده بِشْرُهُ ... مخايلُ السؤددِ خُرْسٌ فصاح

واصطلح الناسُ على فَضلِهِ ... واختلفوا بعدُ فليس اصطلاح

ومنها :

إنْ لمسَ الطِّرْسَ بأطرافِهَا ... فاضَ نوالاً وبياناً وساح

وشقَّ من لؤلؤِهِ أفخر اللـ ... ـؤلؤ هنّ الكلمات الفصاح[2]

وهذه القصيدة مدح بها أبا القاسم بن المغربي المتقدم الذكر .

وله من أخرى[3] :

لو جادهنَّ غداةَ رُمْنَ رواحا ... غيثٌ كدمعي ما أَرَدْنَ بَراحا

ماتت لفقدِ الظاعنين ديارُهُمْ ... فكأنَّهُمْ كانوا بها أرواحا

وهذا كقول ابن الرومي وقد تقدم[4] :

فقد أَلِفَتْهُ النفسُ حتى كأنَّهُ ... له جَسَدٌ إن بانَ غودِرَ هالكا

متوارثي مرضِ الجفونِ وإنما ... مرضُ الجفونِ بأن يكنَّ صحاحا

من كانَ يكلفُ بالأهلة فليزرْ ... وَلَدَيْ هلالٍ زغبة ورياحا

لا عيبَ فيهم غيرُ شحِّ نسائِهِمْ ... ومن السماحةِ أنْ يكنَّ شحاحا

١ الدوان : السما

٢ في الدوان :

وسمت من لؤلؤه أبحرا ... لؤلؤ هن الكلمات الفصاح

٣ دوان التهامي : ١٠

٤ لم يرد البيت نفسه فيما تقدم . وإنما ورد بيتان آخران من قصيدة ابن الرومي هذه في ١ : ٢٠٨

طَرَقَتْهُ في أترابها فَجَلَتْ له وهناً من الغُررِ الصِّباح صَباحا
أبرزنَ من تلك العيونِ أسِنَّةً وهززنَ من تلك القدودِ رماحا

ومنها في المدح :

يرمي الكتيبةَ بالكتابِ إليهمُ فيرونَ أحرفَهُ الخميسَ كفاحا
من نِقْسِهِ دُهْماً ومن مياته زَرَداً ومن أَلِفاتِهِ أرماحا
ساستْ أقاليمَ الورى أقلامُهُ فأجمَّ أطرافَ القنا وأراحا

وله من أخرى[1] :

بعثتْ إليكَ بطيفها تعليلا وخضابُ ليلِكَ قد أراد نصولا
فأتاك وَهْناً والظلامُ كأنّه نَظَمَ النجومَ لرأسِهِ إكليلا
وإذا تأملتَ الكواكبَ خِلْتَها زَهَراً تفتّحَ أو عيوناً حولا
أهدتْ لنا من خدّها وَرُضَابِها [ورداً] تحيينا به وشمولا
ورداً إذا ما شُمَّ زاد غضاضةً ولو أنّه كالوردِ زاد ذبولا
وَجَلَتْ لنا بَرَداً يُشَهّي بَرْدُهُ نفسَ الحصورِ العابدِ التقبيلا
برداً يذيبُ ولا يذوبُ فكلّما شربَ المتيمُ منه زاد غليلا

وهذه كقول ابن الرومي ، وقد تقدم[2] :

ريقٌ إذا ما ازددتُ من شُرْبِهِ رِيّاً ثناني الريُّ ظمآنا

ومنها في ذكر القلم :

يلقى العدا من كُتْبِهِ بكتائبٍ يَجْرُرْنَ من زَرَدِ الحروبِ ذيولا
فترى الصحيفةَ حَلْبَةً وجيادَها أقلامَهُ وصريرَهُنَّ صهيلا
في كفّه قلمٌ أتمُّ من القنا طَوْلا وهنَّ أتمُّ منه طُولا

---

[1] ديوان التهامي : ٢٩
[2] الذخيرة ١ : ٣٦٣

قلم يقلّم ظُفْرَ كلِّ مُلِمَّةٍ ويردُّ حدَّ شَبَاتها مفلولا

ومنها :

يدعو النبيَّ من الجدودِ وحيدراً ومن العمومةِ جعفراً وعقيلا
نسبٌ ترى عنوانَهُ في وجهه لا شبهةً فيه ولا تأويلا

ومن أخرى[1] :

وأراد الخيالُ لثمي فصيّرْتُ لثامي دون المراشفِ سترا
اصرفي الكأسَ من رضابك عني حاشَ لله أن أرْشُفَ خمرا
ولو أن الرضابَ غيرُ مدامٍ لم تكوني في حالة الصحو سكرى

[ومنها في ذكر القلم] :

واذا راش بالأناملِ منه قلماً واستمدَّ ساءَ وسرَّا
قلماً دبَّرَ الأقاليمَ حتى قال فيه أهلُ التناسخ إمْرا
يتبعُ الرمحُ أمرَهُ إنَّ عشرين ذراعاً بالرأي تخدمُ شبرا

ومن شعره مما يتعلق بأوصافِ طيفِ الخيال ، وله أغراضٌ غريبة ، وألفاظ عجيبة ، قال[2] :

عَبَسْنَ من شَعَرٍ في الرأسِ مبتسمِ ما نَفَّرَ البيضَ مثلُ البيضِ في اللممِ
فقبلتنيَ توديعاً فقلتُ لها كفّي فليس ارتشافُ الخمر من شيمي /[١٥٤]
لو لم يكن ريقُها خمراً لما انتطقتْ بلؤلؤٍ من حبابِ الثغرِ منتظم
ولو تيقَّنْتُ غيرَ الراح في فمها ما كنتُ ممن يصد اللثم باللثم
وزاد ريقَتَها برداً تحدُّرُهَا على حصى بَرَدٍ مِنْ ثغرها شبم

١ ديوان التهامي : ٣٦
٢ ديوانه : ٦ وهي في مدح الأمير نصر الدولة بن مروان الكردي .

ومعنى البيت الثاني من هذه كقول أبي الحسن الرضيّ[1] :

وقبلته فوق اللثام فقال لي هيَ الخمر إلا أنها بفدام

وتشبيه أرياق الملاح بالراح أكثر من أن يحصى ، وأشهر من أن يتقصّى ، ولكن التهامي ولّد معنىً حسناً ، وجرَّ هاهنا للبلاغة رسناً ، بقوله : « لو لم يكن ريقها خمراً .. » البيت .

وفيها يقول :

إني لأَطْرِفُ طرفي عن محاسنها تكرُّماً وأكفُّ الكفَّ عن أمم

ولا أهمّ ولي نفسٌ تنازعني أستغفرُ الله إلا ساعةَ الحلم

ومعنى هذا البيت حسن ، ولكن أبا الطيب كان أملكَ لشهوته ، وأعفَّ في حينِ خَلْوتِهِ ، حيث يقول[2] :

يردّ يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

ألا تسمعُ كيف عفَّ في الكرى ، وأَتى من حُسْنِ اللفظ وبراعة القسمة بما ترى ؟ وقد أثبت في أخبار ابن الأبار[3] ، في هذاالمعنى عدة أشعار .

وقال التهامي[4] :

أهدى لنا طيفُها نجداً وساكنهُ حتى اقتنصنا ظباءَ البدوِ والحضرِ

فباتَ يجلو لنا من وجهها قمراً من البراقع لولا كُلْفَةُ القمر

وراعها حَرُّ أنفاسي فقلتُ لها هوايَ نارٌ وأنفاسي من الشرر

وزاد دُرَّ الثنايا دُرُّ أَدْمُعِها فالتفَّ منتظمٌ منه بمنتثر

فما نكرنا من الطيفِ الملمِّ بنا ممن هويناه إلا قلةَ الخفر

١ لم أجده في ديوان الرضي .

٢ ديوان المتنبي : ٣١٠ والذخيرة ٢ : ١٤٠

٣ انظر القسم الثاني من الذخيرة : ١٣٥ ـ ١٤٤

٤ ديوان التهامي : ٤١ .

فسرتُ أعثـــرُ في ذيلِ الدّجَـــى ولهاً ... والجـــوُّ روضٌ وَزُهْـــرُ الليل كالزَّهَرِ
وللمجـــرّةِ فوق الأرضِ مُعْتَرَضٌ ... كأنهـــا حَبَـــبٌ تطفـــو على نهر
وللثـــريا رقـــودٌ فوق أَرْحُلنا ... كأنهـــا قطعـــةٌ من فروة النمر
كأنَّ أَنْجُمَـهُ والصبـــحُ يُغمضهـا ... قسراً عيونٌ غَفَـــتْ من شدَّة السهر
فروَّعَ السّربَ لما ابتـــلَّ أكرعه ... في جدولٍ من خليج الفجـــر منفجر
ولـــو قَدَرْنَ وثـــوبُ الليلِ منخرِقٌ ... بالصبـــح رقَّعْنَـــهُ منهـــنَّ بالشعر

ومنها :

لو لم يكن أقحوانـــاً ثغـــرُ مبسمها ... ما كان يزدادُ طيبـــاً ساعـــةَ السحر
يا رُبَّ معنـــىً بعيدِ الشـــأوِ أسلكهُ ... في سِلْكِ لفـــظٍ قريبِ الفهـــم مختصر
لفظـــاً يكونُ لعقـــد القـــولِ واسطةً ... ما بـــين منزلـــةِ الإسهـــاب والخصر
إن الكتابـــةَ سارتْ نحـــو أنملِهِ ... والجـــودَ فالتقيا فيه على قدر
تردّ اقـــلامُـهُ الأَرمـاحَ صاغرةً ... عكساً كعكسِ شعاعِ الشمس للبصر

وفي كتابـــك فاعـــذر مَنْ يهيمُ به ... من المحاســـنِ ما في أحســـن الصور
الطـــرسُ كالوجـــه والنونـــاتُ دائرةٌ ... مثـــلُ الحواجـــبِ والسينـــات كالطُّرَرِ

وله من أخرى[1] :

قولا له هل دار في حَوْبائِهِ ... أن القلـــوبَ تحـــومُ حولَ خبائِهِ
ريمٌ إذا رفـــع الستائـــرَ بيننا ... أعشانـــي الـــلألاءُ قبـــل[2] روائه
نمَّ الضياءُ عليه في غَسَـــقِ الدجى ... حتـــى كأنَّ الحســـنَ من رقبائه
أهـــدى لنـــا في النـــوم نجـــداً كلَّهُ ... ببـــدوره وغصـــونـهِ وظبائـه
وسفـــرن في جنـــح الدجـــى فتشابهتْ ... في الليل أنجـــمُ أرضِـــهِ وسمائه

[1] ديوان التهامي : ٨٨ وقد مرّ منها بيتان نسبا الى قاضي عبد الوهاب المالكي (ص : ٥٢٤)
[2] الديوان : دون .

وجـلا جبينـاً واضحـاً كالبـدر في ... تكـويـره وبعـاده وضيائـه
حتـى اذا حطَّ الصبـاحُ لثـامَـهُ ... ومضى الظـلامُ يجـرُّ فَضْـلَ ردائه
حيًّـا بكأسٍ رضـابـه فرددتُهـا ... نفسي فداءُ رضـابِـهِ وإبائه
قلبـي فداؤك وهـو قلـبٌ لم تزل ... تذكي شهـابَ الشـوق في أثنائه
جاوَرْتَـهُ شرَّ الجـوارِ وزرتَـهُ ... لما حللـتَ فِنـاءه بِفَنـائه
حرِّق سوى قلبـي وَدَعْـهُ فانني ... أخشى عليك وأنـت في سودائه

ومعنى هذا البيتِ مشهور ، وقد أجرينا منه طلقاً فيما تقدم .

ومن مراثيه قصيدته التي أولها[1] :

حُكْمُ المنيّةِ في البـرية جارِ ... ما هذه الـدنيـا بدارِ قـرارِ

يقول فيها :

إنِّـي وُتِـرْتُ بصـارمٍ ذي رونق ... أعـددتُـه لطـلابـةِ الأوتـار
يا كوكبـاً ما كان أقصرَ عمرَهُ ... وكـذاك عمـرُ كواكبِ الأسحـار
وهـلالَ أيـامٍ مضى لم يستدِرْ ... بدراً ولـم يُمْهَـلْ لوقـتِ سرار
عجـل الخسـوفُ عليه قبـل أوانِهِ ... فمحـاه قبـل مَظِنَّـةِ الإبـدار
واستُـلَّ من أترابـه وَلِـدَاتِهِ ... كالمقلـة استلّـتْ من الأشفار
فكأنَّ قلبـي قبـرُهُ وكأَنَّهُ ... في طيّـه سرٌّ من الأسرار
أشـكو بعـادَكَ لي وأنـت بموضعٍ ... لولا الـردى لسمعـتَ فيه سراري
والشرقُ نحـو الغـربِ أقـربُ شُقّةً ... من بُعْدِ تلك الخمسة الأشبار/[١٥٥]

ومنها :

قَصُرَتْ جفونـي أم تباعـدَ بينها ... أم صُوِّرَتْ عينـاً بلا أشفار
لو كنـت تُمْنَـعُ خاضَ دونـكَ فتيةٌ ... منـا بحـارَ عوامـلٍ وشفار

---

[1] ديوانه : ٤٧

فَدَحَوا فُويْقَ الأَرضِ أرضاً من دمٍ ثم انثنوا فبنوا سماء غبار
قومٌ إذا لبسوا الدروعَ حسبتهمْ سُحُباً مُزَرَّرَةً على أقمار

ومن هنا أخذ ابن عبد البر الشنتريني قوله في صفة الاكواس :

كأنها وشعاعُ الشمسِ داخلها قُمُصٌ من الماء قد زُرَّتْ على لَهَبِ

وترى سيوفَ الدَّارعين كأنّها خُلُجٌ تَمُدُّ بها أكفُّ بحار
لو أشرعوا أيمانَهُمْ من طولها طعنوا بها عرضَ القنا الخطّار
وكأنما ملأوا عِيابَ دروعهم وَغُمودَ أنْصُلِهِمْ سرابَ قفار
فتدرعوا بمتونِ ماءٍ جامدٍ وتقنَّعُوا بحبابِ ماءٍ جار
يتزيّنُ النادي بحسنِ وجوههم كتزينِ الهالاتِ بالأقمار
من كلِّ مَنْ جعل القنا[1] أنصارَهُ وَكَرُمْنَ فاستغنى عن الأنصار
والليث إن ساوَرْتَهُ[2] لم يعتمدْ إلا على الأنيابِ والأظفار
واذا هو اعتقل القناةَ حسبتها صِلاً تأبَّطَهُ هزبرٌ ضار
شاب القذالُ وكلُّ غصنٍ صائرٌ فينانُهُ الأحوى إلى الإزهار
وتلهُّبُ الأحشاءِ شيَّبَ مفرقي هذا الشعاعُ[3] شواظُ تلك النار

ومن أخرى[4] :

أبا الفضل طال الليلُ أم خانني صبري فَخُيِّلَ لي أنّ الكواكبَ لا تسري

يقول فيها :

ولا حُزْنَ إلاّ يومَ فارقتُ شخصَه ورحتُ ببعضِ النفس والبعض في القبر
وأعلمُ أن الحادثاتِ بمرصدٍ لتأخذَ كليّ مثلَ ما أخذت شطري
أحينَ نضا ثوبَ الطفولةِ ناسلاً كما نسل الريشُ اللؤامُ عن النسر

---

١ الديوان : الظبا .
٢ الديوان : بارزته .
٣ الديوان : الضياء .
٤ ديوان التهامي : ٧٧

وخلى رضـاعَ الثـدي مستبـدلاً به أفـاويقَ من درّ البلاغـة والشعر
وألقـى تمِاتِ الصِّبـا وتباشرتْ حمائـلُ أغمادِ المهنّـدة البُتْر
وقامـتْ عليه للعـلاءِ شواهدٌ كما استشهـد العضبُ السريجـيّ بالأثر
طواه الـردى طيَّ الـرداءِ فأَصبحتْ مغـانيه ما فيهـنَّ منـه سوى الذكر
وقالـوا سَيُسْـليه التـأسّي بغيره فقلـتُ لهم هل يُطْفَـأُ الجمـرُ بالجمر

ومنـها :

بضربٍ يطـيرُ البيض من حَرِّ وَقْعِهِ شَعاعـاً كما طار الشرارُ عن الجمر
ولما تُضفْ في نصرةِ اللـه طعنةً إلى ضربـة كالتبـر فوق شفـا نهر
فلا تسألونـي عنـه صبـراً فانني دفنـتُ به قلبـي وفي طيّه صبري
وإلا تكنْ قلبـي فانـكَ بَعْضُهُ قددتـكما قَدَّ الهـلال من البدر

قوله : « أحين نضا ثوب الطفولة .. » كقول المعري[1] :

تـرى أعطافَهـا ترمـي حمياً كأجنحـةِ البُـزَاةِ رَمَـتْ نُسَالا

وقوله : « كما استشهد العضب السريجي بالأثر » كقوله أيضاً[2] :

* كالسيف دلَّ على التأثيرِ بالأَثَرِ *

وقوله : « كالتبر فوق شفا نهر » معناه مشهور ، إلا أنّ التهاميَّ لم يُتْهم فيه ولا أَنْجدَ ، ولا اضطلع بأَعباءِ ما تقلَّد ، ولا قام ولا قعد ، وأعلق منه بنسبه الذي يقول :

* عليهنَّ من وَقْعِ السيوفِ حواجبُ *

وقـال آخر :

* فنضربهم شَكْلاً ونطعنهمْ نَقْطا *

---

١ شروح السقط : ٤٧

٢ شروح السقط : ١٣٩ وصدر البيت : يبين بالبشر عن إحسان مصطنع .

وقال آخر ، وان كان في اللفظ [   ] وكان بين أجزاء البيت تباعد :

طعــنٌ كما فَهَــقَ الغــديرُ يؤمّهُ   ضربٌ كحـاشيةِ الــرداءِ طويـلُ

وهذا كثـيرٌ وهو من متداولاتِ المعاني ، ومنه قول أبي العشائر الحمداني[1] :

أأخـا الفـوارسِ لو شهــدتَ مواقفي   والخيل من تحــت الفــوارس تَنْحِطُ

لقــرأتَ منهــا ما تخــطُّ يدُ الوغى   والبيضُ تُشْــكِلُ والأَسِنَّــةُ تنقط

وكان أبو الطيب يستحسنه له على قلة رضاه ، بقولِ سواه .

ومن سائر شعره في أوصاف مختلفة

قال من قصيدة[2] :

تحــوَّلَ الدَّهْــرُ أحــوالي وبدَّلني   داراً بدارٍ وجيرانــاً بجيرانِ

وربَّ أمــرٍ رمتنــي الحادثــاتُ به   أرنــو إليه وحــالي فيه حالان

اذا نظــرتُ بعــين الهــزلِ أضحكني   وإن نظــرتُ بعــين الجِــدِّ أبكاني

يظلها الـكريمُ فلا يُسْقَـى وقـد ظفِرتْ   كفُّ اللئيم بسيحــانٍ وجيحان

تأمَّــلِ القَــدَرَ المحتــومَ وارضَ به   فانمــا وَزَنَ الــدنيـا بميزان

فظــلَّ يزدادُ فيهــا كلُّ منتقص   عــلاً ويهبــطُ منهــا كلُّ رجحان

كم من رجـالٍ إلى الأديان قد نصبوا   وربمـا صيدتِ الــدنيا بأديـان

كم عُمِّرَتْ بالخنــا خالي منازلهم   عمارةَ الكتــبِ من فقــه وقرآن

وباقـلُ الخطِّ سحبـانُ المقـالِ فهل   كباقــلٍ فــي تشــاه أو كسحبان

تراه مجفــوَّ نادٍ مستضــامَ يدٍ   مستخبلاً وهو في أثواب لقمان/[١٥٦]

ما ذَنْبُــهُ غــيرُ نفسٍ لا تساعده   على لبــاسِ رياء غــير صوّان

[1] اليتيمة ١ : ١٠٤

[2] لم ترد في ديوان التهامي .

قوله : « ويهبط منها كلُّ رجحان » ، كقول ابن الرومي[1] :

قالت علا الناسُ إلا أنتَ قلت لها   كذاك يسفلُ في الميزانِ ما رجحا

وذكرت بذكره باقلاً وسحبانَ ، قولَ أحمد بن سليمان[2] :

إذا وصف الطائيَّ بالبخل مادرٌ   وعيرَّ قُسّاً بالفهاهةِ باقلُ
وقال السُّها للشمسِ أنتِ خفيّةٌ   وقال الدجى للصبح لونُكَ حائل
فيا موت زُرْ إن الحياةَ ذميمةٌ   ويا نفسُ جِدّي إن دهرَكِ هازل

وقوله : « يظلها الكريم فما يسقى .. » البيت ، معنىً قد طوي ونشر ، وعرف حتى أنكر ، ومنه قول بعض أهل عصرنا وهو الوزير أبو محمد بن عبد الغفور ، من شعر اندرج له في رسالة خاطب بها بعضَ أهلِ وقتِهِ[3] :

وأُصْرَفُ عِن وِرْدٍ وقد غمر الندى[4]   خفيفَ عذارٍ والهبَنَّقَةَ الأَلحى
ومن عجبٍ أن يُقْطَعا كلَّ نُخَّةٍ[5]   وأمنعَ لِلْقُرْصِ الذي قاتني ملحا

وقال التهامي[6] :

ألا قاتلَ اللهُ الحمامَ فانها   بكتْ فَشَجتْ قلباً طروباً إلى هندِ
وما ذكره هنداً وقد حال دونها   قنا الخطِّ أو بيضٌ رقاقٌ من الهند
وأُسدُ على جُرْدٍ من الخيل ضُمَّر   وهيهات من تحميه أُسْدُ على جرد
وبيداء[7] تكبو دون إيرادها القطا   ويوهي السرى فيها قوى الحازمِ[8] الجلد

١ ديوان ابن الرومي : ٥٦٣ وقد مرَّ في القسم الأول من الذخيرة : ٣٥٠
٢ يعني أبا العلاء المعري ، انظر شروح سقط الزند : ٥٣٣ ـ ٥٣٨
٣ انظر القسم الثاني من الذخيرة : ٣٦٦
٤ في الأصل : عمر الربا .
٥ في الأصل : لجة .
٦ ديوان التهامي : ٢٠٢
٧ الديوان : ويهماء
٨ الديوان : الضيغم

مطوّحـةٌ لولا الـدراريُّ ما درى دليلٌ بهـا كيف السـبيلُ إلى الرشد[1]
سبـاريتُ ما فيهـنَّ زادٌ لراكبٍ سوى ما حوتْ فيها الأداحيُّ من رُبْدِ
كيهماءَ كلفـتُ المطـيَّ اعتسافَها إلى الحَسَبِ الـزاكي إلى الـكرم العِدِّ
إلى الأَسَـدِ الضرغـام في حَوْمَـةِ الوغى اذا احمـرَّ في غاب القنـا حَدَقُ الأسد
من [الأجـأيين] الـذين جيادُهُمْ بأحشـاءِ[2] من عاداهـمُ أبـداً تَرْدي
نجـومُ بنـي قحطـانَ في طَخْيَةِ الدجى إلى عَدَدٍ عِدٍّ وألسنـةٍ لُدِّ

وقـال[3] :

بـين كريمـين مجلسٌ واسعْ والـودُّ حالٌ تقـرِّبُ الشاسعْ
والبيتُ إن ضاق عن ثمانيةٍ مُتَّسِـعٌ بالـودادِ للتـاسع

فصل في ذكر مهيار الديلمي[4]

وذكر جملة من شعره ، مع ما يتعلق بذكره

كان شاعرَ العراق وَقْتَهُ لا يُدَافَعُ ، ولسانَ تلكَ الآفـاقِ لا ينـازَع ، سيلٌ أصبحت منه المذانبُ تلاعا مِيْثاً ، وبدرٌ تجلّتْ به الغياهب قديماً وحديثاً ، أحد من خُلِّيَ بينه وبين الميدان هنالك فَجرى وَحْدَه ، وسبق من قبله إلى غاية الاحسان فما ظنُّكَ بمن بعده ، وقد أخرجتُ من شعره ما يعلِّلُ الرفاقَ ذكراه ، ويملأ الآفاقَ سناؤه وسناه .

١ الديوان : القصد

٢ الديوان : بأحياء .

٣ لم يرد البيتان في ديوانه .

٤ هو أبو الحسين (أو أبو الحسن) مهيار بن برزويه ، كان مجوسياً وأسلم ـ فيما يقال ـ على يد الشريف الرضي ، سنة ٣٩٤ هـ ، اقرأ ديوان شعره بجامع المنصور ببغداد ، وكانت وفاته سنة ٤٢٨ : انظر ترجمته في تاريخ بغداد ١٣ : ٢٧٦ والمنتظم ٨ : ٩٤ ودمية القصر ١ : ٢٨٤ وابن الاثير ٩ : ٤٥٦ وابن خلكان ٥ : ٣٥٩ وعبر الذهبي ٣ : ١٦٧ وابن كثير ١٢ : ٧٦ والشذرات ٣ : ٢٤٢ والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٦ ، ويقع ديوانه في أربعة أجـزاء (ط . دار الكتب المصرية : ١٩٢٥ ـ ١٩٣١) .

جملة من شعره في اوصاف مختلفة

قال من قصيدة[1] :

مَنْ عذيري يومَ شرقــيِّ الحمى ... من هوىً جـدَّ بقلـبٍ[2] مزحا

نظـرة عارت فعــادتْ حسرةً ... قتــل الرامــي بهــا مَنْ جرحا

لاتَعُــدْ إن عدتَ حيّاً بعدها ... طارحــاً عينيـك فيهــا[3] مطرحا

قد تذوقــتُ الهوى من قبلهــا ... وأرى مُعْذِبَــهُ قــد أملحــا

سلْ طريقَ العيسِ من وادي الغضا ... كيف أعْسَفْــت[4] لنــا رأدَ الضحى

لا لشيءٍ[5] غــير ما جيراننا ... خلفــوا نجــداً[6] وحَلُّــوا الأبطحا

يا نسيمَ الــريح من أرضِ الحمى[7] ... شدَّ ما هجــتَ الجــوى والبرحا

يا ندامــايَ بِسَلْــعٍ هل أرى ... ذلك المَغْبَــقَ والمُصْطبحَا

اذكرونــا ذِكْرَنــا عَهْدَكُمُ ... ربَّ ذكرى قَرَّبَــتْ مَنْ نزحا

وارحمــوا[8] صبــاً إذا غنَّــى بكم ... شربَ الدمــعَ وعــاف القدحا

رجــع العــاذلُ عنّــي آيســاً ... من فؤادي فيكمُ أن يفلحا

لو درى ، لاحَمَلَــتْ نــاجيــةٌ ... رَحْلَــهُ ، في من لحانــي مالحــا

[قــد شربــتُ الصبــرَ عنــكم مكرهاً ... وتبعــتُ السقــم فيكم مُسْمِحا][9]

وعرفــتُ الهــمَّ من بعدكمُ ... فكأنــي مــا عرفــتُ الفرحــا

---

١ ديوان مهيار ١ : ٢٠٢ وقد نظمها سنة ٤١٤

٢ في الأصل : بقلبي .

٣ الديوان : فينا

٤ كذلك هي في أصل الديوان ، وجعلها المحقق : « أغسقت » .

٥ الديوان : ألشيء .

٦ الديوان : نفضوا نجداً

٧ الديوان : من كاظمة .

٨ الديوان : واذكروا .

٩ زيادة من الديوان لاتصال السياق .

ما سمعتـــم[1] في السرّى من قبلهم بـابـنِ ليلٍ ساءَهُ أن يصبحا

أراه قلب المثل : « عند الصباح يحمد القوم السرى » .

صوَّحــتْ ريحانــةُ العيشِ به فَمَــنِ الــراعــي نباتــاً صــوَّحا
انــكرتْ تبــديلَ أحــوالي وَمَنْ صحــبَ الــدنيا على ما اقترحا
شدَّ ما منَّــى غــروراً نفســه تاجــرُ الآداب[2] في أن يــربحا
والمنــى والــظــنُّ بــابُ أبداً تغلــقُ الأَيــدِي إذا ما فتحا
قد خبــرتُ النــاسَ خُبْــري شيمي بخـــلاءُ وتســـمَّـــوا سمحــا
وتولّجْــتُ علـــى أخــلاقِهــمْ[3] داخــلاً بيــن عصــاهــا واللحــا
يشتهــون المالَ أن يبقــى لهم فلماذا يشـــتهـــونَ المِــدحَا

وهذا كقول الآخر[4] :

أبـــو حســـنٍ يتشـــهـــى المديحَ ويعجــزُ عــن صلــةِ المــادحِ
كبــكــرٍ تشــهَّــى لــذيذَ النكــاح وتفــرقُ من صولــةِ الناكح/[١٥٧]

رجع :

ما تبــالي مــا قَضَــتْ حــاجاتها ما دَمِــي من خُفِّهــا أو قَرِحَا
عَــوَّدَ البــدْرَ وقــد قابله غــرةً مــات بهــا مستصبحا
ورآه البحـــرُ أوفـــى جَمَّـــةً منــه بالنــائــلِ لما طفحــا
أنتــم استنــزلتــمُ عنهــا يدي بعــد ما ظُنَّ بهــا لن تسمحا[5]

وقـال[6] :

١ الديوان : سمعنا .
٢ في الأصل : الأحباب
٣ في الأصل : أعلاقهم .
٤ الشعر في أمالي القالي ٣ : ١٢٧ وتشبيهات ابن أبي عون : ٢٩٠ ونسب فيه لابن هرمة وكذلك في المختار : ٢٩٠ وحماسة ابن الشجري : ٢٦٩ وانظر ديوان ابن هرمة (جمع المعيبد) : ٢٦٣ ـ ٢٦٤ وفيه تخريجات كثيرة .
٥ الديوان : بعدما عز بها أن أسمحا .
٦ ديوان مهيار ٣ : ٣٢٧

بكر الـوابـلُ[1] تحـدوه النُّعامَى فسقـاكِ الـريَّ يـا دارَ أُمـاما

وتمشّـتْ فيـكِ أرواحُ الصَّبا يتـأرَّجْـنَ بأنفـاسِ الخزامى

وإذا مغنــىً خلا من زائرٍ بعـد ما فارق أو زِيـرَ لمـاما

فقضى عهـد[2] الهـوى أن تصبحي للمحبيـن مُنـاخـاً ومقـاما

أجتـدي المـزْنَ وماذا أربي أن يجـودَ المزنُ أطـلالاً رماما

وقليلٌ قيلَ أن أدعـو لها لا يرانـي اللـه أستجـدي الغماما

أين سكانُـكِ لا أيـن همُ أحجـازاً يمّـوهـا أم شآما

صدعـو[3] بعـد التئـام فَغَدَتْ بهـمُ أيدي المرامـي تترامى

وتلقَّوْا كـل حيرانَ بليـدٍ يسـألُ الجنـدلَ عنهـم والرغاما

يا لُوَاةَ الـدَّيْـنِ عن مَيْسَرَةٍ والضـنينـات ومـا كنَّ لئامـا

والمصراع الأول من هذا البيت كقول أبي الفرج الوأواء[4] :

يمـطلُ كـلُّ العبـادِ دَيْنَهُمُ وهـو مليٌّ بذلـك الديـنِ

ومنهـا :

قد وَقَفْنـا بعـدكمْ في ربعكم وقضينـاهُ استـلامـاً والتثـاما

سَعِـدَ الـراكبُ تحتثُّ [به] جَسْرَةٌ تخبـطُ وهـداً وإكاما

تطـأ العَسْفَ فتـدمـي خُفَّها جبهـاتُ الأرضِ شـجّـاً ولطاما

تتنـزَّى[5] أنفـاً في خُلْقِهـا أن تطيعَ السَّـوْطَ أو ترضى الزماما

---

١ الديوان : العارض .

٢ الديوان : حفظ

٣ في الأصل : صدعت

٤ ديوان الوأواء : ٢٢١ .

٥ في الأصل : تتبرا .

وبجرعاءِ الحمى قلبي فَعُجْ | بالحمى واقرأ على قلبي السلاما
وترجَّلْ فتحدَّثْ عَجَباً | أنَّ قلباً سار عن جسم أقاما
قلْ لجيرانِ الغضا آهٍ على | طيبِ عيشٍ بالغضا لو كان داما
نصلَ العامُ وما تنساكمُ | وقصارى الوجد أن نسلخ[1] عاما
حَمِّلوا ريحَ الصَّبا نشركمُ | قبل أن تحملَ شيحاً او ثماما
وابعثوا أشباحَكُمْ لي في الكرى | إن أردتم[2] لجفوني أن تناما
وقف الظامي على أبوابكم | أفيقضي[3] وهو لم يَقْضِ أُواما
ما يبالي من سقيتنَّ لمىً | منعكنَّ الماءَ عذباً والمداما
واعجبوا من أن يرى الظَّلْمَ[4] حلالاً | شاربٌ وهو يرى الخمرَ حراما
أشتكيكمْ وإلى من أشتكي | شَمِلَ الداءُ فمن يُبْري[5] السقاما
أنتمُ والدهرُ سيفٌ وفمٌ | لا يملّانِ ضراباً وكلاما
كلما عاتبتُ في حظيَ دهري | زادني العتبُ لجاجاً وعُراما
واذا استصحبتُ خلاً فكأني | منه جردت على حتفي حساما
لمتُ أيامي على الغدر فقد | زادتِ الإجرامَ حتى لا ملاما
ولزمتُ الصمتَ لا أشكوهمُ | بعد أن أفنيتُ في العذل الكلاما
دفع الله وحامى عن أنا[س ٍ][6] | مذ رعوني لم يضيعوا لي سواما
كان دهري هرماً قبلهمُ | فأعادوه بما أبدوا غلاما[7]

١ في الأصل : يصلح .
٢ الديوان : أذنتم .
٣ في الأصل : فتقضى .
٤ في الأصل : القتل ؛ والظلم : ماء الاسنان .
٥ الديوان : أنتم الداء فمن يشفي .
٦ الديوان : رجال
٧ سقط هذا البيت من الديوان .

كفَّنـــي جودهـــمُ أن أجتدي وأبـــى عزهـــمُ لي أن أضاما

وقال من أخرى[1] :

لا عداكِ الغيثُ يا دارَ الوصالِ كل مُنْحَـلٍ العـرى واهـي العَزَالي

ومنـها :

والغـوانـي آزفـاتٌ لفمـي ويدي مرتبـكـاتٌ[2] في حبالِ

كـل هيفـاء يمينـي طوقهـا فحمـةَ الليلِ وقرطاهـا شمالي

وقـال[3] :

أتراهـا يوم صَدَّت أن أراها علمـتْ أنـيَ من قتلى هواها

أم رَمَـتْ جاهلـةً ألحاظهـا لم تميز عَمْدَهـا[لي] من خَطَاها

سنحـتْ بيـن المصلىَّ وَمِـنىً مَسْنَـحَ الـظبيةِ تستقـري طَلاها

وقـال[4] :

ضربـوا بمدرجـةِ الطـريق قبابَهُمْ يتقارعـون بهـا على الضِّيفانِ

ويكاد مُـوقِـدُهُـمْ يجـودُ بنفسه حبَّ القِـرى حطبـاً على النيران

وقال من قصيدة أولها[5] :

دعوهـا تَرِدْ بعـد خمسٍ شروعا وراخـوا عـلائِقَهـا والنُّسُـوعَـا

ولا تحبسـوا خُطْمهـا أنْ تطـولَ الـــــحياضَ وأيـدِيهَـا أن تَبـوعـا

وقولـوا دعـاء لهـا لاعُقِرْتِ ولا امتدَّ دهـرُكِ إلا ربيعا

١ ديوان مهيار ٣ : ١٣٣

٢ الديوان : آذنات لفمي ... مرتسنات .

٣ ديوانه ٤ : ١٨٩

٤ ديوانه ٤ : ٥١

٥ ديوانه ٢ : ٢٢٢

فقد حَمَلَتْ ونجتْ أنفساً كرائمَ جُبْنَ الأماني سريعا
حَمَلْنَ نشاوَى بكأسِ الغرامِ كلٌّ غدا لأخيه رضيعا
أحَبُّوا فُرادى ولكنهم على صيحةِ البين ماتوا جميعا
حموا راحةَ النومِ أجفانَهُم وشدُّوا على الزفراتِ الضلوعا
وباتوا بايديهمُ يسندون فوقَ الرِّحالِ جُنوباً وقوعا
وفي الركب إن وصلوا لاحقين عقائلُ يشْفين تلك الصدوعا
من الراقصات بِحَبِّ القلوب حتى يصيرَ الحليمُ الخليعا
قصائدُ لم يَصْطَفِنَّ[1] المياهَ ولم يحترشنَ اليرابيعَ جوعا
اذا الحسبُ اعتزَّ من خِنْدِفٍ مَسَحْنَ ذوائبَهُ والفروعا/[١٥٨]
خَرَقْنَ نقوباً لنا في السجوفِ جعلن العيونَ عليها رقوعا
فقمتُ أناشدهنَّ العهودَ لو يستطعن الكلام الرجيعا

قوله : « خرقن نقوباً .. » البيت ، اهتدمه من قول العتبي[2] :

وكنَّ إذا أبصرنني أو سَمِعْنَ بي بَدَرْنَ فرقَّعْنَ الكوى بالمحاجرِ

وأخذ هذا المعنى أبو الشبل[3] من شعراء الدولة العباسية فقال[4] :

رأين الشيب قد ألبسني أُبَّهَةَ الكهلِ
فأعرضْنَ وقد كنَّ إذا قيل أبو الشبلِ

١ في الديوان : يصطبغن . وهو خطأ ؛ واصطفان المياه : اقتسامها لشحٍّ في الماء .
٢ هو أبوعبد الرحمن محمد بن عبيد الله بن عمرو ، شاعر بصري راوية ينسب الى جده عتبة بن أبي سفيان ، وتوفي سنة ٢٢٨ (انظر ابن خلكان ٤ : ٣٩٨ وفي الحاشية مصادر ترجمته) والبيت ورد عند ابن خلكان ٤ : ٣٩٩ ومعجم المرزباني : ٣٥٧ والأغاني ١٤ : ١٩٢
٣ أبو الشبل عاصم (أو عصيم) بن وهب له ترجمة في طبقات ابن المعتز : ٣٨٠ والأغاني ١٤ : ١٨٤ وكان حياً في أيام المتوكل ، وكان كثير الغزل ماجناً .
٤ الأبيات في الأغاني ١٤ : ١٩١

تساعَيْنَ فَرَقَّعْنَ الكُوى بالأعينِ النُجْلِ

ومن أناشيد المبرد[1] :

سَدَدْنَ خِصَاصَ البيتِ حين دَخَلْنَهُ بكلِّ [لبانٍ] واضحٍ وجبينِ

وقال مهيار[2] :

لعلَّهمْ لو وقفوا أَبَلَّ هذا المدنفُ
يا قلبُ هل أنتَ معي[3] أم معهم مُنْصَرِفُ
يا حاديَ الأظعان أَرْوِدْ[4]، بعضَ ما تعتسف
فان [فيما] بينها[5] أفئدةً تختطف
على النقا المطلول منها غُصُنٌ مهفهف
إيهٍ على ريحانه لو كان مما يقطف
فلا برا وجدي بهم ولا أفاق الشغف[6]

وقال من أخرى[7] :

مشتبهٌ أعرفُهُ وإنما مغالطاً قلتُ لصحبي : دارُ مَنْ
يا صاحبي عوناً وإن أيأسني من جَلَدي[8] قولي لخوّارٍ : أعِنْ
قفْ باكياً فيها فان كنتَ أخي مؤانساً[9] فبكّها عنكَ وعن
يا زمناً مرَّ كما اقترحتُهُ بالنَّعْفِ إن عاد الصبا فَعُدْ إذن

---

١ الكامل ٢ : ٢٨٤ وروايته : سددن خصاص الخيم لما دخلنه .
٢ ديوان مهيار ٢ : ٢٨١ .
٣ الديوان : هل أنت يا قلب معي .
٤ أرود : تمهل ، وفي الأصل أزور .
٥ الديوان : فان بين سوقها .
٦ لم يرد هذا البيت في الديوان .
٧ ديوان مهيار ٤ : ٤٧
٨ الديوان : وإن اشفني مع جلدي .
٩ الديوان : أخاً مؤاسياً .

وحاملي على السرورِ حاملٌ في كفّه وطرفه سيفَ الفتن
قد كتب الهجرُ على عارضه ما أقبحَ الهجرانَ بالوجه الحسن
يديرُ مما اختار عسجديَّةً ما قُلْقِلَتْ[1] عن مثلها هامةُ دن

وقال يمدح الوزير ابن المغربي من قصيدة[2] :

وقفنا وأتعب ليَّ الرقابِ بِسِقْطِ الغضا[3] طَلَلٌ يمْثُلُ
وفي الركبِ من ثُعَلٍ من يَدِقُّ إلا على سَهْمِهِ المقتل
أوانسُ ماتت لهنَّ الذحولُ وحُلِّمَ فيهنَّ مَنْ يجهل[4]
محسّدة العين شُهْلُ اللحاظِ يصبغها مِيلُهَا الأكحل
مهاوي قلائدها إن هوينَ بطاءً على غُرَرٍ تنزل
أحقاً تقنَّصني بالحجازِ في شكّتي رشأ أعزل
عددتُ سنيَّ لها والبياضُ لدعوايَ في عدّها مبطل
وأقبلتُ أستشهدُ الأربعينَ لو أن شهادتها تُقْبَلُ
وقالوا رداءٌ جميلٌ عليكَ ألا ربما كُرِهَ الأجمل
وما الشيبُ أول مكروهةٍ بمحبوبة أنا مستبدل
تمرَّن جنبي بحملِ الزمانِ فكلَّ ثقيلاتِهِ أحمل
يردُّ يدي عن مَنال المنى وكفّيَ من باعِهِ أطول
وتعقلُ ناشطَ عزمي الهمومُ والماءُ يحبسُهُ الجدول
وما الحظّ في أدبٍ مُفْصحٍ ومن دونه نَشَبٌ مُجْبِلُ
يرومُ الفتى رتبةً وهو[حيث] يَجْعلُهُ مالُهُ يُجْعَلُ

١ الديوان : قطعت .
٢ ديوان مهيار ٣ : ١٢٥
٣ الديوان : اللوى .
٤ سقط هذا البيت من الديوان .

تشرَّفْ بحظٍّ فان الحظوظَ حُلَى كلِّ [ذي] نسبٍ يعطل[1]
ووافِ المواسمَ . ضخمَ العيابِ تكنْ لك قولتك الفيصل
حمى الله للمجد نفساً بغير سلامتها المجدُ لا يحفل
وحيّا على ظُلُمات الخطوبِ وجهاً هو البدرُ أو أكمل
وتُقبلُ بالرزقِ قبل السؤالِ أسرّته حين تستقبل

ومنها :

تخطّى بلا قدمٍ تستزلّ وخطَّ بلا قلم يخجل
من القوم تُنْجِدُ أيمانهم اذا استصرخ البلدُ الممحل
لهم غُرَرٌ أزدشيريّةٌ تضيءُ وسترُ الدجى مسبل
ويومٍ تواكَلُ فيه العيونُ عمائمُ فرسانِه القسطل
تُعارِضُ فيه الكماةُ الكماة فمتنٌ يحطَّمُ او كلكل
بطعنٍ كما [شُقَّ][2] جيبُ القميصِ وضربٍ كما احْتُسِي الحنظل

ومنها :

وتحتكَ طِرْفٌ يطيشُ المراحُ به أنْ يَقَرَّ له المفصل
كأنَّ الأباريقَ طافتْ عليه أو مسَّ أعطافه أفْكَلُ
شجاه غناءُ الظُّبا في الطُّلَى فمن طَرَبٍ كلما يصهل
إذا فات سَعْيُكَ [شأ]وَ الرياح فمن أين تلحقُهُ الأرجل
يضجُّ النديُّ خصاماً فان نطقتَ أرمَّ لك المحفل
ويختلفُ الناسُ حتى إذا قضيتَ قضى القدرُ المنزل
بسطتَ يدين يداً تأخذُ النّفوسَ بها ويداً تبذل
فيمناكَ صاعقةٌ تُتَّقى وَيُسْرَاكَ بارقةٌ تهطل

---

١ هذا البيت والذي يليه لم يردا في الديوان .
٢ زيادة بحسب المعنى ، اذ البيت لم يرد في الديوان .

ولـم نَرَ أنـواءَ من قبلهـا مـواطـرَ أسـمـاؤهـا أنمل
فداكَ وتفعـلُ مالا تقولُ ممّنْ يقـولُ ولا يفعل/[١٥٩]
أُعيذُكَ بالـكلماتِ التي بهـن تَعـوَّذَ من يكمـل
فما يسـعُ الجـوُّ ما قد وسعـتَ ولا تحمـلُ الأرضُ ما تحمل
ليهـنِ الـوزارةَ أن زُوِّجَتْكَ على طـول ما لبثـت تُعْضَلُ
غدتْ بك مُحْصَنَـةً لا تحلُّ لبعـلٍ سـواكَ ولا تُبْذَلُ
وتعلـمُ إن نازعـتْ للرجالِ مُحْصَـنَـةٌ أنهـا تقتـل
لئـن جئتَهـا عانسـاً قد أبرَّ على سنّهـا العـددُ الأطول
فمـن معجـزاتـك أنّ الشبـابَ لهـا عـاد ماضيه يَسْتَقْبِلُ
وإن كنـتَ آخـرَ خُطّابها فانـك محبـوبهُـا الأول
فضاحـكَ بغداد بعـد الخطوبِ من عـدلكَ العـارضُ المسبلْ
طلعتَ عليها طلوعَ الصبـاحِ ولـيلُ ضـلالاتِـهِ أليـلُ
ومنهـا :
فهـل أنـت مُنْتَشلي من نيوبِ دهـرٍ يدمِّـي ولا يَدْمُـلُ
ومـن عيشـةٍ كلُّ أعوامِهَـا وإن أخصَـب النـاسُ، بي ممحل
فَصُـنْ بك وجهـيَ عمّـنْ سواكَ فما مثـل وجهـيَ يستبذل
فكم راش مثلُك مثلي فطارَ وإن كان مثلك لا يَغْفَلُ
وقدمـاً وفى لزهـيرٍ وزادَ من هَرِمٍ واهـبُ مجزل
فسـار به الشعـرُ فيما سمعتَ من مَثَـلٍ باسمـه يرسل
وحسَّـانُ أَمْسَـتْ رقَـاهُ الصّعابَ من آل جفنـة تَسْتَنْزِلُ
تعـرَّفَ ريـحَ عطـاياهـمُ وقـد جاء يحملها المرْسَـل
وأبصر نعماءَهُـمْ نازحيـنَ وبـابُ لواحِـظِـهِ مُقْفَـلُ[١]

[١] يشير إلى أن حسان كان قد أضرَّ في شيخوخته . ولكنه عرف ببصيرته أنَّ جبلة بن الأيهم كان قد أرسل إليه عطاءً وهدايا .

ملوكٌ مضوا بالذي استعجلوا وطاب لهم ذكرُ[1] ما أجّلوا
وما فيهمُ جامعُ ما جمعتَ إذا أنت حَصَّلْتَ أو حصلوا
رمى الشعراءُ عناني إليك ففتٌّ وأرساغهم تُشْكَلُ
وسرَّهمُ أنهمْ يعملونَ بزَعمهُم وأنا . أعمل
ولو أقنع الخبرُ بالسَّيفِ كان أحقَّ بضرب الطُّلى الصَّيْقَلُ
ببسطِكَ لِي سال وادي فمي ولا ينثني الكلمُ الأفضل
[فسوّمتها مهرةً لا يَعَضُّ بغير يدي شدقها مِسْحَلُ][2]
محرَّمَة السرج إلاّ عليك تَشْرُفُ منك بمن تَبْعُلُ
كأن عَبِيداً تمطّى بها ومسَّحَ أعطافها جَرْوَلُ

فصل في ذكر أبي منصور عبد الملك بن اسماعيل الثعالبي الخراساني[3]

والاتيان بطرق من خبره وحميد أثره

كان أبو منصور ـ وَفَّقَهَ ـ راعي تَلَعَاتِ العلم ، وجامعَ أشتاتِ النثر والنظم ، أسوة[4] المؤلفين في زمانه ، وإمام المصنفين بحكم قِرانه ، سار ذكره سَيْرَ المثل ، وَضرِبَتْ إليه آباطُ الإبل ، وطلعتْ دواوينه في المشارق والمغارب ، طلوعَ النجم في

١ الديوان : ذخر .
٢ زيادة من الديوان ليتصل سياق الأبيات .
٣ ترجمته في ابن خلكان ٣ : ١٧٨ (وفيه نقل عن الذخيرة) وعبر الذهبي ٣ : ١٧٢ ونزهة الالباء : ٢٤٩ ودمية القصر (ط . حلب) : ١٨٣ والشذرات ٣ : ٢٤٦ ومعاهد التنصيص ٣ : ٢٦٦ وانظر مقدمتي محققي كتابي التمثيل والمحاضرة ولطائف المعارف ، ففيهما محاولة لعدّ كتبه . ودراسة عن الثعالبي بعنوان « الثعالبي ناقداً وأديباً » للاستاذ محمود عبد الله الجادر ، بغداد ، ١٩٧٦ .
٤ ابن خلكان : رأس .

الغياهب ، وتواليفه أشهر مواضع ، وأبهر مطالع ، وأكثر راوٍ لها وجامع ، من أن يستوفيها عدٌّ أو صفٌّ ، أو يُوفّيها حقوقها نظمٌ أو رصف، وقد أخرجت من نثره فصولاً أدرجها في أثناء كتبه ، ومن نظمه جملاً وتفاصيل أعرب بها عن ترقرق طبعه وتدفق أدبه ، تشارك الأرواح في الأجساد ، وتقعد للاقتراح بالمرصاد .

من ذلك فصول من كلامه في صدر كتابه « فقه اللغة »[1] :

مَنْ شرح الله صدره للإيمانِ اعتقد أنَّ محمداً عليه السلام خيرُ الرسل ، والاسلامَ خيرُ الملل ، والعربَ خيرُ الأمم ، والعربيةَ خيرُ اللغاتِ ، والاقبالَ على تفهمها من الديانة ، إذ هي أداةُ العلمِ ومفتاحُ التفقّهِ في الدين ؛ ثم هي لإحراز الفضائلِ ، والاحتواء على المروءةِ وسائرِ المذاهب[2] كالينبوع للماء ، والزَّنْدِ للنار . ولو لم يكنْ في الإحاطةِ بخصائصها ، والوقوف على تصاريفها ، إلا قوةُ البيان[3] في معرفةِ إعجازِ القرآن ، وزيادةُ البصيرة في إثبات النبوة ، اللذين هما عمدة الدين[4] ، لكفى بهما فضلاً يحسنُ أثره ، ويطيبُ في الدارين ثمره ، فكيف وأيسرُ ما خصَّها الله تعالى به من ضروبِ المادح يُكِلُّ أقلام الكتَبَةِ ، ويُتْعبُ أناملَ الحَسَبَة .

وفي فصل[5] :

قيض الله لها خَزَنَةً وحفظَةً من خواصِّ الناسِ وأعيان الفضل وأنجم الأرض ، فنسوا[6] في خدمتها الشهوات ، وجابوا الفلوات ، ونادموا لاقتنائها الدفاتر ، وسامروا القماطر ، وكدّوا في حَصرِْ لغاتها طباعَهُمْ ، وأسهروا في تقييدِ شواردها

١ فقه اللغة : ١

٢ فقه اللغة : وسائر أنواع المناقب .

٣ فقه اللغة : اليقين .

٤ فقه اللغة : الايمان .

٥ فقه اللغة : ٣

٦ فقه اللغة : تركوا

أجفانهم ، فعظمت الفائدة ، وعمت المصلحة ، وكلما بدأتْ معالمها[١] تتنكر ، وعرض لها ما يشبه الفترة ، ردّ الله تعالى لها الكرة ، فأهبَّ ريحها ، ونفّق سوقَها ، بصدر[٢] من أفراد الدهر أديب ، ذي صدر رحيب ، وقريحة ثاقبة ، ودراية صائبة/[١٦٠] يحبُّ الأدب ، ويتعصب للعرب[٣] ، فيجمع شملها ، ويكرم أهلها، ويستدعي التأليفات البارعة في تجديد ما عفا من رسوم طرائفها ولطائفها ، مثل الامير السيد الأوحد أبي الفضل [الميكالي] :

هيهات لا يأتي الزمان بمثله ... إن الزمان بمثله لبخيلُ

وما عَسِيتُ أنْ أقولَ في من جمع طرائف[٤] المحاسن ، واستوى على غايات المناقب ، فان ذكر كرم المنصب ، وشرف المنتسب ، كانت شجرته الميكالية في قرارة المجد والعلاء ، أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء ، وإن وُصِفَ حُسْنُ الصورةِ التي هي أولُ السعادة ، وعنوانُ الخيرِ وسمة السيادة ، كان في وجهه المقبول الصبيح ، ما يستنطقُ الأفواه بالتسبيح ، لا سيما إذا ترقرق ماء البشر في غُرَّتِهِ ، وتفتَّقَ نورُ الشرف بين أسرَّتِهِ . وإن مُدِحَ حُسْنُ الخلقِ فله أخلاقٌ خُلِقْنَ من الكرم المحض ، وشيمٌ تشامُ منها بارقةُ المجد ، فلو مُزِجَ بها البحرُ لَعَذُبَ طعمه ، ولو استعارها الزمانُ لما جار على حرٍّ حكمه ، وإن حُدِّثَ عن التواضع كان أولى بقول البحتري[٥] ممن قيل فيه :

دنوتَ تواضعاً وعلوت مجداً[٦] ... فشأناك انحدارٌ وارتفاعُ

---

١ فقه اللغة : معارفها .

٢ فقه اللغة : بفرد

٣ فقه اللغة : للعربية .

٤ فقه اللغة : أطراف

٥ ديوان البحتري : ١٢٤٧

٦ الديوان : وبعدت قدراً .

كذاك الشمسَ تبعدَ ان تسامَى ويدنو الضوءُ منها والشعاع

فأما سائرُ أدوات الفضل وآلاتُ الخير وخصالُ المجد فقد قسم الله تعالى له منها ما يباري الشمس ظهوراً ، ويجاري القطرَ وفوراً . وأما فنون الأدب فهو ابن بجدتها ، وأخو جملتها ، وأبو عذرتها ، ومالكُ أزمّتها ، ولله هو إذا غرس الدرَّ في أرضِ القراطيس[1] ، ودرز[2] بالظلام رداءَ النهار ، وألقت بحارُ خواطره جواهرَ البلاغةِ على أنامله ، فهناك الحسنُ برمّته ، والاحسانُ بكلّيته ، فلو كنتُ بالنجوم مصدقاً لقلتُ : إنّ عطارداً تأنّقَ في تدبيره ، وقَصَرَ عليه معظمَ همته ، ووقف في طاعته ، عند أقصى طاقته . ومن أراد ان يسمع سرَّ النظم ، وسحر الشعر[3] ، ورقيةَ الدهر ، ويرى صَوْبَ العقل ، وذوب الظَّرف ، ونتيجةَ الفضل ،فليستنشدْ ما أسْفَرَ عنه طبعُ مجده ، وثمَّرَهُ[4] عالي فكره ، من ملح تمتزج بأجزاءِ النفوسِ لنفاستها ، وَتُشْرَبُ بالقلوب لسلاستها :

قوافٍ اذا ما رآها المشوقُ هزَّ لها الغانياتُ القدودا
كسونَ عَبيداً ثيابَ العبيد وأضحى لبيدُ لديها بليدا

وفي فصل[5] :

وايمُ الله ما من يومٍ أسعفني فيه الزمانُ بمواجهةِ وجهه ، وأسعدني بالاقتباسِ من نُوره ، والاغترافِ من بحره ، فشاهدتُ ثمارَ المجدِ والسؤدد تنتثرُ من شمائله ، ورأيتُ فضائلَ أفرادِ الدهر عيالاً على فضائله ، وقرأتُ نُسْخَةَ الفضلِ والكرم[6] من

١ فقه اللغة : القرطاس
٢ فقه اللغة : وطرز .
٣ فقه اللغة : النثر .
٤ فقه اللغة : وأثمره .
٥ فقه اللغة : ٤ وليس بين هذه الفقرة وما تقدّم حذف .
٦ فقه اللغة : الكرم والفضل .

ألحاظه ، وانتهبتُ فرائدَ الفوائدِ من ألفاظه ، إلا تذكرتُ ما أنشدنيه لابن الرومي[1] :

لولا عجائب صنع الله ما نبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصبِ

وأنشدتُ فيما بيني وبين نفسي قول الطائي[2] :

فلو صَوَّرْتَ نفسكَ لم تَزِدْها على ما فيكَ من كرمِ الطباعِ

وثلّثتُ بقول كشاجم[3] :

ما كان أحوجَ ذا الكمالَ إلى نقصٍ يوقّيه من العين

وربَّعْتُ بقول المتنبي[4] :

فان تَفُقِ الأنامَ وأنت منهم فان المسكَ بعضُ دم الغزالِ

وفي فصل[5] :

فاستغرقت أربعةَ أشهرٍ هناك بحضرته ، وتوفرت على خدمته ، وما رمتُ في أكثرِ الأوقاتِ في الليل والنهار عاليَ مجلسه ، وتعطرتُ عند ركوبه بغبار موكبه ، فبالله يميناً قد كنتُ غنياً عنها لو خفت [حنثاً] فيها أني ما أنكرتُ طَرَفاً من أخلاقه،ولم أشاهدْ إلا شرفاً ومجداً من أحواله ، وما رأيته اغتاب غائباً ، أو سبّ حاضراً ، او حرم سائلاً ، أو خيَّبَ آملاً ، أو أطاع سلطانَ الغضبِ والحَرَد ، أو تصلىَّ بنارِ الضجر وبطشَ بَطْشَ المتجبر ؛ وما وجدتُ المآثر إلا ما يتعاطاه ، والمآثمَ إلا ما يتخطّاه ، فعوّذتُهُ بالله تعالى من كلِّ طَرْفٍ عائن ، ومن كلِّ صدرٍ خائن ، هذا ولو أعارتني

١ ديوان ابن الرومي : ١٩٦ .
٢ ديوان أبي تمام : ٣٤٠ وسرح العيون : ٣٢٤ ، ٣٣٠
٣ مر غير منسوب في الذخيرة ٢ : ٦٨٠ .
٤ ديوان المتنبي : ٢٥٨ والذخيرة ٢ : ٦١٨
٥ فقه اللغة : ٥

خطباءُ إيادَ ألسنتها ، وكتابُ العراقِ أيديها ، في وصف أياديه التي اتصلت عندي اتصالَ السعود ، وانتظمت لديَّ انتظامَ العقود ، فقلت في ذكرها طالباً/[١٦١] أَمَدَ الإسهاب ، وكتبتُ في شكرها مادّاً أطنابَ الإطناب ، لما كنتُ بعد الاجتهاد إلا ماثلاً في جانب القصور ، متأخراً عن الغرضِ المقصود ، فكيف وأنا قاصرُ البلاغة[١] ، قصيرُ باعِ الكتابة ، وعلى ذلك فقد صدىء فهمي لبعدي ـ كان ـ عن حضرته ، وتكَدَّرَ ماءُ خاطري لتطاولِ العهدِ بخدمته .

وفي فصل[٢] :

وما عدلتُ بمؤلفاتي عن اسمه ورسمه ، إخلالاً بما يلزمني من حقِّ سؤدده ، بل إجلالاً [له] عما لا أرضاهُ للمرورِ بسمعه ولحظه ، وتحامياً لِعَرْضِ بضاعتي المزجاةِ على قُوّةِ نقده ، وذهاباً بنفسي عن أن أُهديَ للشمس ضوءاً ، أو أزيدَ في القمر نوراً ، أو أكون كجالبِ المسك إلى أرضِ الترك ، والعودِ إلى بِلاد الهند ، والعنبرِ إلى البحر الأخضر .

وفي فصل له[٣] :

ان خير الكلام بعد حمد الله والصلاة على رسوله ما شغل بخدمةِ مَنْ جمعَ الله له عُدَّةَ[٤] الملك إلى بسطة العلم ، ونورَ الحكمةِ إلى نَفَاذِ الحكم ، وجعله مبرزاً على ملوك العصر ، ومدبّري الأرضِ وولاةِ الأمر ، بخصائص من العدل ، وجلائلَ من الفضل ، ودقائقَ من الكرم المحض ، لا يدخلُ أيْسَرُهَا تحت العادات ، ولا يُدْرَكُ أقلُّها بالعبارات ، ومحاسنِ سيرٍ تحرُسُها أسنّةُ الأَقلام ، وتدرسها ألسنة الليالي

١ فقه اللغة : قاصر سعي البلاغة
٢ فقه اللغة : ٧
٣ التمثيل والمحاضرة : ٤
٤ التمثيل : عزة .

والأيام ، وهذه صفةٌ تغني عن تسمية الموصوفِ لاختصاصه بمعناها ، واستحقاقه إياها ، واستئثاره على جميع الملوك بها ، ويعلم سامعها ببديهة السماع أنها للأمير شمس ِ المعالي خالصة ، وعليه مقصورة ، وبه لائقة ، وعن غيره نافرة ، إذ هو بمعاينة الآثار ، وشهادَةِ[1] الأخبار ، واجتماع الأولياء ، و إصفاقِ الأعداء ، كافلُ المجد ، وكافي الخلق ، وواحدُ الدهر ، وغرة الدنيا ، وَمَفْزَعُ الورى ، وجُنَّةُ[2] العالم ، ونكتة الفلك الدائر ، فبلَّغَهُ الله تعالى أقصى نهاية العمر ، كما بلّغه أبعدَ غاية الفخر ، وَمَلّكه ازمّةَ الارض ، كما ملكه أعنَّةَ الفضل ، وأدام حُسْنَ النظر للعباد والبلادِ بإدامةِ أيامه التي هي أعيادُ الدهر ، ومواسمُ اليُمْن ِ والأَمْن ، ومطالعُ الخير والسعد ، وزاد دولته شباباً ونمواً ، كما زاده في السنّ علوّاً ، حتى تكونَ السعاداتُ وَفْدَ بابه ، والبشائرُ قِرَى سمعه ، والمسارُّ غذاءَ نفسه ، ويترامى به الإِقبالُ إلى حيث لا يبلغه أمل ولا يقطعه أجل .

وفي فصل[3] :

هذا الكتاب أخرجتُ بعضهُ من غُرَرِ نجوم الأرض ، ونكتِ أعيانِ الفضل من بلغاء العصرِ في النثر ، وحللتُ بعضه من نظم أمراءِ الشعر الذين أوردتُ مُلَحَ أشعارهم في كتابي المترجم بِ« **يتيمة الدهر** » ، فلفقتُ جميعَ ذلك ونَسَقْتُهُ ، وجرَّدته وَسُقْتُهُ ، وأنفقتُ عليه ما رزقته ، وعملته بكدِّ الناظر ، وجهد الخاطر ، وتعب اليمين ، وعرق الجبين ، وتعمدت فيه لذَّة الجدّة ، ورونقَ الحداثة ، وحلاوةَ الطراوة ، ولم أَشُبْهُ بشيءٍ سوى[4] كلام أهل العصر إلا في قلائلَ وقلائدَ من ألفاظِ [الجاحظ] وابن المعتزّ ، تخلَّلَتْ أثناءَهُ ، وتوسَّطَتْ تضاعيفه ، ولم أُخْلِ كلماته التي هي وسائطُ الآداب[5] ،

---

١ ص : ومشاهدة .
٢ التمثيل : وحسنة .
٣ سحر البلاغة : ٥
٤ في الاصل : من .
٥ في الأصل : الألباب .

وصياقلُ الألبابِ ، وما تشتهي أنفسُ الأدباء وتلذّ أعينُ الكتاب ، من لفظٍ فصيح ، أو معنى صريح[1] ،أو تجنيس أنيس ، أو تشـبيه بلا شبيه ، أو تمثيل بلا مثيل ولا عديل ، او استعارة أو طباق ، على ذي رونق باق . فمن مَرَافقِ هذا الكتاب قُرْبُ متناوَلِهِ من الكتّاب ، إذا وشّوا ديباجَ كلامهم بما يقتبسونه من نوره ، وسماحةُ قياده لأفراد الشعراء إذا رصَّعوا عقودَ نظامهم مما يلتقطونه من شذوره . فأما المخاطبات والمحاورات فانها تتبرَّجُ بغُرَّةٍ من غُرَرِهِ ، وتتـوجُ بـدرّةٍ من درره .

وفي فصل[2] :

وقد كانت تجري في مجلسه العالي نكتٌ من أقاويلِ أئمة الأدب في أسرار اللغة وجوامعها ، ولطائفها وخصائصها ، مما لم ينتهوا إلى جمع شملها ، ولا توصّلوا إلى نظمها ، وإنما اتجهت لهم في أثناء التأليفات ، وتضاعيف التصنيفات ، لمعُ يسيرة كالتوقيعات ، وفقرٌ خفيةٌ كالاشارات ، فيلوّح لي - أدام الله عزه - بالبحث على أمثالها ، وتحصيلِ أخواتها ، وما ينخرطُ في سلكها ، وأنا ألوذ بأكناف المحاجـزة ، وأحـومُ حولَ المدافعـة ، وأرعـى روضَ المماطلـة ، لا تهاونـاً بأمـره الـذي أراه كالمكتوبات ، ولا أميّزه عن المفروضات ، ولكن تفادياً من قصور سهمي عن هدفِ إرادته ، وانحرافاً عن الثقة بنفسي في عمل/[١٦٢] ما يصلحُ لخدمتـه ، إلى أن اتفقتْ لي في بعض الأيام التي هي أعيادُ دهري ، وأعيانُ عمري ، مواكبةُ القمرين بمسايرة ركابه ، ومواصلة السَّعْدَينِ بصلة جنابه[3] في متوجَّهه الى فيروزباد ، ومنها إلى حداد[4] ، بعضِ قُراهُ من الشامات ، عمرها الله بدوام عمره ، فلما :

أخذنـا بأطـراف الأحـاديث بيننا   وسالـت بأعنـاق المطـيّ الأباطح[5]

---

١ سحر البلاغة : أو معنى بديع .

٢ فقه اللغة : ٧ .

٣ في الأصل : جناحه .

٤ فقه اللغة : خداي زاد

٥ الشعر والشعراء : ١٣ وفي تخريج البيت انظر السمط : ٧٧ (الملحق) وديوان كثير : ٥٢٥ .

وعدنا إلى العادة عند الالتقاء في تجاذبِ أهداب الآداب ، وفتْقِ نوافج الأخبار والأشعار ، أفضتْ بنا شجونُ الحديث إلى هذا الكتاب ، فقال لي ـ صدق الله قوله ، ولا أعدم الدنيا طَوْلَه ـ : إنك إن أخذتَ فيه أجدت وأحسنت ، وليس إلا أنت ، فقلت : سمعاً سمعاً ، ولم أستجز لأمره دفعاً ؛ فأقام لي في التأليف معالمَ أقفُ عندها ، وأقفو حدَّها ، وأهاب [بي] إلى ما اتخذته قبلة أصلي إليها ، وقاعدةً أبني عليها : من التمثيل والتنزيل والتفصيل والتقريب والتقسيم والترتيب ، وانتجعتُ من الأئمة الخليلَ والأصمعي وأبا عمرو والكسائي وأبا عبيد وأبا زيد ، ومن سواهم من شيوخ العلماء ، وظرفاء الأدباء ، الذين جمعوا فصاحة البلغاء الى إتقان العلماء ، ووعورة اللغة إلى سهولةِ البلاغة ، وأقتبس[1] من أنوارهم :

وأجتني من ثمارِ قومٍ قد أقفرتْ منهمُ البقاعُ

ومن كلامه في صدر كتاب اليتيمة

لما كان الشعر عمدةَ الأدب ، وعلمَ العرب الذي اختصَّتْ به على سائر الأمم ، وبلسانهم جاء كتابُ الله المنزّل ، على النبيِّ منهم المرسل ، عليه السلامُ الأجزل ، كانت أشعارُ الاسلاميين أرقَّ من أشعارِ الجاهليين ، وأشعارُ المحدثين [ألطفَ من أشعار المتقدمين] ثم كانت أشعارُ العصريين أجمعَ لنوادرِ المحاسن ، وأنظمَ للطائفِ البديع من أشعار سائر المذكورين ، لانتهائها إلى أبعدِ غاياتِ الحُسْنِ ، وبلوغها أقصى نهايةِ الجَوْدَةِ والظَّرفِ ، تكاد تخرجُ من باب الايجاز[2] إلى الاعجاز ، ومن حدّ الشعرِ إلى السحر ، وكأن الزمانُ ادّخر لنا من نتائج خواطرهم ، وثمرات قرائحهم ، وأبكار افهامهم ، أتمَّ الألفاظِ والمعاني استيفاءً لأقسام البراعة وأوفرها [نصيباً] من كمالِ الصنعة ورونق الطراوة .

---

١ فقه اللغة : وأجتني .

٢ اليتيمة : الاعجاب .

ولـــذاك ما ساد النبـــيُّ محمدٌ كلَّ الأنـــامِ وكان آخــرَ مرسلِ

وقد سبق مؤلفو الكتبِ الى ترتيب المتقدمين والمتأخرين ، فكم من كتابٍ فاخرٍ عملوه ، وعِقْدٍ باهرٍ نظموه ، لا يشينه إلا نبوّ العين عن إخلاقِ جِدّته ، وبلى بُرْدَته ، [ومجُّ] السمع لمردّداته ، وملالةُ القلبِ لمكرّراته ، وبقيتْ محاسنُ أهلِ العصر التي معها رُوَاءُ الحداثةِ ، ولذة الجدّة ، وحلاوةُ قُرْبِ العهد ، وازديادُ الجودة على كثـرةِ النقد ، غيرَ محصورةٍ في كتاب يضُمُّ نشرها ، ويشد أزرها .

وقد كنتُ تصدَّيت لعمل ذلك في سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ، والعمرُ باقباله ، والشبابُ بمائه ، فافتتحته باسم بعضِ الوزراء ، مجرياً إياه مُجْرى ما يتَقَرَّبُ به أهلُ الأدب ، إلى ذوي الأخطارِ والرتب ، ومقيماً ثمارَ الورق مقام نثار الوَرِق ، وكتبته في مدة تقصرُ عن إعطاء الكتاب حقَّه ، ولا تتَّسِعُ لتوفيته شَرْطَهُ ، وارتفـع كَعُجَالَـةِ الراكب ، وقضيتُ به حاجةً في نفسي وأنـا لا أحسـب المستعـيرين يتعاورونـه ، والمستحسنين[1] يتداولونه ، وحين أعَرْتُهُ بعض بصري ، وأعدتُ فيه نظري ، تبيَّنْتُ مصداقَ ما قرأته في بعض الكتب : « إنّ أوّلَ ما يبدو من ضعف ابن آدم أنه لا يكتب كتاباً فيبيت عنده ليلةً إلا أحبَّ في غدها أن يزيد فيه أو ينقـص منه » هذا في ليلة واحدة فكيف في سنين عدّة ؟! ورأيتني أحاضَـرُ بأخواتٍ كثيرة ومادَّاتٍ غزيرة حَصَلَتْ إليّ بعدُ ، فقلت : إذا كان هذا الكتابُ له موقعٌ من نفوسِ الأدباء ، ومحلٌّ من قلوبِ الفضلاء ، فلم لا أبلغ فيه المبلـغَ الـذي يراد ، ويستوجـب من الاعتداد[2] ؟ ولم لا أبسط فيه عنانَ الكلام ، وأرمي في الإشباع والاتمام [هَدَفَ] المرام ؟ فجعلت أثبته وأمحوه ، وأفتتحه فلا أختمه ، وأنتصفه فلا أتمه ، والأيامُ تعجز ، وتَعِدُ ولا تنجز ، إلى أن أدركتُ عَصرَ السنِّ والحنكة ، فاختلستُ لمعةً من ظلم الدهر ،

١ اليتيمة : والمنتسخين .

٢ اليتيمة : المبلغ الذي يستحق حسن الاحماد ، ويستوجب من الاعتداد أوفر الاعداد .

وانتهزت رقدةً من عينِ الزمان ، واغتنمتُ نَبْوَةً من أنياب النوائب ، واستمررتُ في تقرير هذه النسخةِ الأخيرة ، وتحريرها من بين النسخ الكثيرة . فهذه تجمعُ من بدائع أعيانِ أهلِ الفضل ، ونجوم الأرضِ من أهلِ العصر/[١٦٣] ما لم تأخذِ الكتبُ العتيقةُ غرره ، ولم تقتضَّ عُذَرَه ، ولم ينقضْ قِدَمُ العهد زُبُرَهُ .

والشرطُ في هذه النسخة إيرادُ لبِّ اللباب ، وحبّةِ القلب ، وناظِرِ العين ، ونكتةِ الكلمة ، وواسطة العقد ،ونقشِ الفص ، فان أخّرتُ متقدماً وقَدَّمت متأخراً فعذري فيه أن العرب قد تبدأ بذكر الشيء والمقدَّمُ غيره ، قال تعالى ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ (التغابن : ٢) وقال حسان بن ثابت ، وذكر بني هاشم[١] :

بهـاليلُ منهـم جعفـرُ وابـنُ أُمِّهِ عـليٌّ ومنهـمُ أحمـدُ المتخيّرُ

وقال الصلتان العبديّ :

فملَّتنـا أنّنـا مسلمـونَ علـى ديـنِ صدّيقنـا والنبي

وفي فصل منه[٢] :

كان الخوارزميّ في رَيْعانِ عمره ، وعنفوانِ شبابه[٣] قد دوَّخ بلادَ الشام ، وحصل في حضرةِ سيفِ الدولةِ بحلب ، مجمعِ الرواةِ وأهلِ الأدب ، ومطرحِ الغرباء والفضلاء،فأقام بها مع أئمةِ الأدباء بين علمٍ يدرسُهُ،وأدبٍ يقتبسه،ومحاسنِ ألفاظٍ يستفيدها ، وشواردِ أشعارٍ يصيدها ، وانقلب عنها أحدَ أفرادِ الدهر ، وأمراءِ النظم والنثر ، وكان يقول : ما فَتَقَ طبعي ، وشحذَ فهمي ، وصقلَ ذهني ، وأرهفَ حدَّ لساني ، وبلغ هذا المبلَغ بي ، إلا تلك الطرائفُ الشامية ، واللطائفُ الحلَبِّية ،

---

١ ديوان حسان١ : ٩٩ (وفيه التخريج)
٢ اليتيمة١ : ٢٦
٣ اليتيمة : وعنفوان أمره .

التي عَلِقَتْ بحفظي ، وامتزجت بأجزاءِ نفسي ، وغصنُ الشبابِ رطيب ، وَبُرْدُ[1] الحداثةِ قشيب .

وفي فصل[2] :

كان بنو حمدان ملوكاً أوجُهُهُمْ للصَّباحةِ ، وألسنتهُمْ للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة ، وسيفُ الدولة مشهورٌ بسيادتهم ، وواسطةُ قلادتهم ، غُرَّةُ الزمانِ والعصور ، وَمَنْ به سِداد الثغور ، وسَدادُ الأمور ، وكانت وقائعه في عُصَاةِ العرب تكفُّ بأسها وتفلُّ أنيابها ، وَتُذِلُّ صِعَابها ، وتكفي الرعيةَ سوءَ آدابها ، وغزواته تدركُ من طاغية الرُّوم الثارَ ، وتحسمُ شرَّهم المثار ، وَتُحْسِنُ في الاسلام الآثار ، وحضرتُهُ مقصدُ الوفود ، ومطلعُ الجود ، وَقِبْلَةُ الآمال ، ومحطُّ الرحال ، وموسمُ الأدباء ، وقبلةُ الشعراء ، ويقال إنه لم يجتمعْ بباب أحدٍ من الملوك ـ بعد الخلفاء ـ ما اجتمع ببابه من شيوخِ الشّعر ، ونجوم الدَّهرِ ، والسلطانُ سوقٌ يجلبُ إليها ما ينفق لديها ؛ وكان أديباً شاعراً محبّاً لجيد الشعر ، شديدَ الاهتزازِ لما يُمْدَحُ به ، فلو أدركَ ابنُ الروميّ زمانَهُ ما احتاج أن يقول :

ذهب الذين يهزهم مدّاحهم ... هَزَّ الكماةِ عواليَ المرّانِ
كانوا اذا امتدحوا رأوا ما فيهمُ ... فالاريحية منهمُ بمكانِ

وفي فصل[3] :

كان أبو فراسٍ فَرْدَ دهرِهِ ، وشمسَ عصره ، أدباً وفضلاً ، وكرماً ومجداً ، وبلاغةً وبراعة ، وفروسيةً وشجاعة ، وشعره مشهورٌ سائرٌ بينَ الحسنِ والجَوْدَةِ والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة والمتانة ، ومعه رُواءُ الطبع وَسِمَةُ الظَّرف وعزة الملك ، لم تجتمع هذه الخلالُ قبله إلا في شعر ابن المعتز ؛ وأبو فراس بعدُ أشعرُ

١ اليتيمة : ورداء .
٢ اليتيمة ١ : ٢٧
٣ اليتيمة ١ : ٤٨

منه عند أهل الصنعة ونَقَدَة الكلام . وكان الصاحب يقول : بدىء الشعر بملك ـ يعني امرأ القيس ـ وختم بملك ـ يعني أبا فراس ـ .

وأطلت[1] عنانَ الاختيار في محاسنِ كلِّ شيءٍ حسن[2] لا سيا روميّاته التي رمى بها هدفَ الإحسانِ ، وأصابَ شاكلةَ الصواب . ولما خرج نيّر[3] الفضلِ من سراره، وأُطلق أَسَدُ الحربِ من إساره ، لم تطلْ أيامُ فرحته ، ولم تسمحِ النوائبُ بالتجافي عن مهجته ، ودلَّت قصيدةٌ قرأتها للصابي في تأبينه على أنه قُتِلَ في وقعةٍ كانت بينه وبين بعض موالي أُسرته ؛ وما أحسنَ وأصدق قول أبي الطيب[4] :

فلا تَنَلْكَ الليالي إنَّ أيديَها إذا ضربنَ كسرنَ النبع بالغربِ
ولا يُعِنَّ عدواً أنت قاهرُهُ فانهنّ يَصِدْنَ الصقر بالخرب

وفي فصل[5] :

كان المتنبي نادرةَ الفلك ، وواسطةَ عِقْدِ الدهر ، في صناعة الشعر ؛ شاعرُ سيفِ الدولة الذي جذب بِضَبْعِهِ ، ورفعَ من قدره ، ونفَّقَ من سِعْرِ شعره ، وألقى عليه شعاعَ سعادته حتى سار ذكره مسيرَ الشمسِ والقمر ، وسافر كلامُهُ في البدو والحضر ، وكادت الليالي تنشده ، والأيام تحفظه ، كما قال[6] :

وما الدهرُ إلا من رواةِ قصائدي إذا قلتُ شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به مَنْ لا يسيرُ مسامراً وغنَّى به من لا يغنّي مغردا/[١٦٤]

١ اليتيمة ١ : ١٠٢ ـ ١٠٣
٢ اليتيمة : من محاسن شعر أبي فراس ، وما محاسن شيء كله حسن .
٣ اليتيمة : قمر .
٤ ديوان المتنبي : ٤٢٦
٥ اليتيمة ١ : ١٢٦
٦ ديوان المتنبي : ٣٦١

وقد[1] أُلّفتِ الكتبُ في تفسيره وجلاء[2] مشكله وعويصه ، وكسرت الدفاترُ على ذكر جيده ورديئه ،وتكلّم الأفاضلُ في الوساطة بينه وبين خصومه ، والإفصاحِ عن أبكارِ كلامِهِ وَعُونه ، وتفرّقوا في مدحه وذمّه ، والقدح فيه والتعصّب له وعليه ، وذلك أدلُّ دليلٍ على وفور فضله ، وتقدم قدمه ، وتفرّده على أهلِ زمانه ، بملكِ رقابِ القوافي ورقّ المعاني ، والكاملُ من عُدَّت سَقَطاته ، والسعيدُ من حُسِبَتْ هفواته .

واتخذ[3] الليل جملاً وفارق بغداد متوجهاً إلى ابن العميد ، ومراغماً للمهلبي ، فوردَ أَرَّجانَ فطمع الصاحبُ في زيارته باصبهان ، وإجرائه مُجْرَى مقصوديه من رؤساء الزمان ، وهو إذ ذاك شابٌّ وحاله حويلة ، ولم يكن استوزرِ بعد ، فكتب يلاطفُهُ في استدعائه ، فلم يُقـمْ له المتنبي وزناً ، ولا أجابه عن كتابه ، وقصد عضدَ الدولة ، فأسفرت سفرته عن بلوغ الأمنية ، وورود مشرعِ المنية . واتخذه الصاحب غرضاً يرشقُهُ بسهام الوقيعة ، ويتتبعُ سقطاتِـهِ في شعره وهفواته ، وينعي عليه سيئاته ، وهو أعرفُ الناس بمحاسنه ، واكثرهم استعمالاً إياها في مخاطباته .

وخطأ[4] المتنبي في اللفظ والمعنى كثير ، ويتبعُ الفقرة الغراء بالكلمة العوراء ، ويفتتح[5] بذلك شعره ، وما أكثر ما يحومُ حولَ هذه الطريقة ، ويعود لهذه العـادة السيئة ، ويجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط ، فبينا هو يصوغُ أفخرَ حليّ ، وينظم أحسنَ عقد ، وينسج أنفسَ وشي ، ويختالُ في حديقة ورد ، إذا به قد رمى بالبيتِ والبيتين في إبعاد الاستعارة وتعويص اللفـظ وتعقيد المعنـى ، فمحـا تلك المحاسنَ وكدَّر صفاءَها وأعقب حلاوتها مرارةً لا مساغ لها ، واستهـدف لسهـام العائبين ، فمن متمثل بقول الشاعر :

---

١ اليتيمة ١ : ١٢٧

٢ اليتيمة : وحلّ

٣ اليتيمة ١ : ١٣٨

٤ اليتيمة ١ : ١٦٣

٥ كذا في الأصل ، وليست العبارة في اليتيمة ، ولعل الصواب « ويقبح »

أنـــت العـــروسُ لهـــا جمـــال رائعٌ   لكنهـــا في كلِّ يومٍ تُصرَعُ

ومن مشبّه إياه بمن يقدم مائـدةً تشتمـلُ على غرائـب المأكولاتِ وبدائـع الطيبات ، ثم يُتْبعها بطعامٍ وَضِرٍ وشرابٍ عكر ، أو من يتبخر بالندّ المعشب المثلث المركب من العود الهندي والمسك الأصهب والعنبر الاشهب ثم يرنّقه[1] بارسال الريح الخبيثة ، أو بالواحدِ في عقلاء المجانين ممن ينطق بنوادِرِ الكلامِ وطرائفِ الحكم ثم يعتريه سكرُ الجنون .

وفي فصل[2] :

أبو الفرج الببغا : نجم الآفاق ، وشامّةُ الشامِ والعراق ، وظَرْفُ الظرف ، وينبوع اللطف ، أحدُ افراد الدهر ، في النظم والنثر ، ولقب بذلك للثغـةٍ [فيه] .

وكان نظيف اللبسة ، بهيَّ الرَّكبة ، مليحَ اللثغة ، ظريفَ الجملة ، وأخذت الأيامُ من جسمه وقوّته ، ولم تأخذْ من ظرفه وملحه وأدبه ؛ ووردني كتابه سنة إحدى وتسعين مشتملاً من النظم والنثر على ما أبدت[3] به حالُ من بلغ ساحلَ الحياة، ووقف على ثنيّةِ الوداع ، ولست [أدري] بعدُ ما فعل الدهرُ به ، وأغلبُ ظني أنه [لحق] باللطيف الخبير .

وفي فصل[4] :

أبو الفرج الوأواء : من حسناتِ الشام ، وصاغةِ الكلام ، ومن عجيب شأنه أنه كان بدار بطّيخ دمشقَ ينادي على الفواكه ، وما زال يشعرُ حتى جاد شعره وسار كلامه ووقع فيه ما يروقُ ، ويشوقُ ويفوق ، حتى تعلّق بالعيّوق .

[1] في الأصل : يوبقه .
[2] اليتيمة ١ : ٢٥٢
[3] اليتيمة : أثرت .
[4] اليتيمة ١ : ٢٨٨

وفي فصل[1] :

أبو محمد الواساني : أعجوبةُ الزمانِ ونادرتُهُ ، وفردُ عصرِهِ وباقعته ، وهو أحدُ المجيدين في الهجاء ، وكان في زمانه ، كابن الروميّ في أوانه .

وفي فصل[2] :

أبو محمد بن وَكيع : شاعِرٌ بديع[3] ، وعالمٌ جامع ، قد برع على أهلِ زمانه ، فلم يتقدَّمْهُ أحدٌ في أوانه ، وله كلُّ بديعةٍ تسحرُ الأوهامَ ، وتستعبدُ الأفهام .

وفي فصل[4] :

السريّ الرفاء : وما أدراك ما السريّ ؟ صاحبُ سرِّ الشعر ، الجامعُ بين [نظم] عُقودِ الدرّ ، والنفثِ في عُقَدِ السحر ، ولله درّه ، ما أَعذبَ بحره ، وأعجبَ أمره !! وقد أخرجتُ من شعره ما يُكْتَبُ على جبهة الدهر ، وَيُعَلَّقُ في كعبةِ الظرف[5] ، وكتبت منه محاسنَ وملحاً ، وبدائع وطرفاً ، كأنها أطواقُ الحمام، وصدورُ البزاةِ البيض ، وأجنحة الطواويس ، وسوالف الغزلانِ ، ونهودُ العذارى الحسان ، وغمزاتُ الحدقِ الملاح .

وفي فصل[6] :

عضد الدولة : [كان] على ما مُكِّنَ له في الأرض ، وجُعِلَ إليه من أزمَّةِ البسط والقبض ، وخُصَّ به من رفعةِ الشان ، وأُوتي من سعةِ السلطان ، يتفرغُ للأدب ،

١ اليتيمة ١ : ٣٥١
٢ اليتيمة ١ : ٣٧٢
٣ اليتيمة : بارع
٤ اليتيمة ٢ : ١١٧
٥ اليتيمة : الفكر
٦ اليتيمة ٢ : ٢١٦

ويتشاغل بالكتب/[١٦٥] ويؤثر مجالسة الأدباء ، على منادمةِ الأمراء ، ويقولُ شعراً كثيراً يخرجُ منه ما هو من شرط الكتاب من الملح والنكت ، وما أدري كم فصل رائعٍ قرأته للصاحب في وصفِ شعره ، وطلبِ أَمَدِ الإبداعِ في مدحه .

وفي فصل[١] :

الصابي : أوحدُ العراقِ في البلاغة ، ومن تُثْنَى الخناصرُ به في الكتابة ، وتتّفقُ له الشهاداتُ ببلوغ الغاية من البراعة في الصناعة . وكان قد خَنَّق التسعينَ في خدمة الخلفاء ، وخلافةِ الوزراء ، وتقلَّد الأعمالَ الجلائل ، مع ديوانِ الرسائل ، وحلبَ الدهرَ أَشْطُرَهُ ، وذاق حلوه ومرَّه ، ولابس خيرَهُ ولامسَ شره ، وَرُئِس وَرَأَس ، وخُدِمَ وَخَدَم ، ومدحه شعراء العراق في جملةِ الرؤساء ، وسار ذكره في الآفاق ، ودوّنَ له من الكلام البهيّ النقيّ العلويّ ما تتناثر درره ، وتتكاثر غرره ، وأراده الملوكُ على الاسلام ، وأداروه بكلِّ حيلة وتمنيةٍ جليلة ، فلم يَهْدِهِ الله للاسلام ، كما هداهُ لمحاسنِ الكلام ، وكان يعاشرُ المسلمين أَحْسَنَ عشرة ، ويخدمُ الأكابر أرفعَ خدمة ، ويساعدهم على صيام شهر رمضان ، ويحفظُ القرآنَ حفظاً يدورُ على طرف لسانه وسنِّ قلمه .

وفي فصل[٢] :

عبد العزيز بن يوسف : أحد صدور المشرق ، وفرسان المنطق ، وأفراد الكلم ، وأعيان الممدحين المقدمين في الأدب والكتابة والبراعة والكفاية وجميع أدوات الرياسة . ونثره يُعربُ عن أدب فضفاض ، وخاطر بالاجادة والاحسان فيّاض .

وفي فصل[٣] :

القاضي التنوخي : من أعيانِ الأدب والعلم ، وأفرادِ الكرم وَحُسْنِ الشِّيَمِ ، وإن أردتَ فسبحةُ ناسك ، وان أحببت فتفاحةُ فاتك ، أو اقترحتَ فَمدرعَةُ راهب ،

---

١ اليتيمة ٢ : ٢٤٢
٢ اليتيمة ٢ : ٣١٣
٣ اليتيمة ٢ : ٣٣٦

او أشرتَ[1] فَنُخْبَةُ شارب ، ريحانةُ الندماء ، ونارنجُ الظرفاءِ ، ويعاشرون منه مَنْ تطيبُ عشرته ، وتلينُ قشرته ، وتكرمُ أخلاقه ، وتحسن أخباره ، وتسيرُ أشعاره ، حتى نظمتْ حاشيتي البرِّ والبحر ، وناحيتي الشرق والغرب ، وكان له غلامٌ يسمى نسيماً في نهاية الملاحة واللباقة ، وكان يؤثره على سائرِ غلمانه ، ويختصُّهُ بتقريبهِ واستخدامه، فكتب إليه بعضُ من يأنس به[2] :

هـل علــيّ لامُـهُ مدّغـمُ لاضطـرارِ الشعــر في ميـــم نسيمْ

فوقّع تحته : نعم ، ولم لا ؟

وفي فصل[3] :

أبو علي ابنه : هلالُ ذلك القمر ، وغصنُ ذلك الشجر ، والشاهدُ العدلُ لمجدِ أبيه وفضله ، والفرعُ المشيرُ لأصله ، والنائبُ عنه في حياته ، والقائمُ مقامه بعد وفاته ، وله كتاب « **الفرج بعد الشدة** » وناهيك بحسنه ، وامتناعِ فَنِّه ، وما جرى فيه من الفأل بيمنه، لا جرمَ أنه أَسْيَرُ من الأمثال ، وأسرى من الخيال .

وفي فصل[4] :

ابن لنكك : فرد البصرة وصدرُ أدبائها ، وفردُ ظرفائها في زمانه ، المرجوعُ إليه في لطائف الأدبِ وطرائفه ، وكانت حرفةُ الأدبِ تمّسه وتجّمشُه ، ومحنة الفضلِ تدركه فتخدشه ، ونفسهَ ترفعه ، ودهره يَضَعُه ؛ واكثرُ شعره مُلَحُ وطرف ، خفيفةُ الأرواح ، تأخذ من القلوبِ بمجامعها ، وتقعُ من النفوس أحسنَ مواقعها ، وجلّها فيشكوى الزمان وأهله ، وهجاءِ شعراء عصره . ويشبه شعرُهُ في الملاحةِ وقلة مجاوزة البيتين والثلاثة شعرَ ابنِ فارس . وأُقَدِّرُ أنه بالجبال كهو بالعراق . وكان يقال : إذا رمى منصورُ الفقيه برجومِهِ قتل ، وكذلك ابن لنكك إذا قال البيتَ والبيتين أغربَ بما جلب وأبدعَ بما يصنع ، فأما إذا قصَّد فقلّما ينجح ويفلح .

١ اليتيمة : آثرت .
٢ ورد في الذخيرة، القسم الثاني : ١٣٣

٣ اليتيمة ٢ : ٣٤٦
٤ اليتيمة ٢ : ٣٤٨

وفي فصل[1] :

ابن نباتة : من فحول الشعراءِ في عصره وآحادِهم ، وصدورِ مجيديهم وأفرادهم ، الذين أخذوا برقابِ القوافي وخوارق[2] المعاني . وشعرُهُ مع قُرْبِ لطفه بعيدُ المرام مستمرُّ النظام، يشتمل من حرِّ الكلام على غررٍ كقطع الروض ِ غبَّ القَطْرِ . وفِقَرٍ كالغنى بعد الفقر ، وبدائعَ أحسنَ من مطالع الأنوار ، وعهدِ الشباب ، في أرقّ من نسيم الاسحار وشكوى الأحباب .

وفي فصل[3] :

السلامي : من أشعرِ أهلِ العراق قولاً بالاطلاق ، وشهادةً بالاستحقاق ، وعلى ما أجريتُ من ذكره ، شاهدٌ عدلٌ من شعره ، الذي كتبت من محاسنه نزهة العيون ورقى القلوب وسرَّ النفوس . ولم يزل بحضرة الصاحب بين خير مستفيضٍ ، وجاهٍ عريضَ ، ونعمٍ بيض ، إلى أن آثر قَصْدَ حضرةِ عضد الدولة بشيراز ، فجهَّزَهُ الصاحبُ إليه وزوَّده كتاباً بخطه إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف قال فيه : « باعة الشِّعْرِ أكثر من عدد الشَّعر ، ومنْ يُوثَقُ أن حليته التي يؤديها من نَسْجِ فكره أقلُّ من ذلك ؛ وممن خبرتُهُ بالامتحان فأحمدته ، وَفَرَرْتُهُ بالإحسان واخترته[4] ، أبو الحسن السلامي . وله بديهةٌ قوية ، تُوفي على الرويّة ، ومذهبُ/[١٦٦] في الاجادة يَهَشُّ السمعُ لوعيه ، كما يرتاحُ الطرفُ لرعيه ، وقد امتطى أَمَلَهُ ـ وَخِيرَ له ـ الى الحضرةِ الجليلة رجاء أن يحصلَ في سواد أمثاله ، ويظهر معه بياضُ حالِه ، فجهزتُ منه أميرَ الشعر في موكبه[5] ، وحلَّيتُ فَرَسَ[6] البلاغة

---

١ اليتيمة ٢ : ٣٨٠

٢ اليتيمة : وملكوا رقّ .

٣ اليتيمة ٢ : ٣٩٦ ، ٤٠١

٤ في الأصل : واختبرته .

٥ في الأصل : مركبه .

٦ في الأصل : فارس

بمركبه ، وكتابي هذا رائدُهُ هذا إلى القَطْر ، بل مَشْرَعُهُ إلى البحر » .

فاشتمل عليه جناحُ القَبول ، وَدُفِعَ إليه مفتاحُ المأمول ، واختصّ بخدمةِ عضد الدولة في مقامه وظعنه إلى العراق ، وتوفّر حظُّهُ من صلاته وخلعه ، واللها تفتح اللهى . وكان عضد الدولة يقول : « اذا رأيتُ السلاميَّ في مجلسٍ ظننتُ أنّ عُطارِدَ قد نزل من الفلك إليّ ، ووقف بين يدي » .

وفي فصل[1] :

ابن سكرة الهاشمي : شاعرٌ متّسعُ الباعِ ، في أنواعِ الإبداع،فائقٌ في قولِ الطرف والملح ، وأحد[2] الفحول والأفراد ، جارٍ في ميدان المجون والسخف ما أراد .

وفي فصل[3] :

ابن الحجاج : وإن كان في اكثر شعره لم يستترْ من العقل بِسَجْف ، ولا بنى جلَّ قوله إلا على سخف ، فانه من سَحَرَة الشعر ، وعجائبِ العصر ، وفردُ زمانه في فنّه الذي شُهِرَ به ، لم يُسْبَقْ إلى طريقته ، ولا لُحِقَ شأوه في نمطه ، ولم يُرَ كاقتداره على ما يريده من المعاني التي تقع في طرزه ، مع سلاسة الألفاظ وعذوبتها وانتظامها في سلكِ الملاحة ، وان كانت مفصحةً عن السخافة ، مشوبةً بلغاتٍ المكدّين واهلِ الشطارة ، ولولا أن جِدَّ الأدب وهزله جدٌّ لصنتُ كتابي عن كثيرٍ من كلام من يمدّ يدَ المجون فيعركُ بها أذنَ الحزم ، ويفتح جرابَ السخف فيصفعُ به قفا العقل .

وفي فصل[4] :

القاضي ابن معروف : شجرةُ فضلٍ عودُها أدبُ وأغصانها علمٌ وثمرتها عقلٌ وعروقها شرف ، تسقيها سماءُ الحرية ، وتغذّيها أرضُ المروّة .

---

١ اليتيمة ٣ : ٣

٢ في الأصل : وصدور .

٣ اليتيمة ٣ : ٣١ .

٤ اليتيمة ٣ : ١١٢

وفي فصل[1] :

أبو الفرج الاصبهاني الأصل ، البغداديّ المنشأ : كان من أعيانِ أدبائها وأفرادِ مصنفيها ، وله شعر يجمعُ إتقانَ العلماءِ وإحسانَ الظرفاء الشعراء .

وفي فصل[2] :

الشريف أبو الحسن الموسويّ : [يتحلىً مع محتده الشريف] ومفخره المنيف بأدبٍ ظاهر ، وفضلٍ باهر ، وحظّ من جميع المحاسن وافر ،ثم هو أشعرُ الطالبيين مَنْ مضى منهم ومن غبر ، ولو قلتُ إنه أشعرُ قريش لم أُبْعِدْ عن الصدق ، وقد شهدَ بما أجريتُ من ذكره ، شاهدُ عدل من شعره العالي القِدْح ، الممتنع عن القَدْح ، يجمعُ إلى السلاسةِ متانة ، والى السهولةِ رصانة ، ويشتملُ على معانٍ يَقْرُبُ جناهَا ، ويبعدُ مداها .

وفي فصل[3] :

الصاحب بن عباد : ليس تحضرني عبارةٌ أرضاها للإفصاح عن علوِّ محلّه في العلم والأدب ، وجلالةِ شأنه في الجود والكرم ، وتفردّه بغاياتِ المحاسنِ والشيم ، وجمعه أشتاتَ المفاخر ، لأن قولي ينخفضُ عن أدنى فضائله ومعاليه ، وجهدُ وصفي يقصرُ عن أيسرِ فواضله ومساعيه ، ولكنني أقول : كانت همته في مجدٍ يشيّده ، وإنعام يُجَدّده ، وفاضلٍ يصطنعه ، وكلامٍ حَسَنٍ يسمعه أو يصنعه ، ولما كان نادرةَ عطاردَ في البلاغة ، وواسطةَ عقدِ الدهر في السماحة ، جُلِبُ إليه من الآفاق وأقاصي البلاد كلُّ خطاب جزل ، وقولٍ فصل ، وصارت حضرته مشرعاً لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، ومجلسه مجمعاً لصوبِ العقول وذوب العلوم[4] ونثارِ الخواطـرِ ودررِ القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يُعَدُّ في السحر ويكادُ يدخلُ في حدِّ الإعجاز ، وسار

---

١ اليتيمة ٣ : ١١٤

٢ اليتيمة ٣ : ١٣٦

٣ اليتيمة ٣ : ١٩٢

٤ في الأصل : العقول .

كلامُهُ مسيرَ الشمس ، [واحتفّ] به من نجوم الأرض وأفرادِ العصر وأبناء الفضلِ وفرسان الشعر ما يُرْبي عددهم على شعراءِ الرشيد ولا يقصرّون عنهم في الأخذ برقاب المعاني وملك رقّ القوافي ، فانه لم يجتمع بباب أحدٍ من الخلفاء ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء .

وفي فصل[1] :

أبو دلف الخزرجي : شاعرٌ كثيرُ الملح والطُّرَف ، مشحوذُ المدية في الكدية ، خنَّق التسعين في الاضطراب والاغتراب ، وركوبِ الأسفار الصعاب ، وضرب صفحةَ المحراب[2] بالجراب ، وخدمة العلوم والآداب .

وفي فصل[3] :

القاضي الجرجاني : فرد الزمان ونادرة الفلك ، وإنسانُ حَدَقَةِ العلم ، وقبة[4] تاج الأدب ، وفارسُ عسكرِ الشعر ، يجمعُ خطَّ ابنِ مقلة إلى نثر الجاحظ ونظمِ البحتري ، وينظمُ عقدَ الاتقان والاحسان في كلٍّ ما يتعاطاه .

وهذه أيضاً جملة من شعره

زاره الأمير أبو الفضل الميكالي فكتب إليه[5] :

لا زال مجـدُكَ للسِّماكِ رسيلا	وعلـوُّ جَـدِّكَ بالخلـودِ كفيلا
يا غرّةَ الزمـنِ البهيم إذا غدا	هذا الـورى[6] لزمانـه تحجيلا/[١٦٧]
يا زائـراً مدَّت سحائـبُ طَوْلِهِ	ظـلاً علـيَّ من الجمال ظليلا
وأتـتْ بِصَـوْبِ جواهـرٍ من لفظه	حتـى انتـظمـن لمفـرقـي إكليلا

١ اليتيمة ٣ : ٣٥٦

٢ في الأصل : الحراب .

٣ اليتيمة ٤ : ٣

٤ اليتيمة : ودرة . ٥ زهر الآداب : ٣١٢

٦ زهر : أهل العلا .

بأبني وغير أبي هلال نورُهُ يستعملُ التسبيحَ والتهليلا
نقشتْ حوافرُ طِرْفِهِ في عَرْصَتي نقشاً محوتُ رسومَهُ تقبيلا
ولو استطعتُ فرشتُ مسقطَ خطوه بجفون عينٍ[1] لا ترى التكحيلا
ونشرتُ روحي بعدما ملكت يدي وخررتُ بين يديْ هواهُ قتيلا

وقال فيه[2] :

لكَ في المفاخر معجزاتٌ جَمَّةٌ أبداً لغيركَ في الورى لم تُجْمَعِ
بحران : بحرٌ في البلاغة شابَهُ شعرُ الوليد وحسنُ لفظِ الأصمعي
كالنّور او كالسحر أو كالبدر أو كالوشي في بُرْدٍ عليه موشّع
شكراً فكم من فقرةٍ لك كالغنى وافى الكريمَ بُعَيْدَ فقرٍ مدقع
واذا تفتَّق نَوْرُ شعرك ناضراً فالحسنُ بين مرصَّع ومصرّع
أَرجلتَ فرسانَ الكلام ورضت أَفراسَ البديع وأنت أمجدُ مبدع
ونقشت في فصِّ الزمانِ بدائعاً تُزْري بآثارِ الربيع المرع

وله إليه جواباً عن كتاب ورد عليه[3] :

أنسيمُ الرياضِ حولَ الغدير مازجَتْهُ ريّا الحبيبِ الأثيرِ
أم ورودُ البشير بالنجح من فكٍّ أسيرٍ أم يُسرِ أمرٍ عسير
في ملاء من الشبابِ جديدٍ تحتَ أيكٍ من التصابي نضير
أم كتابُ الأمير سيّدنا الفردِ فيا حبّذا كتابُ الأمير
وثمارُ السرورِ ما أجتنيه في سطورٍ فيها شفاءُ الصدور
نمقتها أناملٌ تفتقُ الأنوارَ والزهرَ في رياض السطور

١ زهر : بعيون عين .
٢ زهر الآداب : ١٣٧ واليتيمة ٤ : ٣٥٥
٣ زهر الآداب : ١٣٨ .

كالمنـى قد جمُعْـنَ في النّعـم الغُـــــرّ مع الأمــنِ من صروف الدهور
يا أبــا الفضـل يـا ابنـه يا أخاهُ جلَّ باريـك من لطيف خبير
شيم يـرتضـعـن دَرَّ المعالي ويعبـّرنَ عن نميـم العبيـر
وسجـايا كأنهـنّ لدى البشـــرِ رضـابُ الحيا بأَرْيٍ مشور
ومحيّـا لـدى الملوك محيّـا صـادق البشـر مخجـل للبـدور

فأجابه الأمير أبو الفضل بأبيات منها[1] :

وهـديّ زُفَّـتْ الى السمـع بكرٍ تتهـادى في حِلْيةٍ وشذورِ
عجـب النـاسُ إذ بدت من سوادٍ في بياضٍ كالمسـكِ في الكافور
نُظمـتْ من بـلاغـةٍ ومعانٍ مثـلَ نظـم العقـود فوق النحور
كم تذكرتُ عهدَهـا[2] من عهودٍ للتـلاقـي في ظلِّ عيش نضير
فذممـتُ الزمـانَ إذ ضَنّ عنّا باجتماعٍ يضـم شمـلَ السرور
ولئـن راعنـا الزمانُ[ببين ألبسَ] الأُنسَ ذلّـةَ المهجور
فعسى اللـه أن يعيدَ اجتماعاً في أمـانٍ من حادثـاتِ الدهور
إنـه قادرٌ على ردّ ما فا ت وتيسـيرِ كلِّ أمـرٍ عسير

١ زهر الآداب : ١٣٨
٢ زهر : عندها .

فصل في ذكر الشيخ أبي اسحاق ابراهيم بن علي بن تميم المعروف بالحصري[1]

واجتلاب جملةٍ من كلامه

كان أبو اسحاق هذا صدرَ النديّ ، ونكتةَ الخبـرِ الجليّ ، وديوانَ اللسـان العربي ، راضَ صعابَهُ ، وسلكَ أوديتَهُ وشعابَهُ ، وجمع أَشتاتَه ، وأحيا مواتَهُ ، حتى صار لأهله إماما ، وعلى جدّه وهزلِهِ زماما ، وطنّتْ به الأقطار ، وَشُدَّتْ إليه الأقتابُ والأكوار ، وأُنْفِقَتْ فيا لديه الأموالُ والأعمار ، وهو يقـذفُ البـلادَ بدررٍ صدفُهـا الأفكار ، وسلوكٍ ناظمها الليلُ والنهار ، عـارضَ أبا بحرٍ الجاحظ بكتابه الذي وسمه بِـ « زهر الآداب ، وثمر الألباب » ، فلعمري ما قَصُرَ مداه ، ولا قَصَّرَتْ خطاه ، ولولا أنه شغَلَ اكثرَ أجزائه وأنحائه ، ومرج يحبو حِمَى أرضه وسمائه ، بكلام أهلِ العصرِ دونَ كلام العرب ، لكان كتابَ الأدب ، لا ينازعه ذلك إلا من ضاق عنه الأمد ، وأعمى بصيرته الحسد . ثم أخذ[2] بعد ذلك في إنشاء التواليف الرائقـة ، والتصـانيف الفائقـة ككتـاب « **النـور والنـور** »[3] وكتـاب « **المصـون من الدواوين** »[4] ، الى عدّةِ رسائل وأشعار ، أندى من نسيم الاسحـار ، وأذكى من

---

١ ترجمة الحصري أبي اسحاق في معجم الادباء ٢ : ٩٤ ـ ٩٧ وابن خلكان ١ : ٥٤ والوافي للصفدي ٦ : ٦١ ومسالك الأبصار ١١ : ٣٠٩ وعنوان الأريب ١ : ٤٣ ؛ وقد اختلف في وفاته فقال ابن رشيق كما نقل عنه ياقوت توفي سنة ٤١٣ وقال ابن بسام سنة ٤٥٣ ورجح ابن خلكان القول الأول دون ان يذكر سبباً لذلك ، ولعله اعتمد على ان ابن رشيق أدرى بذلك من غيره؛ ونقل الصفدي عن كتاب الجنان لابن الزبير أن الحصري ألف زهر الآداب سنة ٤٥٠ .

٢ في المسالك : ثم غبر ؛ ص : ثم أجد .

٣ يسميه الصفدي : نور الظرف ونُور الطَرف ، ويقول إنه اختصر فيه كتابه زهر الآداب ، وينقل التجاني في تحفة العروس : ١١٥ عما يسميه كتاب النورين للحصري وكذلك يسميه ياقوت ، ومرة اخرى ينقل التجاني عن نور الطرف : ١٣٨ ؛ وانظر عيون التواريخ (الفاتح رقم : ٤٤٤١) ٧ : ٥٧ .

٤ يسميه الصفدي : المصون في سرّ الهوى المكنون ، وعند ياقوت ، المصون والدرّ المكنون ؛ ومن هذا الكتاب نسخة بخزانة شيخ الاسلام بالمدينة المنورة ، ذكرها الدكتور محمد بن سعد الرويشد في مقارنة أجراها بين طوق الحمامة والمصون (مجلة الفيصل ، السنة الأولى ، عدد ١٠ ص ١٦ ـ ٢١) وانظر بروكلمان ١ : ٢٦٧ .

شميم الأزهار ؛ وقد أخرجتُ من كلامه ما لا ينكر فضله . ولا يُنشي مثلَه إلا مثلُهُ ، وكانت وفاته ـ فيما بلغني ـ سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة .

فصول من كلامه اندرجت في تواليفه ، من نثره ونظامه

فصل[1] :

ولبني عليّ أهلِ البيتِ كلامٌ يعرضُ في حلى البيان ، وَيُنْقَشُ في فصِّ الزمان ، وَيُحْفَظُ على وجه الدهر ، ويفضحُ عقائلَ الدرّ ، ويكتحلُ بنور الشمس . ولم لا يطؤون ذيولَ البلاغة ، ويجرّون فضولَ البراعة ، وأبوهم الرسول ، وأُمُّهم البتول ، وكلهم/[١٦٨] قد غُذِيَ بِدَرِّ الحلم ، وربي في حِجْرِ العلم .

ما منهمُ إلا مُرَدًّى بالحجى أو مُبْشَرٌ بالأحوذيّةِ مؤدَمُ

وفي فصل[2] :

البديع : اسمٌ وافقَ مسمّاه ، ولفظٌ طابقَ معناه ، وكلامُهُ غضٌّ المكاسر ، أنيقُ الجواهر ، يكادُ الهواءُ يسرقُهُ لطفاً ، والهوى يعشقه ظرفاً . ولما رأى ابن دريد قد أغربَ بأربعين حديثاً وذكر أنه استنبطها من ينابع صدره ، وانتخبها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للافكار والضمائر ، في معارضَ حوشيّةٍ ، وألفاظٍ عنجهية ، فجاء اكثر ما أظهرَ تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترتفع له حجبُ الأسماع ، وتوسَّع فيها ، إذ صرَّف ألفاظها ومعانيها ، في وجوهٍ مختلفة ، وضروبٍ متصرّفة ، عارضه بأربعمائة مقامةٍ في الكدية تذوبُ ظرفاً وتقطر حسناً ، لا مناسبة بين واحدةٍ منها لفظاً ولا معنى ، عطف مساجلتها ، ووصفَ مناقلتها ، بين رجلين يسمَّى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبو الفتح الاسكندري ، وجعلهما يتهاديان الدرَّ

١ زهر الآداب : ٥٦ والمسالك : ١٣٠

٢ زهر الآداب : ٢٦١ .

ويتنافثانِ السحر ، في معانٍ تُضْحِكُ الحزين ، وتحرّكُ الرصين يطالَعُ منها كل طريفة، ويوقَفُ منها على كل لطيفة ، وربما أفرد أحدهما بالحكاية ، وخصَّ بعضَهما بالرواية .

وفي فصل[1] :

هذا كتابُ اخترتُ [فيه] قطعةً كافيةً من البلاغة في الشعر والخبر، والفصول [والفقر]، مما حسن لفظه ومعناه ، واستُدِلَّ بفحواه على مغزاه ، ولم يكن شارداً حوشياً ، ولا ساقطاً سوقياً ، بل كان جميعُ ما فيه من ألفاظه ومعانيه :

في نظامٍ من البلاغة ما شكَّ امرؤ أنه نظامُ فريدِ[2]
حُزْنَ مستعملَ الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبنَ اللفظَ القريبَ فأدركنَ به غايةَ المراد البعيد

كتابٌ يتصرَّفُ فيه الناظرُ من نثره الى شعره ، ومطبوعه إلى مصنوعه ، ومحاورته الى مفاخرته ، ومناقلته الى مساجلته ، وخطابه المبهت ، الى جوابه المسكت ، وتشبيهاته المصيبة ، الى اختراعاته الغريبة ، وأوصافه الباهرة ، إلى أمثاله السائرة ، وجدِّه المعجب ، إلى هزله المطرب ، وجزله الرائع ، إلى رقيقه البارع . وقد نزعتُ فيما جمعتُ عن ترتيب التبويب ، وعن إبعاد الشكلِ عن شكله ، وإفراد الشيء من مثله ، فجعلتُ بعضه مسلسلاً ، وتركتُ بعضه مرسلاً ، ليحصلَ محرَّرَ النقد ، مقدَّرَ السَّرْدِ ، قد أخذ بطرفي التأليف ، واشتمل على حاشيتي التصنيف . [وقد يعزُّ] المعنى فأُلحقُ الشكلَ بناظره ، وأُعْلِقُ الأولَ بآخره ، وتبقى منه بقيةٌ أفرقها في سائره ، ليسلمَ من التطويل المملّ ، والتقصير المخلّ ، وتظهرَ في الجميع فائدةُ الاجتماع ، وفي التفريق لذاذةُ الإمتاع ، فيكملُ منه ما يونقُ القلوبَ والأسماع ، إذ

١ زهر الآداب : ١

٢ الابيات للبحترى في ديوانه : ٦٣٦ ـ ٦٣٧

كان الخروج من جِدٍّ إلى هزل ، ومن حَزْنٍ الى سَهْل ، أَنفى للكلل ، وأَبعدَ من الملل ؛ وقد قال أبو العتاهية[١]:

لا يصْلحُ النفسَ إذ كانت مصرَّفةً   إلا التنقلُ من حالٍ إلى حالِ

وفي فصل[٢] :

ومعلومٌ أنه ما انجذبت نفسٌ ، ولا اجتمع حِسٌّ ، ولا مال سرّ ، ولا جال فكر ، في أفضل من معنىً لطيف ، ظهر في لفظٍ شريف ، فكساهُ من حُسْنِ الموقع قبولاً لا يُدْفَع، وأبرزه يختالُ من صفاء السبكِ ونقاءِ السلكِ وصحةِ الديباجة وكثرة المائية في أجمل حُلّة ، وأجلِّ حلية .

والمعنى اذا استدعى القلوبَ إلى حفظه ، بما ظهر في مستحسنِ لفظه ، من بارع عبارة ، وناصع استعارة ، وعذوبةِ مَوْرِد ، وسهولة مَقْصِد ، وحسن تفصيل ، وإصابةِ تمثيل ، وتطابُقِ أنحاء وتجانسِ أجزاء ، وتمكّن ترتيب ، ولطافة تهذيب ، مع صحّةِ طبع وجودة إيضاح ، يثقّفه تثقيف القداح ، ويصوّره أفضلَ تصوير ، ويقدّره أكمل تقدير ، [فهو مشرق في جوانب السمع] .

وان كنت[٣] قد استدركتُ على كثير ممن سبقني إلى مثلِ ما أجريتُ إليه ، واقتصرتُ في هذا الكتاب عليه ، لمح أوردتها كنوافثِ السحر ، وفِقَرٍ نظمتها كالغنى بعد الفقر ، من ألفاظِ أهلِ العصر ، في محلول النثر ، ومعقودِ الشعر ؛ ولهم من لطائف الابتداع ، وتوليداتِ الاختراع ، أبكارٌ لم تفترعها الأسماع ، يصبو اليها القلبُ والطرف ، ويقطرُ منها ماء الملاحة والظرف، وتمتزج بأجزاء النفس ، وتسترجعُ نافرَ الأُنْسِ ، تخللت تضاعيفَه ، ووشحت تآليف ، وطَرَّزَتْ ديباجَه،[٤] ورصعت تاجه ،

١ ديوان أبي العتاهية : ٣٢١
٢ زهر الآداب : ٣
٣ زهر الآداب : ٤
٤ في الأصل : ديباجاته .

ونظمت عقوده ، ورقمتْ بروده ، فَنَوْرُها يَرِفّ ، ونُورها يَشِفّ ، في روضٍ من الكلم مونق ، ورونق من الحكم مشرق .

وفي فصل[1] :

إلى هذا المكان أمسكتُ العنانِ . والإطنابُ في هذا الكتاب يعظمُ ويتسعُ ، بل يتّصلُ ولا ينقطع ، إذ كان غرضي فيه ، أن أُلْمِعَ من معانيه ، ثم أنجرُّ معه حيث انجرَّ ، وأمرُّ فيه كيف/[١٦٩] مرَّ ، وآخذ في معنى آخر غير موصول بشكله ، ولا مقرونٍ بمثله ، وقد أحلُّ نظاماً وأفردُ تؤاماً ، نشراً لبساط الانبساط ، ورغبةً في استدعاء النشاط .

وهذا التصنيفُ لا تُدْرَكُ غايتُهُ ، ولا تُبْلَغ نهايته ، إذ المعاني غيرُ محصورةٍ بعدد، ولا مقصورةٍ إلى أَمَدَ ، وقد أبرزتُ في الصدر ، صحيفةَ العذر ، يجولُ فرندها ، ويثقبُ زَنْدُهَا ، ومن ركبَ مطيّةَ الاعتذار ، واجتنبَ خطيّةَ الإصرار ، فقد خرجَ من تبعة التقصير ، وبرز من عُهْدَةِ المعاذير ، وإن أحق ما احْتُكِمَ إليه ، واقْتُصرَ عليه ، الاعترافُ بفضلِ الانصاف ، فليعلمْ من ينصفُ أن الاختبارَ ليس يُعْلَمُ ضرورةً ، ولا يوقَفُ له على صورة ، فليكثرِ الإغماض ، وليقلَّ الاعتراض ، ولو وقع الإجماعُ على ما يرضي ويسخط ، ويثبتُ ويسقط ، لارتفع حجاجُ المختلفين في أمر الدنيا والدين .

وفي فصل :

هو كليلُ الخاطِر ، سقيمُ النفسِ ، صدىء القريحة ، عديمُ الحسِّ ، ذو طبعٍ جاسٍ ، وفهم قاسٍ ، ولله درّ ابن الرومي في قوله[2] :

خفــافيشُ أعشاهــا نهــارٌ بِضَوئِهِ ولاءَمَهــا قِطْـعٌ من الليل غيهبُ

---

١ زهر الآداب : ١٠٩١

٢ ديوان ابن الرومي : ١٥٧

بهائـم لا تصغـي إلى شدوِ معبدٍ   فأمّـا على جافي الحـداءِ فتطرب

قد تعوّد ليَّ الألسنِ بالسِّبـاب ، وَغَمْـزَ الأعينِ على الأصحـاب ، واستعمل الملقَ والكِذابَ ، فهو بين جاهلٍ متغافل ، قد حُشِيَ قلبُه رَيْناً ، وملىءَ لسانُه مَيْناً ، وبين مَنْ سمائمُ نمائِمِه تلذع ، وعقاربُ مكايدهِ تلسعُ ، وبين مُعْجَبٍ متصلّف ، باردٍ متكلّف ، لا يرى سيبويه كان على شيء ، كما لا يرى الكسائيَّ قبله :

وإذا ما تذاكرَ النـاسُ معنىً   من شهيـر الأشعـار والمجهـول
قال هـذا لنـا ونحـنُ كَشَفْنَا   عنـهُ للمستـدلّ والمسـئول[2]

فهـو كما قال الخوارزميّ : قـد أسكرَتْهُ خمـرةُ الكبـر ، واستهوتْـهُ غِرَّةُ التيـه ، فخيّل اليه أن كسرى حاملُ غاشيته ، وقـارونَ وكيلُ نفقتِـهِ ، وبلقيسَ إحـدى داياتِهِ ، وأن الشمسَ تطلعُ من جبينه ، والغمامَ يندى من عينه ، فهو يرى ببصرِ جهله لا ببصيرةِ عقله ، وأن امرأ القيس ما بكى بالديار وعرصاتها ، ولا اغتدى والطيرُ في وكناتها ، ولا أحسنَ تقصيدَ القصائد ، وتقييدَ الأوابد ، وأنَّ زياداً[3] لم تُوقَدْ باليفاع نارُهُ ، ولا أعتبَ النعمانَ اعتذاره ، وأن شعره لم يرقَّ حتى يقال : الماءُ أو أسْلَسُ ،ويجزل حتى يقال : الصخرُ أو أملس ، وأنّ زهيراً كان متعاظلَ الكلام ، متداخلَ الأقْسام ، غيرَ مطبّقٍ للمفاصل ، ولا مُصيبٍ للشواكل ، وأمَّـا طبقـاتُ المخضرمين من الاسلاميين فلا يضربون إليه بِقِدْح ، ولا يفوزون عنده بِنُجْحٍ .

فلـو أتينـاهُ بمستطـرفٍ   من مُبْدَعـاتِ الهزلِ والجدِ
أرقَّ من دمعـةِ مهجـورةٍ   مـرهـاءَ تمـريهـا يدُ البعد
لو قَرَعـتْ سمـعَ يزيدٍ سلا   بحسـن ما يسـمع عن هندِ[4]

١ ص : سير .
٢ ص : عيبه المسئول والمسئول .
٣ يعني النابغة الذبياني .
٤ ص : من ند .

أعـــرضَ عنهـــا ثانياً عِطْفَهُ ولـــم يُعِرْهَـــا عَطفـــةَ الودّ
هذا وقـــد لاح بوجـــهِ الحجى منهـــا ضيـــاءُ القمـــرِ الفـــرد
وأقبلـــتْ تختـــال في حُلّةٍ مرّتْ عليهـــا طُرُزُ الحمـــدِ
ومـــا يضرُّ الشـــمسَ أنْ أصبحت تُعْـــرِضُ عنهـــا أعـــينُ الرمد

* * *

ومـــن يك ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ يجـــدْ مُرّاً به الماء الزلالا

وفي فصل :

قد تقاربتِ الصفاتُ ، وتوازنتِ الذواتُ ، وتكاشَفْنَا لما تعارفنا ، وَرَفعتِ الخلوةُ حجابَ الاحتجابِ ، وحطّتِ الخلطـةُ لثـامَ الاكتتـام ، وكنّـا معَ طولِ الامتحـانِ والاختبار ، ومدةِ الالتباس والاحتيار ، نقنعُ من ارتفاع القناع بلمحة ، ومن اتقادِ الزنادِ بِقَدْحَة ، ونُبْرِزُ العباراتِ ، من مَعارضِ الاشارات ، وغوامضِ الاستعارات ، في طرازٍ من الأرمازِ يدقُّ عن مسرى السِّحْرِ ، ويرقُّ عن مجرى الخمر :

في تعابيرنـــا « اللطـــاف اللواتي هي أَخْفَـــى من مســـتسرِّ الهباءِ»[2]
«بـــل من السرّ في ضمـــير محبٍّ أَدَّبتـــه عقـــوبـــةُ الإفشاء »

ونختلسُ حركاتِ البيان ، في سَكَناتِ الزمـان ، كما اختلس اللفـظَ المحـبُّ الكتوم . فهلمَّ الآن إلى التصريح دونَ التعريض ، والتصحيح دون التمريض ، وتعالَ نتلاطفْ ونتكاشفْ ، إذ قد لبسنا ثوبَ الأَمانِ من الزمان .

وفي فصل[3] :

---

١ ص : الضياع .
٢ استعار البيتين من ابن الرومي ، ديوانه : ٦٧
٣ الابيات في الشريشي ٥ : ٢٢٧

إذا بدا القَلَمُ الأعلى براحتِهِ مطرّزاً لرداءِ الفخرِ بالظُّلَمِ
رأيتَ ما اسوّد في الأبصار أبيضَ في بصائرٍ لحظُها للفهم غيرُ عم
كروضةٍ خطرتْ في وشي زهرتها وافترَّ نوّارها عن ثغرِ مبتسم

وتبرَّجَتْ في حُلَلها وحُليّها ، وابتهجت بِوَسْمِيّها/[١٧٠] ووليّها ، وكاد الهواءُ يسرقُهُ لُطْفا ، والهوى يعتنقُهُ ظَرفا ، فاجتنيتُ ما اشتهيتُ من خُزاماها وعَرارها ، واجتليتُ ما رأيتُ من خِيرِيها وبهارِها ، ولثمتُ خدودَ وردِها وسوسانها ، ورشفتُ ثغورَ أقاحها وحوذانها ، والتقطتُ ما لا تُخْلِقُ الأيام بهجَتَهُ ، ولا تغير الأعوامُ جِدّته ، من نَوْرٍ يُقْطَفُ بالأسماع والأبصار ، وزهرٍ يُتَناوَلُ بالخواطرِ والأفكار ، وسرَّحْتُ الطرفَ في ما يفوتُ الوصفَ ، من غرائب إبداع ، وعجائب اختراع ، لم تفترعها الأسماع .

وفي فصل[1] :

أسهمني من واضح الفجر غُرَّةَ الصباح ، وقسم لي من طائِرِ الذِكر قادمةَ الجناح ، وألبَسني من التنويه ، ما لا يُعْزَى الى تمويه ، فأصبحتُ أُجيلُ الجوزاءَ على يدِ قُصُور ، والثناءَ على لسان قصير ، ولئن كَبَتْ جيادي ، عن مضمار مُرادي ، وعجزَ لساني ، عما حواهُ جناني ، فتمثلت بقول الزعفراني[2] :

لي لسانٌ كأنّه لي معادي ليس يُنْبي عن كُنْهِ ما في فؤادي
حكم اللهُ لي عليه فلو أنـصفَ قلبي عرفتُ قدرَ ودادي

وقد علمتُ أنَّ شمسَ الخواطر ، إذاجَرَتْ في فلك الضمائر ، اتصل النورُ المبين ، وانفصل الشكُّ من اليقين .

وفي فصل :

١ ورد بعضها في المسالك : ٣١٠

٢ هو أبو القاسم الزعفراني ، وبيتاه في زهر الآداب : ٣٢٤ والأول في المسالك : ٣١٠

فتقنا نوافَج الآرابِ ، عن مسكِ الآدابِ ، ونشرنا طرائفَ المطـارف ، عن لطائفِ الزخارف ، وتسالبْنا من أثواب المذاكرة ، وتجاذبنا أهدابَ المحـاضرة ، من سانح فِكَر ، وغرائب فِقَر ، ألذَّ من سَمَرٍ بلا سهر ، إلى أنْ أفضينا الى ذكر البيت المظلومِ واجبُ حقوقِهِ ، المسلوكِ به غيرَ طريقه ، على أنه وردَ من صفاءِ السلكِ ، وصحّةِ الديباجة وكثرةِ المائية في أجمل حُلّة ، وأجلّ حِلْية ، فكان كما قلت[1] :

وَمُذْهَـبِ الـوشي على وجهِهِ ديبـاجـةٌ ليسـت على الشِّعرِ
كزهـرةِ الـدنيا وقـد أَقْبَلَتْ تـرودُ في رونقهـا النَّضر
أو كالنسيم الغضِّ غبَّ الحيا يختـالُ في أرديـةِ الفجر

هذا وهو بمحاورةِ الطبع للسمع ، ومباراةِ الخاطر للناظر ، من غيرِ إعمالِ الفكِر ولا تدقيق النظر ، لكنَّ بديهتَكَ إذا أهداها قلبُكَ إلى قلمك ، وأدّاها لسانُكَ عن فهمك ، وأبديتَ بادرةَ ما أهديتَ إلى مَنْ عَهْدُكَ به وهو محرّر للنقد ، مقدَّرٌ على السرد ، أعْرضَ عنه صفحا ، وطوى دونه كشحا ، حتى طال بلا طائلٍ لديه، ولا طلاوةٍ عليه :

فقلـتُ والقلـبُ موقـوفٌ على حُرَقٍ يبعثـن أنفـاسَ صدرٍ كاظـمٍ وحمِ
أيُّ القرائـح يعفـو لمعُ بارقها في عارضٍ من ظلام الليل مرتكم
بحيث لا نحـن من إقبـال ذي أدبٍ نحظى بنجـح ولا إفضـال ذي كرم

إذا كان من إليه تتحاكمُ الخصومُ في كلِّ العلوم ، فتقفُ منه الألبابُ على فصل الخطاب ، وفصِّ الصواب ، ووجه الجواب ، يلحظُ ما يجري لأبناء عصره ، وأنشاء دهره ، من سرّ البديع ، الزاهي على زهر الربيع ، والزاري بالوشي الصنيع ، بطرفٍ أسقمَ من أجفانِ الغضبان ، ويعيره وجهاً هو لفرطِ التقطيب ، كوامقٍ فاجأه شخصُ الرقيب ، أو غَزِلٍ طالعهُ وفدُ المشيب ، فأيُّ لبٍّ يصفو مزاجُهُ ، وأيّ قلبٍ يضيء سراجُهُ !

[1] البيت الأول والثالث في المسالك : ٣١٠

وهذه أيضاً جملة من شعره

حكى أبو علي بن رشيق في كتابه المترجم بـ « **الأُنْمُوذج** » قال : كان أبو إسحاق الحُصْرِيّ قد نشأ على الوراقةِ والنسخ لجودةِ خطّه ، وكان منزله لزيقَ جامع مدينة القيروان ، فكان الجامعُ بيتَهُ وخزانتَهُ ، وفيه اجتماعُ الناس إليه ومعه ؛ ونظر في النحوِ والعروضِ ، ولزمه شُبّانُ القيروان ، وأخذ في تأليف الأخبار ، وصنعة الأشعار ، مما يَقْرُبُ في قلوبهم ، فرأسَ عندهم ، وشَرُفَ لديهم ، ووصلتْ تأليفاته صقليّةَ وغيرها ، وانثالت الصلاتُ عليه ، وله شعر كثير . ومن شعره مما أنشده ابن رشيق[1] :

إنـي أحبّـك حبّـاً ليس يبلغُهُ فهمـي ولا ينتهـي وصفـي الى صِفَتِهْ
أقصى نهـايةِ علمـي فيه معرفتي بالعجـزِ منّـيَ عن إدراكِ معرفته

وأنشد له :

ولقـد تنسمـتُ الـرياحَ لعلّني أرتـاحُ أن يبعثـنَ منـك نسيما
فأثـرنَ من حُرَقِ الصبابـة كامناً وأَذَعْـنَ من سرِّ الهـوى مكتوما
وكذا الـرياحُ إذا مررنَ على لظى نـارٍ خَبَـتْ ضرَّمنهـا تضريما

ولـه[2] :

عليـلُ طرفٍ سُقيتُ خمرا من مقلتيـه فمـتُّ سكرا
ترقرقـتْ وجنتـاهُ ماءً مازجَ فيه العقيقُ درّا/[١٧١]
يحـرِّك الـدلُّ منـه غصناً ويطلـع الحسـن فيـه بدرا
[قـد خط مسـك بعارضيه خُلِقَـتُ للعاشـقين عذرا]

١ البيتان في ياقوت ٢ : ٩٦ وابن خلكان ١ : ٥٤ ـ ٥٥ والوافي ٦ : ٦١

٢ البيت الأول في المسالك : ٣١١ وما بين معقفين زيادة عنه أيضاً ؛ والابيات جميعاً في الشريشي ٥ : ٢٢٧

وقال ، مما لم ينشده ابن رشيق[1] :

تلاحظني صروفُ الدهرِ شزرا ... كأنَّ عليَّ للأيامِ وترا
وفي عيني دموعٌ ليس ترقا ... وفي قلبي صدوع ليس تبرا
أقلِّبُ في الدجى طرفاً كليلاً ... إذا جَيْبُ الظلام عليّ زُرّا
ولو نُشرَ الذي أُطْوَى عليه ... على من تحتويه الأرضُ طرّا
أصمَّ مسامعَ الدنيا عويلاً ... وهزَّ جوانحَ الأيام ذعرا
فيا مَنْ غاب عن عيْنَيْ مَشُوقٍ ... يرى لنواهُ طعمَ العشق[2] مرّا
قرأتُ كتابكَ الأعلى محلاً ... لدي وموقعاً ويداً[3] وقدرا
فأحياني وقد غودرتُ ميتاً ... وأنْشرَني وقد ضُمِّنْتُ قبرا
نقشتَ بحالك[4] الأنقاسِ نوراً ... [جلا] لعيوننا نوراً وزهراً
فدبَّجَ من بسيط الفكر روضاً ... أنيقاً مشرقَ الجنبات نضرا
لو استسقى الغليلُ به لروًى ... أو استشفى العليلُ به لأبرا
هفا عطرُ الجنوبِ له نسيمٌ ... أقولُ إذا أناسمُ منه نشرا
نثرتَ لنا على الكافورِ مسكاً ... ولم تنثرْ على القرطاس حبرا
فيا مَنْ تمسكُ الأوصافُ عنه ... أعنَّةَ وَصْفِنا نظماً ونثرا
ومن يدعو القلوبَ إلى مناها ... بعينيه فلا تأتيه قسرا
ومن يجري اللآلئَ في أقاحٍ ... يمازجُ ظَلْمُهُ بَرَداً وخمرا
ويغرسُ في رياضِ الدلِّ غصناً ... وَيُطْلعُ في سماء الحسن بدرا
كأنَّ بخدّه ذهباً صقيلاً ... أذابَ عليه ياقوتاً ودرّا
أُفرِّط فيك إن أفرطتُ وصفاً ... وأعجزُ عنك إنْ أعجزتُ شعرا

---

١ منها أبيات في الشريشي ٥ : ٢٣٨

٢ كذا في ص ولعل الصواب « العيش » .

٣ الشريشي : شرفاً .

٤ ص : بنورك .

ولي قلبُ عليك لما يلاقي يكافحُ من سعير الوجد[1] جمرا
ولولا ما يؤمّلُ من لقاءٍ[2] تقطّع حسرةً وأُذيبَ قهرا
سأسحبُ فيك أذيالَ الأماني وألبسُ تحتَ ثوبِ السقم صبرا
لعلَّ الدهر يُمتِعُ منكَ طرفي وَيُعْقِبُ بعد عُسرِ الحالِ يسرا

وقال :

إلفانِ ضمهما الهوى في خَلْوَةٍ من بعد طولِ تغضّبٍ وتعتُّبِ
فاذا الرقيبُ مُطالعٌ عن غفلة ومكدِّرٌ للمشرب المستعذب
فتفرَّقا عن ساكبٍ متحدّرٍ بعثته حُرْقَةُ جاحمٍ متلهب
وكأنما الوقتُ الذي سعدا به حُلُمٌ سرى أو قِطْعُ برقٍ خُلَّب
ليتَ الذي خلقَ الرقيبَ أصابه بعمىً يسدُّ عليه نهج المذهب

قوله في ما تقدم : « وكذا الرياح اذا مررنَ على لظى » .. البيت ، كقول ابن الرومي :

لا تغرينَّ جوىً بلومٍ إنه كالريح تغري النارَ بالإحراقِ

وقال يحيى بن هذيل القرطبي[3] :

روَّحني عاذلي فقلتُ له مَهْ .لا تَزِدْني على الذي أَجِدُ
أَمَا ترى النارَ وهي خامدةٌ عند هبوبِ الرياحِ تَتَّقِدُ

وحكى أبو صفوان العتكي بصقيلية قال[4] : كان أبو اسحاق الحصري يختلف إلى بعض مشيخة القيروان ، وكان ذلك الشيخ كلِفا بالمعذّرين [من] الغلمان ، وهو القائل فيهم :

---

١ ص : اليك ، ولعلها « البين »
٢ ص : بقاء .
٣ وردا في القسم الأول من الذخيرة : ٦٢١ منسوبين لابن اللمائي .
٤ وردت القصة والأبيات في الشريشي ٣ : ١١٧ وابن خلكان ١ : ٣٩٤ (نقلاً عن الذخيرة)

ومعــذّرينَ كأنَّ نبــتَ خدودهم أقــلامُ مســكٍ تستمــدُّ خَلُوقــا
قَرَنُــوا البنفســجَ بالشــقيقِ ونظّموا تحــت الزبرجــد لؤلــؤاً وعقيقا
فهــمُ الــذينَ إذا الخليُّ رآهمُ وجــد الهــوى بهــمُ إليه طريقا

وكان يختلفُ إليه غِلامٌ من أعيانِ أشرافِ القيروان ، وكان به كلفاً ، فبينا هو يوماً والحصري قد أخذ في الحديث إذ أقبل الغلام :

في صورةٍ كَمُلَــتْ فخلــتُ بأنّها بدرُ السماءِ لستــةٍ وثمانِ
يُعْشي العيونَ ضياؤهــا فكأنها شمسُ الضحــى تَعْشَى بهــا العينان

فقال له الشيخ : يا حصريّ ، ماذا تقول في من هام بهذا القدّ ، وصبا بهذا الخدّ ؟قال له الحصريّ:الهَيَانُ به والله غايةُ الظَّرْفِ، والصبوةُ إليه من تمام اللطف ، لاسيا اذا شاب كافور[1] خدّه ذلك المسك الفتيت ، وهجم على صبحه ذلك الليلُ البهيم ، والله ما خلتُ سوادَهُ في بياضه إلا بياضَ الإيمانِ في سوادِ الكفر[2] وغيهبَ الظلماءِ في منير الفجر . فقال : صِفْهُ يا حصري ، قال : منْ مَلَكَ رِقَّ القولِ حتى انقادت له صعابُهُ ، وذُلِّلَ له جموحه حتى سَطَع له شهابُه ، أقعدُ مني بذلك ، فقال : صفه ، فاني معمل[3] فكري في ذلك ، فأطرقا ساعة فقال الحصري[4] :

أورد قلبــي الــردى لامُ عــذارٍ بــدا
أســودُ كالــكفــر فــي أبيــض مثــل الهدى

فقال له الشيخ :أتراك/[١٧٢] اطلعت على [ضميري أو خضت بين جوانحي وزفيري ؟ قال : لا ؛ ولِمَ ذاك ؟] قال : لأني قلت :

١ الشريشي : شام كافوره . ص : شيب
٢ ص : الكفران .
٣ ص : فاني نعمل ؛ وهي بعامية الاندلس والمغرب .
٤ ابن خلكان ١ : ٥٥ ، ٣٩٤

حـرَّك قلبـي فطارْ صـولـجُ لامِ العـذارْ
أسـودُ كالليـل في أبيـضَ مثـلِ النهـار

فصل في ذكر الأديب الكامل أبي عليّ بن رشيق المسيلي[1]

وسياقة طرف من غرائب أشعاره ، وعجائب أخباره

بلغني أنه ولد بالمسيلة وتأدَّبَ بها قليلاً ثم ارتحل الى القيروان سنـة ست وأربعمائة.وكان أبو عليّ ربوةً لا يبلغها الماء،وغايةً لاينالهاالشدّ والارخاء[2]،محله من النجم ، محلُّ الصوابِ من الحُكْم ، واقتدارُهُ على النثر والنظم ، اقتدارُ الوتـر على السهم ، إن نظم طافَ الأدبَ واستلمَ ، أو نثرَ هلَّلَ العلم وكبر ، أو نقد سعى الطبعُ الصقيل وحَفَد،أو كتب سجد القلم الضئيل واقترب . ولم يكن لأهلِ افريقية قديماً في الأدب نبعٌ ولا غَرَب ، ولا من لسانِ العرب وِرْدٌ ولا قَرَب ، يدلُّ على ذلك ما وصف به أبو عليّ البغداديّ أهلَ القيروان ، وقد أثبتّه في موضعه من صدرِ هذا الديوان[3] . ورأيتُ ديواناً مجموعاً في أشعارِ قدماءِ أهلِ افريقية هو بالبكم أشبه ، وفي لسان العجم أنْوَهُ وأنْبَه ، هذا وأجنادها على قِدَمِ الدهرِ العربُ العاربة ، وقوّادها الأغالبةُ والمهالبة ، فلما زال ملكها عن أيدي العرب ، تدفَّقَتْ بها بحورُ الأدب ، وطلعتْ منها نجومُ الكتب ، وَرَمَتْ أقاصي البلاد ، بمثل ذُرَى الأطواد ، وسمعنا بزهرِ الآداب ، وأنموذج الشعرِ اللباب ، وبفلان وفلان ، من كلِّ فارس ميدان ، وبحـرِ

١ ترجمة ابن رشيق في الخريدة ٢ : ٢٣٠ وانباه الرواة ١ : ٢٩٨ ومعجم الأدباء ٨ : ١١٠ وابن خلكان ٢ : ٨٥ (وفيه نقل عن الذخيرة) ومسالك الأبصار ١١ : ٢٢٧ وشذرات الذهب ٣ : ٢٩٧ وبغية الوعاة : ٢٢٠ وعنوان الأريب ١ : ٥٢ وللاستاذ حسن حسني عبد الوهاب كتاب بساط العقيق في تاريخ القيروان وشاعرها ابن رشيق ، وللدكتور عبد الرحمن ياغي كتاب عنه ؛ وقد جمع شعره الميمني في النتف ثم ياغي ، ولا يزال كثير من شعره غير مضمّن في هذين المجموعين وخاصة جانب غير قليل مما أورده ابن بسام .

٢ المسالك : وغاية لا تناها الوجناء .

٣ راجع القسم الأول : ١٤ ـ ١٥ .

بلاغةٍ وبيان . وقال أبو علي بن رشيق . وما أبو عليّ ؟ شعاعُ القمر ، وحديثُ السمر ، ومعجزةُ الخُبْر والخَبر ، فاتَ الأواخرَ والأوائلَ ، وأَسْكَتَ المناظر والمماثل .

ولما طلع نجم[1] النحوس ، بملك[2] المعز بن باديس ، وخرج الى المهدية بسماءٍ كاسفةِ الأقمار ، وَذَماءٍ أقصرَ من ظِمْءِ الحمار ،كان أبو علي ممن انحشر في زمرته المحروبة ، وتحيز إلى فئته المفلولةِ المنكوبة . فأقام معه بها أَنَفَةً من الجلاء ، وإشفاقاً من فرقة الأحبّةِ والخلصاء ، وغشي المهديةَ أسطولُ الروم فأصبح البحر ثنايا ، تُطْلِعُ المنايا ، وآكاماً تحملُ موتاً زؤاما ، فدخل يومئذ على تميم[3] حين وضح الفجرُ ، وقد تمَّ الذعر ، وضاق ذاتُ الصدر ، فوجده في مصلاّه والرقاعُ عليه تَرِدُ ، والشمعُ بين يديه يتّقد ، فقام على رأسه يُنشد قصيدتَهُ التي أولها :

تثبتْ لا يخامِرْكَ اضطرابُ فقد خضعتْ لعزَّتكَ الرقابُ

فقال له : مَهْ ، أحال عهدك أم تغير ، أم قد أدبر بك الزمان في ما أدبر ؟ ويلك ! متى عهدتني لا أتثبت ؟ إذا لم تجئنا إلا بمثلِ هذا فمالك لا تسكت عنّا ؟ وأمر بالرقعة التي كانت فيها القصيدة فمزّقَتْ ، ولم يقنعه ذلك حتى أدْنَوْهَا إلى السراج[4] فأُحرقت ، فخرج ابن رشيق يومئذ من عنده على غير طريق ، لا يعقلُ ما يطأ ، ولا يدري إلى أين ينكفىء ، وكان وجهه إلى صقيلية ، وكان ابنُ شرفٍ قد سبقه إليها ، ووفد قبله عليها ، وكان وقع بينهما بالقيروان ، [ما وقع] بين الخوارزميِّ وبديعِ الزمان ، من مناقضاتٍ ومعارضاتٍ ، شحذتِ الطباعَ ، وملأتِ العيونَ والأسماع ، وتجاوزتِ الإحسانَ والإبداع ، فلما اجتمعا يومئذٍ بصقيلية تنمَّر بعضهما لبعض ، وتشوَّفَ أعلامُ البلد لما كان بينهما من إبرامٍ ونقض ، وقصد ابنَ رشيق

---

١ المسالك : نجوم .
٢ المسالك : بسماء .
٣ المسالك : المعز ؛ وهو أصوب
٤ المسالك : الشمع

بعضُ إخوانه وقال له : أنتا عَلَما الإِحسان ، وشيخا أهلِ القيروان ، وقد أصبحتما بحالِ جَلاء ، وبين أعداءٍ[1] ، والأشبهُ بكما ألاّ تَفْرِيا أديمَكما ، ولا تُطْعِما الأَعداءَ لحومكما ، فقد كان يحميكما السلطانُ ، ويمحو كثيراً من مساويكما الإِخوان ، فقال له:إيتِ ابنَ شرف فخذْ عهدَهْ بذلك،فلستُ أنا أراجعُكَ فيا هنالك،فأتاه وكان امرأً صِدْقٍ ، فوجده أجنحَ للسَّلم ، وأدنى إلى الحلم ، بريء إليه من صَبَبِهِ وصَعَدِهِ ، وأعطاه على الوفاء بذلك صفقتيْ لسانِهِ ويده ، فكان ابنُ رشيق بعد ذلك ربما أعرض وعرَّض[2] ، وتحلَّبَ الى شيء من تلك الهنات أو تلمظ ، وأما ابن شرف فلم يحلَّ ما عقد ، ولا حالَ عما عهد .

ولابن رشيق عدة تواليف في النظم والنثر ، نفث بها في عُقَدِ السحر ، ككتابه المترجم بـ « **العمدة** » و « **كتاب الأنموذج** »[3] ، إلى عدَّة رسائلَ رائقة[4] ، وبدائع فائقة . وأما الشعرُ فانهأنسى/[١٧٣] أهله؛وملك منه شَخْتَهُ وَجَزْلَهُ ، وقد أَثْبَتُّ من خبره ، وحميدِ أَثَره ، ما يملأ الآذان بياناً ، ويبهرُ العقولَ [حسنا]و إحساناً .

جملة من أخباره مع ما يتخلَّلها من أشعاره

حدَّثَ أبو عبد الله بن الصفّار الصقليّ قال : كنتُ ساكناً بصقيلية وأشعار ابنِ رشيقٍ تردُ عليَّ ، فكنتُ أتمنى لقاءه ، حتى استغلبت الرومُ علينا ، فخرجتُ فارّاً بمهجتي ، تاركاً لكلٍّ ما ملكت ، وقلتُ : أَجتمعُ مع أبي عليّ ، فرقَّةُ شمائلِهِ وطيبُ مشاهده سيذهبُ عنّي بعضَ ما أجِدُ من الحزن على مفارقة الأهلِ والوطن ، فجئتُ القيروانَ ولم أقدِّمْ شيئاً على الوصول إلى منزله ، فاستأذنتُ ودخلت ، فقام

---

١ المسالك : الأعداء .

٢ المسالك : اعترض وتعرض .

٣ نشر العمدة عدة مرات دون تحقيق ، أما الأنموذج فمنه قطعة صالحة في مسالك الأبصار ، ونقول كثيرة في الوافي والفوات وبعض نقول في معجم البلدان ومعجم الأدباء .

٤ من رسائله : قراضة الذهب ، وقد نشرت بتحقيق جيد قام به الأستاذ الشاذلي بويحيى . (تونس ١٩٧٢)

إليَّ وهو ثاني اثنين ، فأخذ بيدي ، وجعل يسألني ، فأخبرته عن أمري [...و] بعد أن تمكن أنسي بمجالسته قال لي يوماً : يا أبا عبد الله ، إنَّ ها هنا بالقيروان غلاماً قد برَّح بي حُبّه ، واستولى عليَّ كَرْبُهُ ، منذ عشرةِ أعوام ، وأنا إذ عضَّ هواه على كبدي ، وسطا شوقُهُ على جلدي ، ناهضُ إليه ، وحَسْبُكَ أنني ما اضطربتُ عنكَ منذ حين ، إلا أني أحدِّثُ نفسي بحديثه العذبِ الموارد والمصادر ، وأعلّلها بأخباره المحمودةِ الأوائلِ والأواخر ، فان أنت ساعدتني على الشخوصِ إليه قَدَّمتَ عندي يداً لا يَعْدِلُها إلا رضاه . فقلت : سمعاً وطاعةً ؛ وصرتُ معه حتى جئنا صناعةَ الجوهريين ، فاذا بغلامٍ كأنّه بدرُ تمامٍ صافي الأديم ، عطرِ النسيم ، كأنما يضحكُ عن درٍّ ، ويَسْفِرُ عن بدر ، قد ركبَ كافورَ عارضيه غبارُ عنبر ، فحكى كتابةَ مِسْكٍ على بياض ، يجرحُهُ الوهمُ بخاطره ، ويدميه الطرفُ بناظره ؛ فلما رآنا الغلامُ عَلَتْهُ خجلةٌ سلبتْ وجَه أبي عليّ ماءه ، فأنشدته قول الصنوبري[1] :

آيةٌ من علامةِ العشاقِ اصفرارُ الوجوهِ عند التلاقي
وانقطاع يكون من غير عيٍّ وولوعٌ بالصمتِ والاطراق

فقال لي : ياأبا عبد الله ، والله ماواجهتُهُ قطّ بِوجهي إلا وَغُشِيَ عليَّ ولكنّي تثبَّتُّ[2] بك ،وأنِسْتُ إلى عذوبة لفظك ، مع أني لم أزوَّدْ من وجهه المقمر ، إلا متعةً بقدِّه المثمر ، لتنكيسه رأسَهُ عند طلوعي عليه ، فقلتُ : ولمَ ينكّس رأسه ؟ والله ما رأيتُ أشبهَ بالبدر منه خدّاً ، ولا بالغصن قدّاً ، ولا بالدرّ ثغراً ، ولا بالمسك من رياه نَشْراً ، فقال لي : يا أبا عبد الله ، ما أَبْصَرَكَ بمحاسن الغلمان ، لا سيا من فَضَّضَتْ كفُّ الجمالِ صفحته ، وذهَّبَتْ وجنَتَهُ ، وخافت على تفاح خدِّه العيون ، فوكلّت بها الفتون ، يا أبا عبد الله : ينكّسُ رأسه لأني عَلِقْتُهُ وخدُّهُ هلاليّ ، وفرعُهُ ظلاميّ ،

---

١ ديوان الصنوبري : ٤٣٨
٢ ص : أتثبت .

ولحظُهُ بابليّ ، وقدّه قضيبيّ ، وردْفُهُ كثيبي ، وخصرُهُ سابريّ ، وصدرُهُ عاجي ، فكان فمي يشربُ كافوره بالشفق ، فيخرج ذلك صَدْرَ الغسق ، فوكّلَ من بهيمه ، رقيباً على فضّي أديمه ، فتوهّمَ ذلك الطاهرُ الأخلاق ، والطيّبُ الاعتناق ، أن ذلك مما يُضْعِفُ أسباب محبته ، وَيُخْلِقُ رسومَ مودّته . فقلتُ له : بحقّي عليك يا أبا عليّ إلاّ ما قلتَ في هذا المعنى شيئاً ، فأطرق قليلاً ثم قال[1] :

وأسمرِ اللون عسجديّ يكادُ يستمطرُ الجهاما
ضاق بحمل العذارِ ذرعاً كالمهر لا يعرفُ اللجاما
ونكّسَ الرأسَ إذ رآني كآبةً واكتسى احتشاما
وظنَّ أن العذارَ ممّا يزيحُ عن قلبي الغراما
وما درى أنّه نباتُ أنبتَ في جسميَ[2] السقاما
وهل ترى عارِضَيْه إلا حمائلاً قُلِّدَتْ حُساما[3]

ومعنى هذا البيت الأخير كقول الآخر :

ومستحسنٍ وصلي جعلتُ وصالَهُ شعاري فما أنفكُّ دأباً أواصِلُهْ
كأنَّ بعينيه إذا ما أدارها حساماً صقيلاً والعذارُ حمائله

قال أبو عبد الله الصقلي : فلم أزلْ أتكرّرُ على أبي عليّ وأُلاطفه حتى أَطلعني على سرائرِهِ مع ذلك الغلام ، فوالله ما اطّلعتُ له معه على ما يحاسَبُ به من قبيح فعلٍ ولا مذمومِهِ . وكنتُ في خلالِ ذلك أختلفُ إلى ذلك الغلام الجوهريّ ، فجلستُ يوماً إليه فجعلتُ أذكرُ له بعضَ ما ذكر لي أبو علي ، فرأيتُهُ قد تغير لونُه ، وأطرقَ ساعةً ، ثم أخذ سحاءةً فكتب فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، كتمانُ السرِّ حليةُ القلب ، فان أزاله بقي عاطلاً » ثم طواها ودفعها إليّ وقال : قد أودعتُ

---

١ ديوان ابن رشيق : ١٦٨ والشريشي ٢ : ٣٣٥ ٢ الشريشي : قلبي .
٣ مرَّ هذا البيت من قبل ٣ : ٨٢٢ وروايته « وهل على عارضيه ... حمائل » .

السحاءةَ لفظاً موجزاً/[١٧٤] ومعنى مُحْرَزاً ، فاذا وردتَ على أبي عليّ فأَعْلِمْهُ أنَّ المحبَّ إذا كتم رُحِمَ ، واذا نشر [فُضِحَ] فلا يَعُدْ بعد هذا إلى إفشاء سرّي ، فان نمَّ بحبّي انتهيتُ عن زيارته والإلمام به ، وعوَّضْتُهُ من لذّته بفيض الدموع ، وطولِ الخضوع ، حتى لا يجرعَ كأساً إلاّ مشوباً ، ولا يزرّ[1] ثوباً إلا خضلاً بعبرة مقلته ، وأنا أُقسمُ بحاجته إليَّ ، وإدمانه بالبوح عليّ ، ألاَّ أُخْلي صَدْرَهُ من زفرة ، ولا ضلوعَهُ من جمرة ، ولا جفونَهُ من عَبْرة . فجئتُ أبا عليّ ، فدفعتُ اليه السحاءةَ وقرأها ، وأخبرتُهُ كلامه ، فشهق شهقةً توهمتُ أن ضلوعه تقضقضت ،وقال لي :أبهذا القسم أَقسم ؟ قلتُ : نعم ، قال لي : أتريدُ أن أنظم لك منثورَ ما جئتني به حتى تتوهَّمَ أنه كلامه ؟ قلت : بحياتك إلاّ ما فعلت ، فقال[2] :

لمْ باحَ باسمي بعد ما كتمَ الهوى زمناً وكان صيانتي أولى بِهِ
فلأ[منعنَّ] جفونَهُ طيبَ الكرى ولأمزجنَّ دموعَهُ بشرابه
وحياةِ حاجتِهِ إليَّ وفقره لأُواصِلَنَّ عَذَابَهُ بعذابه

قال أبو عبد الله : ثم استنشدته من شعره فيه فأنشدني عدة مقطوعات ، منها قوله[3] :

وفاترِ الألحاظِ في وجنةٍ كأنَّها في الحُسْنِ وردُ الرياضْ
قلتُ له يا ظبيُ خُذْ مهجتي داوِ بها تلك الجفونَ المراض
فجاوبتْ من خدِّه خجلةٌ كيف ترى الحمرةَ فوق البياضِ

وقوله[4] :

إن كنت تنكر ما منكَ ابتليتُ به وأنَّ برءَ سَقامي عزَّ مطلبُهُ

---

١ ص : يبرز .
٢ الديوان : ٤٠
٣ الديوان : ٩٦ والشريشي ٥ : ٢٣٠ .
٤ الديوان : ٣٣ والشريشي ٥ : ٦٧

أَشرِ بعودٍ من الكبريتِ نحو فمي وانظرْ إلى زفراتي كيف تُلْهِبُهُ

وقوله :

تمنيتُ تقبيلاً عليه فجاد لي فقبَّلْتُهُ ثنتين في الخدِّ والخدّ
فقلتُ له جُدْ لي بثغرك إنني [أقولُ] بتفضيلِ الأَقاحِ على الورد

ومن جيد قوله[1] :

سقى الله أرض القيروان وصبرةٍ ففيها ثوى شخصٌ عليَّ عزيزُ
ترى أنني في القربِ ممن أحبّه على بُعْدِ ما بين الديار أفوز
وإن كان إدراكُ المحبين بغيةً على مذهبِ الأيام ليس تجوز

وقال فيه :

مُدْمَجُ الخصرِ والحشا يتثَنّى اذا مشى
هو بدرٌ بوجهه وبأجفانه رشا
ما عليه إذا الضنا شاع في الصبِّ أو فشا
جار قاضي صبابتي وهو لا يقبلُ الرّشا

وقال فيه[2] :

ومهفهفٍ يحميه عن نَظَرِ الورى غيرانُ سُكْنَى الملكِ تحت قبابِهِ
أوْمَى إليَّ أنِ ائتني فأتيته والفجرُ يرمقُ من خلالِ نقابه
فلثمتُ خدّاً منه ضرَّم لوعتي وجعلتُ أُطفي حرَّها برضابه
وضممتُهُ للصَّدرِ حتى استوهبتْ مني ثيابي بعضَ طيب ثيابه
فكأنَّ[3] قلبي من وراءِ ضلوعه طرباً يخّبرُ قَلْبَهُ عماَّ به

١ الديوان : ٩٠
٢ الديوان : ٢٧ والشريشي ٤ : ٣٠
٣ ص : فطار .

وينظر في هذا المعنى قول ابن المعتز[1] :

يا ربَّ إخوانٍ صحبتهمُ لا يدفعون لسلوةٍ قلبا
لو تستطيعُ قلوبهمْ نَفَذَتْ أجسامَهُمْ فتعانقتْ حبا

وقال ابن الرومي[2] :

أعانقُهُ والنفسُ بعدُ مشوقةٌ إليه وهل بعد العناقِ تداني
وألثمُ فاه كي تموتَ حرارتي فيشتدُّ ما ألقى من الهيمان
كأنَّ الذي بي ليس يشفي غليله سوى أن يُرى الروحان يمتزجان

قال أبو عبد الله : وناولته يوماً تفاحةً فقال[3] :

وتفاحةٍ من كفِّ ظبيٍ أخذتها جناها من الغصنِ الذي مثلُ قُدِّهِ
لها لمسُ ردفيه وطيبُ نسيمه وطعمُ ثناياه وحمرةُ خده

قال أبو عبد الله ، وأخبرني أبو عليٍّ قال : وعدني يومَ عيدٍ بالكَوْنِ عندي ، فصليت وارتقبتُ مجيئه ، فاذا بالسماء قد ارعدت وأبرقت فكتبت إليه والغيثُ منهمل[4] :

تجهَّم العيدُ وانهلَّتْ مدامعه وكنتُ أعهدُ منه البشرَ والضحكا
كأنما جاء يطوي الأرضَ من بُعُدٍ شوقاً اليك فلما لم يجدْك بكى

قال أبو عبد الله ، قال أبو علي[5] : كنت [أوصي] غلاماً وضيئاً كان يختلف اليّ وأحذره من كثرة التخليط ، فخرج يوماً في جماعة من أصحابه فأُوقِعَ به ، فأُخبرت بذلك فقلت :

---

١ الشريشي ٤ : ٢٩ وديوانه ١ : ٣٩٦ (بغداد) .
٢ الشريشي ٤ : ٢٩
٣ الديوان : ٦٤ والشريشي ٥ : ٢٥٤
٤ الديوان : ١٤٠ وابن خلكان ٢ : ٨٦
٥ نقلها الشريشي ١ : ٤١٦ ، وانظر الديوان : ١٤٦

يا سوءَ ما جاءتْ به الحالُ   إنْ كانَ ما قالـوا كما قالوا
ما أحـذقَ النـاسَ بصـوغِ الخنا   صِيغَ من الخاتَـم خَلْخَالُ/[١٧٥]

وهذا المعنى : القولُ فيه طويل ، وقولُ ابنِ المعتز يناسبه في المعنى لا في اللفظ ، وهو قوله[١] :

مضى مالكٌ والمال تسعـون درهماً   فآب ورأسُ المالِ ثُلْـثُ الدراهمِ

وقال أبو محمد بن صارة الشنتريني :

مِنْ كلِّ مَنْ نيكَ حتـى صار من سعَةٍ
كما تُحَلُّ يـدُ من عَقْـدِ تسعينا

قال أبو علي : وكنت أميل إلى قينة من قيان القيروان اسمها ليلى ، فعلقها بعضُ خدّام[٢] الحصون ، وكان يحسبُ خدمتها وكنسها منزلةً لا تثلم جاهَ متوليها ، فنهيته عنها فلم ينتهِ ، فقلت فيه[٣] :

ظنَّ أنَّ الحصونَ ملكُ سليما   نَ وليـلى بجهلـه بلقيسا
ولـه في العصـا مآربُ أخرى   حـاشَ للـه أن تكون لموسى

وهذا كقول إدريس من جملة أبيات :

فقـال وَمَـنْ هذا الـذي جاء طارقاً   فقلـتُ أنـا موسى وهـذي هيَ العصا

ما أخرجته من سائر مقطوعاته في أوصافٍ شتى

قـال[٤] :

---

١ الشريشي ١ : ٤١٦
٢ الشريشي : خالد .
٣ الديوان : ٩١
٤ الديوان : ٧١ والشريشي ٣ : ٣٢٠ وابن خلكان ٢ : ٨٨

يا ربِّ لا أقــوى على دفْــعِ الأذى   وبكَ استغثتُ[1] على الضعيفِ المؤذي
ما لي بعثــتَ عليَّ ألفَ بعوضةٍ   وبعثــتَ واحــدةً على النمروذ

ولـه في بعض قضاة القيروان :

أقــولها لو بلغــتْ ، ما عسى   والـطبـلُ لا يُضْرَبُ تحـت الكِسا
قاضيكَ إنْ لم تَخْصِــهِ عاجلاً   فامنَعْــهُ أن يحــكمَ بـين النسا

وقـال :

يا سالــكاً بــين الأسنّــةِ والظبا   إنــي أشــمُّ عليك رائحــةَ الدمِ
يا ليت شعــري من رقــاك بِعُوذَةٍ   حتــى وطئــتَ بهــا فراشَ الأرقم
أزحمــتَ آســادَ الشرى في غيلها   وأمنــتَ جهــلاً من وثــوب الضيغم

وأنشدت له :

قبَّلــتُ فاهــا على خوفٍ مخالسةً   كقـابسِ النـار لم يشعـرْ من الخجلِ
ماذا على رُصَّــدي بالنــار لو غفلوا   عنّــي فقبلتهــا عشراً على مهل
غضّي جفونَــكِ عنــي وانظــري أمماً   فانمــا افتضــح العشــاقُ في المقل

وقـال[2] :

يـا مَنْ يتيه بعـارضـــــــيه يريدُ بالعشّــاقِ شرَّا
مــا كنــتَ تصــلحُ في الجديــــــدِ فكيف تصلــحُ بالمطَّرى

وهذا كقول أبي بكر الخالدي[3] :

ما كان ينفعُــهُ لديَّ شبابُهُ   فعــلامَ يجهــد نفسَــهُ بخضابِهِ

---

[1] ابن خلكان : استعنت .

[2] المسالك : ٢٣٢

[3] لم يرد في ديوانه . وقد مرَّ منسوباً له ٤ : ٢٥٦ .

وقال ابن رشيق :

حجَّتْ إلى وجهكَ أبصارنا طائعةً يا كعبة الحسنِ
تمسح خالاً منك في وجنةٍ كالحجر الأسودِ في الركن

ولكشاجم في مثله[1] :

فلم يزل خدُّهُ ركناً أطوفُ به والخالُ في خدِّه يُغْني عن الحَجَرِ

وأنشدت له[2] :

إن زرتُهُ يوماً على خَلوةٍ أو زارني في موضع خالِ
كنتُ له رفعاً على الابتدا وكان لي نصباً على الحال

وهذا كقول ابن الميكالي[3] :

أفدي الغزالَ الذي في النحو كلَّمني مجادلاً[4] فاجتنيتُ الشهدَ مِن شَفَتِهْ
وأورد الحججَ المقبولَ شاهدُهَا مناظراً[5] ليريني فَضْلَ معرفته
ثم اتفقنا على رأيٍ رضيتُ به والرفعُ من صفتي والخفضُ[6] من صفته

وقال ابن رشيق ، وهو من أملح ما له[7] :

أومى بتسليمةِ اختلاسٍ والناسُ في حومةِ الوداعِ
أحلى وان لم تكنْ سماعاً من نَغَم الزَّمْرِ والسماع
وافترَّ عن مبسمٍ شنيبٍ تختمه دارةُ الرباع

١ زهر الآداب : ٣٧٩ والحديث فيه عن المؤنث لقوله قبله :

فديت زائرة في العيد واصلة والهجر في غفلة من ذلك الخبر

٢ نسبت الأبيات في زهر الآداب : ٧٢٠ لأبي الفتح البستي .

٤ زهر الآداب : مناظراً

٥ زهر الآداب : محققاً

٦ زهر الآداب : والنصب .

٧ ديوان ابن رشيق : ١٠٩ والمسالك : ٢٣٢

وقـد نَوَتْ مقلتاه نـوماً وددتُ لو كان في ذراعي
فكان لي موقـفُ افتراقٍ وللهـوى مـوقفُ اجتمـاع

وقـال[1] :

همَّـتْ عـذاراهُ بتقبيـله فاسـتلَّ من عينيـه سَيْفَينِ
وذلـك المحمـرُّ من خدِّهِ دمـاءُ ما بـين الفريقيـن

وقـال[2] :

غنّني يا أعـزَّ ذا الخلـقِ عندي «حيِّ نجـداً ومـن بأكنـافِ نجدِ»
واسقنـي ما يصـيرُ ذو البخـل منها حاتمـاً والجبـانُ عمـروَ بن معدي
في أوان الشبـابِ عاجلنـي الشيـب فهـذا من أوّلِ الـدنِّ دُرْدي

وقـال[3] :

اشـتـرى خنجـراً لقتـلي وما ذاك يجملُ
فسلـوه فـانَّ عَـنْ مثـلِ ذا الشـانِ يُسْأَلُ
كيـف يمشـي بخنجـرٍ مـن بعينيـه يقتـل

وقـال[4] :

شكـوتُ بالحـبِّ إلى ظالمـي فقـال [لي] مستهزئـاً ما هو
قلـتُ غـرامٌ ثابـتٌ قال لي اقـرأ عليه « قـلْ هُوَ الله »

وقال[5] :/[١٧٦]

معتـدلُ القامـةِ والقدّ مورَّدُ الوجنـةِ والخدّ

---

١ ديوانه : ٢١٤ والمسالك : ٢٣٢ والشريشي ٤ : ٢٩٠
٢ ديوانه : ٦٢ والشريشي ٣ : ٢٠٢
٣ المسالك (الأول والثالث) : ٢٣٢
٤ ديوانه : ٢٢٢ والشريشي ١ : ١٥٣
٥ ديوانه : ٦١ والشريشي ١ : ١٥٣ والأول والثاني في المسالك .

لــو وضــع الــوردَ على خدِّه ما عُرِفَ الــوردُ من الورد
قـل للــذي يعجــبُ من حسنه اقــرأ عليه سورةَ الحمد

وقال :

ولقــد قطعــتُ الليلَ في دعةٍ من غــير تأثيمٍ ولا ذنــبِ
بأعــزَّ من بصري على بصري وأحــبَّ من قلبــي إلى قلبي

وقــال :

تلفــتُ فمــا أفــرّقُ بــــين قيــراطٍ ودينـــارِ
ذهــابَ الــزيتِ في القنديـــل بــين الماءِ والنار

وقال[1] :

ومـن حسنـاتِ الدهـرِ عنـديَ ليلةٌ من العمــر لم تتـرك لأيامنــا ذنبا
خلونـا بهـا ننفـي القـذى من عيوننا بلؤلــؤةٍ مملــوءةٍ ذهبــاً سَكْبا
وملنــا لتقبيل الخــدودِ ولثمها كمثــلِ جياع الطــيرِ تلتقــطُ الحبّا

وقــال[2] :

يــا من يمــرُّ ولا تمــرُّ بــه القــلوبُ من الحُــرَق
بغمــامــةً من خــدّهِ أو خــدُّه منهــا سـرق
وكأنــــــه وكأنهـــــا قمــرٌ احــاطَ به شفــق
فــاذا بــدا وإذا مشــى واذا رنــا واذا نطــق
شغــل الجــوانــحَ والجــوا رحَ والخواطِــرَ والحدق

وقال من قصيدة[3] :

حسبــي وحسبُــكَ من لومٍ وتثريبِ بان الـذي كان يغرينـي ويغـري بي

١ ديوانه : ٣٢ والشريشي ٢ : ١٥١ وابن خلكان ٢ : ٨٧
٢ ديوانه : ١٢٨ والشريشي ٣ : ٢٣٧
٣ منها خمسة أبيات في ديوانه : ٣٤

أمـــا الشبـــابُ فقــد ودعــتُ لذّته   إلا أبــاطيلَ أحــلامٍ وتشبيب
عرفــتُ حالَ الليالي في تصرفها   وشافهتنــيُ أفـواهُ التجاريب
وذلّلَ الدهـرُ صعبــي فاستكنــتُ له   وطــال ما كنــتُ من تلك المصاعيب
قرعــتُ سنّــي على ما فاتنــي ندماً   من الشبــابِ ومَـنْ باللهــو للشيب
فقــد رددتُ كؤوسَ اللهــوِ مترعةً   على السقــاة وكانــت جُلَّ مشروبي
وربمــا أذكرتنــي صبــوةً سلفت   وُرْقُ الحمام إذا غَنَّــتْ بتطريب
أُنَــزِّهُ السمــعَ والعينــين في نَغَمٍ   ومنظــرٍ غايةٍ بالحســنِ والطيب
من كلّ لافظةٍ بالــدرِّ باسمةٍ   عنــه محــلاّةِ نوعٍ منــه مثقوب
أيام تصحبنــي الغــزلانُ آنسةً   هذا على أنني أعــدى من الذيب

وقــال[1] :

اختــر لنفســك من تعا   دي كاختيارِكَ مَنْ تُصَادقْ
إن العــدوَّ أخــو الصديـــــــقِ وان تخالفــتِ الطرائق

وأخبرني بعض وزراء اشبيلية قال : جهَّز عباد بعضَ التجار إلى صقيلية ؛ وكان ابن رشيق كثيراً ما يسمعُ بذكر عباد فيرتاحُ الى جَنابه ، ارتياحَ الكبير إلى شبابه ، فلما سمع بمقدم ذلك التاجرِ لزم داره ، وجعل يتردَّدُ إليه ويغشاه ، ويقترح عليه لقاءَ عباد ويتمنّاه ، والتاجرُ يعده ويمنّيه ، ويقـرّبُ له ذلك ويدنيه ، حتى إذاأسمحتِ الرياح، وأمكن في ميدانِ البحر المراح، ذهب التاجرُ لطيته، وخلى بين ابنِ رشيقٍ وأمنيته ، وأخبر التاجر عباداً بذلك ، كأنه يتبجح له بما هنالك ، فبالغ عبادُ في نكاله ، وأمر باستصفاءِ أكثر ماله ؛ ثم رام ابن رشيق بعد ذلك ركوبَ البحر فخشن له مَسُّه ، ولم تساعده على ركوبه نفسه ، فقال[2] :

١ ديوانه : ١٣٠ والشريشي ٢ : ٢١٦
٢ ديوانه : ٢٢٦ والمسالك : ٢٣٣

البحرُ صعبُ المذاقِ مُرٌّ لا جُعِلَتْ حاجتي إليهِ
أليس ماءً ونحن طينٌ فما عسى صبرنا عليه

ولأبي [علي] قصيدته المشهورة التي أولها :

من قُضْبِ نَعمان أم من كُثْبِ يبرينِ اللهَ في دمِ عشّاقٍ مساكينِ

يقول فيها :

عيناكَ أمكنتِ الشيطانَ من خلدي إن العيونَ لأعوانُ الشياطين
كم ليلةٍ بتُّ مطوياً على حُرَقٍ أشكو الى النجم حتى كاد يشكوني
وكلما انصدعتْ من لوعةٍ كبدي ناديتُ يا ربَّ باديسَ بنِ ميمون
يا ما اميلحه ظبياً فتنتُ به ....[1]
ووجنتين هما تفاحتا قبلي فاتركْ سوايَ وتفاحَ البساتين
كأنَّ لمس بناني حين يلمسُه يستخرجُ الوردَ من طاقات نسرين
فتورُ عينيكَ ينهاني ويأمرني وورِدُ خديك يغري بي ويغريني
أما لئن بعتُ ديني واشتريتُ به دنيا لقد بعتُ فيك الدينَ بالدون
سبحانَ من خلق الأشياءَ قاطبةً تراه صوَّر ذاك الجسمَ من طين

ومنها :

يا أهلَ صبرةَ والأحبابُ عندكم إن كانَ عندكمُ صبرٌ فواسوني
إني أدينُ بدين الحبِّ ويحكمُ والله قد قال لا إكراهَ في الدين
مولاي [لا] تشمتِ الاعداءَ بي وإذا نسيتَ قوليَ فاذكر قولَ هارون
حاسبْ هواك بما أنفقتُ من عمري والله لو كان عمري كنزَ قارون
لو كنتُ أملكُ نفسي يا معذّبَها قرَّبتها لكَ في بعض القرابين

وكتب إلى المعز بن باديس وقد ولدت له ابنة/[١٧٧]

معزَّ الهدى لازال عزُّكَ دائباً وَزُيّنتِ الدنيا لنا بحياتكا

---

١ اضطرب الشطر ، وصورته : فم يسقي بمثل نبات الزراجين .

أتتنيَ أنثى يعلمُ الله أنّني سررتُ بها إذ أُمُّها من هباتكا
وقد كنتُ أرجو أنها ذو بلاغةٍ يقومُ مقامي في بديع صفاتكا
وما نحن إلا نبتُ جودِكَ كلنا وكلُّ نباتِ الأرضِ من بركاتكا

وقال[1] :

أسلمني حبُّ سليمانكم إلى هوىً أيسرُهُ القتلُ
لما بدا جندُ ملاحاتِهِ قال الورى ما قالتِ النمل
قوموا ادخلوا مسكنكم قبل أن تحطمكم أجفانُهُ النجل

وهو القائل في غلام عذَّر يعرف بابن الكناف :

لامُ العذارِ بخده تحكي أصابع جدِّهِ
قد خطَّها في حائطٍ خوفَ الخطا من عدّه

ذكر الخبر عن خراب القيروان

والالمام بشيء من أخبار آل زيري الغالبين عليها ـ كانوا ـ وقتهم مع ما يذكر بها ، ويتعلق بسببها

قال ابن بسام : قد قدَّمتُ [أني] أمليت هذا الكتابَ بخاطرٍ قد خمدت جمرته ، وتبلَّدتْ قريحته ، وعلى حالٍ من تصرّف الزمان ، وإلحاحِ الحدثان ، يتسبب تسبُّبَ الهجران ، ويتلوّن تلوُّنَ الذعرِ في عين الجبان ،

وللموتُ خيرٌ من حياةٍ كأنها مُعَرَّسُ يَعْسُوبٍ برأسِ سنانِ[2]

مع أني لم آخذ هذا الخبرَ عن سند ، ولا استعنتُ فيه بكتابٍ لأحد ، إنما اختلسته من ذكرة أجريها ، أو أحدوثةٍ إنما لذّتي بين أن اكتبها وأمليها ، والحديثُ

---

١ ديوانه : ١٤٢ وابن خلكان ٢ : ٨٨ (اعتماداً على الذخيرة)

٢ البيت الصخر أخي الخنساء ، انظر الأغاني ١٥ : ٦٣ وابن خلكان ٢ : ٨٤

طويل ، والمحصَّل قليل ، وإنما ألمع ها هنا بشيء من أخبار مملكة آل زيري الصنهاجيين : كيف هبَّتْ رياحُها ، وأشرقَ صباحُها ، ثم نشرحُ بعضَ الأسبابِ التي خصَّتْ آثارها ، وأحصتْ ليلها ونهارها :

لما تغلب آلُ عبيدِ الله الناجمين بافريقية على مصر ، فخلص له صميمها ، وأهاب له مُلْكُها ونعيمها ، وأراد معد بن اسماعيل بن عبيد الله ، المتلقب من الألقاب السلطانية بالمعز لدين الله ، اقتعادَ صهوتها ، وإثباتَ قدمه على ذروتها ، دعا زيري بن مناد ، وهو يومئذ من صنهاجة بمكان السنامِ من الغارب ، وبمنزلةِ الوجدان من نفسِ الطّالب ، وكان له عشرةٌ من الولد : آسادُ شرَى ، وأقمارُ سُرَى ، فقال له : ادعُ لي بنيك ، فقد علمتَ رأيي فيهم وفيك ، وكان أصغرهم سناً ، وأهونهم عليه شأناً ، بُلُقّين بن زيري ، فدعا ولدَهُ ما عداه ، والقدر لا يريدُ سواه ، وكانت من المعزّ ـ زعموا ـ اثارةٌ من علم الحدثان قد عَرَفَ بها مصايرَ أحواله ، وأهلَ الغناءِ من أعيانِ رجاله ، وكانت عنده لخليفته على افريقية إذا صار إليه ملك مصر علامةٌ يأنسُ بها أنس الكبير بذكر شبابه ، ويعرفها عرفانَ العاشقِ لديار أحبابه ، فنظر في وجوه بني زيري فأنكرها ، حين تفقَّدَ تلك العلامةَ فلم يرها ، فقال لزيري : هل غادرتَ من بنيك أحداً ، فلستُ أرى لمن ها هنا منهم أيداً ولا يدا ، فقال له : إلا غلام ، وطفق يصغّر شانَهُ ، والمقدارُ قد عناه وأعانَهُ ، ويطوي أخباره والاخبارُ تدور عليه ، فقال المعزّ : لا أراكَ حتى أراه ، فلستُ أريدُ سواه ، فلما رآه عرفه ، وفوَّض إليه من حينه واستخلفه ، فاستولى من وقته على الأمور ، وزاحمتْ مهابته الأهواءَ في الصدور ، وبعدتْ أسفارُهُ واشتهـرت أيامه ، واشتمـل على صرف الأيام والليالي نَقْضُهُ وإبرامه ، بلغ بغزواته سبتةَ ـ في خبرٍ طويل ليس من شرط ما أَلَّفْتُ ، ولا في معنى ما صنفت ـ ثم أجاب صوتَ مناديه ، وخلعها على أعطاف بنيه ، حتى انتهت منهم إلى المعزّ بن باديس ، منزف العشيرة ، وآخرِ ملوكها المشهورة ، فأولُ ما افتتح به شانه ، وثبت به ـ زعم ـ سلطانه ، قتلُ الرافضةِ ومراسلةُ أمير المؤمنين ببغداد ،

فبعث إليه بعهدِهِ ، وجاءت الخلعة واللقبُ من عنده ، رأياً اغترّ ببادیه ، وذُهِلَ عن عواقبه وبوادیه ، واتصلت بالعبيدي وامرُهُ يومئذٍ يدورُ على الجرجرائي ، فاضطغنها عليه ، وفوّقَ سهامَ مكروهه إليه ؛ وكانت بطونٌ من عامر بن صعصعة : زغبة وعديّ والأثبج ورياح وغيرهم من ألفافِ عامر ، تنزلُ الصعيد ، لا يُسْمَحُ لها بالرحيل ، ولا يخلىَّ بينها وبين إجازة النيل ، فأراهم الجرجرائي لحينه ضجَّةَ السوق ، وأفرجَ عن لَقَمِ الطريق ، وأذِنَ لهم في المعز ، أمنية طالما تحلبتْ/[١٧٨] اليها أطماعهم ، وعكفت عليها أبصارهم وأسماعهم ، فغشاه منهم سيلُ العرم ، ورماه بذؤلول ابنةِ الرَّقَم ، وتهاون المعزّ بهم أوّلاً فشغلهم بخدمته ، وحمَّلَهُمْ أعباءَ نعمته ، وهم في خلال ذلك يتمرّسونَ بجهاته ، ويدبّون إلى أنصاره وحماته ، ويطلون على مقاتله وعوراته ، حتى بان لهم شانه ، وهان عليهم سلطانه ، فجاهروه بالعداوة .وأرادوه على الاتاوة ، وجرتْ بينهم أثناء ذلك حروب ، لم يحمدها غالبٌ ولا مغلوب ، ولا أَمنها بريء ولا مُريب ، أضربتُ عن خبرها لطوله ، ولأنه لم يبلغني عن مَنْ أثِقُ بتحصيله ، كان من أفراها لأديمه ، وألصقها بصميمه ، وقعةُ حيدران سنة أربعٍ وأربعين ، فانها أوهنت بَطْشَهُ ، وثلّتْ عَرْشَهُ ، وأَرَتْهُ البوارَ ، وضربتْ عليه الحصار ، وأحاط الأعرابُ بالقيروان يطؤون حريمها ، ويستعرضون راحلها ومقيمها ، حتى ماجَ بعضُها في بعض ، وتبرأت منها كلُّ سماءٍ وأرض ، فلما كان سنةُ خمسين أعطى الدنيّة ، وناشدهم التقيّة ، واشترط المهدية ، وقد كان نظر في ماله ، وفكّر في مَنْ بازائه من أقتاله ، فزفَّ إلى زعمائهم بناته وكن اللآلي وأماني الغالي ، فأصبحوا له أصهارا ، وقاموا دونه أنصارا ، فلما استحكم بأسه ، وأهمّتْهُ نفسه ، استجاش مَنْ قِبَلَهُ ، واحتمل حُرَمَهُ وثَقَله ، وخلىّ الملك لمن حماه وحمله ، وجاء أصهارُهُ فكانوا بحيث يسمعون نئيمه ، ويمنعونه ممن عسى أن يكيده ويضيمه ، حتى بلغ المهديةَ فأقام بها أسقطَ من الشمس في الميزان ، وأهون من الغَفْرِ على القبّان ، ولم يكنْ أحدٌ في زمانه أشدَّ بأساً في الملاحم ، ولا أطولَ يداً بالمكارم ، ولا أعنى بلسان العرب ، ولا

أحنى على أهلِ الأدب ، منه . ومن مشهور كرمه أنه أعطى المنتصرَ بن خزرون في دفعةٍ مائةَ ألفِ دينار إلى ما وصله به من مركبٍ ثقيل ، وزيّ نبيل . ثم لم يمكثْ بالمهدية إلا نحو عامين ، وانقضتْ أيامُهُ ، وغافصه حمامه ، تعالى من لا ينتقـلُ حاله ، ولا يُتَوَقَّعُ زواله .

فصل في ذكر الشيخ أبي الفتيان العسقلاني[1]
واثبات قطعة من شعره ونثره

أخبرني بخبر هذا الرجل الفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن الوزير الفقيه أبي محمد ابن العربي ، وأنه فارقه حيّاً يُرْزَقُ وهو بالسنة [...] . وأنا أقول : إنّ أبا الفتيانِ هذا من فرسان هذا الشان ، وممن أُعْطِيَ بسطةً في علمه وبيانه ، وخُلِّيَ بين السحرِ ولسانه ، والذي أثبتُّ من كلامه يضرحُ قذى العيونِ ، ويجلو وَضحَ الصبح المبين .

فصل له من رقعة :

مخايل السؤدد ـ أطال الله بقاء الشيخ ـ تُعْثر على عقبه أخامص الكرام ، وترقم بمناقبه برودَ الأيام . فأدام الله تمكينه حتى يصبح سلك المجـرة واهي النظام ، وتغبر في البسيطة جبهة[2] بهرام ، [ولا زال] يعقل بساحته الأمل الجامح ، وتستوقف المراشد والمصالح ، إذ كان مفترق المجد قد أصبح في علائه مجموعاً، وشامس الفضل سامعاً مطيعاً ، وقد قرن وليُّه هذه الأسطر برقعة سأل عرضها على الحضرة السامية ـ رفع الله منارها ، وعمر بوفود السعادة ديارها ـ وأن يُتبعها من سديد مقاصده ما يهدي من أمَّها سبيل النجاح ، ويقضي لها بالمغنم وفوز القداح ، لا زال أفقه بنجوم

[1] لعله مفضل بن حسن بن خضر العسقلاني الذي ذكره في الخريدة (الورقة : ٢٠١ من مخطوطة باريس رقم: ٣٣٢٨) وقال إنه قدم مصر في أيام الأفضل وأورد له مقطوعة من أربعة أبيات .

[2] ص : جهات

السعادة منيراً ، وسرب الحوادث عن ساحته مطروداً مدحوراً .

ومن أخرى :

أطال الله بقاء الحضرة السامية تجبر من كَسْرِ الزمان مهيضا ، وتلزم[1] مسنوناً للمكارم [و] مفروضا ، حتى يصبح عقد الكواكب رفيضا ، وكف المقادر مكفوفاً مقبوضاً ،

وتُطلع[2] للعافين في فحمةِ الدّجى بوارقَ [جودٍ] تستطيرُ وميضا
وتُودع جأش الدهر عَزْمَيْ مشمّرٍ يفلّ صحيحاً أو [يبل] مريضا
نُسطاً تسعرُ الآفاقَ ناراً ورأفة تردُّ[3] هشيمَ المكرماتِ أريضا
ومقدرةٌ لو زاحم الأُفقَ جَيْشُهَا لغُودِرَ مَسْدودَ اللّهاةِ حريضا
شملتَ الورى يا ابن المحسِّن مُسْدِياً صنائعَ يبعثْنَ الكسيرَ نَهوضا
وأعلمتْ[4] أغفالَ الزمان بأنعمٍ أَعَدْنَ دُجُنّاتِ الحوادث بيضا
فأوريتَ زنداً للمفاخر مُصلداً ورفَّعْتَ طرفاً للسماح غضيضا
أقمتَ لنا سوقَ القريض وقد عَفَتْ معانيه صوناً أن يعود قريضا
فلولاك لم يلفِ الهدايةَ ناظمٌ ولم يتوخَّ المادحون عروضا/[١٧٩]
قضيتَ العلا لما أُضيعتْ حقوقُها نوافلَ يُلْوَى دينها وفروضا
منيع المراقي يستجارُ بعزِّهِ اذا أَزِمَ النابُ الضروسُ عضيضا
وتذعر أسرابُ الخطوب أوانساً كما ذعر الليث الهزبر ربيضا
تقاضى سؤالَ المستميحين مـ... تقضِّي ديوناً ملحقاً وقروضا
وتدأبُ في حِفْظِ الرعيةِ ساهراً إذا قيَّد النومُ الجفونَ غموضا

١ ص : وبلزوم
٢ ص : يتلج
٣ ص : يريد
٤ ص : وعملت

فمثلك في حُكْمِ الرياسةِ معوز وكم من نقيضٍ لو طلبتَ نقيضا
إذا ما سعى الأملاكُ خلفَكَ للعلا غدوتَ سماءً والأنامُ حضيضا

وله من أخرى :

شهر الصيام زائرٌ يُستَقَبلُ وفدُ المغفرة باستقباله ، وتنحلُ ذنوبُ الأمّةِ بنحول هلاله ، وآيبُ تَقْدُمُ غرائبُ الحظ بقدومه ، ويعنق جزيلُ الأجر بين عَنَقه ورسيمه ، جعله الله مطهراً من دَنَسِ الآثام ، وغُرّةً سائلةً في جَبَهاتِ الأيام ، [جالياً] لغَسَقِ المعاصي بوضاءَةِ أيامه ، ومكفّراً لما اقترف من الجرائم في عامه ، فطوبى لمن أقضَّ في هذه المدة مضجعَهُ ، واستعملَ منطقَهُ بما يُرضي الخالقَ ومُسْتَمَعَهُ ، ﴿إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطّيّبُ والعملُ الصالحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر : ١٠) والله جَلّتْ أسماؤه يجعلُ الحضرةَ الساميةَ سابقةً في هذا المضمار ، آمنةً من عوارض الكَبوةِ والعثار :

بقيتَ لعقدِ المعالي نظاما وللأكرمين جميعاً إماما
ويُخْجِلُ جودُكَ وجهَ السماء برقاً خَفوقاً وغيثاً سجاما
مقيماً بحيث يضيعُ التلادُ وتحفظ للمكرماتِ الذماما
وتودعُ آلاؤكَ السابغات جيدَ الرياسةِ طوقاً تؤاما
أيا ابنَ المكارِمِ لا يعرفون عن دِرَّةِ المجدِ يوماً فطاما

ومنها :

وهيجاءَ مثلِ أُوارِ الحريقِ تصطلمُ الدارعين اصطلاما
تلثّمُ خدّ الضحى عِثْيراً وتسفرُ فيها المنايا اللثاما
فجردتَ عزمكَ في النائباتِ حصناً منيعاً وجيشاً لهاما
مساعٍ تشقُّ جبينَ الضياء اذا اعتكر الدهرُ طراً ظلاما
ويهدي إليكَ أريجَ الثناءِ كما خطرتْ في الرياض النعامى

فَعِشْ ممسكاً بعرىً للبقاءِ لا يُحْدِثُ الدهرُ فيها انفصاما

ولا برحَ مَنْ جعلَ الأَرضَ قرارا ، وأَخرجَ من الشجرِ الأَخضرِ نارا ، يُطْلِعُ في سمائها السعودَ [غير] الآفلة ، ويقرّ ببابها النعماء [غير] الناقلة ، ويجعلُ لكلِّ [ليلٍ] يُمدّ جناحُهُ ، ونهارٍ تَفَلَّقَ إصباحُهُ ، متكفلاً لها بِجَدٍّ يلقي إليه زمامُ القَدَرِ تفويضاً ، ويمنح الصخرةَ الصمّاء ترويضاً .

في ذكر القاضي أبي محمد بن نعمة بن خليل[1]

وإثبات جملةٍ من نثره ونظمه

وبالسَّنَدِ المتقدّم وصلَ إليَّ خبره ؛ وهو أَحَدُ مَنْ يتصرَّفُ فيجيد ، ويبدىءُ بيدِ الإحسانِ ويعيد ، جزلُ المقاطع ، سَهْلُ المنازع ، وقد أثبتُّ من كلامه ما تراه، وتستدلّ على غرضه ومنحاه .

فصول من نثره مع ما ينخرط في سلكها من شعره

أَطال الله بقاءَ الحضرةِ العالية لغرائبِ مجدٍ تبتدعها ، وفرائضِ جُودٍ تُشَرِّعها ، وحوادثِ أيامٍ تذلّلُ صعابَها ، ومستأنفِ سعودٍ يطرقُ جنابَها ، وأدام أيامها التي هي للدهرِ تمائمُ ، وفي المجد غمائم :

غررٌ من الأيام يوضحُ فجرها والدهرُ من ظُلَمِ النوائبِ قاتمُ
كم صَرَّمَتْ عني حوادثَ لم تكن منجابةً لولا الأجلُّ الصارم

---

١ أغلب الظّن أنه القاضي أمير الدولة أبو محمد عبد الله بن أحمد بن خليل العسقلاني (وحدث تصحيف في لفظة « أحمد » فتحولت إلى « نعمة » أو العكس) ؛ ذكره العماد في الخريدة (الورقة : ١٩) من نسخة باريس رقم : ٣٣٢٨ وقال إنه « من الكتاب الشعراء والبلغاء الرؤساء ، إلا أنه مقل مع الاجادة والاحسان . إنما يصنع ما يصنعه تأدباً لا تكسباً ، وكان في عهد المستنصر » ؛ وأورد له شعراً في صارم الدولة ابن معروف صاحب عسقلان .

الموطّد ، والنسبِ الى أعلى خندف عماداً ، وأوراها في موقفِ الفخرِ زنادا ، أرومةِ الرسالة وجرثومة الخلافة ، إليها انتزع هاشم ، وعنها أُخِذَتِ المكارم ، فبعبد مناف بن النضر بن كنانة ذؤابة الفخر :

هنالك أبناءُ الوغى وحماتها وثمَّ العطاءُ الغمرُ والعددُ الدثرُ
لهم أَوْجُهُ زُهْرُ وأنديةٌ خضر وألويةٌ حمرُ وخطّيةٌ سُمْرُ

فأمّا الفضائلُ المكتسبة فان مولايَ الأجلَّ ناظمُ أشتاتها ، ومؤلفُ متنافراتها ، فهو تارةً تحت عَذَبِ الأعلام ، وأُخرى بين طروسٍ وأقلام ، يستصغرُ عظيماتِ التدبير ثقةً بحزمه ، ولا يغفلُ صغيراتِ الامور تمضي إلا عن علمه ، فأما الحلمُ والأناة واستلذاذُ العفوِ مع القدرة والمحافظةُ على سرٍّ الخدمة فان الله تعالى وهبَ له من ذلك ما سلَّمه إليه معانده ، وعرف فضيلته فيه حاسدُه :

مناقبُ نُظِمَتْ منها محامدُهُ وشيمةٌ عُرِفَتْ فيها عوائدُهُ
وللندى غير منزورٍ مؤمله وللردى [غير] معصومٍ معانده
يفديه وافدُ ليلٍ آبَ زائره بنجحه وبخيلُ خابَ قاصده

فأما المواقفُ المشهودة ، والآثارُ المؤرَّخة المعدودة ، فانه فيها ملقَّى النصرِ ، دائمُ الظفر ، ميمونُ التدبير ، مسعودُ الرأيِ ، مُبَقٍّ عند الانتقام ، معتذرٌ مع سعة الانعام ، رحبُ الحمايل ، بسام المخايل :

يقصّرُ الناظم عن آلائه فيستعينُ بحلى الوسائلِ
لم يستعرْ فيها له فضيلةً حاشا العلا ولا مقالَ الباطل
وإنما يكتبها عن مجده فيستهلُّ نسخةَ الفضائل
لم نرضَ أنْ أنالنا فصاحةً موهبة إلا ببذلِ النائل

ولا زالتِ الحضرةُ الساميةُ تجدد من رسم الأدبِ داثِرَهُ ، وتلبسُ من الثناء نفائسَهُ وجواهرَهُ .

ملكٌ تملّكه النَّدى وتجمعتْ في راحتيه غمائمٌ وسمائم
فالروضُ يُجْدِبُ وهو روضٌ ممرع والغيثُ يُقْلِعُ وهو غيثٌ دائم

وشتان ما بينهما : تلك سحائبُ قد يُخْلِفُ بارقها ، وتُحْذَرُ صواعقها ، وروضٌ يجفُّ نباته ،وتتصوَّحُ زَهَراته ، ومكارمُ الحضرةِ العالية تزيدُ جدّةً على التكرار ، وتماثلُ الفلكَ الدوّار ، وهي تباري الشمسَ [نهارا] ، وتزورُ مزارَ الطيف سرارا :

مننٌ بعثن أهلة مستورة فطلعنَ في فَلَكِ العلا أقمارا
ومواهبٌ ومناقبٌ ومناهبُ رَفَعَتْ له فوقَ السماء منارا

ولما كانت الأوقات الشريفة موسومةً بثناءٍ يُسْمَعُ ، ومرسومةً بدعاء يُرْفع ، وأَهَلَّتْ هذه الأشهرُ المكرمة ، وجبَ على من حضر ، بل كافةِ مَنْ يضمُّهُ الثغر ، إخلاصُ الدعاءِ للحضرة العالية ، بأن يمدَّ الله عليها ظلاله المسدلة ، ويديمَ لهم ما شملهم من تمام/[١٨٠] المعْدِلَة ، وأن يُسْعِدَ أنحاءَهَا في طاعة إمامها ، ويصرفَ أعداءَها في حكم حسامها ، ويثبتَ لها من رأي سلطانه ما تستوفي به أقسامَ الفخر جميعا ، ويزيدَ لها أحداثَ الدهر خضوعا :

فلقد خدمتَ بهمةٍ لا ترتضي إلا سميَّكَ صاحباً وضجيعا
والجيشُ [أيْقَنَ] حين عاد بأنه أَلْفَى بربعكَ معقلاً وربيعا
وردوا نميراً من يمينك ريّقاً وثرى محلٍّ في ذراك منيعا
وسهرتَ دون هجوعهم بعزائمٍ تقضي وطرفٍ لا يذوقُ هجوعا
هذا وكم من مارقٍ مزّقتَهُ بيدٍ تُفيضُ مكارماً ونجيعا

والحمد لله الذي جمع للحضرةِ العالية شرائطَ السؤدد ، وخصَّها بالمجد

وله من رقعة تهنئة :

لقد عجبت أيامنا [حين أبصرت] بها أروعـاً زِينَـتْ بحسـن علائِهِ
إذا سهـكتْ اعطافهـنَّ تضمختْ بِمسْـكَينِ من أفعالِـهِ وثنائه

هذا الشهر ـ أدام الله تمكينَ الحضرة العالية ـ مضاهٍ لها في شرفِ النسب ، والطهارة من الريب ، والله يكرّرُ عليها مجازَهُ ما ارتقبتْ فيه ليلةُ القدر ، وانتشر في السماء شعاعُ البدر ، في عزّ تسكن به الخطوبُ العَرمة ، وتنتقض معه الأحـداثُ المبرمة .

وفي فصل منها : أرواه الله من تسنيم ، وجعله من وَرَثة جنّةِ النعيـم ، يرتـعُ في رياض الفردوس النَّضرِ ﴿في مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مليكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ (القمر : ٥٥) بعد ان يفني مُدَّةَ الزمان عمرا ، ويوسعَ بنيه نوالاً غمرا ، ويحوزَ من المحامد ما تتطرز به أردان الأيام ، وتتقوض فيه هَضَباتُ شمام .

ومن أخرى في مثله :

أجزل الله بالحضرة الاثيرية بركاتِ هذا الشهر الشريف الذي تُقْضَى فيه المناسكُ بالبيت العتيق ، وتردُ بعده أيامُ التشريق ، ولا زال يُلْقي رحاله ، ويواصل إلفهـا بكره وآصالهُ ، في عزٍّ رفيعٍ سماكه ، حاكمة بالبقاءِ أفلاكه ، ومجدٍ راسيةٍ جباله ، وسعادةٍ مقرطسةٍ [بـها] نباله .

اذا انقضبـت يومـاً حبـالُ سعادة غَدَتْ مُحْصَـداتٍ كيف شاءت حبالُهُ
يضيء وصرفُ الدهـر داجٍ هلالُه ويعـرف في قحـط السنـين انهماله
وجـاهٌ نضـير لا يخـافُ ذبوله ولا ينطفـي بالعـاصـفـاتِ ذباله

والأرض [في] قبضته يقبض عنها أيدّي العوارض ، ويُسبِغُ عليها ملابسَ إنعامه الفائض .

ومن أخرى/:[١٨١]

ولو علمَ الطِّرْسُ الذي قد حَبَوْتَهُ قلائدَ من درِّ الكلام المنضَّدِ
لقاد إليك الشكر حتى تملَّه وحتى يقول السامعون له قَدِ

طلعتْ عليَّ من الحضرةِ ـ لا زالتْ نجومُ السعد بآفاقها طالعة ، وركائبُ الحوادثِ عن ساحتها ظالعة ـ رقعةٌ كريمة أَجلتُ ناظري في سطورها فقلت : سوسنٌ نُثِرَ على أقحوان ، أو قلائدُ عنبرٍ نُظِمَتْ في أجيادِ غزلان ، وراودتُ خاطري على بروز ذلك المرموز فقال : أما تستحي ان تسومني ذلك ، وقد أَثْمَدَتِ الخطوبُ ينبوعي ، ومحتِ الحادثاتُ ربوعي ، فقلتُ : خيرٌ لا بدّ من تأمله ، وأمرٌ مطاعٌ لا مندوحةَ عن تقبله .

وله من أخرى :

شهادةُ الخادم ـ حرس الله أيام الحضرة ـ شهادةٌ بسعادةِ مستخدمه،ودلالةٌ على تواصلِ فضلِ الله وكرمه،كالأصل إذا زكا أورقت فروعُهُ،والماءِ اذا استجمَّ فاضت ينابيعه . وعرفتُ في هذه الساعة وفودَ قادم على عبدها الأمير شبلِ الدولة يثري من إنعامِ الحضرةِ العالية يده ، ويؤرخ بأيّامها الزاهرةِ مولده ، فشاركتُ المذكورة في المسرّة بهذه النعمة ، أشتراكنا معاً في الخدمة ، وإني وإياه فيها فرسا رهان ، او كالأناملِ ضمَّها اليدان ، والذي له الأسماء الحسنى يضاعفُ إحسانه لديها ، ويجعل عواقبَ أمورها أحسنَ من مباديها ، حتى يلوذَ الكرمُ بجنابها السبعيد ، ويعيشَ الأحرارُ في فضلها كما يعيشُ العبيد .

وله من أخرى :

يا ليتَ أنَّ سوادَ طَرْفي نائلٌ ما نال من شَرَفٍ سوادُ مدادي
فعساه يطفي لوعةً مشبوبةً ألقت عصاها في صميم فؤادي

وأقول حينئذ : أسعدَ الله الحضرةَ الساميةَ بهـذا الشهـر الميمـون ، وشحن صحيفتها بأجرٍ غير ممنون ، ولا زالتِ الأيامُ تمرُّ بها جديدةً وترجع عنها بالية، وهي في أثناءِ ذلك ضامنة لها عزاً ينشر في الأفق ذوائبه ، ومجداً يحلي بالقمرين ترائبه ، وسعداً لا تخطىء سهامُهُ ، ولا يُفَضّ أبداً ختامه ، ورزقاً تعذبُ نطافه ، وتدرّ طولَ الزمانِ أخلافه ، ورضًى من الله تعالى يورثُ جنّاتِ النعيم ، ويهدي إلى صراط مستقيم .

ولما وصلتُ الى هذا المكان من هذه السطور سُلِّمَتْ إليَّ تحفةٌ من الحضرة السامية كأنَّها لونُ المحبِّ قُصِدَ بالهجران ، أو نهودُ الكواعبِ ضُمِّخَتْ بالزعفران ، وحين شممتها وجـدتُ ذاتَ طيبيـن : طيبُ الأرومـةِ ، وطيب استفادتـه من اليد الكريمة ، وأستغفرُ الله ، أين البِرْسُ من الحرير ، والملابُ من العبير .

وفي فصل من أخرى :

المكارمُ ـ أطال الله بقاءَ مولايَ الشيخ معمـورَ الفنـاء ، ممتعـاً بدوام العـزّ والنعماء ـ فروضٌ مُهْتَبلات ، ومساعٍ على الدهر مُنْجِحات ، وبضائعُ في اكتسابِ الشكرِ مُرْبحات ، ولم يزلِ الحمدُ أكبـر تجائره ، وتقليدُ المنـنِ للأعنـاقِ أنفسَ ذخائره ، ومن تدرَّعَ أسبابَ رياسته ، وبهر الألباب بباهر فضيلةِ نباهتـه ، وبـذَّ الأَضرابَ بكمالِ ورعه ونزاهته،[و]دنا من قديم فخرِ آبائه،وطبّقَ الأرضَ بفيضِ بحرِ عطائه ، وطاولَ بطولِ باعِ مُرُوَّتِهِ ، وتصدَّر بواسعِ صدرِ همّته ، وأصبح حليةَ الزمن القديم ، وغرّةً لامعةً في وجه الدهر البهيم ، عمَّ الأنام نفعا ، وأتى الجميلَ خلقاً وطبعا ، وتدارك بقيةَ الأزمانِ المشفية ، وجدَّدَ ما أَخلقَ من الآمال المتعفّية ، فلا زالتْ قَدَمُهُ محـذّوةَ رفاتِ الاعداء ، ويدُهُ مضمومة أزمّةِ العلاء :

ولا زالَ محروسـاً من الخطـب بالغاً ... الى غايةٍ تجـري فيقتصرُ المجري
ولا فقـدتْ عـينُ الرياسـةِ شخصه ... ومتّـع بالتـأييد والنهـي والأمر
وأَدركَ من دنياه غايةَ سُؤْلِهِ ... ونـال المنـى في الآلِ والمالِ والعمر

وقد تعرضتُ لواسع رأفته ، فاستعطفتُ كريمَ عاطفته ، واسترجعتُ فائتَ حظي بمراجعته ، وأعوذُ بالله أن أستنصرَ به على الزمان فيخذلني ، وإلى جوره بعد الاستسلام بعدله فيسلمني ، ويطرحني معتمداً من يده ، ويسقطني بالجملة عن عدده ، ويصرفني عن باب تصرُّفِهِ بالحرمان ، ويذودني عن بحرِ جودِهِ العذب مشتملَ الجوانح على غُلَّةِ الظمآن ، ومتقدمُ المعرفةِ رحم ، والوفاءُ بالذمم كرم ، وقد ناديتُ من نداه ـ دام علاه ـ سميعاً ، وسألتُ منه جواداً لأمرِ الجود مطيعاً ، واستمطرتُ من/[١٨٢] جوده غماماً غيرَ جهام ، وهززتُ منه حساماً غيرَ كهام ، ومن أقعدته نكايةُ الأيام ، أقامته إغاثةُ الكرام .

ومن شعره

قد صار يختلق المحالَ وَيُبْطِلُ ... من قال ليس على الثرى مَنْ يَكْمُلُ
حكمتْ عليه معجزاتُكَ أَنَّه ... متمحِّلٌ فيما حكى مُتَقَوِّلُ
لا زلتَ في كَنَفِ السّعودِ وظلها ... أبداً تحلُّ بحيثُ شئتَ وترحل
مثلَ الهلالِ يسيرُ في درجاته ... والشمس في أبراجها تتنقل
أَصبحتِ يا دارَ المظفر كعبةً ... للمجد يُلْثَمُ ركنها ويقبل
فالشهبُ ليس يُغَمُّ[1] مطلعها ولا ... جيدُ السماءِ من الغزالة يعطل
يا صارمَ الملك الذي أيّامُهُ ... أبداً تزان بمجده وتجمّلُ
صقلته أيدي المكرماتِ ولم تخل ... أن الصوارم بالمكارم تصقل
ملكٌ طفيليّ السماح يضيفُ مَنْ ... لم يستضف وينيلُ من لا يسأل
مذ ورَّخوا عهدَ المعالي باسمه ... ذهبَ التنازُعُ واستبانَ المشكل
لو أنَّ مطبوعاً يفارقُ طَبْعَهُ ... لحلا إذا شربَ الزلالَ الحنظل
ولما رأينا النحلَ تقضمُ علقماً ... لهواتُها فيعودُ وهو معسَّل

١ ص : ثم .

وهذا كقول المعري[1] :

والنحْـــلُ يجنــي المرَّ من نَوْرِ الربى[2] فيصـــيرُ شَهــداً في طريقِ رُضابِهِ

يثنــي الرجـــالُ على القتيل بسيفه فكأنما يُحْيي به مَنْ يقتلُ
وإذا لظــى الهيجـــاءِ لثّـمَ وَجْهَهُ أبصرتَـهُ تحــت القنـا يتظلَّلُ
حيثُ المغـــاويـرُ الـــكماةُ تميـد من نشـواتِ ما اعتصر الـوشيجُ الذبَّلُ
خمـر ترى مُهَـجَ الرجـــالِ دنانها لكنّهـا بالســمهـرية تبــذل
و[زعـاق] ملـحٍ لا يســوغُ لشاربٍ كـدرٌ وأنــت السلســبيـلُ السلسل
يا عادلاً في كلّ ما هو فاعلٌ ما بال كفّـك في اللهـــا لا تَعْدِلُ
أفنــى تلادَ يديك عِلْمُـــكَ أنَّهُ لا يَفْضُـلُ الأقـوامَ من لا يُفْضِـلُ

القاضي جلال الدولة بن عمار[3]

فصول من رسائله

مرحباً بطليعة السرورِ ، ومساعدةِ الدهور ، وبشير النُّجْح والبركة في جميع الأمور ، هذه صفةُ تخصُّ كتاباً وردني من مولاي الأمير ـ أطال الله بقاءه ، وأدامَ تأييده ونعماءه ـ على بُعْدِ عهدٍ بكتبه وأنبائِهِ ، بمعاندةِ الزمانِ لي فيه ، إلى أن أحكمَ أَسباب البعدِ بيني وبينه ، مع تقاربُ قلوبنا وامتزاجها في حالي القربِ والبعد ، كما قال الباهلي :

وعـاندنـــي فيه ريـبُ الـزمـانِ كـأنَّ الـزمـانَ له عاشـق

١ من قصيدة له في جواب شاعر مدحه اسمه محمد بن علي بن محمد أبو الخطاب الجبلي ؛ انظر شروح السقط : ٧٢٠ .

٢ ص : يجني السور ... الورى .

٣ هو القاضي جلال الدولة (أو جلال الملك) أبو الحسن علي بن عمار تولىّ أمر طرابلس بعد وفاة عمّه القاضي أبي طالب ابن عمار سنة ٤٦٤ فضبط البلد أحسن ضبط ، ولما توفي المستنصر الفاطمي (٤٨٧) وانقسم الولاء بين نزار والمستعلي ، كان جلال الدولة في صفّ نزار ، فلما استتب الأمر للمستعلي قتل القاضي جلال الدولة بن عمار ومن أعانه (ابن الأثير ١٠ : ٧١ ، ٢٣٨)

وإنّي لأتذّكرك وأتذكّرُ أوقاتَ المسرَّةِ بقربـك ، والأنس بالاجتماع بك ، كما يتذكرُ الشيخُ الهمُّ شبابَهُ ، والعاشقُ المفارقُ أحبابَهُ ، وأرغبُ الى الله في تسهيل أمرِ تجمّعنا كما نحبّ ، وأدعوه ربي ﴿عسى ألاّ أكونَ بدعاءِ ربي شقيّا﴾(مريم: ٤٨) وما ذلك على الله بعزيز.

نعم سررتُ والله يا مولايَ بكتابك وأنِسْتُ بقراءته ، وأوجبتُ حقّاً لحامله وهششتُ والله إليه ، كما قال قيس[١] :

إذا ذُكِرَتْ ليلى هششـتُ لذكرها كما هشَّ للثّـدي الـدَّرورِ وليدُ

وفي فصل :

وأما ما ذكرتَهُ من التحرّكِ إلى جهتنا ، فهلُمَّ ، قرَّب الله دارَكَ ، وأدنى مزارَكَ ، ورعى الله جواداً يحملك ، وطيَّبَ ريحاً تُوصلك ، وبارك اللهُ في ليلٍ أونهارٍ يفترُّ عن لقائك ، ويبسمُ عن شهيٍّ مشاهدتك .

وله من أخرى :

وافى كتابُـكَ مطـوياً على نُزَه[٢] تَقَسَّـمَ الحسـنِ بـين السمـع والبصرِ
جزلُ المعانـي رقيقُ اللفـظ مونقه كالمـاءِ يخـرج ينبوعـاً من الحجر

وصل كتابُكَ يومَ عيد النحر فكان عيداً ثانيا ، وصادف أُنْسي واهيا ، فكان له مسنداً بانيا ، فارتحتُ له ارتياحَ الروضِ للمطر ، ولم أملَّ بتكريرٍ قراءتَهُ وهل تملُّ عينٌ من النظر ، فكم من معنىٍ بديع ، ولفظٍ مُحْكَمٍ صنيع ، وبراعةٍ أتى بها [قلمه] شَرْعاً ، وبلاغةٍ جاشَ بها بحره طبعاً لا تطبّعا ، « وليس بمنكرٍ سبقُ الجوادِ » ولا بمتدعٍ جَوْدُ العهاد ، وأمّا النظمُ فنظمَ صفـاتِ الإحسـان ، واستدعـى نوافـج

١ لم يرد في ديوان قيس (مجنون ليلى) .
١ ص ، وافانى ... برة .

الاستحسان ، وأما النثر ، فأبهى من منثور الزَّهْر ، وأغلى قدراً من الدرّ والجوهر ؛ ولقد هزَّتني إلى لقاء مولاي لواعجُ شوقٍ تالد ، وبواعثُ وجدٍ خالد ، ودواعي أسفٍ متضرّم ، لم يُخْلِقِ البعدُ جديده ، ولا أذْوَى طولُ العهد عُودَهُ ، ولا أنسى تقلّبُ الأحوالِ جهوده ، ولا نقض مرورُ الأيام مرائره ، ولا كدَّر تكدُّرُ العيش /[١٨٣] سرائره .

.........[١]

[المجيد بن أبي الشخباء العسقلاني] [٢]

....

... الجاذبُ أشطانَه ، وإنّما هو الآن يُرْخي حتى يجذبَ ، ويجتمعُ لكي يثبَ .

وله من أخرى :

المودّاتُ إذا كانت متينةَ العقود ، صادقةَ المشهود ، موضوعةً على أصلٍ عريق ، وأساسٍ وثيق ، لم تُجْزِعْهَا[٣] الشُّبْهَةُ المُرْمِضَةُ ، ولم تُزَلْزِلها الأباطيل[٤]

---

١ سقطت هنا ـ فيما أعتقد ـ صفحة ـ ضاعت بها بقية ترجمة جلال الدولة ابن عمار وأول ترجمة المجيد بن أبي الشخباء .

٢ هو الحسن بن محمد بن عبد الصمد بن أبي الشخباء أبو علي العسقلاني (ياقوت ٩ : ١٥٢) والحسن بن عبد الصمد (ابن خلكان ٢ : ٨٩) وقد أشار كلاهما الى ترجمته في الذخيرة وأثبت ياقوت نقلاً عن ابن بسام أنه توفي سنة ٤٨٢ (وقع خطأ في الطبعة المصرية من معجم الأدباء : ٤٣٢) وكان يلقب بالمجيد ذي الفضيلتين ويقال إن القاضي الفاضل استمد من رسائله ؛ وذكره العماد في الخريدة في العسقلانيين في القسم التابع لشعراء مصر الورقة : ١٤ (نسخة باريس رقم : ٣٣٢٨) فقال : « مجيد كنعته ، قادر على ابتداع الكلام ونحته ، له الخطب البديعة ، والملح الصنيعة ، وكان قبل عصرنا في أيام الأقسيس سنة سبعين وأربعمائة » وذكر العماد أنه رأى ديوانه عند صديق له بدمشق ؛ وللمجيد مختارات من شعره في الخريدة ومجموعة من رسائله وخطبه في الريحان والريعان وفي جمهرة الاسلام ذات النثر والنظام ؛ وقال ياقوت إن اكثر رسائله إخوانيات واورد جملة منها ؛ وجعل المقريزي وفاته سنة ٤٨٦ (اتعاظ ٢ : ٣٢٨)

٣ تجزعها : تدخل عليها الجزع .

٤ ص : الأباطل ؛ وجمع باطل عند سيبويه « أباطيل » ، وعند غيره أن أباطيل جمع أبطولة ؛ وقد تردّ « أباطيل » إلى « أباطل » لحاجة الشاعر ، ولا ضرورة لذلك هنا .

المعترضَةُ ، وإن تناقلتها أَلْسُنُ مختلفة ، وعَلَتْها برودٌ من اللفظ مُفَوَّفة ، ولما رأيتُ زيارةَ مولاي قد صارت مُرَقَّعة ، وَجَنوبَ[1] مودَّتِهِ قد عادتْ مُرَوَّعة ، وصرتُ أرى قَوْلَهُ متناقضاً ، وماءَ البِشرِ من وجهه غائضاً ، من بعد ما عهدتُهُ[2] :

تنبي طلاقةُ وجهِهِ عن وجهه[3] فتكاد تلقى النُّجْحَ قبل لقائِهِ
وضياء وجهٍ لو تأمَّلَهُ امرؤٌ صادي الجوانح لارتوى من مائه

لم أتجاسرْ على سؤاله عن العلّة خوفاً أن يعيبَ عليَّ الارتيابَ بودّه ، وَتطرُّقَ سوءِ الظنَّ على عهده ، فسألتُ من يعلم دفائِنَهُ ، ويَخْبُرُ ظاهِرَهُ وباطنَهُ ، فأخبرني أنَّ بعضَ الناسِ ـ ولم يُسَمِّهِ ـ نقل إليه عنّي ، فشنَّ الغارة على وفائه ، وزلزل أواخي ودِّه وإخائه ، فقلت : عَتْبٌ واللهِ ولا ذَنْب ، وشكايةٌ ولا نكاية ، وأنا أُحاكمُ مولاي إلى إنصافِهِلا إسعافِهِ[4] ،وعدلِهِ لا فَضْلِهِ ، وما كان أَجْدَرَهُ برفضِ قولِ الماحل[5] ، وتغليبِ الحقِّ على الباطل ، ولا يرى نَفْسَهُ بصورةِ مَنْ تَسْتَخِفُّ حصاتَهُ الريحُ الخافقة ، وتشعِّثُ من مودّته الأقوالُ الماذقة . ولو انتقضتْ عندي المعاقد ، وقامت عليّ ـ وأعوذ بالله ـ الشواهد ، لكان مولاي حريّاً أن يجري في كرم اللقاءِ على العادة ، ويتأدَّبَ بقولِ أبي عبادة[6] :

أَبَيْتُ على الخلاّنِ إلا تحنّياً يلينُ لهم قلبي[7] ويصفو لهم شِرْبي
وإني لأستبقي الصديقَ إذا نبا عليَّ وأهنا من خلائقِهِ الجُرْبِ[8]

---

١ ص : وشيوب ؛ وتقول العرب للاثنين اذا كان متصافيين ريحهما جنوب ، قال الشاعر :
لعمري لئن ريح المودة أصبحت شمالاً لقد بدلت وهي جنوب
٢ ورد البيتان التاليان في الخريدة :١٥
٣ الخريدة : وده .
٤ ص : لاسعافه
٥ ص : القول الماجل ؛ والماحل : الساعي ، ومحل به : كاده بسعاية الى السلطان .
٦ هو البحتري ؛ والبيتان في ديوانه : ١٠٥
٧ الديوان : عطفي .
٨ أهنا : مخفف من أهنأ أي أطلي بالقطران .

والآن فقد أوْضَعْتُ وأوْجَفْتُ ، وتألَّفْتُ مولاي واستعطفت ، فان عادتْ ظلالُ ودِّه مديدة ، وحبالُ كَرَمه مَحْصوفةً[1] جديدة ، فَحَسَنٌ بتلك الشمائِل ، أن تجمع شَمْلَ الفضائل ؛ وإن تمادى على هذه الهجرة ، ولم يصحُ من نَشَواتِ تلك السَّكرة .

فما ذاك من ذنبٍ عليَّ اجترمتُهُ إليه فيجزيني به حيثُ أعلمُ
ولكنَّ إنساناً إذا ملَّ صاحباً وحاول صَرْماً لم يزلْ يتجرَّم

واللهُ جلَّتْ قدرتُهُ يجعلُ حفظ المودةِ عنده أوجبَ الحَّقينْ ، وأنفعَ العِلْقَين ، ويرفَعُهُ عن السِّمَةِ بنقضِ المرائر ، وحليةِ الجائرِ الغادر .

وسافر بعضُ أخوانه فَشُغِلَ عن وداعه فكتب إليه : ما أخَّرني عن خِدْمَةِ مولاي بالوداع أنّي متأخِّرٌ في حَلْبَةِ ولائه،ولا عارٍ من ملابس إخائه وآلائه،ولوددتُ لو صحبتُ ركابَهُ السعيدَ إلى الصعيد ، وقطعتُ معه عرضَ المهمهِ البعيد ، وَزَوَّدْتُ من مجاورته قلباً معموراً بودّه ، ومِنْ مشاهدته طَرْفاً لا صَبْرَ له مِنْ بَعْدِهِ . وإنما حجزني أمران كلٌّ منهما يمهّدُ العذرَ ويبسُطُهُ ، [ويمحو][2] الذنبَ ويحْبِطُهُ ، وهو شغلي في إنشاء التقليد [العليّ][3] وتحريره ، وفعل ما أمرتُ به الحضرةُ السامية وتقريرهِ ، ثم خوفي أن أرى مولاي وقد حلَّ انطلاقُه ،وأسمعَ [أن قد حان فراقه] ، ونَعَقَ غرابُ بَيْنهِ فقضَّ أضلعاً ، وأفاض نفوساً وأدمعاً ، فضعفتُ عن مشاهدةِ ذلك المقام ، وقصرت [عن تحمل ذلك] الداءِ العُقام ، وظللتُ أُنْشِدُ ، والدموع هُمَّعٌ ، والفؤادُ مُصَدَّع :

وأخرني[4] يوم انطلاقك أن أرى على جمراتِ البين [قلبي يُلذَّعُ]
فؤاد إذا قيل الفراقُ تساقطتْ خُفوقاً أواخي صبرِهِ[5] تتقطَّعُ

---

١ ص : مقصوفة ؛ والحبل المحصوف أو المحصف هو المحكم الفتل .

٢ بياض في ص .

٣ ما يرد بين معقفين حتى آخر القطعة سببه عدم ظهور الكلمات في أواخر الأسطر ، في هذه الصفحة .

٤ ص : وأخبرني ، ولعلها أن تقرأ أيضا « وأحزنني »

٥ صبره : قراءة تقديرية ، وصورة الكلمة في الأصل تشبه « هزة » .

وإنـــي صليبُ العــودِ في كلِّ حادثٍ ولكنَّ أعوادي [لنأيــكَ خِرْوَع]

وإذا استنقـذ البـينُ هذه النوبـة ، وخففـتْ بمشيئـةِ اللـهِ رياحُ الأَوْبة ، وهبتُ وجهي للشحوب ، وجسميَ للنَّصَب واللغوب ، وهتمتُ ثنايا الأرضِ إيضاعاً وإرقالاً ، وجعلتُ مسافةَ اللقاءِ لمسافة الوداع أميالا ، وأطلتُ شكرَ الزمانِ على ما يجدّدُه لي من مسرَّةٍ قد خَلَعْتُ بردها ، واستطلتُ عهدها ، وأنشدت :

طربــتُ وقـد جـاء البشــيرُ بقربكم وذو الشوقِ عند آسم الحبيبِ طَروبُ
وقمـتُ إليـه راشفــاً من ترابـه ثرىً لك يحلــو رَشْفُــهُ ويطيب

وما يَبْعُدُ ذلك في قدرةِ الله الذي يُخْرِجُ من الشجرِ الأخضرِ جذوةَ نار ، ويهبُ القمرَ كمالاً بعد نقصٍ وسرار .

وله من أخرى/[١٨٤] يعاتبُ بعضَ القواد[١] :

رأيت فلاناً[٢] عند نظرته لي بالأمسِ قد قطَّبَ حاجبَهُ ، وزعزعَ مناكبه ، وأوسع الغلام من [.. .. ..] ذيل كمّه ؛ فقلت : ماله ؟ أأُنزِلَ إليه وحيٌ ، أم عُصِبَ به أمرٌ ونهيٌ ، أم حصل من الخلافة على وَعْد ، أم أنسىء له الأجلُ مُدَّةَ العهد ، أم قلَّ عَقْلُهُ فعقَّ نفسَهُ وظلمها ، وجهـل مقاديرَ الأشياءِ وقيمها ، واعتقد أنَّ الدنيا طوعُ حكمه ، والقطرَ صائبُ فهمه ، أم رأى الملائكةَ المقرّبين تتشفَّعُ به ، والحورَ العينَ تشكو لاعجَ حبّه ، وثمارَ الجنّةِ تدلتْ إلى يده ، ونارَ جهنم تقتبسُ من زنده ، والكوثرَ يمدُّ من مَعينه ، والسمواتِ مطويّاتٍ بيمينه ، والبراقَ قد آمْتُطِيَ لحضرته ، والفراقَ [...] قوّته ، فأُجِبتُ بأنّ شيطانَ ظنّي مارد ، وتصوّري فيه ـ أعزه الله ـ فاسد ، ولا حقيقةَ لشيءٍ مما توهمته ، وسددته من القولِ وأقمته ، فقلتُ : إذا لم يكن ذاك فما

١ الشق الأيمن من هذه الصفحة أكثره مطموس ، ولذلك تعذرت قراءة بعض العبارات ، كما أن بعض القراءات المثبتة مما لا أقطع بصحته .
٢ ص : فلان .

ذلك ؟ قيل : سَفَهٌ في الرأي وأفَن ، وتغيرٌ في الطينةِ وعَفَن ، ظـن أنَّ الأحرارَ مِلْكُ عُهْدته ، والعالَمَ مجموعٌ في بُرْدَتِهِ ، فحين سمعتُ ذلك أَخَذَتْني لمولاي الحميّةُ ، وهزَّت رأسي الأَرْيحيةِ وقلتُ : معاذَ الله ، إنَّ دونه في الحَصَاةِ[1] والكيس بطليموس ، وفي الحكمةِ ارسطاليس[2] ، وان الحكمةَ تُسْتَنْجَحُ من ظنّه ، والغيثَ يرشحُ من شَنِّه ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه﴾ [البقرة : ٢٥٥] وإنه بحمدِ اللهِ كما قيل :

خِـرْقٌ إذا أفضـى السماطُ به كَثُـرَ العثـارُ وطبَّـقَ الزللُ
وإذا السـريـرُ سما بقعدتـه غَـريَتْ بظـاهـر كفـهِ القُبَلُ

فهناك سكنتِ الألسنُ الهادرة ، ووقفتِ المَرادةُ[3] الغادرة ، وعاد مَنْ حَضرَ يُثْني على مولاي ويقرِّظُهُ ، ويحملُ من شكره ما يؤوده ويبهظه[4] ، فإن كانت هذه الوكالةُ واقعةً منه بالوفاق ، فيجعلُ ثوابي عليها انحلالَ العقدةِ من جبينه ، وزوالَ التمارضِ من جفونه ، وخفضَ الإصبعِ من سلامه ، وتركَ النزوة على غلامه[5] .

وله من أخرى في مثله :

أرى[6] سلامَ سيّدي قد تقاصرَ طويلُهُ ، وروضَ جوِّهِ قد زاد ذبولُهُ ، وماءَ بشرهِ قد غاضتْ بحورُهُ ، ونشاط لقائه قد استمرَّ فتوره ، وما عهدتُهُ ـ أعزَّه الله ـ تزدهيه الشبهة وتستخفُّهُ ، وتصدُّهُ عن كَرَم العهدِ وتكفُّه ، وينزلُ المَيْنُ من سمعِهِ بالمكانِ المهيب ، ومن قلبه بالقابل المستجيب ، بل هو يَرْحُبُ إذا حَرِجَ المضيق ، ويرطبُ وقد عَصَبَ الريق ، وتمرُّ به المُحْفِظاتُ وهو راضٍ ، وتوقظُهُ المغايظُ وهو متغاضٍ .

---

١ الحصاة : العقل والرزانة .
٢ ص : ارطاليس
٣ ص : الموادة ؛ والمرادة : العتو والتمرد .
٤ ص : وينهضه
٥ ص : أعلامه .
٦ ص : أي

إذا أمرته مِرَّةٌ من حفاظِهِ بسوءٍ نهاهُ خُلْقُهُ الباردُ العذبُ

فما الذي أعاد فَلَقَهُ غاسقاً ، وصريحهُ ماذقاً ، فان يكُ عن ملل[1] فؤادِهِ ، وتشعّبِ وداده :

فكم أخٍ غيّره يوميَ المـقبلُ عن أمسي به الذاهبِ
ملَّ فلم يعطفْ لحبِّ الصبا الـحاني ولا حقِّ العلا الواجب

واستقرّت الوزارةُ لبعض أصحابه ثم توقف الأمرُ بعدُ فيها فكتب إليه : الخِيَرَةُ ـ أطال اللهُ بقاءَ سيدنا ـ تجيءُ من غيرِ الأمرِ المختار ، و[هي] مخبوءَةٌ تحت أستارِ الأقدار ، فكمْ سببٍ اجتمعتْ فيه شواردُ الآمال ، ولبسَ ظاهرُهُ مسحةً من الجمال ، كان المكروهُ منظوماً في تاجه ، منطوياً في أثنائه وأدراجه ، وآخر ظهر للنّاسِ بلونٍ شاحب ، ووجهٍ قاطب ، كان ضامناً لابتسام الزمن ، وكافلاً بالأجمل الأَحْسَنِ ، وبهذا أدّب تعالى عباده ، وقال في الكتاب المكنون ﴿وعسى أن تَكْرَهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعسى أن تحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم واللهُ يعلمُ وأنتم لا تعلمون﴾ (البقرة : ٢١٦) فلمح أبو عبادة هذا الأسلوب فقال في معناه[2] :

والشيءُ تُمْنَعُهُ يكونُ بفوتِهِ[3] أحظى[4] من الشيء الذي تُعْطَاهُ

واذا تُصُفِّحتِ الأمورُ بعينِ البصيرة ، ونُظِرَتْ بالخواطر المستنيرة ، ونُفِذَتْ بالألبابِ الصَّيْرَفيّة لا الزّائفيّة ، عُلِمَ أنّ هذه الرتبةَ زليقةُ الصراطِ ، سريعةُ الانحطاط ، يعلو الانسانُ صهوتها ثم هو بعدُ راجل ، ويتحلىَّ بها وقتاً ثم هو مسلوبٌ

---

١ ص : ملكه .
٢ ديوان البحتري : ٢٤٠٣ وقبل البيت .

والعيش ما فارقته فذكرته لهفاً وليس العيش ما تنساه
ولو أنني أعطي التجارب حقها فيما أرت لرجوت ما أخشاه

٣ ص : يمنعه يكون بقربه ، والتصويب عن الديوان .
٤ الديوان : أجدى .

عاطل ، وما لم يُوسَمْ بها فالخططُ تعتقبُهُ ، والمنازل ترتقبه ؛ أجلْ ، وهذه الدرجةُ كلما خبرت الأَقوامُ ،وتمــادتِ الأيّام[1] ، غاضَ معينها ، وزاد حنينها ، فمنها الكمدُ ، ومن سيدنا الصَّيَدُ، ومنها الكَلَفُ، ومنه/ [١٨٥] التّيهُ والصَّلَف ، حتى إذا نَغِلَ الأديم ، ورُعِيَ الهشيم[2] ، وتشاقَّتِ[3] الخططُ ، وجار الحكمُ وَقَسطَ ، دُعِيَ سيدنـا لِشعْـبِ المنصدع ، ووَصْلِ المنقطع ، وإيجادِ الممتنع ، فهناك يَقومُ بالأمر ، ويسهل الحَـزْنُ والوعر :

مُبــاركٌ[4] تطــردُ الـلأواءَ رؤيتُهُ ... طردَ الظـلامِ فرنـدَ البُلْجَــةِ الواري[5]
وزيرُ مُلْكٍ خَلَــتْ[6] في عدلِ سيرته ... صحيفــةُ الملكِ من إثــمٍ وأوزار
يذبُّ عنــه وقــد رِيعَــتْ جوانبه ... برأيه المكتسي أو سيفِــهِ العاري

وكان يوماً المجيدُ بمجلسِ الأُنْسِ ، ودَعَوْا بعضَ أصحابِ القلانس فلم يحضرْ لأجلِ الغناءِ فكتب إليه : عجبتُ لمولاي كيف أسْنَدَ في التخلّفِ إلى عذرٍ هَلْهَال ، وسلك طريقاً صعبةَ المجال ، وجعل المانعَ له من الحضور أمراً يقوّي على الهموم ، ويَقُوتُ النفوسَ فكيف الجسوم ، ويمتزجُ بالقلب امتزاجَ تامورِهِ ، ويُطْلِقُ شكائـمَ بهجتِهِ وسروره ، فان يكُ ذلك لدينٍ وثيق ، وخُلُقٍ بالتقوى خليق ، فما بلغ مولاي من حِفظِ الشريعة إلى هذه الرتبة ، ولا وُضِعَ قِدْرُهُ بعدُ على هــذه الهَضَبة[7]. وإنما هو

[1] ص : الأنام .

[2] نغل الأديم : فسد الجلد ؛ ورعي الهشيم : مثل على اللجوء إلى غير ذي الكفاية لعدم وجود من هو كفؤ ، كما قال الشاعر :

ولــكن البــلاد اذا اقشعرت ... وصــوّح نبتهــا رعــي الهشيـم

[3] ص : وساقت .

[4] ص : منازل .

[5] فيه قلب ، اذ حقه أن يكون طرد فرند البلجة الواري للظلام .

[6] ص : جلت .

[7] كناية عن أنه لم يصبح بعد مشهوراً .

الآن يُحْكِمُ أمراً ، ويصيد بها إذا تعقَّلَ عمراً[1] . وإن كان لخوفٍ[2] من ثقيل ، وحذرٍ من غلول ، فما كان هناك إلاّ مَنْ يَفْـرَقُ السَّوْرَةَ[3] ، ويستُر العَوْرَةَ ، فان حضر طُويَ هذا البساط ، وتوفَّرَتْ للمسرَّةِ أقساط ، وإن تفادم وتغاتم دلَّكَ[4] عليه شرحُ أمورٍ قديمة ، وظهورُ أنباء مكتومة ، وجاءنا من حديثِ البستانِ الحيريّ ما يَغُضُّ من الطيالسِ والقلانس ، ويُنْسي يومَ الغبراء وداحس .

وله من أخرى في مثله :

لما هجر مولاي مجالسنَا في الجامـع وأَوْحَشَهـا[5] ، وأطـالَ إليه ظمأ النفـوس وعَطَشها ، وأخلى مكانَهُ من طلعته التي تُطْلِعُ علينا من السرّورِ ما غرب ، وتؤنسُنا بغرائبِ الأُنْسِ والطَّرب ، وتصرَّفَ فكري في ما اقتضى ذلك فلم أَعْثُرْ على أمـرٍ عاذر ، ولا ظفرتُ بسبب ناصر ، ذهب وهمي إلى أنه استحدث ودوداً ، واستطرفَ [خِلاًّ] جديداً ، فترك هذا الأنام[6] حتى ينقعَ أُوامَهُ ، ويبرّدَ غرامه ، وحين ثَوَتْ هذه الظِنَّةُ في نفسي أَنْفَذْتُ فلاناً لاستيضاح الخبر ، فحكى أنه الفى مولايَ في الطبقة الدهيشية(؟) فَدَهِشَ لما رآه من مجلسٍ حسنٍ ، ومقامِ صبوةٍ وفِتَن ، وأمورٍ بديعة ، وأحوالٍ وسيعة، وفاكهةٍ لا مقطوعةٍ ولا ممنوعة ، وظبيٍ قد كَحَلَ بالسِّحْرِ لَحَظَاتِهِ ، وأطلق العقاربَ على وَجَنَاتِهِ ، ونظم السلوكَ في ثغره ، وأنبتَ ثَمَرَ الصِّبا في صدره ، يدير على مولاي كأساً :

اذا أَخَــذَتْ أطرافُــهُ من بحورها رأيتَ اللجــينَ بالمدام يُذَهَّبُ

---

١ ص : اذا لفعل ؛ ولعلَّ معناه : إنه يدير خطة لنيل منزلةٍ يصبح بها عمرو رغم دهائه دونه . ولفظة « يصيد » قد تقرأ « يصير » ، رغم وضوح الدال في الأصل .

٢ ص : للخوف .

٣ يعني يتجنب سورة السكر ، أي لا يعربد ؛ وفي ص : لعدف السررة .

٤ ص : ان تعادم وتفاتم وذلك ؛ والتفادم : التظاهر بالفدامة ، والتغاتم : التظاهر بالغتمة أي العجمة .

٥ ص : وأوحشنا .

٦ ص : هذه الأيام .

كـأنَّ بخــدَّيْهِ الــذي جاءَ حامـلاً   بكفَّيه من ناجودهــا [بــات] يُقْطَبُ

فطفقتُ متعجباً لما وصفه المخبر ، وحمد[ت] الله على صِدْقِ الحسِّ والتقدير ، وعذرتُ مولاي في التخلُّفِ عن الجامع ، واستيفاءِ النّهْلَةِ من هذه المشارع ، وأوْسَعْتُهُ ملاماً على التفرّدِ بهذه الحسنة ، والفاحشة المتبينة ، دون الشيخ أبي الحسن ، الذي ينحاز في فعله الحسن ، ويضلُّ في أدْنى ذلك السَّنَنِ ، اللهمَّ إلاّ أن يكونَ خاف أن يجريَ هذا الصديقُ على طاعةِ شيطانِهِ ، والبذاءِ على إخوانه ، والتدحـرجِ عن موضعه ومكانه ، ليتأبَّطَ في الليل شرّاً ، ويسيرَ إلى حيث تسكنُ الغزلانُ سرّاً ، وقد قرَّت أعضاؤُهُمْ نوماً وسُكْراً ؛ ومع هذا فأُوثِرُ من مولاي أن يُقْبِلَ على شانِهِ ، ويخفضَ قليلاً من عِنانه ، فانَّ الجاهَ صَدْعُهُ لا يُجْبَر ، والملقي بيده إلى التهلكة لا يُعْذر ، وقد شببنا عن هذه الحال ، فيحسنُ المتاب ، ويسمحُ بردّ الجواب[1] .

وله من أخرى :

لو رآني مولاي وقد أُرْشِفْتُ الخمرة فوجدتها مرارةً تُذَمُّ ولا تُحْمَدُ ، وتثيرُ كامنَ الحزن والكَمَد ، وتصفحتُ النِّدامَ فعدمتُ منهم أُنساً عن الناظر دونَ الخاطر ، وعدم تلك المحامد والمآثر . فأمّا الماءُ فالله يعلمُ أني اتجرَّعه ولا أكاد أسيغُهُ شوقاً إلى تلك الخلال التي هي أنقى منه أديماً ، وأرقُّ نَسيماً ، وأمسكُ للنفوس رَمَقاً ، وأكثر لذوي[2] الحاجات تدفقا :

خلائـقُ : إمّــا ماءُ كرمٍ[3] ترقـرقا   أُغَـادَى به أو ماءُ مُزْنٍ[4] تصفَّقا
كأنَّ الصَّبـا جَرَّتْ عليه ذيولَهَا   أصيلاً وفـأرُ المسـكِ عنهـا تفتَّقا

---

١ ص : وقل شيئاً من هذه الحال .. ويسمح برب الحراب .
٢ ص : ذوي .
٣ ص : إما ماؤكم .
٤ ص : موت .

وأما ارتياحي إلى الموالي السادةِ ـ حَرَسَ الله مُدَدَهم ، وكثّر بساحةِ المكارم عَدَدَهُمْ ـ فارتياحُ مَنْ رحَل وترك قَلْبَهُ عندهم ، وإني وإياهم لكما قال [الأول][1] :

لم ألـقَ بعدهـمُ قومـاً فأخْبَرَهم   إلاّ يزيدهُـم حبّـاً إليَّ همُ

وعلى القاضي السيد منهم السلام [١٨٦] خصوصاً ، لانّي أعلمُ عن صورةِ حاله في هذا الشهر ، واحتباس يده عن كأسٍ يحلبها ، وفمه عن قبلةٍ يَسْلُبُها ، وقدَمِهِ من الحانة الخمرية ، وزيارةِ الغيد الحورية ، فاذا حُلّتْ بمشيئة الله أنشوطةُ هذا العِقال ، وأطلعَ الله سبحانه عليه هلالَ شوال ، فأنِسَ وسْطَ القوم ، وأخذ بثأرِهِ من أيام الصوم ، فليذكرْ هناك صديقاً لم يَنْسَهُ وقد ضرب البينُ رواقَهُ ، وأطالَ الفراقُ اعتياقه . وأؤمل من الله تعالى أن يسهّـلَ من قُرْبِ الـدار ما يُعيدُ سِلْكَ المسَرَّةِ منظوماً ، والشملَ بحضرته السامية ملموماً ، فهي الحضرة : تهبُّ منها رياحُ العلاءِ ، وتحطُّ بها حقائبُ المدح والثناء ، وتُبدعُ في إسداءِ المِنَح والآلاء .

والبيت الذي أنشده لزياد بن منقذ الحنظلي أخي المرار العدوي .

قال ابن بسام[2] : وأراه أوّلَ من استثار معناه ، ومنه قول الآخر مما أنشده

---

١ سيذكر ابن بسام في مايلي أن قائل هذا البيت هو زياد بن منقذ الحنظلي أخو المرار العدوي ؛ ونسبه البغدادي في الخزانة (٢ : ٣٩٤) إلى المرار نفسه ، وروايته :

ومـا أصاحـب من قـوم فاذكرهم   إلا يـزيدهـم حبـاً إلـيّ هم

وزعم الحصري أن المرار هو نفسه زياد بن منقذ ، ونقل ذلك البغدادي عنه (٢ : ٣٩٥)، وجاء في بعض أصول زهر الآداب أنه أخو المرار ، حسبما ذكر ابن بسام ، وروى البيت كما جاء في الذخيرة (انظر زهر الآداب : ١٠٦٤) قال البغدادي (٢ : ٣٩٦) وزعم أبو تمام في الحماسة أن القصيدة التي منها البيت لزياد بن حمل بن سعيد بن عميرة (الحماسة رقم : ٥٧٧) وزعم الاصفهاني في الاغاني (١٠ : ٣٣٠) والخالديان في شرح ديوان مسلم ابن الوليد أن هذه القصيدة للمرار بن سعيد الفقعسي ، والصواب انها لزياد بن منقذ العدوي ، قاله ياقوت في معجم البلدان (مادة : صنعاء) قلت : ما ذكره عن الحماسة ثابت عند التبريزي ، وفي شرح المرزوقي : قال زياد بن حمل ، وقيل زياد بن منقذ ، وكذلك هو عند البكري ، في شرح الأمالي : ٧٠ ، وانظر العيني١ : ٢٥٧ وشرح شواهد المغني : ٤٩ وحاشية البكري : ٧٠ ؛ وكان من مناسبة القصيدة أن زياد بن منقذ رحل الى صنعاء فلم يحمدها ، فقال ذلك الشعر يذمها ويتشوق الى وطنه .

٢ يعتمد ابن بسام في اكثر هذا التعليق على زهر الآداب : ١٠٦٤ ـ ١٠٦٥ .

حبيبٌ في حماسته ، ويزعم دعبل أنّ هذا الشعر له[1] :

ولما أبـى إلا جماحـاً فؤادُهُ ولـم يَسْـلُ عن ليلى بمـالٍ ولا أهلِ
تسلى بأخـرى غيرهـا فاذا التي تسلى بهـا تُغْـري بليلى ولا تُسلي

وكان[2] ابن عرارة[3] السعدي مع سَلْمِ بن زياد بخراسان ، وكان له مكرماً ، فتركه وصحب غيره فلم يحمدْ أمرهُ ، فرجع إليه وقال[4] :

عتبـتُ على سَلْـمٍ فلما فقدتُهُ وجرَّبـتُ أقوامـاً بكيتُ على سلمِ
رجعـتُ إليـه بعـد تجـريب غيره فكان كبـرءٍ بعـدَ طولٍ من السقم

وأنشد المبرد[5] :

أخٌ لـيَ عاداه الزمـانُ فأصبحتْ مـذمّـةً فيما لديـه المطالبُ
متـى ما تُذَوِّقْـهُ التجـاربُ صاحباً من النـاسِ تَرْدُدْهُ إليكَ التجارب

وأنشد أيضاً[6] :

حياةُ أبـي العبـاسِ[7] زينٌ لقومِهِ لكلِّ امـرىءٍ قاسى الأُمـور وجرَّبا
ونعتـبُ أحيانـاً عليه ولـو مضى لكنَّا على الباقـي من النـاسِ أعتبا

---

١ الحماسية رقم : ٤٩٧ (١٢٩٢) في شرح المرزوقي ؛ وشرح المضنون : ٢٤٩ والزهرة : ٣٤ وأمالي القالي ١ : ٢١٠ والحماسة البصرية : ٢ : ١٧٣ وديوان ابن الدمينة : ٩٤ واللآلي في شرح الأمالي : ٥٠٢ (للحسين بن مطير) وديوان دعبل (تحقيق الأشتر) : ٣١٩ وديوان الحسين بن مطير (جمع محسن غياض) : ٧٠ وفي المصدرين الاخيرين تخريجات أخرى .

٢ النقل عن زهر الآداب : ١٠٦٤

٣ زهر الآداب : ابن أبي عرادة .

٤ هما في زهر الآداب ، والأول منهما في عيون الأخبار ٤ : ٤ لنهار بن توسعة ، واعتاب الكتاب ، ١٧١ (دون نسبة) والمستطرف ١ : ٢٣٣ لابن عرارة ؛ وبهجة المجالس ١ : ٦٥٧ (دون نسبة)

٥ زهر الآداب : ١٠٦٥ ونسبه للبحتري ، ولم أجده في ديوانه .

٦ زهر الآداب : ١٠٦٥ والكامل ٤ : ١٢٦ والثاني في عيون الاخبار ٤ : ٤ والعقد ٣ : ٤٥٥ وبهجة المجالس : ٦٥٧

٧ الكامل : أبي العوام .

وقال مسلم بن الوليد[1] :

حياتُـكَ يا ابــن سعدانِ بــن يحيى حيــاةٌ للمــكــارمِ والمعــالـي
جلبــتُ لك الثنــاءَ فكان عفواً ونفــسُ الشــكر مُطْلَقَــهُ العِقَالِ
ويُرْجعنـــي إليك وإن تناءَتْ[2] ديـاري عنـكَ تجـربـةُ الرجال

ويتطرَّفُ هذا المعنى أيضاً قولُ ابنِ الرقاع[3] :

وإذا نظــرتُ إلى أمــيري زادنيَ كلفــاً بـه نظـري إلى الأمراءِ

ومنه قول الرضي[4] :

ما ســاعدتنــي الليـالي بعـدَ بينكمُ إلاّ ذكرتُ[5] ليالينـا بذي سَلَمِ
ولا استجـدَّ فؤادي في الزمــانِ هوىً إلاّ ذكرت هوى أيامنــا القُدُمِ

ومن أخرى له عن الوزير الناصريّ[6] إلى بعض القبائل : معلومٌ أنَّ الله تعالى قد يأذَنُ للنِّعَمِ إذا خُصَّتْ بالشكرِ أن تستدني البَعيدَ القصي ، وتستأنسَ النافرَ الوحشي ، وإذا قُرِنَتْ بالكُفْرانِ يرحلُ منها القاطنُ ، وتستوحِشُ المعاطن؛ ووصل إليَّ ما كان منكم من الانحرافِ عن الحضرةِ السامية والتظاهـرِ بالخـلاف عليهـا ، فتحقَّقْتُ أنَّ الشيطانَ قد أعملَ فيكمْ كَيْدَهُ ، واستنفدَ في إضلالكم قُوَّتَهُ وَأَيْدَهُ ، وأَوْضَعَ بكم في مراعـيَ وَبِيَّة ، ودبَّ إليكم من طريقٍ خَفِيَّةٍ ، فزيَّنَ لكم غـيرَ الحَسَنِ ، وأوطأَكُمْ الجانبَ الأَخْشَن ، ووسمكم في أحياءِ العربِ بإخفار الذِّمَـمِ ،

١ زهر الآداب : ١٠٦٤ ـ ١٠٦٥ والكامل ٤ : ١٢٦ وديوان مسلم : ٣٣٦ والثالث في المستطرف ١ : ٢٣٣

٢ الكامل وزهر الآداب : وإن نأت بي

٣ البيت في الشعر والشعراء : ٥١٧ وتمام المتون ، ٣٣٩ ـ ٣٤٠ وقد أورده ابن بسام في القسم الثاني من الذخيرة : ١١٦

٤ ديوان الرضي ٢ : ٢٧٥ وقد ذكر ابن بسام أبياتاً من هذه القصيدة ١ : ٢٣٦٥ ٢ : ١٤٠ ، ٣٧٩

٥ الديوان : ما ساعفتني ... بينهم إلا بكيت

٦ لم يتوجه لي على وجه الدقة من هو الوزير الناصري ، ومما يزيد الأمر تعقيداً أنه يذكر « اللواء الحمداني » في هذه الرسالة ، ولعله ناصر الدولة الحمداني الذي استولى على اكثر أمور مصر أيام المستنصر ، وقتل سنة ٤٦٥ .

وكُفْرانِ النّعم . وأقولُ ما يجبُ أن يفهم : أَلمْ تصِلوا إلى هذه البلادِ فتعرفوا[1] بها العيشَ الوحشي ، وتحلُّوا فيها محلَّ الغريبِ الأجنبيِّ ، وتعيشوا عيشَ الغرثان الخميصِ ، وتَخطَّفَكُمُ العربُ تخطُّفَ الأَجدلِ للقنيص ، فجمعتِ الحضرةُ شتيتكم ، ووصلتْ مبتوتكم ، فليتَ شِعْري ما الذي سوَّلَتْهُ لكم أوهامُكُمْ ، وحدَّثتكم به أَحلامُكُمْ ؟! وايمُ الله لئنِ انقلبتم على الجَنَابِ الناصريِّ ، وانحرفتم عن اللواءِ الحمداني ، لتصبِحُنَّ أكلةً للعربِ ، يَخُطُّونَ أَعلامكم ، وَيُزَلْزِلونَ أقدامَكُمْ ، ويحمونكم ورودَ الماءِ المباح ، ويمنعونكم حَلاوةَ النَّعم المُرَاحِ . فراجِعُوا حلومكم العازبةَ ، وتجافوا عن ذنوبكم اللازبة ، وارْجِعُوا[2] إلى من ٱمتدَّ عليكم ظِلُّهُ والزمنُ هجير ، وصفا لكم وِرْدُهُ والعيشُ كدير ، فلو قد فارقتم جَنَابَهُ الفسيحَ لتفرقتم في الأرض شِيَعاً ، ونبتْ بكم مقرّاً وَمضجعاً ، وعثرتم عثرةً لا يقالُ لها [لَعَا] . وقد قلتُ ونصحتُ ، وبيَّنْتُ وأَوْضَحْتُ ، وسلكتُ مسلكَ الحَدِبِ الشفيق ، وبقي أن يمنحَ اللهُ حُسْنَ التوفيق .

ومن أخرى :

ما ٱعْتَمَدُهُ سيِّدُنا بالأمسِ معَ عَبْدِهِ من الإكرام خارقٌ للقضيَّةِ العادلة[3] ، ومحسوبٌ في الأَوْضَاعِ الحائلة ، وذلك أنْ كان مما [لا] يرفعُ الصيتَ وَيُبْعِدُهُ ، وَيُعْلي الجَدَّ وَيُسْعِدُهُ ، وَيُشْجي الحاسدَ وَيُغِصُّهُ ، وَيهيضُ جناحَ العدوِّ/[١٨٧] وَيَقُصُّهُ ، فان الرضى به[يعد] افصاحاً بالفهم القليل[4] ، ونكوباً عن محجّةِ التحصيل ، وما إخالُ سيِّدنا يَرْضَى لعبدِهِ بالدُّخولِ في هذا الحيِّز ، والخروجِ عن سِمَةِ المحقّقِ المميّز ، وليس يحبُّ ـ وإن اشتهر بالعلم شَغَفُهُ ، وزاد [على] ذوي الآداب حُنُوُّهُ وتعطُّفُهُ ـ أن يشيمَ لهم حَدَّه ، ويهضم علاه وجهده[5] . فان استهام بحب المآثر

---

١ ص : فتعدموا

٢ ص : وتصاموا عن ذنوبكم الكاذبة وراجعوا .

٣ ص : العادية .

٤ ص افصاحا بالعيم العليل .

٥ ص : وجحده .

والمساعي ، وقويتْ منه في إكرام أوليائِهِ الدواعي ، وأنشدَ عند قراءة هذا الفصل :

* لقذ حِكْتَ الملامَ لغير داع[1] *

ثم تجاوزتْ هِمَّتُهُ النهجَ البعيدَ ، وفرع ذؤابةَ الطَّوْدِ المشيد ، واستحسن قولَ الوليد[2] :

يُنْزِلُ أهلَ الآدابِ منزلةَ الـ أكفاءِ إن ناهَزُوه[3] في أدَبِهْ
لم يُزْهِهِ عنهمُ وهمْ سُوَقٌ في العين وطءُ الملوكِ في عَقِبِهْ

فعبدُهُ يسألُ أن يختصرَ عليه في الاكرام ، ويقفَ به دون ذلك المقام ، فاللمحةُ في البدرِ تضيءُ السبيلَ ، والقطرةُ من الماءِ تبرّدُ الغليل .

ومن أخرى : .

معلومٌ أنَّ الزمانَ قد عادانا بِعُجابه[4] ، ونَهَشنا بأنيابه ، وأدار علينا من صرُوفِ أحداثِهِ كؤوساً ، وجعل كلَّ غريبٍ لنا أنيسا ، ولما خرج عن حُكْمِ العادةِ ، وسلكَ في مولاي غيرَ الجادَّة ، وأودعه عوارفَ يضيقُ عنها باعُ الكتاب ، وقذف إليه أقاصي خطوبِ الخطاب ، علمنا أنه قد أصاب رُشْدَه ، وأوجبَ حمده ، وأطلعَ شمسَ النهارِ من مشرقها ، ووضع تاجَ الرياسةِ على مَفْرِقِها .

ومن أخرى : .

خلَّد اللهُ أيامَ الحضرةَ الأفضلّيةِ[5] ، ما فَضَلَتِ الأسماءُ حروفاً ، وتقدَّمَتْ واوُ

---

١ ص : واع .

٢ ديوان البحتري : ٢٤٣

٣ الديوان : شاركوه .

٤ ص : بعجائبه

٥ يعني بالحضرة الأفضلية : الافضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي ، تولى الوزارة حين مرض والده سنة ٤٨٧ زمن الامام المستنصر ، وظل على الوزارة في أيام المستعلي ثم الآمر إلى أن اغتيل سنة ٥١٥ (الإشارة الى من نال الوزارة : ٥٧ ـ ٦٤ وابن خلدون ٤ : ٧٠) فان كان ابن أبي الشخباء قد توفي سنة ٤٨٦ فهذه الرسالة مما أنشأه في الأفضل قبيل توليه الوزارة ، يهنيه بابلاله من مرض .

العطفِ معطوفاً ، ولزمتِ الأَفعالُ اشتقاقاً وتصريفاً :

يُلْفَى عليهـا الحمـدُ موقوفـاً وفي عَرَصاتهـا شُـمُّ الملـوكِ وقوفا
وتعيد سطـوتُهَـا سماءَ عـداتها كِسَـفـاً وبـدرَ سُعُودِهِـمْ مكسوفا

ولَجَ سمعَ العبد في هذه الساعةِ نبأٌ جمحَ عن أَفهامِه ، وتصامَمَ عن استماعه ، تعاشياً عن صُبْحِهِ المبين ، وتغليباً للشكِّ على اليقين ، وخوفاً على العزِّ الشامخ أن يُصْحِبَ شَموسُه ، والمجد [الباذخ] أن تكوَّرَ شُموسُه ، والمحامدِ أن تُنْثَرَ كواكِبُهَا ، والمناقبِ أن تَتَزَلْزَلَ مناكبها . ولما تلاهُ الخبرُ بما أصمتَ ناعقَهُ ، وكذَّبَ بارقَهُ ، ونطق بأنَّ الجسم الشريفَ قد التفعَ شملةَ الإبلالِ ، وعاد مزاجُهُ الى الاعتدال ، أطال العبدُ في التُّرْبِ تعفيرَ خدِّه ، وبالغ في شُكْرِ الله وَحَمْدِهِ ، فيا لها نعمةً عَدَلَتْ بها أَحكامُ الزمانِ الجائرة ، واهتدت ركائبُ الآمالِ الحائرة ، وأصبحَ الملكُ المستنصريّ سائلَ الغرة ، ضاحكَ الأسرّة ، [والحضرة] قد تمكنت في خطابها ، وما نزعت بُرْدَ شبابها ، وامتدَّتْ بعدَ القُلُوصِ أفياؤُهَا ، وأضاءَتْ في ظُلُماتِ الخطوبِ آناؤها :

واللـهُ أكرمُ أنْ [يعـذّبَ مهجةً] غُذِيتْ بأَخـلاطِ العـلا أعضاؤها
فاذا طمت جسـم الخطوبِ [عرامةً] [أربـى على] فيض الحياء حباؤها
لو كان يُنْـكِرُ ملكَهَـا [رُتَـبَ] العلا أحـدٌ لكان شهـودَهـا أعداؤُها
ثابـتْ بك الأيّامُ عن جهلاتها وتـوقَّـرتْ من أهلهـا سُفَهاؤها
وبعـدلِ حُكْمِـكَ زالَ عنّـا ظلمها وبنـورِ مجـدك أَشـرقـتْ ظلماؤها
نارُ اعتزامـك ما يبـوخُ ذَكاؤها وسماءُ عـزِّك ما تغيـبُ ذُكاؤها[1]
وعِـراصُ فَضْـلِكَ لم تضـقْ أرجاؤُها وعفـاةُ جودِكَ ما يخيـبُ رجاؤها

فالحمدُ لله الذي منح الأمّة من نعمةٍ أصبحت النوائبُ بها قد دَرَجَتْ أيامها ،

[1] هذا البيت والتالي له وردا في الخريدة : ١٥/أ

وَهُدَّتْ من المخاوفِ أعلامُها[1] ، والبخلُ قد هُدِمَ بنيانُهُ المرصوص ، والكرمُ قد ريشَ جناحُهُ المقصوص . ولم يبقَ له سحاب إلا وهو يُغْدِقُ ويَهْمَع ، ولا منادىً إلاّ وهو يلبِّي وَيَسْمع[2] :

يا ماجداً نَصرَ الشريعةَ حيثُ لا ... بيضٌ تُشام ولا ذوابلُ تُشْرَعُ

والنَّصبُ منصوبُ اللواء وشائعٌ ... في أهلِهِ بُغْضُ الذي يتشيّع

عَمَّت عوارفُهُ[3] فما من موضعٍ ... إلا ونائلهُ إليه مُوْضِعُ

سائلْ به ودمُ الفوارس سائلٌ ... يُسقاه ظمآن الترابِ فينقع

واليومُ قد كتبتْ[4] سنابكُ خيلِهِ ... نَقْعاً جبينُ الأُفقِ منه مُقَنَّع

فهناك تلقى الصدر لا متضايقٌ ... والرَّوْعَ لا نخب الضلوعِ مروَّعُ

والشَّمْسُ تهوى أنْ تقبّلَ كفَّه ... فتُذَادُ بالسُّمر اللدانِ وتمنع

فاقنعْ بما ملكتْ يداكَ من العُلا ... إن كنتَ بالشهب الثواقب تقنع

فأما حال العبد فعلى الحالة التي يؤمِّلُ من الحضرةِ العلية كشفَ ضبابها ، وانتكاثَ أسبابها ، وكأنه من العبودية يقتضي ألا يُغِبَّه مُزنُ مكارمها ، ولا تتجاوز عنه جفونُ مراحمها ، فيصبح وقد حفَّتْ به الشدائد/ [١٨٨] وضاقت عنه المصادرُ والموارد ،

أتتركني يا دهرُ في البؤس مفرداً ... ومالِكُ رِقّي مُفْرَدٌ فيكَ واحدُ

إذا هِمَمُ الأقوامِ شابَتْ وأظلمتْ ... فهمّاتُهُ بيضُ الوجوه خرائدُ

فيا قاضي الدِّين الذي قام حَافظاً ... حِماهُ وكلٌّ واهنُ العزم[5] قاعدُ

---

١ ص : وصدت في ... عيانها .

٢ الأبيات ٣ ـ ٧ من هذه المقطوعة وردت في الخريدة : ١٥/أ ـ ١٥ ب

٣ الخريدة : مواهبه .

٤ الخريدة : نسجت

٥ ص : الحزم .

ومــن سادَ أهــلَ العصر طُرّاً وألفيتْ   له في عِراص الفرقــدين وسائد
أنــاديك في نادٍ يحفُّ بيَ الرَّدَى   وتنــزلُ فيـه النــازلاتُ الشدائد
تخاطبنــي فيـه الخطـوبُ فصيحةً   ويُســهـرُ عينـي ضيّقُ العــين باردُ
يطارحنــي صوتــاً ، سروريَ ناقصُ   إذا هو غنّانــي وهـمّــيَ زائـد

وللحضرة العالية الأفضلية ، الرأيُ العالي في انتياش العبدِ من هذه الغماءِ ، وكأنَّ ما تهبُ له من العنايةِ زكاةُ عما ملأَّها الله من رزق الزمان ، ومكَّنَهُ لها من قواعد العزِّ والسلطان ، وتقرباً إليه جلَّ اسمه اذا انشقت [السماء] فكانت وردةً كالدهان .

قوله : فهناك تلقى الصَّدْرَ .. البيت ، كقول المعتمد بن عباد[1] :

وأردتــمُ تضييقَ صَـدْرٍ لم يَضِقْ   والسُّــمْرُ في ثُغـرِ الصـدورِ[2] تَحَطَّمُ

وقال المعتمد أيضاً في صفة [مجلس] ، من شعر قد تقَّدمَ إنشاده[3] :

هذي المدامُ وهـذا النقـلُ من جَسَدي   غنّ لنفسـكَ أشعــاري بألحاني

وله من أخرى :

أطال اللهُ بقاءَ الحضرةِ السامية الصارميّة[4] ، ما عُظِّمَ رجب في الإسلام ، ولجَ الضياءُ في الظلام ، وَوُشِّيَتِ الطروسُ بأسنة الأقلام :

تَرِدُ العُفــاةُ شرائعــاً من جودها   نُسِخَــتْ بهـنَّ شرائــعُ الإعدامِ

---

١ ديوان المعتمد : ٦٧ وقلائد العقيان : ١٦ والذخيرة ٢ : ٥١

٢ القلائد : النحور .

٣ لا أراه تقدَّم في الذخيرة ، كما أنه ليس في ديوان المعتمد .

٤ يريد بالحضرة الصارمية : صارم الدولة بن معروف ، وقد أورد ياقوت (٩ : ١٧٥) رسالة أخرى من ابن أبي الشخباء اليه افتتحها بقوله : أطال الله بقاء الحضرة الصارمية ، يجري القدر على حسب أهويتها، ويعقد الظفر بعزائم ألويتها .. الخ .

وتـرى قلائـدَ حَمْدِهَـا وثنائها منظـومـةً بتـرائـبِ الأيـام
وإذا عَصَـتْ نُوَبُ الزمـانِ وخالفتْ وقفـتْ لديكَ مواقـفَ الخدّام

إذ كانت أيامُ الحضرةِ العاليةِ شاهدةً لها بجـودٍ يريشُ أجنحـةَ الـكرامِ المقصوصة[1] ، ويقومُ بفرائضِ المجدِ المنصوصة ، وحلـمٍ تُطْلِـقُ القـدرةُ عنانَـهُ ، ويستعيرُ الجَنَانُ رُجْحَانَهُ ، ووفاءٍ يعلّمُ الدهرَ حفظَ العهود ، وينقلُ طَبْعَهُ إلى الخلقِ المحمود ، ورأيٍ يقطعُ والسيوفُ مُغْمَدَةٌ ، ويسري والعُوذُ العتـاقُ مقيَّدة ، وبشرٍ يُخْجِلُ ضوءَ الشارق ، ويضيءُ في جبينها إضاءَةَ البارق ، وجودٍ[2] تأمرُ مكارمُهُ الزمانَ لينتصرَ بالصارم ذي الفضائل ، لا الصارم ذي الحمائل ، وينتجعَ الأنواءَ المظفرية ، فَيَهتَتِنُها لها بالشهرِ والسنة حفظاً للسنَّة المرتَّبة ، لا اعتماداً على القضيّةِ المستوجَبَةِ ، والله تعالى يديمُ أيّامَهَا الزاهرة ، دوامَ نِعَمِها المتظاهرة ، فانّ ذلك يَرْوِيه القريبُ والشاطِنُ[3] ، ويتمثّلُ به المقيمُ والظّاعِنُ :

ومـرَّتْ بكَ الأيامُ وهـي كوافلٌ بنَيْلِ الـذي ترجـوهُ منهـا ضوامنُ
فيا صارمـاً أثنـتْ عليه عُدَاتُهُ وأَصْـدَقُ مَنْ يُثْنـي العـدوُّ المباين
وفـتْ بشروطِ الجـودِ في المحـلِ كفُّهُ ومزنُ السَّحـابِ الجَـوْدِ للأَرضِ خائن
يُضيفُ إلى إنعامِـهِ بشرَ وجهه كما جمـع الحكمـين في الحـجِّ قارِنُ
ولـولا الـذي قدمـتُ من حسناته لما وُجِـدِتْ للـدَّهْـرِ فينـا محـاسن
فلا سرُّه ما بيـن عينيـه ظاهرٌ ولا حقـدُهُ ما بـين جنبيه كامن
صفـتْ لك من صَفْـوِ السُّعـودِ مواردُ وجـادَتْ عليك المُعْصِرَاتُ الهواتن
تُقَسِّـمُ طولَ الدهـرِ أمنـاً وخيفةً فمالـك مرعوبُ [وعِرْضكَ آمن]

١ ص : المخصوصة .
٢ ص : ووجد
٣ الشاطن : البعيد النائي

وله من أخرى :

أطال اللهُ بقاءَ الحضرةِ السَّاميةِ معمورةً بوفود السعادةِ ديارُها ، مشـ[ـدودة الى] قَصْدِهَا أنساعُ العِيرِ وأكوارُهَا ، مفلولةً عنها أنيابُ النُّوَبِ وأظفارُهَا ، ولا زالَ من مدَّ الظلَّ ولو شاء جعله ساكناً[1] ، يمدُّ عليها الظلَّ ما سرى في الليل سَفْر ، وطلع في السَّماءِ غَفْرٌ[2] ، وخرج عن أيدي الكرامِ وَفْرٌ ، وأَنِسَ بالركبان مهمهٌ قفر :

يَطُوعُ لها العاصي من الخطبِ عِزَّةً ... وَيَدْخُلُ قَسراً تحت أحكامِهَا الدهرُ
ولا زال يُعلي في الخليقةِ أمْرَها ... على كلِّ أمرٍ مَنْ له النهيُ والأمر

وفي فصلٍ منها :

يا صارماً حازَ الثناءَ بأَنْعُمٍ ... لا تنقضي أوقاتهنَّ فتنقضي
لما انْتَضَتْهُ يدُ الإمام تحققَّتْ ... هذي البريّةُ حُسْنَ رأي المنتضي
متواهنٌ عن كل جُرْمٍ طَرْفُهُ ... فاذا رأى أكرومةً لم يُغْمِض
علقتْ يداهُ بكلِّ لدنٍ أسمرٍ ... يومَ اللقاءِ وكلِّ عَضْبٍ أبيض
وتراهُ حين تضيقُ أثوابُ العلا ... متمايساً في السؤدد المتفضفض/ [١٨٩]
يا عاشقَ العليا وَمُبْغِضَ مالِهِ ... نفسي فداؤُكَ من محبٍّ مبغض
لا تسألنّي عن زماني هل بَدَتْ ... ليَ منه صفحةُ مُقْبلٍ أو مُعْرِضٍ
أنت الزمانُ فإنْ وَجَدْتُكَ ساخطاً ... يسخطْ عليَّ وإنْ رضيتَ فقد رضي
كم قَوَّضَتْ يمناكَ عنّا شدةً ... لولاك بعدَ الله لم تتقوض
ونهضتَ من ثقلِ المعالي بالذي ... لو سيم يَذْبُلُ بَعْضَهُ لم ينهض
[وبقيت تُسْهِرُ][3] كلَّ طرفٍ للعدا ... وتحلُّ هَضْبَ سعادةٍ [لم تُخْفَضِ]

١ من قوله تعالى « ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظلَّ ولو شاء جعله ساكناً » (الفرقان : ٤٥)

٢ الغفر : منزل من منازل القمر ، ثلاثة أنجم صغار وهي من الميزان .

٣ بياض في ص .

[وتقطف][1] من إنعـام الحضرتـين ثماراً ، وتعيدُ جَدْبَ[2] الزمـانِ ربيعـاً ، وَتُفيضُ على بني الآمالِ ربيعاً ، فقد وَفَتْ لها حين خانتِ اليدُ بنانَها ، وسئمتِ الضلوعُ جَنَانَها ، وصدحتْ بالكلمةِ العَلَوِيَّةِ على المنبر ، وسهامُ العدا تقع خلفاً وأماماً[3] ، ورهجُ خيولهم يَسْحَبُ على الموت غماماً ، وكم لها من مقامٍ نتقَ قلوبَ العداةِ نتقاً ، وجمع قُطْرِي الرسالة فتقاً ورتقاً ، فلا قلَّص الله ظلَّها عن هذا الثغر الذي يكادُ ترابُهُ بكرمها يورق ، ونبتُهُ[4] بحسنها يُشرِْق .

ومن أخرى له :

شهرُ الصيامِ [ذو] فضلٍ مشهور ، ورتبتُهُ عَلَت[5] جميعَ الأيامِ والشهور ، فما تُنْتَهَكُ للشرع فيه حُرُماتٌ ، ولا تُسْمَعُ للأوتارِ نَغَمات ، ولا تنطقُ باللغو أفواه ، ولا ترشفُ رُضابَ الكؤوس شفاه ، واذا اعْتُبرتْ أوقاتُ الحضرةِ المنصورة ، وُجِدَ أكثرها على هذه الصفةِ المذكورة ، إلاّ أنّ الشهر اختصَّه الله بشرفِ القضية ، وفرض صيامَهُ على جميع البريّة ، فلا زال على الحضرة العالية عائداً ، ولها للأعمال الصالحةِ شاهداً : تطلعُ في لياليه الحسناتُ شموساً ، وتجمعُ بين الشفقِ والفَلَقِ تسبيحاً وتقديساً ، خاطرةً[6] في جلابيب عزٍّ يعتلقُ الدهر بأسبابه ، وكرمٍ يَغْرَقُ البحرُ في عبابه ، ومجدٍ تعشو النيراتُ إلى أنواره ، وتعتصمُ الملوكُ الخائفةُ بجواره ، وتتربُ بمكارمها الأيدي التربة ، وتثبتُ بسعدها بروجُهُم المتقلّبة ، ويجدون ترابها في أفواههم عسلاً ، وفي أجفانهم كَحَلاً ، ويرون وظائفَ النُّوبِ عنهم تُرْفع ، وآنفَ الحوادثِ تُجْدَع :

١ يبدو أنه وقع في هذه الصفحة تقطيع تداخلت فيه نهايتا سطرين ، مما أحدث خللاً واضطراباً في النصّ
٢ ص : تعيد أحدب .
٣ ص : وأمما .
٤ ص : ونبتها .
٥ ص : على .
٦ ص : ناظرة .

قد ودَّ هذا الشهرُ أنّ هلالَهُ أضحى على غُرَرِ الشهور [يُرَفَّعُ]
أَلْبسْتَه تقوى وأَلْبسَ حُلَّةً من سرمدٍ وكلاهما لا ينزع
وبرزتَ في جيشٍ تَغَصُّ به الفلا وترى ذُكاءَ بنقعه تتقنَّعُ
لجبٍ شكتْ كفُّ البسيطةِ ثِقْلَهُ حتى لكادتْ تحته تتصدَّع
لا بدّ تُعْرَفُ بالعراق[1] جيادُهُ ونسيمُ ذكركَ فوقها يتضوع
وعلى مَطَاها دارعون سيوفُهُمْ تدعُ السَّرابَ كأنما هو أَيْدَع[2]
وتقيم شرعَ بني النبيِّ بأرْضِهِ والبيضُ تُرْعَفُ والذوابلُ تُشْرَع
لم ترضَ معروفَ العوارفِ نفسُهُ فتراه يُغْرِبُ في السَّماح وَيُبدع
واذا تمنَّى المالُ يُودَعُ كفَّهُ خابتْ أمانيه وباتَ يُوَزَّع[3]
تركتْ سيوفُكَ كلَّ خالعِ طاعةٍ وفؤادُهُ من خوفِ بأسك يُخْلَعُ

ومن أخرى :

لقد أسعد الرحمنُ مَنْ بات ثانياً إليكَ عنانَيْ رغبةٍ وثناءِ
اذا ما الحيا جاراكَ في حَلْبَةِ الندى رمى فوق فَوْدَيْهِ قناعُ حياء
وما يتساوى قطُّ بحرٌ وجدولٌ ولا كلُّ أعضاءِ الفتى بسواء
وأنت سماءُ الملك وابنك شمسُهُ وهل نُظِرَتْ شمسٌ بغير سماء
إذا لم تحطْ نظماً ونثراً بمدحِهِ فما حيلةُ الكتاب والشعراء
فككتَ إساري مُنْعِماً وتركتني لآلائك الحسنى من الأُسرَاء

والذي جعلَ الأرضَ بساطاً يبسطُ قدرها في الآفاق ، ويجعلُ أيامها ينابيعَ الارزاق ، حتى لا ينطق بسوى شكرِها لسان ، ولا يُرَى لغيرها على أحدٍ إحسان .

---

[1] ص : بالفراق .
[2] الأيدع : صبغ أحمر .
[3] ص : يودّع .

وفي فصل من أخرى :

وحضر فلان ، وعليه من نعمته آثار قد حلّتْ عَطَلَه ، وسَدَّتْ خَلَلَهُ ، وظهر في زيٍّ يكبتُ كلَّ عذولٍ وشامت ، وينطقُ بالمنّةِ عنه وهو صامت ، وقد سيّر من ذلك ما سيّر غوراً ونجداً ، ونظم في ترائبِ الأيامِ منها عِقْداً ، ولا زالتْ مننه لذوي الآداب قاطِرَة ، وعِراصُهُ بلطائمِ الثناء عاطِرَة ، يتغايَرُ النثرُ والنظمُ على مدائحهِ ، وتفيض على العافين غروبُ مواهبِهِ ومنائحه . ولما اعتزم العودةَ إلى ذلك الظلِّ المديد ، والعيش الرغيد ، زوَّدْتُهُ هذه الرقعةَ مستدعياً له الزيادةَ من كرم العادة ، والحظوظ السَّنِيةَ المستفادَة .

ومن أخرى :

أُنبئتُ ـ أطال الله بقاءَ مولاي ـ بشيءٍ أنا فيه مكذّبٌ ومصدّقٌ ، ومدافِعٌ ومحقّق ، واحتجت بحكم ذلك الى مطالعته ، وعلم كنه حالته[1] ،

فالخِلُّ كالماء يُبدي لي ضمائرَهُ   مع الصفاءِ وَيُخْفيها مع الكَدَرِ

عرفتُ أن هذا الراقصَ البغدادي قد رفض مودته خَلْفا ،وسلك به من الخلافةِ[2] عسفا ، فوصله وهجر ديوانَهُ ، وأرضاهُ وأسخطَ خِلاَّنه ، واستبذل فيه مصوناً من قدره ، واستذلَّ عزيزاً من تأتّيه وَبِرِّه ، وصار يهبُ النفس بلمسةٍ [من] إهابه ، وجميعَ سَقْي النيل برشفةٍ من رضابه ، وينشدُ إذا تراكضت خيولُ اللهوِ واللعب ، وغلظ عليه قولُ اللاحي المؤنب :

غزالٌ تمتعتُ في قُرْبِهِ   ونازعني الكاسَ حتى غَلَبْ
إذا ما تَنَفَّسَ في نَوْمه   تَنَفَّسَ عن مثلِ ما قد شرب

---

١ كنه حالته : قراءة تقديرية ، اذ هذا الجانب من الصفحة قد طمس .

٢ الخلافة هنا بمعنى الخلاف .

فيا ليلُ ليتكَ لا تنقضي ويا صبحُ ليتك لا تقترب

فوجدتُ والله من إشاعةِ هذه الحال ما يجدُهُ الخائفُ غاب واقيه ، والسليمُ عَدِمَ طبيبه وراقيه ، خوفاً على جاه مولاي أن يميل ، وَيَشْنُعَ فيه القالُ والقيل ، فيصلَ إليَّ من المصاب بذلك ما يُعْشي الناظر ، ويخذلُ الناصر ، لاسيّاً والنسبُ حظُّهُ من الشرف الخطير ، وقسطُهُ من الإعظام والتوقير ، والصغيرُ يُعَدّ به كثيراً ، والحصاةُ تُحْسَبُ معه ثبيراً ، ولو كان مولاي مدَّ على هذه السقطة سَجْفاً ، وشرب ذلك العُقارَ مَزْجاً لا صِرْفاً ، لجاز أن تخفى القِصَّة ، وتَنْساغَ قليلاً هٰذه الغُصَّةِ ، فالعقلُ نعمَ الرقيب ، والليلُ نهارُ الأديب[1] . ويجبُ أن يتحقَّقَ مولايَ أني ما أَطلقتُ هذه اللفظة إلا وقد حَصِرَ الكتمان ، والتقتْ حلقتا البطان ، وسَمِعْتُ ما يُصِمُّ الآذان .

وله من أخرى[2] :

ما زال يختارُ الزمانُ ملوكَهُ حتى أصابَ المصطفى المُتَخَيَّرا
قل للألى ساسوا الورى وتقدّموا قُدُماً هلموا شاهدوا[3] المتأخرا
تجدوه أوسعَ في السياسةِ منكمُ صدراً وأحمدَ في العواقب مَصْدَرَا
إن كان رأياً شاوروه أحنفاً أو كان بأساً[4] نازلوه عنترا
قد صام والحسناتُ ملء كتابِهِ وعلى مثالِ صيامِهِ قد أفطرا
ولقد تخوَّفَكَ العدوُّ بجهده لو كان يقدرُ أن يردَّ مقدَّرا

---

١ قوله « الليل نهار الأديب » فيه إشارة إلى قصة ليحيى البرمكي حين بلغه أن ابنه الفضل قد تشاغل باللذات عن النظر في امور الرعية ـ وكان والياً بخراسان ـ فكتب إليه يلومه . وضمن رسالته أبياتاً يقول فيها :

فكابد الليل بما تشتهي فانما الليل نهار الأديب

انظر ابن خلكان ٤ : ٢٨

٢ منها ثلاثة عشر بيتاً في الخريدة : ١٦ ب وأحد عشر في ابن خلكان ٢ : ٩٠ وقال ابن خلكان : وقد اقتصرت منها على هذا القدر خوفاً من التطويل .

٣ الخريدة : هلم فشاهدوا .

٤ الخريدة والوفيات : رأي ... بأس .

إنْ أنــت لم تبعــثْ إليه ضُمَّراً جُرْداً بعثــتَ إليه كيداً مُضْمرا
تسري ومــا حملت رجــالُ أبيضاً فيه ولا ادرعــت[1] كمــاةٌ أسمرا
خطــروا إليـك فخاطــروا بنفوسهم وأمَــرْتَ سيفـك فيهــمُ أنْ يخطرا
عجبــوا لحلمــك أن[2] تحــوّل سطوةً وزلالِ خُلْقِـكَ كيف عادَ مكدّرا
لا تعجبــوا من رقــةٍ وقساوةٍ فالنــارُ تقــدحُ من قضيبٍ أخضرا
فلـذاك عدَّكَ حــين يعــرضُ عارضٌ وُسْطَـى البنـانِ وعـدَّ غــيرك خنصرا
لــو رام قُسْطَنــطينــةً لا جلّقــاً[3] بك لم يَدَعْ في أرضــهــا متنصّرا
ولقـد قضــتْ آيُ الكتــابِ لكلِّ مَنْ نصر الشريعــةَ أن يعــانَ وينصرا

فلا برحتِ الحضرة ـ حرس الله أيامها ـ تفترُّ[4] عن مباسمها الحسان ، وتفتخرُ بمناقبها قبائلُ غسَّان ، فلو شاهد أهلُ جفنةَ[5] جِفانَهَا ، وأهلُ جَبَلَةَ بـنِ الأيهـم ضِرابهَا وَطِعَانَهَا ، لعلموا[6] أنَّ الله أتاحَ السماحةَ والبسالة ملكاً منهم يحفظُ ما ضيَّعَهُ الناسُ من عهودها ، ويسرِّحُ ما ذَخَرُوهُ من نقودها ، فما يزيدُ المدحُ مناقبَهُ ضياءً ، ولا مراتبَـهُ اْعتـلاءً ، وإنمـا هو في ذلك كالمسـكِ يطيبُ بنفسـه[7] طبعـاً ، ويزيد المحارض[8] تضوعاً ونشراً ، وإن أطال العبدُ في نشر فضائلها مِقْوَدَه ، واستخدمَ في ذلك لسانَهُ وَيَدَهُ ، فانما هو كَمَنْ يوقدُ في الشمسِ ذُبَالاً ، وَيُهْدي الى الفراتِ نطافاً أوْشــالاً ، والذي مدَّ الأَرض وجعل فيها رواسَي وأنهاراً ، يجعلُ أمدادَ[9] النعيم على

١ ص : ادعرت ؛ والتصويب عن ابن خلكان ، وفي الخريدة : اعتقلت ؛ وهو أدق .
٢ الخريدة : عجباً لحلمك إذ .
٣ ص : لا حلعاً . ولم يرد هذا البيت في الخريدة
٤ ص : تعبر
٥ جفنة : الغسانيون .
٦ ص : لعلم
٧ ص : لنفسه .
٨ كذا في ص ، ولعله : ويزيد في المجامر .
٩ ص : امتداد .

الحضرةِ مُغْدِقَةً ، ووفودَ المواهبِ بساحاتها مُحْدِقَة ، ويمتّعُ الدنيا بمحاسنها التي يتطامَنُ لها ذوو الأبصار ، وتتأرّجُ تأرُّجَ القَطْرِ في جميعِ الأقطار .

وله من أخرى :

فولجتُ منزلاً قد استعار من قلبِ العاشق حَرّاً ورَهَجاً، ومن أخلاقِ مالكِهِ ضيقاً وحَرَجاً[1] ، كأنما زَفَرَتْ فيه النار ، ونُقِّطَ على جُدْرَانِهِ[2] بالقار ، فجلستُ طويلاً إلى أن حضر الإخوان ، وقُدِّم الخوان ، فرأيتُ أرغفةً قد أُحْكِمَتْ في الصِّغر والإلطاف ، ولم تتعوَّدْ قطُّ من الأضياف ، قد مرَّت عليها أيام ، وعُنِيْت بقولِ ابن بسَّام[3] :

أتانا بخبزٍ له يابسٍ كمثلِ الدراهم في خِلْقَتِهْ
إذا ما تنفَّسْتُ عندَ الخوانِ تطايرَ في البيْتِ من خفَّتِهْ

وثلاثةِ صحافٍ ، واسعةِ الأكناف ، بعيدة الأوساط من الأَطراف ، قد جُعِلَ في قرارةِ كلٍّ منها ما [لا يَدْفَعُ السَّغَبَ ،ولا تجدُهُ/[١٩١] اليدُ إلاّ بالتَّعبِ ، فجُلْنا جَوْلةً وعينُهُ تطرف علينا شمالاً ويميناً ، وتتفقَّدُ منا حركةً وسكوناً ، وقمنا ولم نقاربْ الكفافَ ، وقد ظَنَّ بنا الإسرافَ ، فحضرنا مجلسَ المعاقرة فأُديرتْ علينا قهوةٌ قد خُصَّتْ باللون الكدر ، وكُثِّرتْ بالماءِ الخَضِرِ[4] ،

كالمُهْلِ تَغْلي في البطونِ لو أنها يَوْماً تُعَدّ لكافرٍ لم تَحْرُمِ

فَحَسَوْنَا أوّلاً وثانياً ، وَكَرَعْنَا منها حمِياً آنياً ، وقلنا لعلَّ ما يحضر من الملهيات يُصْلِحُ فاسِدَهَا ، وينفِّقُ كاسِدَهَا ، ولم يكنْ بأسرعَ من أنْ افتتحتْ قَيْنَةٌ يَحْرُمُ لها السماعُ ، وتستلذُّ الصممَ الأسماعُ :

١ ص : وحربا .
٢ ص : ولقط على جدراته .
٣ هو عليّ بن بسام البغدادي (ـ ٣٠٢ أو٣٠٣) وقد مرَّ ذكره في عدة مواطن من الذخيرة ، انظر مصادر ترجمته في
٤ القسم الأول : ١٤٢ (الحاشية : ٣)
٥ الخضر : يريد ماء فيه طحلب ، للمبالغة ، والا فقد تقرأ « الخصر » .

تُكْدِرُ صَفْوَ الراحِ في شَدْوِهَا وتنفرُ الأنقارُ[1] من ضَرْبِهَا
لم تكنِ العلجةُ مطبوعةً بل كان مطبوعاً على قلبها

فسمعنا ولأمرِ الله سَلَّمنا ؛ فحين جرَّ الظلامُ علينا الذَّيْلَ[2] ، وغشَّى النهارَ الليلُ ، زُفَّتْ إلينا خريدةٌ رأسُهَا مقطوع ، ووسطها مشغوبٌ مرقوع[3] ، قد حَفِظَتْ عن عادٍ عَهْدَهُ ، واستعارتْ من يأجوجَ قَدَّهُ ، تبص كعيونِ الجنادب ، وتضيء في الظلماء كنارِ الحباحِبِ ، فقوَّضنا خياماً ، وسكرنا همّاً لا مُداماً ؛ فالحمدُ لله الذي صدَّ مولاي عن هذا المقام وَمَنَعَهُ ، وحَمى عمَّا حضرناهُ مُسْتَمَعَهُ .

وله من أُخرى إلى نفيسِ الدولة يستدعيه :

أنا ـ أدام الله تمكُّن مولاي ـ كالماء تتفرَّقُ أجزاؤُهُ فيلتئم، وكعِرْقِ الفصادِ تُمَزِّقُهُ المباضعُ[4] فيلتحم؛ وذلك أنه ـ أدامَ الله عزَّهُ ـ ارتدَّ عن شريعة الوداد ، ودانَ في دينِ المحافظة بالإلحاد ، واستعمل [من] الجَفْوةِ ما ينفّرُ الطَّرفَ عَن هُجُوعِهِ ، وَيُوحِشُ الصدرَ من صُحْبَةِ ضلوعه ، فقسوتُ عليه أيّاماً ، وأوسعتُهُ[5] في النفسِ ملاماً ، ووجدتُ طعمَ السلوة طيّباً ، والصبرَ من الصَّبرِ عنه ضَرَباً ، وتشخَّصَتْ لِيَ أخلاقُهُ مُرَّةَ المقاطف ، خَرِبَةَ المكاسرِ والمعاطف :

وإذا أفاق الجحدُ واندمل الهوى رأتِ القلوبُ ولم تَرَ الأحداقُ

فما هو [إلا] أن اجتمعتُ به اليومَ في المجلسِ المعمور حتى هبَّتْ عليَّ رياحُ صفاتِهِ فطبَّتْ تلك الكلومَ ، وجدَّدَتْ تلك الرُّسُومَ ، وأَرَتْني المُخْفَر من عهوده مخفوراً،

---

١ ص : الأنفار .
٢ ص : جرى ... الليل .
٣ ص : مشغوف مرفوع .
٤ ص : المضابع .
٥ ص : وأزمعته .

والمُحْصَى من ذنوبِهِ منسيّاً مغفوراً ، فاستحال السلوُّ شَوْقاً مبرِّحاً ، والناضرُ[1] من المَعْتَبة هشيماً مُصَوِّحاً :

وما زال داعي الشوقِ حتى أجَبْتُهُ ... بمطروفةٍ تَدْمَى لواهي الأناملِ

وَصَدَرَتْ هذه الرُّقْعَةُ وأنا أَوَدُّ كَلَفاً ، لو كنتُ فيها أَلِفَا ، تفاؤلاً بعودةِ رياحِ الأُلْفَةِ ، وتسكيناً للقلب من نَزَواتِ الرَّجْفَةِ :

من الوفاءِ وفاءُ لا يُغَيِّرُهُ ... مَرُّ الزمانِ بإعراضٍ وإقبالِ

وعندي الآن ذاك الصديقُ الذي يخطفُ العقولَ ويُذْهِبها ، ويُغيرُ على الألباب وينتهبها ، ويحطِّمُ الرماحَ كِرانُهُ ، ويؤمَنُ في مضمارِ المسرَّةِ خوانُهُ ، وليس والله تُتَصَوّرُ لي الأقداحُ ، وَتُلْثَمُ مراشفُ الراح ، إلاّ ومولايَ يحاسيني كؤوسَها ، ويجهِّز إليَّ خميسها ؛ وأسألُهُ أن تكونَ قراءَةُ هذه الرقعةِ وقد ركبَ سَمْتَ الطريقِ ، وقابل الأَمْرَ بالتحقيق .

وله من أخرى ، وقد قُبِضَ على الوزير وقتَ الظهر ، وأُفْرِجَ عنه في العشاء الآخرة :

من كَرَمِ اللهِ وجزيلِ إسعافِهِ ، وجميلِ صُنْعِهِ وألطافِهِ ، أنْ جُعِلَ سيدنا كالنُّجوم تغيبُ ثم يرتفعُ في غدٍ سَمْتُها ، أو كملكةِ الشطرنج يقال : قد فاضَتْ ثم تعيشُ لوقتها ؛ وقُضِي لحضرته بأَنْ تزلَّ الخطوبُ عنها زليلَ التراب عن مَتْنِ الصَّفا ، وتتحاماها النوائبُ [في هبوطها] وطلوعها ، منذ خَطَرتِ الشمسُ في الحللِ الجلّنارية ، إلى أنْ صارت في [الثياب] السُّوسِيَّةِ . ونزل سيّدنا إلى دارِهِ بالسَّعدِ المُصْحِب ، وفي

---

[1] ص : والناظر .

الموكبِ المتلاغط اللجب ، وترك الوزارةَ تدعو[1] مَنْ زانهَا وجمَّلها ، لمن رقع هَلْهَلَهَا وَسَمَلَها[2] ، وإن أكتأبَتْ لِبُعْدِهِ ، وَعَبَقَتْ أعطافُها بلطائفِ مجده :

يضـوعُ ثَرَاهـا بالنَّـدى فتخالُها رياضـاً وكانـت قبـلُ وَهْـي صوائحُ
صفـا جوُّهـا بعـد الـكدورِ بِعَدْلِهِ وطابـت حشاياهـا الـظماءُ القوامحُ[3]

فالحمدُ لله على ما منَّ من سُرْعةِ الإِقالة ،وانقضاب تلك الحبالة، وتفضَّلَ به من حُسْنِ الرعاية والكفالة ، ولا زالت مواهِبُهُ ـ جلَّت آلاؤُهُ ـ تقعُ عند سيدنا من وراءِ الاقتراح ، وتسخَّرُ له أعطافَ الغدوِّ والرواح .

وفي فصل من أخرى[4] :

وصلتْ رقعةُ مولايَ والصبحُ قد سلَّ على الآفاق مِقْضَبهُ ، وأزالَ بأنوارِ الغزالة غَيْهَبَهُ ، فكانت بشهادة [الله][5]/[١٩٢] صُبْحَ الآدابِ ونهارَهَا ، وثمارَ البلاغةِ وأزهارها ، قد توشَّحَتْ بضروبٍ من الفضل تعطيه[6] قاصية المدى ، وَتُجْرِيهِ[7] في مِضْمارِ الأدب مُفْرَداً :

فكأنَّ روضَ الحَـزْنِ تنشره الصَّبا ما ظلـتُ من قِرْطَاسِهَـا أتصفَّحُ

فأمّا ما تَضَمَّنَتْهُ من وصفي فقد صارت حضرته [السامية][8] تتسمَّحُ في الشهادةِ بذلك مع مناقشتها في هذه الطريقة ، وأنها لا تُوقِعُ ألفاظَها إلاّ في مواضع الحقيقة ،

---

١ كذا في ص ، ولعله « تدع »
٢ ص : وشملها .
٣ الظماء القوامح : قراءة تقديرية . فالخط باهت كثيراً تصعب قراءته .
٤ أورد ياقوت (٩ : ١٥٧) هذه الرسالة وقال ان ابن ابي الشخباءكتب بها إلى أبي الفرج الموفقي جواباً عن رقعة.
٥ الكلمة مطموسة في الأصل ، واعتمدت في اثباتها على معجم ياقوت .
٦ ياقوت : تقصر .
٧ ياقوت : ويجري به .
٨ زيادة من ياقوت .

فإن كنتُ قد بَهْرَجْتُ عليها فلتراجعْ[1] فيَّ نقدها[2] ، تجدني لا أستحقُّ من ذلك الإسهاب فَصْلاً ، ولا أُعَدُّ لكلمةٍ واحدةٍ منكم أهلاً ؛ والله يُنْهِضُني لشكرِ هذا الإنعامِ الذي يقفُ عليه[3] الثناء ويظلَعُ ، ويَحْصرُ دونه البليغُ[4] المِصْقَعُ :

هيهات: تُعْيي الشمسُ كلَّ مرامقٍ ويعوقُ دون منالِهِ العيُّوقُ

وفي فصل[5] :

وأما الفصلُ الذي ذكر أنه ألفاه في رسائل الكتاب وهو[6] : « وأمّا فلان فيحلُّ في قومِهِ محلَّ العميد ، ويفرحُ بالضيوفِ فَرَحَ حنيفةَ بابن الوليد ، قدوُرُهُ عَمّارية ، وَعَطَساتُ جواريه أسديّة ، تراهُنَّ أبداً يمشين في حُلَلِ الشباب ، ويهوين لو خُلِقَ الرجالُ خَلْقَ الضِّباب ، يتضوَّعْنَ عن النشر العبقَسِّي ، ويرتضعن مراضعَ ثُعالةَ المجاشعي » . [وما أَمَرَتْ حضرتُهُ الساميةُ من ذكرِ ما فيه عندي ، فقد تأمَّلتُهُ طويلاً ، وعثر الخادم فيه بما أنا ذاكره ، راغباً في الرضى بما بلغت اليه المقدرة وتجليلِ ذلك بسجوفِ الصَّفح][7] .

قوله : « فَرَحَ حنيفة بابن الوليد » أشار الى ما قتل خالد بن الوليد المخزومي من بني حنيفة ؛ وقوله : « قدوره عمّارية » أشار الى قول الفرزدق[8] :

---

١ ص وأصل ياقوت : فتراجع
٢ ص : بعدها .
٣ ياقوت : عنده
٤ ياقوت ، الخطيب .
٥ انظر ياقوت ٩ : ١٥٨ ـ ١٦٣
٦ ياقوت : الذي أودعه الرقعة الكريمة .
٧ هذه الزيادة من ياقوت ضرورية للربط ، وتوثيق نسبة الشرح إلى ابن أبي الشخباءلا الى ابن بسام ، وفي ايراد هذه الشروح يعتمد ابن بسام الايجاز .
٨ ديوان الفرزدق ١ : ٣٢٦

لو أن قِدْراً بكتْ من[طولِ ما] حُبِسَتْ على الحفوف[1] بَكَتْ قدرُ ابنِ عمّار[2]
ما مسَّها دَسَمٌ مذ فُضَّ مَعْدِنها ولا رأتْ بعد نار القَينْ من نار

وقوله : « عَطَساتُ جواريه أسدية » فأراد قولَ الأوّلِ في هجاء بني أسد :
إذا أَسَديةٌ عطستْ فنكها فان عُطاسَها طَرَفُ الوداق[3]

وقوله : « يهوين لو خُلِقَ الرجالُ خَلْقَ الضباب » فذكر الجاحظُ أنَّ للضب أيرينِ وللضبّةِ حِرَيْن[4] ، وأنشد قول النميريّ[5] :
تفرقتمُ لا زلتمُ قِرْنَ واحدٍ تفرُّقَ أيرِ الضبِّ والأَصْلُ واحدُ

وأنشد قول القائلة[6] :
وددتُ بأنَّه ضبٌّ وأني ضُبَيْبَةُ كُدْيَةٍ وَجَدَتْ خلاءً

وأمّا قوله : « يتضوَّعْنَ عن النشرِ العبقسّي » فانَّ من أمثال العرب : هو أخسرُ صفقةً من شيخِ مهوٍ[7] ، ومهوُ بطنٌ من عبدِ القيس ، وكان من خبره أنَّ إياداً كانت أَفْسَى العرب ، فوفد وافدُهُمْ إلى الموسم بسوقِ عكاظ ، ومعه حُلّةٌ نفيسة

---

١ على الحفوف : قلة من الدسم ؛ وفي ياقوت : عن الحقوق (مع أن أصله : على)

٢ الديوان : ابن جيار ، وبهذه الرواية يضطرب الاستدلال اذ يجب ان يقول « قدوره جيارية »

٣ البيت في الاغاني ١٢ : ١٨١ منسوب لكثير عزة (ديوانه : ٣٨٩) وروايته : اذا ضمرية عطست .

٤ انظر الحيوان ٦ : ٧٢ وانظر أيضاً ٤ : ١٦٣ ـ ١٦٤

٥ ص : قول البحتري ؛ وأورده الجاحظ (الحيوان ٦ : ٧٢) دون نسبة ؛ وإنما رواية الخبر كله عن أبي خالد النميري لا البيت وحده ؛ وقال الجاحظ ان البيت مما أنشده الكسائي . وفي ياقوت (٩ : ١٦١) وأنشد الأصمعي لابن درماء فيما رواه أبو خالد النميري .

٦ هي عند الجاحظ وياقوت حبّى المدينة .

٧ المثل في الدرة الفاخرة : ١٤٠ (أحمق من ..) والعسكري ١ : ٣٨٨ والزمخشري ١ : ٨٢ وثمار القلوب : ١٠٦ واللسان (فسا) ؛ واسم الشيخ عبد الله بن بيدرة ، وفي نقل ابن بسام إيجاز مخلّ ؛ فان الايادي نادى ألا إني رجل من اياد فمن ذا الذي يشتري عار الفسو مني ببردي هذين فقام الشيخ العبدي فقال: هاتهما ، فأتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، وحينئذ أشهد عليه الايادي من شهد الموسم بعكاظ .

فقال : يا معشرَ العرب إني قد بعتُ فساءَ إيادٍ لوافدِ عبد القيس بحلتي هذه ؛ وافترقا راضيين ، وقد شهد عليهما أهلُ الموسم ، فصارت عبدُ القيس أفسى العرب .

وقيل لابن مناذر[1] : كيف الطريقُ إلى عبد القيسِ ؟ قال : شمَّ ومُرَّ ،

فانَّ عبدَ القيسِ من لؤمها تفسو فُساءً ريحُهُ يَعْبَقُ
من كان لا يدري لها منزلاً فقلْ له يمشي ويستنشق

وأما مراضع ثعالة فيقال : هو أَعْطَشُ من ثعالة[2] ، رجلٍ من بني مجاشع ، كان ضلَّ الطريقَ هو وابنُ عمٍّ له ، فعطشا ، فالتقم كلٌّ واحدٍ منهما أير صاحبه يشربُ بوله ، فلم يُغنيا عنهما شيئاً وماتا عطشاً ، فوجدا على تلك الحال ؛ ولذلك قال جرير يعيّر بني دارم[3] :

رضعتُم ثم بال على لحاكم ثعالةُ حين لم تجدوا شرابا

وقيل : ثعالة : الثعلب ، في تفسير هذا الخبر عن ابن حبيب ، وخالفه ابن الأعرابي وحكى ما ذكرناه ، وأنشد أيضاً قول جرير[4] :

ما كان يُنْكَرُ في غَزِيّ[5] مجاشعٍ أكلُ الخزيرِ ولا ارتضاعُ الفَيْشَلِ

وله من أخرى يعزّي بموتِ ولدِ فخرِ الدولة غريقاً[6] :

---

١ هو محمد بن مناذر شاعر بصري مات في أيام المأمون (الأغاني ١٨ : ١٠٣ والشعر والشعراء : ٧٤٧ وطبقات ابن المعتز : ١١٩ ومعجم الادباء ١٩ : ٥٥)

٢ ورد المثل في الدرة الفاخرة : ٣٠٩ والعسكري ٢ : ٧٠ والميداني ٢ : ٤٩ والزمخشري ١ : ٢٤٨

٣ ديوان جرير : ٨١٨ وروايته « ثم سال »

٤ ديوان جرير : ٩٤١ والدرة : ٣٠٩ والنقائض : ٢٢٣ والمعاني الكبير : ٥٨٥ واللسان والتاج (فشل)

٥ الديوان : نديّ ؛ ص : عديّ

٦ وردت هذه الرسالة في جمهرة الإسلام ، الورقة : ٦٨ وأنها في رثاء ولد كافي الكفاة وبين النصين اختلاف ، كما ان الرسالة في الجمهرة اوفى مما هي في الذخيرة .

غيرُ بِدعٍ من الزمان ـ أطال الله بقاء[حضرة][1] سيدنا ـ أن تُنْكَثَ حبالُهُ، وتَصرَّد نبالُهُ، وتراشَ في قصدِ الكرام سهامه [وتُرْهَفَ نصالُهُ] وتفهقَ بالغَدْرِ فجاجُهُ، ويمزجَ[2] بالسُمِّ أُجَاجُهُ، ويُثارَ في النفوس عجاجه[3]. ولذلك عرفتِ النفوسُ مواقعَ نُكْرِهِ، وأنِسَتْ بغرائبِ[4] غَدْرِهِ ومكره، واطمأنَّتْ الضلوعُ وقد أصمت ضرائبه[5]، وهجعتْ العيونُ وقد استيقظتْ نوائبه، فقلَّ ما يُرَاعُ رَوْعُ بما جناه، وتجذلَ نفسُ/[١٩٣] بما منحه وأقناه. فاذا اصطلم [يوماً] أنف المجد [و]جدع، [وفطر قلوب المكارم وصدع]، وخرج عن العادةِ المألوفةِ فابتدع، فهناك يحسنُ أن تُطْلَقَ بذمِّه الأَلْسُنُ، ويجبُ أنْ يُلْقَى بجيشِ اللَّوْمِ اللَّجِبِ.

ولما طرق الفادحُ بمن لا أسميه تفادياً[6] من تحقيقِ الخبرِ بمصرعِهِ، وصوناً له من مَوْرِدِ الحِمامِ وَمَشْرَعِهِ، رأيتُ[7] المحامدَ ذات نورٍ خامد، والمآثر ذاتَ عِقْدٍ متناثر، والقمرَ قد سئم هالَتَهُ، والصُّبْحَ قد خلع[8] الليلُ عليه غِلالَتَهُ، وشاهدتُ الكتابة مقصورة المدود، والبلاغة مخموشة الخدود[9] والأَدبَ قد اسودَّتْ سِحْنَتُهُ، واشتدَّتْ على الزمن[10] وامتدت إحنته، إذ طرق بما يتجاوزُ القدرَ، ويُوحِشُ الأَضالعَ من صحبةِ الصَّدْرِ.

١ زيادة من جمهرة الإسلام.
٢ الجمهرة: وتجدع (اقرأ: وتجدح)
٣ قدمت هذه العبارة وقد تأخرت عن هذا الموضع في ص، اعتماداً على جمهرة الإسلام وحفاظاً على تسلسل الاسجاع وكانت في الاصل: ويثار في قصص الكووس عجابه.
٤ الجمهرة: وأنس بعرف.
٥ الجمهرة: صوائبه.
٦ الجمهرة: تباعداً.
٧ الجمهرة: رأى
٨ الجمهرة: ألقى.
٩ الجمهرة: شواهد البلاغة متصرمة المدود والكتابة مرسومة الحدود.
١٠ الجمهرة: على الدهر

شمسُ العـلا غَرَبَـتْ بحيثُ ترى   أبـداً غروبَ الشـمـس والبدرِ
من بـرِّه بكَ أن يُخَـطَّ له   جَنَـنٌ بقـربِ عطائـكَ الغمر[1]
وكأنمـا هـو دُرَّةٌ دُفِنَـتْ   في جَنْـبِ ما ولـدت من البحر[2]
وتنـزَّهَـتْ عن أنْ يصـافحهـا   سَـمْـكٌ[3] الصـفيح وظلمـة القبـر

فتعالى الله كيف استُرِدَّ ذلك البدرُ قبل تمامِهِ ، وذبل ذلك الزَّهرُ في كمامه[4] ، قبل أن تشرف بموكبه الأعلام ، وتَرْوَى من بنانِهِ الأقلام ، ويَعْبَقَ دَسْتُ الوزارةِ بنشره ، وَيُنْشَرَ رميمُ السيادةِ بطيّه ونشره ، و[يتاح] للطروسِ من ألفاظه الدريّة ما يَفْضَحُ[5] العقودَ الدريّةَ ، وَتُعَسْعِسُ معه الليالي البدريّة .

وقبـلَ يُرى من جودِهِ ما رأيتَهُ   ويسمـعَ فيه ما سمعـتَ من العذلِ

هذا والله هو المصابُ الذي تستعذِبُ فيه الحلومُ هَفَواتِها[6] ، وتفارقُ له القلوبُ سُوْيداواتِهَا ، وتستخفُّ النفوسُ حَمْلَ الأوزار ، وتأنف العيون[7] من لقائهِ بالدموع الغزار ، حتى تجعل ذلك دابَهَا ، وتخضبَ بالنجيع [أهدابها ، إلا] أنه نزل بالحضرة[8] ممن شُدَّت بالتقوى[9] مريرتُه ، وتساوَتْ في طاعة الله علانيته وسريرته ، فالجزع لا يصبحُ مالكَهُ ، والخطوبُ لا تخطبُ تهالُكَه ، والنازلُ يُطيفُ منه بالعَوْدِ البازل ، الذي يتحقَّقُ أنَّ الدنيا نسيمُها شرَار ، وطعمهَا مرار ، والمقيم فيها مُوجِفٌ ، والرائد مُنْبَتٌّ مُعْجِفٌ .

١ لم يرد هذا البيت في الجمهرة
٢ الجمهرة : ما وليت من النحر .
٣ الجمهرة : صمّ
٤ الجمهرة : قبل إكمامه .
٥ الجمهرة : وتتيه الطروس من الفاظه الدرية بما يفضح .. الخ
٦ الجمهرة : النفوس فواتها
٧ الجمهرة : الجفون
٨ الجمهرة : نزل من الحضرة العالية .
٩ الجمهرة : شزرت (أو سورت) من التقوى .

وذكرتُ بهذا الفصل ما أنشدته لبعضِ أهلِ عصري يصف غلاماً وسياً [عامَ فانحسر منه العزم ونجا][1] بعد أن أشرف على الموت من جملة أبيات :

شجاني المقام الصَّعْبُ لما شهدتُهُ ... وقد ضاقتِ الأَنفاسُ والنفسُ تذهبُ

وقد بهُتت فيه اللواحظُ إذ رَنَتْ ... إلى درَّةٍ تطفو[أواناً] وترسب

كأنَّ خليجَ الماء كان مجرَّةً ... وأنت بها شمسٌ تلوحُ وتغرب

كُسيت اصفرار الروضِ عند ذبوله ... ولكن على الحالين مرآك أعجب[2]

عدا الماء من ماءِ الصبا فيكَ غيرة ... وما خلتُ أن الماء للماءِ يَغْضَبُ

ستبقى بهذا النهرِ للناس عبرةٌ ... مؤرّخةٌ في الكتب تتلى وتكتب

وتبنى على شاطي نجاتك كعبةٌ ... يحجُّ لها بالحبِّ مَنْ يتقرب

وله من أخرى :

لديّ[3] ـ أطال الله بقاء مولاي الشيخ ـ نفسٌ ترى النِّعَمَ مع المهانةِ نِقماً ، وتجدُ طَعْمَ العيشِ مع عَدَمِ الإنصافِ عَلْقَماً ، ولو سُمْتها خروجاً عن هذا الأسلوب ، ونزولاً عن ذلك الظهر المركوب ، لرأتِ الخروجَ من الصدرِ أَخَفَّ عليها محملاً ، وأَعْذَبَ لديها مَنْهَلاً :

* لكل امرىءٍ من دهرِه ما تعوَّدا[4] *

وهذا بثٌّ اقتضاه كثرةُ تعجّبِ مولايَ من انقطاعي عن الحضرة التي بأنوارِ مجدها تَوَضّحْتُ ، وفي بحبوحة عزِّها دُرْتُ وَسَرَحْتُ ، وما أَطلقَ من الأَلفاظِ التي لو حاسب لسانَهُ عليها لأَنِفَ من ذكرها ، واستغفر من إثمها وَوِزْرِهَا ، وقبيحٌ بمثله ممن

---

١ هذه القراءة بحسب المعنى لعدم وضوح الالفاظ في ص .

٢ هذا الشطر غير واضح في ص .

٣ ص : لسيدي

٤ صدر بيت للمتنبي ، عجزه : وعادة سيف الدولة الضرب في العدا .

أعطاه السؤددُ مقادَتَهُ ، وركبَ مَتْنَ الشرف وجادّته ، أن يأكلَ لحم أخيه حيّاً ، ويرى غِيبةَ خُلْطانِهِ طعاماً مريّاً ، ولو عرف أَصلَ ذلك وَفَرْعَهُ ، وناجتْ به الحقيقةُ لسانه وَسَمْعَهُ ، فكيف أن يُزْري وهو لا يدري ، ويتكلم وهو لا يعلم ، ويستحسن قواريضَ من القريض تترك شملَ المحامدِ مُفَرّقاً ، وأَديمَ الأَعراض ممزقا . ولقد كنتُ مُزْمِعاً على فراق العادة ، واتباعِ قولِ ابن ميادة[1] :/[١٩٤]

وحِكْتُ لهم مما أقول قصائداً   تخبُّ بها صُهبُ المهارَى وَجُونُها

ورأيتُ أنْ أنبّهَ مولاي على ما أنكرته : أن يكونَ بين أمرين : إمَّا أن يسأل عن السببِ الموجبِ لبعدي عن تلك الحضرة ، أو يمسكَ عن الخوضِ في مالا تحيطُ به الخِبْرة ، فلعلَّهُ إذا علم الحقيقةَ مهّد المعذرَةَ ، وبرَّد لَفَحاتِ اللومِ المستعرة ، وتبين[2] أني ما ثنيتُ عناني عن هذا المورد إلا وقد ترنَّقَتْ مشارِعُه ، ولا زويتُ وجهي عن ذلك المنتَجع إلاّ وقد ذوتْ مراتِعُهُ ؛ وبعد ذلك فبين أضلعي ولاءٌ تشتبكُ أَواصِرُهُ والأَنسابُ منفصمة ، ويشرقُ صباحُهُ وأَسرَّة الشمس مُظْلِمَةٌ ، اذا حفَّتْ به الحفائظ رقَّ نسيمه ، وتساوى في الإخلاص حديثُهُ وقديمه :

فان أُنْصَفْ فان يداً تولَّتْ   كسوري تهتدي لمكانِ جبري
وإن أُحْرَمْ قضاءَ العدلِ أَرْجِعْ   إلى كَنَفَيْنِ من هجرٍ وصبر

---

١ من قصيدة له أورد أبو الفرج أبياتاً عديدة منها (الأغاني ٢ : ٢٦٣ - ٢٦٤) ومطلعها :

ألا حييا الأطلال طالت سنينها   بحيث التقت ربد الجناب وعينها

إلا أن البيت لم يرد في الأغاني وانظر شعر ابن ميادة (جمع الدليمي) : ١٠١ (رقم : ١٥٣)

٢ ص : ويتبين .

انتهـى

القسم الرابع من كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة وبكماله كمل جميع الديوان ، والحمد لله على ذلك كثيراً وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وسلم تسليماً . وذلك ضحوة يوم الأحد السابع من شهر ربيع الثاني سنة ست وعشرين ومائة وألف عرفنا الله خيرها ، ووقانا بمنه سوء كل ضير .

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

والحمد لله رب العالمين

فهارس الكتاب

فهرس الأعلام

- إ -

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- ش -

- ص -

ـ ظ ـ

- ع -

ـ ف ـ

- ق -

ـ ك ـ

ـ ل ـ

- م -

- ن -

فهرس القبائل والأمم والطوائف

ـ أ ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

- خ -

- د -

- ر -

- ز -

- ص -

- ط -

- ع -

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

- م -

- هـ -

- ي -

فهرس الأماكــن

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

- س -

- ش -

- ص -

- ع -

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

فهرس الكتب المذكورة في المتن

فهرس القوافي

ـ الألف المقصورة ـ

ـ الهمزة ـ

ـ ب ـ

ـ ف ـ

- ق -

- ك -

ـ ل ـ

مصادر التحقيق [1]

كتاب الآداب لجعفر بن شمس الخلافة ، القاهرة ، ١٩٣٠
الابانة عن سرقات المتنبي للعميدي تحقيق ابراهيم الدسوقي البساطي ، القاهرة ١٩٦١
ابن حمديس للسفا والمنشاوي ، القاهرة ، ١٩٢٠ .
ابن حمديس للمستشرق فرانشسكو جبرابيلي (بالايطالية) ، روما
الاستيعاب في معرفة الاصحاب لابن عبدالبر ، تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة
أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ، طهران ١٣٤٢
الاشارة الى من نال الوزارة لابن الصيرفي تحقيق عبدالله مخلص ، مصر ١٩٢٤
أنساب الاشراف للبلاذري (٤/١) تحقيق كستر ، القدس ١٩٧٢
الإيجاز والاعجاز للثعالبي (ضمن خمس رسائل) ط . الجوائب ١٣٠١
البحر المحيط لأبي حيان الجياني (جـ ٢) مصر ، ١٣٢٩
بغية الطلب لابن العديم (صورة عن نسخة خطية بمكتبة الجامعة الاميركية في بيروت)
تاريخ المسبحي (جـ ٤٠) نسخة الاسكوريال
تبصير المنتبه لابن حجر العسقلاني تحقيق البجاوي والنجار ، مصر ١٩٦٤
التبيان في شرح ديوان المتنبي للعكبري ، القاهرة ١٩٣٦
التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبدالله محمد تحقيق محمد بن شريفه (الرباط)
الثعالبي ناقداً وأديباً لمحمود عبدالله الجادر ، بغداد ١٩٧٦
جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام بمدينة فاس لابن القاضي (الرباط ١٩٧٣)

---

(١) لا يرد هنا إلا المصادر التي لم تذكر في المجلدين الثاني والثالث .

الخريدة للعماد الاصفهاني (مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس رقم ٣٣٢٨)
دراسات في الأدب الاندلسي لاحسان عباس ووداد القاضي والبير مطلق (الدار العربية للكتاب ، ليبيا ـ تونس) ١٩٧٦
الدرجات الرفيعة لعلي خان بن أحمد بن محمد الحسيني ، النجف ١٩٦٢
الدرة المضية لابن أيبك الدواداري (جـ ٦ من كنز الدرر) تحقيق صلاح المنجد القاهرة ١٩٦١
دمية القصر للباخرزي (ط . حلب)
ديوان ابن المعتز (١ ـ ٣) تحقيق الدكتور يونس احمد السامرائي ، بغداد ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ .
ديوان ابن هرمة تحقيق محمد جبار المعيبد ، النجف ١٩٦٩
ديوان امية بن ابي الصلت جمع وتحقيق عبدالحفيظ السطلي ، دمشق ١٩٧٤
ديوان الحسين بن مطير جمع الدكتور محسن غياض ، بغداد ١٩٧١
ديوان دعبل بن علي الخزاعي تحقيق محمد يوسف نجم ، بيروت ١٩٦٢
ديوان دعبل بن علي الخزاعي تحقيق عبدالكريم الاشتر ، دمشق ١٩٦٤
ديوان الشريف المرتضى (١ ـ ٣) تحقيق رشيد الصفار ، القاهرة ١٩٥٨
ديوان المزرد بن ضرار تحقيق خليل ابراهيم العطية ، بغداد ١٩٦٢
ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ، بيروت ١٩٠٨
رسالة اعلام الكلام لابن شرف (في سلسلة الرسائل النادرة) القاهرة ١٩٢٦
رسالة الاعلام الكلام لابن شرف تحقيق وترجمة شارل بلا ، الجزائر ١٩٥٣
رسالة الغفران لابي العلاء المعري تحقيق بنت الشاطىء ، القاهرة (الطبعة الثانية)
رسائل ابي العلاء المعري تحقيق مرجوليوث ، اكسفورد ١٨٩٨
رسائل البلغاء جمع محمد كرد علي ، القاهرة ١٩٤٦
رجال النجاشي طهران
روضات الجنات للخوانساري ، طهران ١٣٦٧

ريحانة الالبا للخفاجي (جـ ٢) تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، القاهرة ١٩٦٧
سحر البلاغة للثعالبي ، وقف على طبعه احمد عبيد ، دمشق .
شرح ديوان زهير، دار الكتب المصرية ١٩٤٤
شرح العكبري = انظر التبيان
شرح المضنون به على غير اهله لابن عبدالكافي ، القاهرة ١٩١٣
شرح المقامات للشريشي (جـ ٥) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٦
شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ط مصر ، ١٣٢٩)
شعر ابن اللبانة جمع محمد مجيد السعيد ، الموصل ١٩٧٧
شعر ابن ميادة جمع محمد نايف الدليمي ، الموصل ١٩٦٨
شعر عروة بن حزام جمع ابراهيم السامرائي واحمد مطلوب بمجلة كلية الآداب ـ العدد الرابع ، بغداد ١٩٦١
صبح الأعشى للقلقشندي (جـ ١٤)
صوان الحكمة المنسوب لابي سليمان المنطقي تحقيق عبدالرحمن بدوي ، طهران ١٩٧٤
طبقات الفقهاء للشيرازي تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٠
طيف الخيال للشريف المرتضى تحقيق الصيرفي والابياري ، القاهرة ١٩٦٢
العرب في صقلية لاحسان عباس ، بيروت ١٩٧٤
عيار الشعر لابن طباطبا العلوي تحقيق زغلول سلام وطه الحاجري ، القاهرة ١٩٥٦
عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي (جـ ١٢) تحقيق فيصل السامر ونبيلة عواد ، بغداد ١٩٧٧
عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي (مخطوطة الفاتح رقم : ٤٤٤١)
غرر الخصائص الواضحة للوطواط ، القاهرة ١٢٩٢
فقه اللغة للثعالبي تحقيق السقا والابياري وشلبي ، القاهرة ١٩٣٨

الكشاف في التفسير للزمخشري (جـ ١ ، ٢) ط . مصر . ١٩٦٦
مجالس ابي العباس ثعلب تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة
مذكرات الامير عبدالله تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٥
مرآة الجنان لابي محمد اليافعي ، حيدر أباد الدكن ١٣٣٧ ـ ١٣٣٩
المرقبة العليا للنباهي تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨
المستطرف للابشيهي ، مصر ، القاهرة ١٩٥٢
معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسي ،القاهرة ، ١٩٤٧
معجم الفاظ الحديث لفنسنك وآخرين ، لندن ١٩٣٦ ـ ١٩٦٩
مفاتيح العلوم للخوارزمي (ط . مصر)
المقترح في جوامع الملح (نسخة جامعة برنستون)
المكتبة الصقلية جمع أماري ، ليبسيا ١٨٥٧
المنازل والديار لاسامة بن منقذ ، موسكو ١٩٦١
منتهى الطلب لابن ميون (النسخة الاستانبولية)
النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف لعبد العزيز الميمني ، القاهرة ١٣٤٣
الهفوات النادرة للصابي تحقيق صالح الاشتر ، دمشق ١٩٦٧
الوحشيات لابي تمام ، تحقيق عبدالعزيز الميمني ، القاهرة ١٩٦٣
الورقة لابن الجراح تحقيق عبدالوهاب عزام وعبد الستار فراج ، القاهرة ١٩٥٣

محتويات الكتاب

بعونه تعالى
نجز طبع هذا الجزء من الذخيرة
على مطابع بيروت كومبيوتر برس
هاتف : ٣١٣٥٣٠ . ص.ب : ٢٠٣
في آذار (مارس)١٩٧٩